صفحة كتاب الله
في كتاب الله

تأليف
الدكتور ياسين خضبان

المجلد الأول

دار الكتبفاء
صفحتك في الإسلام
في كتاب نور الله
الإهداء

* إلى الذين آمنوا وؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وأتبعوا إيمانهم بإحسان.

أهدي هذا الكتاب.

المؤلف
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله- تعالى- المنعم المفضل جد الشاكرین، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آلله وأصحابه والتابعين، صلاة وسلما ملائئمين دائمين من قلب المحبين.

أما بعد:

صفة كتاب الله في كتاب الله... قادنى إلى هذا العمل رغبتي بالوقوف على بعض ما قيل في هذا القرآن العظيم، واستوثقنى أول إشارة إليه في ثاني سورة منه بدايةها ﴿الْمُكْتِبُ﴾ (62)، وكان بداية الطريق لعمل استغرق منى عمراً، ما فرحت بوقت مضى من عمري بما فرحت بتقاطع هذا الوقت مع كتاب الله تعالى: "أقرأ آياته، أتذكر تزيله، أسعد كلما وقفت على آية فيها ذكر القرآن أو ذكر صفة من صفاته وقرأت الأسفار الكثيرة والتفاسير البسيطة والشهيرة، وعشت مع جهد الصالحين من عباد الله، الذين أفنا أعمارهم في خدمة كتاب الله- تعالى، في أي علم، أو فن، أو جهد يبدله في تدبر هذا القرآن. وكلما واجبنت نفسي قاربت أعود ثانية إلى البداية... وهكذا... ما أحلى هذه الأيام التي قضيتها في تصنيف هذا الكتاب ربما لا أكون قد قدمت جديدًا في هذا; فإن مجرد كتاب الله لا شواطئ ولا مراسي له، وكلما غاص فيه الغواصون، وجدوا غاياتهم من اللؤلؤ والعجب العجاب، ولذلك فقد فرث- إن شاء الله تعالى- بشيء نادر وبسيط وقليل من هذه اللآلئ التي يملئ بها هذا البحر... وهذا الكتاب العظيم.

قد أكون في بعض الأماكن أبدى رأيًا، أو أرتح لرأي، أو أعجب مقال فاذركه ولعل القارئ الكريم بعد ذلك يعذرنى إن صحل خطاً أو تقصير أو تجاوز، أو هفوات، وإنني أرجو أن تكون لي نوراً استضيء به يوم الدين من هذا الكتاب العظيم، فالآثار الصحيح: أنه - أي القرآن الكريم- يشفع لمن تلاه وثابر على
تلاوته، ومن حفظه ولم ينسه ومن حفظه، ومن خدمه، ومن سهل فهم آياته
وكيف لا وهو الكتاب الحق المبين.

أضيف إلى سعادتي التي عشتها مع كتاب الله من هذا العمر القصير سعادة أخرى لو تفضل خدام كتاب الله – تعالى – بالاتصال بي بأية وسيلة كانت ليقولوا: أصبت فأفرح، أو أخطأت فأفرح لأصحح خطئي لاستكمال سعادتي.

أرجو الله – تعالى – أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه، وأطلب من الله – تعالى – أن يعينى لاتبع هذا الطريق؛ لأنبى عن فضائل القرآن في أي مكان وفي كل مكان، والله المعطى المنان، وهو المستعان، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

عمان في محرم 1425هـ
المدخل
القرآن: المكان والزمان

{ أقرأْ } { يَا يَتَّبِعُ الْأُمَّةِ الْمُتَّقِينَ } { خَلَقَ إِنَّهُ مِنْ عَلَيْهِ } { أَقْرَأْ } { وَزَيْكَ الْأَكْرَمُ } { إِنَّ الْأَمْرَ إِلَّا عَلَيْهِ } { عَلَمَ إِنَّهُ مَا لَهُ مُعَلَّمٌ } { [العلق] }

إن الخبر البداية بداية الزمان والمكان، اللذين اختاره الله - تعالى - ليكون أول تنزيل القرآن على محمد ﷺ، معبدا بذلك صلة السماء بالأرض، التي انقطعت منذ ما يزيد عن ستة قرون، عندما رفع الله سيدنا عيسى إليه وتوفاه إذ قال الله تعالى: { إِذْ قَالَ الَّذِينَ كَفُرُواُ وَجَاعَلُ الْمَكَّةَ فَوْقَ الْذِّينَ كَفُرُواُ إِلَى بَيْتٍ أَلْقَىَ } { تَرَى الْقِبْطَىَ } { قَالُواُ لَا يُحَسَّبُونَ فَأَحْصَبُ } { يَبْعَثُونَ } { فِيَمَا كَتَبْنَاهُ } { تَحْتَفُونَ } { [آل عمران] }.

العودة هذه جاءت خير نبي مرسول، وخلفه الأنبياء والرسولين سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن حاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، من سلالة نبي الله إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

هذه البداية- نزول القرآن الكريم- في زمن ومكان اختارهما الله - تعالى- ليكونا البداية التي غررت وجه التاريخ، وبدلت أحوال الأمم، وأصلحت معتقدات الناس، وأعادت العدل والخير والبركة والسلام إلى الأرض، بعد أن طغى عليها الطغاة والجبارون، وبعد أن حرف الإنسان كتب الله تعالى- النزوة- والإنجيل والزبور وكتبها بأيديهم؛ ليكون هذا القرآن الكتاب الخاتم الشامل للجامع، الصحيح، الكريم، العظيم، الهادي إلى الخير، الدائم دون تحرير أو تعديل أو تغيير، تكفل الله - تعالى- بحفظه فحفظه، فهو كما هو في اللوح المحفوظ الذي نقله جبريل > الروح الأمين < إلى الرسل ﷺ، وبذات الأمانة، وبذات الوضوح، نقله النبي ﷺ إلى الصحابة- رضوان الله عليهم - فحفظوه ونقلوه إلى التابعين، وما زال ينتقل من جيل إلى جيل حفاظا وترتيلا وتسجيرا ودراءة وفهمًا، واستنباطا، وتفسيرا، وعملنا به إلى يوم الدين، حيث وعد الله ذلك عباده المتقين.
قال ابن إسحاق: فلما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله - تعالى - رحمة للعالمين، وكفاية للناس بشيراً ونذيراً، وكان الله - تبارك وتعالى - قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه، يقول الله - تعالى - ﷺ: "وإذٌ أخذتُ أنيسَّةٌ ميثاق النبّينَّا لَمْ أُنْقِضُ مِنْ صِيَامِي وَحُكْمِي وَنَفَّضْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُسْتَقِيمًَا لَمْ يُكُنْ لَهُ مَعْمَكُمُ النَّبِيُّ بِهِ وَلَعَظُّهُ ارْجُحِي. قالَ: "أَقْرَرْتُمُ وأُخْذِتُمْ عَلَى ذَلِكَ إِصْرَى. "أَيْ ثَقَلُ ما حلَّتَكم من عهدي (وافقوا أَقْرَرْتُمَا قَالَ فَأَشْهَدْتُوا وَأَنَا مَعْمُكُمُ مِنَ الشَّهِيدَينَ)." [آل عمران]، فأخذ الله ميثاق النبيين جميعاً بالتصديق له والنصر له على من خالفه، وأدوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل هذين الكتابين.

قال ابن إسحاق: فذكر الزهرى عن عروة بن الزبير، عن عائشة - رضي الله عنها - أنها حدثت أنه أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحة العباد، فالأممية الصادقة لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلك الصحيح، قالت: وحب الله - تعالى - تعالى - إليه الخلوة، فلم فلم يكن شيء أحب إليه من أن يُلف وحده.


وأول ما بدأ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا

(1) انظر: سيرة ابن هشام 1/ 250 ، حاشية للسهيلى (الرضوان الألف).
جاءت مثل فلق الصحيح(1) قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة. فهذه الرؤيا ستة وأربعون جزءا من النبوة، والله أعلم.
ثم أكرم الله تعالى بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار حراء، وكان يجب الخروج فيه، فأول ما أنزل عليه: {أقرأ بِ아سْمَرْ رَبِّكَ الْخَلَقُ (العنقاء) هذَا قُوْلٌ عَلَيهِ (العامل)}(1) والجمهور.
سميته هذه السورة {سورة العلق}، {وسورة اقرأ} أو {اللفظ}؟ لأن الله سبحانه- افتتحها بقوله: {أقرأ بِآسْمَرْ رَبِّكَ الْخَلَقُ (العنقاء) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ}، والعلق: الدم المتجدد على شكل الدودة الصغيرة.
أما مناسبتها: فقد ذكر الله تعالى في سورة التين أن خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهذا بيان للصورة، وذكر هنا أنه: {خلق الإنسان من علق}.
وهذا بيان للمادة.
هذه السورة المكية أول شيء نزل من القرآن على قلب النبي لبيان الأمور الثلاثة التالية:

1- بيان حكمة الله تعالى في خلق الإنسان من ضعف إلى قوة، والإشرارة بما زده وأمره به من فضيلة القراءة {اقرأ}، وصورة الكتابة {علم بالقلم} ليميده على غيره من المخلوقات: {أقرأ بِآسْمَرْ رَبِّكَ الْخَلَقُ}.

2- الإشارة عن مدى طغىان الإنسان وتمرده على أوامر الله، وحوده نحو الله

(1) أخرج البخاري عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الروح، الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلك الصحيح

(2) أخرج البخاري 8 / 551، 552 في تفسير سورة {أقرأ بِآسْمَرْ رَبِّكَ الْخَلَقُ}.

أبيها - وكان أمه قد تصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب وكان شيخًا كبيرًا قد عمي. فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخى ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جزعًا، قويا جلداً، ليتني أكون حيا حين يخرج قومك، فقال رسول الله ﷺ: "أوخرجىهم؟"، فقال ورقة: نعم، لم تأت رجل قط بما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرا. ثم لم يشبث (يلبث) ورقة أن توفي وفتر الوحي، حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزناً، غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقى نفسه منه، تبدي له جبريل فقال: "يا محمد، إنك رسول الله حقاً"، فيسكن بذلك جاشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا مثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل، تبدي له جبريل... فقال له مثل ذلك (1).

تلك بداية القرآن الكريم؛ القراءة، العلم، الكتابة، الوعي، الفهم، الإدراك، ثم إقرار وحدانية الله - تعالى- الذي خلق كل شيء وخلق الإنسان من طين، ثم جعله علقة في قرار مكين، ثم جعله علقة ثم سواه ونفح فيه من روحه. إقرار في بداية التنزيل على الوعي المطلق والتدبر من بديايات الإنسان. وأن الخلاقي الرازق هو الله الواحد القهار لا شريك له ولا ولد ولا ما تحرص عليه المتكرون، سبحانه وتعالى عما يشركون.

بداية القرآن الكريم: المكان: مكة، إذ غادرءا: غار لا يتأذى إليه إلا الطيور في ارتفاع شاهق يطل على مكة ويعلو عن كل ما يحيط به من تضاريس. هناك تلقى النبي أول الرؤى، هناك حفرت في قلبه أول كلمات الله - تعالى- هناك عاد اتصال السماء بالأرض، هناك في غار حراء بدأ تنزيل القرآن.

حدثنا عن المكان، والذي ارتبطت به أمور عدة:

منها: الملك الذي حمل القرآن الكريم، ونقله إلى محمد ﷺ، فهو جبريل وجبيرين.

(1) التفسير المير 3/302 فما بعدها.
وجبرائيل كلها أسماء لروح القدس - عليه الصلاة والسلام. قال ابن جنح: وزن جبرائيل فعليه، والهمزة فيه زادته لغزومهم: جبريل (1) وقد ورد اسم جبريل في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم (2)، أما صفة جبريل الأخرى وهي الروح، فقد وردت في القرآن الكريم تحت اسم  "روح" أو مقتراها بصفة القدس "روح القدس" في ثلاثة عشر موضعًا (3)، كما ورد اسم جبريل ضمن أسماء الملائكة الآخرين باعتباره سيد الملائكة والأمين علي الرسالات، وقد ورد اسمه "روح الأمين" مرة واحدة في قوله تعالى: "نزل به آله الرحمن الأمين (4)" [الشعراء]، وهذه الأسماة كلا والصفات ترد إلى الملك جبريل (5)، ولقد بقي مصاحبا للرسول من أول نزوله في غار حراء إلى أن قضى. وكان مراقبه في رحلته الإسراء والعروج حتى أوصله إلى "سورة المبتهي"، وهكذا اعترف جبريل بأن هذا حده لا يمكن له تجاوزه، لكنه مصداً تخفي سورة المبتهي إلى ربه - عز وجل- كما سيرد ذلك تفصيلا في سورة الجن.

ومن الأمور التي راقبت هذا الموقف: "الرسول (6) الذي اختاره الله - تعالى- لحمل الرسالة، وحفظ الأمانة، وتأدية ما أمره الله به من التبليغ والإذاعة، والقيادة، وتمضية ما غضب من القرآن الكريم، وتأسيس أمة الإسلام التي هي اختيار الله - تعالى- لتكون أمة أخرجت للناس (7)".

وتعتبر كلمة رسول وجمعها ( رسول) في اللغة العربية معنى ليس له صلة بالدين، وهو الرسول الذي يبعث لأمر يؤديه أما هنا فلا يعنيه إلا المعنى الذين لهذه الكلمة. وفي القرآن ما يدل على اختصاص كل رسول بأمه. ففي سورة يونس الآية 47 أنه:

(1) لسان العرب: ابن منظور، إعداد وتصنيف: يوسف خياط - دار لسان العرب - بيروت 1396.
(4) انظر كتابنا: "كتاب خير آمة أخرجت للناس".)


وقد (671 - 13 هـ) (661 - 1 هـ) بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، ينتهي نسبه إلى عدنان........ بن إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام. أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف........ بن مرة........ مات أبوه وهو في بطن أمه، ولود عام الفيل، وسماه جده محمدًا، أرضعته حليمة السعدية وأقام بالمقدمة حتى سن الخامسة، ماتت أمه وهو في السادسة، ومات جده وهو في الثامنة.

فكفه عمه أبو طالب الذي صحبه وهو في الثانية عشرة إلى الشام، فالتقي في بصرى بالراهب سري، الذي تسمى علامات النبوة.

اشتغل في صيام برعى الغنم، وانصرف عن اللهو واللعب، واشتهر بالصدق والأمانة، حتى سمى: الصادق الأمين. خرج إلى الشام وهو في الخامسة.

(1) في المصحف العثماني، الآية 36.

(2) ليس في هذين الموضعين من البخاري أكثر من أنه سينصب الصراط بين ظهراني جهنم، وأن النبي محمد سيكون أول من يجوز بأنه من الآمناء، ولن يتكلم أحد في ذلك الموقف إلا الآمناء، وسيكون دعاهم: (الله سلم سلم). (3) دائرة المعارف الإسلامية - دار المعرفة - بيروت - يصدرها باللغة العربية (أحمد الشتاتو وآخرون). 1098.
والمشرين في تجارة خديجة، وتزوجها بعد عودته، وأنجب منها القاسم وبه يكنى،
وعبد الله، وزينب، ورقيه، وأم كشوم، وفاطمة، ولم ينجب من غيرها إلا
إبراهيم. ولم يعش من أبنائه وبناته بعده إلا فاطمة.

اجتبعت عبادة الأصنام، وتحتم في غار حراء حتى تهيأ لقبول الوحي وقد بلغ
الأربعين، 11 م- 13 ق. هـ، فبعثه الله بشيرا ونذيرا، نزل عليه جبريل بالوحي
وهو في الغار، فأخبر خديجة بما رآى وسمع، فصدقته وأخبرت ابن عمها ورقة
ابن نواف، فقال: إنه لبنيه هذه الأمة، ثم آمن به على بن أبي طالب، ومولاه زيد
ابن حارثة، وبدأ بدعوة قريش، فآمن به أبو بكر، وعثمان بن عفان، وعبد
الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وزهير بن العوام،
وأبو عبيدة بن الجراح... وغيرهم، (1) إلى أن انتشرت الدعوة في قريش على كره ثم
تحولت إلى العرب فالأنصار خاصة وإلى القبائل كلها وإلى الروم والفرس والحبشة.

وقبض عام 122 م بعد أن احسن تبليغ الرسالة، وأشهد الناس على أنه قام
بواجب الدعوة سلما وحريبا وقولا وفعلا على أحسن وجه، وبذلك فقد تعمقت
جذور الإسلام في الجيل الذي ربه محمد، وتركه وقد اطمأن إلى أن أصحابه
سيقومون بالمهمة التي كان يقوم بها، وباهم لن يخلوا في سبيل الله بغال أو
نفيس..... وهكذا حل المسلمون الدعاء والحاربان، والعلماء والفقهاء والخفاظ,
والخزدون، وكل حمل من هذا الإسلام حما أده على خير وجه وما زال - بعون
الله تعالى- الأمر قائما إنكسل جيل، فإن أجيالا لا تبخل، وإن ضعفت أمة،
قامت غيرها من الأمم، في تناوأم وتكامل وتوثيق ووضوح وتفسير لما يستجد
على أمة المسلمين، وما يستجد على الفكر الإسلامي، وما يمكن أن يكون تحديا
أو تواقيما لما عند المسلمين من علوم ومعرفة وموروث واجتهادات.

والأمر الثالث: هو القرآن الكريم، والذي نحن بصدد الحديث عنه في هذا السفر؟
لتفن على ما ذكره الله- تعالى- في جملة ما حوى القرآن الكريم من معارف
وعلوم ومعجزات، وهو المعجزة الدائمة التي أرادها الله- تعالى- للناس كافة،

(1) الموسوعة العربية الميسرة: إشراق محمد شفيق غربال، دار إحياء التراث، بيروت، 1987،
1658/2
وحملة هذه الأمانة بين الناس هم المسلمون، كل حسب ما حباه الله - تعالى - من قوة ومعرفة وصبر وجد، وإيمان حتى يكون الإسلام دين الناس جميعا الذي ارتضاه الله - تعالى - لعباده... { إنَّ الَّذينَ يُعْبَدُونَ اللَّهَ إِلَّاٰ هُمْ الخَلِیَّةُ} [آل عمران: 19]. والقرآن الكريم مخلود، وتحدياته للخلق جميعا الإنسان والجن قائم دائم...انهزم أمام تحداثه الكثيرون، وما زال آخرون يحاولون، ولكنه يبقى هو الأثر الخالد، وكلام الله - تعالى - الذي لا يأتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبعد أن وقفتنا على المكان والأمور المرتبطة بهذا القرآن ننتقل بعد ذلك للحديث عن الزمان، وعن ذكر هذا الكتاب متي نزل، وكيف نزل، وما هي صفاته الخالدات.

أما عن الزمان الذي نزل فيه القرآن الكريم، وموضوع النزول سأأتي على تفصيلاته.

فإن الله - تعالى - حذره بآيات ثلاث:

1 - قال تعالى: { نَزَّلَ فِيهِ الرَّمَضَانُ الَّذِي أَنزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ} [البقرة: 185].

2 - وقوله تعالى: { ثَمَّ الْكِتَابُ الْمُبَيِّنُ وَالْقُرْآنُ الَّذِينَ أُنزِلَتْ فِيهِنَّ بَيْنَ الْمَبَابَيْنَ} { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مَّبَارِكَةٍ إِنَّا كَانَ مُتمْدِينِينَ وَهُمْ يُفْرَقُونَ كُلٌّ أُمَّرُهُ بِحُكْمِهِ أمَّامٌ مِّنْ عِبَادِنَا إِنَّا كَانَ مُرْسَلِينَ} [الدخان].

3 - وقوله تعالى: { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ الْقُدْرِ وَمَا أُدْرِكَ مَا لَيْلَةُ الْقُدْرِ لِلْقُدْرِ الْخَيْرُ مِنْ أَلْفٍ شَيْرٍ تَنْزِيلُ الْمَلِكِيَّةِ وَالْأَرْوَاحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّ مِنْ خَلِیٍّ أَمِّرِ} { سَلَّمُهُ هَيْنَ مَطْعُ الْفَجْرِ} [القدر].

قال تعالى: { نَزَّلَ فِيهِ الرَّمَضَانُ الَّذِي أَنزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ} [الصافات: 1]
الهدى والفرزقان» [القرآن: 185]، أطلت الشرح لهذه الآية الكرم في ذكر شهر رمضان وفضائله، باعتبار صومه أحد أركان الإسلام الخمسة، ولم تأت شروطهم الطويلة على ذكر فضل القرآن الكريم؛ لأنهم قد أضافوا في مواضع أخرى ذكر كتاب الله في كتاب الله، والإطعام والإطالة التي اختص بها رمضان الكريم.... اعتبروا من فضائله المتعددة نزول القرآن الكريم فيه.

ولجيب آخر في أداء هذه الفريضة للصحيح المقيم (إذن صوم رمضان) الشهر الذي أنزل فيه القرآن؛ إما يعني أن بدأ نزوله كان في رمضان، أو أن معظمه نزل في شهر رمضان، والقرآن الكريم كتاب هذه الآمة الخالدة، الذي أخرجها من الظلمات إلى النور، فأشاهها هذه النشأة، وبدلها من خوفها أماما، ومكنها لها في الأرض، وهي مقوماتها التي صارت بها آمة ولم تتكن من قبل شيئا، وهي بدون هذه المقومات ليست آمة، وليس لها مكان في الأرض، ولا ذكر في السماء فلا أقل من شكر الله على نعمة هذا القرآن بالاستجابة إلى الشهر الذي نزل فيه القرآن.(1)

وفي مجال الأحكام التي استخلصها الفرطبي في تفسيره (بالمقلم لأحكام القرآن) هذه الآية يقول(2) في الحكم الثامن: الثانية: قوله تعالى: «أَلَّذِي أَنزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ» نص في أن القرآن نزل في شهر رمضان، وهو يعني قوله تعالى: "إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمِئَارٍ إِنَّا كُنَّا مُنْدِرِينَ» [البهجت]، يعني ليلة القدر، وقوله: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقُدْرِ» [المؤمنون]، وفي هذا دليل على أن ليلة القدر إذا تكون في رمضان لا في غيره. ولا خلاف أن القرآن الكريم نزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر جملة واحدة، فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم كان جبريل ينزل به منتجما في الأوار والنهائي والأسباب، وذلك في عشرين سنة. وقال ابن عباس: أنزل القرآن من

(1) في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق، ط شرعية 16، 1990، بيروت - لبنان 171/1.
(2) الجمع لأحكام القرآن - القرطبي - دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج2، ص297.
الروح المخفوظ جملة واحدة إلى الكعبة في سماء الدنيا، ثم نزل به جبريل منجماً - يعني الآية والآيتين - في أوقات مختلفة في إحدى وعشرين سنة. وقال مقاتل في قوله تعالى: «شهِرُ رَمَضَانُ الَّذِي أَنزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» قال: «نزل من اللوح المخفوظ كل عام في ليلة القدر إلى سماء الدنيا ثم نزل إلى السفر من اللوح المخفوظ في عشرين شهراً، ونزل به جبريل في عشرين سنة.»

قلت: وقال مقاتل هذا خلاف ما نقل من الإجماع: «أن القرآن أنزل جملة واحدة» والله أعلم. وروى واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: «نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، والثورة لست مضين منه، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين».

قلت: وفي هذا الحديث دلالة على ما يقوله الحسن: أن ليلة القدر تكون ليلة أربع وعشرين، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان هذا. قوله تعالى: «الْقُرْآنُ 》， القرآن: اسم لكلام الله تعالى، وهو يعني المقرر، كالمشروب بسمى شرابًا، والمكتوب يسمى كتابًا، وعلى هذا قيل: هو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرأنا يعني. قال الشاعر:


وقد يسمى المصحف الذي يكتب فيه كلام الله قرآنا توسعاً، وقد قال ﷺ: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو»، أراد به المصحف. وهو مشتق من قرآت الشيء
صفة كتاب الله في كتاب الله

جسدته، وقيل: هو اسم علم لكتاب الله، وغير مشتق كالتوراة والإنجيل. وهذا ينطوي على الشافعي. والصحيح: الاشتقاق في الجمع، وسيأتي.

قوله تعالى: "هَدَىٰ لِنَاسٍ هُدٰيًّا" [القرآن: 185] عطف عليه، و"هدى" الإرشاد والبيان

كما تقدم ؛ أياً هم وإرشادا، والمراد القرآن جملته من حكم ومتشابه وناسخ

وبمنسوخ ؛ ثم شرف بالذكر والتخصيص البيان منه يعني الحال والحرام،

والمواعظ والأحكام "وَيُبِينُ" جمع بينه، من بان شيء ببين إذا وضع

(القرآن) ما فرق بين الحق والباطل.

وهكذا يظهر أول زمن لذكر نزول القرآن: هو في شهر رمضان ومع الإشارة

إلى الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن الكريم، فإن تفصيلات هذه الليلة سرد في

الأيات التالية في سورة الدخان، وسورة القدر.

(2)

قال تعالى: "هَمْ أَلَيْسَ بِهِ مَجْرِىٰ إِنَّ أَنزَلْتُهُ فِي لَيْتَةٍ مَّبَارِكَةٍ إِنَّا كَٰنَا مُدْنِينَ" فيهما يفرق كل أمر حكيم (أَمْرًا مِّنْ عَنْدَنَا إِنَّا كَٰنَا مُّرْسِلِينَ رَحْمَةٌ مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ) [الدخان]، نقلنا الآيات إلى هذا الباب، وقد

صنفت في باب الكتاب ؛ لأن البحث استدعانا لتجعل ذكر نزول القرآن في بداية

هذا السفر، وذكر هذه الآيات هنا لا يمنع الإشارة إليها في موضعها بإذن الله،

وقد استقلت الآيات في افتتاح سورة الدخان بتحديد ليلة مباركة غير مسماة هذا

النزيل، وضيق الزمن من شهر رمضان إلى ليلة مباركة دون تسميتها وألحقت

بالإنذار، وجريان هذه الليلة الذي سيرد شرحها تفصيلا.

تبدأ سورة الدخان بالحديث عن القرآن وتنزيله في ليلة مباركة، فيها يفرق كل

أمر حكيم، رحمة من الله بالعبادات، وإنذاراً لهم وتحذيراً، وتعريفاً للناس برهم،
رب السماوات والأرض وما بينهما، وإثباتًا لوحدانيته، وهو الحي المميت، رب الأولين والآخرين.

وتبدأ كغيرها من سور القرآن الكريم بالحرفين، "ح، م"، على سبيل القسم بهما، وبالكتاب المبين المؤلف من جنسهما. فأما القسم بهذا الأحرف كالقسم بالكتاب، فإن كل حرف معجزة حقيقية، أو آية من آيات الله في تركيب الإنسان، وإقداره على النطق، وترتيب خروجه وحركته ورمز بين اسم الحرف وصوته، ومقدرة الإنسان على تحصيل المعرفة من ورائه.

وكثيرا حقائق عظيمة تكبر في القلب كما تكبر مجردا عن واقع الألفة والعادة الذي يذهب بكل جديد.

فأما القسم عليه، فهو تنزيل هذا الكتاب في ليلة مباركة.

[الدخان، ]

والليلة المباركة التي أنزل فيها القرآن: هي- والله أعلم - الليلة التي بدأ فيها نزوله، وهي إحدى ليالي رمضان الذي قيل فيه: "سبنرمضان اللذي أنزل فيه النور" (القرآن 159:185)، والقرآن لم ينزل كله في تلك الليلة، كما أنه لم ينزل كله في رمضان، ولكن بدأ ينزل بهذه الأرضا، وكانت هذه الليلة موعد هذا الاتصال المبارك. وهذا يكفي في تفسير إنزاله في الليلة المباركة.

وإنها المباركة حتى تلك الليلة التي يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية، والتي بدأ فيها استقرار هذا المنهج الإلهي في حياة البشر، والتي يتصل فيها الناس بالنواحي الكونية الكبرى مترجة في هذا القرآن ترجة سجدة، تستجيب لها الفطرة وتلببها في هوية، وتقيم على أساسها عالما مستقرا على قواعد الفطرة واستجاباتها، متناصقا مع الكون الذي يعيش فيه، طاهرا نظيفا كريما بلا تعمد ولا تكلف، يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولا بالسماء في كل حين.

وأجعل المفسرون على أن هذه الليلة المباركة: هي ليلة القدر التي سيأتي ذكرها صراحة في سورة القدر (ليلة مباركة) هي ليلة القدر، ابتداً فيها إنزال القرآن، أو أنزل فيها جملة إلى السماء الدنيا من اللوح المخفي؛ مباركة لأن نزول القرآن سبب لمنافع الدنيا والدينية (منذرين) من خوفين به، أقسم الله - سبحانه - بالقرآن العظيم، الذي هو الكتاب الموضح لكل ما يحتاجه الإنسان من أمر الدنيا والدين على أنه إنزل القرآن في ليلة كثيرة الخيرات التي هي ليلة القدر، أي بدء بإزالته في ليلة القدر، من ليالي رمضان، واستمر نزوله منجماً ثلاثاً وعشرين سنة أو أنزل كله في ليلة القدر من اللوح المخفي إلى سماء الدنيا.

إذا كنا بهذا القرآن منذرين للناس من العذاب الأليم في الآخرة، إذا اقتروا الذنوب والمعاصي، ومعلمين الناس ما يففعهم ويبصرهم شرعاً؛ لتقوم حجة الله على عباده.

وسبب نزوله في ليلة القدر ما قال الله تعالى: (فبها يفرق كل أمير حكيم) (4)، أي في ليلة القدر يفصل وبين الأمر المحكم، فيكتب فيها ما يكون في السنة من الأجل والأرزاق، من خير وشر، وحياة وموت، وغير ذلك، أو ما يكون من أمور محكمة لا تبديل فيها ولا تغير، بتشريع الأحكام الصالحة لهدية البشر في الدنيا، والسعادة في الآخرة، فالحكيم: مзнаه ذو الحكمة، وإنما أنزل القرآن في هذه الليلة خصوصاً؛ لأن إنزال القرآن أشرف الأمور الحكيمة، وهذه الليلة يفرق فيها كل أمر ذي حكمة وقد دلت هذه الآيات على تعظيم الله - تعالى - القرآن في هذه الآيات بأمور أهمها:

1) أقسم به، والله لا يقسم إلا بشيء عظيم، والله أن يقسم بما خلق في آي وقت يشاء.

2) أقسم به على أنه أنزل في ليلة مباركة، هي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، قال قتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه في الليال، والأيام في ثلاث وعشرين سنة.
صفة كتاب الله في كتاب الله

3) وصف الله ليلة إزال القرآن بأنه يفرق فيها كل أمر حكيم، قال ابن عباس وغيره: يحكم الله أمر الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق، وقال ابن عمر: إلا الشقاء والسعادة؛ فإنهما لا يتغيران.

4) وصف الله القرآن بكونه كتابا مبينا.

5) الغاية من القرآن إنذار البشر وتخوفهم العذاب؛ ليصلح حاكم في الدنيا.

6) إن إزال القرآن كان بأمر الله ومن عنده.

7) كان إزاله رحمة من الله بعباده.

8) كان إزاله محققا لصالح الناس وحالاتهم؛ لأن الله هو السميع العليم، رب السماوات والأرض وخلقهما ومالكهما وما فيهما. وهو الواحد القهار، يحيي الأموات، ويбит الأحياء، فلا يجوز أن يشرك به غيره من لا يقدر على خلق شيء. ومالك الناس عند نزول القرآن، ومالك من تقدم منهم، ومالك من سباع القبلة، فما على الناس إلا اتقاء تكذيب النبي محمد ﷺ لئلا ينزل بهم العذاب (١).

ونزل القرآن الكريم في غار حراء في ليلة القدر من شهر رمضان، حمله جبريل ﷺ إلى محمد ﷺ منجا منفرقا في ثلاث وعشرين سنة، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

ولقد عاش الذين أنزل القرآن عليهم أول مرة فترة عجيبة في كتف السماء موصولين مباشرة بالله، يطلعهم أولا بأول على ما في نفوسهم، ويشعرهم أولا بأول بأن عينه عليهم، يحسبون هم حساب هذه الرعاية، وحساب هذه الرعاية، في كل حركة وكل حاجة تخطر في ضمائرهم، يلجون إليه أولا ما يلجون، والثغور قرب حبيب.

ومضى ذلك الجيل ويقى بعده القرآن كتابا مفتوحا موصولا بالقلب البشرى، يصنع به حين يفتح له مال يصنعه السحر، ويجول مشاعره بصورة تحسب أحيانا.

(١) التفسير المنير: د. وهبة الزحيلي ٢٠٤ / ٢٠٤ فما بعدها بتصرف.
في الأساطير.

ويهى هذا القرآن منهجاً واضحاً كاملًا صاحباً لإنشاء حياة إنسانية غولجية في كل بيئة وفي كل زمان حياة إنسانية تعيش في بيئتها وزمانها في نطاق ذلك المنهج الإلهي المتميز الطابع بكل خصائصه دون تحريف، وهذه سمة المنهج الإلهي وحده.

وهي سمة كل ما يخرج من يد القدرة الإلهية.

إن البشر يصنعون ما يغنى منهم، وما يصح لفترة من الزمان، ولظرف خاص من الحياة، فأما صناعة الله فتحمل طابع الدوام والكمال، والصلاحية المستمرة وتلبية الحاجات في كل ظرف وفي كل حين، جامعة بين ثابت الحقيقة، وتشكل الصورة في اتساق عجيب.

أنزل الله هذا القرآن في هذه الليلة المباركة، أولاً للإفلاذ والتحذير: إنّا كُنَّا

"عذرين"، فالله يعلم غفالة هذا الإنسان ونسائه، وحاجته إلى الإفلاذ والتنبيه.

وهذه الليلة المباركة بنزول هذا القرآن كانت فعلاً وفقارًا بهذا التنزيل فيها "يَفْرَقُ كُلُّ أُمَّرٍ حَكِيمٍ (٥)"، وقد فرق فيها بهذا القرآن في كل أمر، وفصل فيها كل شأن، وتميز الحق الواصل، والباطل الزاهد، ووضعت الحدود، وأقيمت المعلم لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين، فلم يبق هناك أصل من الأصول التي تقوم عليها الحياة غير واضح ولا مرسوم في دنيا الناس، كما هو واضح ومرسوم في الناموس الكلي القديم وكان ذلك كله بإراده الله وأمره، ومشيته في إرسال الرسول للفصل والتبيان (1).

وهكذا بدأ في تلك الآيات ومعالم تلك الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن إما إلى سماء الدنيا، أو أول نزول آياته على قلب محمد، وعلى الرغم من تجاوز الأحداث والأزمات، فإنه مازال معنا متسع للتوعيم في ذكر ليلة القدير، وفروى سورة القدير التي لم يعد فيها الإمكان إخفاء ما لا يخفى من حيث التوضيح المطلق لمعرفة ميزات هذه الليلة عدا ما تقدم من فضائلها وبعض من ميزاتها.

(1) في ظلال القرآن ٥٠٨ - ٣٢٠٩. ٣٢٠٩.
وهذا يظهر جلياً كل التفاصيل التي أحاطت بنزل القرآن الكريم عن حامِل القرآن وناقله إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) عليه السلام، ومبلغ القرآن إلى الناس وشاركه لهم (محمد)، وهذا الكتاب الحالد الذي ضرده - بعون الله وتوفيقه - في ذكر خصائصه وصفاته. ونتصل إلى سورة القدر.

(3)

في الموضوع الثالث الذي ذكر فيه التنزيل، شهر رمضان، والليلة المباركة تضح الصورة أكثر فأكثر في سورة القدر: قال تعالى: ﴿إِنَّا أُلْقِيْتَنَا فِي نَجَاتٍ مِّنَ الْقَذْرِ وَمَا أُدْرِكَنَا مَا نَزَّلَ لَنَا نَزْلَةً الْقُدْرِ ﴿، ليلة القدر، حيثما ينزل فيه رَيْهٌ مِّنْ كُلِّ أَمِّ الرَّحْمَةِ ﴿سَلَّمُ هِيَ حَتَّى مَّطَلِعُ الْفُجُرِ ﴿.[القدر]، الحديث في هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة، التي سجلها وجود كهل في فرح وغبطة وإبتهاج، ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملاك العلي، ليلة بداء نزول هذا القرآن على قلب محمد ﴿، ليلة ذلك الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته، وفي دلالته، وفي آثاره في حياة البشرية جميعاً، العظمة التي لا يبحث بها الإدراك البشري ﴿إِنَّا أُلْقِيْتَنَا فِي نَجَاتٍ مِّنَ الْقَذْرِ وَمَا أُدْرِكَنَا مَا نَزَّلَ لَنَا نَزْلَةً الْقُدْرِ ﴿، ليلة القدر، خير مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿.

والنصوص القرآنية التي تذكر هذا الحدث تكاد تزف وتتير، بل هي تفبيض بالنور الهادئ الساري الرائد الودود، نور الله المشرق في قرآنه ﴿إِنَّا أُلْقِيْتَنَا فِي نَجَاتٍ مِّنَ الْقَذْرِ ﴿، ونور الملائكة والروح، وهم في غدوهم وراحهم طوال الليلة بين الأرض والملاك العلي.

تُنْزَلُ الْمَلِائِكَةَ وَالرُّوحُ فِي هَذَا إِذْ رَيَّهُ مِّنْ كُلِّ أَمِّ الرَّحْمَةِ ﴿، نور الفجر الذي تعرضه النصوص متناضقاً مع نور اللوحي ونور الملائكة، وروح السلام المرتفع على الوجود، وعلى الأرواح السارية في هذا الوجود: ﴿سَلَّمُ هِيَ حَتَّى مَّطَلِعُ الْفُجُرِ ﴿، واسمها (ليلة القدر) قد يكون معناه: التقدير والتدبير، وقد يكون معناه: القيمة والمقام، وكله يتفق مع ذلك الحدث الكوني العظيم، حدث القرآن.
والوحي والرسالة، وليس أعظم منه ولا أقيم في أحداث هذا الوجود، وليس أدل
منه كذلك على التقدير والتدبير في حياة العبد، وهي خير من ألف شهر، والعدد
لا يفيد التحديد، في مثل هذه المواضع من القرآن، إما هو يفيد التكرير، والليلة
خير من آلاف الشهور في حياة البشر، فكم من آلاف الشهور وألف السنين قد
انقضت دون أن تترك في الحياة بعض ما تركه هذه الليلة المباركة السعيدة من أثار
وتحولات.

والليلة من العظمة بحيث تفوق حقيقة حدود الإدراك البشري، وَمَا أَدْرَزْنَكَ مَا
ليلة القدر، وذلك بدون حاجة إلى التعلق بالأساطير التي شاعت حول هذه
الليلة في أوهام العامة، فهي ليلة عظيمة باختيار الله لها لبدء تنزيل القرآن الكريم
وبإفاضة هذا النور على الوجود كله، وإسهام السلام الذي فاض من روح الله على
الضمير البشري والحياة الإنسانية، وما تضمنه هذا القرآن من عقيدة وتصور
وشريعة وآداب تشويع السلام في الأرض والضمير، وتنزيل الملائكة وجبيل
الكعبة خاصة بذن ربه، ومعهم هذا القرآن – باعتبار جنده الذي نزل في هذه
الليلة – وانتشارهم فيما بين السماء والأرض في هذا المهرجان الكوني، الذي
تصوره كلمات السورة تصويراً عجياً.

وحين ننظر اليوم من وراء الأجيال المتطلوبة، إلى تلك الليلة المجيدة السعيدة،
وتصور ذلك المهرجان العجيب الذي شهدته الأرض في هذه الليلة، وتندبر
حقيقة الأمر الذي تم فيها، وتمثل آثاره المتطلوبة في مراحل الزمان، وفي واقع
الأرض، وفي تصورات القلوب والعقول، فإننا نرى أمراً عظيماً حقاً، وندرك
طرفًا من مغزى هذه الإشارة القرآنية إلى تلك الليلة.

وَمَا أَدْرَزْنَكَ مَا لِيْلَةُ الْقَدَرِ (٣٥) ، لقد فرق فيها كل أمر حكيم، وقد وضعت
فيها من قيم وأوسم وموازين، وقد قررت فيها أقدار أكبر من أقدار الأفراد، أقدار
أمم ودول وشعوب، بل أكثر وأعظم، أقدار حقائق وأوضاع وقلوب وقد تغلب
البشرية جهالتها ونكد طالبها – عن قدر ليلة القدر، وعن حقيقة ذلك الحدث،
وعظمة هذا الأمر، وهي منذ أن جهلت هذا وأغفلته، فقدت أسعد وأجمل آلاه
الله عليها، وخسرت السعادة والسلام الحقيقي - سلام الضمير، وسلام البيت،
 وسلم المجتمـع- الذي وهبها إياه الإسلام، ولم يعوضها عما فقدت ما فتح عليها من أبواب، كل شيء في المادة والحضارة والعملاء، فين ضمة، ضيقة - على الرغم من فيض الإنتاج، وتوفير وسائل المعاصي، وطلاقة الرفعة إلى عالين. ومن
المؤمنين - مأمورون ألا نسيوا ولا نغفل عن هذه الذكرى.

وقد جعل لنا نبينا ﷺ سبيلًا هنالك لينا لإحياء هذه الذكرى في أرواحنا لنتقل موصولة بها أبدا. موصولة كذلك بالحدث الكوني الذي كان فيها، وذلك فيما تعودنا عليه من قيام هذه الليلة من كل عام. ومن تخريبا والطلع إليها في الليالي العشر الأخيرة من رمضان، وفي الصحيحين: "نمرواً ليلة القدر في العشر الأول من رمضان". وفي الصحيحين كذلك: "فيم كانت ليلة القدر إبانا واحتفاسا غفر له ما تقدم من ذنبه" (1)، هذه الليلة المئيرة الوضية التي نزل فيها القرآن، سواء من الملا الأعلى إلى السماء الدنيا، أو لقاء جبريل الأول مع النبي الأمّي ليلته أول آيات القرآن، وفيه له ليلته في كل وقت أمره الله - تعالى - أن ننزل آيات القرآن الكريم عليه، فإن عظمة الليلة التي نزل فيها الملائكة، وهي خير من ألف شهر ليتين للمؤمنين جلالة المناسبة وعظمة الحدث، وقدسية الزمان الذي نزل فيه القرآن. إن ليلة القدر بما وصفها الله - تعالى - بـ: "تلك الأوصاف المرجعة والتي تملا باتساعها الأرض والسماء، إما هو تعبير عن عظمة كتاب الله الذي فازت هذه الليلة بتنزولها فيها فبوركت به، وعظمت من أجله، وغمرت الكون بالنور والضياء يتكدر حدوثها في كل عام، لتكون على المؤمنين سلامة، وعلى الدنيا سلاما، فهي ﴿سلماً هي حتى مطلع الفجر ﴾، ليلة كهذه وهي خير من ألف شهر، أضحتنا في ضمير المسلمين، وفي قلوب المؤمنين، يذكرون قدرها، ويتبعون توجه المصطفى ﷺ بقيامها وإحيائها، والتماس الخير الذي نزل فيها على من أراد الله - تعالى - من عباده الصالحين، ليزيد نور قلوبهم، وسلامة نفوذهم، وهدأ أعصابهم، فهي خير، وسلام، ونور، ففيها قد نزل القرآن الكريم.

(1) في ظلال القرآن 6/446 فما بعدها - بتصرف.
معنى لفظ القرآن

إن الابتداء بصفة «القرآن» في كتاب الله تعالى- لها دلالاتها فالقرآن هذه الصفة قد تميز تماماً عما سواه، فلا يشاركه في هذه التسمية أي شيء يدرك بالقراءة ؛ وذلك أن الله تعالى- قد أعطاء الكثير من الأسماء ، لكن ميزه بلفظ القرآن ، قول الله تعالى- كما سرد لاحقاً: إن الله أشتري من المؤمنين أنفسهم وأمواتهم يبارك لهم الحجنة يقبلون ويفتقرون ويعتبرون وعهدًا عليه حقًا في القرآن والسنة والإنجيل والقرآن (التبة: 111) ، ذكره هنا بالقرآن تتميزا عن بقية الكتب المقدسة المتداولة بين أتباع الديانات السماوية- ميزه عن الإنجيل والتوراة والزبور. يعرف القرآن بالقرآن وأوصافه الأخرى ريا يشاركه فيها أشياء أخرى كالكتاب والوحي والنزيل...إلخ ، تلك الصفات التي اتصف بها القرآن ، ومن هنا ، فقد ارتّينا أن نبدأ بالقرآن ؛ لأن أكثر تميزاً ، وأكثر فهما لدى الناس ، ولو أن كلمات كالفزان تعني تماما القرآن ، لكنه ذكر بهذه الصفة ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ؛ لأن المعركة بين الحق والباطل قائمة قديماً وحديثاً ومستقبلًا ، وستبقى إلى أن يتحقق أمر الله ، فالقرآن ابتدا آياته بلفظ القراءة ، ولو أنه لم يذكر في مكان نزوله بهذا الاسم ، لكنه ذكر بالمشتق الأقرب بالعربية وخاصة بين إدراك الأمر بالقراءة ، فقال جبريل للرسول ﷺ: «قرأ».

( قرأ ) الكتاب- قراءة القرآن: تبع كلماته نظراً ونطق بها. وتتبع كلماته ولم ينطق بها ، وسمي ( حديثاً ) بالقراءة الصامتة و ( الآية ) من القرآن: نطق بالفاظها عن نظر أو حفظ فهو قارئ. (ج) قراءة، وعليه السلام قراءة: أبلغه إياه. والشيء قرأ وقرأنا: جمه وضم بعضه إلى بعض.

(قرأ) مقارأ، وقرأ: شاركه في القراء.

(اقرأ) القرآن والكتاب: قرأ.

(قرأ): تنسك، وتفقه.

(استقرأ): طلب إليه أن يقرأ.

(قرأ): اسم تفضيل من قرأ، أي أجود قراءة.


(القراءة): الناسك المتعبد - والحسن القراءة للقرآن.

(المقرأة): مكان في مسجد أو ضريح يجمع فيه حفاظ القرآن ليقرأوه بتركا به (ج) مقارئ.

القرآن اصطلاحا: كتاب الله المنزل على سيدنا محمد في ثلاث وعشرين سنة، من بدء البشعة إلى وفاة الرسول. في صورته المكتوبة في الكتب (المصاحف) بالرسوم المتفق عليها من المسلمين حسب القراءات - حفص عن عاصم، وورش، و..، وهي كلها من كلمات عربية متوافقة في الأداء ومعنى واللفظ والنطق، كما أنزلت على الرسول، وهو الكتاب المحفوظ في اللوح المحفوظ، وهو المتناول في أحكامه بين الناس، وهو المطلوب العمل بوجبه ويجوب أحكامه التي أمر الله الناس (المسلمين عنهم على الأقل) العمل بها وتطبيقها، وهو المتبع بقراءته برسمه في المصاحف (الرسم العربي)، فإذا كتب بأحرف آخر سواء أكانتبع اللفظ العربي أو كتابة المعنى فإنه يفقد التعبد به فلا يجوز التعبد إلا به لفظاً وشكلًا وحرفًا وصورة. كما لا يجوز التعبد بمعاني التي كثرت بأشكال كثيرة، فمنها ما هو بالعربية، ومنها ما هو بلغات العالم كله، والتي

(1) المعجم الوسيط - جمع اللغة العربية - القاهرة - إبراهيم مصطفى وآخرون 2/211، مادة قرأ. لسان العرب مادة قرأ، القاموس المحيط.
بلغت أكثر من مائة لغة منطوية متساوية مع تعدد التفسير والترجمات في اللغات غير العربية.

القرآن الكريم الذي حفظه الله - تعال- بعد أن تكفل بحفظه بقوله: "إِنَّا نَحْنُ ثُلُثُانِ اثْنَيْنَّ أَنَا لَهُمْ حَفِيظُونَ" ([الحجر])، فهو كما نزل بأمانة بواسطة الأمين جبريل على الأمين محمد - عليه السلام -، وبلغه الرسول ﷺ لفظاً ورسماً ومعنا وصورة للمسلمين الذين كان إيمانهم أداة الحفظ في الصدور وفي وسائل الكتابة. القرآن الذي كتب وقرأ دون تغيير أو تبديل وما زال في قلوب المسلمين كله. ولا يغيب خالصة من الزمان وفي أي مكان ذكر في صلاة أو علم أو نقل أو استشهاد أو بحث أو دراسة، أو حفظ، أو تبرك، وهو أكثر الكتب في الدنيا طباعة وتداولًا حتى الآن، ولا يخلو عقل مسلم ولا حياته من أمور تتعلق بالقرآن أو القرآن نفسه. والقرآن الكريم يحفظ من الله - تعال- حجة على المسلمين جميعًا وعلى الناس أجمع. إذ إن تداوله بهذا الشكل يجعله هو فقط البراس الذي يضاء به، والتشريع الذي يحكم، والدستور الذي يحفظ للأمة ولفساد حقوقهم وواجباتهم، كتب جميع الوسائل المعروفة قديماً وحديثاً، وطبع جميع الأهجام والأشكال والألوان والمتساوية من وسائل المعرفة. غلب عليه خت من خطوط العربية وهو (النسخ)، ولا يبعد أن يكون هناك بعض من المصاحف المخطوطة بالرقعة والفارسية والثلاث وغيرها من خطوط العربية.

أما محتواه: فقد تكفلت التفسير، ودستائر المسلمين بالأخذ منه وتطبيقه في الحياة، وأما تداوله فقد تكفلت مدارس تعليمه على مدى انتشارها في العالم على إخراجه وطبوعه وتوزيعه، وتناقله بين المسلمين، وهو الكتاب الحك أحد الباقيات الخالدين، لم không ولم يحرف ولم يزيد عليه أو ينقص منه، كما جرت التحريفات على الكتب السماوية الأخرى كالإنجيل والتوراة، والتي كتب من المذاكرة بعد قضاء النبي، وانتقاله إلى الريف الأعلى. إنه القرآن الكريم الذي ورد ذكره بلفظ القرآن، والكتاب، والتنزيل، والوحدة، والقرآن، والذكر، والآيات..... مما نرجو من الله المعونة لإقام هذه الدراسة.

وبالجملة فالكريم: الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر، وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النز儿 إلا بعسر وصعوبة، وكذلك الكريم في الناس واللئيم.
كتاب الله والقلم

أقسم الله - تعالى - بالقلم بعد أن ذكر (ن) أحد الأحرف النورانية، وإذا لم يذكر كتاب الله - تعالى - بعد هذا الحرف، كما ورد في أربع وعشرين سورة من القرآن الكريم، كما سنوضح بالفصل اللاحق، فإن الله - تعالى - قد ذكر أداة الكتابة: {وَلَقَلْلَمْ وَمَا يُشْرُونَ}، وهذه الدلالات أدخلت هذه السورة مع بقية سور الأربع والعشرين، وسورة الله في محيط واحد، وهو ذكر القرآن الكريم بعد هذه الأحرف النورانية، وتردرج فيما يلي أهمية هذا القسم وأهمية (ن) أحد الأحرف النورانية التي بدأت بها بعض سور القرآن الكريم.

أقسم سبحانه به {وَلَقَلْلَمْ وَمَا يُشْرُونَ}، فأقسم بالكتابة وآلهته وهو القلم الذي هو إحدى آياته، وأول خبراته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد الله الدين، وأثبتت به شريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، ووقدت به المالك، وأمنت به السنبل والمسالك وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفسحه، وأنفعه له وعنصرهه، وواضعاً تشفى مواعظ القلب من السقم وطيباً يبرر بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه ضعيف الوحيد ويغاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، والألقاب تدب الأقاليم وتسام الممالك، والقلم لسان الضمير ينجيه بما استن عن الأسماء، فينسج حلل المعاني في الطرفين يتعود أحسن من الوشي المرقوم. يودعها حكمه فنصب بوادر الفهوم، والأقلاج نظام للأفهام، وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان، وتولد الحروف السموعة عن اللسان. كتلول الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه وسانيه الصامت.

والألقاب متفاوتة في الرتب، فأعلاها وأجلها قدرًا:
القول الأول: قلم القدر السابق، الذي كتب الله به مقدار الخلق، كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعته رسول الله ﷺ يقول: "إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقدار كل شيء حتى تقوم الساعة".


القول الثاني: قلم الوعي، وهو الذي يكتب به وحى الله إلى أتباعه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، والعالم خدمهم، وإليهم الخلق والعقد، والأقلاع كلهما خدم لأقلاعهم، وقد رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريحة الأقلاع. فهذه الأقلاع هي التي تكتب ما يوحيه الله - تبارك وتعالى من الأمور التي يدير بها أمر العالم العلوي والسفلي.

والقول الثالث: قلم التوقع عن الله ورسوله، وهو قلم الفقهاء والمفتنيين، وهذا القلم - أيضا - حاكم غير محكوم عليه، فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفرج والعقوبة، وأصحابه يخبرون عن الله يحكمه الذي حكم به عباده وأصحابه حكام وكلم على أرباب الأقلاع، وأقلاع العالم خدم هذا القلم.
القسم الرابع: قلم طب الأديان، التي تحتفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها أفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أفعال الأقلاع بعد قلم طب الأديان، وحاجة الناس إلى أهل تلتقي بالضرورة.

القسم الخامس: التوقع عن الملوك ونوابهم، وسياسة الملك، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلاع، وهم المشاركون للملوك في تدبير الدول، فإن صلحت أقلاعهم صلحت المملكة، وإن فسدت أقلاعهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملك ورعاياهم.

القسم السادس: قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال مستخرجها ومصروفها ومقدارها، وهو قلم الأرزاق، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذي تضبط به المقدار وما بينه من التفاوت والتناسب وبناه على الصدق والعدل، فإذا كتب هذا القلم وظف فأمر المملكة.

القسم السابع: قلم الحكم، الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية، فترد إلى اليد المحققة، وثبت به الإنسان، وتقطع به الخصومات. وبين هذا القلم، وقلم التوقع عن الله عموم وخصوص، فهذا له النفوذ والزوم، وذلك له العوم والشمول، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبت، وبالعدل فيما يمحبه وينفذه.

القسم الثامن: قلم الشهادة، وهو القلم الذي تحتفظ به الحقوق وتصان عن الإضاعة، ويحمل بين الفاجر وإنكاره، ويدعو الصادق، ويكذب الكاذب، ويشهد للمحق بحق، وعلى المبطل بباطله، وهو الأمين على الدماء، والفروج والأموال، والحقوق، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد، وباستقامته يستقيم أمر العالم، وبناه على العلم وعدم الكتمان.

القسم التاسع: قلم التعبير، وهو كتاب وحى المنام، وقفیره، وتعبيره، وما أريد منه، وهو قلم شريف جليل، مترجم للوحي المنامي، كشف له وهو من الأقلاع التي تصلح للدنيا والدين، وهو يتمتع طهارة صاحبه ونزاها، وأمانه، وتمهيره للصدق، والطراز الحميدة، والمناهج السديدة، مع علم راسخ، وصفاء الباطن، وحسن مؤيد بالنور الإلهي ومعرفة بأحوال الخلق، وحياتهم وسيرهم.
وهو من أنفف الأفلام، وأعمالها جولانا، وأوعثها تصرفا، ومع سائر الموجودات على ولايتها وسلطانتها، وبالخلاص والمستقبل، فتصرف هذا القلم في المنام هو وسيلة ولايته وسلطانته.

 القلم العاشر: قلم تاريخ العلم ودفائاته، وهو القلم الذي تُضبط به الحوادث، وتنقل من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن فيفحص ما مضى من العلم وحوارته في الخيال، وينقش في النفس، حتى كان السامع يرى ذلك، فيشهد، فهو قلم المعاد الروحيان، وهذا القلم قلب العجائب، فإنه يعد لك العالم في صورة الخيال فتره بقلبك، وتشاهده بصرتك.

 القلم الحادي عشر: قلم اللغة، وتفاصله، وشرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها، وما يلي ذلك من أحوالها ووجهها، وأنواع دلالتها على المعاني، وكيفية الدلالة، وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ، وأعذبها وأسهلها وأوضحها، وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتوعيةها.

 القلم الثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطنين، ورفع سنة المحققين وكشف أباطيل المبطنين على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم، وتهافتهم، وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل، وهذا القلم في الأفلام نظر الملوك في الأئمة، وأصحابه أهل الحجة، النصارى لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم، وهم الداعون إلى الله بالحكم والموهبة الحسنة، المجادلون من خرج عن سبيله بانواع الجدال، وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل، وعدو لكل خالف للرسل، فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأفلام في شأن.

فهذه الأفلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفى في جلالته القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله سبيله - أقسم به في كتابه -، وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم، وإما وصل إليها ما بعث به نبينا بواسطة القلم. ولقد أبدع أبو تمام، إذ يقول في وصفه:

(1) التبيان في أقسام القرآن ص ١٨٨.
للفصل الأول المقدمة بثابتته
له ربعية طال ولكن وقعتها
للمعاني الأفقيات القنالات لعبته
لله الخلاوات البارع لولا نعجها
ففجيح إذا استطعته وهو راكب
إذا ما امتنع الخامس اللطيف وأفرعت
اطعته أطراف القلب، وتوضعت
إذا استغفر الدمع النذكي وأقبلت
وقدر رفعته الخصراق وسدة
رأيت جيلها شانه وهروه مرهف
والقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزه نبه ورسوله عما يقول فيه
أعداؤه، وهو قوله تعالى: "هَمَّذِيُّ الْعَالَمِينَ رَبِّيُّ عِجَاجُونِ" (القلم) وأنت إذا
طابقت بين هذا القسم والقسم به، وجدته دالا على أظهار دالته وأبينها، فإن ما
ستغر الكتاب بالقلم من أنواع العلوم التي ينتقاها البشر بعضهم عن بعض لا
تصدر من مجانين، ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول
من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم، بل العلوم التي تضمنها ليس
في قوى البشر الإيان بها، ولا سيما من أمي لا يقرأ كتابها ولا يخط بيمينه، مع
كونه في أعلى أنواع الفصاحات سليما من الاختلاف، بريا من التنافس، يستحيل
من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يكونوا بملته ولو كانوا في عقل
رجل واحد منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجانين لا عقل له ميزه به ما عسي كثير من
الحيوان أن يميزه؟ وهل هذا إلا من أفيض البهتان وأظهر الأفك؟ (1)

(1) التبيان في أقسام القرآن ص 123.
بمثلها أو أحسن منها، فكيف يرمي بالجنون من أثيو بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومائلته، وعرفهم من الحق ما لا تنتدب عقوتهم إليه بحيث أذعت له عقول العقلاء، وخضعت له أئمة الأولياء، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له، والانقياد والإذعان طائعة مختارة، وهي ترى عقوتها أشد فقرا وحاجة إلى ما جاء به، ولا كمال لها إلا بما جاء به؟ فهو الذي كمل عقوتها، كما يكمل الطفل برضاع الثدي، وهذا فإن أتباعه أغلب الخلق على الإطلاق، وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات خالفه ظهر لك النفاوت بينها، ويكفي في عقوتهم أنهم عموا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوب بالإيمان والتقوى فكيف يكون متبوعهم جنونا وهذا حال كتابه وهديه، وسيرته، وحال أتباعه؟ وهذا إذا حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعلىهم، فُنفٌ عنه الجنون بنعمة عليه.

(1) التبيان في أقسام القرآن: ابن قيم الجوزية - دار الفكر للطباعة والنشر، ص 128، 134.
لا يمسه إلا المطهرون

في كتب مكّتيون لا يمسه إلا المطهرون (الواقعة).

قال تعالى: «في كتب مكّتيون لا يمسه إلا المطهرون» (الواقعة).

والروح المخافظ والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة وهو المذكور في قوله تعالى: «في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام ببرزة» (عبس) وبدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة بقوله: «لا يمسه إلا المطهرون» (عبس) فهذا يدل على أنه بأيديهم يسونه وهذا هو الصحيح في مكنى الآية. ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر، والأول أرجح لوجوه:

أحداهما: أن الآية سبقت تنزيلها للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محمد لا يصل إليه فليس إلا المطهرون، فيضحلى على أخبار خلق الله وأخذهم أن يصلوا إليه أو يسوبا، كما قال تعالى: «بتوزّل يه الشريطين وما يبتغيهم وما يستطيعون» (الشعراء) فتفرج الفعل وتأثيمهم وقدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك، ولا يلقينهم، ولا يقترون عليهم فإن الفعل قد ينفق عن يحسن منه، وقد يلقين من لا يقدر عليهم فتفرج عنهم الأمور الثلاثة، وكذلك قوله في سورة عبس: «في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام ببرزة» (عبس) فوصف عليهم بهذه الصفات بيانا أن الشيطان لا يمكن أن يتنزل به، وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية، والاعتنا في السور الملكية إنا هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والبوه، وأما تقرير الأحكام والشروط فمظانه السور المدني.

الوجه الثالث: أن القرآن الكريم لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر، وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الخبرة بوضوح.

الوجه الخامس: أن هذا وصفه بكونه مكتننا، نظر وصفه بكونه محفوظاً، فقالوه: "لفراءان كريم" [البروج]. كقوله: "بل هو قراءان جيد" [في لوح محفوظ] [البروج]. يوضحه.

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يسهم محدث.

الوجه السابع: قوله تعالى: "لا يمسه إلا المطهرون" [الواقعة]. بالرفع؟
فهذا خبر لفظاً ومعناً، ولو كان نهباً لكان مفتوحاً، ومن احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى مفعول به في الخبر والنهب حمل كل منهما على حققه وليس هنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: إنه قال: "لا المطهرون" ولم يقل: "لا المطهرون"، ولو أراد به معنى المحدث من مسح وقال: "لا المطهرون"، كما قال تعالى: "فإن الله تتعب المطهرين وتحب المكتنن" [البروج]. وفي الحديث الشريف: "اللهوم اجعلني من التوابين واجعلني من المطهرين"، فالمطهر: فاعل التطهير، والمطهر الذي

(1) رواه الترمذي عن أبي إدريس الحولاني عن عمر بن النسي. قال: "من توضأ فاحسن الوضوء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.
اللهوم اجعلني من التوابين واجعلني من المطهرين، فتحت له آباؤه علبة الثمانية يدخل من أيها شاه "، قال الترمذي: "وهذا حديث في إسناده اضطراب، ولا يصح عن النبي في هذا الباب كثير شيء. قال البخاري: أبو إدريس لم يسمع من عمر شيتا". حاشية البيان ص 143.
الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الإخبار عن كونه مكونا كبيرا فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكتوب في كتاب لا يستلزم شوهته، فكيف يمجد القرآن بكونه مكونا في كتاب، وهذا أمر مشترك، والآية: إنا سيقت لبيان مدحه وتشريفه، وما اختص به من الخصائص التي تدل على أنه منزل من عند الله، وأنه محفوظ ومصون، لا يصل إليه شيطان بوجه ما، ولا يمس عليه إلا المطهرون، وهم السفرة الكرام الابرة.


ويقول ابن القيم: وسمعت شيخ الإسلام (1) يقول: لا يمسه الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر. فقال: هذا من باب التنبие والإشارة إذا كانت الصحيفة في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فذلك الصحيفة التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر والحديث مشتق من هذه الآية. وقوله: (لا يمس القرآن إلا وأنت طاهر)، رواه أهل السن من حديث الزهري، عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أن في الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن إنا طاهر. قال: أحد: أرجو أن يكون صحيحيا. وقال أيضا: لا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ندم. قال أبو عمر بن عبد البر: هو كتاب مشهور عن أهل السير معروف عند أهل العلم، معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد، لأنه أشبه التواتر في جيئه، لتلقى الناس له.

(1) يعني شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية، التبليان - ابن القيم، ص 144.
بالقول والمراعاة، ثم قال: وهو كتاب معروف عن العلماء وما فيه متفق عليه إلا قليلاً. وقد رواه ابن حبان في صحيحه، ومالك في موطنه، وفي المسألة آثار أخرى مذكورة في غير هذا الموضوع، وذلت الآية الكريمة: "لا يَمْسَحُ إِلَّا أَلْمُتْهُرُوُنَّ أَنْتُمْ يَقِيُّونَ"، وإشاراتها وإيائهاها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرم على القلب الملوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي.

قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به، وهو - أيضاً - من إشارة الآية وتبيينها، وهو أنه لا يلزمه بيراءته وفهمه وتذكره إلا من شهد أنه كلام الله، تكلمه به حقا، وأنزله على رسوله وحيا، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلب حرج منه بوجه من الوجه.

فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلب منه حرج.

ومن لم يؤمن بأن الله - سبحانه - تكلمه به وحية وليس خلقها من جملة مخلوقاته، ففي قلب منه حرج، ومن قال: إن له باطنا يخالف ظاهره، وإن له تأويلًا يخالف ما يفهم منه، ففي قلب منه حرج.

ومن قال: إن له تأويلًا لا نفهمه ولا نعلمه، وإذا تنعو متغبدين بالفاظه ففي قلب منه حرج.

ومن سلط عليه آراء الآرائيين، وهذان المتكلمين، وسفسطة المفسرين، وخيالات المتصوفين، ففي قلب منه حرج.

ومن جعله تابعا لنجلته ومذهبه وقال من قلده في دينه، ينزله على أقواله، ويتكلف حله عليها، ففي قلب منه حرج.

ومن لم يجعل له محاكاة، وباطنا في أصول الدين وفروعه، ويسلم وينقاد حكمه، أي بن كسان ففي قلب منه حرج.

ومن لم يتأثر بأوامره، وينجرع عن زواجه، ويصدق جميع أخباره، ويحكم أمره ونهيه وخبره، ويرد له كل أمر ونهى وخبير خالفه، ففي قلب منه حرج.

وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون
من لذة خلاوته وطعنه ما وجدنا الصحابة ومن تبعهم، وأنت إذا تأملت قوله:

«لا يَمْسَكُونَ إِلَّا أَلْمُطْهِرُونَ» [الواقعات]، وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإعaneous وإشارة وتبيينه، وقياس الشيء على نظيره، واعتبارة مشاكله، وتأملت المشابهة التي عقدها الله - سبحان وتعالى - وربطها بين الظاهر والباطن فهمت هذه المعاني كلها من الآية - وبارك الله التوفيق.)

(1) التبيان ص 144 فصل 6
القرآن - الأحرف النورانية - معجزة النطق

ومن ذلك قوله تعالى: "رب وَقَرْنِ وَمَا يَسْتَغْرِقُونَ مَا أَنتُ بِعِمْرَةِ دَيْكَ بِمَجْنُونِ" [النحل: 62] الصحيح: أن (ن) و(ق) و(ص) من حروف الهجاء، التي يفتح بها الراء - سبحانها - بعض السور.

وهي أحادية: (ن) ، (ق) ، (ص).

وثانية: (ح م) ، (ى س) ، (ط س).

وثالثة: (ا ل م) ، (ا ل ر) ، (ط س م).

ورابعة: (ا ل م ر) ، (ا ل م ص).

وخامسة: (ك ه د ع ص) ، (ح م ع س ق).


ففي هذا تبني على شرف هذه الخروفة، وعظم قدرها، وجلالتها؛ إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم - سبحانها - بها، وأنزلها على رسله، وهدي بها عباده.

(1) وفي الأصل ( مريم - كهيبص والقلم - ن).

(2) انظر بحث سابق.
وعرفهم بواستعتها نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وآمره، ونهيه، ووعيده، ووعده، وعرفهم بها الخير والشر، والحسن والقبيح، وأقدرواهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم، بأسهل طريق، وقلة كلفة ومشقة، وأوصله إلى المقصود، وأدله عليه، وهذا من أعظم نعمتهم عليه، كما هو من أعظم آياته؛ وهذا عاب – سبحانه– على من عبد إلا لا يتكلم، وامتزى على عبادة بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم، فكان في ذلك هذه الحروف التنبية على كمال روبيته، ومكمل إحسانه وإعانه، فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار والشمس والقمر، والسماء والنجم، وغيرها من الخلفقات، فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله، وكلامه، وصدق رسله.


قال تعالى: { الرحمان، علَّمَ الْقُرْآنَ خَلْقَ الْإِنْسانِ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (الرحمن)، فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان وписыва أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وفيها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها أمكن تنقلها في الأذهان، وكم جلبب بها من نعمة، ودفع بها من نقصة؟ وأقبلت بها من عثر، وأقيمت بها من حرمة، وهدى بها من ضلالة، وأقيمت بها من حق، وهدم بها من باطل.

فآياته- سبحانه- في تعلم البيان كآياته في خلق الإنسان، ولولا عجب صنع الله ما ثبت تلك الفضائل في حلم ولا عصب، فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصة الرئة، فيضم في الخلقين، وينفرش شيء في أقصى الخلق، ووسطه، وأخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا، وفي الشفتيين والحشوم، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف فألهم- سبحانه- الإنسان بضم بعضها إلى بعض، فإذا هي كلمات قابضة بأنفسها، ثم أفهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض.}

(التبيان، ص 126 بترشيف.)
بعض، فإذا هو كلام دال على أنواع المعاني أمرا ونهيا، وخبرا، واستخبارا، ونفيًا، وإثباتا، وإقرارا، وإنكرا، وتضمنا، وكذبًا، وإيجابا، واستجابا، وسؤالا، وجوابا. إلى غير ذلك من أنواع الخطاب نظمه ونشره، وجزيه، وطوله، على اختلاف لغة الخلقين: كل ذلك صنعته - ببارك تعالى - في هواء مجرد خارج من باتن الإنسان إلى ظاهره، ففي مجاز قد هيئة أعدادا لتقطيعه، وتفسيره، ثم تأليفه وتوصوله، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخلقين. هذا شأن الحرف المخلوق.

وأما الحروف التي بها تكون المخلوقات فشأنه أعلى وأول، وإذا كان هذا شأن الحروف، فحقيقة أن تفتحها بها السور، كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الرسولية، وأدلة الوحدانية، فهي دالة على كمال قدرته، سبحانه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال رحمةه، وعنابه، وجماله، وإحسانه، وإذا أعطيت الاستدلال بها، شهدت بها على البدا والمعتد، والخلق والأمر، والتوحيد، والرسالة، فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن القرآن كلام الله، نطقه به حقا، وأنزله على رسوله وحيا، وبلغه كما أُوحي إليه صدقاً، ولا تهم اللفظ في كل سورة افتتحت بها الحروف، واشتمالها على آيات هذه المطلب وتقريرها، وبهيئة التوفيق (1).

ثم جاءت الأحرف لتندل على صدق رسالة محمد ﷺ ومن ذلك: (حم) وَالْحَكِيمُ أَلْمُعْلُومٌ {2} (الدخان)، وقوله: تعالى: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الْذِّكْرِ} {3} [يس]. وقوله: {يَبِينَ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ} {4} إِنَّكَ لَمِنْ آلِمِ الْمُرْسَلِينَ {5} [يس].

والصحيح أن (ى س) بمنزلة (ح م)، و (أ ل م) ليست من أسماء النبي ﷺ، وأقسم الله - سبحانه، وتعالى: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الْذِّكْرِ} {3} [يس]. وقوله: {يَبِينَ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ} {4} إِنَّكَ لَمِنْ آلِمِ الْمُرْسَلِينَ {5} [يس]. وأ(set) بمنزلة (ح م) و (أ ل م) ليست من أسماء النبي ﷺ، وأقسم الله - سبحانه، وتعالى: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الْذِّكْرِ} {3} [يس]. وقوله: {يَبِينَ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ} {4} إِنَّكَ لَمِنْ آلِمِ الْمُرْسَلِينَ {5} [يس].

(1) التبيان ص 128.
وهذا يحتاج إلى بيان وتقدير المجرولين على صراط مستقيم، وكونه من المرسلين مستلزمًا لذلك فاستغنى عن ذكره.

بدأ الحق - سبحان وتعال - بعض السور المكية أو المدينة القرآنية ببعض حروف النهجى، أو الحروف المقطعة:

منها: البسيط المؤلف من حرف واحد. وذلك في سور ثلاث: ( صاد قاف ونون ) ( القلم ) إذ افتتحت الأول بحرف (ص) ، والثانية بحرف (ق) والثالثة بحرف (ن).

ومنها: فواتح عشر سور مؤلفة من حرفين: سبع منها متماثلة تسمى ( الخواص ) ؛ لا بدتها بحرف ( حم ) ؛ وهي سور: ( غافر ، وفصلت ) ، والشورى والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف وتتمة العشر سور ، طه ، وطس ، ويس ). أما الشورى فتبيقها آية أخرى في ثلاث هى ع س ق.

ومنها: فواتح ثلاث عشرة سورة مركبة من ثلاثة أحرف، ست منها بدأت بـ (الم) وهي سورة ( البقرة ) ، آل عمران ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة ) ، وخمس منها بلظأ: ( الل ) وهي سور: ( يونس وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر ) ، واثنتان بدعت بـ طس ، وهما سورتان ( الشعراء ، والقصص ).

ومنها: سورتان افتتحتا بأربعة أحرف، وهي سورة ( الأعراف ) فاتتحتها: ( المص ) ، وسورة ( الرعد ) فاتتحتها ( المز ) ، عدد السور التي افتتحت بالأحرف النورانية ثمان وعشرون على عدد حروف الهجاء.

ومنها: سورة واحدة افتتحت مخمسة أحرف هي سورة ( مريم ) ومستهلها ( كهفص ) ، فصارت مجموعة الفواتح القرآنية تسعا وعشرين (2) ، وهي على ثلاثة عشر شكلًا: ( اللم ، اللم ص ، ال ر ، طس م ، تس ، يس ، ص ، ح ، ح م ، ع س ، ق ، ن ، كهف ، ع س ، ال م ر )، وحروفها أربعة عشر، وهي نصف الحروف الهجائية ( أ ، ل ، م ، ر ، س ، ص ، ر ، ط ) .

---

1) الببتين ، فصل ، 148 ص 271
2) السور ثمان وعشرون ؛ إذ إن طل ليست من الأحرف النورانية الفواتح واعتبرها أكثر المفسرين اسمًا للرسول ﷺ.
وقد اختلف أهل التأويل والمفسرون في بيان المقصود من فوائذ السور: فقال جامع: هي سر الله في القرآن، والله في كل كتاب سر، وهي مما استأثر الله بعلمه، فهو من المتشابه الذي نؤمن به، على أنه من عند الله، دون تأويل ولا تعليق، ولكنه أمر مفهوم عند النبي ﷺ.

وقال جامع: لا بد أن يكون لذكره معنى وجيه، والظاهر أنه إجابة لإقامة الحجة على العرب وتبيه في أسمائهم وآداؤهم، بعد أن تقدوا القرآن على أن يأتوا بمثله، علمًا بأن القرآن مؤلف من حروف هي التي منها بناء كلمة.

فكانه يقول لهم: كيف تجوزون عن الإيمان بمثله أو ممثل سورة منه؟ مع أنه كلام عربي، مكون من حروف هجائية، ينطق بها كل عربي، أمي أو متعلم، وهم أسانس البيان، وفروض الفصاحة والبلاغة، ويعتمدون على هذه الحروف في الكلام، نثره وشعره، وخطابته وكتابته، وهم يكتبون بهذه الحروف، ومع هذا، فقد عجزوا عن جزاء القرآن الذي نزل على محمد ﷺ، فقامت الحجة عليهم أنه كلام الله، لا كلام البشر، فيجب الإيمان به، وتكون الفوائذ الهجائية تقريعا لهم، وإثباتا لعجزهم أن يأتوا بمثله، لكنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن، كانوا مكابرين معاندين في عدم الإيمان به، وقالوا بيلة وسخط وسططية وسذاجة عن محمد والقرآن: محمد ساحر، شاعر، مجنون، والقرآن: أساطير الأولين، وذلك كله آية الإفلات، ومظهر الضعف، وفقد الحجة، وكذب المعارضة والممانعة، وكفر المقلدة، والعكف على التقاليد العتيقة البالية والعقائد الوثيقة الموروثة الخرقاء.

والرأي الثاني هو رأى جامع المفسرين والمحققين من العلماء، وهو المقول المقتضى فتح الأسماع، واستماع القرآن والإقرار بأنه كلام الله تعالى.

---

(1) انظر: مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح، ص 324 وما بعدها.
(2) التفسير المثير: د. وهبة الرحلية، دار الفكر المعاصر، 1 / 28، 29.
يقول الإمام القرطبي (1) : «اختلاف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور».

فقال عامر والشعبي وسفيان الثوري وجعٌة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، والله في كل كتاب من كتبه سر، فهى من المتشابه الذي اتفرد الله تعالى - بعلمه، ولا يجب أن يتكلم فيها، ولكن نؤمن بها وتقرأ كما جاءت، وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق، وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر، وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندرى ما أراد الله - جل وعزه - بها.

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنصاري... عن الربيع بن خديج قال: إن الله تعالى - نزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء، وأطّلعتم على ما شاء، فأما ما استأثر به نفسه، فلستم بنائِي فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطّلعت عليه، فهو الذي تسألون عنه وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعملون.

قال أبو بكر: فهذا يوضح أن حروف من القرآن سرت معانيها عن جميع العالم، اختبارا من الله - عز وجل - وامتحانًا، فمن آمن بها أيُّوب وسعد، ومن كفر وشك أثم وبعد، حدثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضي عن... حريث بن ظهر عن عبد الله قال: ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغير مث وقرأ: << الذين يؤمنون بالغيب >> (البقرة: 3).

قلت: هذا القول في المتشابه وحكمه، وهو الصحيح. وقال جميع من العلماء كبير: بل يجب أن نتكلم فيها، ويلبس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تنخرج عليها، واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة، فرواى عن ابن عباس وعلى أيضا: أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم إلا أن لا نعرف تأليفها منها. وقال قطرب والقراء وغيرهما: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين

(1) تفسير القرطبي: تفسير بداية سورة البقرة.
تعذام بالقرآن أنه مؤلف من حروف هي التي منها بناة كلامهم ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم؛ إذ لم يخرج عن كلامهم. قال قترب: كانوا ينفرُون عند استماع القرآن، فلمهم سمعو (الم) و (المص) استنكروا هذا اللفظ. فلما أنصتوا له أقبل عليهم بالقرآن المؤلف لينبه أسماعهم وآذانهم. وقيد الحجة عليهم.

وقال قوم: روي أن المشركين لما أعترضوا عن سماع القرآن بمكة وقيلوا: لا تسمعوا هندا القرآن وآلموا فيه. فنزلت لئستغروها فيفتحون لها أسماعهم، فسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة.

وقال جامع: هذه حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها كقول ابن عباس وغيره: ألف من الله، واللام من جبريل، واليم من محمد. وقيل: ألف مفتاح اسمه (الله)، واللام مفتاح اسمه (لطيف) واليم مفتاح اسمه (مجيد). وروى أبو الوضحي عن ابن عباس في قوله: (الم) أنا الله أعلم، (الر) أنا الله أرى (المص) أنا الله أفصل، فالألف تؤدى على معنى أنا واللام تؤدى معنى اسم الله، واللام تؤدى على معنى أعلم، واختار هذا القول الزجاج وقال: أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدى عن معنى، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظماً لها ووضعاً بدل الكلمات التي الخروفي منها كقوله:

فقلت لها فقفي فقالت قاف:
أراد: قالت: وقفت.

وقال زهير:
بالخير خيرات وإن شرًا فا ولا أريد الشر إلا أن تأ.
أراد: وإن شرًا فش، وأراد: إلا أن تشاء.

وقال آخر:
قالوا جميعًا كلهم ألا فا
نادوه ألا أجعلوا ألا تأ.
أراد: ألا تركبوا؟ قالوا: ألا فاركبوا.
وفي الحديث: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة». قال شقيق: هو أن يقول في اقتلاع: (اق) كما قال، كيف بالسيف شا، معناؤها شافياً.

وقال زيد بن أسلم: هي أسماء السور.

وقال الكلبي: هي أقسام أقسام الله- تعالى- بها لشرفها وفضلها، وهي من أسمائه.

عن ابن عباس- أيضا- أورد بعض العلماء هذا القول فقال: لا يصح أن يكون قسمًا؛ لأن القسم معقود على حروف مثل (إن، وقذ، ولقد، وما) ولم يوجد هنا حرف من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون ميناً، واجب أن يقال: موضع القسم قوله تعالى: {لا زيت في} [البقرة: 2]، فلو أن إنسانًا حلف فقال: والله.


والوقف على هذه الحروف على السكن لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإن ذلك تقربها، واحتفظ الفرمل لها محل من الإعراب، فقال: لا لأنها ليست أسماء متمكنة، ولا أفعالاً مضارعة، وإنها هيبنة حروف التهجئة فهي محكمة.
هذه مذهب الخليل وسبوئيه. ومن قال: إنها أسماء السور، فوضعها عنده الرفع.

على أنها عنده خبر ابتداء مضمر: أي هذه "اللهم"، كما تقول: هذه سورة البقرة.


وقيل في موضع خفض بالقسم، لقول ابن عباس: إنها أقسام الله بها.

(1)

انتهى.

بعد أن وقفنا على بعض الأوراء التي جمعت ما يتعلق بهذه الأحرف فإن الحديث المعنى هنا هو ارتباط هذه الأحرف ببعض سور القرآن. وهذه هي بعض الملاحظات:

1- الحروف النورانية التي وردت في القرآن الكريم أربعة عشر حرفًا أي نصف الحروف الهجائية.

(2)

ابتدأت بالحروف النورانية ثمان وعشرون سورة. أربع وعشرون منها ذكر بها القرآن مباشرة، وواحدة ذكر بها أداة كتابة القرآن على القرآن من الكتب السماوية، واثنتان وهي موسية وسرا. وثالث سور لم يذكر بها القرآن مباشرة.

(3)

Maria، الروم، العنكبوت.

(1)

انظر تفسير الطبري. جامع البيان في تفسير القرآن.

(2)

الحروف التي وردت هي (الألف 13، اللام 12، الميم 17، السادس 3، البراء 6، ط 3، س 5، الهاء 1، الواو 1، التاء 1، الكاف 1، الواو 1).

(3)

السورة التي ورد ذكر كتاب الله تعالى منها مباشرة هي: (البقرة: اللهم)، (ال عمران: اللهم).


(4)

العنب: (الضر: حكام)، (الدخان: حكام)، (الجذاب: حكام)، (الذخيرة: حكام)، (الأافق: حكام).

النافع: (الشعر: حكام)، (الشعر: حكام).

(5)

أما السور التي لم يرد بعدها ذكر كتاب الله فهي ثلاثة سور: (ميرiam، الروم، العنكبوت).

(6)

العنب: (الروم، اللهم).
1- تكررت الحروف النورانية ثلاث مرات وستين مرة للتي أربعت بالقرآن الكريم، وواحدة ارتبعت بالقلمان، وإحدى عشرة مرة للسورة الثلاث التي لم يذكر بها القرآن باسمه أو بصفاته، ومجموع ما تكررت الحروف النورانية خمس وسبعون مرة على إجمالها، مع مواقف المفسرين أن (يس) من الحروف النورانية على خلاف مع بعض من اعتبرها اسمًا من أسماء الرسول (طه) ليس من الحروف النورائية، وإنها هي اسم للرسول (طه) على خلاف من اعتبرها من الحروف النورائية.

2- كما أن القرآن الكريم قد ذكر في بدايات سور أخرى غير سور الحروف النورائية الخمس والعشرين في ثمان منها، وهي في قوله تعالى - من سور القرآن الكريم.

3- طه (طه) ما أنزلنا عليه القرآن لنفسقي (طه) [الكهف].

4- الحمد لله الذي أنزل على عبدك الكتاب ولم يجعل له عوجاً [الكهف].

- تبارك الذي نزل القرآن على عبدك ليكون للفاتحين نذيراً [الفرقان].

- إنما كنيت به أنتم الله ولا تطيع الكافرين والمنافقين إني الله سمحتي علىه [الأحزاب].

- تزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب باليقين [الزمر].

- وإنّما كتب مسطور في رقٍ منشور [الطور].

- وحليم على العلم القرآنان [الرحمن].

(1) الحروف النورانية 14، تكرارها 75 بالسورة التي بدأت بها الحروف مع ذكر القرآن والقلم 25 وجميع هذه الأرقام 114 توافق أعداد سور القرآن الكريم من الفاتحة إلى الناس.
فيكون القرآن الكريم قد استأثر في بدايات ثلاث وثلاثين سورة من أربع عشرة ومائة سورة مجموع سور القرآن الكريم، وثلاث سور شاركت في بداياتها حروف نورانية بدون ذكر القرآن الكريم، فهذه السور المشتركة بالحروف النورانية وذكر القرآن الكريم يكون مجموعها ستة وثلاثين سورة.

(1) أما عن دلائِل الحروف المقطعة: النورانية، فقد كانت آية مفصِلة في سورة البقرة، وآل عمران، والأعراف، والشعراء، والقصص، ولقمان، والسجدة، ويس، وغافر، وفصلت والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، وكذلك في سور: مريم، والعنكبوت، الروم، وآيتين في سورة الشورى: (حم، عق)، وإبراهيم، والحجر، والنمل، ص).
القرآن الكريم في القرآن الكريم

هذا الموضوع سيكون مهما لمن يستطيع بذكراه عن صفاته كتاب الله - عز وجل - في كتاب الله، وهذا الموضوع ليس أكثر من بداية للموضوع الأساسي الذي نريد في هذا البحث.

القرآن الكريم - كتاب الله المنزل على رسوله المرسل - قد أشار إلى عظمة هذا الكتاب فذكره فيما يقارب الثلاثمائة موضع في آية أو أكثر من آية. مقسما به، مظهرًا عظيمته، مبينا محتواه، موضوعا إعجازه. معلما قدره، ميسرًا ذكره، مهولا هجره، مبرزًا قيمته، منيرة درب حامله، مُشفّعًا بقرائه، مبلغًا هداه، مخبرًا حاله.

كل هذا في آيات محكمات. ذكر في مجمل سور القرآن الكريم. باسمه، أو بصفة من الصفات التي ذكرها الله عنه. موضوعا اسمه وصفته في أكثر ما ذكر ومشيرا إليه في بعض الآيات تعرينا له ما هو، وقد استخلصت اسمه وصفته وحده دون غيره من الكتب السماوية، فهو في ذكر الله له اسمه وأجل وأعظم وأبلغ، وآخذ وأوقع بما ذكره الآخرون، وستقف - إن شاء الله تعالى - على هذا كله. وما تقدم إما هو مداخل لدراسة هذا الكتاب كما وردت تنزيلًا على المصطفى مع ما نزل عليه من خروج هذا الكتاب الذي يعتبر القمة في ما خطر القلم في السماء والأرض، فهو في اللوح المحفوظ، حفظه الله بتناوله بين البشر من أي مساس أو تخريب أو تخويف، أو حذف أو إضافة أو إلغاء، وجعله علما، وأفادًا.

وعباقرة من عباده المؤمنين ليدرسوه ويشجعوه، ويسارع ويتوجوا معانيه وليضموه ويلحقوا علمه، ويلعنه، ويعتوق، وابع عنه حتى الاعتب الشيطان، فحفظه الجن وسموعه وأمنوا به، وحملته الملائكة إلى السماء الدنيا وحمله جبريل إلى المصطفى الذي ما عرف شيئا قبلا، ولاختبا بينه وبين أي شيء غيره، وحملته القلب المؤمنة على مر الأجيال والتراث - صغارا وشبابا ورجالا وشيوخا ونساء في كل عصر وزمان وأمكن وصل إليه. وشرح الله صدر دارسه إلى معرفة أسراره وإعجازه، وأعطى في كل زمان بعضًا من معجزاته، فتبادر العلماء بالكشف والدرس والتحليل والتنوير والذكر حتى عجز المتأخرون في كل زمان عن إحساس ما قدمه المقدمون، وسمعج القادمون عن حصر كل ما قيل فيه من.
السابقين الأولين والآخرين، وسيبقى دائمًا - في قلوب الخفظة وعقولهم، ومدارك الدارسين وجوؤهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد قضى الله تعالى - التفوس الطاهرة المطهرة وحياتها فيه وخص أوقاتا طوالاً من المؤمنين لإذارسته وحفظه وتلاوته، وهياً لها الراحة والأطمتعان والإيان والليقين في جميع الظروف والأحوال، وما خلا ون لخ رزمان ومكان من ذكره وحفظه وتربيته وقراءته. فقد ربطه الله تعالى بالصلاة التي فرضت على المسلمين كافة، وربطه الله تعالى بكل تقلبات الأحوال والأزمان والأعمال، فجعل تلاوته عبادة، وقراءة الأحرف والحرف في عبادة والعمل بموجبه عبادة، ونشره وتوزيعه عبادة، وما حفظه من طفل إلا وجعل الله ثواب والديه تاجًا من نور يوم القيامة، وجعله شفيعاً لم تلاه، وشفيعاً لم حفظه، وشفيعاً من جعله إمامه وهذا، وإنما سرد عن بعض ذكره ليس قطعًا ذكره، ولا محدودًا عده، فإما هو اجتهاد نرجو الله تعالى الثواب عليه مع الإصابة، فإن يجر علمه لينضب، وشواطئ معرفته لا وجود لها وسواحل إعجازه لا قرار لها، فإن أصبت فهادى إلى الصواب، وإن أخطأت وقصرت فمن نفس التي فطرت على التقصير والخطأ، وهذه بعض ما وصلت إليه من بحث وجدت أرجو الله تعالى أن تضيف نقطة جهد إلى محار جهود البشر في دراسة هذا الكتاب، والعمل بمقضاه. ولقد اختلفت من القرآن الكريم هذا البحث في جهد المقل، وعجز البشر، ونقص الإمكانات. وجهل العقل بما لم يعلمه الله تعالى (القرآن 128)، وعلمت أن خير أمر هو تعلم القرآن وتعليم القرآن وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، وحين نرجو أن تكون من هؤلاء - متعلمين ومعلمين - واعين دارسين متابعين هذا الأمر حتى تلقى الله تعالى على خير وجه نروجه إن شاء الله.

وأشير ثانية إلى تقصيره، ولا أدرى فلعلني إذا رجعت يومًا إلى ما كتبته الآن أجد أقلاً وأندثر مما سعت إليه، ففعل القرآن واسع لا حدود له، ولا شواطئ ولا سواحل كما قلت وإذا نحن نعثى قطرات ونأخذ قطرات ويبقي هذا القرآن للعالمين نذيراً.
أسماء القرآن الكريم وذكرها في القرآن الكريم

ورد ذكر القرآن الكريم في القرآن الكريم تحت اسم (الكتاب) اثنين وثمانين مرة.

وهذا الاسم هو الأكثر ورودا في أسماء القرآن الكريم (أما اسم (القرآن) فقد ورد ثمانون مرة متكاررا في بعض الآيات ومنفردا في آيات أخرى. أما الاسم الثالث: (القرآن) فقد ورد ثلاث مرات فقط وتعد بعد ذلك صفات هذا الفرقان كتاب الله القرآن. فكانت الأيات وقد وردت ستة وثلاثين مرة، والتنزيل: أربع مرات، والوحى: خمس عشرة مرة، والحق ثلاث عشرة مرة والذكر أثنتين عشرة مرة، واللائم: سنتين ثم كلمات ولسان ثلاث مرات لكل واحدة منها، وبلاغ: صدق، وبيان، وصائر، مرتين لكل واحدة منها، وأخباراً، إنذاراً.

ومن عند الله، سحر، وصفي، وإشارة، هو مرة واحدة لكل منها.

أما هذه الأسماء البتا بلغت اثنتين عشرة مرة كانت ترد في موضوعها وبالكلان المطلوب لها في آيات بيين وابحات يذكرن دوما بفضل هذا الكتاب، وبعض كل هذا في سرد مبين للعلمان، حتى يكون عليهم حجة، وهم شفيعاً ودستوراً وبيانا في حياتهم الدنيا، وفي أسلوب مشوق رائع أعجز الخلق من إنس وجن، فقالت الجنة: إنا نحن الذين جلبتنا mão يومئذ إلّى آئشينب، فقامتنا به، (الجن).

أما الإنسان فقد تخذاهم، والتحدي قائم لإعجازه وبلاغته وشملولة ومحتراء على أن يأتيوا بالسورة من مثله، بل بآية من آياته فقط كل الذين تعودوه من زمن التحدي.

(1) لو جمعنا ورود كلمات (الكتاب) 28 + الالكذبر 12 + الهدى 17 + الفرقان 12 (لسان المجموع 114) على عدد سور القرآن الكريم. ولو جمعنا (القرآن) 18 + الآيات 36 + اللائم 6 + بيانا 2 + صافات 12 (لسان المجموع 114) على عدد سور القرآن.

لو جمعنا بقية الصفات وهي: (التنزيل 24 + الوجيه 15 + الحق 12 + كلامات 10 + الحبر 12 + كلمات أبناء إنذار، حرف، عن عبد الله، صرف، هو 6) لكان المجموع = 68. شمان وستين، وتوازي هذه الصفات ذكر القرآن نفسه شمان وستين مرة وجميع ما ذكر القرآن في القرآن الكريم هو ماثمان وست وثامون مرة، والله أعلم بذلك.
عندما نزل على رسول الله ﷺ منذ ألف وأربعمائة وخمس وأربعين سنة قرية إلى يثمار، والتحدى قائم إلى أن يشاء الله جل وعلا.

إنا - إن شاء الله - سنعود إلى تلك الأوصاف الواحدة تلو الأخرى، راجين الله تعالى أن يفتح أمامنا المغالق كلها. وأن ينير قلوبنا وأبصارنا وصاصرا بنور القرآن العظيم، ليكون هذا البحث المتواضع خدمة لهذا الكتاب الجليل، سنعود إلى كل صفة بعون الله تعالى فما وردت واحدة إلا والأخرى غيرها، أو مؤكدة لها أو مسندة لها، أو موضحة لها أو ذات معنى آخر، ومفهوم آخر، واتجاه آخر، لكنها كلها تدور حول دور هذا الكتاب، الذي اختاره الله تعالى لبداية عبادة، وليكون خاتماً، جامعاً، شاملاً، على ما أوحى الله به إلى نبيه، أمراً، محللاً، غيرما، ناهياً، مسيراً، مقدراً، حاکياً لخلقه ما يريد منهم. هادياً إياهم إلى سبيل الرشاد، مبيناً لهم خاتمة سلوك طريق الضلال، الجنة والنار كأنهما رأى العين والثواب والعقاب متواطنان تناوتاً عجبنا، الشوائب بعشرة أمثاله وبيضاعف، والعقاب بملته وميحى مظهراً صفات الله تعالى، وأسمائه التي ارتضاهها لنفسه، مزيلةً عن العيون الرمد والغشاوة والمرض، منира سبيل السالكين إلى الحق حتى يطؤوا الجنة بسلام هذا الكتاب الوصوف بتلك الأوصاف التي سنقف عليها بعون الله ومشيئة الله وإرادة الله الخليلين مفسرين، وتأهل الفضل من بقين مسترشدين، حتى نبين ما يقرنا الله عليه من عظمة هذا الكتاب.

الخطة: أن أبدأ بالفاظ القرآن متبعة ورودها في أماكنها، ثم أنتقل إلى الكتاب ثم إلى غير هذين الأسمن من صفات وأسماء أخرى، وليس في ذلك الترتيب أي فضل أو تقديم أو تأخير لغاية محددة، ولكن الأمر كله هدى من الله إن شاء الله.

أردت أن أبدأ بشرح آيات القرآن المذكور فيها ولكن البداية ستكون بالكتاب وذلك لأسباب موجبة لهذا التقديم. أرى ألا ويروى كلمة الكتاب في بداية المصحف بعد الفاتحة مباشرة وكذلك ورد لفظ الكتاب مقدماً على الألفاظ الأخرى، ولتلك مشيئة الله تعالى، فأردت أن استفتح بما استفتح به الله تعالى كتابه العزيز بعد الفاتحة مباشرة، وأرجو أن يكون ذلك هدياً من الله الهاذى العزيز.
معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة في كلام العرب: الإبناة لها من سورة أخرى، وإنفصالا عنها؟

وسميت بذلك لأنه يرتفع بها من منزلة إلى منزلة، قال النابغة:

أم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتبذب

أي منزلة شرف ارتفعت إليها عن منزل الملوك، وقيل سميت بذلك، لشرفها

وارتفاعها، كما يقال لما ارتفع من الأرض: سورة، وقيل: سميت بذلك؟ لأن

قارئها يشرف على ما لا ينعد عندما كسور البناء، كله بغير همز، وقيل سميت

بذلك لأنها قطعت من القرآن على حدة من قول العرب للبقية: سورة، وجاء

في أسانس الناس أه بياهم. فعلى هذا يكون الأصل سؤرة بالهمزة، ثم خففت

فابذلت وأو انضمام ما قبلها، وقيل: سميت بذلك لتمامها وكماها من قول

العرب للنافقة التامة: سورة وجمع سورة سور بفتح الواو.

وقال الشاعر:

سود الحاجر لا يقرآن بالسور.

ويجوز أن تجمع على سورات وسؤرات.

واما الآية: فهي العلامة، بمعنى أنها علامة لأ نقط لكلام الذي قبلها من

الذي بعدها وإنفصاله، أو هي بائنة من أختها ومنفردة، وتقول العرب، بيني

 وبين فلان آية: أي علامة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ۚ ۚ أَيَّةَ مُلْكِهِ﴾

[ البقرة : 248]. وقال النابغة:

توهمت آياتها فعرفتها

لستة أعوان وذا العام سابع

وقيل: سميت آية لأنها جمع حرفي من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج

القوم بآياتهم أي بجماعتهم، قال برج مسهر الطائى:
ورى: وسماً آيةً: لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بملها، وختص النحوين في أصل آية: فقال سبيء: آية على فعلة مثل أكمة وشجرة، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلب ألفاً، فصارت آية بهمزه بعده مدة وقال الكساي: أصلها آية على وزن فاعلة، مثل آمنة، فقبلت الياء ألفاً، لتحركها وانفتح ما قبلها، ثم حذفت لاتباعها بالجمع، وقال الفراء: آية بتشديد الأولى فقلبت ألفاً كراهة للتشديد، فصارت آية وجمعها آي وأياء، وأنشأ أبو زيد:

لم يبق هذا الدهر من أياته غير أثانيه وأرمدائه،

صفيه كتاب الله في كتاب الله

[سورة الفتح: 56]. قال محمد: لا إلا الله، قال النبي ﷺ: "كلمات حكيمتان على لسان ثقينان في الميزان، حبيتان إلى الرحمن سبعات الله وحده، سبعان الله العظيم"، وقد تسمي العرب القصيدة بآيها، والقصة كلها كلمة يقولون: قال قس في كلمته كذا أي في خطبة، وقال زهير في كلمته كذا، أي في قضيته وقال فلان في كلمته: يعني في رسالته فتسمي جملة الكلام كلمة إذا كانت الكلمة منها، على عادتهم في تسمية الشيء باسم ما هو منه، وما قاربه، وما جاوره، وكان سببًا منه، مجازًا وإفساء.

وأما الحروف: فهو الشبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفًا على ما بناه من الاتساع وとなية قال أبو عمرو الداني: فإن قيل: فكيف يسمى ما جاء عن حروف الهجاء في الفواح على حرف واحد نحو "ص وق وق" و"ن" حرفًا أو كلمة؟ قلت: كلمة لا حرفًا وذلك أن الحرف لا يستك عليه، ولا ينفرد وحده في السورة، ولا ينفصل عما يختلف به، وهذه الحروف مسكونت عليها متفردة متصلة كائمتاد الكلمة وانفصالها، فذلك سميت كلامات لا حروفًا. قال أبو عمرو: وقد يكون الحرف في غير هذا المذهب والوجه، قال تعالى: "ومن الناس من يُعبِّدُ الله على حرفي"، أي على وجه ومذهب، ومن ذلك قول النبي ﷺ: "أنزل الله القرآن على سبعة أحرف، أي سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم".

(1) القرطبي 1/95 - 98.
فصل
القرآن
1- هدى للمتقين

الله تعالى: الله تعالى لا زيت فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقتهما يشفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل من قبلك وبدل آخر هم يوفقون، أو تليكم على هدى من ربيم وأولئك هم أم الفيلحورب. [البقرة].

الفرق: بداية المصفح الشريف بعد الفاتحة (1)، ودلالة على كون

(1) للفاتحة أثنا عشر اسمًا ذكرها القرطبى وهي: الصلاة، للحديث القدس: "قسمت الصلاة بيني وبين عبد نصفين" (رواه مسلم ومالك وغيرها من ابن أبي هريرة).

وسورة الحمد، لأن فيها ذكر الحمد.

وفاتحة الكتاب، لأنه تفتح قراءة القرآن بها لفظاً وكتابة، وتفتح بها الصلاوات.

وأم الكتاب، في رأي الجمهور.

وأم القرآن في رأي الجمهور لقوله: "الحمد الله، أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثنى" (رواه الترمذي عن أبي هريرة).

والمثاني، لأنها تنفي في كل ركعة.

والقرآن العظيم، لتضمنها جميع علوم القرآن ومقاصده الأساسية.

والشفاء، لقوله: "فاتحة الكتاب شفاء من كل سما" (رواه الدارمي عن عبد الملك بن عمير) بلغظ: "في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء".

والرقة، لقوله: "من رقي بها سيد الحلي: "ما أدرك أنها رقة" (رواه الأئمة عن أبي سعيد الخدري).

والأساس: قول ابن عباس: "أساس الكتب، القرآن وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة.

(بسم الله الرحمن الرحيم).

والوافية: لأنها لا تنصف، ولا تحتمل الاختزال. فلو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز عند الجمهور.

والمكافأة: لأنها تكفي عن سواءها، ولا يكفي سواءها عنها.
الآن: مكونة من الحروف المقطعة: قول النبي: "من قرأ حرفًا من كتاب الله تعالى - فله حسنة، والحسنة العشر أمثالها. لا أقول: "الله" حرف ولكن ألف حرف، ولأم حرف، وميم حرف" ثم يأتي ذكر القرآن الكريم، ومن ثم استكمال الذكر بذكر المتفرق الذين يعرفون هذا الكتاب وجعلهم ويهمنون به.

ثم وصف الله تعالى: القرآن بأوصاف ثلاثة:

الأول: أنه الكتاب الكامل في كل ما يشتمل عليه من معانى ومقايس وقصص وعبر وشروحات غير قابلة للنقض.

والثاني: أنه لا شك في كونه حقًا من عند الله من أمعن النظر وأمعن بلبه.

والثالث: أنه مصدر هداية وإرشاد للمؤمنين المتين، الذين يتقون عذاب الله، بامتثال أواخره واجتناب نواهيه، فهم المنتفعون به.

هذه البداية الرائعة لذكر كتاب الله في كتاب الله إذا هو درس في ابتداء قراءة القرآن، بدء يشير إلى أن هذا الكتاب لا يتحمل الريب والشك، كتاب من عند الله - عز وجل - يقينا وصدقًا وإيمانًا، هذا الكتاب الذي يفتح بذكره ليذهب من نفس المرتددين كل سوء وشك في كونه حقًا مطلقًا من الله العزيز الحميد، فيه الهدف والدور والدستور والحياة والقصص والعلوم والبلاغة. فهذه المعارف التي لا تحصى إذا هي هدى للمتدين، حيث أبان الله تعالى أربع صفات للمتدين:

الذين يؤمنون بالغيب: وهم الذين يؤمنون ويصدقون بالغيابات التي أخبر عنها القرآن من البعث والحساب والصرر وجدنة والنار وغيرها، فلا يقفون عند مجرد المدارات والمحسوسات التي يدركها العقل إدراكا قريبا، وإنما يدركون أيضا ما وراء المادة من علوم أخرى كالروح والجن والملائكة، وعلى رأسها ووجود الله ووحدانيته.

هذه أسماء سورة الفاتحة وأشهرها ثلاثة: الفاتحة، وأم الكتاب، والسبع المتاني، والسورة: طائفة من القرآن مؤلفة من ثلاثة آيات فأكثر، فها اسم يعرف بطرق الرواية الثانية. التفسير المثير
ثم يؤدِّون الصلاة: على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها وخشوعها فالصلاة بدون خشوع وتأمل في المقروء فيها وتدير المعاني القرآنية وخشية الله جسم بلا روح.

ثم يفقون: في وجه البر والإحسان من الأموال كالزكاة والصدقات وسائر النفقات الواجبة شرعا، فيتحقق الرخاء لجميع الناس. وتظهر الأموال مما شابها من شبهات، فيكتمل البناء المنشود شرعا، بناء الفرد بالصلاة التي هي عبادة الدين وبناء المجتمع بالزكاة وتوبتها التي هي أساس التقدم ورقي الحياة وسعادة الأمة. فالآية عامة في كل غيب آخر به الرسول ﷺ أنه كان، وعام في كل صلاة فرضًا كانت أو نافلة، وعام في كل نفقة.

ثم إن أولئك المتقين هم الذين يصدقون جميع ما أنزل على النبي محمد ﷺ وعلى سائر الأنباء والمرسلين، ويصدقون أيضاً تصديقه جازماً لا ريب فيه بالآخرة، وما تضمه من بعث الأجناد والأرواح معاً من القبور، وحساب وجزاء وميزان وصراط وجنّة ونار.

وهؤلاء الموصوفون بما ذكر من الإيمان الحق بالغيب، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والاعتقاد باليوم الآخر، والإيمان بالقرآن، وبالكتاب المنزله قبله ( وهي التوراة والإنجيل والزبور والصحف) هم على هديًا من ربيهم، وعلى منزلة عالية عند الله، وهم الفائزون بالدرجات العالية في جنات الخلدود.

 فمن اتصف بأوصاف المؤمنين المذكورة كان القرآن هدى له ؟ أي إنه إمامه في أعماله وأحواله. لا يجيد عن نهجه، وقد ضمن لنفسه النجاة في عالم الآخرة والسعادة والطمأنينة في الدنيا، والمشار إليه عند الجمهور وهم المؤمنون وحدهم، وكرر الإشارة للإعلام بأنه لا بد من تحقيق الوصفين؛ لتحقق الحكم بأنهم على هدى وأنهم هم المفلحون. قال مjahad: في أول البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين وآيات في نعت الكافرين، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين.

وتعود إلى صورة أخرى في هذا المقام؛ تبدأ السورة بهذه الأحرف الثلاثة

(1) التفسير المنير 1/ 74.
(2) المصدر السابق 1/ 76.
المقطعة: ألف، لام، ميم، يليها الحديث عن كتاب الله: «ذَلِكَ الْحُسْبَنُ لَا رَيْبَ فيهِ هَدْيَ الْمُلْبِقِينَ».

ومثل هذه الأحرف تتجلى في مقدمة لبعض السور القرآنية، وقد وردت في تفسيرها وجهة كثيرة، خُصِّرت منها وجالا، إما إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخطّنين به من العرب، ولكنه مع هذا هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يمكن أن يصوغوا من تلك الحروف مثّله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة مرة أن يؤولوا مثّله، أو بعض سور مثّله، أو بسورة من مثّله فلا ينكنون هذا التحدي جواباً.

والشأن في هذا الإعجاز هو الشائان في خلق الله جميعاً، وهو مثل صنع الله في كل شيء وصنع الناس.

إن هذه الرتبة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات، فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقيرها ما يصوغونها منها لبيّة أو أجرة، أو أئمة أو أسطوانة، أو هيكلاً أو جهازاً كامناً في داخلها ما يكون. ولكن الله البديع الصنع يجعل من تلك الذرات حياة حياة نابضة خافقة، تطور على ذلك السر الإلهي المعجز - سر الحياة. ذلك السر الذي لا يستطيع معرفته بشرو، ولا يعرف سره بشرو، وهكذا القرآن حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاماً وأواعاً ويلع الله منها قرآناً وفرقنا، والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات، هو الفرق ما بين الجسد الخادم والروح النابض، هو الفرق بين صورة الحياة وحقيقة الحياة.

ذَلِكَ الْحُسْبَنُ لَا رَيْبَ فيهِ هَدْيَ الْمُلْبِقِينَ. وَمَنْ يَكُونُ رِبْبٌ أَرْشِكَ، وَدَلَّةً الصدِّق، واللّيّين كامه في هذا المطلع، ظاهرة في عجزهم عن صياغة مثله من مثل هذه الحروف المتداول بينهم المعروفة لهم من لغتهم.

ذَلِكَ الْحُسْبَنُ لَا رَيْبَ فيهِ هَدْيَ الْمُلْبِقِينَ، الهدى حقيقته، والله طبيعته، والله يكبه، والله ماهيته، ولكن لم? لم يكون ذلك الكتاب هدي ونوراً، ودليلنا ناسعاً مبيناً للمتقين، فالتأمر في القلب هي التي تؤلهه للانتفاع بهذا الكتاب هي التي تفتح مغاليق القلب له، فتدخل ويوصي دوره هناك، هي التي تهيئ هذا القلب أن يلتقى وأن يتلقى وأن يستجيب.
لا بد من يвид أن يجد الهندى في القرآن أن يجيء إليه بالقلب سليم، بقلب خالص.
ثم يجيء إليه بالقلب يخشى ويتوقد، ويحذر أن يكون على ضلالاً وعندئذً يفتح القرآن عن أسراره وأسراره، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقياً، خائفاً حساساً، مهياً للتقى، ورد أن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له: أبا سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: بل في ذلك التقوى. فما عملت؟ قال: تموت واجتهدت. قال: كذلك التقوى.

ذلك التقوى حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأوشاع الطريق، طريق الحيا، الذي تتجاوزه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامع، وأشواك الخوف، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب فيمن لا يملك نفعا ولا ضرراً، وعشرات غيرها من الأشواك.

إن السمة الأولى للمتقين: هي الوحدة الشعرية الإيجابية الفعالة، الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب، والقيام بالفرائض، والإيمان بالرسل كافية، واليقين بعد ذلك بالآخرة. هذا التكامل الذي يمتاز به العقيدة الإسلامية، يمتاز به النفس المؤمنة بهذه العقيدة، والجدير بأن تكون عليه العقيدة الأخرى التي جاءت ليلتقي عليها الناس جميعاً، وليهيمن على البشرية جمعاً، لليعيش الناس في ظلها بشاعرهم، ويتهيأ حياتهم حياة متكاملة، شاملة للشعور والعمل والإيمان والجهد.

تلك كانت بداية ذكر القرآن الكريم ارتباط بالأخلاق المتعة - ثم هو لا شك فيه ولا ريب، ثم هو هدى للمتقين، الذين يقيمون الصلاة، يؤدون الزكاة، والآخرة هم موقفنا - ارتباط القرآن بهذه الفئة من الناس المؤمنة هي التي تؤدي إلى التفاعل بين المعتقد والمتجر، فيكون ذلك الجيل القرآني الذي يمكن أن يتواجد في كل زمان ومكان، يؤدي رسالة الإنسان في الأرض من العدل والعلم والبناء والحضارة والسلام.

(1) في ظلال القرآن 1/38.
في ثمانية وستين موضوعا ذكر القرآن الكريم، نحن نتحدث عن بعض منها في فصول سابقة لأهميتها ورودها في تلك المواضع، وتتابع بعون الله تعالى وتوقيقه الحديث عن عظمة هذا الذكر، وتفهم الناس عن جلالة معاني القرآن الكريم، كما أرادها الله، جل قدرته في إعلام مركز جلال وعظمة القرآن الكريم، لذلك الكتاب الذي لا يأتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي إعجاز متنا يفوق مدارك البشر وأفهامهم، ليفقه البشر بما أوصوا من علم ومقدمة أمام هذا الإعجاز خشعين مقررين بأنهم هم الضعفاء، وهم الملائمون في الصغر أمام عظمة هذا الكتاب الذي لو أنزل على جبل لرأيتها خشعا متصدعا من خشية الله.

قال تعالى: ﴿فِيَّ رَمُضَانِ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هِدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: 2]
تدبر القرآن

إذا تبدؤون القرآن، وهو كان من عند غير الله ووجدوا فيه أجملًا كبيرًا.

وردت هذه الآية الدالة على أن القرآن من عند الله عز وجل في سياق آيات أخرى، وهذه الآيات قول الله جل وعلا: من يطعم الرسول فقد أطاع الله ومن تؤذى فما أرسلنا عليهم حيثًا، ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طبيعة منهم غير الذي تقول وآلهة يكتب بها النبيُّون فأعترض عليهم وتوكّل على الله. وكفي بأنت وأكيالناً. إما تبدؤون القرآن وهو كان من عند غير الله ووجدوا فيه أجملًا كبيرًا.

إذن سبب نزول هذه الآيات: روى مقاتل أن النبي كان يقول: من أحبني فقد أحبي الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله، فقال المنافقون: ألا تسمعون ما يقول هذا الرجل؟ لقد قارف الشرك، وقد نهى أن نعبد الله، يريد أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى، فأنزل الله هذه الآية.

فقد أكد الله تعالى هنا ما سبق من الأمر بطاعة الله والرسول، وأوضح أن طاعة الرسول تعود في النهاية لله تعالى، وكشف مراوغة المنافقين(1).

ويُخبر الله تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى؛ ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع الأمر فقد أطاعني ومن عصى الأمر فقد عصاني، معنى الآية: من أطاع الرسول فقد أطاع الله، لأنه الأمر الناهي في الخليقة، والرسول مبلغ للأمر والنهي، فليست الطاعة له بالذات وإنما هي لم يبلغ عنه وهو الله عز وجل.

(1) التفسير المتير 5/169.
أما ما يأمر به الرسول ﷺ من الأمور الدنيوية; تكابر النخل (تلقينه بطلع الذكور) وأكل الزيت والدهان به، وكيل الطعام من قمح وغيره عند طحنه وعجنه، فهو مجرد اجتهاد برأيه، لا تجب طاعته فيه. وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا شكوا في الأمر، أهو وحي من عند الله أم اجتهاد من الرسول؟ سألوه، فإن كان وحيا أطاعوه بلا تردد، وإن كان رأيًا من عهده ذكروا رأيا آخر وأشاروا بما هو أول. كما حدث في غزوة بدر وأحد، ورما رجع إلى رأيهم.

ومن أعرض عن رأيك خاب وخرس، وليس عليك من أمره شيء، وليس لك أن تكرهه على ما تريد، إن عليك إلا البلاغ، لست عليهم بمسير، والخساران لاحق به، كما جاء في الحديث الصحيح: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن بعض الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه.

ثم أخبر الله تعالى عن المناقفين بأنهم يظهرون المواقفة والطاعة، فقولون: أرمانا طاعة لك أو أمرك طاعة أو أمرك مطاع، نفاقا وانقيادا ظاهرا، فإذا خرجوا من مكانك وتواروا عنك، دبروا ليلة فيما بينهم رأيا غير ما أظهروه لك. روي أن جرير الطبري عن ابن عباس أنه قال: هم ناس يقولون عند رسول الله ﷺ: أمنا بله ورسوله، ليأمنوا دماؤهم وأموالهم وإذا برزوا من عند رسول الله ﷺ خالفوا إلى غير ما قالوه عنه، فعاقبهم الله على ذلك (وَلَمْ يُكْبَرْ مَا كَبِيْثُوْنَ) ﷺ، وكتبهم عليهم ما يأمر به حفظه الكابين الذين هم موكلون بالعباد، والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخس بأنه عالم بما يضمره ويسروهم فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلًا من خلافة الرسول ﷺ وعصيته، إن كانوا قد أظهروه له الطاعة والموافقة، وسيجزيه على ذلك.

(1) التفسير المنير 5/170.
وتأتي أهمية كتاب الله في هذا السياق بالتأكيد على تدبر هذا القرآن، إذ يقول تعالى آملًا لهم بتذيب القرآن، وناهيا لهم عن الإعراس عنه وعن تفهم معاني المحكمة والأخلاق البليغة، وخبرا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تعارض؛ لأنه تنزل من حكيم حي، فهو حق من حق، وهذا قال تعالى: "فأَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ءَايَاتِ رَبِّهِمَا الْقُرْآنِ؟ إِنَّا كَانَ مِنْ عِنْدِ عَزِيزٍ غَلِیِّبٍ" [العديد: 68]. ثم قال: "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَیْبِ ۚ اللَّهِ" [النساء: 2]. أي: لو كان مفعولا غفلاً كما يقوله من يقوله من جهة المشركين والمنافقين في بواطنهم لوجدوا فيه اختلافًا أي تضارباً وتبادلاً كثيراً، وهذا سالم من الاختلاف فهور من عند الله، كما قال تعالى خبرا عن الرسل في القرآن حيث قالوا: "أَمَّا يُبِينُكُمْ مِنْ عِنْدِ زَيْنِبَةِ" [آل عمران: 7]. أي: محكمه ومتشابهه حق. فلها ردوا التشابه إلى الحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم يزغ ردو الحكم إلى التشابه فغزوا، وهذا مدح تعالى الرسل فيهم لمراقبين. قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياش حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو حامد، حدثنا عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده قال: لقد جلسنا مجتمعاً أنا وأخي ما أحب أن لى بحرب النعم، أقبلت أنا وأخي: إذ مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حجرة، إذ ذكرنا آية من القرآن، فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً، حتى أحر وجهه يرميه بالتراب، ويقول: مهلا يا قوم بهذا أهلت الأمم قبلكم باختلافهم على أئمتهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل ليذيب بعضه بعضاً، إنما نزل يصدق بعضه ببعض، فما عرفتم منه فأعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه.

وهكذا رواه - أيضاً - عن أبي معاوية، عن داود عن أبي هند، عن عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، فكأنما يفتق في وجهه حب الرمان من الغضب فقال لهم: ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض، بهذا هلّك من كان قبلكم، قال: فما غبت نفسني بمجلس فيه رسول الله ﷺ ولم أشهد ما غبت نفسها بذلك الجلسة أنى لم أشهده، رواه ابن ماجه.

وحدث الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: هجرت
إلى رسول الله ﷺ يوماً إذا اختلف اثنان في آية، فارتفعت أصواتهما:

"إذا هلكت الأمم قبلكم باختلافهم بالكتاب، رواه مسلم والنسائي من حديث حداد بن زيد به (1)."

وكانة الخطة التي وجه الله نبيه ﷺ بها في معاملة المنافقين، هي أخذهم بظاهرة لا حقيقة نواياهم - والإعراض والتغاضي عما يدير منهم، وهي خطة قبلتهم في النهاية وأضعفتهم، وجعلت بقاياهم توارى ضعفاً وخجلاً، وهنا طرف من هذه الخطة: "فأعرض عنهم" ومع هذا التوجه بالإغضاء عنهم والتطمین بكللاء الله وحفظه بما بيثون: "وَوَتَوَصَّلَ عَلَى الله وصَفَّى بِالله وكيلاً"

[الأجراب]

نعم: "وَصَفَّى بِالله وكيلاً"، لا يضار من كان الله وكيله، ولا يناله تأمر، ولا تبثت، ولا مكيدة، وكأنما كان الذي يدفع هذه الطائفة إلى أن تقول في حضرة الرسول ﷺ مع القائلين: "طاعة"، فإذا خرجت ببتيت غير الذي تقول...

كأنما كان هذا بسبب شكلهم في مصدر ما يأمرهم به الرسول ﷺ، وظنهم أن هذا القرآن من عنده! حين يوجد مثل هذا الشك لحظة توارى سلطان الأمر والتكليف جلة، فذا هذا السلطان مستمد كله من الاعتقاد الجامع الكامل بأن هذا كلام الله - وبأنه لا ينطق عن الهوى، ومن تم كان هذا التوكيد الشديد الجامع المكرر على هذه الحقيقة.

وهنا يعرض عليهم القرآن خطة، هي غاية ما يبلغه النهج الرباني من تكريم الإنسان والعقل الإنساني، وأحترام هذا الكائن البشري وإدراكه، الذي وله له الخلق المانع، يعرض عليهم الاحتكام في أمر القرآن إلى أدراكهم هم وتدير عقوبهم، وعينهم منهج النظر الصحيح كما يعين لهم الظاهرة التي لا تخطئ إذا اتبعها ذلك النهج، وهي ظاهرة واضحة كل الوضوح في القرآن من جهة، ويمكن للعقل البشري إدراكها من جهة أخرى. ودلالتها على أنه من عند الله دالالة لا مارد.

(1) تفسير ابن كثير 542/1
في هذا النص وهذا التوجيه، منتهى الإكرام للإنسان، وإدراكه وشخصيته - كما قلنا - كما أن فيه منتهى النصفة في الاحتكام إلى هذا الإدراك في ظاهرة لا يعبثه إدراكها، وهي في الوقت ذاته دلالة - كما أسلفنا - لا مماراً!

والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يختبئ من يتدبر هذا القرآن أبداً، ومستوياتها ومجالاتها ما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها، ولكن كل عقل وكل جيل يجد فيها - بحسب قدرته وثقافته وخبرته وتجاربها - ما يملك إدراكه، في مهبط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والقوى.

ومن ثم فإن كل جيل، وكل جيل، مخاطب بهذه الآية. ومستطيع عند التدبر وفق منهج مستقيم - أن يدرك هذه الظاهرة، ظاهرة عدم الاختلاف أو ظاهرة التناسق - ما تهيئ له قدرته وثقافته وخبرته وتجاربها.

وتلك الطائفة في ذلك الجيل كانت تخطط بشيء ندركه، وتمكن التحقق منه بإدراكها في حدودها الخاصة.

تجلّي هذه الظاهرة، ظاهرة عدم الاختلاف، أو ظاهرة التناسق، ابتداءً في التعبير القرآني من ناحية الأداء، وطرائقه الفنية، ففي كلام البشر تبدو القمّة والسفر، التوفيق والتعثر، القوة والضعف، التحلق والهبوط، الرفرفة والثقة، الإشراق والانطفاء، إلى آخر الظواهر التي تجلّى فيها سمات البشر، وأخصوصها سمة: التغيير والاختلاف الدائم المستمر من حال إلى حال يبدو ذلك في كلام البشر واضحاً عندما تستعرض أعمال الأديب الواحد، أو المفكر الواحد، أو الفنان الواحد، أو السياسي الواحد، أو القائد العسكري الواحد، أو أي شخص في صناعته التي يبدو الوسم البشرى واضحاً فيها وهو التغيير والاختلاف.

هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح أن عكسها وهو: النبات والتناسق، هو الظاهرة المحوضة في القرآن، وعن تحدث فقط - عن ناحية التعبير الفظي، والأداء الأسلوبي، فهناك مستوى واحد في هذا الكتاب المعجز تختلف الوانه.
باختلاف الموضوعات التي يتناولها، ولكن يتحدد مستوى واقعه. والكمال في الأداء بلا تغيير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى - كما هو الحال في كل ما يصنع الإنسان، إنه يحمل طابع الصناعة الإلهية، ويبدع على الصانع، يدل على الموجودة الذي لا يتغير من حال إلى حال، ولا تتواло عليه الأحوال.

وتNELJ ظاهرة عدم الاختلاف.. والتنوع المطلق الشامل الكامل بعد ذلك في ذات المنهج الذي تحمله العبارة، ويؤديه الأداء(1).

وإذا كان الفارق بين صناعة الله وصناعة الإنسان واضحًا، فكل الوضوح في جانب التعبير اللغوي والأداء الفني، فإنه واضح في ذلك في جانب التفكير والتنظيم والتشريع. فما من نظرية بشرية، وما من مذهب بشرى إلا وهو يحمل الطابع البشري، جزءية النظر، والرؤية، والتأثير الواقعي بالمشكلات الوقتية، وعدم رؤية المناقضات في النظرية أو المذهب أو الخطة التي تؤدي إلى الاصتدام بين مكوناتها - إن عاجلاً أو آجلًا - كما تؤدى إلى إحداث بعض الخصائص في الشخصية البشرية الواحدة، التي لم يحسب حساب بعضها، أو في مجموعة الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحدة منها، إلى عشرات ومئات من الثقافات والاختلاف الناشئة من طبيعة الإدراك البشري المحدود، ومن الجهل البشري بما وراء اللحظة الحاضرة، فوق جهله بكل مكونات اللحظة الحاضرة - في آية لحظة حاضرة، وعكس ذلك كله ما يتسم به المنهج القرآني الشامل المتكامل الثابت الأصول، ثبات النوميس الكونية، الذي يسمح بالحركة الدائمة - مع ثباته - كما تسمح بها النوميس الكونية(2).

(1) في ظلال القرآن 2/221
(2) في ظلال القرآن 2/222
3- القرآن: البيان

في بياني الحبوب، أتيناكم لا تفعلوا عن أشياء إن تَبَيَّنَ لَكُمُ تَسْوُؤُمُ فَإِن تَسْتَلِفُوا عَنْ هَٰذَا
حين ينذر القرآن تَبَيَّنَ لَكُمُ عَقَّةَ أَنْتُهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۚ وَقَدْ سَأَلَهَا قُوْمِ مَنْ قَبْلَهَا مَثِّرَ أصْبَحُوهَا يَهُوَآ كَفِيرًا (1) [المائدة].
كان بعضهم يكثر على رسول الله سل الله عليه وسلم من السؤال عن أشياء لم ينزل فيها أمر أو
نهي، أو يلحف في طلب تفصيل أمور أجعلها القرآن، وجعل الله في إجابة سعة
للناس، أو في الاستفسار عن أمور لا ضرورة لكشفها فإن كشفها قد يؤذي
السائل عنها أو يؤذي غيره من المسلمين.

و روى أنه لما نزلت آية الحج سال سائل، أُفِى كل عام، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم
هذا السؤال ؛ لأن النص على الحج جاء مجمولاً: فَوَلَّهُ عَلَى الْحَجِّ الْأُولِيَّة مَنْ
اشتَهَأ إِلَيْهِ سَيِّئًا (آيَةُ عمران: 97) والحج مرة يجزى. فأما السؤال عنده: أُفِى
كل عام فهو تفسير له بالصعب الذي لم يفرضه الله.

وفي حديث مرسل رواه الترمذي والداوقي عن علي قال لما نزلت هذه
الآية: فَوَلَّهُ عَلَى الْحَجِّ الْأُولِيَّة مَنْ اشْتَهَأ إِلَيْهِ سَيِّئًا (آيَةُ عمران: 97) قالوا:
يا رسول الله أُفِى كل عام؟ فسكت فقالوا: أُفِى كل عام فقال: لا. ولو قلت
نعم لو جبت، فانزل الله: فَيَتَبَيَّنَ لَكُمُ تَسْوُؤُمُ فَإِن تَسْتَلِفُوا عَنْ أَشْيَاءٍ يَبْتَغُونَ
ۚ وَقَدْ سَأَلَهَا قُوْمِ مَنْ قَبْلَهَا مَثِّرَ أصْبَحُوهَا يَهُوَآ كَفِيرًا (المائدة: 101).

وفي حديث آخر مسلم في صحيحه، عن أنس بن مالك: عن النبي صلى الله عليه وسلم:
لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به مادمت في مقامي هذا، فقام إليه رجل
 فقال: أي مدخلًا يا رسول الله؟ قال: النار، فقام عبد الله بن حذافة فقال: من
أبي يا رسول الله؟ فقال: أبوك حذافة، قال ابن عبد البر: عبد الله بن حذافة أسلم
قدما، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية. وشهد بدرا وكانت فيه دعابة! وكان

ومجموعة هذه الروايات وغيرها تعطي صورة عن نوع هذه الأسئلة التي نهى الله ﷺ الذين آمنوا أن يسألوها.

لقد جاء القرآن الكريم لا ليقرر عقيدة فحسب، ولا ليشرع عقيدة فحسب، ولكن كذلك ليبري أمة، ويبني مجتمعًا، وليكون الأفراد وينثems علىمنهج عقلي وخلقلي من صنعه، وهو هنا يعلمهم أدب السؤال، وحدود البحث، ومنهج المعرفة. وما دام الله ﷺ سبحانه وتعالى هو الذي ينزل هذه الشرعية، ويخبر بالد虚拟 من الأدب أن يترك العبيد حكتمه تفصل تلك الشرعية أو إجماعها. وأن يتركوا له كشف هذا الغيب أو ستره، وأن يفقوهم في هذه الأمور عند الحدود التي أرادها العلماء الخبيث. لا ليشددوا على أنفسهم بتصنيع التصور، وأجرى وراء الاحتمالات والفروض، كذلك لا يجرون وراء الغيب يحاولون الكشف عمّا لم يكشف الله ﷺ منه، وما هم بالغبيّ، والله ﷺ أعلم ببطاقة البشر واحتمالهم. فهو يشرع لهم في حدود طاقتهم. ويكشف لهم من الغيب ما تدركه طبيعتهم. وهناك أمور تركها الله ﷺ جميلة أو مجيلة ولا يشير عليها الناس في تركها هكذا كما أرادها ﷺ.

لذلك نهى الله ﷺ الذين آمنوا أن يسألوا عن أشياء يسوءهم الكشف عنها.
وأنذرهم بأنهم سيعابون عنها إذا سألوا في فترة الوعي في حياة رسول الله ﷺ وستترتب عليهم تكاليف عفًا الله عنها فإنك عفو سأكرمه ولم يفرضها (1).

وهذه بعض الأحاديث التي تنهي عن السؤال - وعما يمكن أن يسأل عنه من غير حرج.

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ذروني ما تكتكم، فإما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلفهم على أبيائهم.

ومن الأمثلة سؤال بنى إسرائيل عن البقرة والتشدد الذي وصلوا إليه، وكذلك كان - شأنهم - دائما حتى حرم الله عليهم أشياء كثيرة تربة لهم وعقوبة.

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن الله - تعالى - فرض فرض في ثلاث فتقطعه، وحرب أشياء فلا تنتهكها، وسكت عن أشياء رحمة بكم - غير نسيان - فلا تسألوا عنها.

وفي صحيح مسلم عن عمر بن سعد، عن أبيه قال، قال رسول الله ﷺ: إن أعظم المسلمين في المسلمين جرم، من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل سؤاله.

كان عمر بن الخطاب ﷺ يلهب من سأل عما لم يكن ذكره الدارمي في مسنده.


وقال الدارمي: حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة قال: حدثنا ابن فضيل، عن عطاء، عن ابن عباس قال: ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن، منهن:

» ويستللون الكأس على الأشرار \{ البقرة: 212 \} ، ويستللون الكأس على المحبطين«

(1) في ظلال القرآن 2/ 984 - 986
قال مالك: أدركت هذا البلد - يعني المدينة - وما عندهم علم غير الكتاب والسنة؛ فإذا نزلت نازلة جمع الأمة لها من حضر من العلماء، فما اتفقوا عليه أنفذه. وأثبتımızو المسائل وقد كرهها رسول الله ﷺ.

وقال الفرضي في سياق تفسيره للاية: روى مسلم عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله حرم عليكم عقوبة الأمهات، وواد البنات ومنع وهات، وكره لكم ثلاثة: قبل وقال، وكثرة السؤال، وإضاءة المآل". قال كثير من العلماء: المراد بقوله: وكثرة السؤال؛ التكثير من السؤال في المسائل الفقهية تنطع وتكلف فيما لم ينزل، والأغلوطات، وتشقق المولدات، وقد كان السلف يكرهون ذلك ويربوه من التكلف، يقولون: إذا نزلت النازلة وفق المسؤول لها.

وبذلك فإن هذا الذي نهى عنه رسول الله ﷺ قد جنب الجماعة المؤمنة الكثير من التكلف التي إن سألوا عنها لوجبت تلك رحمة الله تعالى في هذه الأمة، تنتظر حتى تنزل الآيات التي تبين الأحكام - الحلال والحرام - وتبيان تلك الشريعة السمحى التي أنزلت في القرآن على لسان المصطفى ﷺ رحمة بالعباد وراعة.

ويقف الإنسان حائراً؛ إجلاسا للتعبير القرآني في هذه الآية التي تبدو أبداء حقيقة حاول الكثيرون التشكيك فيها في الماضي والحاضر، وما زالت محاولتهم قائمة، وساتي من يتابعهم بأن هذا القرآن من عند غير الله، وتلك آية واحدة من مئات آلاف الآيات التي تناسق وتتكامل بشكل يجعل العقل البشرى يقطع أخيراً بأن هذا القرآن من عند الله فليس فيه اختلاف وليس فيه تنافس، وليس فيه حدودية للزمان والمكان، وإذا هو متكامل لكل زمان ومكان، ولكن جيل يدب على الأرض في المستقبل البعيد أو القريب: هذه صورة أولى من عظمة هذا الكتاب؛ لإدراك الحقائق الأبدية الحالية أن هذا القرآن من عند الله وحده، أوجي به إلى محمد ﷺ وحفظه؛ ليخلد فيما يخالد به تحرك الإنسان على الأرض، وليكون شفيعاً يوم الدين من سداق وأمان وعرف أن الحق من ربه - جل وعلا.

(1) راجع تفصيلاً: التفسير المبهر 79/7 فما بعدها، الظلال 2/84 فما بعدها، تفسير الفرضي تفسير آيات 101-102 من سورة المائدة - تفسير القرآن العظيم - ابن كثير تفسير أي آية.
القرآن النذير

فَأَقْلِتُ أَيُّ شَيْءٍ أَكْثَرَ شِهَادَةً قَلِلُ اللّهُ شِهَادَةَ بِنِيٍّ وَبَيْنَكُمْ ۖ وَأَوْحِيَ إِلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ
لَأَنْذِرْهُ مِنْهُ ۖ وَمَنْ يَلْغِسُ أَيُّهُمَّ لَا تَشَهِّدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ إِلَّا هُدًىٰ أَخْرَجَهُ خَالِدٌ ۖ قُلْ لَآ إِشْتَهَدَ قُلْ
ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَّهُ وَحِيدٌ ۖ وَإِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تُشَارِكُونَ (٩١) الأَنْعَامٍ

سبب نزول الآية: أخرج ابن إسحاق، ابن جرير، عن ابن عباس قال: جاء النحاس بن زيد، وقومون بن كعب، وجري بن عمر. فقالوا: يا محمد ما تعلمنا مع الله إلهاً غيره، فقال: لا إله إلا الله، بذلك بعثت إلى ذلك أدعو، فأنزل الله في قولهم: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْثَرَ شِهَادَةً قَلِلُ اللّهُ شِهَادَةَ بِنِيٍّ وَبَيْنَكُمْ

وقال الكلبي: إن رؤساء مكة قالوا: يا محمد، ما نرى أحدا يصدقنا بما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألتنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأنزل الله رسله كما تزعموا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الحسن البصري و غيره: إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: من يشهد لك بأنك رسول؟ فنزلت الآية.

وبعد معرفة سبب النزول فإن الله - تعالى - قد أبدى نبيه بشهادة هي أعظم الشهادات وأجلها، وأصبحها وأصدقها وهي شهادة الله بين نبي و بين المشركين شهادة تدل على صدق النبي ﷺ وتكشف حال أعدائه، فهو تعالى العالم بما جاء به الرسول، وما هم قالن له، وتقدير الكلام: أي شهيد أكبر شهادة: فوضع "شيء مقام شهيد ليبلاغ في التعليم، والجواب، الله أكبر شهادة وهو شهيد بيني و بينكم، أو الله شهيد بيني وبينكم، وإذا كان هو الشهيد بينه وبينهم فأكبر شيء شهادة شهيد له. وتنتمي الآية ردا قاطعا على المشركين الذين كانوا يقولون للنبي ﷺ: من يشهد لك بأنك رسول الله؟ (١) فإذا تقرر المبدأ، بدأ تكريم الله - سبحانه. في القضية، أعلن إليهم أن شهادة الله سبحانه تضمنها هذا القرآن،
الذي أوحاه الله سبحانه إليه ليذنبه به، وينذره به كل من يبلغه في حياته أو من بعد، فهو حجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم؛ لأنه يتضمن شهادة الله في هذه القضية الأساسية; التي تقوم عليها الدنيا والآخرة، ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنساني ضمنا.

وأوحي إلى هؤلاء الذين لأنذرواهم بمثابة آخرين: (الأنعام: 119)، فكل من بلغه هذا القرآن من الناس، بلغة يفهمها، ويحصل منها ختوها، فقد قامت عليه الحجة به، وبلغه الإذناد، وحق عليه الاعتقاد إن كتب بعد البلاغ، فأما من يقول عدم فهمه للغة القرآن دون فهمه للفواعد، فلا تقوم عليه الحجة به، ويبقى إيمانه على أهل هذا الدين الذين يبلغونه بلغته التي يفهم بها مضمون هذه الشهادة، هذا إذا كان مضمون القرآن لم يترجم إلى لغته.

روى عبد الزراق عن قتادة في قوله - تعالى: «لأنذرواكم به، ومن بلغ» أن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عن الله فمن بلغته أيه من كتاب الله فقد بلغه أمر الله» وروى ابن المتنزّر، وإيو برجي، وابن الشيخ ابن حبان الأنصاري، عن محمد بن كعب الفرثي قال: من بلغه القرآن فكاننا رأى النبي ﷺ، وهذه الكلمة مروية - أيضاً - عن سعيد بن جبير، ثم أعلن الله البراءة من المشركين القائلين بتدوينة الألفاظ، مبينا أن الواجب إعلان الشهادة بالوحدانية الله - عز وجل - فقال: «أينكم لتثنّوا» وهذا استنفاد إناكرًا واستعباد وتوريط وتقيع; فإنكم أيها المشركون تقرعون وجود آلة أخرى مع الله، وإن لا أشهد شهادتكم، كما قال - تعالى: «فإن شهدوا فلا تشهد معهم» (الأنعام: 150); وأخرج بإن الإله هو إله واحد. وهو الله عز وجل، وإني أتبرأ بما تشركون به من الأصنام والأوثان وغيرها.»

إن هذه القضية التي عرضها السياق القرآني في هذه الآيات: «قضية الولاء والتوحيد والمناصفة»، هي قضية هذه العقيدة، وهي الحقيقة الكبرى فيها، وإن العصبة المؤمنة اليوم خليفة بأن تسقف أمام هذا الدرس الرسلي فيها وقفة طويلة، إن

(1) في ظلال القرآن 2/1056
(2) التفسير المنير 7/158
هذه العصبة تواجه اليوم من الجاهلية الشاملة في الأرض، نسماً كتوافهم العصبة التي تنزلت عليها هذه الآيات؛ لتحديد على ضوئها موقفها، وتسير على هذا الضوء في طريقها، وتحتاج من ثم أن تقف وقفة طويلة أمام هذه الآيات، لترسم طريقها على هواها.

لقد استدار الزمان كهيئة يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلآ إله إلا الله، فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد وإلى جور الأديان، ونكرست عن لا إله إلا الله، وإن ظل فريق منها. يردده على الآذان: لا إله إلا الله دون أن يدرك مدلولها، ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها، ودون أن يرفض شرعية الحاكمة التي يدعها العباد لأنفسهم - وهي مراح الألوهية - سواء ادعوها كأفراد، أو كتشكيلات تشريعة، أو كشعوب، فالآفراد كالتشكيلات، كالشعوب. ليس آلة فيليس لها إذن حق الحاكمة إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية، وارتدت عن لا إله إلا الله، فاعطت هؤلاء العباد خصائص الألوهية، ولم تعد توحد الله وتخلص له الولاء، البشرية بجمالتها، بما فيها أولئك الذين يرددون على الآذان في مشارق الأرصف ومعاربها كلمات: لا إله إلا الله، بلآ مدلول ولا واقع. وهؤلاء أثقل إنساً وأشد عذاباً يوم القيامة؛ لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد من بعد ما تبين لهم الهدى، ومنه بعد أن كانوا في دين الله.

فما أحوض العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلا أمام هذه الآيات البينات، ما أحوضها أن تقف أمام آية الولاء (1)?

إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة موقف تاريخي، إنما جاء منهجا مطلقا خارجا عن قيود الزمان والمكان، منهجا تتخذه الجماعة المسلمة حينما كانت مثل الموقف الذي تنزل فيه هذا القرآن، وهي اليوم في مثل هذا الموقف تماما، وقد استدار الزمان كهيئة يوم جاء هذا القرآن ليشىء الإسلام في الأرض إنشاء، فليكن البقين الجازم بحقيقة هذا الدين، والشعور الوضوح بحقيقة قدرة الله وقهره، والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله؛ لتكون هذه عدة الجماعة المسلمة. والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين (2).

(1) في ظلال القرآن 2/1057.
(2) المصدر السابق 2/1059.
ثم تتتابع الآيات، لتبين كذب وضلالة المشركين الذين قالوا للنبي ﷺ: إننا سألنا عنك أهل الكتاب من النصارى واليهود فما عرفوك، وتبين كذب أولئك الذين سألوا: إن سالمهم المشركون حقا - بأن الله - تعالى - قد بين صفة الرسول وذكره في كتبهم، وهم يعرفون ذلك وينكرونه، وكل هؤلاء المشركين والذين كفروا من أهل الكتاب قال الله - تعالى - فيهم: «إنَّ الَّذينَ كَفَّرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ…» (البيئة 94)

ويؤكد الله تعالى على الذين أتروا الكتاب؛ لأنهم هم الذين يعرفون وينكرون، وهم الذين يرون ويتجاهلون أولئك وصفهم الله - تعالى - تعلى - تصديقا لرسوله، وتكذيبا لؤلاء وهؤلاء بقوله - تعالى - في آية. ٩٤: ۳۰ وَمَنْ أَطْلَقَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أو كَذِبَ بِعَبْدِهِمَا. وَبَيْنَ كُلِّيْنِمَا زَمَنُ وَمَنْ تَقُولُ لِلَّذينَ آمَنُوا أَنْ شَرَكَوا مَنْ فِي دُنْيَاهُمْ وَمَنْ فِي جَاهِزَتِهِمْ لَا يَتَّقُونَ» (الأعجم ٤) (الأنعام).
5- القرآن والرحمة

وإذا لم تأتيهم بقابلا قالوا لولا أجتيبتها قلن إنما أنبى ما يوجهي إلي من نبي هندا بصابر من يبينكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون وإذا فرقت القرآن فاستمعوا له وأنصروا لعلكم ترحمون [الأعراف]

هاتان الآيتان ارتبطتا ما قبلهما وأرتبطتا أيضا ما بعدهما من آيات، و جاءت ضمن توجيهات الله - عز وجل - لنبيه ومؤمنين بناء المجتمع الصالح الذي يريده الله تعالى خاليا من الشك والشوائب، وكذلك خاليا من فساد الأخلاق، جاءت مجموعات الآيات هذه في أواخر سورة الأعراف، وانتهت بأول سجدة: سجدة التلاوة، في ترتيب سورة القرآن الكريم ومجموع هذه الآيات هي:

خذ العفو واتم بالعافية وأعرض عن الجهلاء فإما يزعمون من الشيطان تزعم فاستعد بآلهة إني سمبع عليه إتب الذيل أثقو إذا مكمن طهيف من الشيطان تدحرعوا فإذا هم مصبرون وإخونهم يمذوه في النفي ثم لا يفصحون [الأعراف]

وإذا لم تأتيهم بقابلا قالوا لولا أجتيبتها قلن إنما أنبى ما يوجهي إلي من نبي هندا بصابر من يبينكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون وإذا فرقت القرآن فاستمعوا له وأنصروا لعلكم ترحمون [الأعراف]

وأذكر ربك في نفسك قترعًا وخفيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصال ولا تكن من الغفلين إن الذين عبد ربك لا يستكرون عن عبادته وتسبيعونه وله يسجدون [الأعراف]

فالمناسبة لأولى الآيات: أن الله بين في هذه الآية ما هو المنهج القويم، والصراط المستقيم في معاملة الناس، وهي آية تشتمل أصول الفضائل، فهي من أسس التشريع التي تأتي أصول عقيدة التوحيد المبينة بأتم بيان، ثم أعقب ذلك بوصية
وقائية، وهي اتخاذ وسائس الشيطان من الجن بعد الأمر بالإعراض عن الجاهلين السفهاء، اتخاذ نشر الغريبين.

أما عن أصول الفضائل والأخلاق الاجتماعية، وهي تبني في المرتبة أصول العقيدة فهي المعاملات والعادات، ولدى التعامل مع الآخرين تظهر أخلاق الناس وما أحرج الإنسان إلى هذه الأصول الخلقية في تعامله مع الغير، ومن تفسير الآية يتبع أن هذه الأصول ثلاثة:

1- أخذ بالعفو: أي المعاملة باللين، والبيان باللطف، ونفي الخرج في الأخذ والإعطاء والتكليف، ويشمل ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية، والتخلص مع الناس بالخلق الطيب، وترك الغلظة والفضائحة والدعوة إلى الدين الحق بالرفق واللطف، وهذا النوع من الحقوق ما يقبل التسامح والتساهل فيه.

2- أمر بالمعروف: وهو كل ما عرف شرعا وعقلًا وعادة من جيل الأفعال وألوان الخير، وهذا النوع من الحقوق لا يقبل التسامح والتساهل، ويشمل كل ما أمر به الشرع، وكل ما نهى عنه من الأقوال والأفعال والمآمارات والمنهيات معروض حكمها، مستقر في الشريعة موضعها، والقلوب متفقة على العلم بها، والفرد وجماعات مطالبان بمقتضى هذا الأمر، والإعلان الدائم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المكروه وإخفائه.

2- وإعراض عن الجاهلين: هم السفهاء، ففي أثناء الأمر بالمعروف والترغيب فيه والنهي عن المكروه نتفرج منه، ربما أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء، فيكون الإعراض عنهم هو المعتن، اتخاذهم لشرهم وصيانة للدعاية عن آذاهم ورفعا لقدرة عن مجاوبتهم، وذلك يتناول جانب الصفح بالصبر، وهذه الأوامر الخلقية الثلاثة، وإن كان الخطاب فيها من الله لنبيه عليه الصلاة والسلام فهو تأديب جميع خلقه.

وتأتي المناسبة التالية، فبعد أن ذكر الله تعالى فيما سبق إغواء الشياطين وإضلالهم بناء في الآية (٢٠٣) نوعًا خاصًا من أنواع الإغواء والإضلالة، وهو أنهم كانوا يطلبن آيات كونية معينة، ومعجزات مخصوصة، على سبيل التعنت، كقوله - تعالى: حكاية منهم: ﴿وَقُلُواَ أَلَّا تُؤْتِرْنَ لَكَ حَتَّى تَفْجَرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ﴾

وتاتي المناسبة التالية، فبعد أن ذكر الله تعالى فيما سبق إغواء الشياطين وإضلالهم بناء في الآية (٢٠٣) نوعًا خاصًا من أنواع الإغواء والإضلالة، وهو أنهم كانوا يطلبن آيات كونية معينة، ومعجزات مخصوصة، على سبيل التعنت، كقوله - تعالى: حكاية منهم: ﴿وَقُلُواَ أَلَّا تُؤْتِرْنَ لَكَ حَتَّى تَفْجَرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ﴾
فلكد كان لاهل مكة مع النبي ﷺ مواقف تعتن وتتشدد، ومطالب شبه مستحيلة

تهربا من الإيمان، وإصرارا على الكفر، وإعانة في إبادة النبي ﷺ، واتهامه

بأخلاق أنواع الانهيار، وهو افتراه القرآن، وتمكنه من الإيمان بما شاؤوا من

المعجزات وخوارق العادات، وتقتصر مهمة النبي ﷺ على اتباع الوحي وامتثال ما

أمر الله به، فإن أظهر الله معجزة أو آية على يديه قبلها، وإن منعها عنه لم يسأله

إياها إلا أن يأذن له في ذلك، فإنه عليه حكيم.

وأو هذا القرآن أعظم المعجزات، وأوين الدلالات، وأصدق الحجج والبينات،

فهو منصف يخصئ ثلاث:

- مبصر بالحق في دلالته على التوحيد والبنوة والمعاد، وتنظيم الحياة بأحسن

التضريعات، وهاد ومرشد إلى طريق الاستقامة ورحة في الدنيا والآخرة للمؤمنين

(1)

وتأتي إلى ما توجه بالحديث عنه وهو صنعة القرآن الكريم في مجموع هذه

الآيات:ًٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍٍ.png
حتى نزلت هذه الآية التي بالأعراف: "وَإِذَا قَرَّأَ الْقُرْآنَ فَأَشْمَعُوْاْ نَّبِيًّا، وَأَنْصِطُواَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"، وعقب السيوطي على هذه الروايات قال: ظاهر ذلك ان الآية مدنية.

ويظهر من هذه الروايات أن الآية نزلت في الصلاة، وهو مروى عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وجابر، والزهرى، وعبد الله بن عمير، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد ابن المبارك. قال سعيد: كان المشركون يانون رسول الله ﷺ إذا صلى. يقول بعضهم لبعض مكة: "لا تسمعوا هذى القرآن"، [فصلت: 26] فأنزل الله عز وجل عنها جوابا لهم: "وَإِذَا قَرَّأَ الْقُرْآنَ فَأَشْمَعُوْاْ نَّبِيًّا، وَأَنْصِطُواَ".

وقيل: إنها نزلت في لحظة. قال سعيد بن 케ير، وعبد الله بن المبارك. قال ابن العربي: وهذا ضعيف؛ لأن القرآن فيه قليل، والنصوص يجب في جميعها. ولما ذكر الله تعالى أن القرآن بصائر للناس وآيات بينات للمؤمنين، وهدى ورقة لهم أمر تعالى بالنصوص عند تلاوته؛ إعظاما له واحتراما، وتوصلاً لبيث الرقة به، والفوز بالتنافع الكبيرة التي يشتمل عليها، لا كما كان يفعل كفار قريش في قولهم: "لا تسمعوا هذى القرآن"، [فصلت: 26].

ومفهوم الآية: أنه إذا قرأ القرآن الكريم فأصغوا له أسماعكم، لتفهموا آياته وتعظوا معوّظه، وأنصتوا له عند الكلام مع السكون والحشوع، لتعلقوه وتدبروه، ولتتوصلوا بذلك إلى رحمة الله بسبب تفهمه والاعتقاد موؤظمه، فإنه لا يفعل ذلك إلا المخلصون الذين استنارتهم قلوبهم بنور الإيمان.

والآية تدل على وجوب الاستماع والنصوص للقرآن، سواء كانت التلاوة في الصلاة أم في خارجها وهي عامة في جميع الأوضاع وكل الأحوال. وتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا جعل الإمام ليؤمن به فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا، رواه - أيضا - أصحاب السنن عن أبي هريرة.

فهذا هو المروى عن الحسن البصري، لكن الجمهور خصوا وجوب الاستماع
وال♀انصات بقراءة الرسول ﷺ في عهده، وقراءة الصلاة والمخطبة من بعده يوم الجماعة؛ لأن إيجاب الاستماع والانصات في غير الصلاة والمخطبة في حرج عظيم
إذا يقتضى ترك الأعمال. وأما ترك الاستماع والانصات للقرآن المتلود في الحافل، فمكره كراهية شديدة، وعلى المؤمن أن يحرص على استماع القرآن عند قراءته كـا
كما يحرص على تلاوته والتاؤد في مجلس التلاوة.
و تستحب القراءة بالترتيل والنمغ الدال على النائر والخشوع من غير تكلف، ولا تصنف ولا تطيط ولا تطول في المودود. فقد روى الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً: "ما أذن الله لشيء ما أذن لبني حسن الصوت يغني بالقرآن".
و ثواب الاستماع كشواب التلاوة. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من استمع إلى آية من كتاب الله، كتب له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة).
ثم أمر الله تعالى بذكره أول النهار وأخاه كثيراً، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله تعالى: (وَسَتَحْيَ عِنْدَ رَبِّكَ قَبْلَ طَوْعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْفَرْوِ) [ق 29]، ومعنى الآية: ذكر ربك في نفسك سراً، بذكر أسمائه وصفاته وشكره واستغفاره، ذكر بالقلب: (لا يصمرِلَّ الله تطمينَ القلوب) [الرعد 28]
والذكر ضارعاً منذلاً خائفاً ثوابه وفضله، وذكره بلسانك ذكرًا متوسطًا بين الإسرار والاجهر: (ولَا تَجْهَرْ بِضَلَالِكَ وَلَا تَغْفِفْ بِهَا وَأَبْثَغْ بِنِسَبَتَكَ) [الإسراء 110]، والإخطاب قبلى للنبي ﷺ، وقيل: لمسمع القرآن، والأولان ما يكون عامًا.
وينبغي أن يكون ذكر اللسان مقرناً باستحضار القلب وملاحظة المعاني فذكر اللسان وحده لا ينفع فيه ولا ثواب عليه، فالواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان، وأن يكون الذكر رغبة ورهبة.
وتسمى الأوقات للذكر: وقت الصباح والمساء، وهو وقت الغدو والأصолов، لأن بقية النهار للعمل وكسب الرزق؛ ولأن هذين الوقتين وقت هجوع وسكون.
جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، قال: رفع الناس أصواتهم
الدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي ﷺ: يا أيها الناس: أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غابا. إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنك راحلته۴.

إن الأدب مع القرآن الكريم أمر مطلوب شرعا وتعظيم الله وواجب عقلا وشرعا، وذكر الله تعالى هما، وصل القلب والنفس مع الله. وشأن الملائكة، دوام العبادة، والتسبيح، تنزيه الله عما لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله، والصحيح وجواب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل الأحوال، وعلى جميع الأوضاع في الصلاة وغيرها.

وارتبط بذلك أمور تبعية شرعيّة، واختلاف العلماء على آراء ثلاثة في قراءة الأمام، هل يسقط عليهم فرض القراءة في الصلاة الجهرية والسرية، أو يجب، وهل الواجب خاص في السرية دون الجهرية:

1- الحنفية: رأوا أن الأمام لا يقرأ خلف الإمام مطلقًا، جهرا كان يقرأ أو سرا لظاهرة هذه الآية؛ فإن الله طلب الاستماع والإنصات، وفي الجهرية يتحقق الأمور مما. وفي السرية يتحقق الإنصات؛ لأنه الممكن لأن الإمام يقرأ. فعليه التزام الصرت. ويؤيد ما أخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إذا جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكروا وإذا قرأ فأنتصروا، ورواه مسلم عن أبي موسى كما تقدم وأخرج ابن أبي شيبة أيضًا - عن جابر أن الرسول ﷺ قال: من كان له الإمام، فقراءته له قراءة، وهذا الحديث وإن كان مرسلا فإنه يجعل به عند الحنفية. وقد رواه أبو حنيفة مرفوعًا بن-cond صحح، وهو مذهب كبير من الصحابة رضوان الله عليهم: (على، وأبى مسعود، وسعد، وجابر، وأبى عباس، وأبو الدرداء، وأبو سعيد الخدري، وأبى عمرو، وزيد بن ثابت، وآنس).

2- المالكية والحنابلة: رأوا أن الأمام يقرأ خلف الإمام إذا أسر، ولا يقرأ إذا جهر، وهو قول عروة بن الزنبر، والقاسم بن محمد، والزهرى. ودليلهم ما يلي:

(1) التفسير المنируем 9/227 فما بعدها بتصرف.
الأول: ما رواه مالك وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة. أن رسل الله ﷺ
انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: هل قرأ أحدكم آثنا؟ فقال رجل:
نعم يا رسول الله. فقال: إن أقول مالي أنازع القرآن! فانتهى الناس عن القراءة
مع رسول الله ﷺ. فيما جهر فيه من الصلاوات بالقراءة، حين سمعوا ذلك من
رسول الله ﷺ.

والثاني: ما روى مسلم عن عمران بن حصين، قال: صلى رسول الله ﷺ بناء
صلاة الظهر أو العصر فقال: وأيكم قرأ خلفاً بسبيح اسم ربك الأعلى؟ فقال:
رجل: أنا، فقال رسول الله ﷺ: قد علمت أن بعضكم خاجنها.

والثالث: روى عن عبادة بن الصامت قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح، فقلت
عليه القراءة فلم أنصف، قال: إن لأراك تقرؤون وراء إمامكم؟ قال: فلنا: يا
رسول الله أي ولي، قال: فلا تفعلوا إلا بآية القرآن.

لكن هذه الأحاديث تدل على مذهب الشافعية لا على مذهب المالكية
والحنابلة.

- الشافعية: يقرأ المصلي بفتاكة الكتاب مطلقاً، سواء كان إماماً أو مؤمناً أو
منفردًا، في صلاة جهرة أو سرية، واستندوا بالحديثين السابقين كما لاحظنا
وبقوله تعالى: {فأقرأوا ما تيسر من القرآن} (المزمل: 20)، وبقوله ﷺ، فيما
رواه أحمد وأصحاب الكتب الستة عن عبادة بن الصامت: لا صلاة لم يقرأ بفتاكة
الكتاب، وهذا ما اختاره البخاري والبيهقي.

ويأتي بعد ذلك دلالات الآيات التالية لهذه الآية حتى السجود.. ودلت آية:
{وأذكر ربيك} على أن رفع الأصوات بالذكر متنوع، ثم السجود ومذاهبه وآراء
الفقهاء فيه.

ومن ثم فإن انتشار اللغة العربية بين المسلمين غير العرب واسع ممن اتخذ الأمر
بوجوب قراءة الفاتحة (الشافعية) في السر والعلن و (قليلما من ألقى على الإمام

(1) التفسير المنير 9/ 231 فما بعدها.
(2) راجع التفسير المنير 9/ 233 فما بعدها، وكتب تقليد المثأرة عن سجود التلاوة.
وجب القراءة) الأحناف، ووسعًا على رأي "المالكية والحنابلة " إن القراءة في الصلاة السريّة واجبة ومتروكة في الصلاة الجهرية كما توسعت بذلك كتب الفقه.

ثم إن الله - تعال - ربط الاستماع إلى القرآن والإنصات بالرحمة: "لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"، أي أن الرحمة في قراءة القرآن والإنصات والاستماع له. وهي كما ورد عبادة للقارئ، وعبادة للسمع وأكثر من ذلك هي عبادة ورحمة للقارئ والسمع المتدربين القرآن، الخاشعين لذكر الله، المنصتين له، الواعين تلك المعاني المتدربين لها، والعاملين بعد ذلك بموجبها والله أرحم الراحمين، ربط الرحمة بهذا الموقف الذي يتأتي من ربط القلوب بالله - عز وجل - عند سماع تلاوة القرآن في أي وقت كان، والأفضل - كما مر سابقا - في الصباح والمساء، وفي الغد، والعشاء. والله المستعان.
6 - القرآن الوعد الحق

"إِنَّ اللَّهَ أَشْرَىَ مِنْ أَلْمَؤَمِينَ أَنْفَسَهُمْ وَأَمْوَاهُمْ بِأَنْ يَؤْمِنُنَّ لِلْجَنَّةِ يَقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيَقْتُلُونَ وَعَدُّا عَلَىٰهُ حَقًا فِي الْكُرْسَاءَ وَالْقُرْآنِ وَالْقُرْآنَ وَمِنْ أَوْلِيَاءِهِ وَصِيَّ اللَّهِ فَأَسْتَبْشَرُوا بِبَيْعَمْ بَيْنَهُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العظيمُ (النبوة)

وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًا فِي الْكُرْسَاءَ وَالْقُرْآنِ. هذا الوعد الحق الذي وعده الله تعالى - للذين أشترى منهم أنفسهم إنهم المؤمنون الذين قبلوا الفлагаة إنهم إلى الجنة مالهم هذا الترتيب المحكم في هذه الآية كلمات في آية واحدة، وضعت دستورا كاملا للمسلمين والمؤمنين فيما يتعلق بالجهاد هذه الآية كافية وحدها لسلوك المؤمنين - كل المؤمنين - في طريق الجهاد في سبيل الله، كيف وهي واحدة من آيات أخرى وردت في القرآن الكريم، الذي أعطى به الله تعالى الوعد الحق لهذه المجاهدين ثم ماذا ؟ "وَمِنْ أَوْلِيَاءِهِ وَصِيَّ اللَّهِ فَأَسْتَبْشَرُوا بِبَيْعَمْ بَيْنَهُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العظيمُ (النبوة)

نعم من من خلق الله أوفي من الخلق بإنجاز وعهده الذي شتى في القرآن الكريم في مواضيع كثيرة. إنها عملية بيع وشراء خلال، مقايضة راحة جدا "إِنَّ اللَّهَ أَشْرَىَ مِنْ آَنَفَسِهِ وَأَمْوَاهُمْ " والسؤال الذي يستوجب الإجابة عليه هو من أي جاءت نفس المؤمن ؟ ليس الله خلقها وأوجدها ورزقها وماها، وعلمها، وحفظها من العادات، وخلق منها رجلا كثيرا ونساء ؟ ليس الله تعالى - الذي فطر هذه النفس وهداها إلى الآيات، فكانت النعمه الكبرى التالية بعد الخلق؛ أليس الله تعالى قد خلقها في أحسن تقويم، كاملة، مدركة عاقلة مؤمنة بالله - عز وجل - وقد هداها الله هذا الطريق، طريق الإمام والإسلام، ثم من أي المال ؟ أليس من رزق الله تعالى - الذي لا ين ضب ؟ أليس من نعم الله تعالى - على الإنسان أن مدة المال والبنين، ورزقه رزقا حلالا ليسير أمور الدنيا، ويقضي حوائجه ويبدل المال بالطعام واللباس والمواي وما تهفو إليه نفسه. من أي المال ؟ ألم يعطي الله تعالى هذا المال للمؤمنين ولغير المؤمنين، وجعل حبه في نفس الناس.
نفس المال من الله تعالى، هو المعطي والكريم والمنعم والغني والقادر والمجيء والمميت، ومع هذا فإن الله تعالى وعد المؤمنين إذا باعوا الله تعالى أنفسهم وأموالهم فلهم الجنة وطريق البيع واضح، وطريق الشراء واضح وهو أن يخرج المؤمن بنفسه وماله يأخذها في سبيل الله، واجتناب التي وصفها الله تعالى في كتابه، ووصفها رسول الله ﷺ، ومن ثم فهي، أي الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وصفاً ليس هناك أحلى وأجمل وأدق وأصفى لما يمكن أن يوصف من خلق الله بهذا الوصف، أعدت الجنة – ثنا ما يدمعه الإنسان من نفسه وماله ومن ثم: «في سبيل الله فيقتلون وفيقتلون».

[النبوة: 111] الجنة للشهداء الذين يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويتلون ومن ثم فالعودة للبدء إنه وعد الله للمؤمنين، والله يوفى وعده، وليس وفاء فقط ولكن ليس أوفر من الله في وعده، ومن أوقى يعده، ومن أحق أن يعده الله تعالى فقد أورد هذا وعد في كتب المنشئة على أسبابه ووعد بها المؤمنين مع موسى في التوراة، والمؤمنين مع عيسى في الإنجيل، ومن ثم وعد المسلمين في القرآن، وهذه واحدة من عشرات الشواهد الأخرى في القرآن الكريم، والتي تدل كلها على أن ما عند الله خير وأبقى، وأن الجهاد فرحة وحياة:

«ولا تخفى من الذين قتلوا في سبيل الله أمواتهم بل أحيائهم عند ربيهم يرزقون».

ف европейيين يدعونهم الله من فضله، وتستجيبون بالذين لم يلحقوا منهم من خلفهم إلا خوف عليهم ولهم يحزنون».[آل عمران: 140]، وما ورد في الأثر عن رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا دخل الجنة لا يرغب تركها إلا الشهيد فإن يرغب أن يعود ويتلون، ويعود إلى الحياة وتقتل لا يرى من نعيم يفوق كل التصورات، بلديل قوله تعالى: «وَمَنْ يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقْوَ لَهُمْ»: يدعوهم لأن يلحقوا بهم إلى الجنة التي أعدت للمتقين، كما أن مقام الشهيد مع مقام النبوة، ومن الكثير الذي ورد
في القرآن الكريم عن هذا الآثر قول الله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ انْتَظَرُونَ هَلْ أَذُّكُرُ عَلَى تَجَّرِيَّةَ نُقِيمَتِكُم مِّن عَذَابٍ أَلِيمٍ { نُؤْمِنُونُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَجْهَّدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَيَاءً لَّكُمُ وَإِنْ تَفْسَدُونَ ذَلِكَ خَبَرُ حَيْبِكُمُ إِن كُنْتُمْ تَعَاوُنُنَّ { يُفْقَرُ لَكُمُ ذَوَّارُكُمُ وَيُدْخِلُكُمُ جَنَّتَهُمُ الْخَيْرَ مِن قَبْلِهَا وَمَسَّكَنُ طَيْبَةً فِي جَنَّتٍ عَدْنِ { ذَلِكَ الْفَوْزُ العَظِيمُ وَأُخْرَى تَجِئُهَا نَصْرًا مِّن اللَّهِ وَفَتَحًا قَرِيبًا وَبَيَّنَ { الْمُؤْمِنِينَ { [الصف] 

فَمَلَأُوا الْبُخَرَ { لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالرَّسُولِ وَلا يُخْتَرُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يُبِينُونَ بَيْنَ الْبُحْرَينَ ذِي الْحَيَّ { فَصِيَّرُوْنَ { [الدولة] 

فَمَلَأُوا الْبُخَرَ { إِنَّ الْكَفَّارَ كَفَّارًا { فَوَقَبَلُوا أُولَٰئِكَ الْكَفَّارَ { فَكَفَّرُوا بِمَعِيَتِهِمْ فِي سَبِيلِ الْمُلْكِ { [النساء] 

وَمَن يُطِعَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَالشَّهداءِ وَالصِّلِّيقِينَ وَحَسَنَ أَوْلَٰٰئِكَ رَفِيقًا { ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَّى بِاللَّهِ عَلَى مَن كَانَ مُعَلِّمًا { تَبَارَى أَلَّا يُؤْمِنُوا هُدًى عِنْدَهُمْ فَاتَقَرَّبَ مِنْهُمْ فَهُمْ مَتَافِئُ ظَلَامٍ { وَإِذْ لَمْ يَأْمُوْنَ مَعِيَّنًا { لَمْ يُؤْمِنْ نَجِيَّ مُفَاتِرُهُمْ { وَلَيْنَ أَصْبَحَ فَضْلُ مِنِّي لَا يَقْلُوْنَ كَانَ اللَّهُ لَا يُقَلُّ مَعِيَّنًا { كُنْ بِنَبَتٍ مِّنَ اللَّهِ { فَلَيْفِيَتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نَظِيرًا فَأُثِرَ فَأُلْهِيَ كَلِمَةً أَمِينًا { لَهُ [النساء]

وفي جميع آيات كتاب الله - عز وجل، والمتبقي آيات القرآن الكريم يقف على مشاهد جديدة في كل آية تبين ما للشهيد من فضل، وما أعطى الله تعالى للذين يجاهدون في سبيله من ثواب الدنيا والآخرة، نصراً من الله تعالى للمؤمنين,
وجنات عرضها السماوات والأرض للشهداء، ومثل ذلك وعد الله تعالى أتباع
النبيّين في التوراة والإنجيل، ولكن غيّر وبدل أهل الإنجيل والتوراة، لكن الله
 تعالى سبق وعده للذين يبيعون أنفسهم وأمواتهم بأن يعطيهم الجنة، وأخرى
يجبونها نصر من الله وفتح قريب.

وقبل أن ننتقل إلى الجزء المتبقي من الآية، فإننا نحب أن نقف عند هذا الحد من
الأية لقد تمكّن عالم النصارى (القوى حاليا)، واليهود (المسيطرون على عالم
النصارى ومقتراته) من التنصل بما وعدهم الله في التوراة والإنجيل؛ لأنهم لم
يعدوا هم المعينين بما في التوراة والإنجيل، فقد حرروا التوراة والإنجيل، وحتى
هذه خرجوا على ما فعلوه، وحتى يبطلوا هذه الفرصة التي فرضت على أتباع
النبيّين جميعاً، فإنهم تحولوا ليبعدوا المسلمين عن دينهم، ويعضوون بين الجهاد
والمسلمين حاجزاً، أو يخضعا العقلية المسلمة - بدعائهم - من فرضية الجهاد،
باعتبارها العدو الأول لهم. وقد ورد: وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا، وهم يريدون
هذا الذل للمسلمين، ويريدون أن يتخلى المسلمون عن هذه الميزة العظيمة التي
تحلوا بها خلال وجودهم، فحملوا عليهم حلة بكل ما يمكن، من قوى بشرية،
وأسلحة وإغراء وتهريب وترغيب، وشراء ضماير، وإنفراز بالاجهادين في كل
مكان، والقضاء عليهم باسم ممارسة الإرهاب، والحرب قادمة اليوم تحت تألف
دولي؛ ضم دول النصارى والهندوس واليهود وحكام المسلمين، وأخذوا بلاحقون
المجاهدين في كل موقع، في رووس الجبال، وفي الكهوف، وفي المدن، وفي
القرى، وتدمير بيوتهم فوق رؤوسهم بهذه الحجة.

ويقف العالم المجرم مكّوف الأيدي أمام هذا العمل الذي يعتبر بحق أكبر جريمة
ترتكب الآن للفتنيّين، ولكن فقط للمجاهدين وعنا، والقتال على الشهبة،
والسجن على الرحمة، وأمور لم تكن في عقول السابقين، لكنهم اليوم و بكل جرأة
ونذالك يغلبون المؤمنين في كل مكان و يجاهدون مكافحة الإرهاب والله - تعالى - قال: 
"وأعدوا لهُم ما أستطعتم من قوةٍ وحن، رياض أخليص ترهبون بحمد الله، وعودو الله، وعودو رحمة الله" [الأنفال: ۶۸]، وترك المسلمين الأعداء وخضعوا للضغط والحرب
النفسية والقهر، وكانت مقدمة جيشهم حكام العرب والمسلمين؛ وذلك لمنع
الجهاد - الذي أصبح إرهاباً - بأيّة وسيلة وأي شكل مورس بالقول أو الفعل...
وَاللَّهُ نَرَجُوهُ أَنْ يَبْعَلَ الشَّهِيدَاءِ فِي جَنْتِهِ. وَوَعَدَ وَعْدَ الحَقِّ، وَعَدَ فِي الْتَوْرَاةِ وَالْإِلَـخِيلِ وَالْقُرآنِ الْكَرِيمِ الذِّى تَوَارَتْ وَتَتَالَتْ آيَاتُ اللَّهِ الذِّى اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ هُمْ وَالجَنَّةِ.

أَيَّاها الْمَجاهِدُونَ، إِنَّ اللَّهَ أَّمَّ وَعَدَ بِهَذَا، وَهَذِهِ الْبَشَرِّى لِلْمَبْيَعِينَ الذِّينَ سيَكُونُ فِي جَنَّةِ الْخَلْدَى. أَبْشِرُوا أَيَّاها الْمَجاهِدُونَ، فَإِنَّ وَعَدَ اللَّهِ حَقٌّ.

وَقَرَأَهُ نَافِقُ فِي كُلِّ آيَةٍ. بِهذَا، وَقَدْ نَصَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَيْدِهِمْ وأَوْصَلَهُمُ الْأَقَاصِي الْدُنْيَا، وَسُوِّهُمْ عَلَى الْدُنْيَا كُلَّهَا، مَتَّعْهَا وَعَدَهَا الذِّى وَعَدَهَا، وَكَانَتْ البَشَرِّى خَيرًا مَا بَشَرُّ بَهَ خَلْقُ بَنْصِرٍ مِنْ اللَّهِ وَفَتَحَ قَرْبٌ وَبِشَرُّ الْمُؤْمِنِينَ.
7- القرآن الخالد

وإذا تَنْتَطِلُ عَلَى هَمِّهِمْ أَبَانَا بَنْيَتْ قَالَ اللَّهُ ﴿بَلْ إِنَّ الْآيَاتَ لَعَرَفَنَّهُمْ عِنْدَكَ ﴾ هَذَا أَوْ بَعْدُهُمْ قَلْنَ أَمِيرُ الْأَمْيَالِ قَالَ إِنَّ ابْنِيَنَا أَقَدْ رَأَى بَيْرُمًا عَنْهُ، إِلَّا يُوْجَهُ إِلَى إِحْدَاهُ إِلَى أَخَافُ إِنَّ عَضْيَتْ رَبِّنَا يَوْمًا عَظِيمًا مُّتَّضِطَهَّ، قَلْ لَوْ شَأَّنَّ اللَّهُ مَا تَلَوْتَهُ عَلَى هَمِّهِنَّ، فَأَلَّا أَذْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَمْ يَرْبِضُ نَفْسِهِمْ عُمُورًا مِّنْ قَتَّلُهُ ﴿أَفَلَمْ تَعْقِلُوهُ ﴾ فَمِنْ أَظَلِّمِّي مِّنَّيْ شَاءَ اللَّهُ، لَا يُفْلِحُ الْمُجَرَّمُونَ ﴿} (يونس).

نسوق قبل الولوج في معاني الآيات الثلاث - موضوع الحديث .. أمانا جاء في تفسير بعض الآيات السابقات له من نفس سورة يوحن. حول بعض الآيات القرآنية ، التي دلت على آيات الله في الكون ؛ وذلك لنعمل ونقر عظمة هذا القرآن الخالد خلود الحياة ، حيث إنه ما جاء إلا بالحق والحق باب دام خالد ، والقرآن بايق دام خالد قال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَّرُ نُورًا ﴾ وقَدْرُهُ مَنْازِلٌ لَّيْلَاءٌ عَدَدٌ أَلْيَاءٌ وَالْحَمْضَابِ ﴿مَا حَلَقَ اللَّهُ ذَلَّكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يَفْصِلُ ﴾ ﴿الْآيَةَ لَقُوْمِ يُبَلِّغُونَ ﴾ ﴿إِنَّ فِي آخِطَافِ الْجِبَلِ وَالْفَجْرِ وَمَا حَلَقَ اللَّهُ فِي الْأَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَةً لَّقُوْمِ يُبَلِّغُونَ ﴿} (يونس).

فهذا مشهدان مألوفان من مشاهد الكون نساهما لطول الألفة ، ونفقد وقعتهما في القلب بطول التكرار ، وإلا فكيف وهلة الإنسان وهو يشاهد أول مرة أول شروق شمس وأول غروب ، وأول مطلع قمر وأول غيب ، هذان مشهدان مألوفان مكروران يردنا القرآن إليهما ، ليثير في مشاعرنا وهلة الجدة ، وليحيي في قلوبنا إحساس التطلع الحي ، والتامل الذي لم يبلده التكرار ، والتقط في خلقهما وطبيعة تكوينهما من التدبير المحكم.

فهو الذي جعل الشمس صبيًا ﴿وَالْقَمَّرُ نُورًا ﴾ في إشارة: ﴿وَقَدْرُهُ مَنْازِلٌ ﴾ ينزل في كل ليلة منزلًا يكون فيه على هيئة خاصة كما هو
يرجع شاهد القمر، بدون حاجة إلى علوم فلكية لا يدركها إلا المتخصصون.

«أطلقو آلهتم وقل لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وما تزال المواقف والمواعيد تضبط بالشمس والقمر لكافة الناس.

هل هذا كله عبث؟ هل هذا كله باطل؟ هل هذا كله مصادفة؟

كلا ما يكون كل هذا النظام، وكل هذا التناسق، وكل هذه الدقة التي لا تختلف معها حركة ما يكون هذا كله عبثًا ولا باطلًا ولا مصادفة عابرة.

ما خلق الله دَلَّاً بِالْجَهَّةِ الحاَقَّ قوامه، والحق أدائه، والحق غايته، والحق ثابت راجح راسخ، وهذه الدلائل التي تشهد به واضحة قوامة دائمة.

يُفصَّل الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، فلمحة��دة التي تعرض هنا في حاجة إلى العلم لِإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر، واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، ويشمل كذلك اختلافهما طولا وقصرا، وكلاهما ظاهران مشهورتان، تذهب ألفة المشاهدة بعيدة وقمعهما في الحس، إلا في اللحظات التي تستيقظ في النفس، ويتنفس فيها الوجدان للمطلع والمغرب فيقف في الشروق وفي الغروب وقتة الإنسان الجديد في هذا الكون يطلع إلى كل ظاهرة جديدة فيه بين مفتوحة وحس مستجيب، وهي هي اللحظات التي يحياها الإنسان حياة كاملة حقيقية، ويتنفس فيها التبس الذي خلقته الألفة في أجهزة الاستقبال والاستجابة.

وما خلق الله في السمومات والأرض، ولو وقف الإنسان لحظة واحدة يرقب ما خلق الله في السماوات والأرض ويبنزع هذا الحشذ الذي لا يهدي من الأنواع والأجناس، والحيوانات والأزعم، والأوضاع، والأشكال، لو وقف لحظة واحدة لامتلاك وطابعه، وفاض ما يغنيه حيائه كلها، ويشغله بالتدبر والتفكير والتاثير ما عاش. ودع خلق السماوات والأرض وإن شاء الله وتكوينهما على هذا النحو العجيب، فذلك ما يوجه إليه القلب بالإشارة السريعة، ثم يترك ليتمله إن في ذلك كله: لا خلقَ مَّنْ خَلَقَهُ بَعْدَهُ تَقْوَى فَ تَشْعِرُ قَلْبَهُ هَذَا الْوَجَدَانُ الخاص، وجدان التقوى، الذي يقع هذه القلوب مستجابة حساسة، سريعة التأثر والاستجابة للجنا الذي القدرة، ومظاهر الإبداع ومعجزات الخلق المعروضة للأنظار.
والإسماع.

هذا هو منهج القرآن الكريم في خاطبة الفطرة البشرية بآيات الله الكونية، الموثقة حول الإنسان في هذا الكون، والتي يعلم الله - سبحانه - أن بينها وبين فطرة الكائن البشري لغة مفهومة، وإبعادات مسموعة.

ولم يليج منهج القرآن إلى الأساليب الجدل الذي قد فيما بعد عند المتكلمين والفلسفة؛ لأن الله يعلم أن هذا الأساليب لا يصل إلى القلوب ولا يتجاوز منطقة الذهن الباردة التي لا تدفع إلى حركة ولا تؤدي إلى بناء حياة، وقصارى ما تنتهي إليه حركة في الذهن البارد تلاقى في الهواء.

ولكن الأدلة التي يقدمها المنهج القرآني - أساليب هذا - هي أقوى الأدلة المقنعة للقلب والعقل جميعًا وهذه ميزتها.

فإن وجود هذا الكون ذاته أولاً، ثم حركته المنتظمة المتصلة المضبوطة، وما يقع فيها من تحولات وتغيرات تضبطها قوانين واضحة الآخر - حتى قبل أن يعرفها البشر - ثانياً. إن هذا كله لا يمكن تفسيره بغير تصور قوة مدبرة.

والذين يزرون في هذه الحقيقة لا يقدمون في مكانها دليلاً معقولًا ولا يزيدون على أن يقولوا: إن الكون وجد هذا بقوانينه، وأن وجوده لا يحتاج إلى تعليل؛ وجوده يتضمن قوانينه! فإن كان هذا كلامًا مفهومًا أو معقولًا - فذاك!

ولقد كان هذا الكلام يقول للهروب من الله في أوروبا؛ لأن الهروب من الكنيسة اقتضاه هتالك الهروب من الله! ثم قال هنا وهناك؛ لأنه الوسيلة إلى التخلص من مقتضى الاعتراف بالله. الله. ذلك أن مشركي الجاهلية القديمة كان معظمهم يعرفون بوجود الله. ثم يارية في روبته، علي نحو ما رأينا في الجاهلية العربية التي واجهها هذا القرآن أول مرة. فقد كان البرهان القرآني يحصرهم بمظاهريهم وعقيدتهم في وجود الله - سبحانه - سببانه - وصفاته، وبطلائهم بمقتضى هذا المنطق ذائه أن يجعلوا الله وحده ربهم، فيديروا له وحده بالابتعاد والطاعة في الشعائر والشرائع. فأما جمالية القرآن العشرين - الواحد والعشرين - فتوجه أن تخلص من ثقل هذا المنطق بالهروب من الألوهية ذاتها إبداء!

ومن العجيب أنه في البلاد التي تسみたい: إسلامية، يروح بكل وسيلة ظاهرة أو
صفة كتاب الله في كتاب الله

خفية هذا الهروب الفاضح باسم: العلم، والعلمية، فيقال: إن الغيبة لا مكان لها في الأنظمة العلمية، ومن الغيب كل ما يتعلق بالأخلاقية!. ومن هذا المنفذ الخالق يحاول الآبوقون من الله الهروب. لا يخشون الله إنا يخشون الناس، فيحاتلون عليه هذه الاحتيال.

وما تزال دلالة وجود الكون ذاته، ثم حركته المنظمة المستقرة المضبوطة، تعاصر المرايا من الله هنا وهناك، وقدرة البشرية بجملتها - قلبا وعقلا وحسا، ووجدانًا - تواجه هذه الدلالة، وتستجيب لها، وما يزال المنهج القرآني هذا يتطلب الغزارة تجملتها ، مثابرة من أقصر طريق وأعمق طريق. إنه (1).

ثم نعود أدرجنا إلى الآيات البينات الثلاث: 15-16 من سورة يونس.

إن مناسبة نزل الآيات. بعد أن ذكر الله تعالى - شهتين للمشركون **وهما**، والتعبج من إنزال الوحي على بشر، وتخصيص محمد بالبركة والطاعة بتعجيل العذاب إن كان ما يقول محمد حقا، ثم أثبت لهم الألوهية والتوحيد، والقدرة على الوحي والبحث بخلق العلم وبطبيعة الإنسان و تاريخه وغرائزه، ذكر هنالك نوع الثالث من شبهاتهم في الطعن في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو التشكيك في القرآن، لذا طالبوه بأمرين: أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن أو أن يبدل هذا القرآن. روى عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن خمسة من الكفار كانوا يستهتزون بالرسول عليه الصلاة والسلام، وبالقرآن ( الوالد بن المغيرة المخزومي، والخليج بن وائل السهيمي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد مباشر، والحارث بن حنظلة)، فقيل الله كلاً منهم بطرق آخر كما قال تعالى: إنا كفيناك **المُسْتَهْزِئِينَ** [الحجر]، فذكريا تعالى أنهم كلما تليت عليهم آياته: قال آلذبيـر لا يرجون لقاءنا أنت بقرأنا غير هذين أو بديله؟ (2)

فإذا تأتي عليهم، *أتيتها* بسوى قال آلذبيـر لا يرجون لقاءنا أنت بقرأنا غير هذين أو بديلة* [يونس: 15]، وهو طلب عجب لا يصدر عن

---

(1) التفسير المثير 128/11
(2) التفسير المثير 1765/3
عبث وهزل؛ وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن الخالد وبدنية تنزيله، وهو طلب لا يطلب إلا الذين لا يظنون أنهم سيعاقون الله!

إن هذا القرآن دستور حياة شامل، منسق بحيث يفي بمطالب هذه البشرية في حياتها الفردية والجماعية، ويهديها إلى طرق الكمال في حياة الأرض بقدر ما تطبيق، ثم إلى الحياة الأخرى في نهاية المطاف، ومن يدرك القرآن على حقيته لا يخطر له أن يطلب سواء، أو يطلب تبديل بعض أجزائه.

وأغلبظن أن أولئك الذين لا يؤمنون بلقاء الله، كانوا يحسبون المسألة مسألة مهارة، وياخذونها مأخذ المباريات في أسواق العرب في الجاهلية، فما على محمد إلا أن يقبل التحدي ويؤلف قرآنا آخر، أو يؤلف جزءا مكان جزء، فقلّما يكون على أن أبدل، من يلقاي تفسيئ إن أتبع إلا ما يوحى إلى أحقه إن عصبة زكى عذاب يووم غضيامٍ \( \text{يونس} \).

إنها ليست لعبة لأعب ولا مهارة شاعر، إنها هو الدستور الشامل الصادر عن مدبر الكون كله، وخلق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه، فما يكون للرسول أن يبدله من تلقائه نفسه، إن هو إلا مبلغ متبوع للوحي الذي يأتيه، وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب يوم عظيم.

فقل لؤ شاهد الله ما تلئيه، عليّبهكم ولا أدرَّنك به، فقد ليست فيصنك عُمَرا بن قبّلهٍ أَفْلَا تَعَلَّقوُرتَ \( \text{يونس} \).

إنه وحي من الله، وتبليغه لكم من الله كذلك، ولو شاء الله ألا آتله عليه ما تلته، ولو شاء الله ألا يعلمكم به ما أعلمكم، فالأمر كله له في نزل هذا القرآن وفي تبليغه للناس، قل لهم هذا وقال لهم: إن لهت فيهم عمرا كاملا من قبل الرسالة أربعين سنة، فلم تحدثهم بشيء من هذا القرآن، لأن لمن تكن مثليه لم يكن قد أوذى إليك، ولو كان في استطاعتك عمل مثله أو أجزاء منه فيما الذي أقعدك عمرا طويلا كاملا؟ ألا إنه الوحي الذي لا تملك من أمره شيئا إلا البلاغ.

قل لهم: ما كان ل أن أفتري على الله الكذب، وأن أقول: إنه أوحى إلى إلا بالحق، فليس هنالك من هو أشد ظلما من يفتري على الله أو من يكذب بآيات الله.
صفة كتاب الله في كتاب الله

"فَإِن مَا أَظْلَمْ مِمَّنَ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ مَكَارِهُ وَكُذْبَهُ ِّمِيَّاَّتِهِ" [يونس: 17]

وانا أنهاكم عن ثانية الحرمين، وهي التكذيب بآيات الله، فلا ارتكيه أولاهم، ولا أكذب على الله. قٌل: "لا يَفْلِحُ الْمُجَرَّمُونَ" [يونس: 17] (1)

ومن مجريات تفسير هذه الآيات [15 - 17 من سورة يونس] وكذلك معرفة أسباب النزول. نستنبط من الآيات ما يلي (2).

1- التسجيل الواضح الفاضح لكلام المشركين المطلبين، إما الإتيان بغير القرآن، وإما تبديله، والفرق بينهما أن الإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه غيره، وأما التبديل فلا يجوز أن يكون معه غيره؛ وسبب هذا الطلب إما السخرية والاستهزاء، وإما التجربة والامتحان. ومضمون الأمرين: إما إسقاط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، وإما تحويل الوعود وعبدا، والوعيد وعدا، والخلال حراما والخريج حلالا، وإما إسقاط ما فيه من ذكر البهت والنشور.

ويصح إرادة كل هذه الأشياء.

2- رفض مطالب المشركين، وإعلان كون القرآن كلام الله، وأن مهمة الرسول مقصورة على تبليغ ما يوحي إليه، واتباع ما يتلوا عليه من وعد ووعيد، وتحليل وتحرير وأمر ونهى.

3- الموقف الثابت من عدم التبديل والتغيير لشريعة القرآن، والإصرار على العمل بالقرآن. إما هو بسبب التعرض لعذاب عظيم يوم القيامة.

4- المقصود بالقرآن تبليغه إلى جميع الناس، ولا سيما المشركون، ولولا أن تكون مشيئة الله ذلك لما أنزله، ولا أمر بتلاوته عليهم ولا أخبرهم بمضمونه.

5- القرآن كلام الله بدءا إعجازه من حيث النظم والأسلوب والبنى، ومن حيث المعاني التي اشتهر عليها، وبدائل كون المبلغ له أبدا لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم من أحد، وبدائل التحدي لمعارضته والإتيان بهيئة أو بأقصر سورة من مثله.

6- لا أحد أظلم ولا أعزى ولا أشد إجراها من افتراز على الله الكذب، وبدل...

(1) في ظلال القرآن 3/1750 فما بعدها.
(2) التفسير المثير 11/130 فما بعدها.
كلامه، وأضاف شيئا إليه مما لم ينزله، وذلك لا أحد أظلم منهم أياها المشركون والكافرون إذا أنكرتم القرآن وافتريتم على الله الكذب، وقلتم ليس هذا كلامه.

(انتهى).
8- القرآن المعجز

وأما كان هذا القرآن أن يُフェر إلى من دُورِ الله ولبن تضييق الدُّرَى بين يَدِه
وتفصيل الكتاب لا زبد فيه من در البلَّ الغازيين أم يقولون أقرنَه فلن فائتون بسورة
ملته وأدعو من استطعُر من دون الله إن كنت صادقين بل كذبنا بما لم
يخطبوا عليه وما يأتيكم تأويله كذ لك كذب الذين من قُلْهُم فانظر كيف كار
عِنْقَبَة النَّفْلِمُيِّرِينَ (٥٥) وهم من يؤمن به وهم من لا يؤمن به وربك أعلم
بالْمُفْعِلَينَ (١٧) [يونس]

ويتكرر الحديث عن القرآن في ذات السورة (سورة يونس) والآيات المعنية
الآن إنها هي تواصل وتتمة للآيات [۱۵ - ۱۷] فما الذي جعل هذه الآيات
تتأخر لتعود وتتصل رابياً بالخاصة بما سبقها.

إنه الأسوب القرآن المعجز.. فهو أن بين الرسول أن هذا القرآن من عند الله
وهو بينهم عمرو كله كما قال أبو جهل مرة: إن محمد لم يكتب على بشر قط فهل
يكتب على الله؟ وهذا اعتراض من رجل أوقف حياته كلها على حرب الإسلام
ورسول الإسلام، وما ترك أرما يضر مصلحة الإسلام إلا وفعله حتى سقط قيلا في
بدر، ومن هنا لا بد أن نشير إلى ما ورد من آيات بين الحقائق الأولى عن القرآن
والحقائق التالية عنه فهو الخالد وهو المعجز وهو الحق وما دونه الباطل.

إن الله تعالى بعد أن بين أن القرآن من عنده، عاد بلغة معجزة بلغة ليذكر
هؤلاء القوم ببعض الأمور التي ربما نسوا من أفلحها لبعينهم، أو أنهم كابروا
رغم رؤيتها وأنكروها؛ فذكر الله تعالى - أنهم أي هؤلاء المجادلين المشركين إنما
يفعلون ذلك لأنهم:

1- [١٧] ويَبْعَدُونَهُمْ مِنْ دُرُوبِ اللهِ ما لا يَضْرُّهمُ وَلَا يَنفَعُوهُمْ وَيَقُولُونَ هُتَوْلاً
شفعُونا عند الله فلن أُبَعْدُونَهُمْ الله بما لا يَعْلَمُ في السَّمُوَاتِ وَلا في الأَرْضِ
سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَ عَمَّا يَشْرُكُونَ (١٧) [يونس]
1 - {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أَمْهَةً وَاحِدَةً فَخَلَفُواَ وَلَوْلَا سَبِيلَةً سَبِّقَتْ مِنْ يَدِكَ لِقتَبَ بِهَا؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ مَّعَكَ فَأَنتَ عَلَيْهِ.} [يوسف].

2 - {وَيَقِيَوْلُونَ لَوْلَا أَنتِ عَلَيْهِ ءَابَٰبٌ مِّنْ رَبِّكَ فَهَلْ يَقْدِرُ فَأَنتَ عَلَيْهِ.} [يوسف].

3 - {عَنْ أَمْوَكِمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ.} [يوسف].

ثم ذكرهم الله تعالى بنعمة النبى لا تخصى ورحمة النبى وسعت السموات والأرض:

1 - {وَإِذَا أَدَفَّتْ أَدْنَاسِ رَحْمَةَ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءٍ مَّسَّهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكَرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْمَعُ مَكَرَهُمْ إِنَّ رَسُولَنَا يَكْتُبُونَ مَا يَتَّخِذُونَ.} [يوسف].

2 - {هُوَ الَّذِي يَسِيرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.} [يوسف : 22].

3 - {فَلَمَّا أَخْرَجُونَهُمْ إِذَا هُمْ يَتَبَغُونَ فِي الأَرْضِ.} [يوسف : 23].

4 - {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاوَاتِ فَخَالَطَهُ بِنَبَاتٍ مِّنَ الأَرْضِ.} [يوسف : 24].

5 - {وَلَيْسَ الَّذِينَ يُذْكَرُونَ إِلَّا دَارُ السُّلْطَانِ وَهَدِئُ مِّنْ يَشَاءُ إِلَى صُرْطَ مُّسَتَّنَىٰ.} [يوسف].

ثم يأتي جزاء الحسنين والحسى كل يلاقي ما كسبت يدها في الدنيا:

1 - {يَعْمَلُ مِنْ تَمَيُّذٍ ذَرَّةٍ خَيرًا يَرْهَبُ وَمَنْ يَعْمَلُ مِنْ تَمَيُّذٍ ذَرَّةٍ سَحْرًا يَرْهَبُ.} [الأحزاب].

2 - {لَيَلِيَ ذَوِينَ أَحْسَنَهُمْ وَزِيَادَةَ وَلَا يَرَهَقُ وَجَوْهَمْ قَبَسَتْ وَلَا ذِلَّةٌ أَوْلِيَاءَ.} [يونس].

3 - {أَصْحَبُ الْجَتَابِيَةَ هُمْ فِيهَا خَلِيَّةٌ.} [يونس].

4 - {وَلَيْسَ الَّذِينَ كَسَبُوا الْكَفَاٰثِرَ جَزَاءٌ سَمِيَّةٌ بِمَثْلِهَا وَتَزَهَّقُهُمُ الْقِلَّةُ مَّا هَمُّ مِّنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَنَّا أَغْشَيْنَ وَجُوُهُمْ قَطَعًا مِّنْ الْبَيْلِ مُظْلِمًا أَوْلِيَاءَ أَصْحَبُ الْيَتَارِ هُمْ فِيهَا.} [يونس].
3 - «وَقَالُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا مُكَارِهِمْ فَأَطْلُقُوا عَلَيْهِمَا سُحُورًا وَشَرْكَاءُكُمْ فَرْزِدُواَ بِنُورِ اللَّهِ وَصِبْرٍ وَقُرْآنً فَرَزْيَتهُمْ» (يونس).

4 - «فَكَفُّوا بِاللَّهِ سُهُبًا بِنُورَهُمْ وَبُلْبُلْكُمْ إِنَّهُ يُضَعِّفُهُمْ عَنِ عَبْدِكُمْ لَغَفُّيلِبَتْ» (يونس).

5 - «هُمْ هَالِكُونَ تُبْتَلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَشْلَفَتْ وَرَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوَلَّاهُمْ الْحَقَّ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يُفْتَرُونَ» (يونس).

وبين الله - تعال - للناس أموراً تحيط بهم، ويرونها في كل أمة، ويعمون بها، وتصبيهم كما تسبي فيهم، ويدركهم بأن الحق من الله، وأن الله هو الخالق وما دونه خلقه لا تنفع ولا تضر، ثم إن الله يهدى إلى الحق والذين يعبدونهم يهدون إلى الباطل وما يبتعد أكثرهم إلا الفن.

1 - «فَلَمْ يَنْزِعَكُمْ مِنَ النَّاسِ أَمْرُ أَنْ يُقَاتِلُوا الْجَمِيعَةَ وَالْأَرْضَ أَمْنَى يَعْمَلُ الْجَمِيعَةَ وَالْأَرْضَ مَنْ خَرَجَ أَلْحَقَ مِنَ الْمَيْتَى وَخَرَجَ أَلْحَقَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُنْدِرَ الْأَمْرُ فَسَيْقُولُونَ اللَّهُ ۖ فَقَلْ أَفَلَا تَنْقُفُونَ» (يونس).

2 - «فَقَدْ لَكُمْ رَبُّكُمْ الأَحْقَٰي فَمَا ذَا بِالْحَقِّ إِلَّا الْقَلِيلُ فَلَنَّ تَصِيرُوْتُ» (يونس).

3 - «كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكُ عَلَى الْذَّيْنَ فَسَقُوا أَنْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» (يونس).

4 - «فَقَلَ هَلِئِنْ مِنْ شَرْكَآئِكُمْ مِنْ يَبْدِعُوا الْحَقَّ ثُمَّ يُعْيِدُهُ ؟ فَلِلَّهِ يَبْدِعُ الْحَقَّ ثُمَّ يُعْيِدُهُ. فَأَنَّ اللَّهُ يَطْمِئْنُ الْحَقَّ ثُمَّ يُعْيِدُهُ» (يونس).

5 - «فَقَلَ هَلِئِنْ مِنْ شَرْكَآئِكُمْ مِنْ يَبْدِعُ الْحَقَّ فَلِلَّهِ يَبْدِعُ الْحَقَّ أَمْنَى يَبْدِعُ الْحَقَّ» (يونس).
6 - وَا يُقَفُّونَ ٱلۡكَذِّبُونَ \n
هذه الصور البديعة التي يتحدى الله تعالى بها الناس، والتي أنزلا في قرانه بياناً للناس يهدى. يعود أولئك إلى الشك في مصداقيته أن هذا القرآن من عند محمد، إنه الحق المنزل من عند الله، المعجز في آياته، المعجز في بيانه، المعجز في تصويره المعجز في عرضه. وبذلك فليخسر الخراشون الذين يدعون على الكذب وهم لا يعقلون، وتعود بعد ذلك الآيات إلى القرآن الكريم إلى قوله تعالى:

وُمَّعَانَ أَلْفُرْزَانَ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلِيْكَ تَصْدِيقٌ ٱلَّذِينَ بِئْنَ يَدْنِيهٍ

وۡتَفَصِّلُ ٱللَّهُ ۚ وَرَبُّكَ لَا يَزِبُفَ فِيهِ مِنْ زَۡيِٰتِ ٱلْعَظَّمَّينَ (٣٢)

ومعنى الآية: ما شأن القرآن، ما ينبغي أن يختلف من غير الله؟ لأنه يفضحته وبلاغته، ووجازته وحلاوته، وإخباره عن الغميات، وأصله تشريعه، وامتثاله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله تعالى، فهو كلامه الذي لا يشبه كلام المخلوقين، ولا يقدر أحد إلا الله أن يجاريه أو يعارضه.

وقد ثبت أن أبا جهل قال: إن محمد لم يكذب على بشر فكيف أكيفب على الله؟ وإنه مطابق ومصدق لما تقدمه من الكتب الإلهية المنزلة على الرسل كأبراهيم.
ووسى ومعنى، ووافق لما في الدعوة إلى أصول الدين، في التوحيد والإيمان
بالله واليوم الآخر، وصالح الأعمال، وفضائل الأخلاق، وهو - أيضا - مهيمن
عليها، وبين كاذب لما وقع فيها من تزوير وتبديل، كما قال تعالى: "وَأَنْزِلْنَا
إِلَيْكَ الْقُلْبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لَّمَّا بَيَّنَّا بِهِ مِنَ السَّبِيلِ
وَمُهْيَمًا عَلَىٰٓهُ".  
[المائدة : 48].

» وُقِيِّضَ الْكُتْبُ» أي وبيان الأحكام والشرائع، والحلال والحرام، والعبر
والمواعظ، والأداب والأخلاق الشخصية والاجتماعية، بياناً شافياً كافياً.

» لَا زِبَّيْنَ فِيهِ» أي لا شك فيه أبدا، ولا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه لوضوحه
وبيانه الحق والهدى والصواب.

» مِنْ رَبِّ الْعَالَاتِينِ» أي منزل موهي به من الله لا من غيره، بدليل سلامته
عن الاضطرب والاختلاف، كما قال تعالى: "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِبَادِنَا غَيْرِ اللهِ
فَإِنَّهُ هُدِيَّنَ أَخْيَافًا كَثِيرًا" (النساء) 1. وله يتبين أن الله - سبحانه - وصف القرآن
بصفات خمس هي: 

1- لا يصح أن يفتري من دون الله؛ لأن القرآن معجز لا يقدر عليه البشر.
2- وهو مصدر مؤيد لما قبله من الكتب المنزلة على الرسل السابقين كموسى
وعيسى في أصول الدين والفضائل، ومهمين عليها؛ فهو معجز لاشتماله على
الأخبار عن المغيات الماضية والمستقبلة، وهو المراد بقوله: "مُصَدِّقًا لَّمَّا بَيَّنَّا
بَيْنِيهِ"، ومن إخباره عن مغيات المستقبل التي وقعت مطابقة للخبر: قوله تعالى:
الَّذِي أَرْسَلْنَا مُرْسَلًا عَلَىٰ الْأَرْضِ "ألْوَٰمٌ" [الروم] وقوله تعالى: في فتح مكة: "لِقَدْ صَدَقَ اللَّهُ
رَسُولَهُ ظَرْفًا بِاللَّيْلِ فَلْتَدْخِلُ اللَّهُ السَّجَدَ الْحَرَّمَ" [الفتح : 27]، وقوله في ظهور
الدولة الإسلامية: "وَعَدَّ اللَّهُ الْأَلَّهِ الَّذِينَ كَانُوا بِمِنْ كُرْمٍ وَغَيْبَاءَ الْصِّلَاحِ
لَيَشْتَهُوْنَهُمْ في الأُرُوجِ" (النور : 55) مما يدل على أن الإخبار إذا حصل بالرحي من الله تعالى.

(1) انظر تسم٢ من هذا الكتاب.
3- وهو مفصل ما يحتاج إليه الإنسان من الأحكام الشرعية والعلوم الكثيرة الدينية والدنيوية؛ ففيه علم العقائد والأديان: وهو معرفة الله تعالى: ذاتا وصفات وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفيه علم الأعمال وهو علم الفقه، وعلم الأخلاق مثل قوله: ﴿حَدِّ الْعَفُوَّ وَأَمَّرَ بِالْعُفُوَّ وَأَغْرَضَ عَنِّيِّ الْجِهَالَةِ﴾ (الأعراف)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْمَعْلُوْمِ وَإِلَّاْحَسْنٍ إِبْتِنَآيْ ذِي الْقُرْآنِ وَيَتَّقُونَ عَنِّ الْفَاحِشَةِ وَالْمُشْرِكَةِ وَالْبَغَيْفَ﴾ (المحلل: 90)، وهو المراد بقوله:
﴿وَتَقْصِيِّلَ سُجُّ شَيْءٍ﴾ (يوسف: 111).

4- لا ريب ولا شك فيه، نبأ العلم الكثيرة وعدم وجود التنافض فيه.

5- كونه من عند الله - تعالى- نزل به الروح الأمين على قلب محمد، ليكون من المتدينين.

- ثم أنكر الله تعالى على المشركين الجاهلين القائلين بأن محمد قد افترى، وتخدعهم أن يأتوا بملته فقال: ﴿أَمِّ يُقُولُونَ آفِرَتَهُ؟﴾ (هود: 131)، أي بل أيقولون: اختلقه محمد؟! فمحمد بشر مثلكم، وقد زعمت بأنه جاء بهذا القرآن، فأتوا بسورة مثله: أي من جنس هذا القرآن، ولو بما يشابه أقصر سورة فيه في النظم والأسلوب، والقوة والإحكام، والبلاغة والدقة، واستعينوا على ذلك من قدرتم عليه من إنس وجان، ولن تستطيعوا فعل شيء، فإن جميع الخلق عاجزون عن معارضته أو الإثبات بملته: ﴿قُلْ لَيْنَ آجِمَتُ الآنسُ وَاللَّهُ عَلَى أَنْ يُؤْتُوا يَمِيلًا﴾ (الإسراء).

فإن كنتم صادقين في ادعاءكم أن القرآن من عند محمد، فلتأتوا بنظير ما جاء به وحده، ولستعينوا بمن شتتم. ولو كان التحدي للإثبات بملت القرآن على مراحل:

أولاً: ما ذكر في هذه الآية: ﴿قُلْ لَيْنَ آجِمَتُ آلِ إِنسٍ وتَوَلَّوُا بِعَضُّهُمْ لِبَعْضِهِمْ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء)
وثانيها: التنازل معهم إلى عشر سور منه. فقال في أول سورة هود: {أم يقولون أفرتنة قل فاتنا يعشر سور مثله، مفرتنة، وآدعتوها من أستعفترهم من دون الله} إن كنذر صديقين {٣٩}.

وثانيتها: التنازل إلى سورة، فقال هنا في هذه السورة الملكية: {فآتوا بسورة من مثله} {٣٩} وكذلك في سورة البقرة المدينة: {وإن صحت في ريب مما نزلنا على عبدي فأتاوا بسورة من مثله}، ثم أثبت القرآن موقف هؤلاء المشركين منه. فقال: {بل كذبتوا} {٣٩} أي بل سارع هؤلاء إلى تكذيب القرآن من قبل أن يتدبروا ما فيه أو يفهموه، وهذا شأن المعاند الجاهل.

{ولم يأتموا تأويله} أي وكما أنهم كذبوا به بدابة قبل التدبر والمعرفة تقليدا للاباء، كذلك كذبوه بعد التدبر ومعرفة علم شأنه وإعجازه وضعف قواهم في المعارضة، تمردا وعانتا، وبغيا وحسدا، ويجوز أن يكون معنى {ولم يأتموا تأويله} لم يأتوا بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالملابسات حتى يبين لهم أنهم كذبوا أم صدقوا؟ {كذلك كذب ألذين من قبليهم} أي مثل ذلك التكذيب كذبت الأمم السابقة بعجزات الأنبياء قبل النظر فيها، وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم، ولكن تقليدا للاباء وعنداء.

{فأنظر كيف كارئ عنفصة ظليمين} {٤٠} أي فانظر أبى الرسول كيف كانت عائبة أولئك الظالمين لأنفسهم بتذكيرهم رسولهم وطلبهم الدنيا وترك الآخرة وهي أنهم أهل كنهاهم بسبب تذكيرهم رسولنا ظلموا وعلوا وكفرا وعنداء وجهلا؛ فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم: {فكلا أخدا بذئبه، فمثلكم من أرسلنا عليه حاصبا ومثلكم من أخذته الصلاة وهم من حسنها به الأرض وهم من أغرقنها وما سكت الله ليظلمهم ولا يملك حكمنا أنفسهم يظلمنها {٤٠} {العنكبوت} {١} وهم من يؤمن به وهم من لبؤسم {٤٠} [يونس: ٤٠]}

(1) التفسير المهم ١٧٥/١١ فما بعدها.
وبعد أن أبناء الله تعالى طعن الكافرين في النبوة والوحي، وبعد أن أنذرهم بالدمار والعذاب في الدنيا بقوله: "قَانُوْنُ كَيْفَ كَانُ عَنْيَةُ الْأَطْلُسِمِيَّةِ (2)"، ذكر أنهم في الواقع فريقاً: فريق يصدق بأن القرآن كلام الله، ولكنه يكابر ويعاند، وفريق لا يصدق به أصلاً؛ لفطر غبواه وجهله، فيصر على تكذيب النبي لفقد الاستعداد للإيمان به، فلا أمل في إصلاحه وهديته، فتكون المصلحة في إعطاء الفرصة للفريق الأول للإيام دون الاستنصال.

وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (7) [يوسف] أي هو أعلم بما يستحق الهدية فيه، ومن يستحق الضلالة فضله وهؤلاء هم المعاندون أو المصرون وله تعالى العدل الذي لا يجور، بل يعطي كلاً كما يستحقه، فمعني الآية: ربي أعلم بما يفسد في الأرض بالشرك والظلم والطغيان، فلا أمل في إصلاحهم لفقدهم الاستعداد للإيمان وسعيهم في الدنيا والآخرة (1).

فأى إعجاز أبلغ من هذا.. وإن العقل البشري مهما أوثى من تحد فإنه يبقى عاجزًا عن الحد الذي أعطاه الله، فلا يعلم الغيب، ولا يعلم العلم إلا قليل، ولا يعلم ملكوت السماوات إلا ما وقع تحت ناظره - فعلى العقول - فإن المكاربين هم أولئك الذين يتحركون في الدنيا بمنظار المجوس والملموس، أو ما يقع تحت الحواس، أما الغيب فإن الله تعالى - قد اختص به نفسه ولم يطلع أحدا عليه إلا الخواص من خلقه وبالوحي كما قال عيسى عليه السلام: "وَإِذْ قَالَ عِيسَى بِنُورِي إِسْرَئِيلٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ الْوُسْوَسَةِ وَمُبَشِّرًا بِرُسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْضِ عِينَةٍ ۖ أَهْدَمُ فَلَيْسَ كَذَا سَخَّرُ مِنْ ۙ (فلما جاءهم بالبينات قالتوا هتى يسخر منهم) [الصف] فعلم عيسى عليه السلام الذي فاق به معاصريه إنا هو إكرام من الله تعالى - لأنبيائه.

وقد بشر النبي بامور قد وقعت، ومن ثم فإن كل مابشر الله تعالى به في

(1) التفسير الميسر 11/ 182
كتابه آمة الإسلام قد تحقق، كما تحقق أيضاً عذاب الله في الذين تركوا الدين والقرآن والتفتوا إلى أهل الدنيا يتزودون منهم؛ عصياناً وذنوبًا وانحرافاً لآخرتهم، ظانين أن هؤلاء يقذرون على أن يدرؤوا عذاباً عليهم في الدنيا (أمراض، خوف، ضعف) وجهنم في الدار الآخرة.

إن هذا هو القرآن المعجز الذي عجزت أمامه صنوف الخلق من الجن والإنس.
9- القرآن الشامل

"وما تكون في شأني وما تتلو من شأني ولا تعملون من عملٍ إلا سكتاً علىكم
ثمودًا إذ تفيضون فيه وما يعزعب عن زيك من مفقائ درّة في الأرض ولا في السماء
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتب مبين" (يونس).  

والمرة الثالثة في سورة يونس يرد ذكر القرآن الكريم ولكن بصفة أخرى غير كل الصفات التي سبق ذكرها، يعود هذه المرة لتأكيد الجوانب السابقة للذين أرادوا أن يلغوا في هذا القرآن، أو دعواه بأنه من عند محمد، ورد حججه الباطلة فإن ما في هذا القرآن قد أعزى الذين تحدث عن نزوله، وأبطل ادعاءات الذين يطالبون على عظمه بعد نزوله، واستمرار التحدي لكل الحمل أن يأتوا بعشر سور، بسورة واحدة، والتحدي قائم، والعجز البشري ما زال قائما أيضا، فلم يمكن خلال خمسة عشر قرنا من الزمان - مع وجود التحديات الكبرى من الشعوب الكافرة للمسلمين - أن يجمع أولئك لقبول التحدي؛ فإنهم تولوا عن عجزهم هذا إلى افتراض أمور أخرى على الإسلام والمسلمين، في كلام مغلوط مموج، غير مقبول بآية حال من الأحوال، اعترفوا بسخمه، وهزاهم، وتجنيدهم بالاستغاثة أو السنة إبناء جلدتهم، الذين وقفوا عازين أمام عظمة هذا القرآن وإعجازه.

"وما تكون في شأني وما تتلو من شأني وعمرهم عظيميم واما تتلوا من شأني لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله بل هو معظم شأني، أو ما تتلو من التنزل من القرآن، لأن كل جزء منه القرآن والإضاوض قبل الذكر نفخه، أو من الله - عز وجل: ولا تعملون - إنتم جميعاً أيها المؤمنون الأمة والنبي، وهو تعليم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم، شهداء شاهدين ركبى خصى عليكم: إذ تفيضون فيه أي تندفعون فيه ومخطوس أو تأخذون في العمل.
وما يعترف وما يبعد عنه وما يغيب عن علمه: مقبل ووزن ذوق أصغر
ملمة أو هباء في الأرض ولا في السماء، أي في الوجود والإمكان إلا في كتب مبين، وهو اللوح الحفظ.

هذة معاني الكلمات في هذه الآية.

أما مناسبتها: فقد أن بين الله تعالى أن القليل من الناس شاكون نعه مبدوا
طاعته وترك معاصيه، ذكرهم بأن علمه محيط بكمع شؤونهم وأعمالهم صغيرة
وكبرها، و بكل الموجودات والكائنات كلها في السموات والأرض، حتى يحملهم
ذلك على الطاعة والشكر والعبادة وتجب المعاصية؛ لأنه إذا كان الحق تعالى
عالما بكل شيء، سر الطائعون، وهدى المذنبين.

وتدور هذه الآية إلى شعور مطمئن وخفيف معا، مؤنس ومرهباً، وكيف
ب هذا المخلوق البشري وهو مشغول بشأن من شؤونه يجلس أن الله معه، شاهد أمره
و حاضر شأنه، كل عظمه و بكل هيبته، وكل جبروته، وكل قوته، وكل خالق هذا الكون وهو عليه هبن. ومدير هذا الكون ما جل منه وما هان.. الله مع
هذا المخلوق البشري، الذرة التائية في الفضاء، لولا عناية الله تسك بها
وترعاها! إنه شعور رهيب، ولكنه كذلك شعور مؤنس مطمئن، إن هذه الذرة
التائية ليست متروكة بلا رعاية ولا معونة ولا ولاية.. إن الله معها.

وما تكون في شأن و ما تقول منه مذله من قراءان ولا تعملون من عملاً إلا حكماً
عليكم مهداً إذ تفيضون فيه.

إنه ليس شمول العلم وحده، ولكن شمول الرعاية، ثم شمول الرقابة.

لا يعرّب عنه مقبل ذوق في السماء ولا في الأرض ولا أصغر من ذاك ولأ
أكبر إلا في كتب مبين(1). ل سبع.

ويسح الخيال مع الذرات الساقة في الأرض أو في السماء ومعها علم الله
- وما هو أصغر من الذرة وأكبر مصور في علم الله. ويتحش الوجدان إشفاقا
ورهبة، ويشع القلب إجلازا وتقوى، حتى يطمئن القلب من الروعه والرهبة.

(1) التفسير المثير 207/11.
ويهدد القلب الواجف، يُناس بالقرب في الله.
وَفِي ُظَل هذَا الأَنْس، وَفِي طَمَائِنِهَا هذَا الْقُرُب يَنَأَى الْإِعْلَانِ الجَاهِزَ .، تَتأَى
الأَيَّة الْتَالِيَة:
«أَلَآ إِنَّ أُولِيَّاءَ اللَّهِ لَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ تَخَزَّنُونَ» (الْيَسِيرَ) مَآمَعٌ
وَسَكَانُوْنَ يُقْفُونَ لَهُمُ الْبَرْزُقُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنِيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَتَبَدَّل
إِشْكَانِتَ اللهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ» (يُونُسَ).

إن كل من يتأمل في مدلول هذه الآية ولا يتأمل فيها حق الال عالم مؤمن، واسع
العلم والأفق والنظر - فس嬉しい سعة علم الله الشامل، ورصده لكل شيء في
الوجود، وأعمال جميع الكائنات الحية، والناس قاطبة في البر والبحر والجو،
يسيطر عليه الخوف والرهبة، ويلأ قلبه اليقين بعظمة الله تعالى، ويدرك أن جميع
أعماله مسجلة عليه، سواء أكانت صغيرة حقيقة أم كبيرة جليلة.

وَلله المثل الأعلى - رصد الله لحركتنا - وعلمه جميع أعمالنا، بل استطاعه على
ما تكن نفوسنا، يملأ النفس رهة وخوفا، فسِبِحَانَكِ يَارِب، لا يسعنا إلا سترك
وعفوك ورحمةك، وكفى بهذه الآية باعثا على الطاعة والإيمان، ورادعا عن
المعصية والكفر، وكفى بالله حسبيا، وهو أسرع الحاسبين.

(1) في ظلال القرآن 3/1803
(2) التفسير المتير 2008/11 210
10- القرآن العربي

المَرْتَبَةُ الْكُتُبُ الْعُلَّمِينَ يَوْسِفُ مَعَهُمُ الْقُرَآنَ يَقْرَأْنَهُ عَلَيْكُمْ تَعْقِيلُونَ.

خَذْ نُفْسَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصْصَيْنَ وَأُوْحِيَّتَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرَآنَ وَإِنْ خَذْتَ مِن

قبلت، لَمْ يَغْفِرِنَّكَ [يوسف].

القرآن الكريم: افتتحت سورة يوسف المتلازمة مع كتاب الله تعالى من خلال الأربع والعشرين سورة في القرآن الكريم اللاتي كان افتتاحهن بالحروف النورانية، وشاركت سورة يوسف بالأحرف الآية كل من سورة (الحجر وبيوس وهم وإبراهيم)، والسورة الخامسة بدأت ب كل آيات. هم هو مبين.. هذه ملاحظة، والآخرى هو أن في هذه السورة أول ذكر للغة القرآن الكريم وهي العربية، وسكت دون ذكر اللغة العربية في مواقف أخرى. قوله تعالى في سورة قصيلة آيات: {كَبِّرْهُ قَلِيلًا فَقُلْتُ ابْنُهُ}

قرَّأْنَا عَرَبًةٍ يَقْرَأُهُمُ الْقُرَآنُ [فصل]، وكذلك في سورة فضلت الآيات 42، ومواطن أخرى. هذه البداية الآن لتاكيد أن هذا القرآن عربي. نزل بلغة العرب التي اختارها الله تعالى دون غيرها من لغات الأرض لتكون فحواحة التنصّل ورفع هذه اللغة لتكون من الفضل والسمو والعلو، نزل بها من الله تعالى. إن معرفة هذا الفضل وهذه القديسية لهذه اللغة جعل كل أعداء الإسلام ينادون لخبرتها بأي أساليب من الأساليب المعروفة في أحيان الشيطان وجندها؛ وكذلك لابعاد هذه اللغة، وليكون ما نزل بها مهجورًا. لكن حفظ الله تعالى الذي تكلف به هذا التنصّل، يبطل ويدحض ويهزيم كل رأى، أو كل عدم مهما بلغته قوته وجعل جندها، واستمر القرآن يتحدى كل أعدائه وأعداء الإسلام من المنكرين والكثير من أهل الكتاب، وبذلك فقد تمكنت اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم أن تتخطى كل ما في الدنيا من مؤامرات، وأن يبقى القرآن عربياً. ومع أنه قد ترجت معانيه الآن ما يقارب المائة وخمسين لغة في العالم، فلم يرق ولن يرق إلى سمو رسمه بالعربية وبلاغتها وبيانها أي ترجمة لمعانيه، حتى أي
معارضة له مهما كانت فيبلاغة اللغة التي كتب بها.

إن الإعجاز المطلق في هذا القرآن أنه عربي معجز بلغة مباركة تعتبر من أرقى لغات العالم وأفضلها؛ إذ بها اختير التنزيل المبارك للقرآن الكريم.

وأمر ثالث: هو أن الله - عز وجل - ربط التنزيل بالعربية ب hayat المفهم العلمي والعقلي فجاءت مباشرة كلمة "لَّكَمْ تَعْقِلُونَ" والعقل ضد الجنون، والعقل ضد الجهل، والعقل ضد الخرافات، والعقل ضد التشويش، والعقل أخيرا هو نعمة الله - تعال - التي أنعم بها على الإنسان من جملة نعمة التي كرم بها هذا الخلق وميزه ورفعه عن جميع مخلوقاته. أي أن الخطاب جاء مباشرة لأصحاب العقول، ولعلهم يعقلون إن كانوا قد اطاعوا أو اخترعوا عن العقلانية التي فطر الله الناس عليها.

ورابع الأمر: أن هذا القرآن العربي يقص حسن القصص وهي قصة سيدنا يوسف عليه السلام بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام حيث ترد هذه القصة الوحيدة متكاملة في القرآن الكريم، وغيرها جاء متفرقا متكررا - في الجزء - في كل ورود.

سبب نزول الآيات: "تَحْنَّى نَفْسُكَ عَلَيْكَ" روى ابن جرير، عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا؟

فنزلت: "تَحْنَّى نَفْسُكَ عَلَيْكَ". وفي سرد لما أورده صاحب التفسير المثير (1):

- تشبه فائحة هذه السورة فائحة سورة يونس، لكن وصف القرآن الكريم هنا بالبين، وهكذا بالحكم؛ والسبب أن سورة يوسف تعبر عن أحداث جسام مر بها نبي كريم صبور فناسها الوصف بالبيان، وأما سورة يونس فمضمونها إثبات أصول الدين من توحيد الله، وإثبات الموحي والنبوة، والبعث والجزاء، وهذه يناسها الوصف بالحكمة.

والمعنى: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة الظاهرة أمرها في إعجاز العرب وهذا تفسير الزمخشرى. وقال أبو حيان: والظاهرة أن المراد

بـ «المُكَتَّب»، القرآن و«المُمِينُ» إما اللين في نفسه الظاهر أمره في إعجاز العرب وتبتكيتهم، وإما المبين الخلال والحرام، والحدود والأحكام، وما يحتاج إليه من أمر الدين، أو المبين الهدى والرشد والبركة.

وعلى أية حال فإن الكتاب اسم جنس يطلق على البعض وعلى الكل، فسواء قلنا: إن المراد به هذه السورة أو كل القرآن، فالقصود إثبات صفة القرآن، وصفاته لا تختلف بين السور جميعها. فكلها واضحة جلية تفصص عن أشياء مبهمة، وآياتها تبين وتفسر غواصات الأمور، وتوضح أحكام الشريعة، وترشد إلى ما هو خير في الدنيا والآخرة.

قال القرطبي وابن كثير: هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين، أي الواضح الجلى الذي يفصص عن الأشياء المبهمة ويقررها ويبينها، يعني بالكتاب المبين: القرآن المبين، أي المبين حاله وحراسته، وحدوده وأحكامه وهدى وبركته.

«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» أي إنا إنزلنا هذا القرآن على النبي محمد العربي بلغة العرب.

أفسح اللغات، وأبينها وأوعسها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، لتعلموا ما لم يكونوا تعلمون من قصص وأخبار، آداب وأخلاق وأحكام، وتشريعات، ومناهج حياة سليمة في السياسة والاجتماع والاقتصاد وشؤون الدولة، ولتتثبروا ما فيها من معان وأهداف، تبني الفرد والجماعة على أقوم الأسس.

قال ابن كثير: فلهذا إنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسول بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة، فكمل من كل الوجه، وذلك يقال تعالى: «مَنْ تَفْصِّلْ» أي فن نخيرك بأحسن الأخبار، بسبب وحينا إليك هذا القرآن الذي جاء تاما كاملا مفصلا كل شيء، وجاءت قصة يوسف كاملة تامة مفصلة، ذات أهداف سامية وعبر كتيرة، وإن كنت من قبل ما أوحيت، أي من قبل وحينا إليك <أَلْمِنَ أَلْفِينَ> عما عرفناك به: أي من الجاهلين به فلا علم لك به قط، شأنك شأن فومك، لا يعرفون من قصص الماضين وأخبارهم شيئا.
ولقد ذلت الآيات على ما يلي:

1- القرآن الكريم كتاب مبين، أوضح الحلال والحرام، والحدود والأحكام، والشرائع والأخلاق، ليكون هديا للعالمين، وبركة وخيرا للناس أجمعين، فهو معجزة بيئة محمد ﷺ.

2- القرآن العظيم نزل بلسان عربى مبين، يقرأ بلغة العرب، فكان معظم العرب أولى الناس بالإيمان به فهم ما فيه، وتعلم معانيه.

3- القرآن بيان جلي متضمن أحسن القصص، وأثبت الأخبار، وأجدى الآثار وتوازن الأمام الماضية، والمراد بأحسن القصص أنه اقتضى على أبده طريقة وأعجب أسلوب، أي أن المراد من الحسن حسن البيان، وكون الألفاظ بلغت بالصحة حد الإعجاز.

4- قصة يوسف ﷺ أحسن القصص، والسبب في تسمية هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأفاصص، هو ما تضمنته هذه القصة من العبر والحكم، وما اشتملت عليه من التوحيد والفقه والسير وتعبير الرواية والسياسة والمعاش، وتدير المعاش، وجبل الفوائد التي تصلح للدين وللدنيا، وذكر الأبناء والصالحين والملائكة والشياطين، والجن والإنس، والأعماق والطير وأخبر الملوك والمملوك، والتجار والعلماء والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن، فهي قصة جامعة شاملة للدين والدنيا والحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية الملاينة بالعبر والعظات، ولعل من أهمها الصبر على الأذى والعفو عند المقدرة، انتهى.
11- القرآن الخارق

قد أرسلناك في أمية قد خلت من قُبليها أممُ للتقُبُّل علىهم أنتَ وحيدًا إلىك.
وهم يكفرُون بالرَّحمن قُل هُو رق لا إله إلا هو عليه توسلت وإلا فتُمabh ولَو أن قُرَأنا سيرب بين الجبال أو قطعت بين الأرض أو كم يهم الموت فلَب النّور أمر جميعاً
أتمه بابن السّيدهين اعترفا أن لو نشاء الله لنهدي الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا
نصيبهم بما صنعوا قارعة أو خلل قربا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا تخف

الأية (14) [الرعد]


وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردوه عن عطية العوفي قال: قالوا للنبي: لو سارت لنا جبال مكة حتى تسع فنحرت فيها أو قطعت لنا الأرض، كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح أو أحييت لنا الموتى، كما كان عيسى يحي الموتى لقومه، فنزل الله: ولو أن قرأنا الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال: قالت قريش لرسول الله: إن كنت نبيا كما تزعم، فباعد جبلية مكة أخشينها جبلين فيها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة، فإنها ضيقة حتى نزرع فيها ونرعى، وابعت لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخرجونا أنك نبي، واحلنا إلى الشام أو اليمن أو.

(1) المشركون الذين كانوا يطلبون المعجزات الخارجية من النبي
إلى الحيرة، حتى يمته ونذهب في ليلة، كما زعمت أنك فعلته فنزلت هذه الآية.

أما مناسبة الآية: فبعد أن قص الله علينا ما طلب المشركون من آيات تثبت نبوة محمد ﷺ أوضح أن موحدا كثيرة من الرسل مع أقوامهم، طلبوا الآيات من أنبيائهم وأجابهم الله إلى مطلبهم، ولكنهم لم يؤمنوا، فعدوا بعدد الاستنصال.

ولو أرادوا آية؟ فقد أعطيناك هذا الكتاب ( القرآن المعجز) وأنت تنلوه والله قادر على كل شيء من الإثيان بما أقرحوه، ولكنه لا يحقق المقصود، ثم هددتهم الله بديدة تحل بهم، ثم أتبع ذلك بسلية للنبي ﷺ على استهزائهم به.

قوله تعالى: ۚ وَلَوْ أَن قَرَأْتَ نَسِيرًا بِآيَاتِ ٱلْجَبَّالِ ۚ هذا متصل بقوله: ۚ لَوْ كَانَ يَتِمَّ بِنَيَّتِكُمْ ۚ وذلك أن نفوا من مشركي مكة فهبط أبو جهل وأبو بن أبي أمية المخزوميان، جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم، فقال له عبد الله: إن سرك أن تبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فاذتهبهم عن مدى تفسح، فإنها أرض ضيقة، وأجعل لنا فيها عيونا وأنهاراً، حتى نغرس، ونزرع، فلست كما زعمت بأنه بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه، وسخر لنا الريح فتربكها إلى الشام نقضي عليها ميرتنا وحواجنا، ثم نرجع من يومنا، فقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت، فلست بأهون على ربك من سليمان داود وأحذ لنا قصي (1) جدك، أو من شئت من موتانا نسالة؟ أحق ما تقول أنك مبطل؟ فإن عيسى كان يجيء الموتى ولست باهون على الله منه، فنزل الله تعالى: ۚ وَلَوْ أَن قَرَأْتَ نَسِيرًا بِآيَاتِ ٱلْجَبَّالِ الآية.

قال معاذ بن الزبير بن العوام مjahad، وقتادة والضحاك، والجواب مجهذ.

تقديره، لكان هذا القرآن لكن حذف إيجازاً. لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه. كما قال أمور القيس: فلو أنها نفس تموت جميعها ولكنها نفس تسبق أنفساً

(1) تفسير القرآن 9/319-321.

قوله تعالى: { أَفَلَمْ يَأْتِيَكُمْ النَّذِيرُ بِآيَةٍ مَّثْلَ آيَاتِهِ؟ أَلَمْ يَأْتِكُمْ قَرَاعَةُ قُرَاعَةٍ؟ } أي داهية تفجؤهم بكفرهم وعنتهم، ويقال: قرعه أمر إذا أصابه، والجميع قوارع، والأصل في القرع الضراب.

أي لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعة كما أصاب أربد أو من قتل أو من أسر، أو جدب. أو غير ذلك من العذاب والبلاء، كما نزل بالمستهزئين وهم رؤساء المشركين، وقال عكرمة عن ابن عباس القارعة: السكبة، وقال ابن عباس - أيضاً - وعكرمة: القارعة: الطالع والمرايا التي كان ينفذها رسول الله ﷺ. { أَوْ خَذِّلْ أَيَّ الْقَارَعَةِ قَرَاعَةً مَّنْ دَاوَرَهُ } قاله قناعة والحسن. وقال ابن عباس: أو تخيل أنت قريب من دارهم. قيل: فنزلت الآية بالمدينة؛ أي لا تزال تصيبهم القوارع فنزل بساحتهم، أو بالقرب منهم كفرى المدينة ومكة { حَتَّى يَنْتَكِهَا وَغَدٌّ أَنْتَهُ }، في فتح مكة؛ قاله ماجاه وقناعة. قيل: نزلت بِمَكَة، أي تصيبهم القوارع، وتخرج منهم إلى المدينة يا محمد. فتحليل قريب من دارهم، أو تخيل بهم محاصرا لهم، وهذه المخاصة لأهل الطائف، ولقلاع خير، ويأتي وعد الله بالاذن.
لك في قتالهم وفهرهم، وقال الحسن: وعد الله يوم القيامة (1).

وبذلك فقد كان طلب المشركين أن يكون القرآن الذي يتلوه محمد ﷺ يملك من الخوارق ما غير تضاريس الأرض ويجيى الموتى. ويجمع معجزات الأنبياء السابقين المادية. والقرآن معجزة أكبر من هذا بكثير فهو دائم التجدد والعطاء والإعجاز في كل زمان وحين: و لتَعلَّمَّن تَبَاء، يَعْدَ حِينٌ {الإسراء: 9} [ص] ولكن إدراك المشركين كان لا يؤمن إلا بغيير واقعهم الذي يعيشونه.

(1) تفسير القرآن 9/319-321.
القرآن المبين

الرَّحْمَانُ يَّلَّكَ عَلَى بُلْبُلٍ وَقَرْنِي مَيْنَ مَيْنَ رَبًّا يُوحَى لَكَ الْكِتَابَ كَفَّرْوًا
لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ذَرُّهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَتَّمِعُونَ وَبِلَهَمْ الأَمْلِ فَسَوَفُ يُعَمَّرُونَ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَلَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ مَا تَسْقَيْ مِنْ أَمَأَيْ أَجِلْهَا وَمَا يَسْتَخْرَجُونَ) (الحجر).

ورد ذكر القرآن الكريم في سورة الحج في ثلاثة مواضع .. أولاً في بداية السورة - الآيات السابقات، وفي الآية 87، وأخيرا في نهاية السورة تقريبا. وذكر القرآن في المواضع الثلاثة جاء تأكيدا وتبيانا لعظمة هذا القرآن، ولكونه من عند الله تعالى، وأنه قرآن مبين، وقرآن عظيم، وصفات أخرى ما اتصف به هذا الكتاب، ثم إن القرآن الكريم قد ذكر بصفتين متتابعتين من أسمائه - الكتاب والقرآن المبين، كما أنه ورد بعد أحرف نورانية في السور المتكررة الذي ذكر فيها القرآن بعد هذه السور، وبذلك فإن افتتاح سورة الحج بهذه المعاني المتكررة جاء تعظيما وتوضيحًا وتبيانا لهذا الكتاب - القرآن المبين.

(الرَّحْمَانُ إِشَارَةٌ لِلْتَحْدِي عِلْمِ العرب بِإِعْجَازِ القرآن البَيْنِيّ : أي هذا الكتاب كلام الله المتكون من حروف لغة الكهنوت العربية الهجازية : ألف لام ميم .. وهنا راء يَّلَّك )

إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات (الكيتوب ) هو السور و Владимир القران ، أي هذه آيات الكتاب العظيم المتميز بالفصاحة الكاملة والبيان النام : و القران ميتي ) أي وقرآن واضح تام البيان. لا خلل فيه مظهر للحق من الباطل، والكتاب والقرآن المبين ، الكتاب الذي وعد الله تعالى به محمد ﷺ. وتنكير ( و قرآن ) للفحص والمعنى: تلك آيات الكتاب الجامع لكونه كتابًا وقرآنًا، فهو كاملاً بكونه كتاباً وفهي كونه قرآنًا مفيداً للبيان.
126

(١) الآآر (١) هذه الحروف المقطعة مقصود بها التنبئ وإشعار العرب بإعجاز القرآن البيني، وتحديهم بالإبطان بملس أقصر سورة منه لأنه نزل بلغتهم، وتكون من حروفها التي تتركب منها الكلمات: "يلكء أَيْتَ ٍأَلْحَكَمَةَ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ" أي تلك الآيات من هذه السورة هي آيات الكتاب الكامل في كل شيء، وآيات القرآن المبين النام الوضوح والبيان لهذه السورة وغيرها. وتنكر كلمة: "قُرْءَانٍ" للتفحيم، وقد جمع بين الوصفين: "أَلْحَكَمَةَ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ" للدلالة على أنه القرآن الجامع للكلمال، والغرابة في البيان، كما قال الزمخشري.

فالقرآن الكريم جامع بين صفة الكلمال في كل شيء، والوضوح والبيان فلا نقص فيه ولا خلل، ولا غموض ولا لبس وإنما يظهر الحق من الباطل لكل إنسان.

وتلى هذه الآية الأولى من سورة الحجر آيات تصور حال الكلدان الذين سيقوا إلى جهنم، فلما أصابهم ما أصابهم من العذاب، ولم يكونوا في حياتهم الدنيا يصدقو أو يتصورون هذا العذاب جاءت كلمة "زَيْمَاً" تدل على أن ما بعدها قليل الحصول، وقد تستعمل في الكثير كما هنا، فإنه يكثر منهم عن الإسلام.

(١) " الآآر (١) قال النحاس: قرى على أبي جعفر أحمد بن شعيب بن علي أبي الحسن بن حربث وقال: أخبرنا على ابن الحسن عن أبيه عن يزيد أن عكرمة حدثه عن ابن عباس: "آآر "، حرم، ونون حروف الرحمن" مفرقة، فحدثنا الأعمش فقال: عندك أشباه هذا ولا عكرمة به، وعن ابن عباس أيضا قال: "معني " آآر " أنا الله أرى"، قال النحاس: ورايت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول لأن سبيوي قد حكي مثله عن العرب وأشهد:

بالخيار خيات وإن شرفاً ولا أريد الشر إلا أن تا وقال الحسن وعكرمة: "آآر" قسم. وقال سعيد عن قطادة " آآر " اسم السورة، وقال: وكذلك كل هجاء في القرآن. وقال مjahد: هي فواحي السور، ووافق محمد بن عبد: هي تنبئه، وكذا حروف النهجى. وقرى (آآر) من غير إملاء، وقرى بالأملاء لثلا تشبه ما ولا من الحروف.

(٢) تفسير المثير (١): ٤١ / ٤٢ بتصرف من عناوين الفرداد اللغوية والتفسير والبيان وفقة الحياة.

(٢) تفسير المثير (١): ٤١ / ٤٢ بتصرف من عناوين الفرداد اللغوية والتفسير والبيان وفقة الحياة.
وقيل: للتسلل؛ فإن الأهوال تدهشم فلا يفيقون حتى يتمتموا ذلك إلا في أحيان قليلة، وما كنت دخول رب عن الجر فجاز دخولها على الفعل، وَمَا، نكرة موصوفة أي رب شيء يوذب يتمتى أي: أن الكفار عندما رأوا العذاب تمنوا لو كانوا مسلمين، وأيضاً عندما رأوا المسلمون إلى أي مآل سبقوا.

ثم يشير القرآن وينبه الرسول إلى أن يدعهم ذَرُّهم في طغيانهم يعمهن وأن الله عز وجل لم يعذب قوما إلا وارسال لهم كتابا معلوما، وجاءت الآية واضحة البيان: وَمَا أُهْلَكَنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَفَٰهَا كِتَابًا مَّعْلُومٌ، وجعل الله تعالى للأمم آجلا كما للأفراد أجلها من الناس، كما لكل خلق الله تعالى له أجل حتى لتلك الآيات الكبيرة في الكون والسماء والشمس والقمر والكواكب، كلها أجلها المعلوم وأنعدد إلى تلك الأمة التي لا يسبق أجلها ويسأل، فكل شيء عندنا في كتاب معلوم في اللوح المحفوز عندما قدر الله للحياة والمخلوقات أقدرها وآجلاها: ما تشبيه من أمة أجلها وما يستخفرون.
1- القرآن العظيم

وَمَا حَلَقَتَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَا بَيَّنَّا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنْ رَكَّ زَ هُوَ الْخَلِيقُ الْعَلِيمُ وَلَقَدْ اِنْتَيْنَا سَبَعًا مِّنْ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ (الحجر)

هذا هو الموضوع الثاني الذي ورد فيه القرآن في سورة الحجر، وذكره هنا。

هنا يختلف عن مناسبة ذكره في بداية السورة، وربما عما سردت وفيم آخرها من ذكر هذا الكتاب العظيم. هنا يخطب الله تعالى نbies ويبين له حلال الأمام السابقة التي ما زالت آثارها مائدة في وقت نزول القرآن، وما زالت مائدة أمامنا حتى اليوم. ويبن الله تعالى - تعال - أن هذه الحضارة التي شيدت على غير الإيمان، أصاب أهلها من النقمة ما أصابهم وليست آثارهم بعدهم شاهدة عليهم. ولقد كذب أصيب الحجر المسرفين وانتباههم - إيباننا فكانوا عنها معرضين وكانوا يتحدون من أبيبالبيوت - إيباننت. فأخذت الصيحة مصيحة فما أغني عنها ما كانوا يكسيون (الحجر)

هؤلاء القوم لم يدمر الله تعالى بنيانهم على رؤوسهم كما فعل من بنيهم من المنكرين الضالين. بل ذهب بهم وأبقى آثارهم وسميت السورة باسمهم: الحجر لأنهم شيدوا بنيانهم من الحجار ونحتوا الجبال وظنوا أن هذه الأبنية مانعتهم من العذاب، ولكن جاءهم ما لم يكونوا يحسبون.

ثم تنتقل السورة إلى تبيان عظمة الله - تعال - المتمثلة في خلقه، في خلق السماوات والأرض وما بينهما خلق بالحق، لا عيب فيه، ولا له ولا لعب، ولكنه خلق بالحق لتحقيق إرادة الله - تعال - في خلقه وأمره، ثم يأتي بتدخلي رأيع نصيحة للمنى: فاصفح الصفح الجميل، وعودة للتذكره بأن الله هو الخالق ولا خالق غيره، ثم يبين الله - تعال - للرسول ما آتاه من نعم ولقد أتيناك سبعة من الأملين.»
المذكور في حديث رواه الشيخان: لأنها تتى في كل ركعة وآياتها سبع.

لما صبَّر الله - تعالى - محمدًا على أذى قومه، وأمره بأن يصفح الصفح الجميل أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص الله - تعالى - محمدًا بها؛ لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعمة الله عليه، سهل عليه الصفح والتجازو، وتطلع للسد:

أعطيناك وأنزلنا عليك أيها الرسول السبع المثنى والقرآن العظيم.

السبع المثنى هي سورة الفاتحة، ذات الآيات السبع التي تتى وتمكر في كل ركعات الصلاة، والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصص الله بها. روى البخاري حديثين في تفسير السبع المثنى: الأول عن أبي سعيد بن المعلى، والثاني عن أبي هريرة.


وأما حديث أبي هريرة فقال: قال رسول الله ﷺ: أم القرآن هو السبع المثنى، والقرآن العظيم، وقيل: السبع المثنى هي السبع الطوال: (البقرة، آية عمران، النساء، والائمه، والآيتان، والأعراف، والأسفال) لتكرار القصص والأحكام والحدود وثنيتها فيها.

وقيل: المراد بالسبع المثنى: جميع القرآن، ويكون العطف من باب التردد.


والراجح أن تفسير البخاري نص في أن الفاتحة: السبع المثنى، ولا منع - كما قال ابن كثير - من وصف غيرها بذلك لما فيها من هذه الصفه.
كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي فإن ذكر الشيء، لا ينبغي ذكر ما عدا إذا أشتكى في تلك الصفة.

ثم ترتب - تعالى - على هذا العطاء العظيم قوله: «وَلَا تَمَّدَّنَّ عَيْنِيَّكَ» أي لا تطمحي أيها الرسول - والخطاب لأمته - إلى ما متعنا به الأغنياء من زينة الحياة الدنيا فمن وراء ذلك عقاب شديد واستغتن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم عليه من المناع والزهرة الفانية، والمقصود: فاخر بما أوحي إليك وقدر عظمة نعمة عليك، ولا تنظر إلى الدنيا وزيتها، وما متعنا به أهلاها من الزهرة التانية. لفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه ولا تحسر عليهم في تكاليفهم لك، ومخالفتهم دينك وإنك في نعمة عظيمة، هانت أمامها بقبة النعم وكانت حقيقة وهذا دليل على أن القرآن ثروة كبرى وخير وفلاحة ونظرية الآية: «وَلَا تَمَّدَّنَّ عَيْنِيَّكَ إِلَى مَا مَتَعَنَا بِهِ أَزْوَاجَاهُمْ رَزْخَةَ الْحُبُّوْنَ أَلْدَاهُمْ لِئَلَّا تَفْتَحُوهُمْ فِيهِ» [ط: 131] قال أبو بكر من أوتي القرآن، فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيراً.

وَلَا خَزَنَّ عَلَيْهِمْ» أي ولا تتأسف على المشركين إذا لم يؤمنوا ليتقوى بهم الإسلام، ويعتز به المسلمون: وقال المعني: لا تخزن على ما متعنا به في الدنيا، فكله في الآخرة أفضل منه.

وتتأتي الصورة الثالثة - أو الذكر الثالث للقرآن الكريم - في سورة الحجر استكمالاً للصورة الثانية، وفيها بعض الارتباط من حيث إن الذكر الأول للكتاب وبين عظمة هذا الذكر، وعلوه، وسوهو، وتأتي الذكر الآخر ليبين موقف الكفار من أهل الكتاب من هذا القرآن، وكيف أنهم وزعوا وجزؤوا مواقفهم منه جملة ومن بعضه أيضاً، ففجأة الصورة بينها في موقف هؤلاء، بعد أن بين - الله تعالى - للنبي عظمة هذا الكتاب، وتوجيهه له بالآيتين أثر بما وقوفهم وموافهم - فأوصاه: «لَا تَمَّدَّنَّ عَيْنِيَّكَ إِلَى مَا مَتَعَنَا بِهِ أَزْوَاجَاهُمْ لَا خَزَنَّ عَلَيْهِمْ» يوجه

(1) تفسير ابن كثير 2/ 557.
(2) التفسير الميسر 14/ 69 ، 70.
الله - تعال - تفكير نبئه واهتمامه إلى أمر آخر، يعظم به أمام موقف الأعداء وحالمهم، فطلب الله تعالى من نبيه ﷺ أن يخفض جناحه للمؤمنين، ويلغ الكفار والمنافقين وأهل الكتاب بأنه هو النذير المبين: "وَقَلٌّ إِلَىٰ آنَا الْذِّيْرُ الْمُبْيِرُ" (الحجر).

تشير الآيات بعد ذلك إلى مواقف هؤلاء كما وردت فيهم: "كُمَّا أُنزِلَ عَلَى الْمُقَدِّسِينَ أَلَوُّنَ أَلْبَارٍ عَلَى الْقَرْنِاءِنَّ عَيْضِينَ فِرْوَزْيُكَ لَنُسْتَلَّهَ أَجْمَعِينَ" (الحجر).

كُمَّا أُنزِلَ عَلَى الْمُقَدِّسِينَ، عَيْضِينَ، فِرْوَزْيُكَ لَنُسْتَلَّهَ أَجْمَعِينَ، كُمَّا أُنزِلَ عَلَى الْمُقَدِّسِينَ، عَيْضِينَ، فِرْوَزْيُكَ لَنُسْتَلَّهَ أَجْمَعِينَ.

«القرآن» حيث قال المشركون - عنادا: بعضه حق موافق للторاة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، أو قسمه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين، وإذا كان المراد أهل الكتاب، فالأقران: كتبهم المنزلة عليهم، أمروا ببعض كتبهم، وقرأوا ببعض، فتكون تسليمة للنبي.

وقدروا بعض، فوروزيكن لنسنةهم جميعين، سأل تربيع عالتقسيم أو النسبة إلى السحر فيجازيه عليه، أو هو عام في كل ما فعله من الكفر والمعاصي، فليس المصصود بالسؤال استخار واستعلام؛ لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقرير وتوصيف، ما عصيتهم القرآن وما حجتهم فيه، هذا قول ابن عباس. وقال عكرمة: إن القياس مواطن، فمرة يكون هناك سؤال وكلام كمًا في هذه الآية، ومرة لا يكون هناك سؤال وكلام كما في قوله تعالى: "فَيُؤْمِنُنَّ لا يُسْتَلَّ عَنْ ذِنْبِهِ إِنَّ الَّذِينَ لا يَجَابُونَ (الرحم).

"فَقَاتِبَ عَدَّة"، يا محمد، "بِمَا تَوَلَّى" أي اجهر وأمضى، من صدع بالحجة إذا كأنه به جهارا: "إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْدِينَ"، بإثنا كلاً منهم بافة، وهم الويلد.
ابن المغيرة، ويقبة المشركين وعدى بن قيس، والأسود بن المطلب والأسود بن
عبد يغوث "فَسَوْفَ يُعْمَرُونَ" عاقبتهما في الدارين.

"فَكَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عَضُيْنَ" هنالك رأيان

في تعليق قوله: "فَكَمَا أَنْزَلْنَا" (1).

أحدهما: أن يتعلق بقوله: "وَلِيُّدْ "أَيْبَاشَ" أَيْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ، كما أنزلنا التوراة
والإنجيل على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) من قبلك، وهم المقتسمون الذين
اقتساموا القرآن إلى أجزاء، فآمنوا ببعضها الموافق للTORAH-WANG-EILY ، وكفروا ببعضه
المخالف لها، فاقتسموه إلى حق وباطل. وهذا مروي عند البخاري وسعيد بن
المنصور، والحاكم، وابن مردوية عن ابن عباس.

والثاني: أن يتعلق بقوله: "وَقَالَ إِلَى أَنَا الْبَرْحِيْرُ الْمُيْسَرُينَ" أَيْ: وإنه
قريشا بالعذاب مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين - يعني اليهود - وهو ما
جرى على بنى قريظة والنضير، فجعل المتوقع منزلة الواقع، وهو من الإعجاز؟
لأنه إخبار ما سيكون وكون.

فكل من هذين الرأين جعل المقتسمين من أهل الكتاب، والمقتسم هو القرآن،
ويجوز أن يراد بالقرآن كتبهم التي يقرأونها، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، ويكون هذا
من باب السلالة للنبي حيث قال قوله عن القرآن: إنه سحر، أو شعر، أو كهانة.

وهناك وجه ثالث: مروي - أيضا - عن ابن عباس: جعله الرازي هو القول
الأول، حيث قال ابن عباس: هم الذين اقتسموا طرق مكة، لِيسَدُوا الناس عن
الإيام ي رسول الله ﷺ ويقرب عدهم من أربعين. وقال مقاتل بن سليمان:
كانوا ستة عشر رجلا بعثهم الوليل بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا عقبات مكة
وطرقها يقولون لن يسلكها، لتأخروا بالخارج منها، والمدعي للبؤرة فإنه مجنون,
وكانوا يسفرون الناس عنه، بأنه ساحر، أو كاهن، أو شاعر، فأنزل الله تعالى بهم
خزيا، فماتوا شر ميتة، والمعنى آنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين (2) المقتسمون هم
القرشيون (3).

(1) الكشاف 2/ 195.
(2) تفسير الرازي 19/ 211 وما بعدها.
(3) التفسير المنير 14/ 76.
القرآن المحفوظ

ף من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فبلغ فيه حب وثواب في الآخرة أجرهم بما كسبوا يعملون فإذا قرأ القرآن فاستعد الله من الشيطان الارجيم. إن الله ليس له سلطان على الذين يعملون وعلي رحمتهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه. والذين هم به مشركون.

وإذا بدأنا ناءةً مسحورين أغنه والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أتت مفرتراً بل أكثرهم لا يعلمون قالن نزله روح القدس من نبي باليغلي ليثبت الذين آمنوا وهدى وشرط للمسلمين. وقد علم أنهم يزورون إنما يعلمهم بشري لسان النبي يؤمنون بقابين الله لا يهديهم الله وله عذاب أليم كلذ الذين لا يؤمنون بقابين الله وآولائك هم أصحب النور.

[النحل]

وهذه الآيات التسع من سورة النحل صور متراجعة متوافقة متابعة لأمور تريث المؤمنين بالقرآن الكريم، والذي اختص بالإيات الثمانية للآية 97 في مساعد رائعة واضحة بيئة عند نزول القرآن الكريم، بعد أن بين نزاهة هذا الكتاب عن الشر وأهله وصانعيه من الجن والإنس، والتأكيد على الجن أولا، ثم الإنسان الذين لا يؤمنون بآيات الله تعالى.

هذه الصور وهذه المشاهد البيئة الواضحة النبرة تضفي على كتاب الله تعالى من الصفات والحفظ والحرز والصدق ما يحاول الكثير من المليين الضالين أن يصوروا هذا الكتاب، وتسعفهم نفوسهم الخبيثة، لإظهار انتقادهم على أنها وحق أو أنها تنجب إلى الحق، ولقد بين الله تعالى في مضمون هذه الآيات هذه الانتقادات والتحذيرات بقوة وإظهار الحق ودفاع الباطل؛ ليعلم المؤمنين الذين اختارهم الله تعالى لحمل هذا القرآن، وأن يعرفوا وأن يروا الطريق واضح المستقيم وهذه الصور تقف على كل منها منفردة أو مجتمعة، موقف المؤمن الصادق المتقن من هذا الحق.
الآية: ﴿فَمَن عَمِلَ صَالِحًا فَأَنْتَيْهِ وَهُوَ مُؤَمِّنٌ فَلْتَحْبِينَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيهِمْ أُجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحلة] فِي تَرْغِيب لِلرجل والمُرَأةِ في أَدَاءِ الطَّعَاتِ وَالضَّرَايْعِ الدِّينِيَةِ، فِيْضَاردَ أن يُحِبَّ اللهُ تَعالَيْهِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ في القَسْمِ الْأَوْلِيِّ، وَهُوَ الَّذِي أَصَبَّ عِلَى ما التَّزَوَّجَهُ مِن شَرَائِعِ الإِسْلَامِ بِقَولِهِ: ﴿وَلَنَجْزِي الْجِنَّاتَ صِبْرَهُمْ ﴾ بِأَحْسَنِ أَعْمَاَمِهِمَا تَشَمِّلْ المُبَاحَاتِ وَالْمَنْدُوْبَاتِ، وِهِيْشِهِمْ عِلَى مَا عَدَّا المُبَاحَاتِ، رَغَبَ الْمُؤْمِنِينَ في القَسْمِ الثانِي وَهُوَ الإِنْتِيَاهُ بِكُلِّ مَا كَانَ مِن شَرَائِعِ الإِسْلَامِ.

هَذَا وَعَدُّ مِن اللهِ ﺃُنْبَاءٌ لِمَن عَمِلَ صَالِحًا، فَمِن عَمَلِ صالحٍ مِن ذَكْرٍ أو أَنثى، وَهُوَ الَّذِي أَطْبَقَهُ الْعَرْقُ لِكُتَابِ اللهِ وَسَنَةِ رَسُولِهِ ﻋِلَيْهِ ﻭَالْمُتَّقِينَ، فَأَداَهُ الْفَرَائِضُ وَكَانَ قَبْلَهُ مُؤَمِّنًا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَلِهُ حَيَاةٌ طَيِّبَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَجَزَاءُ أَحْسَنَ مَا عَمَّلَهُ فِي الدَّارِ الأَخْرَى.

وَالحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ تَشَمِّلُ وَجْهَةَ الْرَّاحْلَةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَفَسَرَّهَا ابن عباس وَجَمِيعَهُ:

بَالْرِزْقِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ، وَأَوْلَى الْكَلَاشِ، وَأَوْلَى الْمَعْمَارِ، وَأُرِضِيَ الصَّحِيحِ كَمَا قَالَ ابن كِثَيْر: ﴿إِنَّ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ تَشَمِّلُ هَذَا كَلِهٍ﴾، كَما جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْأَحَدِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو حَمَدٍ، عَنِ بْنِ عُمَرَ أَنْ رَسُولٌ اللَّهِ ﻋِلَيْهِ ﻭَالْمُتَّقِينَ، ﴿قَالَ ﴿ٌقَدَ أَفْلِحَ مِنْ أَسْلَمِ، وَرَزَقَ كَفَاكَ، وَقَنْعَنَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ﴾، وَرَوَاهُ مَسْلِمٌ عَنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدِ الْمُقَرِّبِ.

وَرُوِىَ الْحَدِيثُ يَوْمَا رَكَّبَ ابْنُ عُبَيْدُ وَلَدَّهُ عَنْ فِضَالَةِ بْنِ عَبْدِ أَنْفُسَهُ سَمَعَ رَسُولَ اللهِ ﻋِلَيْهِ ﻭَالْمُتَّقِينَ، ﴿قَالَ ﴿ٌوَكَانَ عُيشَهُ كَفَاكَ، وَقَنْعَنَهُ بِهِ﴾، وَرُوِيَ الْحَدِيثُ أَحَدُ وَعَشَرَةِ مَالِكٍ قَالَ: ﴿قَالَ رَسُولُ اللهِ ﻋِلَيْهِ ﻭَالْمُتَّقِينَ ﴿ٌإِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنِينَ حَسَنَةً بِعَظِيمٍٍ يَعْظِمُها فِي الدُّنْيَا، وَيَشَابُهُ هَايَا فِي الْأَخْرَى، وَأَمَّا الْكَافِرِ فَيُظْلِمُ بِجَسَانِهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْأَخْرَى لَا تَنْتَهِي لِهِ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا خَيرًا﴾.

وَعَنْ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿قَالَ رَسُولُ اللهِ ﻋِلَيْهِ ﻭَالْمُتَّقِينَ ﴿ٌيُدْعَوِ فِيْهِمْ ﴿ٌ
اللهُمَّ فَعَنيِّي بِمَا رَزَقْتِي وَبِأَيْنِ لَيِّنِهِ وَأَخْلِفَ عَلَى كُلّ غَابَةٍ لِّي مُنْبِرٍ.

وفي الحياة الطيبة خمسة أقوال أصحاها: أنها تشتمل كل مناحي السعادة في الدنيا من الصحة والرخاء الخالد الطيب والطمانينة النفسية وراحة البال والتوافق إلى الطاعات فإنها تؤدي إلى رضوان الله تعالى، وقال أبو صالح: جلس الناس من أهل التوراة ونساء من أهل الإنجيل، ونساء من أهل الأوشن، فقال هؤلاء: يَسْتَعِيَّنَكُمْ هَلْ يَسْتَغْفِرُونَ لِللهِ. 

وتأتي الآيات التالية للحديث عن القرآن الكريم والتصنيفات التي أشارت إليه، ولي أن الله تعالى قد حفظه ودل الناس على أنهم إذا أرادوا حفظه فليستعذوا بالله من الشيطان الرجيم قوله تعالى:

"فِإِذَّ أَقَرَّتُ الْقُرْآنَ فَآتِعْنِي بِذَلِكَ الْقُرْآنِ الَّذِي نَهَاهُ عَنْهُ إِنِّي لَأَعْلِمُ ۛۛ."

إن هذه الآية متعلقة بقوله: "وَنَزَّلَنَا عَلَيْكَ الْكِتابَ تَبَيَّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ", فإذا أخذت في قراءته فإنها تستعد من أن يعرض لك الشيطان، فصرف فلك عن تديره والعمل بما فيه، وليس يريد استعذ بعد القراءة، بل هو كقولك: إذا أكملت فقل: بسم الله، أى إذا أردت أن تأكل، وقد روى جبر بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله حين افتتح الصلاة قال: "اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان همزه ونفخه ونفته".

وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ كان يتوعز في صلاته قبل القراءة.

قال الطري: ونقل عن بعض السلف التوعز بعد القراءة مطلقاً؛ احتجاجاً بقوله تعالى: "فِإِذَا قَرَّتُ الْقُرْآنَ فَآتِعْنِي بِذَلِكَ الْقُرْآنِ الَّذِي نَهَاهُ عَنْهُ إِنِّي لَأَعْلِمُ", ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضى أن تكون الاستعذابة بعد القراءة كقوله تعالى: "فِإِذَا قَضَبُتُ".

(1) التفسير الميسر 14/227-229
(2) انظر تفسير القردان 10/174
(3) الم harms: النحس والعزم، وكل شيء دفعته فقد هزمه. والنفح: الكبير؛ لأن المتكرر يتعاظم ويجمع نفسه نفسه فيحتاج أن يفث، والنفح: قال ابن الأثير: جاء تفسيره في الحديث أنه الشعر لأنه يبتعد من الفهم.

وروى أبو سعيد الخدري: أن النبي ﷺ كان يتوعز في صلاته قبل القراءة.


وبعد أن أبان الله تعالى أنه يجزي المؤمنين بأحسن أعمالهم ، أرشد إلى العمل الذي تخلص به أعمالهم من وساع الشيطان ، ثم ذكر بعض وساعه إلى منكري نبأ محمد ﷺ بالإقال الشهادات ومنها شهتان:

الأول: شهادة النسب: وهو التبديل ، أي رفع الشيء مع وضع غيره مكانه ، وتبدل الآية: رفعها بآية أخرى غيرها ، وهو نسخها بآية سواءاً.

والثانية: شهادة كون القرآن من تعليم نصري لا من الله ، وكان الرد مفحماً موضحاً بطلان هذه الشهبة وهو أن القرآن كلام عربي مبين ، وهذا المعلم المزعوم أعجمي ، فكيف يعلم كلاماً عربياً فصيحاً؟!

وفي هذه الآية: ﴿فإذا قرأ القرءان فاستدعى به إلى الشيطان الرجيم﴾ ﴿فإذا قرأ القرآن فأردوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم﴾ ﴿فإذا قرأ القرآن فأردوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم﴾ ﴿فإذا قرأ القرآن فأردوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم﴾:

يأمر الله عباده على لسان نبيه ﷺ إذا أردوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، فيقول: ﴿فإذا قرأ القرآن﴾ ﴿أي إذا أردت قراءة القرآن فاستدعَ بالله﴾ ﴿أي إذا أردت قراءة القرآن فيقول﴾ ﴿فإذا قرأ القرآن﴾ ﴿أي إذا أردت قراءة القرآن فيقول﴾ ﴿فإذا قرأ القرآن﴾ ﴿أي إذا أردت قراءة القرآن فيقول﴾:

أي إلى الله من وساع الشيطان المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم المعلوم
في رأي الجمهور مصرف عنه إلى الندب؛ لأنه لم يعلمه الأعرابي، ولأنه كان يتركها أحياناً.

والاستعاذه في رأي الحنفية وجعاعة: مطلوبة فقط في أول الصلاة؛ لأنها عمل واحد، مفتحت بقراءة فتكون في ابتدائها، وفي رأي الشافعية وجعاعة: تتكرر في كل ركعة فيها قراءة، فبدأ الركعة بالاستعاذة.

"إنهُ ليس لله سلطانُ"، أي أن الشيطان أي جنسه ليس له قوة ولا تسلط على المصدقين بلقاء الله جل وعلا والمؤمنين أمورهم إليه إما سلطانه أي إما تسلطه بالغواية والإصلاح على الذين أطاعوه، واتخذوه لولا وناصرو لهم من دون الله، والذين أشتروه في عبادة الله، ويتم أن تكون الباء سبيبة، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان وإغوائه لهم مشركين بريهم، ثم ذكر الله تعالى شهتين من شهات منكرى النبوة بتأثير وسوسة الشيطان.

الشبهة الأولى: "وإذا بُدِّلْتَا عَيْنَةُ مَحْكَارَةٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَرْتَلُّ قَالُوا إِنَّمَا أَنَّ مَفْتَرَهُ بَلَّ أُكَفَّرُهُ لَا يَعْلَمُونَ"، أي: إذا وافقت عينات محكمة وعذبة، فأما الأحكام ناسخها مسناوحة، عاقروا رسول الله ﷺ، وقالوا له: "إما أنت مفتخر أرأى كذاب متقول على الله، تأمر شيء ثم تنهى عنه، بل أكثرهم لا يعلمون ما في التغيير من حكمة ومصلحة للناس، ومراعاة لظروف التغيير والتطور، وأخذًا بهذا التدبر في تنزيل الأحكام، فليس محمد مفتخر، وإنما يفعل الله ما يشاء ويفضل ما يريد كما قال تعال: "ما نَسَخَ مِنْ عَيْنَةٍ أُوْسُسَهَا نَاتِيَ بِحُجَّةٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَاَََّ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَّيْ كُلِّ مَتِى١؟ قَدْ يَرُدُّ (ص)" [البقرة 128].

فرد الله عليهم شهيتهم الواهية آمروا رسوله: "قلُّ نَزْلِهُمۡ رُوحُ الْقُدُسِ"، أي قلهم بإسم محمد: "نزله أي القرآن المثلو عليكم جبريل ﷺ"، وقد أضيف إلى جبريل إلى القدس وهو الظهر من المائم نزله من ربك بالحق أي مقتربنا بالصدق والعدل والحكمة، وإن النسخ من جملة الحق.

"ليتَبِينَ اللَّهُ إِلَيْكُمۡ ءَايَتَكُمۡ"، أي يبلوها بالنسخ، فصدقوا بما أنزل أولا وثانياً.
وтинظم له قلوبهم، فإذا قالوا هو الحق من ربنا حكم لهم بثبات القدم في الدين.

وصحة اليقين بأن الله حكيم، فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب.

وإضائة كلمة "تَرْكَهُ" معاطيف على عقوله. ليثبت، أي: أن القرآن بما فيه من نسخ نزل ثبيتا لهم، وإرشادا ونهايا، ويشارة بابنللمسلمين الذين أسلموا وجههم الله واطعوهم، وانقادوا حكمه وأمره وآمنوا به ورسله.

وإذا يدل على أن المسلمين إذا رأوا النسخ، رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم، وثبت الدين في نفوسهم وتبنيوا من حكمة الله، وهدوا إلى الحق من الضلال والزنا، ونشروا جائت تجري من تحتها الأنهار، وأما المشركين فهم على الظلام من هذه الصفات.

والشبهة الثانية: "وَلَقَدْ تَعَلَّمْ أَنَّهُمْ يُقُولُونَ إِنَّمَا يُعْلَمُنَّ، يُبْتَغُونَ، يُبْتَغُونَ" [النحل: 103]

أجعف نعلم مما ثبت الدمام ما يقوله المشركين من الكذب والافتراء على محمد، فهم يقولون: جهل: إنما علمه هذا القرآن بشرا دميا، وليس حيا من الله، ويشيرون إلى رجل أعجمي اللسان، لا يعرف العربيا، غلام لبعض الفرسين، وكان بياء يعيد عند الصفاء، وربما كان رسول الله يجلس إليه، ويكتب بعض الشيء. واسمه جبر، وقيل: بلغ وقيل: يعيش عبد الله الحضرمي، وكان غلاما للفاكه بن المغيرة أو لعمر بن الحضرمي أو لعبيبة بن ربيعة (1)، وكان نصرانيا فأسلم، فإذا سمع المشركين بعض القصص القرآنية، قالوا: إنما علمه جبر وهو أعجمي.

فرد الله عليهم افتراءهم وكذبهم بنحو يدعو إلى العجب، فقال: "لِسْتَ عُجِّبْتُمِ"، أي لسان الذين يميلون ويشيرون إليه أعجمي لا عربى.

(1) قال القرنطي: والكل معتن، فإن النبي ﷺ ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعلموهم ما علمه.
والقرآن كلام عربي واضح مبين لكل شيء، فصيح يدرك بسرعة، بل أوضح ما يكون من العربية، كيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته، وبلاغته، ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يتعلم من رجل أعمى لا يحسن التعبير العربي! لا يعقل أن يتعلم هذا النبي كلاهما من هذا النوع من مثل هذا الرجل الأعمى.

ثم كشف الله لزهريد وتوعدهم بقوله: "لا إنه الذين لا يؤمنون بقرآن الله لا يجدون آلهتهم وليهم عذاب أليمٍ " (1) أي أن الذين لا يصدقون بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ، ولم يكن لهم قصد إلى الإيمان بما جاء منه عند الله.

لا يهديهم ولا يوفقهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله، لفقد استعدادهم لذلك واقترافهم السيئات، وهم في الآخرة عذاب أليم موجع:

(2) وأولئك هم الذين كذبوا وسفعوا والفروق على الله ﷺ، لا يؤمنون بالمفتونون.

وأوسمع أنفسهم بالكذب قبل أن يقول ما قال، قال: لا فقال هرقلاً: فما كان

ليدع الكذب على الناس ويهبها فيكذب على الله - عز وجل (1)

وستنبه الأحكام التالية من هذه الآيات:

1- الاستعاذا من الشيطان الرجيم مطلوبة على سبيل الندب عند الشروع في قراءة القرآن وفي الصلاة وغيرها؛ حتى لا يعرض الشيطان بوسوسته للقارئ فيصرفه عن تذكير القرآن والعمل بما فيه.

(1) التفسير المثير 14 / 273، 276 بتصريف. انظر الفرقين 1 / 176 فما بعدها.
وللشيطان وسوسة في القلب، حتى في حق الأنبياء بدليل قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا إِذَا تَمَّتْ أَلَيْلَةُ الشَّيْطَانِ فِي أمِيِّمِهَا، فِينَسْخَ الْلَّهُ مَا يَلِفُ الشَّيْطَانُ وَمَرْحَبَ مِنْ أَضْحَكاً، إِلَّا إِذَا أَطْلَبَهُمْ إِلَيْهِ الْحَجَّ". (الحج: 52).

2- ليس للشيطان مجال سلطان وقوة بالإغواء والكفر على المؤمنين المصدرين بالله ورسوله؛ لأن الله -تعالى- تعالى - صرف سلطانه عنهم حين قال إبراهيم: "أَرْزِيْنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَوْ أَغْيَبْنَاهُمْ أَحْمَدْنَّهُمْ مِنْ عَبَاتِهِمْ، (الحجر) قال الله تعالى: "إِنِّي عَبَاءَيْنِ لَسْ لُكْ عَبَاءَ مَعْذِبُهُمْ مِنْ أَنْبَعَفَ مِنَ الْغَدَّاءِ (الحجر)."

لكن قال القروطبي: إن هذا عام يدخله التخصيص، وقد أغورى آدم وحواء عليهما السلام بسلطانه، وقد شوهد على الفضلاء أوقاتهم بقوله: من خلق ربك؟

3- النسخ واقع في القرآن لحكمة هي مراعاة المصالح والحوادث وتطور الأوضاع البشرية، والنسيج: رفع الحكم الشرعي بطرق شرعية متراخ أو متاخر عنها.

وقد نزل جبريل بالقرآن كله، فناسخه ومنسوخه من كلام ربه، ليثبت المؤمنين بما فيه من الحجج والآيات، ولجعله هادياً ومرشداً ومبشراً للمسلمين بحقات العليم فلا يصح للمشركين الاعتراض على النسخ.


4- القرآن نزل بلسان عربي مبين، فكيف يصح للمشركين الزعم بأن محمدًا الرسول يتمتعه من حداد أعظم مقيم في مكة، مع أن الإنسان والجنة عجزوا أن يعارضوا منه سورة واحدة فأكثر.
5- لا يوفق الله للإيام هؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالقرآن ، لإصرارهم على الكفر وعنادهم ، وإعراضهم عن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم في الآخرة عذاب مؤلم موجع.

6- قد صرحت الآية : ( إنما يفتري الكذب ) بوصف المشركين بالكذب والافتراض جوايا لوصفهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ( وأولئك هم الكذبون ) مبالغة في وصفهم بالكذب ، أي كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم (1) هذه الآيات المتکاملات المتتابعة من إيمان المؤمنين ، إلى التنبؤ أن الاستياء عند قراءة القرآن من الشيطان لإبطال نزغه وشرفه ، ثم الرد على المشركين الذين ظنوا أن هذا القرآن من رجل عبد نصراي لا يفقه من لغة العرب أمرا وفعلا ولا حرفًا ، وبلاغة القرآن التي أعجزت عبقرية العباقرة وشاعرة الشعراء وبلاغة البلاغة ، وتحاهم بما عندهم وما افتخرؤا به وكان لديهم عند نزول القرآن في أوج بلاغته وسحره ، ثم أي أعجمي عادى يستطيع أن يأتى بعثث آية أو سورة من سوره.

ولو عدنا لما ورد عن مسيلة الكذاب في كتب التاريخ لوجدنا قوله وهو عربي صريح ، ورجل ليس بالإنسان العادى قد جاء بضحالة من القول يفتقر منها الذوق العربي ويهزأ بها من لديه شيء من علوم العربية ثم تنقل الآيات لذكر الناسخ والمتسوخ ، وبياء أمر من الله - جل جلاله - ليثبت به الذين آمنوا ، وليعلموا أن الله نزله بواسطة الروح القدس على قلب محمد ﷺ ، هذه القضايا المرسومة والموزعة والمتتابعة بحتى البلاغة والوضوح ، أمر من أمر الله الذي حفظ القرآن من كل معتد أثم ، وما زال الأمر قائما بالحفظ والتحدى إلى يوم الدين.

(1) التفسير المتبرع 14: 236 - 238
15 - أهداف القرآن الكريم

"إن هذا القرآن يهدى إلى هدى يهديه مبتعث المؤمنين الذين يعملون الصالحات أهداهن هم عذابا أليما وعذاب عالمهم وإن آمنا بالشرذمة دعاهم بالخیر وكان آمنا عجولا (1) [الإسراء].

سورة الإسراء أكثر ذكرًا للقرآن الكريم من كل سور المصحف الشريف، فقد ذكر القرآن بلفظه تسعة مرات، وأولها الآية 9، وآخرها الآية 106، وإذا امتازت هذه السورة بالذكر فإن مورد عن صفات القرآن - أيضا - ظاهرة ما ذكر في أماكن أخرى، ولو أنها كلا تدعو للهدية والإيمان والعمل بهذا الكتاب العظيم. إن اختيار العنوان جاء مصادفة حيث اختاره غيره فاستغرقه هنا. وتتابع - بعون الله وتوفيقه - ما يمكن لنا أن ننهديه لهفضائل وصفات هذا القرآن العظيم.

مناسبة هذه الآية: بعد أن ذكر الله - تعالى - ما أكرمه به عثمان، وهو الإسراء، وأكرم موسى عليه السلام بالتوراة، وأنها هدى لبني إسرائيل، وما سلط عليهم بذنوبهم من عذاب الدنيا والآخرة، مما يستدعي ردع العقلاء عن معاصي الله، ذكر ما شرف الله به رسوله - أيضا - من القرآن الناصح لحكم التوراة وكل كتاب إسلاميا، وأبان أهدافه من الهدية للطريقة أو الحالة التي هي أقوم، والبشارة بالثواب العظيم لمن أطاعه، وإنذار الكافرين بالعذاب الأليم.

"إن هداه القرآن يهدى إلى هدى يهديه مبتعث من الجهاد فيهم ويهدئهم، وفيما هديهم، فيشمل هدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما هديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهدى إليه البشر في كل زمان ومكان.

"يهدى إلى هدى يهديه مبتعث من الجهاد في عالم الضمير والشعور بالعقيدة الوضحة البسيطة، التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الرهبة والاختراق.

(1) التفسير المثير 15 / 27
وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء وتربط بين نواميس الكون الطبيعية، ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

"هُدِى إِلَيْنَا هَٰذَا أَقْوَمُ" في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله؛ فإذا هي كلهما مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصل، متصلة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة من توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل عبادة واستمتعا بالحياة، وحُذه للذّى هي أقوم في عالم العبادة بالوازن بين التكاليف والطاقة، فلا تُشك التكاليف على النفس في ملل ووام من الوفاء، ولا تسهل ولا تترخص حتى تشيع في النفس الرخآوة والاستهتار ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

"هُدِي إِلَيْنَا هَٰذَا أَقْوَمُ" في علاقات الناس بعضهم بعض - أفرادا وأزواجا، وحكومات وشغوبا، ودول وأجناسا - ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والخوف، ولا تقبل مع المودة والشَّيْان ولا تعرفها المصالح والأ غراض، الأسس التي إقامها العليم المفتي، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف ما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جبل، فهُدِيهم للذِّى هي أقوم في نظام الحكم، ونظام المال ونظام الاجتماع، ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

"هُدِي إِلَيْنَا هَٰذَا أَقْوَمُ" في بناء الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها.

وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها، فإذا البشرية كلها يجمع عقائدها السماوية في سلام ووقاية.

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يُهْدِي إِلَيْنَا هَٰذَا أَقْوَمُ وَبِبَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّلِيمَةَ

فهذه هي قاعدته الأصيلة في العمل والجزاء، فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه، فإنَّ الإيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان، الأول مبتور لم يبلغ مثامه، والثاني مقطوع لا ركيزة له، وبهما معا تسير الحياة التي هي أقوم، وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القرآن.
فأما الذين لا يهتدون بهدى القرآن، فهم متوركون لشوى الإنسان - الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره؛ المدفع الذي لا يضبط انفعالاته ولن كان من ورائها الشر له (1)

ويربط الحال بما سبق من آيات حال بني إسرائيل الذين ضلوا وأضلوا فوقع الله بهم العذاب مرتين، وأنذرهم بكل عودة إلى الشر عودة الله إلى الانتقام: "إن أحسنتما أحسنتما لأنفسكم، وإن أسوتم فاللهاء. فإذا جاء وعد الآخرة ليستروا، وجوهكم وليدحلوا المسجد حكما دخلوه أول مرأو، وليحرروا ما علوا نصيرًا، عزم ركبت أن يرميح، وإن عدتم غدا، وجعلنا جههم للكفرين حصيرًا." (الإسراء) فأتي القرآن الذي يهدى للتي هي أقوم، ويجبر وينذر بني إسرائيل بعدم إيمانهم بالقرآن، وهو كالثوراة منزل من الله، وهو متصف بصفات ثلاث:

الصفة الأولى: أنه يرشد للسبيل التي هي أقوم؛ فهو يهدي لآقوم الطريق وأوضح السبل، وإلى الطريقة المثلى التي هي الدين القيم، والملة الحنيفية السماحة التي تقوم على أساس التوحيد الخالص لله، وأنه الفرد الصمد، صاحب الملك، والعزة والجبروت، المعز، المذل، الذي يحي ويكيت، وتدعو إلى فضائل الأعمال، وإلى خير الدنيا والآخرة. فقوله تعالى: "ليت هي أقوم معناه: الطريق التي هي أعدل وأصروب.

الصفة الثانية: أنه يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا يوم القيامة جزاء عملهم.

الصفة الثالثة: أنه ينذر الذين لا يصدقون بوجود الله ووحدانيته، ولا بالمعاد ولا بالثواب والعقاب، ولا يعملون الخير بأنهم عذاب جهنم، جزاء ما قدمت أذنهم.

والمعنى: أنه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وعقاب أعدائهم، وإطلاق البشارة على البشارة بالعذاب من قبيل التهكم، كما في قوله تعالى:
إن القرآن الكريم الذي أنزله الله - تعالى - على محمد سبب اهتداء للبشرية قاطبة، يرشدها لآقوم الطرق وأوضح المنهج، وأعدل المسالك، وهي توحيد الله والإيمان برسله، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وأفضل مناهج الحياة، وللقرآن هدف آخر وهو التبهير والإنذار، تبشير المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بالجنة، وإنذار أعدائهم الكفار بالعقاب في نار جهنم، والقرآن معظمه وعد ووعيد (1).

(1) التفسير المثير 15/288 بنصر.
16- القرآن المذكر

وَلَقَدْ صَرَفْنا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيُبَيِّنَكُمْ وَمَا يَرْبِيْهِمْ إِلاَّ تَفْعُولُونَ ۛ فَلَوْ كَانَ مَعِهِ الْحَيَةُ مَثَلًا كَمَا يُقُولُونَ إِذَا أَلْتَقَوْا إِلَى ذَٰلِكَ الْعَرْشِ سَبِيلًا ۛ فَسُبْحَٰنَهُ ۛ وَعَلِيُّ عَمَّا يُقُولُونَ، عُلِّٰوًا كَبِيرًا ۚ [ الإسْرَاءۚ].

سبق هذه الآيات في سورة الإسراء بداية ونهائية بتوحيد الله والنهي عن الشرك وضم بين البداية والنهائية تكاليف وأوامرًا، ونواهٍ وآدابًا، مرتكزة كلها على قاعدة التوحيد الوطيدة، وباتت بعد ذلك في مجموعة الآيات التالية، استنكار فكرة الولد والشريك، وبيان ما فيها من تهافت واضطراب، وتهيّز وحدة الإنجاه الكوني إلى الخالق الواحد: ﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسْجَعُ بِجَبَلٍۡ﴾ [الإسْرَاءۚ: ۴۴]، ووحدة المصير والرجعة إلى الله في الآخرة، ووحدة علم الله الشامل بمن في السموات ومن في الأرض، ووحدة التصرف في شؤون الخلق بلا معقب: ﴿إِنَّ يَتُوبُ أَوَّلًا يُزَحْمُكُمۡ أَوْ إِنۡ يَنظُرُ﴾ [الإسْرَاءۚ: ۴۵]، ومن خلال السياق تهافت عقائد الشرك وتشهوى، وتطرف الذات الإلهية بالعبادة والإيجاد والقدرة والتصرف والحكم في هذا الوجود ظاهره وخفاه، ذنياه وأخريه، نبينا وآخرته، ويبدو الوجود كله متجها إلى خالقه في تسبيحة مديدة شاملة تشترك فيها الأحياء والأشياء.

وتعد في هذا السياق آيات الله، ويذكر فيهما القرآن الآية ۴۱، الآية ۴۵، ولقد أبان الله تعالى في الأول أنه ضرب في القرآن الأمثال للناس ليتبدوا ويتاملوا فيها، وذكر أنه لو كانت هذه الأصنام تقرب إلى الله زلفى لطلبت نفسها القربي إلى الله، ولكنها لم تفعل ذلك، فبيان خطؤهم في أدعائهم أن الملائكة بنات الله وتبين إيطال تعدد الآلهة، وإثبات الوحدانية لله، والنزاهه له، لأن كل ما في الكون تدل أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه وعزته، ولكنهم بسبب الجهل والغفلة لا تدركون دلالة تلك الدلالة.

(1) التلال ۴/ ۲۲۲۹.
ولقد نبه الله تعالى إلى كون هذه المناقشة في هذه الأفكار وذلك الكلام غاية في الوضوح بقوله تعالى: "ولقد صرقتنا في هذين القرآنين" أي: ولقد بينا في هذا القرآن الحجج والبيانيات والمواضع، وأوضحنا الأمثال لهم، وهذينا وأذكرنا ليعظوا ويتزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، وهم مع ذلك ما يزيدهم التذكير إلا نفورًا من الحق وعداً عنه.

لقد أوضح الله تعالى في القرآن الكريم ما يحتاج العقل البشري العاقل من أمثال، وقصص، وأحكام، وبراءات، وحجج تدل كلها على وحدته، وانفراده بالخلق، وتنزيهه - جل وعلا - عن خلقه. وعن سننهم وحياتهم إلا كونه معهم في هذه الحياة يأبار أمرهم، وصرف حاصمه، ويزقهم، وينصروهم، ويطيعهم من فضله، وينعم عليهم بالحياة والتفكير، والتكرار والتناسل وجوهرة الرزق، وهو معهم أيهما كانوا، ثم يردهم إليه بالموت لتلقى كل نفس ما كسبت من خير مخوضًا ومن شر، ولو كان مثال حبة من خردل - أيضًا - يلقونه أمامهم، وكل ما ورد في القرآن من هذه العلوم والمعارف والأحداث والأحكام والذكر وما زادهم إلا نفورًا، وعندًا عن الحق، وعندًا عن الصواب، ومع بيان القرآن الشافعي لهذه الحجج والبيانيات الدالة على توحيد الله تعالى، ووحدانيته المطلقة، والانتهاظ بما فيها، فإن المشركين المعاندين الظلمين لا يزدادون بعد هذا البيان إلا التباعد عن الحق، والغفلة عن النظر والاعتبار لسوء نظرهم، وخلل تفكيرهم، واعتقادهم في القرآن أنه حيلة وسحر، وكهانة وشعر.

ويؤكد الله تعالى: بعد ذلك، أنه لم كان هناك آلهة شفعاء مع الله كما يزعم المشركون، لكي تكون هذه الآلهة بحاجة إلى التقرب إلى الله بالعبادة والتعظيم، لتجارب نفسها مكانة عند الله، وتتسنم الزيادة عند أنهم دونه، والمشركون اعتقذا أن الأصنام تقربهم إلى الله، لكنهم لما اعتقذا في الأصنام أنها بحاجة إلى الله، معنوداً إليه - سبحانه وتعالى، فقد بطل أنها آلهة، وكان الآخره بعد تها أن يعبدوا الإله الحقيق وهو الله جل جلاله.

(1) التفسير المثير: 15/82 بتصغير.
(2) التفسير المثير: 15/44.45
ويأتي بيان القرطبي حول هذه الآية الكريمة (1) في قوله تعالى: "ولقد صرفنا
أي بينا. وقال: كرنا فيه هذا القروءان قبل: في زائدة، والتقدير: ولقد صرفنا
هذا القرآن مثل: وأصلح لي في دربي] (الحقائق 15) أي أصلح ذريتي.
والتصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة. والمراد بهذا التصريف البيان
والتكرير وقيل: المغيرة، أي غايرنا بين المواضع ليذكروا ويعظوا، وقراءة العامة:
صرفنا بالتشديد على التكرير حيث وقع. وقرأ الحسن بالتخفيف، وقوله:
في هذا القرآن يعنى الأمثال والعبر والحكم والمعاوض والأحكام والإعلام.
قال العلمي: سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب:
لقوله - تعالى -: صرفنا معنيان:
أحدهما: لم يجعله نوعًا واحدا بل وعديا ووعيدا ومحكما ومتشابها ونهما وأمرا
وناسخا ومنسوخا وإخلاسا وإمثلاء؛ مثل تصريف الريح من صبا ودبور وجنوب
ووشم وتصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنهى، والفعل والفاعل
ومفعول وعجاها.
والثاني: أنه لم ينزل مرة واحدة؛ بل نجوما، نحو قوله تعالى: وقرؤا آنا فرنعن [الإسراء 106] ومعناه: أكثرنا صرف جبيل 
إليك: ليدكر او قراءة يحيى
الأعمش وحزة والكسائي: ليدكر او مخففاً، وكذلك في القرآن ولقد
صرفنا ببتهم ليدكر او] (القرآن 50) وقرأ الباقون بالتشديد واختياره أبو عبيدة;
لأن معناه ليذكروا وليعوا. قال المهدي: من شدة: ليدكر او أراد التدبر،
وكذلك من قرأ: ليدكر او ونظر الأول: ولقد وصلنا لهم القول لعلهم
يدكر ورتبه [الفصص].
والثاني: أو أذكر ما فيه [البقرة 33] ووما يزيدهم أي التصريف
وتذكير. إلا نفوراً أي تعددًا عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار؛ وذلك

(1) تفسير القرطبي 10/247 - 248.
لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر. انتهى.

ثم آيات بينات قوله تعالى: «نَسِيَّهُ لَهُ الْسَّنَوْاتُ الْكَبِيرَةُ وَالْأَرْضُ وَمِن فِيهِ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسْتَجِيبُ جَهَّازُهُ وَلَيْكِن لَا تَفْقَهُوْنَ نَسِيَّهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَليْمًا غَفُورًا حَسَنًا.» [الإسراء].
17- القرآن الحاجب الساطر

"وإذا قرأ القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بإلا إلا حَجَابًا مَسْتَوِرًا، وجعلنا على قلوبهم آمنًا أن يفقهو في إذائهم وقرا، وإذا ذكرت ركبت في القرآن وحدها، ولوا على أذنهم نُفْوُرًا، أُحْنِن أعلم بما يسمعون به، إذ يسمعون إليك، وإذا هم جُنُوَيْنَ إذ يقول الآتيون إن ينفعون إلا رجلًا مسحورًا (4) [الإسراء].


والآية التي في الجليد: 23: ﴿فَأُقْرِئَتْ مِنْ أَخْذٍ إِلَيْهِ، هُوَ نَاظِرٌ وَأَوْضَاهُ الْحَقَّ عَلَى عِلْمِ وَحْمٍ عَلَى سَمْعِهِ، وَقُلْنَى، وَجُرِّعَ عَلَى بَصْرِهِ غَيْشُوَةُ﴾ فكان النبي ﷺ إذا قرأهُ يستتر من المشركين.

قال كعب: فحدثت بهن رجلاً من أهل الشام، فأتى أرض الروم فأقام بها زماناً ثم خرج هارباً فخرجوا في طلبه، فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه. قال الثعلبي، وهذا الذي يرووه عن كعب حدثته به رجلاً من أهل الروم فأسر بالديلم، ففتك زماناً ثم خرج هارباً، فخرجوا في طلبه فقرأ بهن حتى جعلت يثابهم لتلمس يثاه فما يبصرونه.

قلت: ويزاد إلى هذه الآية أول سورة يس إلى قوله: ﴿فَقُهْمُ لا يُبْصِرُونَ﴾، فإن في السيرة النبوية ﷺ في هجرة النبي ﷺ ومقام عليه ﷺ في فراشة قال: وخرج رسول الله ﷺ وأخذ حفنة من تركاب في يده، وأخذ الله - عز وجل - أبشارهم عنه فلا يرونوه، فجعل يثير ذلك التركاب على رؤوسهم وهو يبلو هذه الآيات من يس ﴿وَقَالُ رَبُّهُ كَيْبٌ إِنَّكَ لَمْ تُمْلَّ مِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صَبْرٍ مَّتَقِيمٍ﴾ تنزيل المزское الراجح ﴿[ يس] إلى قوله تعالى: ﴿وَجُعْلَنَا مِنْ بَيْنِيَّ ثَمَّانَ سَادَّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَادًّا فَأَغْيَبَتْنَهُمْ فَقُهْمٌ لا يُبْصِرُونَ﴾ [يس] حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

قلت: ولقد اتفق لي ببلادنا - الأندلس - بحسن منثور (2) من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أنى هربت أمام العدو، وانحرت إلى ناحية عنه، فلم البث أن خرج في طلبه فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسرني عنهما شيء. وأنا أقرأ أول سورة يس، وغير ذلك من القرآن فعايا على ثم رجعاً من حيث جاء، وأيدهم يقول لآخرون: هذا (ديبلة) (3) يعني نيشطانا، وأعومني الله - عز.

(1) الفائز القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، أنظ: الجامع لأحكام القرآن، المرجع لهذه الآيات 10/ 269 فما بعدها.
(2) كذا في الأصول.
(3) لفظة فرحة معناها جنء، ولعله كذلك في لغة اللاتين.
وجل - أبصارهم فلم يرون والحمد الله حمدا كثيرا .. انتهى.

وقيل : الخبايب المستور طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركون ما فيه من الحكمة ; وقال قنادسة وقال الحسن : أي أنهم لم يعراهم عن قراءتهم وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب في عدم رؤيته لك حتى كان على قلوبهم أغطية .

وقيل : نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن . وهم : أبو جهل ، وأبو سفيان والنصر بن الحارث ، وأم جيل امرأة أبي هب ، وخويطب ، فحجب الله سبأنا و تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحابه عند قراءة القرآن ، وكانوا يرون به ولا يرون . قال الزجاج وغيره : وهو معنى قول الأول بعينه - وهو الأظهر في الآية والله أعلم . وقوله : ( مَشْتَورًا ) فيه قوله :

أحدهما : إن الخبايب مستور عنكم لا ترونها .

والثاني : إن الخبايب ساتر عنكم ما وراءه ، و يكون مستوراً بمعنى سائر .

وقد كان كفار قريش وكبارهم يستمعون إلى القرآن ، ولكنهم يشدون قلوبهم ألا ترق له ، وما يعانون فظاظهم أن تأتيه به جعل الله بينهم وبين الرسول حجاباً - حجاباً خفياً - وجعل على قلوبهم آفة كالأغلفة فلا تفقه القرآن ، وجعل في آذانهم كالصمم فلا تعن ما فيه من توجه .

وقد روى ابن إسحاق في السيرة : عن محمد بن مسلم بن شهاب ، عن الزبير أن حديث : أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأحناس بن شرقي بن عمر بن وهب الثقفي حليف بن زهرة : خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصل على الليل في بيته ، فأخذ كل واحد منهم ملاذًا يستمع فيه ، وكل لا يعلم مكان صاحبه ، فكانوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا . فقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رأكم بعض سفهائهم لا أوقتكم في تفوسهم شيئاً ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فكانوا يستمعون له . حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجتمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض : مثل ما قالوه أول مرة ثم انصرفوا حتى إذا كانت

فهكذا كان القوم تتآثر بالقرآن فطرتهم فيصدونها، وتجاذبهم إليه قلوبهم فيعمونها، فجعل الله ببئينهم وبين الرسول حجابا خفيا، لا يظهر للعيون ولكن تحت القلب، فإذا هم ينتفعون به، ولا يهددون بالقرآن الذي يتلونه وهكذا كانوا يتنجون بما أصاب قلوبهم من القرآن، ثم تآترون على عدم الاستناد إليه، ثم يغلبهم التآثر فيعودون، ثم يتنجون من جديد، حتى ليعاهدوها على عدم العودة ليحذرها أنفسهم عن هذا القرآن المؤثر الجذاب، الذي يخلب القلوب والألباب، ذلك أن عقيدة التوحيد التي يدور عليها هذا القرآن كانت تهددهم في مكانهم، وفي امتيازاتهم وفي كبرائهم فينجون عنها.

وإذا ذكرت ربيك في القرآن وحده، وليَّوا على أذبى هم، نفروا! نفروا من كلمة التوحيد التي تهدده وضعهم الاجتماعي، القائم على أوهام الرثوية وتقليد الجاهلية، وإلا فقد كان كبراء قريش أدنى من أن يغيب عنهم ما في القرآن من سمو وارتفاع وامتياز، وهم الذين لم يكونوا يملكون أنفسهم من الاستناد إليه والتآثر به، على شدة ما يعانون قلوبهم يدافعون فيها.

ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى السسمع والتآثر، والكبراء يدفعهم عن التسلية والإذعان، فيطلقون التهم على الرسول ﷺ يعتذرون بها عن المكابرة والعناد.
إذ يقول الله ﷺ:

"إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجل مسحرًا وَهذِه الكلمة ذاتها تحلل في ثناها دليل تأثركم بالقرآن، فهم يستكثرون في دخيلهم أن يكون هذا القول قول بشر؛ لأنهم يحسنون فيه شيئاً غير بشرى، ويجسرون ديبه الخفي من مشاعرهم فينسبون قائله إلى السحر، يرجعون إليه هذه الغرابية في قوله، وهذا التميز في حديثه، وهذا التفوق في نظمه، فمحمد إذن لا ينطق عن نفسه إما ينطق عن السحر بقوة غير قوة البشر! ولو أنصفوا لقالوا: إنه من عند الله، فما يمكن أن يقول هذا إنسان، ولا خلق آخر من خلق الله.

"أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يمتلكون سبيلًا ضربوا لك الأمثال بالمسحورين، ولست بمسحور، إنما أنت رسول، فضلوا ولم يهدوا، وحاروا فلم يجدوا طريقاً يسلكونه، لا إلى الهدى ولا إلى تعليل موقفهم المريب؛ ذلك قولهم عن القرآن وعن الرسول ﷺ وهو يتلو عليهم القرآن، كذلك كذبوا بالبعث، وكسروا بالآخرة".

(1) الأطلال 4/ 2232، 2233.
18- الشجرة الملعونة في القرآن

وأذَّنَا لَكُم بِرَبِّكَ عَلَى النَّاسِ، وَمَا جَعَلْنا آلِهَةً مِّن دَمَّنَا إِلَّا فَتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةِ المَلَعُونَةِ فِي الْقُرْآنِ وَمَلَعْنُوهُمْ فَمَا يَرَيْدُهُمْ إِلَّا طَغْيَانٌ كَبِيرٌ (3).

[الإسراء].

تشير الآية الكريمة إلى حال الناس الذين سمعوا من الرسول ﷺ حديث الإسراء عندما عاد وخرج يُخبر الناس في مكة ومع أن ابنه عمه أم هانئ بنت أبي طالب قد حاولت منه مه من أن يجد الناس عن هذه الرحلة التي لم يستوعبها سامعوها، حتى من بعض الذين أسلموا فارتدوا فكانت اختيارًا قريةً صارخًا لجماعة المسلمين فضائع الإمام أرادوا وأقواء الإمام زاد إيمانهم كما أجاب أبو بكر ﷺ عندما أخبره المشركون بأن محمدًا يحدث عن رحلة غريبة، يقول: إنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد من ليلته، والناس يحتاجون شهراً بالذهاب وشهرًا بالإياب، فما كان من الصديق ﷺ إلا أن قال: إن قالوا - أي الرسول ﷺ فقد صدق. فقالوا: أصدق مقالة الرسول ﷺ وهم مندهشون من جواب أبي بكر ﷺ، أي يعقل في ذلك الزمان، ووسيلة التواصل هي الدواوين والأرجل. أصدق يا إبا بكر؟ قال: نعم، إلى أصدقه، تخبر السماء والسماء بعد من بيت المقدس.

وتشير الآية إلى أن الله تعالى قد أحاط بالناس خلقهم وقدر أعمارهم، وقدر أرزاقهم، وقدر أجاسهم وقدر أحوامهم، وقدر مكراهم في الحياة بين جنبين السعادة والشقاء. وقدر أهلهم، وقدر أبناءهم كل هذا من قوة الله تعالى الحال الذي كتب الله تعالى الرؤيا هنا ليست في النوم، فلو كانت في النوم ما عجب الناس وأشاعوا الخبر في كل مكان فالرؤيا بالنوم لا تثير كثيرًا اهتماماتهم، ولا تجعل المنافقين يرتدون ولكن الرؤيا هنا هي المشاهدة والمعاينة، والوصف بعد ذلك ثم طلبو وصف بيت المقدس فقد نقل الله - تعالى - له البيت ووصفه بدقة، وأماهه والناس يعجبون، وأبو بكر الصديق يقول لرسول الله ﷺ (صدق) وعندها عرف بالصديق.

فالرؤيا كانت للناس حتى يتميز المؤمن الصادق من المسلم الضعيف، وفعلاً
فقد كانت كذلك فثبت من ثبت وارتد من ارتد.

وشبه بهذه الحالة: الشجرة المملوكة التي وردت في القرآن الكريم - وهي شجرة السكركة المكرفة، وهي المملوكة كما ورد في كتاب الله - تعالى - القرآن عن شجرة الزقوق في تقديمه وتأخير أي: وما جعلنا الشجرة المملوكة في القرآن إلا فتنة للناس، أي اختبارًا لهم، مثل حادث الإسراء والمغارة، وتلك الشجرة هي شجرة الزقوق. قال تعالى: [الدخان: إِنَّ شَجْرَةَ الْزَّقُوْقِ] [طَعَامُ الْأَيْمَىِ] [الدخان]

وقد اختفى الناس فيها: فمنهم من ازداد إيماناً، فكثر من الأشياء لا تحرقها النار ومنهم من ازداد كفرًا كأبي جهل وأبي الزهرى، وقالوا: وما الزقوق إلا التمر والزبد فجعلوا يأكلون ويتزعمون منهما.

وَخَفَّفْهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَا طَفُيقًا كَبِيرًا [الشعراء: 80] ، أي خوف الكفار بالوعيد والعذاب والنكال في الدنيا والآخرة، فما يزيدهم التخويف إلا ثقيلاً في الطغيان فيما هم فيه من الكفر والضلالة، فكيف يؤمن قوم حاكم بإرسال ما يقترحون من الآيات (1).

(1) التفسير المثير 15 / 111، والقرطبي 10 / 283، 286.
19- قرآن الفجر المشهود

(١) أُبَرِّي بِالصُّلُوبِ لِيُدُولَوْكَ الْشَّمْسِ إِلَى غَسِيلِ الْيَلِٰلِ وَقُرَّانِ الْفَجْرِ إنْ قَرَّانِ الْفَجْرِ كَأَنْ مَشْهُودٌ ﴿٧﴾ وَمِنْ الْيَلِٰلِ فَتَهْجَدُ ﴿٨﴾ نَافَقَةً لَّكَ عَسَى أنْ يَعْمَثَكَ رُبَّكَ مَقَامًا ﴿٩﴾ حَمْوَدٌ ﴿١٠﴾ (الإسراء).

يا علّم الله تعالى رسوله ﴿١﴾ بإقامة الصلاوات المفروضة المكتوبة في أوقاتها،
والمعنى: أيها الرسول، إن الصلاة المفروضة عليك وعلى أمتك تامة الأركان
والشروط، من بعد زوال الشمس إلى ظلمة الليل، وذلك يشمل الصلاوات
الأربع: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والوقيع: ميل الشمس وزوالها
عن كبد السماء ووسطها وقت الظهير، وإما وجه الخطاب للنبي ﴿١١﴾، والمراد أمه.
- أيضا - لکانة الأمر به وهو الصلاة (١).

وقد أطل القرطبي - رحمه الله - في شرحه حول هذا المقطع من الآية، وأورد
أقوال الصحابة والفقهاء في هذا المعنى (٢) وينصب الرأي حول أوقات الصلاة
ومواعدها، وفيما ورد فيها من آراء متوافقة أو مختلفة و (وقرآن الفجر) انصب
قرآن من وجهين: أحدهما: أن يكون مطروفا على الصلاة، والمعنى: وأقمن قران
الفجر أي صلاة الصح، قاله القراء. وقال أهل البصرة: انصب على الأغرة،
أي فعلك بقرآن الفجر، قاله الزجاج، وعبر عنها بالقرآن خاصة دون غيرها من
الصلاوات، لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو
مشهور مسطور عن الزجاج أيضا.

قلت (٣): وقد استمر عمل المدينة على استجابة إطالة القراءة في الصبح قدرًا
لا يضمر من خلفه - يقرأ فيها بطول المفصل، ويليها في ذلك الظهر والجمعة -
وتحريف القراءة في المغفرة، وتوزعها في العصر والعشاء، وقد قبل في العصر:}

(١) التفسير الميسر ١٥ / ١٤٤.
(٢) القرطبي ١٠ / ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٢.
(٣) القرطبي ١٠ / ٣٠٦.
إنه تخفف كالغرب، وأما ما ورد في صحيح مسلم وغيره من الإطالة فيما استقر فيها التقصير، فهم التقصير فيما استقرت فيه الإطالة ؛ كقراءته في الفجر والصلاة عليه وسلم، كما روى النسائي - وكثرة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب، فمترؤك بالعمل، ولإنكاره على معاذ التخطيط حين أم قومه في العشاء، فافتح سورة البقرة، وبأمره الأمثلة بالتحريف فقال: أيها الناس إن منكم منفرين، فاكلم أمت الناس فليخفف، فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والسبيع وذا الحاجة، وقال: فإذا صلى أحدكم وحده فليطول ما شاء، كله مستورد في صحيح الحديث.

ولقوله تعالى: "وَقُرْرَتُ أَلْفَجْرُ" دليل على أنه لا صلاة إلا بقراءة ؛ لأنه سمى الصلاة قرآناً، وقد اختالف العلماء في القراءة في الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفتاح - المفرد - في كل ركعة، وهو مشهور قول مالك، وعنه أيضاً: إنها واجبة في جل الصلاة. وهو قول إسحاق، وعنه أيضاً تجب في ركعة واحدة، قاله المغيرة وسحنون، وعنه أن القراءة لا تجب في شه من الصلاة، وهي أشد الروايات عنه، وحكى عن مالك أيضاً: أنها تجب في نصف الصلاة، وهي أشد الروايات عنه، وإليه ذهب الأوزاعي أيضاً وأبو بكر: أنها تجب على الإمام والفتاح (المفرد) والمأمون على كل حال، وقد مضى في الفاتحة مستوفياً.

قوله تعالى: "كاَرِبًا مَّشُهُودًا رَوَى الترمذي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله "وَقُرْرَتُ أَلْفَجْرُ" إن قَرْرَةَاتَ أَلْفَجْرِ كَارِبَات مَّشُهُودَاتِ" قال: تشهد الملاكئة، ملاكية الليل وملاكية النهار، هذا الحديث حسن صحيح، ورواها على بن مسهر، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، وأبي عبدالله، عن النبي ﷺ.

وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملاكية الليل وملاكية النهار في صلاة الصبح، يقول أبو هريرة: أقرؤوا إن شئت، "وَقُرْرَةَاتَ أَلْفَجْرِ" إن قررائه ألفجراً كارب أسود، ولهذا المعنى يبتكر بهذه الصلاة فمن لا يبكر لم تشهد صلاته إلا إحدى الفئتين من الملاكية، وهذا المعنى أيضاً - قال مالك.
الشافعي: التغليس بالصحيح أفضل. قال أبو حنيفة: الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار؛ فإن فاته ذلك فالإسفار أولى من التغليس. وهذا خالف كما كان يفعله من المذاهب على التغليس، وأيضاً فإن فيه تقوية شهود ملائكة الليل.

وأعلم، واستدل بعض العلماء بقوله: "تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار على أنصلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار".

قلت: وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضاً لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار، فإن في الصحيح عن النبي العظيم فيما رواه أبو هريرة: "يتبعون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهاي، يجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر الحديث، ومعلوم أن صلاة العصر من النهار، فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل - وليس كذلك - وإنما هي من النهار كالعصر بدأ الصائم والأيمان، وهذا واضح (انتهى) وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة أيضاً.

وقال النبي: "يتبعون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهاي، يجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيخرج الذين باتوا فيكم، فسألهم ربهم - وهم أعلم بهم - كيف تركتم عباد؟ فيقولون: أثناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون".

وقال عبد الله بن مسعود: "يتمح للنسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء.

وقد يكون المراد بقوله: "مُسْهِومًا" الترغيب في أن تؤدي هذه الصلاة بجماعة والمعنى: كونها مشهودة بالجماعة الكثيرة أو شهود كمال قدرة الله تعالى، من اختلاط الظلمة بالضوء، والظلمة مناسبة للموت والعدم، والضوء مناسب للحياة والوجود، وينقل العالم من الظلمة إلى الضوء، ومن الموت بالانعكاس إلى الحياة، ومن السكون إلى الحركة، ومن العدم إلى الوجود.

ومن الليل فتُهْجَدُبه، نافِيلَةً للَّكِ: هذا فرض آخر خاص بالنبي وهو صلاة التهجد، والمعنى: قم للصلاة في جزء من الليل، وهو أول أمر للنبي بقيام الليل. زيادة على الصلوات المفروضة (المكتوبة)، روى سالم عن أبي هريرة أن.. (1) تفسير الرازي 21/28.
النبي ﷺ سأل: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: "صلاة الليل"; وهذا أمر الله تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن النهض: ما كان بعد نوم، وثبت عن جماعة من الصحابة أن النبي ﷺ كان ينهض بعد نومه.

وقوله: "نافلة لَك" أي عبادة لك زائدة عن الصلاوات الخمس، خصوصاً بك دون الأمة، وهي فريضة عليك خاصة دون غيرك، وأما أمتك فهي لهم مندوبة أو تطوعهم. وهذا هو الراجح. وقيل: المراد أن قيام الليل في حقه نافلة على الخصوصاً؛ لأنك قد غفر لم تقدم من ذنبك وما تأخر، وأما غيره من أمته فإن النوافل تكفر ذنوبهم. ورد ابن جرير هذا القول؛ لأنه كان مأموراً بالاستغفار: "وَإِذَا أَفْلَحَتْ لَهُمَا [النص]، وَكَانَ أَوَّلَ الْعِبَادَةِ" (النور)، وكان يزيد في الاستغفار في اليوم على مائة مرة، وكلما استش قرب العبد من ربه، كلما زاد خوفه منه، وإن كان السيد قد أمنه، وذلك مقام يعرفه أهله.

"عَسِيَ أَنْ يَثْبَطْ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ‏(٧)" أي: افعل هذا الذي أمرتك به لتقيكم يوم القيامة مقاماً ممدوحاً، يحمده في الخلق كله، وخلقهم - تبارك تعالى، كما قال ابن كثير.

وأجمع المفسرون - كما ذكر الواحد - على أنه مقام الشفاعة العظمى في إسقاط العقاب، وهو - كما ذكر ابن جرير - مقام النبي ﷺ يوم القيامة للشفاعة بالناس، ليريعهم رهب من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

وكلمة: "عَسِيَ" في كلام العرب تفيد الوقوع، وهي هنا للوجب؛ لأنها تفيد الإطاعة، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه، كان غارراً، وهذا المعنى مستحيل على الله تعالى. فهذه الكلمة من الكريم إطاع محق الوقوع، وهي من الله باتفاق المفسرين واجبة.

والمقام المحمود: هو المكان المرفوع، والمركز المعلوم المعد للنبي ﷺ، وهو كما بينا مقام الشفاعة التي يتخلى عنها كل نبي ورسول، أما الرسول ﷺ فيقول: "أنا لها أنا لها"، فيشفع للخلق جميعاً لتقديهم للحساب، وتخليصهم من وحش الشمس الشديد التي تدنو من الرؤوس، وبيمنون الانصراف ولو إلى النار...
روى مسلم بسند عن النبي ﷺ في قوله - تعالى: "عَسَى أَنْ يُعَطِّكِ رَبِّكَ مَقَامًا مَّـعْمُودًا". قال: "هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه".

وروى النسائي والحاكم عن حذيفة ﷺ قال: يجمع الله الناس في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينذرهم البصر، حفاة عرآة، كما خلقوا، قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه فينادي: يا محمد، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، والmite من هديت، وعبدك بين يديك، وبك إليك، لا ملجا ولا منجي منك إلا إليك، تبارك وتعاليت، سبحانك رب البيت، فهذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله - عز وجل.

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: "من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة".

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: "إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبئاء وخطيتهم، وصاحب شفاعتهم، غير فخر".(1)

(1)التفسير الزيت 15 / 145 - 147.
20 - القرآن الشافعي

وَنَزَّلَ مِن الْقُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِلمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الْظَّلَمِينَ إِلاَّ حُسَارًا

[الإسراء]}

في هذه الآية الكريمة أخبر الله تعالى - عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ: أنه شفاء ورحمة فقال: "وَنَزَّلَ مِن الْقُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِلمُؤْمِنِينَ" أي: ونزل عليك أيها النبي قرآنا فيه شفاء، فكل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين، يزدادون به إيمانا، ويستصلحون به دينهم، فهو يذهب ما في القلوب من أمراض الشك والتفاق، والشرك والزيغ والإحاد، والجهل والضلالة، ف القرآن يشفى من ذلك كله، وهو أيضا - رحمة لمن آمن به وصدقه واتباعه؛ لأنه يرشد إلى الإيمان والحكمة والخير، فيقود إلى دخول الجنة والنجاة من العذاب، وعن النبي ﷺ فيما رواه الدليمي في الفردوس: "من لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له".

وَلَا يَزِيدُ الْظَّلَمِينَ إِلاَّ حُسَارًا أَي: لا يزيد سماع القرآن الكافر الظلم نفسه

إلا بعدا عن الإيمان، وكفر بالله لتأصل الكفر في نفسه.

ونظير الآية: "فَلَهُوَ الْأَلِبْنِيرُ َأَمَّنْ أَنْتُوْا هُدًى وَشِفَاءُ وَالْأَلِبْنِيرُ َلَا يُؤْمِنُونَ فِيهِ َّلَبِينَۖ مَعْنِيَهُمْ رَفْقًا وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَّىُ أَوْلَيْكُمْ يُنادُونَهُمْ مِن مَّكَانٍ بَعْدَهُ. (44) [فصلت: 44] ََ وايضا قوله سبحانه: "فَأَمَّا الْأَلِبْنِيرُ َأَمَّنْ أَنْتُوْا فَزَادُهمْ إِيمَّانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَايضا الْأَلِبْنِيرُ ِ فِلْؤُؤُو يُرَضِّي فَزَادُتهمْ رَجُساً إِلَى رَجْبِهِمْ وَمَانَوْا وَهُم مُكَفَرُونَ".

(*) التوبة.

قال قتادة: إذا سمع المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه: "وَلَا يَزِيدُ الْظَّلَمِينَ إِلاَّ حُسَارًا"، أي لا يتفع به ولا يحفظه ولا يعه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة.

(1) التفسير البكر 15/149، 150.

وقال الإمام مالك: لا يأخذ في تعليق الكتب التي فيها أسماء الله - عز وجل - على

---

(1) نسخ المصدر 15 / 154.
(2) القرآن 10/ 316- 321.
(3) ويحسن الرجوع للاستفهام أكثر.
أعناق المرضى على وجه التبرك بها، إذا لم يرد معلقها بتعليقاتها مدافعة العين; أي قبل أن ينزل به شيء من العين. ووافقه على ذلك جامع من أهل العلم، وكره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال، قبل نزول البلاء وبعده، قال القرطبي: والقول الأول أصح في الأثر والنظر إن شاء الله - تعالى.
وعلى كل حال، إن الفاعل الحقيقي المؤثر هو الله - تعالى -، أما الأدبية المألومة وتلاوة آيات الشفاء وفتحة المعوذات وغير ذلك فهي من وسائل الفرح والبء بذن الله تعالى، بشرط تعظيم القرآن في الصدر، والإيمان الصادق به، وبعد عما لا يتنساب مع تعظيم آيات الله تعالى. ولا يعني هذا الاكتفاء بالرقية من المداواة والعلاج بالأدوية الناجعة، فذلك كله من الوسائل التي أذن الشرع بها، بل وأوجها لصيانته حق الحياة، أما ما يجعله بعض العوام من إهمال المريض المقيم أو المتولى بداء خطير مثلًا، اعتمادًا على مجرد التلاوة لشيء من القرآن أو التميمة، فهذا جهل بحقائق الدين، وإهدار لقدسيات العلم الذي عظمه الله ورفع شأن علمائه وأتباعه.

وأما ما روى عن ابن مسعود: إن التمائم والرقية والتولية من الشرك، قبل: ما التولة، قال: ما تحبب به لزوجها، فيجوز أن يزيد بما ذكره تعليق غير القرآن، أوشياء مأخوذة عن العرائين والكهناء، إذ الاستشفاء بالقرآن، معلقاً وغير معلقاً لا يكون شرفاً، ثم إن هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خسارة صفهم؛ الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران بنعمه، وكذلك شأن الإنسان عموماً السيناء وكفران النعم إلا من عصمه الله، فترى إذًا كان منعماً مرفقاً بعد عن القيام بحقوق الله - عز وجل، وإذا ناله شدة من فقر أو أسقم أو يس سرق وقت؛ لأنه لا يتبق بفضل الله - تعالى-(1).

(1) التفسير المتنبي 15/154، 155.
21- عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثل هذا القرآن

قيل لي بن جمعة النص: "والجنيّ على أن يُتَّنا بِمَثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يُتَّونَ بِمَثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم بِغَضِبٍ مَّهِمًا وَلَّا ضَرْفًا لِّلْمَدْخِلِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ.

سُبْبُ نَزُولِ الآية ٨٨ : أُخْرِجَ أَبِي إسحاق وَأَبِي جُرِيرَ عَنَّهُ عَنْ أَبِي عُبَيْسَ قَالَ : أَتَى النَّبِيِّ ﷺ سَلَامُ بَنِي مَشَكَّمِ فِي عَامةِ مِنْ يَهُودٍ سَمَّاهُمْ ، فَقَالَوا : كَيْفَ نَتَبَعُهُ وَقَدْ تَرَكْتُ قَبْلَنا ؟ وَإِنَّ هَذَا الْذِّي جَنَّ بِهِ ، لَنَرَاهُ مِنَاسِقًا ، كَمَا تَنَاشَقَّ الْتُورَاءُ ، فَأَنْزُلَ عَلَيْهِ كَتَابًا نُعَرِّفَهُ ، وَإِنَّا جِنُّنا مَثْلًا مَا تَأْتَى بِهِ. فَأَنْزُلَ اللَّهُ - تَعَالَى : "قُلِّ لَنِّي أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجَنُّ عَلَى أَن يُتَّنا بِمَثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ" ، وَنُورَدُ فِي هَذَا الْقَمَّ الْقَرْطَبِيَّةِ

في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقةها - كما قال القرطبي:

المعجزة: واحدة من المعجزات الأربعة الدالة على صدقهم - صلوات الله عليهم,

وسمت المعجزة: لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها.

وشرائط حس فإن اختلت شرط منها شرط لا تكون معجزة:

فالشرط الأول من شروطها: ان تكون ما لا يقدر عليها إلا الله - سبحانه وتعالى - وإما

وجب حصول هذا الشرط للعجائب لأنه لو أتيت آت في زمن يصبح فيه جميء الرسول، وادعى الرسالة، وجعل عجائبته أن تتحرك، ويسكن ويقوم ويعد لم يكن هذا الذي ادعاه عجائب له، ولا دالاً على صدقه لقدرة الخلق على مثله،

وإذا يجب أن تكون المعجزات؛ كفول البحر، وأنشقاء القمر، وما شابهها مما لا

يقدر عليها البشر.

والشرط الثاني: هو أن تترق العادة، وإذا وجب اشتراط ذلك؛ لأنه لو قال المدعي للرسالة، أيك جمعهليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها، لم يكن فيما ادعاه عجائب؛ لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل لأجله، وقد كانت قبل دعوتها على ما هي عليه في حين دعواها. ودعواه في
دلالةها على نبوءته كدعوى غيره؛ فبان أنه لا وجه له على صدقه، والذي يستشهد به الرسول ﷺ، له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول: الدليل على صدقى أن يخرج الله تعالى العادة من أجل دعوائى عليه الرسالة، فيقلب هذه العصا، ويضيق الحجر ويخرج من وسطه ناقة، أو يبنى الماء من بين أسابيع كما ينبعه من العين، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التي ينفرد بها جبار السماوات والأرض، فقوم له هذه العلامات مقام قول الرب — سبحانه، ليوسمنا كلمته العزيز وقال: صدق، أو بعثته. ومثال هذه المسالة — وله ولرسوله مثل الأعلى — ما لى كانت جماعة بخضرة ملك من ملوك الأرض، وقال أحد رجاليه وهو برأى منه والملك يسمعه: الملك يأمر أعيته الجمعية مكان هذا، ودليل ذلك أن الملك يصدقني بفعل من أعفاه وهو أن يخرج خانته من يده — قاصدا بذلك تصديقي؛ فإذا سمع الملك كلامه لم ودعوا فيه ثم عمل ما استشهد به على صدقه، قام ذلك مقام قوله، وقال: صدق فيما ادعاه على، فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو، وخرج به العادة على يد الرسول، قام ذلك الفعل مقام كلامه — تعالى — ليوسمنا وقال: صدق عبدي في دعوى الرسالة وأن أرسلته إليكم فاسمعوا له وأطيعوا.

والشرط الثالث: هو أن يستشهد بها مدعى الرسالة على الله عز وجل؛ فقوله: آتي أن يقلب الله سبحانه — هذا الماء زيتا أو يخرج الأرض عند قوله لها: تزول، فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدى به.

والشرط الرابع: هو أن تقع على وفق دعوى المتحدي بها المستشهد بكونها معجزة له، وإنما وجب اشترط هذا الشرط لأنه لو قال المدعى للرسالة: آية نبوءتي ودليل حكيت أن تتعلق يدي أو هذه الدابة، فنفيته يوم الابادة بأن قالت: كذب وليس هو منى، فإن هذا الكلام الذي خلقه الله تعالى — دال على كذب ذلك المدعى للرسالة؛ لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه، وكذلك ما يروى أن مسيملا الكتاب — لعنه الله — تلف في بئر ليكثر مؤلها فغارت البقر، وذهب ما كان فيها من الماء، فما فعل الله سبحانه — من هذا، كان من الآيات المكذبة لم ظهرت على يديه؛ لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتتبع الكذاب.

والشرط الخامس من شروط المعجزة: لا يأتي أحد يمثل ما أتم به المتحدى على وجه
المعارضة، فإن الع efect المتبذ البه المستشهد به على النيوئ على هذا الشرط مع
الشروط المتقدمة، فهي معجزة دالة على نبوءة من ظهرت على يده، فإن أقام الله
- تعالي، من يعارض حتى يأتي بمثل ما أتى به، ويعمل مثل ما عمل بطل كونه
نيباً، وخرج من كونه معجزاً ولم يدل على صدقه، وهذا قال المولى سبحانه:
{ فِيّانَا نَجَّيْنَا مُحْمَّدًا لِنُبّأَيْنَا مَعْجِزَتَيْنِ ۚ (٧) } الطور، وقال: { أَمْ يُقُولُ لَهُمْ أَقِمُوا قُلُّوا قُلُّوا أَيُّهَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ مِن مَّطَرٍ } هود: 13. كأنه يقول: إن ادعتم أن
هذا القرآن من نصم محمد ﷺ وعمله فاعمروا عشر سور من جنس نظمه فإن
عجزتم بآسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله، وبعد أن أورد
القرطبي(1) الشروط المطلوبة لتصبح المعجزة خارقة وآية، فإنه أشار إلى معجزات قد
تحصل على يدي المسيح الدجال فيقول(2):
لا يقال: إن المعجزات المقددة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدي
الصادقين، وهذا المسيح الدجال فيما رويت عن نبيكم ﷺ يظهر على يديه من
الآيات العظيمة، والأمور الجسام، ما هو معروف مشهور؛ فإننا نقول: ذلك يدعى
الرسالة، وهذا يدعى الروبية وينهما من الفرقان ما بين البصراء والميمنان، وقد
قامت الدلائل العقلية على أن بعضها بعض الخلق إلى بعض غير ممنوعة ولا مستحيلة،
فلم يعد أن يقم الله تعالى الأدلة على صدق خلقات أخرى عنه بالشرع والملة.
وذلت الأدلة العقلية- أيضاً - على أن المسيح الدجال أعطى التصور والتغيير
من حال إلى حال، وثبت إن هذه الصفات لا تليق إلا بالمخدثات، تعالى رب
البريات عن أن يشبه شيئاً أو يشبهه شيء، ليس كمثله شيء وهو السمع البصير.
ثم يتابع المؤلف ذكر الفرق بين المعجزة الدائمة، والتي يريد من حديث الوصول
إليها والتي لا تنطبق إلا على معجزة الرسول ﷺ - محمد بن عبد الله - وهي القرآن
ومن المعجزات الآيات التي تنتهي بحياة الرسول وانتهاء رسالته إذا ثبت هذا فاعلم

(1) تفسير القرطبي 2/28 - 70.
(2) المصدر السابق 1/71.
>An المعجزات على ضربين:  

الأول: ما شتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي  

والثاني: ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله، واستفادت بثوبه ووجوده، ووقع لسامعه العلم بذلك ضرورة. ومن شرطه: أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا وجعلا غفراً، وأن يكونوا عالمين بما نقلوا علماً ضرورياً، وأن يستوى في النقل أوهم وآخرين وسعتهم في كثرة العدد، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب ؛ وهذه صفة نقل القرآن، ونقل وجد النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأن الأئمة - رضي الله عنهم - لم تزل تنقل القرآن خلفاً عن سلف وسلف عن سلفه إلى أن تصل ذلك بالنبي  - عن ربه - عز وجل، فنقل القرآن في الأصل رسولان معصومان أعبر فحمد عليهما الصلاة والسلام من الزيادة والنقصان، ونقله إلىنا بعدهم أهل التواريخ الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه لكترة العدد، ولذلك وقع على بديه وتحذيره به، ونظر ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل إليه من وجود البلدان، كالبصرة والشام والعراق وخراسان والمدينة ومكة، وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتوارطة؛ فإن القرآن معجزة نبأ  الباقية بعدة يوم القيامة، معجزة كل نبي انقرضت بانقرضه، أو دخلها التبديل والتغيير كالتوراة والإنجيل.  

ويحتم القرطبي (1) قوله المدع في إعجاز القرآن الكريم من وجهة عشرة:  

1 - منها: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء، وكذلك قال رضي الله الذي تولى نظمه: "وما عَلِمْتُهُمَا الرِّمْيَاتُ وَمَا يَبْتَغُونَ لَهُمْ" (بِسْ: 29) وفي صحيح مسلم: أن أنسًا أخا أبي ذر - قال لأبي ذر: لقيت رجلاً بيكه على دينك يزعم أن الله أرسله؛ قلت فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر وكان أنس أحد الشعراء؛ قال أنس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقفهم، ولقد وضعت قوله على أقواراً (2) الشعر فلم يلتم على لسان أحد بعدي أنه شعر. والله إنه صادق.

(1) الجامع لأحكام القرآن 1/ 73.  
(2) أقوار الشعر: أنواع وطرق ومحوره وأغناه.
وقال ابن الحصان: وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب والجزالة، لازمة كل سورة بل لازمة كل آية، ومجموع هذه الثلاثة يميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، فهي وقع التحدي والتعجز مع هذا، فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة من غير أن ينضاف إليها آخر من الوجه العهاوة، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات قصار، وهي أقصر سورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن معنيين:

أولاً: الإخبار عن الكوثر وعظمة وكثرة آوينه، وذلك يدل على أن المصداقين به أكثر من أتباع سائر الرسل.

والثاني: الإخبار عنولد بن المغيرة وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد على ما يقتضيه قول الحق، جل وعلا، ذنًى وهم خلقته وجيدها، وجعلته له.
صفة كتاب الله في كتاب الله

مالاً مَمْدُودًا وَبَينَ مَهْدًا وَمَهْدُتُ لَهُ: ثم أهلك الله
سبحانه ماله وولدنا وانقطع نسله.

4- ومنها: التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي، حتى يقع
منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

5- ومنها: الإخبار عن الأمور التي تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله من
أمي ما كان ينتمي من قبله من كتاب، ولا يخطر بعينه، فأخبر ما كان من أخبار
الأنبياء مع أمها، والقرآن الحالية في درها؛ وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه
وتحدثه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر - عليه السلام، وحال
ذئ القرنين - وهو أمي من أمة أمية ليس لها بذلك علم ريا غرفوا من
الكتب السالفة صحته؛ فتحققو صحته وصدقه، قال القاضي ابن الطيب: ونحن
عليم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا أن نعلم؛ وإذا كان معروفنا أنه لم يكن
ملاسا لأهل الإثارة، وحلة الأخبار، ولا مترددا إلى المتعلم منهم، ولا كان من
يقرأ فيجوز أن يقع إلى كتاب فياخذ منه؛ علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأيد
من جهة الوعي.

6- ومنها: الوفاء بالوعيد، المدرك بالحس في العبادة في كل ما وعد الله سبحانه
وينقسم إلى أخبار المطلقة كوعده بنصر رسول الله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه
من وطنه وإلى وعد مقيد بشرط: كقوله: { ويُمَن يَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُِ}.
[الطلاق: 3] { وَمَن يُؤْمِنُ بِالللهِ يَهْدَى قَلْبَهُ}.
[النافع: 11] { وَمَن يَتَيَّنُ اللهُ مَجْعَالَهُ}.
[الحجراء: 2] { وَإِن يَكُن يَمْكُمْ عِشْرَونَ سَيِّئَةً يَغْفِرُوا مَأْثَرَكُمْ}.

7- ومنها: الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالروح.
فإن ذلك ما وعد الله نبيه ﷺ أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى: { هو
اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْقَيْسِ أَنْ هَيْدَرَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ لِيَطْهِرَهُ عَلَى الْأَرْضَ يَكْفِيْهُ}.
[التي: 33]
فجعل ذلك، وكان أبو بكر ﷺ إذا أغزر جيوشه عرفهم ما وعدهم الله في إظهار
ديثه، ليقنوا بالنصر وليستقنوا بالنجح، وكان عمر يفعل ذلك، فلم يزل الفتح
فصل في فصاحة القرآن

قال ابن عطية: وجه التحدي في القرآن إنها هو بنظمه وصحة معانيه، وتوال فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه: أن الله تعالى - فقد أهان بكل شيء علمًا وأحات بالكلام كله علمًا فعلم بإحاطته أن لفظة تصلح أن تأتي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، وابشر معهم الجهال والنسى والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشأ لم يكن محيطاً فلما جاء نظام القرآن في الغاية الصغرى من الفصاحة، وهذا النظر يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرته أن تأتي مثل القرآن في الغاية الصغرى من الفصاحة، فلم جاء محمد صرفوا عن ذلك، وعجزوا عنه، والصحب أن الإثيان مثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يضع
خطبة أو قصيدة يستغرق بها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حوالا كاملا ، ثم تطلع
لآخر بعده فأخذه بقرية جامدة فيدل فيها وينقح ، ثم لا يزال بعد ذلك فيها
مواضع للنظر والبدل ، وكتب الله تعالى لمنزعت منه لفظة ، ثم أدي لسان العرب
آن يوجد أحسن منها لم يوجد .

ومن فضاحة القرآن : أن الله تعالى - جلّ ذكره - ذكر في آية واحدة أمرين ونهرين ،
وخيرين ، وبشارتين ، وهو قوله - تعالى : "فأووهيًا إلى أمر موسى أن أرضبه "
(القصص : 7) . وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوقاء ، وحلل تحليلًا عامة ، ثم
استثنى استثناءً ، ثم أخبر عن حكمته وقدره ، وذلك ما لا يقدر عليه إلا الله -
 سبحانه ، وآباؤ - سبحانه - عن الموت ، والتحذير من الاغتار بالدنية ، ووصفها
بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله : "كُلُّ نفسٍ ذَائَقةُ الموتَ " وإنَّما تَوْفَرَتْ
أجُورَهُمْ بِذِي الْقُرْآنِ " الآية (آل عمران : 185) . وآباؤ - أيضا - عن قصص
الأولين والآخرين ومآل المرتفين ، وعواقب المهلكين ، في شطر آية ، وذلك في
قوله تعالى : "فمَّلَّاهُمْ مِنْ أَرْسَالٍ عَلَيْهِ عَاصِبًةً وَبِهِمْ مِنْ أَحْدَثْتِهِ اْلْمَصِيبَةْ وَبِهِمْ
مَرَّ حُسْنًا مِّنَ الْأَرْضِ وَبِهِمْ مِنْ آَغْرَقَتِهِ " (العنكبوت : 44) . وآباؤ - جل وعلا
- عن أمر السفينة وإجراها ، وإحلال الكفرة ، واستقرار السفينة واستوائها ،
وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والماء بقوله عز وجل : "وَقَالَ أَرْسَالُكُمْ فِيهِبَا بِشَرِّ
اللَّهِ مَجِيرَهُ وَمُرْسَهَا " (هود : 41) . إلى قوله : "وَقَالَ بَعْدًا لِّلْقُوْمِ الْأَظْلَمِيْنَ (8)
(هود) إلى غير ذلك ، فلما عجزت قريش عن الإبان مثله ، وقالت : إن النبي 
(هود) نقوله : "آَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : "إِنِّي نَبِيٌّ للْمُرْسَلِينَ " (بَيَاءُ)
ثم أنزل تعبيرا أبلغ من ذلك ، فقال : "إِنِّي نَبِيٌّ للْمُرْسَلِينَ " (الطور) . فلما عجزوا
خطهم عن هذا المقدار على مثل سورة من السور القصار ، فقال - جل ذكره :
ودَّإِن كَانُوا صَدَقِيِّنَ " (البقرة : 23) ، فأحتموا عن الجواب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وعادوا إلى الحروب والعناد ،
وآثروا سبي الحرم والأولد ; ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيرا ، وأبلغ
في الحجة وأشد تأثيرًا، هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن (1) وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن (2).


وبعد: فقد نبه الله - تعالى - على شرف هذا القرآن العظيم وأهميته وخطورته فقال: "فَلَيْنَ أَجْمَعَتْ آنِسُ وَأَلْجِينُ" [الإسراء: 88]، قال يا محمد - محدثي ولهن إجتمعت الإنسان والجن كلهم، وانتفوا وتعاونوا وظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن المنزل في بلاغته وحسن نظمه وبيانه، ومعانيه وأحكامه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان والفصاحة، لعجزوا عن الإتيان به مثل، حتى ولو كان الجمع متعاونين متآزرين فيما بينهم لتلك الغاية، فإن هذا أمر غير مستطاع، وكيف يشبه كلام الخلقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثل؟!

(1) الألفاظ: (بالتحريك) الفطنة واللغة.
(2) اللحن: (بالتحريك) الفصاحة.
(3) الجامع لأحكام القرآن: 11/ 72 - 78 بتصرف.
ثم أبان- تعالى - مضمون القرآن، فقال: "وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ" [الإسراء: 89] أي لقد بنا للناس وردنا البيان وكررناه على وجه مختلف، وألوان متعددة، وعبارات متنوعة، مرة بالإيجاز وأخرى بالإطاعة، وذكرنا لهم الحجج والبراهين القاطعة، وأوضحنا الحق وشرحتنا، وآثنا بالآيات والعبر، والترغيب والترهيب، والأوامر والنواحي، والحكم والتشريع، وقصص الأولين، والجنة والنار والقيامة للعظة والعبرة.


فظل القرآن هو المعجزة الباقية الناعمة بأنه من عند الله تعالى، وأنه وحى منه لرسوله ﷺ، وأنه حجة الله على خلقه إلى يوم القيامة، فمن آمن به نجا، ومن كفر به خسر وهلك.

وكان بيان القرآن شاملا لكل شيء من شؤون الحياة، شافيا بتسليم كل معذب ومحروم، موضحا كل ما يحتاجه البشر من قضايا الدين والدنيا والآخرة، مبينا الحق الأصل، فأثبى أهل مكة وأشبعهم إلا الكفر بعد بيان الحق وتكييه من الباطل. مع قدرتهم على طلب الحق ومعرفة الصواب(1).

(1) التفسير المتير 15/162، 161.
22 - القرآن المحفوظ المحروس

فقد سبق هذه الآيات البقت الآيات من 101 - 104 تتحدث عن الآيات التي آتاه الله تعالى موسى عليه السلام، ونشير فقط لهذه الآيات وتحديدًا قبل أن نذكر ما يتعلق بالآيات الثلاث 105 - 107 الالودرة ذكر القرآن الكريم بها، وقد ذكر القرآن الكريم المجيد ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام ذكرها الرازي.

وهى: إزالته العقدة من لسانه؛ أي إهدائه الحجة وصيرون فضيحةً، وانقلاب العصا حية، ونفاذ الحية حياهم وعصيهم على كثرتها، واليد البيضاء والطوفان، والجراد، والقصب، والإطعام، والدم، وشن البحر: ( إِذْ قَرَفَ فَقُمْ أَلْبَحَرْ) [ البقرة: 95 ]، وضرب الحجر: ( أَنْ أَصْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجْرَ) [ الأعراف: 169 ]، وإظهار الجبل: ( إِذْ نُفَضْتُ بِجَبَلٍ فَوْقَهُمْ كَانَةُ ظَلَةً) [ الأعراف: 117 ]، وإنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه، والصدب، ونقص الثمرات: ( وَلَقَدْ أَحْدَثَنَا الْفَزْعَةَ بِالسِّيمِ وَتَقْصَرَ مِنَ النَّكَرَاتِ) [ الأعراف: 130 ]، والطماس على أمواهم من النخل والدقيق والأعطم والنقود.

وقال الرازي (2): بعد أن ذكر أن الروايات ظنية غير بقينة في بيان الآيات التسع: أجود الروايات في تفسير قوله تعالى: ( طَعْنَ عَبْدَيْنَ مَرْتَ) ما روى صفوان بن عثمان المزمل أن قال: إن يهودي قال لصاحبه: اذهبنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات، فذهبنا إلى النبي وقالنا: فهل تأكلون ولا تشرئون، ولا تسرقوا ولا تزرون، ولا تقتلون ولا تمشرون، ولا تأكلون الربا ولا

notes: (1) تفسير الرازي 21/64
(2) المرجع السابق
صaña كتاب الله في كتاب الله

تقفوني المخصصة، ولا تولوا القرار يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن تعدلوا
في السبت، فقام اليهوديان فقلاً يديه ورجله، وقالاً: نشهد إنك نبي، ولولا
خاف القتل، لاتبعناك.

وبعد أن رد الله- تعالى - على الكفار بأنه لا حاجه للمعجزات؛ لأن قوم
موسى آنهم الله تسع آيات بنات، فلما جحدوا بها أهلكهم الله؛ ولأنه لو
جاءهم تلك المعجزات التي اقترحوها، ثم كفروا بها، لأنزل عليهم عذاب
الاستصالة، فافضنت الحكمة عدم تلبية مطالبيهم لعلمه تعالى أن منهم من يؤمن
ومنهم من لا يؤمن، بعد هذا عاد الله تعالى إلى تذكيرهم بالعجزة الخالدة وهي
القرآن، وإلى تعظيم شأنه، والاكتفاء به، فقال: وَيَلَّهُكُمْ نُزْلًا وَيَلَّهُكُمْ نُزْلًا
[الإسراء: 105] أي أننا ننزلنا القرآن متضمنًا للحق من تبيان براهين الوعدانية
والوجود، وحاجة الناس إلى الرسول، والأمر بالعدل، ومكارم الأخلاق، والنهي
عن الظلم وقبائح الأفعال والأقوال، والأحكام التشريعية والأوامر والنهائي
المنظمة لحياة الفرد والجماعة والدولة، وغير ذلك من أصول التشريع الرفيع.

نزل إليه يا محمد هذا القرآن محفوظاً محراً، لم يختلط بغيره، ولم يطرأ عليه
زيادة عنه ولا نقص منه، بل وصل إليه مع الحق وهو جبريل - الشديد
القوي، الأمين المكين المطاع في الملا الأعلى.

وبعد بيان خواص القرآن؛ أبان الله- تعالى - مهام النبي عليه الصلاة والسلام
 فقال: وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا مُبِينًا وَنَذِيرًا وَمُهَذِّبًا [الإسراء] أي وما أرسلناك يا محمد
إلا ميـشًا من أطاعك من المؤمنين بالجنة ونذيرًا من عصاك من الكافرين بال النار
ثم عاد إلى بيان كيفية نزول القرآن منجماً، أي مقطعاً بحسب الوقائع والمناسبات
 فقال تعالى: وَفَرَقْنَا فِي الْقُرْآنِ نَزْلَيْنَ - 92
[الإسراء: 106] أي: وأنزلنا قرآناً فرقنا منجماً في مدى ثلاث وعشرين سنة، فلم
ينزل في يومين أو ثلاثة، وإنما أنزلنا بحسب الوقائع والحوادث على ما تقتضيه
الحكمة والمصلحة العامة النافعة في الدنيا والآخرة على وفق المناسبات.

(1) أخرججه أحمد والترمذي والبيهقي والطبراني والنسائي وأبو ماجه، التفسير المخبر 15/ 182
وقد ابتدأ نزوله في ليلة مباركة - هي ليلة القدر في رمضان (1) وقريئ: 

"فرتقئ" بالتشديد أي أنزلنا آية آية مبينا مفسرا.


آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به، فهو حق في نفسه أنزله الله، وكتب خالد إلى أبد الدهر: "إن الذين أتوا العلم من قبلكم" [الأسراء: 107] أي أن علماء أهل الكتاب الصالحين الذين تسكنهم الكتاب، ولم يبدلهم ولم يحرفوه، إذا يلقي عليهم هذا القرآن يسجدون على وجوههم - تعظيمًا لله - عز وجل، وشكا على ما أثمر به عليهم، وعبر عن السجود بقوله: "لله ألقاوت" [الأسراء: 107] لأن الإنسان كلما ابتدأ بالخروج والإقبل على السجود، فأقرب الأشياء من الجهة إلى الأرض الدقن، أو هو كتابة عن المبالغة بالخضوع والخشوع والخوف من الله - تعالى: 

ويقولون في سجودهم: "سبحن زنیتا" أي تنزيها الله - تعالى - وتعظيمًا وتوقيفًا على قدرته البالمة، وأنه لا يخف المياعد، لذا قال: "إن كأن وعد زنیتا لمقعولا" أي منجزًا واقعا آليًا لا محاله.

وقد هذا السجود من هؤلاء تعريض بأهل الجاهلية والشرك، فإنهم وإن لم يؤمنوا بالقرآن، فإن خيرا منهم وأفضل علماء أهل الكتاب الذين قرؤوا الكتاب، وعلموا ما الوحي، وما الأقرارات، فآمنوا وصدقوا به، وثبت لديهم أنه النبي الموعود به من كتبهم، فإذا تلقى عليهم خروج سجدا لله، تعظيمًا لأمره، والإجازما ما وعد في الكتاب المنزلة، ويش به من بعثة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد (1)

(1) انظر: محت الزمان والمكان في بداية هذا الكتاب.
في الآية: "إن كان وعد رتبت لمفعولاً" أي بإزالة القرآن وبعثة محمد ﷺ.

وعن صفة سجودهم قال الله - تعالى: "وَخَصَّصُونَ لِلأَّمْلِيَاءِ يَبْكُونَ وَيَبْكِيهِمْ خُشُوعًا (١٠٣) [ الإسراء ]، أي وَيَفْخَرُونَ سَاجِدِينَ باَكِينَ خاشعين خاضعين لله - عز وجل - من خشية الله، وإيمانا وتصديقنا بكتابه ورسوله.

ويزيدهم السجود خضوعاً، أي إيمانا وتسليمًا، كما قال تعالى: "وَالَّذِينَ آمَنُوا زادُهُمُ الْبِكَاءَ وَؤَاتِهِمْ تَفْؤَذُوهُمْ (٢١٨) [ عمّد ].

وقد امتدّ النبي ﷺ البكاء في أحاديث كثيرة منها: ما رواه الترمذي، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "عبان لا تمسه النار: عين بكت من خشية الله، وإيمان بتحرس في سبيل الله" (١).

وبحذ ذلك فإن الله - تعالى - أنتزى القرآن متضمنا الحق والعدل والشريعة والحكم الأحمر، والجمع بين الإنساني المعينين، فقوله: "وَيَأْتِيَنَّهُ وَيَقْبَلُنَّهُ" أي أوجينا إزالة الحق. وقوله: "وَيَأْتِيَ وَيَقْبَلُ " [ الإسراء: ١٠٥]؛ أي ونزل فيه الحق، أو أن الأول معناه: بالحق، والثاني: بالحق أي محمد ﷺ، أي نزل عليه.

وكان إزالة القرآن منجزاً مقتضياً على حسب الوقائع والمناسبات في مدى ثلاث وعشرين سنة؛ لتمكين الناس من قراءته على مهل وتدرير وإمعان، وليعملوا به تفصيلاً، فإنهم لا أخذوا جميع الفرائض في وقت واحد لتفروا.

فأنت: قوله - تعالى: "يَبْكُونَ " دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى، أو على معصية في دين الله، وأن البكاء لا يقطعها ولا يضرها، وقيد ذلك بعض الفقهاء بالنكرينيون بصلاة وكارام. أما الأئمة فلا يقطع الصلاة للمريض، ويكبر للصحيح في رأى مالك، وكذلك التنحي ونفع لا يقطع الصلاة عند مالك، وقال الشافعي: إن كان له حروف تسمع وتفهم يقطع الصلاة. وقال أبو حنيفة: إن كان من خوف الله لم يقطع، وإن كان من وجوه قطع).

(١) التفسير المثير ١٥ / ١٨٤ فما بعدها
(٢) المصدر السابق ١٥ / ١٨٨
وقتًا: وردت كلمة القرآن في سورة الإسراء إحدى عشرة مرة، وتعبير هذه السورة أكثر السور القرآنية التي ورد فيها ذكر القرآن الكريم، وإن كان من دلالة على هذا فإن سورة الإسراء تقع في نهاية النصف الأول من القرآن الكريم، ويشملها الجزء الخامس عشر كله. وقد بدأ ذكر القرآن بقوله - تعالى:

- "إن هذا القرآن بيني وبينك أقوم ونبيث المؤمنين الذين يعملون الصلاة وأنهم أجرا كبيرا (الإسراء)". بدأ بذكر الهدى الذي تضمنه القرآن الكريم في آياته المحكمات وفي الهدى والخير الذي حواء، ثم إنه يبشر المؤمنين بالأجر الكبير من الله تعالى وما أعد الله تعالى للمؤمنين من نعيم مقيم.

- "ولقد صرفتنا في هذا القرآن ليذكرونا" (الإسراء: 41)؛ صرف الله تعالى في هذا القرآن ليذكر الكفرون الذي صموا آذانهم عنه ولم يؤمنوا به.

- "فأي قراءات القرآن جعلنا ببنك وبين الذين لا يؤمنون بالهجرة يغادرون (الإسراء)"، وبذلك فقد أقسم الله آدم الكفار حتى لا يتجنوا ويتعرضوا على قراءة هذا القرآن، أو تلاوته، أو حفظه، أو التذكير به.

- ثم يذكر الله تعالى تلك الشجرة الملبوسة التي ذكرت في القرآن الكريم؛ لتكون للكافرين نذيرًا وتحفيفًا وتذكيرا لهم بضلولاتهم، وبأن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم.

- ثم ينتقل الذكر ليجعل الصلاة - وصلاة الفجر خاصة - وقراءة القرآن بها ذات موقع ومركز لا يناله غير هذه الصلاة وعبر عنها بالقرآن: "إن قراءان الفجر كارت مشهود (الإسراء)"، ويأمر الله تعالى بأنه يقيمه الرسول، ولذين آمنوا لعل شائه وثوابه.

- وإن الله تعالى ينزل في القرآن آيات هي شفاء للعباد، شفاء لقلوبهم، وشفاء لأمراضهم، ويكون للمؤمنين شفاء وهناء، وللكافرين خسارة وضلالة مبينًا.

- ويأتي بعد ذلك التحذير المطلق للجن والإنس جميعين على أن يأتوا مثليه أو بعشر سور مفتيات، أو بسورة، بل بأقصر سورة، بل بأية، وهذا التحذير جاء
له البيان والبلاغة، وما زال التحدي قائما ولم يتمكن الكثيرون الذين أضلهم
الله تعالى أن يدخلوا هذا التحدي ويقدموا شيئاً مهماً كان، ولو التقى عباقريات
الجنة والدنين معا على أن يأتوا بالقبل القليل القليل جدا من هذا القرآن الذي هو
كلام الله ورسالته، التي أنزلها على محمد.

- لقد أنزل هذا القرآن بالحق وبالحق نزل، واختلف اللفظين في إعجازه وفي
سموته وعظمته؛ ليوقع الكافرين في عجز وتقهقر وختف وحسرة ؛ وليؤكد بأن الله
 تعالى أنزله من عليائه على نبيه في هذه الأرض، والتأكيد على موضوع التنزيل أنه
من العلي الأعلى في السماوات العلا على محمد المبعوث للعباد، رحمة، ونذيرًا،
وبشيراً، وداعيا إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً.

هذه المعاني التي جاءت متوافقة، متاليلة، متناهجة، متناسقة، يكمل بعضها
بعضاً، مع أن كل آية مع ابتعاد ذكرها في هذه السورة تأتي تاليةها؛ لتكون
استكمالاً وتجابياً وتناغماً، ودعماً مطلقاً لما سبقها من ذكر هذا القرآن في هذه
السورة - سورة الإسراء - التي ذكرت فيها معجزة النبي أيضاً في إسرائه ومعراجه
الآتي في معجزته الدائمة الخالدة، والله أعلم وأقدر.
23- القرآن المتصرف به من كل فعل

فوقم صرفاً في هذا القرآن للكاس من سُكَلٍ مثله وكان الإنسان أصحب سُكَلٍ جدلاً ومما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربرابهم إلا أن أجابهم سنة الأولين أو يأبوا عذاب قبله [الكند].

بعد أن ذكر الله تعال - الجواب على شبهات الكفار الباطلة الذين افترموا على قراءة المسلمين بكثرة أمواهم وأتباعهم، أردف ذلك ببيان كثرة الأمثال في القرآن لمن تدب فيهما، ومع تلك الأمثال الواقعية والإجابات الشافية هؤلاء الكفار لا يتركون المجدلة الباطلة؛ لأن الإنسان أكثر الأشياء التي يتآتي منها الجدال، ثم هددهم تعالى على عدم الإيمان متسائلة: هل هناك من يقول يمنعهم من الإيمان إلا نزول عذاب الاستصالة أو شيء عليه ؟ وأبان أن مهمة الرسل هي الجدال في الدين من طريق تبرير المؤمنين بالجناة، وإنذار العصاة بالنار، وأوضح أن أشد الناس ظلما هو المعرض عن هداية القرآن، والله الفضل العظيم في تأثير العقاب عن الناس، وخصوصه موعد لا يتجاوزه، لعلهم يعودون إلى رشدهم (1).

لقد ورد في هاتين الآيتين ذكر الناس عموماً، وذكر الإنسان من الناس - أكثر شيء جدلاً. ثم يرد ذكر الكافرين أو المشركزين أو أهل الكتاب الذين أورد الله تعالى - ذكروا كثراً من أصابهم العذاب وكانوا عبارة للمعتزرين - كقوم عاد وثومود وقوم نوح وقوم فرعون وغيرهم، من خص الله تعالى - ذكروا في كثير من الآيات وفي مواضع كثيرة في القرآن الكريم. ذكر الناس هنا للدلالة على الكافرين من قريش الذين سمعوا من كل مثل، أخبر السابقين، البشارة للحمد

ويربط أول الآية بأخرى .. عندما أشار الله تعالى - تعالى - بقوله: "ف.MODEL صرفاً في هندًا القرآنين"، والقرآن منزل على محمد، ليذر به قومه وقريشة خاصة - فذكر الناس هنا عموماً ولكنهم تخصيصاً الذين سمعوا القرآن وعلموا أن هذا القرآن قد صرف الله فيه للناس من كل مثل، أخبر السابقين، البشارة للحمد

(1) التفسير المير 15/179
وبناء عليه، الإندار للكافرين (الناس) هذا:

فضل الله - تعالى - العظيم تأخير العقاب، الذي تأخر عن قريش - رغم إصرارها وعنادها وkeitenها، والأشد الذين أذوا الرسول في الطائف، وهو الموقف الذي سماه الله عن جميع الرسالات. فالرسل لما ينسوا طابوا العذاب للكافرين بهم من الله، والآخرون أنهم خانوا الناس معاهم مع الأنبياء. عقر الناقة - ظلم فرعون، قوم شمود، قوم شعب، قوم لوط، فنزل بهم العذاب، لكن الرسول كان له الموقف العظيم عندما جاء جبريل وأخبره أن الله - تعالى - قد أمر ملك الجبال أن يفطح عليهم الأشخرين - جبل الطائف. وفي هذا الموقف الذي تفاعل به النفس البشرية للتأثر، للرد على الأذى، للرد على الظلم، كانت عظمة محمد نعمة عندما قال: «إنى لأرجو من الله أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله»، ورفض أن ينادوا ظيف، أو ينادوا قريش، أو أن يقع عليهم العذاب.


إن هذا التخصيص باسم عام وهو الناس - بالكافرين - وكذلك التخصيص بالعباد باسم خاص للمؤمنين ذلك من بلاغة القرآن الكريم المعجز، الذي صرف الله - تعالى - للناس فيه من كل مثل، ليذكروا، وليؤمنوا، وأيضا فإن الله - تعالى - مع ذكر العوم للخصوص - فإن الله تعالى أيضا قد صرف في هذا القرآن للناس
كل الناس، مؤمنهم وكافرونهم، حاضرهم ومن سيأتي بعدهم، في زمانهم وتألل أزمانهم، فإن هذا القرآن المعجزة الخالدة ضرب الله للناس فيه من الأمثال؟ لأن الله تعالى قد أوعده في الإنسان خاصيًة الجدل، حيث أشار الله تعالى - بعد ذلك إليه أنه يجادل، بل أكثر من الجدل، وفي الإنسان الذي سمع عند نزول القرآن، أو حتى إنسان اليوم فإن فطرة الإنسان التي فطره الله عليها أنه أكثر جدلا.

وتأتي الآية التالية لتبين للناس في كل زمان ومكان، ما هو المنع لهم من الإيمان بهذا القرآن وقد جاءهم بالهدى، ويطلب منهم أن يؤمنوا ويستغفروا ربيهم قبل أن يأتيهم العذاب قبلاً: مقبلًا عليهم، كما أصاب من سباقهم من الذين كفروا وصدوا عن ذكر الله، فهذا أيضاً توضيح - للناس كل الناس - في أي زمان أو مكان كانوا، وقد سمعوا بما فصل الله تعالى في هذا الكتاب عن أخبار السباقين الذين دمرهم الله، قال تعالى: وألذي كفرنا فخَّصَصْنا له وَأَصْلَ أَعْمَلْهُمْ ذَلِكَ بِأَنْهُمْ كَرُهُوا مَا آتَىَ الْلَّهُ فَأَحْصَطَ أَعْمَلْهُمْ َأَفْلَمْ يَبْصِرُوا فِي الأَرْضِ فَيَظْلَمُوا كَيْفً، كان عنفَبَةً لَّذَينِ مِن قَبِيلهِمْ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَكِفْرِينَ أَمْثَلَهَا (٩٦) [ عمداً].

هذا هو القرآن العظيم، الذي جعله الله تعالى - هو هدى للناس الذين وعوه فآمنوا، وجعله أيضاً صداً للكافرين الذين لا يعتبروه بما أنزل إليهم من أخبار الذين سبقؤهم، ف prv الله تعالى أقوامهم وليس للناس من الذين يطلعون على هذا القرآن إلا أن يهتدوا، وتأتي الآية بصيغة التعبج: وَمَا مَنَعَ الْمَلَائِكَةَ أن يَؤْمَنُوا إِذْ جَاءَهُمْ أَلْهَدَىٰ، (الكفيه: 55) الآية ما هو المنع، وقد رمته عيونهم، وسمعت آذانهم ووعيت عقولهم أخبار الذين دمر الله عليهم وأخذهم بعدم كبير.. هذا هو القرآن العظيم. هدي وشريحة للمؤمنين، ونذير للكافرين الذين يصدون عن سبيل الله، ويتوضيح ذلك بالآيات التالية عن مهمة الرسل عليهم السلام: وَمَا نُزِيلْ آلَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبْتَغِيَانِ وَمُتْرَكِينَ وَيُجِينُ الْكَافِرِينَ فَسَكَّفْنَا بِالْبَطْرِ لَيْدَهُمْ حِيَّاً َ َ َ َ َ َ َ (الآية: 56).
24- القرآن... تذكرة لن يُخشى (أ)

"ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تدبرك ليُثمان نعمة تشقى تنزيلًا."

بَيْنَ حَلْقِ الْأَرْضِ وَالْشَّمَسِ وَالْقُوْلِ الْعَظِيمِ، أَرْضَهُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتوَى. (طه).

سبب نزول هذه الآية: قال مقاتل: قال أبو جهل، والوليد بن المغيرة، والنصر بن الحارث، ومطعم بن عدي للنبي ﷺ: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك. فقال ﷺ: "بل بعثت رحمة للعالمين" ثم قالوا: بل أنت تشقى، فأنزل الله الآية رداً عليهم، وتعربنا محمد ﷺ أن دين الإسلام هو سبب كل سعادة وما فيه المشركون هو الشقاء بعينه.

واخرج ابن مروية عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان أول ما نزل الله عليه الوحي يقوم على صدور قدميه إذا صلى، فأنزل الله: "ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى". (1)

(1) فذكرها بعض العلماء على أنها من الأحرف المقطعة: النورانية.

(2) وأكثرهم ذكر أنها من اسماء النبي ﷺ وهو الأرجح ومعناه: طأ الأرض يا محمداً.

(3) قال ابن الأباري: وذلك أن النبي ﷺ كان يتعمق مشقة الصلاة، حتى كانت قدماه تتورم، ويخطأ إلى النروح. فقيل له: طأ الأرض، أي لا تتعب نفسك في الصلاة جداً حتى تحتاج إلى المراوة بين قدسيك.

نُزلت هذه السورة قبل إسلام عمر بن الخطاب. وقد روى ابن إسحاق قصة إسلام عمر مطولاً (3) ورواه بإيجاز الدارقطني في سنته عن أنس بن مالك ﷺ قال: خرج عمر متقلداً بسيف، فقيل له: إن ختنك وأختك قد صبوا (4) فأتاهما

---

(1) التفسير المنير 16 / 178.
(2) انظر بحث: القرآن - الأحرف النورانية - معجزة النطق من هذا الكتاب.
(3) راجع سيرة فاطمة بنت الخطاب في: الإصابة ، الاستيعاب ، الطبقات الكبرى وفي كتابنا نساء في حياة خاتم الأنبياء.
(4) يقال: صبا: خرج من دين وبابه: خضع.
عمر وعندماما رجع من المهاجرين قال له: خباب وكانوا يقرؤون {طه}. فقال:
أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه - وكان عمر يقرأ الكتاب فقالت له أخته:
إنك رجع ولا يسمى إلا المظهرون، فقم فاغسل أو توضأ، قام عمر ووضأ، وأخذ الكتاب قرأ {طه}. وكان ذلك سبب إسلامه: {ما أرزَّنا عليك القرآن}
{لينشقِق} إلا تذكيرة لمن تمشقق {لكثيفر}. أي لم ننزل القرآن عليك لتنعب نفسك بسبب تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وفرط تخسرك على أن يؤمنوا; فإن إيانهم ليس إليه، بل أرسلنا لتبليغ وتشذك فحسب البليغ والذكير، فلا تلفت بعد هذا لإعراض المعاندين ولا ترهق نفسك وتنعبها بجعلهم على قبول دعوتك.

ولنظر الآية قوله - تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَنِتِيعُ نَفْسَكَ عَلَىٰ أَئِنْهُمْ يَذْكِرُونَ يَدْرَءُونَ} {الكهف} فقاله: {لينشقِق} لتنعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتخسرك على أن يؤمنوا.

روي جبير عن الضحاك قال - ومعه مقاتل: لما أنزل الله القرآن على رسوله، قام به وهو وأصحابه فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن إلا ليشقق، فأنزل الله تعالى: {طه} ما أرزَننا عليك القرآن {لينشقِق} إلا تذكيرة لمن تمشقق {لكثيفر}، فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم، فقد أراد به خيرا، كما بث في الصحيحين عن معاوية قال: قال رسول الله {من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين}.

وما أرسلنا إلا تذكيرة لنذكير به من يخف عذاب الله، وينفع بما سمع من كتاب الله الذي جعلنه رجعًا ونورًا ودليلًا إلى الجنة، وليس عليك جبرهم على الإيمان:
{إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَغُ} {الشورى: 48}. {لَئَاتِ عَلَيْكِ يُمْضِتْرِكَ} {الغاشية}.
وفي هذا تسليمة للنبي صلى الله عليه وسلم من دعوته. وضيق نفسه من تصميهم على الكثير.

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني، عن ثعلبة بن الحكم، قال: قال رسول الله ﷺ: {يقول الله تعالى - للعلماء يوم القيامة. إذا قعد على كرسيه لقضاء بين}
عبادةً: إنِّي لم أجعل علمي وحكمتى فيكم إلا وأنا أريد أن أغرم لكم على ما كنتم ولا أبالٍ.

وكلمة («لا») في الآية إما استثناء منقطع بمعنى: لكن، أو متصل، والقدير: ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبلج إلا ليكون تذكرة.

وإذا خص من يخشى بالذكرى؛ لأنهم المتفعون بها، وإن كان القرآن عاماً في الجمع، وهو كقوله: (هَذَا الْيَدَّ) [ البقرة ]، ودليل العمل قوله تعالى:

(بَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْقُرآنَ عَلَى عَبِيدِهِ، لَيَكُونَ لِالْعَلَمِينَ نَذِيرًا) [ الفرقان ].

وجه التذكير بالقرآن: أن النبي ﷺ كان يعظهم به وبيبه.

(۲۷۸) يَمِينُ حَلَقِ الْأَرْضِ وَاِلْسَمَوَاتِ الْعَلِيمُ) [ طه ]، أي أن هذا القرآن الذي جاءك يا محمد نزل عليك تزليماً من خالق الأرض والسماوات العليا، والمراد به جهة السفل والعلو، الأرض باختصارها وكتابتها، والسماوات في ارتفاعها وطاقتها، والمراد بالآية: إحضار العبادة عن كمال عظمة منزل القرآن، ليقدروا القرآن حق قدره: (آَرَاهُمْ عَلَى الْجَوْزَةَ اسْتَوَى) [ طه ]، أي ومنزل القرآن هو الرحمن المنعم بجلاله التمتع ودقاتها، وهو الذي علا وارتفع على العرش ولا يعرف البشر كيف ذلك، بل نؤمن به على طريق السلف السالحين الذين يؤمنون بالصفات من دون تحريف ولا تأويل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل، فهو استواء يليق بجلال الله وعظمته، بل كيف ولا انخصار، فقوله تعالى: (۱۰ ۱۰)، لأن الله تعالى ليس بجسم ولا يشبه شيئاً من الموجودات، والعرش شيء خلوق، لا ندرى حقيقته.

ويبرى الخلف تأويل الصفات، فإنَّه بالاستواء: الاستيلاء والقهر والتصرف الكامل، والعرش هو الملك، واليد القدرة (١).

يوضح الكلي: لما نزل على النبي ﷺ الواح بمكة، اجتهد في العبادة واشتدت عبادته، فجعل يصل على الليل كله زماناً حتى نزلت هذه الآية، فأمره الله تعالى أن:

(۱) التفسير الميسر ١٦٨، فما بعدها... بعض التصرف.
يُخفِف عن نفسه ، فيصلو ونام ، فنسخت هذه الآية قيام الليل ، فكان بعد هذه الآية يصلو ونام ، وهكذا لم يكن إنزال القرآن لإنعاب النفس في العبادة ، وإذاغتها المشقة الفادحة ، وإنما كان القرآن كتاب يسر وما بعث النبي ﷺ إلا بالخليفة السحمة.

فَالله تعالى منزل القرآن هو خالق السموات والأرض ، وهو الرحمن المنعم بجلال النعم ودقاتها الذي اعتلى عرشه ، فكان له مطلق التصرف في الخلق والكون ، وله جميع ما في السموات وما في الأرض وما فيهما من الموجودات وما تحت الأرض من معادن وذخائر وأموال وغير ذلك ، والأرضون سبع والسماوات سبع أيضا وهو العالم بكل شيء ، يستوى عنده السر والجهر وما هو أخفى من السر . قال ابن عباس: السر وما حدث به الإنسان غيره في خفاء وأخفى منه ما أضمر في نفسه مما لم يحدث غيره.

وهو - سبحانك - الإله الواحد في الكون ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، له الأسماء الحسنى التسعة والتسعون ، والصفات العليا ، والأفعال الحميدة الحكيمة (1) .

(1) التفسير المنير 16 / 184.
25 - القرآن العربي (ب)

وكَذَا لَكَ يَرْتِبُهُ الْمَلِكُ الْعَلِيمُ وَهُوَ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْطِعَ إِلَيْكَ دُمَيْرٌ وَحَيْثُ ۚ وَقُلْ رَبِّ زَدْنِي عَلَمًا 

سِبْبُ نَزْوَلِ الآیَةِ (۱۲۱) ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمَ عِنْ السَّدِّي ﴿قَالَ الْنَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ جَبْرِيلَ بِالْقُرْآنِ، أَنْبِعْ نَّفْسِهُ فِي حَفْظِهِ، حَتَّى يَشْقَع عَلَى نَفْسِهِ، فِي خَافِئٍ أَنْ يُصُدَّ جَبْرِيلُ وَلَا يَحْفَظَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ الآیَةِ. ﴿وَثَبَتْ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسِ: أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَعْجَلُ مِنْ وُلْدِهِ شَدَةً، فَكَانَ يُجِرْكَ بِهِ لَسَانِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذَهِ الآیَةَ، يَعْنِい أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَ جَبْرِيلَ بَالْوَحِي كَلَّا قَالَ جَبْرِيلُ آيَةً قَالَهَا مِنْ شَدَةِ حَرْضِهِ عَلَى حَفْظِ الْقُرْآنِ، فَأَرْشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَ إِلَى مَا هُوَ الأَسْهَلُ وَالْأَخْفَيْفُ فِي حَقِهِ لَهَا يَشْقَعْ عَلَيْهِ. كَاَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَلْزِمَهُ الْآيَاتِ الْوَعِيدَ مِنْ أَهْوَالِ يُوْمِ الْقِيَامَةِ، أَنْزَلَ الْقُرْآنَ كَلِهُ بِلَغَةِ عَرَبِيَّةٍ مِبْنِيَةٍ، لِيَفْهَمَهُ الْعَرَبُ، ثُمَّ أَبَانَ اللَّهَ تَعَالَ نَفْعَهُ الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ بِالْحَصُّ بِالْتَّقْوِيَةِ وَالْبَقْدُسَةِ وَالْمَعْمُّورَةِ بِهِالْأَمَمِ الْمُتَقَدَّمةِ، وَأَنَّهُ - سَبِيحَانُهُ - مَنْصُوبٌ عَلَى عَمَّامِهِ، وَمَنْزُولٌ عَنْ صَفَاتِ النَّوْعَةِ، وَأَنَّهُ ضَامِنُ غُرْسِ الْقُرْآنِ فِي صَدَرِهِ وَصُوَّنَهُ عَنْ النَّيْبَةِ وَالسَّهَوَةِ. (١)

وَهَلْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ كَلِمَاتٌ خَارِجَةً عَنْ لِغَاتِ الْعَرَبِ أَوْ لَا؟

لا خلاف بين الأئمة أنّه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب وأنّه في أسماء أعلاماً من لسان غير لسان العرب، ك الإسرائيل وجربل، وعمران ونوح ولوط.

وختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من كلام العرب؟ فذهب القاضي أبو بكر الطيب والطبري وغيرهما: إلى أن ذلك لا يوجد فيه.

(١) التفسير المثير ١٦ / ٢٨٩
وأن القرآن عربي صريح، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات.

إذًا اتقن فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلم بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيا مبينا، ولا عن رسول الله مثلا، بل كلاما بلسان قومه فالمشاكاة;


الجبل، واليام: البحر بالسريانية، والثور: وجه الأرض بالعجمية.

قال ابن عطية: فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعمجية لكنها استعملتها العرب وعرّبتها فهي عربية بهذا الوجه، وقد كان للعرب العارية التي نزل القرآن بلسانها بعض خالطة لسائر الألسنة بتجارات، ورحلت قريش وكسر مسافر بن أبي عمرو إلى الشام، وكسر عمر بن الخطاب، وكسر عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، وكسر الأعشى إلى الحيرة، وصحبته لنصاراه مع كونه حجة في اللغة؛ فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعمجية غيرها بعضها بالنقص من حروفها. وجرت إل تخفيف نقل العجمة، واستعملتها في أشعارها وعباراتها، حتى جرت مجرى العربي الصحيح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، فإن جهلها عربي ما فكجهله الصحيح بما في لغة غيره. كما يعرف ابن عباس يعني: "فاطر" (فاطر: 1) إلى غير ذلك.

قال ابن عطية: وما ذهب إليه الطبري رحمه الله: من أن اللغتين انتقتا في لفظة لفظة بذلك بعيد؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر لأننا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قبل شاذ. قال غيره: والأول أصل. وقاله: هي أصل في كلام غيرهم دخيلة في كلامهم، ليس بأولى من العكس. فإن العرب لا يقبل أن تكون تناطت بها أولا، فإن كان الأول فهي من كلامهم. إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم. ولا يعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة. فإن قيل: ليست هذه الكلمات.
على أوزان كلام العرب فلا تكون منه.

قلنا: ومن سلم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؛ فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب، ورد هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية، وأما إن لم تكن العرب تختابت بها ولا عرفتها استحال أن يخطبهم الله بما لا يعرفون، وحينئذ إن لم تكن العرب تختابت بها ولا عرفتها استحال أن يخطبهم الله بما لا يعرفون، وحينئذ لا يكون القرآن عرضاً مبيناً، ولا يكون الرسول خاتماً لقومه بلسانهم. والله أعلم.

جمع صاحب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام مثنا طويلاً حول موضوع الآيات التي وردت بذكر أن القرآن عربي. قال: لقد تطرق الطبري في مقدمة تفسيره إلى هذا الموضوع بعد أن تعرض لرأى من زعم أن في القرآن كلاماً أعجمياً وأن فيه من كل لسان شيئاً، فقال: قال أبو جعفر: قد دلنا على صحة القول بما فيه الكفاية من وفق لفهمه، على أن الله - جل تناؤه - أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغتها. فقول الآن: إذا كان صحيحاً في الدلالة عليه فإن ألسن العرب أنزل أن ألسن جميعها أم بلنس بعضها؟ إذا كانت العربية وإن جمع جميعها اسم أنها عرب فهم مختلف الألسن بالبيان متباينو المنطق والكلام.

وإذا كان ذلك كذلك، وكان الله - جل ذكره - قد أخبر عباده أنه قد جعل القرآن عربياً، وأنزل بلسان عربي مبين، ثم كان ظاهره محتلاً خصوصاً وعموماً، لم يكن السبيل إلى العلم بما عني الله تعال ذكره من خصوصه وعمومه إلا بيان من جعل إليه بياش القرآن، وهو رسول الله ﷺ. فإذا كان ذلك كذلك، وكانت الأخبار قد تظهرت عنه ﷺ بما حدثنا خليل بن أسلم قال: حدثنا أنس بن عياش عن أبي حامض عن أبي سلمة قال: لا أعلم أنه إلا عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف فلمرا في القرآن كفر، ثلاث مرات، فما رفعتمه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه.(1)

(2) تفسير الطبري 9/1 وما بعدها.
واستمر الطبري بعد ذلك في تعداد الطرق التي ورد فيها هذا الحديث:

حديث: أنزل القرآن على سبعة أحرف، ورواية بعض الأخبار الواردة في حدوث اختلاف بين الصحابة في حفظ بعض الآيات وقراءاتها ثم خلص بعد هذا السرد إلى نتيجة هي أن القرآن: "نزل بألسن بعض العرب دون ألسن جميعها، وإن قراءة المسلمين اليوم ومصاحفهم التي بين أظهرهم هي بعض الألسن التي نزل بها القرآن دون جميعها فلم يلزم بتعيين اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم". 

انتهى.

وستعود لنذكر الآراء والأقوال التي وردت في هذا الموضوع: القرآن ولغة العرب في مواقع أخرى مع آيات أخرى، أدرك الله تعالى بها أن القرآن عرب وبُسن عربي مبين.

وكشفنا فيه من أوّل وعيد لعلهُم يُتقُون أو تُحيِّث هَمّ ذُكرنا [طه]؟ أي وينا فيه أنواع الوعيد - تไฮفا وتهديدا، كي يخافوا الله، فيتجنبا معاصيه، ويجدوا عقابه، أو يحدث لهم في قلوبهم عيرة وعظة يعتبرون بها ويعظون، ويقبلون على فعل الطاعات. وعظم الله تعالى نفسه بعد تعظيم القرآن الكريم فقال: فتعالِ آللَّهُ الَّلَهُ الْقَهَّارُ [طه: 114]؟ أي تقدس وتنزه الله الملك المتصرف بال أمر والنهي الثابت الذي لا يزال ولا يتغير عن إخاد الملحدين، وعما يقول المشركون، فإنه الملك حقا الذي يهد الثواب والعقاب وبيده الحياة والموت، وهو على كل شيء قدير، ومن حقه وعدله إلا يعذب أحدا قبل الإناذير وبعثة الرسول، والإعدار إلى خلقه لنيله يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

ولا تعتجل بالقرآن من قائل أن يُقطع إلينا وتحته [طه: 114]؟ أي لا تتعجل أو تبادر إلى قراءة القرآن قبل أن يفرج جبريل من الوحي حرصا منه على ما كان ينزل عليه منه، بل انصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليه فاقتراه بعده، ومثله قوله - بارك وتعالى في سورة القيامة: لا تُحْرِكْ يِهْلِكَ لِسَائِكَ لِتَعْجِلَ بِهِ [القيامة].
وَقُلْ رَبِّ زَدِّني عِلْمًاۛ} (طه) ؛ أي سل ربك زيادة العلم. روى الترمذي وابن ماجه والبزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا. وقال عليه الصلاة والسلام: الحمد لله على كل حال وأعود بالله من حال أهل النار. قال الحسن البصري: إن هذه الآية نزلت في رجل لعُلمه نجاة، وجه امرأته، فجاءت إلى النبي ﷺ تطلب القصاص، فجعل النبي ﷺ لها القصاص، فنزلت:} {٦٩٩«الرجل قَوْمٌ مُّورِبٌ عَلَى أَلْيِسَاءٍ»} (النساء) ؛ ولهذا قال:} {٦٩٨«وَقُلْ رَبِّ زَدِّني عِلْمًا» ؛ أي فهما ومعرفة؛ لأنه حكم بالقصاص وأبي الله ذلك، لكن قال الرازي: هذا بعيد، أما قوله تعالى:} {٦٩٧«وَقُلْ رَبِّ زَدِّني عِلْمًا» ؛ فالمعنى أنه سماحه وتعالى؛ أمره بالفزع إلى الله - سماحه - في زيادة العلم التي تظهر بتمام القرآن أو بيان مانزل عليه.

وفي الآية الترغيب في تحسين العلم والترقى فيه إلى ما شاء الله؛ لأن رتبة العلم أعلى الرتبتين، وجزء واسع لا يحيط به إنسان.

١) التفسير الازهري ١٦ / ٥٩٠ فما بعدها ببعض التصرف.
لا بد وأن المشركون قد استطعوا بعد الجدل الطويل بينهم وبين الرسول ﷺ وبعض المسلمين أن يحاجوا عليه الرسول ﷺ والمسلمون الكفار - ﷺ وهو القرآن - بأنه شيء غير عادي وأن الأقوال التي يسمعونها ليست من صنع البشر، كما حاول أساطير البلاغة أن يستقلوه أو ينوه به أو حتى سبوري منه، هذه الحقائق التي وصل إليها المشركون، وأنهم خرجوا على مقاربة الحجة بالحجة مهما بلغت مراتب بلاغتهم، تحول إلى أمر آخر وهو هجر هذا القرآن وتركه، والأخذ بالإجراءات الكفيلة التي تنعى وصول هذا القول إلى الناس، ولم يفعل ذلك المشركون والكافرون من يقين وغير قريش إلا بعد أن حاجهم المسلمون بالقرآن فأبطل حجتهم وآرائهم، وسما أحلامهم، وأعجز أقوالهم. وفي السيرة المطهرة الكثير من الشواهد على ذلك. ألم يضع عتبة بن ربيعة يديه بعد مجادله للنبي ﷺ، وبعد أن عرض إغراءات قريش المتكررة من المال، والنساء، والملك، والطب والرياضية على الرسول عليه الصلاة والسلام، وضع إصبعه في أذنيه صائحاً صهيا محمد - ﷺ بعد أن حاجه الرسول بالقرآن، عندما قال له: لقد سمعت ما قالت يا عم فاسمع ما أقول، وتلا قوله تعالى: ۗ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَفْوِ وَٱلْإِحسَانِ وَإِيَّاَيَّ ذِى الْقُرْآنِ وَيَنْعِي عَيْنَيْنِ أَفْخَشَاءَ وَالْمُسْتَقْرِيرِ وَلَبَنِيّ يُعْطِيكُمْ لَعْلَمَ ۖ ذَٰلِكَ ٱلْقُرْآنُ ۗ [النحل]، خرج من لدن النبي ﷺ واعتزل الناس فبئه حتى طن الناس أنه أسلم.

لم يدخل سماع القرآن الكريم من مصعب بن عمير، أسيد بن حضرى، وسعد ابن عازد - سيد الأوس - في الإسلام، لمجرد سماعهما القرآن من مصعب ﷺ ولم يجادلهما غير القرآن، وغيرهم وغيرهم، كما اعترا بأن القرآن ليس شعرا وليس كهانة، وليس بلاغة مجرد، إنما هو كلام الله المعجز الذي كان الدليل

فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، محمد صلوات الله عليه؛ أعظم نبي أرسله الله، وقد جمع الله تعالى للفقران الصفرين معا، ففي الملا الأعلى أنزل جلّة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجمًا بحسب الوقائع والحوادث.

قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا أحمد بن سليمان، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا داود عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جلّة إلى سماء الدنيا في

(1) تفسير القرآن العظيم، الحافظ بن كثير، دار ابن حزم، ط 2000 - بيروت، 1358 ، 1357 ، 1358.
ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: «ولا يأتونك بِمَثَلٍ إِلَّا جَنَّاتٌ بَالَاحِجٍٍ وَأَحْسَنَ تَفَسِّيرًا» [الفرتanic] وقال: «وَقَرِئَانَا فَرَقَتْهُ لِتُقَرِّؤَهُ عَلَى الْأَلَّاَسِ عَلَى مُكْتَرِهِ وَتُرْتَلِتْ تَنَزِيلًا» [الإسراء].

ثم قال تعالى: «عن حاد سوء الكفار في معادهم يوم القيامة، وحضرهم إلى جهنم، في أسواء الحالات وأقبح الصفات: "أَلَّذِينَ مَكَرَّرَونَ عَلَى وَجُوُهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ" أُوْلَـٰئِكَ سَـعَرُ مِكَانًا وأُصِـلُ سِـيْلًا» [الفرتanic] وفي الصحيح عن أنس: أن رجلا قال: يا رسول الله كيف يشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: إن الذي أمشأ على رجليه قادر على أن يمشي على وجهه يوم القيامة، وهكذا قال مjahad، والحسن، وقناه، وغير واحد من المفسرين والله أعلم... اتهى.
27- القرآن المبين

قد طسَّ تلَك ذَائِتُ القرآن وصُكْنُب مَعْنَى هَذَا وشَرَأ لِلمُؤمِنين 婷婷

يُقِيمُون الصَّلَاة وَيَؤْمِنُون الرَّسُولة وَهُم بِالآخِرَة هُم يُوقَنُون إن أَلَّهُنَّ لا يَؤْمِنُون

بِالآخِرَة زِينَا هُم أَعْمَلُهُمْ فَهُم يَعْمَهُون 婷婷 أَوْتَانِكُمِ اللَّهُنَّ هُم سُوء الْعَذَاب وَهُمْ في

الآخِرَة هُم الأَخْسَرُون 婷婷 وإن كَلْتَ لِنظائِي التَّرْقيَّة مِن أَنْذَر حَكِيمٌ عَليمٌ

[ النمل ]

كما أن القرآن الكريم هو حجة المؤمنين المحفزة للكافرين، فإنه هو الهدى والبشرى للمؤمنين، ففي كل المواقف كان الرسول ﷺ والمؤمنون يجاجون بآيات الله المعجزة، وهي المواقف التي صدت حجج المشككين وحجج الكافرين، أظهرت بجلاء ووضوح أن هذا الكلام - القرآن الكريم - ليس كلاما عابدا من صنع البشر، لكنه كلام الله تعالى خالق البشر الذي أنزله على عبده ليكون للعلماء نورا وحماية، ثم إن القرآن الكريم في آياته وسورة الحديقة للمؤمنين حيث تطمئن قلوبهم لذكر الله بتلاوة آياته. والبشرى الدائمة للمؤمنين بالتمكين في الأرض، والثواب على الحق، واليقين المطلق بالله، والنصر المؤكد على أعداء الله في الدنيا، ثم الفوز الكبير بالجنة التي أعدت للمتقيين، تلك الجنة التي وصف الله تعالى بعض نعيمها، كما وصف الرسول ﷺ هذا المآل، وحدد بعد ذلك: ما لا عين رآت، ولا آذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

من هم أولئك المؤمنون الذي كان القرآن المبين هدى لهم وبشرى، إنهم الذين يقيمون الصلاة ويداومون على إقامتها بأوقاتها، وفرائضها، وأركانها، وسننها، والخشوع المطلق لقلوبهم وهم يذكرون بين يدي الله جل جلاله. يقيمونها كما أراد الله تعالى خالصة لوجهه، مبينين إليه في الوقوف والركوع والسجود جماعة إثر جماعة في صفو متواصية متلاحة.

تذكر بقوة المؤمنين في هذا الموقف بين يدي الله تعالى، وهؤلاء الذين يقيمون الصلاة، يؤدون الزكاة، يؤدون حق الله تعالى في أموالهم، يؤدونها برضا وفرحة
هؤلاء المؤمنون الذين ينفقون في الليل والنهار، ولا ترى يسراهم ما أنفتت مناهم. يعطون زكاتهم لمستحقها، وفي مصارفها الشرعية التي حددت في كتاب الله تعالى، ويتوجيه النبي ﷺ. وليس هذا فقط فهنالك أمور كثيرة تعامل معها المؤمنون، ومنها الإيمان بالآخرة، الإيمان بأن الدنيا فانية، وما هي إلا طريق قصير جداً ينطلق به الإنسان ﷺ الذي خلق الموت والحياة ليست وكانك أيها القهر أحست عبلاً و هو العزيز الاعفور، (الملك)، الإيمان بالآخرة واليقين بأنها هي دار الخلود يجازى فيها المؤمن بالجنة الأبدية، ويجازى الكافر بالنار، الإيمان بالآخرة جزء هام من أركان الإيمان، ليستقن المؤمنون، ويؤمنون باليوم الآخر. مع إمانيهم بشعب الإيمان الأخرى كلها، وممارسة الحياة على أساسها.

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة، وقد ذكر واحدا من شعب الإيمان الذي حوت تأكيداً: الإيمان بالله وكتبه وملائكته ورسله، وباليوم الآخر، والقدر خيره وشره. ثم قول النبي ﷺ: الإيمان بضع وسعون شعبة أعلاها الإيمان بالله وأدنها إمالة الأذى عن الطريق، هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة فإن الله تعالى قد زين لهم أعمامهم في الدنيا، وأفرحهم بها، وجعلها قناعات تمثل نفوسهم فهم يعمرون أي أنهم صم بكم المغفرة، وأنهم كالأنعام أو أشد ضلالاً، إنهم يعيشون في الضلال، ظاني أنها الحق - مع أن الحق - قد لا يختلف فيه الخلقي إلا الكافرون الذين زينت لهم أعمامهم فهم في ضلاله يبرعون، ومن ثم إن كفرهم في الآخرة سيكون شأنهم بيا الخسارة - خسارة اللهم من الملهم، ونجواهم جهنم ويبسن المصير، هذه حال الكافرين في يوم كفرنا به وأبعدوه من حساباتهم فدخلوا في الضلال في الدنيا، والخسارة الأبدية في الآخرة.
ثم إنك يا محمد تتلقى القرآن من لدن حكيم عليم، الله تعالى، الذي أنزل الكتاب، وأجرى السحاب، وخلق الموت والحياة، إنك يا محمد تتلقى أوامره آيات وسور جمعت في القرآن العظيم، إنه وحى الله تعالى إليك، وهذا طمنة لنفس الرسول بأن الصلة مع خالق الخلق، مع إله السموم والأرض، هو الذي يوحي إليك هذا القرآن، فهو يلبس عليه إليك منجماً، ليكون بشرى لك وللمؤمنين، ونذيرًا للذين ضلوا وكفروا في الدنيا، الذين سيكون مأهم الخسران المبين في الآخرة دار القرار والخلود.
القرآن وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين

۲۸ـ إن هذَا لْكُلِّ قَرْآنٍ يُفْقِحُ عَلَيْنَ بَنِي إِسْرَاْءِيلَ أَصْحَابُ الْذِّنَى هُمْ فِيهِ مَخْتَلِفُونَ
وَإِنَّهُ هُدِيَ وَرَحْمَةً لِلمُؤْمِنِينَ (۲۸) إِن رَبِّكَ يَقْضِي بَنِي مَهْمَانَهُمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ
۱۷۲۶ فَمَنْ كَلَّمَ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ أَلْمَعِينَ (۲۸) [النمل]

لقد أفرط بنو إسرائيل في غيهم، وأفرطوا في ضلالهم، وحرموا كتابهم التوراة وكتبوه بأيديهم، وهذا فقد ظهر اختلافهم في كثير من أحكام الله تعالى التي أمرهم بها، اختلقوا في كل شيء، وقد أوضح الله تعالى اختلافهم هذا اختلافاً في عيسي عليه السلام، وأنكروا نبوته عندهم، وصدا عيناً لسماحة وليس محرفاً ومثيراً، وبذلك فقد كفروا به، وأنكروا نبوته وتأمرنا عليه، ووعزوا للسلطات الحاكمة وقتها قتله. وجرى الأمر، ولكن ضلوا واحتفزوا وَاقد تلوهُ وَمَا صَلَّوْا وَلَا يَلِكَ شَيْئًا هُمْ (۱۵۷) [النساء]، والبعض القليل أمن به وهم الحواريون:

۱۸۳۲ يَتَّبَعُ اَلْذِّينَ إِنِّيِّا قُوْمُوُاٖ أُنْصَازُ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسٌ ﷺ مَّرْيَمُ ﷺ لِلْحَوُارِيْنِ يُوَالَدُنَّى ﷺ اَلْأَرْضَ أَنْصَازُ اللَّهِ (۰۴) ۱۷۲۶ [الصف]

وَكَفَّرَت طَائِفَةٌ فَأَبْيَضُدَا اَلْأَلْدِينَ قَالُوُا عَلَيْنَ عَدْوَاهُمْ فَأَصْبَحُوا ظُهُرِينَ (۲۸) [النمل]

وكذلك التلاميد وأعداد هؤلاء، لا تصل كلها إلى المائة، فالحواريون اثنا عشر والتلاميد خمسة وسبعون وعلى أيديهم انتشرت النصرانية في العالم، أما بقية بنى إسرائيل فقد كفروا به.

قال تعالى: وَإِذَّ قَالَ عِيسَى ﷺ اَبْنُ مَرْيَمَ ﷺ بَنِي إِسْرَأْيَلَ إِلَى رَسُولٍ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا
۲۸۰٠ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْعُورَةِ وَمِبَشْرُ يَرْسُوْلُ يُقْلِلُ مِنْ بَعْضِ آخَاهُ عَلَى أَحَدٍ أَحْسِنَ أَحْسَنَ عَلَى جَائِهِمْ بِلاَيِّنَتٍ قَالُوا هَذَا يَسَعُرُ مَّعِينَ (۲۸) [الصف]

وكان هذا مثلاً واحداً لاختلاف بنى إسرائيل فجاء القرآن الكريم يقص على بنى إسرائيل اختلافهم، ويظهر لهم الحقائق التي ضلوا وكفروا بها، فبين القرآن الكريم حقيقة عيسى عليه السلام بأنه نبي ورسول من أنبياء الله تعالى، أرسل إلى بنى إسرائيل بعد أن زاد ضلالم بتحريف
الكتاب

صفة كتاب الله في كتاب الله

ال.WaitFor، وقتل الأئمة بغير حق، وتکذيب رسل الله تعالى، ومنهم عيسى الذي
كدبه أولئك، وقد بين القرآن الكريم أكثر ما اختلفوا فيه.

أما عن عيسى فقال الله تعالى في سورة مريم: "فأجابها المحتاج إلى جذع
النخلة قالت: "هل ترى ما كتب هذا وحكى النبي من نبئها من قصيدة، حسبًا؟
قد حمل ربك لحنك سراً" وهزرت إليه يد النخلة تسقط على رأسه حبيصًا،
فقلن: نحن وقريناً، فقله: إنما أفرئين من البشرين أخذوا فأقول: إن ندرك
إلى الرحمين صومًا فلن أكلهم. إنما أكلهم إنيسيًا؟ فانهتم بهم، قومها تحملهم،
قلنا: نمريم، لقد جئت شيطانًا فريًا. فاشترى إليه قالوا: كيف
نجعل من كابن في المهيد صبيًا؟ قال إلى عبد الله: ابني الكتاب وجعلني نبيًا.
وجعلنا مباركاً أن ما سكنت وأوصيني بالصلى والركوع ما دمت حيًا وبرًا بولدتني.
ولم يعفني بشارًا شفيعيًا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً.
ذالك عيسى ابن مريم، فنزل الحق الذي فيه يصرون ما كان به أن ينتمي من ولي.
سكنته إذا قضى أمرًا فإنهما يقولون له: كن فيكون.

لقد بين القرآن الكريم حقيقة عيسى عليه الصلاة وسلام، وأظهر لبني إسرائيل اختلافهم
وإنكارهم له. وفي آيات أخرى أوضح القرآن حقيقته "لعرس الذين سفروا
من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى أبني مريم" [المائدة: 87].

كما أن القرآن الكريم هدى ورحمة للمؤمنين، بينهم طريق الحق والخير
والخلال لسلكوه، وفيه من الرحمة لهم والنور الذي بئر لهم حياتهم في الدنيا،
و بينهم طريقهم في الآخرة وثوابهم المقيم فيها، ومن هنا فإن شمولية القرآن
ال الكريم لكل مافي الحياة الدنيا من أحداث وتجارب، كانت قبل نزوله، وستكون
في المستقبل بعد نزوله، وهاتان إشراطان فقط في هذه الآية لإظهار الحق لبني
إسرائيل، وبأله هدنة ورحمة للمؤمنين، وأن الله يقضي محكمه بعد هذا في ضلال
من ضل وهدادة من اهتدى، فرحمة المهتدين، ويعذب الضالين والمنافقين،
و خاصة بعد أن جاءهم الهدى فافتكروا فيه، وابتدوا عن هديه، وضلوا سبيل
الرشاد، وركبوا درب الغواية والشيطان.

ثم إن الله تعالى يطمئن الرسول بقوله: «فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ

آلِمُيْنَ [النمل]»، وهذه الآية توضح جلاء أن الإسلام فقط هو الدين الحق،

وبأن الرسول قد سار في هذا الادب، درب الحق الظهار المبين وأن ما يأتيه من

ربه هو النور والخير الذي يريده الله تعالى لعباده، فتوكل على الله يا محمد، ولا

خشى غير الله، فإنك على درب الحق والخير سالك ولا يضربك بعد هذا شيء في

هذه الدنيا من الملحدين والضالين والمنحرفين مهما بلغت قواعدهم وحججهم، وما

عندهم من أقوال أو أفعال.
29 - تلاوّة القرآن

وَأَنَّ أَتَّلَى الْقُرْآنَ فِي مَن آتَهُ دِينًا فَإِنَّمَا يَتَّلِى إِلَّا لِتَفَصِّيلِهِ، وَمَن صَلَّ فَقُلَّ إِنَّمَا أَتَّلَى مِنَ الْمُنَّانِ، وَقُلْ أَحْمَدَ اللَّهُ سُرَيْبَةٌ إِيَّاهُ، فَتَفَرَّقُوهَا، وَمَا رُكْبَ بِغَفَّةٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ.[النمل]

يرتبط تفسير هاتين الآيتين بآية سبقتهما وهي قوله تعالى: "إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهَ، سَكَّنَ شَيْءٌ وَأَمَرَّهُ أَنْ أُكْفَنَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ".[النمل]


ويأتي تفسير الآية التالية من قوله: "وَأَنَّ أَتَّلَى الْقُرْآنَ"، أي على الناس أبلغهم
إِيَاهَ ، كَفَّارَةَ عَلَيْكُم مِّنَ الْآنَبَىَّاتِ وَالْذُّكَرِ الْحَكِيمِ (٥٤) [آل عمران]
وَكَفْرَةَ عَلَيْكُم مِّنَ الْمُوسِىَ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لَفَوْمُ ۖ يُؤْمِنُونَ ۖ (٥٥)
[القصص]. أَنَا منْ النُّسَرٍ وَمِلْعَبٍ ٌۖ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يُهْتَدِىٰ لِسَبِيلِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَاٰ مِنَ النُّسَرٍ (٥٦) [النمل]. أَيْ لِسُوءِ الرَّسُولِ الَّذينَ أَنْذَرُوهُمْ وَقَامَوْا
بِمَا عَلَىٰهُم مِّنْ أَدَاءِ الرَّسْلِ إِلَيْهِمْ وَخَلَصَوْا مِنَ عَهْدِهِمْ وَحَسَبَ أَمْهِمْ عَلَىٰ اللَّهِ
كَفَّارَةَ عَلَيْكُمْ ۖ أَوْ نَتَوَفَّيْنَا ذَٰلِكَ ۖ إِنَّمَا عَلَىٰكُمْ أَنْ بَلَغَ عَلَىٰ أَحْسَابِكُمْ (٥٧) [الرعد]. قَالَ
إِنَّمَا أَنَّا نَتَبَيِّنُونَ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَسَاحِلٍ (٥٨) [مُحَدَّث].
ۚ وَقَلَىَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ سَيْرِيكُمْ ءاَيَّتِهِهِ، فَقَتَرَفْوُهُمْ (٥٩) [النمل]. أَيَّ اللَّهُ الْحَمِيدُ الَّذَيْ لَا يَعْذَبُ أَحَدًا إِلاْ بَعْدَ قِيَامِ الْحَجَةِ عَلَيْهِ وَالْاعْتِزَارِ إِلَيْهِ، وَهَذَا قَالَ: سَيْرِيكُمْ ءائِتُهُه،
قَتَرَفْوُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: سَيْرِيكُمْ ءائِتُهُهُ بِأَلْفَاقٍ وَفِي أَفْسِفْهُمْ حَتِّى يَبْتَنِينَ لَهُمْ
أَنَّهُ أَلْقَىَ (٦٠) [فَسَلِطَتْ ۖ ٥٠] وَقَلَىٰ تَعَالَىٰ: وَمَا زَيَّنَّكُمْ غَفِيلُ عَمَّا يَعْمَلُونَ (٦١) أَيَّ بَلْ
هُو شهيد على كل شيء. قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي عمر الخرولي حفص
ابن عمر: حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفي، حدثنا سعيد بن أبي سعيد، سمعت أبا
هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: يا أبا الناس، لا يغتن أحكم بالله، فإن الله
لو كان غافلا شهيناً، لأغفل البعوضة والخردة والذرة، وقال أيضاً: حدثنا محمد
ابن يحيى، حدثنا نصر بن علي، قال أبي: أخبرني خالد بن قيس، عن مطر، عن
عمر بن عبد العزيز، قال: فلو كان الله مغفلاً شهيناً، لأغفل ما تخفى الريح من أثر
قدمي ابن آدم، وقد ذكر عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه كان ينشد هذين البيتين...
إِمَّا لَهُ أو لَغَيْرِهِ:
إِذَا مَا خَلَوَتَ الْدُهْرِ يوْمًا فَلا تَتَخَلُّ مَثَلًا عَلَى رَقِيبٍ
وَلَا أَنَّ مَا يَخَفُّ عَلَيْهِ يَغْبِبُ (١)

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير ص 1408. طبع دار ابن حزم.
إِنَّ تَلاوَتَ القُرآنِ الكَرِيمِ فِي كُلٍّ مَكَانٍ أَوْ مَجْمُوعٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ مَنْ فَرِيدٌ كَلِّ ذِلِكَ لِهِ أَثَّارُهُ فِي سَمَاعِ هَذِهِ الْتَلاوَةِ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِمَّا يَهْتَدِى لَنفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَنْذِرٌ لِلْنَّاسِ مِنَ الأُنْبِيَاءِ المُتَذَهِّبِينَ، وَكَانَ الْبَيْتُ ﷺ وَصْحِبُهُ وَالْدُعَاةِ وَالْقَرَاءِ، وَالمُسْلِمُونَ عَلَى هَذَا الْدُرُّ يَتُلُونَ القُرآنَ، فَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْخَلَاوَةِ وَالْتَفَاوَةِ وَالسَّحْرِ، وَالثَّأَثِرِ عَلَى الْنَّفْسِ مَا يَجْذَبُ إِلَيْهِ أَصْحَابُ الْقُلُوبِ الرَّقِيقَةُ فَتُؤْمِنُ، وَالذِينِ يَصْدُونَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَقَسْتُ قَلُوبَهُمْ، وَخَتَمَ اللَّهُ عَلَى سَمَعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ غَشَوَا فِلْهُمُ الْعَذَابُ العَظِيمُ، يَا مُحَمَّدَ سَلَحِي وَحَجَتُكَ وَنَورُكَ وَيَقِينُكَ هُوَ هَذِهِ الْكِتَابُ أَنْزِلْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لِتَبْلَغَهُ لِلنَّاسِ فَهُوَ لَهُمْ كَمَا هُوَ لِكَ السَّلَاحُ وَالْحَجَةُ وَالنُّورُ وَالْيَقِينُ، وَلَا تَكْتُرِثُ لَنَّ مَنْ صَدَّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَعَلَيْكَ الْإِنْذَارُ وَالبَلَاغُ وَاللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْهَادِيُّ إِلَى صِرَاطٍ مَسْتَقِيمٍ.
30- القرآن المفروض

"إن الذي فرض عليك القراءات لرأذك إلى معاد قل زي أعلم من جاياه بهدئ
ومن هو في ضلل مبين وما كنت ترجوا أن يلقي عليك الصيحة إلا رحمه من
ربك فلا تكون ظهيرا للكفرين" [القصص].

اتفق المفسرون على صدر الآية .. أن الله تعالى الذي فرض عليك القرآن، أي
أنزله عليك منجما بلغة ، صريحا، عربية، لتبشر به الذين آمنوا، وتذكروا بما صدوا
عن سماعه وأعرضوا عنه، مع أن فيه من البلاغة والروعة والتحدى، والأخبر
والقصص والعبر ، فإن الذي فرض عليك هذا القرآن لرآذك إلى معاد، وقد تبنت
آراء المفسرين نقلًا عن صحابة رسول الله ﷺ في الجملة الجماعية لرأذك إلى معاد.

وهذه بعض هذه الآراء.

يقول تعالى أمري رسول الله ﷺ ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس وخبرا له
بأنه سيرده إلى معاد، أي: وهو يوم القيامة، فسأله عن أعباء النبوة.
وقد هذا قال: "إن الذي فرض عليك القراءات لرأذك إلى معاد" : أي أفترض عليك
آداءه إلى الناس.

"رأذك إلى معاد" أي: إلى يوم القيامة فيسأله عن ذلك ، كما قال تعالى:
"فَلذَّلَّ الْذِّيْنيْنِ أُرَسِّلُ إِلَيْهِمْ وَلا يُسْلِّمُ الْمُسْلِمُينَ" [الأعراف ]، وقال:
"يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرِّسُلِ فِي قُوَّةٍ مَّا ذَاءَ أَجْبَتْهُمْ فَأَلْبَسْهُمْ أَلْبَابَهُمْ" [الجبروت ]، وقال:
"وَحَاجَتْ بَرْقِيَّاتٌ وَالشَّهَادَةِ" [المائدة ]، وقال: "وَجَاهَتْ بَلْقِيَّاتٌ وَالشَّهَادَةِ" [النور ]:97، وقال
السدي عن أبي صالح عن ابن عباس: "إن الذي فرض عليك القراءات لرأذك
إلى معاد" يقول: لرأذك إلى الجنة، ثم سائلك عن القرآن. قال السدي وقال أبو
سعيد مثلها.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة ، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما:
"أرأيْكَ إِلَى مَعَادٍ" قال: إِلَى يُوم القيامة، ورواه مالك عن الزهرى. وقال الثوري عن الأعمش عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: "أرأيْكَ إِلَى مَعَادٍ" إلى الموت، ولذا طرقت عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وفي بعضها: لرادك إلى معدنك من الجنة. وقال مjahid: يجيبك يوم القيامة.

وكان روي عن عكرمة، وعن عطاء، وعن جبير، وعن قرية، وعن مالك، وعن صالح. وقال الحسن البصري: إِيَّاَلَهَّ، إِنِّي لِمَا عَمِلْتُ بِهِ بَلْ وَقَدْ رَجَعَتُ مِنْهُ نَفْسِي. قال: روى عن ابن عباس غير ذلك. كما قال البخاري في التفسير في صحيحه، حديثه محمد بن مقاتل، أَنَّاِيَ يَعْلَى، حدثنا سفيان العصى عن عكرمة، عن ابن عباس: "أرأيْكَ إِلَى مَعَادٍ" قال: إِلَى مَكَّة، وَهُكَذَا روَاهُ النَّاسِ. في التفسير في سنته، وأبو جرير من حديث يعلى، وهو ابن على الطنافسي - به. وَهُكَذَا رَوِىَ العُروَفَ عَنِ ابن عباس: "أرأيْكَ إِلَى مَعَادٍ" أي: لرادك إلى مَكَّة كما أخرجك منها. وقال محمد بن إسحاق عن مجاهد قوله: "أرأيْكَ إِلَى مَعَادٍ" إلى مَولَدَكَ مَكَّة، قال ابن أبي حاتم، وقد روى عن ابن عباس وَجَبَرُونَ بيِّنَ الجِزَائِرِ، وسعود بن جبير، وعَطْيَةُ الطَّنَافِسِ، فَخَرَجَ. وحدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر قال: قال سفيان: فسمعنا عن مقاتل من سبعين سنة، عن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة، فبلغ الحجفة اشتاق إلى مكة، فنزل الله عليه: "إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَرَادْكَ إِلَى مَعَادٍ" إلى مكة. وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية، وإن كان مجموع السورة مكة والله أعلم.

وقد قال عبد الرزاق، حدثنا معاذ، عن قتادة في قوله: "أرأيْكَ إِلَى مَعَادٍ" قال: هذا ما كان ابن عباس يكتبها. وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن نعمان القرائي أنه قال في قوله: "أرأيْكَ إِلَى مَعَادٍ" قال: إِلَى بيت المقدس. وهذا - والله أعلم - يرجع إلى قول من فسر ذلك بِيَوم القيامة؛ لأن بيت المقدس هو بيت المشر والمنشر والله الوحيق للصواب.

وجه الجمع بين هذه الأقوال: أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجموعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجله صلوات الله وسلامه.
على أنه، كما فسره ابن عباس بسورة: "إذا جاء نصر الله فالفتح ورثبت الناس يدخلون في دين الله أقواءاً فسيث محبب ربك واستغفروا فإنهم سكان نواباً" (القصص 12).

إنّه أجل رسول الله ﷺ نعى إليه، وكان ذلك جملة عمر بن الخطاب، ووافقه عمر على ذلك. وقال: لا أعلم منها غير الذي تعلم، ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قول الله تعالى: "أركذ إلى معاذ". بالموت، وثارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وثارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى النبلين الجنة والإنسان، ولأنه أكمل وأغفو وأشرف خلق الله على الإطلاق.

وقوله: "قل ريّ أعلم من جاء بأهدى ومن هو في صلب مبين" (القصص 18). القصة: أضين كل من خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم. قل بع أعلم بالمنتهى منكم ومنى، وسعليمون لم تكون عاقبة الدار، ولكن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.


والشهيد يبقى منيراً في هذا العرض، الذي نزل القرآن عليك يا محمد، رضي الله عنه إلى معاذ، ومهمًا اختلفت التفسير، فإنه سردته إلى مكان موعود في عالم الله، سواء إلى الجنة، أو إلى مكة، أو إلى بيت المقدس، فإن الله بيه ملكرت كل شيء، وهو القادر والمقدر، وتبقي هذه الآية معجزة كبيرة. أي: أن الله أنزل القرآن عليك، والله يردك إلى معاذ، والمكان الذي ترغب وتريد، وتسعي للوصول إليه، فليس غير الله تعالى يملك هذه الحقائق، ليس البشر الذين يمكن أن يحققوا لك العودة إلى ما كان قد ذهب منه، لكن الله وحده جلته قدرته، وعلت عظمته هو القادر على كل ذلك، أنزل القرآن لتبغله إلى الناس، ثم يردك إلى معاذ - ما أحببت الله - أن تكون معاذك - والله أعلم.

(1) تفسير القرآن العظيم. ابن كثير، ص 1428 - 1427. طباعة دار ابن حزم.
31- القرآن مجمع الأمثال

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل، ولين جنتهم بقافية ليقولن: 
الأذين صلىوا وإن أضار إلا مبت효ون (10) كذلک يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون (11) [الروم].

أي بنا لهم الحق ووضعناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال ليبينوا الحق ويبعوه.

إن الله تعالى قد أجاز للناس في القرآن من الأمثال، والعبر والأخبار، والوجوهات، والآثارات، والمؤن، والفروض، والنواهي، وبين الناس في هذا القرآن الحلال والحرام، وبينهم أصلهم وناقلهم من عالم الذر إلى وجوههم في بطن أمها، وخلقهم وخلقهم من ظهور أبائهم، ونقلهم في فترات الحمل، في ظلمات بعضها فوق بعض، ويكون الله تعالى المخلوق، وقد ذكره في مواقيف كثيرة منها قوله تعالى: 

ولقد خلقنا الإنسان من سُلسا من طين (12) ثم جعله نطفة في قرارة مكون (13) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسوا العظام ثم نشأناه علقة آخر فصار الله أحسن الخلقين (14) ثم إنكر بعد ذلك لميئوت (15) ثم إنكر يوم القيامة تغعوزو (16) ولقد خلقنا فوفقك سبع طرائق وما كنا علّمك للخلق عبدين (17) [المؤمنون]، وتتكرر الصورة بأساليب وعروض أخرى، ومن ثم دخل الإنسان في عالم البرزخ بعد الموت حتى يوم الحشر، فإن الجنة ونعمتها أو إلى النار وسعيرها.

لقد بين الله تعالى للناس كل هذا بيان مبين بليغ متنا ببلاغة العرض قال تعالى:

إن الله لا يسكته أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها فامًا ألبتهء آمنًا.
قيلمون أن الحكيم من رهبان، وأما الذين صقوروا فيقولون: مادأ أراد الله بهذا، فلا يجوز به، يجهد به، وهما يضيقون عليه، فهل يقولون ما أمر الله به، أي أن يوصي ويعبدون في الأرض.

وأولئك هم الخسرويون

وقوله تعالى: «الذين كفروا وصدوا على سبيل الله أضل أعمالهم» و"الذين" أمنوا وعجلوا الصبحان وامتنوا بهما نزل على محب، وهو الحق من درهم كفر عنهم سيناتهم وأصّل بهم ذل، فأن الذين كفروا أثغروا النيل وأن الذين أمنوا أثغروا

أحق من رهبان كذلك يضرب الله للكاس أمنالهم

[محمد]

ويقال أن القرآن من كل مثل، ومع هذا الذي أوردنا جزءا بسيطا منه، فإن الكافرين ومع ذكر الآيات المعجزات في هذا القرآن فإنهم يقولون إن أنتم إلا مبطلون، أي لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقراها أو غيرها لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر بقوله تعالى: "أقررت الساعمة وأثرت المجرم، وإن تروا آية يعرضوا ويكفروا يحكم" و"وكذبوا وأتبعوا أهواءهم وعكر أمر مستقيم" ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مرفوع، حكمة بليغة مما تغلب النذر فتولى عنهم يوم بدع الداع إلى شر، نسج عن

[القمر]

وكما قال تعالى: "إن الذين حقوى عليهم صميمت ربك لا يؤمنون ولو جاءهم صميم آية حتى يروا العذاب الأليم" [يونس]، وهذا قال هنا: "كذللك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون" فأصبر إن وعد الله حق.

[الروم]

أي أصبر على خلافتهم وعندما، فإن الله منجز للك ما وعدك من نصره، إياك.

وجعله العاقبة لك ولين اتبع في الدنيا والأخيرة (1)

(1) تفسير القرآن العظيم ص 1458، 1459.
22- القرآن الحكيم

(القرآن، والقرآن الحكيم، فإنك لمن المرسلين على سبيل مسقيم،
تفرع الغريب الرجم، لتبدو قومًا ما أندى، أباوهم فهم عينلون، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) [يس].

قول في (يس) كالفول في الحروف المقطرة الواقعة في أوائل الصور ومن جملته: أنه اسم من أسماء الله تعالى، رواه أشبع عن مالك قاله ابن العربي، وفيه عن ابن عباس أنه: يا إنسان بلسان الحبشة، وعنه أنها كذلك بلغة طيء، ولا أحسب هذا يصح عنه؛ لأن كتابتها في المصادر على حرفين ينافي ذلك.

ومن الناس من يدعو أن (يس) اسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم. وبنى عليه إسماعيل ابن بكر الجميري شاعر الرافضة المشهور عندهم بالسيد الحميري قوله:

يا نفس لا تتحلى بالرود جاهدة على الموت إلا آل ياسين.

ولعله أحد من قوله تعالى في صورة الصفات: (سُنَّمُ عَلَّ إِلَى يَاسِينَ) [الصفات] فقد قيل: إنه يعني آل محمد، ومن الناس من قال: إن يس اختزال ياسين حاليا، خليطا للنبي صلى الله عليه وسلم. ويوهيه نطق القراء بها بنون، ومن الناس من يسمى ابنه بهذه الكلمة، وهو كثير في البلاد المصرية والشامية، ومنهم الشيخ يس بن زيد الدين العايمي المتنبي، سنة 1061، صاحب التعاليق، فإنه يكتب اسمه جمع ما ينطق به لا يعرف التهجي، وإن كان الناس يفعلون فيكتبون بحرفين كما يكتب أول هذه السورة. اسم مؤلف هذا البحث يس وهو من بلاد الشام.

قال ابن العربي: قال أشبع سالت مالكاه هل ينغي لأحد أن يسمى ياسين؟ قال: ما آراء ينغي لقول الله تعالى: (يس) والقرآن الحكيم (يقول هذا اسمي ياسين، يس). قال ابن العربي: وهو كلام بديع، لأن العبد لا يجوز أن يسمي باسم الله إذا كان فيه معنى منه كالتوله: عالم وقادر، وإنما من مالك من
السمية بهذا؛ لأنه اسم من أسماء الله لا يدرى معناه، فربما معناه ينفرد به الرأب، فلا يجوز أن يقدم عليه العبد فيقدم على خطر، فاقتضى النظر رفعه عنه. أ. هـ، وفيه نظر.

والنطق باسم: يا، بدون مد تخفيف كما في «سِكَبِيْعُصَ» و«الْقُرُونُ الْحَكِيمَ».

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صُرْطٍ مُّسَتَّقِيمٍ.

القسم بالقرآن كتابة عن شرف قدره ووتعظيمه عن الله تعالى. وذلك هو المقصود من الآيات الأولى من هذه السورة، والمقصود من هذا القسم تأكيد الخبر مع ذلك التوبيه.

القرآن: علم بالغة على الكتاب الموحي به إلى محمد ﷺ من وقت مبعثه إلى وفاته للإعجاز والتشريع، وقد تقدم في قوله تعالى: "وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَنْطَوْنَ مِنْ فُرُءٍ" [يونس: 21].

والحكيم: يجوز أن يكون بمعنى الحكم بفتح الكاف: أي المجموع ذا إحكام، والإيحام: الإحتمال بما فيه الشيء فيما يراد منه، ويجوز أن يكون بمعنى صاحب الحكمة، ووصفه بذلك مجاز عقلي لأنه محتو عليها.

وجملة "إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" جواب القسم، وتأكيد هذا الخبر بالقسم وحرف التأكيد ولام الابتداء باعتبار كونه مراداً به التعرض بالشركين الذين كذبوا بالرسالة، فهو تأييس للنبي ﷺ، وتعرض بالشركين، فالتأكيد بالنسبة إليه زيادة تقرير وبالنسبة للمعنى الكافي لرد إنكارهم، والنكب لانتزاح.

"عَلَى صُرْطٍ مُّسَتَّقِيمٍ" خبر ثان لـ (إن) أو حال من اسم (إِن) والمقصود منه: الإيقاظ إلى عظمة شريعته بعد إيثاث أنه مرسل كغيره من المرسلين.

و (على) للاستعمال المجازي الذي هو بمعنى التمكن كما تقدم في قوله: "أوَلِيْبَكَ عَلَى هُدَىٰ مَّنْ رَبِّكَ" [البقرة: 5]، وليس الغرض من الخبر به عن المخاطب إفادة كونه على صرط مستقيم؛ لأن ذلك معلوم حصوله من الآخبار من كونه أحد المرسلين، فقد علم أن المراد من المرسلين، المرسلون من عند الله.
ولكن الغرض الجمع بين حال الرسول ﷺ وبين حال دينه؛ ليكون العلم بآن دينه صراط مستقيم علما مستقلا لا ضمنا.
والصراط المستقيم: الحد ي الوصول إلى الفوز في الآخرة. وهو الدين الذي بعث النبي ﷺ، والخلق الذي لقن الله شبه طريق مستقيم لا أعوجاج فيه في أنه موثق به في الإيضاح إلى المقصود دون أن يتردد السائر فيه.
فالإسلام فيه الهدى من الحياة، فتبعه كسائر في صراط مستقيم لا حيرة في سيرته عفوية حتى يبلغ المكان المراد، والقرآن حاوي الدين فكان القرآن من الصراط المستقيم، وتنكره: صراط للتوصل إلى تعظيمه.

راجع 

بتلزيل الديرشي الرجيم ﷺ لتنزيل قوماً ما أنذرء اباوهم فهم غنفلون ﷺ.

إلى: القرآن الحكيم؛ إذ هو المنزل من عند الله بعد أن استوفي القسم جوابه رفع الكلام إلى بعض الوصائد من القسم وهو تشريف القسم به، فوسام بأنّه تنزيل العزيز الرحبم. وقد قرأه الجمهور بالرفع على أنه خير مثبت محذوف للعلم به، وهذا من مواضع حذف المسند إليه الذي سماه السكاكين: الحذف الجارى على متابعة الاستعمال في أمثاله. وذلك أنهم إذا أجزوا حديثا على شيء ثم أخبروا عنه التزموا حذف ضميره الذي هو مسند إليه إشارة إلى التنويب به كأنه لا يتفرّق كقول إبراهيم الصويل: أو عبد الله بن الزبير الأسدي. أو محمد بن سعيد الكاتب.
وهى من أبيات الحماسة من باب الأضياف:

سأشكر عمرا إن ترآخت مينتي أياديًّا من تمنى وإن هى خلت
فتأتي موجب الغنى عن صديقه ولا ظهر الشكوى إذ النعم زلت

تقديره: هو فتى. وقرأه ابن عامر وحجة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بنصب: تنزيل على تقدير أعني. والمعنى: أعني من قسمى قرآنا نزلته، وتلك العلمية زيادة في التنويب بذاته وهي تعادل حذف المسند إليه الذي في قراءة الرفع.
والتنزيل: مصدر يعني المفعول أفخر عنه بالمصدر للمبالغة في تحقيق كونه نزل.
وأضيف التنزيل إلى الله عبنوان صفتى {العزيز الرجيم} ﷺ؛ لأن ما استلم عليه القرآن لا يعد أن يكون من آثار عزة الله تعالى وهو ما فيه من حلم الناس على
الحق، وسلوك طريق الهدى دون مصانعة ولا ضعف مع ما فيه من الإنذار بالوعيد على العصيان والكفر.

وأن يكون من آثار رحمة، وهو ما في القرآن من نصب الأدلة وتقريب البعيد، وكشف الحقائق للنااظرين مع ما فيه من البشارة للذين يكونون عند مرضاة الله تعالى، وذلك هو ما ورد بيانه بعد، إجمالاً من قوله: "لَنْ تُنَذِّرُ قَوْمِنَآ أَنْذَرْهُمْ فَهُمْ غَفَّظُونَ"، ثم تحصيلاً بقوله: "لَقَدْ حَقَّ الْقُوُّلُ عَلَى أُولَٰٓيَ الْأٓمَرَّ مِنْهُمْ مَعَ سَبِيلٍ مُّقْفَى"، ويقوله:

"إِنَّمَا تَنَذِّرُ مِنْ أَئِمَّةِ الْيَوْمِ الْأٓخَرِ وَحَشَّى أَبَاهُمْ بِالْجُبُورِ قَبِيرًا مَّغْفُورًا وَأَخْرِجْ سَكِينَ".

فاللام في "لَنْ تُنَذِّرُ،" متعلقة بالنزيل، وهي لام التعليل تعليلاً لإنزال القرآن.

واقتصر على الإنذار؛ لأن أول ما ابتذل به القوم من التبليغ إنذارهم جميعاً ما تضمنه أول سورة نزلت من قوله: "كَلَّا إِنَّ الآٓمَنَّينَ لِيُطْلِقُونَ رَأْيَهُمَّ".

[الملك] وما تضمنته سورة المدثر ؛ لأن القوم جميعاً كانوا على حالة لا ترضي الله تعالى، فكان حاكم يقضي الإذار ليسبرعوا إلى الإقلاع عما هم فيه مرتكبون، والقوم المعصون بأنهم لم ينتذرون آباؤهم. إذا العرب العدانيون فإنهما مضت فيهم قروناً لم يأتهم فيها نذير، ومضى آباؤهم لم يسمعوا نذيراً، وإذا يبتعد عد أيائهم من جدهم الأعلى في عمود نسيهم الذين يميزون به جدًا ما هو عدنان ؛ لأنه جد العرب المستعمرة، أو أريد أهل مكة مكة وما حولها، فكانوا هم الذين أراد الله أن يلتقوا الذين، وأن تتأصل فهم جامعة الإسلام، ثم كانوا هم حلة الشرعية، وأعوان الرسول في تبلغ دعوته وتأليده، فإنهم إلى أهل يثرب، وهم قحطانيون، فكانوا أنصاراً، ثم تتابع إمام قبائل العرب، وفرع عليه قوله: "فَهُمْ غَفَّظُونَ" أي فقبض على عدم إنذار آبائهم أنهم متصدكون بالغفلة وصفاً تابتاً، أي هم غافلون عما تأتي به الرسل والشرائع فيهم في جهالة وغواية، إذ تراكمت الضلالات فيهم عامة فعاماً وجيلاً.

فهذه الحالة تشمل جميع من دعاهم النبي ﷺ سواء من آمن بعد ومن لم يؤمن. والغفلة صريحة الذهول عن شيء وعدم تذكره، وهي هنا كتابة عن الإهمال.
والإعراض عما يحق التنبيه إليه كقول النابغة:

"يقول أناس يجهلون خليقتى لعل زيدا لا أباك" ١ حافظ

» لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ٢ حاذ١ تفصيل حال القوم الذين أرسل محمد ﷺ ليذرهم فهم قسمان: قسم لم تفع فيهم النذارة، وقسم اتبعوا الذكر وخافوا الله فانتفعوا بالنذارة، وبين أن أكثر القوم حقت عليهم كلمة العذاب، أي: علم الله أنهم لا يؤمنون بما جبر عليه عقوبهم من النفور عن الخير، فحقق في علمه وكتب أنهم لا يؤمنون. فالفاء لتفريع انتفاء إيمان أكثرهم على القول الذي حق على أكثرهم.

و» حق: يعني ثبت ووقع فلا يقبل نقضا، والقول مصدر أريد به ما أراده الله تعالى بهم، فهو قول من قبل الكلام النفسي، أو مما أوحى الله به إلى رسوله، والتعريف في القول تعريف الجنس، والمعلوم مذكور لدلالة تفريعه عليه والتقدير: لقد حق القول، أي القول النفسي، وهو المكتوب في علمه تعالى أنهم لا يؤمنون فهم لا يؤمنون ٢.

١ لا أباك: هكذا وردت في الأصل. ويستعمل وزن البيت إذا قيل: لا أباك.
٢ البحث كله منقول من: تفسير التحرير والتخوير: لسماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. دار ابن سحنون، تونس ١٣٣٩ / ١٩١٩م، ١٣٢ / ١٤٤٩.
القرآن ذي الذاكر

(ص ٣٣) وَأَلْقَرَّانَ ذِي الْذَّاكلِرِ (١) [ص] سميت في المصاحف وكتب التفسير والأثار عن السلف سورة (صاد) كما ينطق باسم حرف الصاد، تسمية لها بأول كلمة منها في صاد، بصاد بلف بدل ساكنة سكون وقف، شأن حروف التهجئ عند التهجئ بها أن تكون موقوفة، أي ساكنة الأعجاز. وأما قول المعرف

يذكر سليمان مثلاً:

وهو من سخرت له الإنسان والجنة، بما صح من شهادة صاد

إذا هي كسرة القافية الساكنة تغير إلى الكسرة؛ لأن الكسر أصل في التخلص من السكون، كقول أمرؤ القيس:

عرفت بعيرى يا امرأ القيس فانزل.

وفي الاتفاق من كتاب جمال القراء للسخاوي: أن سورة ص تسمى أيضا سورة داود، ولم يذكر سند له بذلك وكتب اسمها في المصاحف بصورة حرف الصاد، مثل سائر الحروف المهقة في أوائل السور حيث لما كتب في المصحف وهي مكية في قول الجميع، وذكر بالاتفاق أن الجمع حكى قولا بأنها مدنية. قال السبوعي: وهي خلاف حكایة جماعة الإجماع أنها مكية. وتعد البلدان في كتاب العدد قول: بأنها مدنية وقال: إنه ليس صحيح.

وهي السورة الثامنة والثلاثون في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة:

(١٢٨) آفْتَرِّبِ أَلْشَاعَةٍ، وَصِبِّر سُورَةَ الأُعْرَافَ.

ص: القول في هذا الحرف كقول في نظائره من الحروف المهقة الواقعة في أوائل بعض السور بدون فرق، إنها مقصودة للتهجئ تحديا للبلاغة العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن وتركوا عليهم إذ عجزوا عنه وأتفق أهل العلم على أن ص ليس بآية مستقلة، بل هي في مبدأ آية إلى قوله: ذَٰلِكَ الْذَّاكلِرِ، وإنما لم تعد: ص

(١) تفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور ١١/ ٢٠٠٢. ٢٠٠٢.
آية: لأنها حرف واحد كما لم يعد: ق، و: ن آية.

والنفران ذي الزكير وصف بذئ الذكر، لأن ذي تضاف إلى الأشياء الرفيعة، فتجري على منتصف مقصود التوهو به.

وأي الزكير: التذكير. أي تذكير الناس بما هم عنه غافلون، ويجوز أن يراد بالذكر ذكر الإنسان، وهو على معنى: الذي يذكر بالنائب للنائب، أي والقرآن المذكور، أي المدعو استحق الثناء على أحد التفسرين في قوله تعالى: "لقد أنزلنا إليكم سجنينا فيزكريم" (الأنبياء) أي شرفكم.

وقد ترد المفسرون في تعني جواب القسم على أقوال سبعة أو ثمانية، وأحسن ما قيل فيه هنا أحد وجهين:

أولهما: أن يكون مخوفاً دل عليه حرف ص، فإن المقصود منه التحدث بإعجاز القرآن وعجزهم عن معارضته بأنه كلام بلغتهم ومؤلف من حروفها، فكيف عجزوا عن معارضته. فالقدير: القرآن ذي الذكر أنه لمن عند الله هذا عجزهم عن الإتيان به.

وثانيهما: الذي أرى أن الجواب مخوف أيضاً دل عليه الإضراب الذي في قوله: "بل الذين كفروا في عزة وشاقاق" (ص) بعد أن وصف القرآن ذي الزكير؟ لأن ذلك الوصف يشعر بأنه ذكر وموقص للعقول، فكانه قيل: إنه لذكر ولكن الذين كفروا في عزة وشاقاق، يجدون أنه ذكر ويقولون: سحر مفترى، وهو يعملون أنه حق كقوله تعالى: "فإنه لا يكذبونك وليكن آل طيبيين يباينت الله تجحدون" (الأنعام)، فجواب القسم مخوف يدل على السياق، وليس حرف ص هو المقص عليه مقدماً على القسم، أي ليس دليل الجواب من اللفظ بل من المعنى والسياق.

والغرض من حذف جواب القسم هنا الإعراض عنه إلى ما هو أجدر بالذكر، وهو صفة الذين كفروا وكذبوا بالقرآن عنادا أو شاقاقا منهم (1). وبذلك فإن هذه

(1) التحرير والتنوير 2004، 20.
الآية الكريمة بكلماتها القليلة دليل على عظمة هذا الكتاب في صياغته وفي كلماته وفي جلبه، وتُحد بالغ التحدي للذين كنوا بأنه من لغتهم، ومن أقوالهم... ومن تركيب كلماتهم، ولكنهم بجانبه يفسرون ويعجزوا ويعجزون أن يقابلوا هذا التحدي أولاً، أو في إتيان المتشابه به بعد ذلك. والله أعلم.
24 - القرآن مجمع الأمثال

ولقد ضربنا للناس في هذَا القرآن من كل مثلى لعلهم يتمعّدون ۚ قراءًا

عربيةً غير ذي عوج لعلهم يبقون ۚ [الزمر].

كما في سفر الآية السابعة والخمسين من سورة الروم، فقد تركت بذات النطق صدر هذه الآية ۲۷ من سورة الزمر ولكن الانعطاف الكبير في نهاية الآية تلك ونهاية الآية هذه. فبعد أن ذكر الله تعالى أنه جل شأنه قد ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل راح الذهن في متابعة الآية إلى الذين كنروا الذين يصدون عن ذكر الله، ويصف حالًا من حالهم عند سماعهم هذا القرآن، وأمثال هذا القرآن جواب متسرع، ورد فعل آنئ، ومن غير تفكير أو تدبر بقوته: ۚ إنَّ أنتُ قد مبتلون ۚ [الروم]، وفي هذه الآية ۵۸ تكرار المثل الأول ۖ ولقد ضربنا للناس في هذَا القرآن من كل مثلى ۚ [الروم: ۵۸]، ولكن بعد ذلك أن هذه الأمثال التي يعجزون أن يعرفوها إلا جاء تبينا لأفانتهم، ومحريضا لعقوبهم، وتنذيرا لهم فإن أُفانتوا، وذكروا وعرفوا أنه الحق، فهذا هو المراد من ذلك. وبعد ذلك يقرب الله تعالى الصورة أكثر فأكثر، ليحدد من هؤلاء الذين يخططهم الله تعالى، ومن هم الذين يصدون، ومن هم الذين يدعوهوللذكير. إنهم العرب. قوم مهدٌ أصحاب اللغة العربية، وأساطيرها، وعباقرها، وبلغائها. هذا القرآن الذي ضرب الله به للناس من كل مثل، إنه من لغتكم ومن أقوالكم، وما عرفتم وتكلمتم فهو غير ذي عوج ويكذب ثانية لعلهم يتقون، عندما يعرفون أن الحق

من ربهم.


(۱) تفسير التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ۱۱ / ۳۹۶، ۳۹۷.
وتاكيد الخبر بلام القسم، وحرف التحقيق منثور فيه إلى حال الفريق الذين لم يتدبروا القرآن وظفوا فيه واتكرروا أنه من عند الله.


وجست أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن لأجل لفت بصائرهم للتدبر في ناحية عظيمة من نواحي إعجازه، وهي بلاغة أمثاله، فإن بلغاءهم كانوا يتناسون في عرفة الأمثال وإصابة الخضر من تشبه الحالة بالحالة.

وتقدم هذا عند قوله تعالى: "وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَلْقَى أُولُو الْقَارِئِينَ إِلَّا سَكَبْرًا (٢٦) "[الإسراء]، وتقدم في قوله تعالى: "وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ (٥٨) "[الروم] ومعنى الرجاء في "لِعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" منصرف إلى أن حاهم عند ضرب الأمثال القرآنية كحال من يرجو الناس منه أن يتذكر، وهذا مثل نظائر هذا الترجيح الواقع في القرآن، وتقدم في سورة البقرة.

ومعنى التذكر: التأمل والتدرير ويتكلص لهم ما هم غافلون عنه سواء ما سبق لهم به علم فنوسه وسائله عنه بسفسف الأمور، وما لم يسبق لهم علم به مما شأنه أن يستبصره الرأي الأصيل حتى إذا انكشف له كان كالأشياء الذي سبق له علمه، وذلله عنه. فمعنى التذكر معنى بديع شامل لهذه الخصائص.

وهذا وصف القرآن في حد ذاته إن صادف عقل صافيا ونفسا مجرد على الكبارة، فتذكر به المؤمنون به من قبل، وتذكر به من كان التذكر سببا في إيمانه بعد كفره بسرعة أو بطء، وأما الذين لم يتذكروا به فإن عدم تذكرهم لنقص في فطرتهم وتشكي العذاب لأنابتهم.
وكلذك معنى قوله: «أَلَمْ يَتُقَوَّبُ». 
والمقصد من هذه الحال التورك على المشركين، حيث تتلقوا القرآن تلقى من سمع كلانة للفهم كأنه بلغة غير لغته. لا يعبرنا بسلايب إليه. فإنا بنكوله تعالى: «فَإِنَّا نَسْرِينَهُ» [الدخان، مع التحديد لهم بأنهم عجزوا عن معارضته وهو من لغتهم، وهو أيضا ثناء على القرآن من حيث إنه كلام باستقامة ألفاظه، لأن اللغة العربية أصح لغات البشر.
والصوص آخر الصوص أريد به: اختلاط المعاني دون الأعيان. وأما الصوص يفتح الصوص الذي يفتحه، وهذا مختار أمة اللغة، مثل ابن دريد والزهري والزجاج والفيروز بن أبيه، وصحة المروقي في شرح الفصيح أنهما سواء، وقد تقدم عن قوله تعالى: «وَلَنَّ أَتْبَعَنَّكَ عُوْجَا» [الكهف]، وقوله: «فَلَا تَرَى فِي هَٰذَا عَجَّا وَلَا أَمَّا» [الله: 171].
وأما الكلمة النهائية بعد أن أثني عليه باستقامة ألفاظه:
ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة إلى وصفه بالعووج عنه التوسل إلى إيقاع: عوج، وهو نكرة ما هو في سياق ما هو يعني النفي وهو كلمة: غير، ففيد انتقاء جنس العوج على وجه عموم النفي أي ليس فيه عوج قط؛ ولأن لفظ: عوج، مختص باختلاف المعاني، يكون الكلام نصا في استقامة معاني القرآن؛ لأن الدلالة على استقامة ألفاظه ونظام قد استفدت من وصفه بكونه عريبا، كما علمته آنفا.
بضرب الأمثال، لأن في الأمثال عبارة بأحوال الممثل به فهي مفهية إلى التذكر، والانقاء أنسب بانتقاء العواج، لأنه إذا استقامت معانيه، واتضح كأن العمل بما يدعو إليه أيسر وذلك هو التقوى، انتهى.
25 - القرآن العربي - البشير النذير

في حكمه: تنزيل من الرحمن الرحيم، كتب فصيّلتها، فأيّنتها، قرأتًا عربيًا لقُومي:

يعلمانا شيرًا وتنزيلًا فأعرضا أحكامهم، فهم لا يسمعون (فصلت)

فولو: الرحمن الرحيم، كتب عنه، وقوله: كتب فصيّلتها، أينها، سمعونا

فأطروخ الوقف في الحروف الواقعة في فاتحة هذه السورة كالقول في: السورة.

ورد في هذه الآيات اسم القرآن والكتاب، وصفة التنزيل، وقد تكرر هذه
الأمور المتعلقة بلفظ القرآن كاسم الكتب ويتلوج بعض الصفات التي دلت عليه
كما هي هنا، أو كالوحى والهدى، وغيرها من الصفات.

افتتح الكلام باسم نكرة فما في التنزيل من التعظيم، والوجه أن يكون (تنزل).

مبتداً سوّغ الابتداء بلى لما في التنزيل من معنى التعظيم، فكانت بذلك كالموصوفة.

ووقوله: الرحمن الرحيم، كتب عنه. وقوله: كتب فصيّلتها، أينها، سمعونا

فحصل من المعنى: أن التنزيل من الله كتاب وأن صفة: فصيّلتها، أينها،

موسمًا بكونه: قرأتًا عربيًا. فحصل من هذا الأسلوب أن القرآن نزل من

ال الرحمن الرحيم مفصلاً عربيًا.

ولكن أن تجعل قوله: من الرحمن الرحيم، في موضوع الصفة للمبتدا، وجعل

قوله: كتب فصيّلتها، كتب عنها، وعلى كلا التقديران هو أسلوب فخم، وقد مضى

مثله في قوله تعالى: من المصص، كتب أنزل إليك (الأعراف)، والمراد: أنه نزل,

فالصدور به معنى المعقول كقوله: وأنه، لتكون غالبًا، من القرآن، زينًا به آلهة

الآمن، هو مبالغة في كونه فعل الله تنزيله، تعقيباً لكونه موحى به،

وليس منقولاً من صحف الأولين، وتنكر (تنزل)، و (كتبت). لإفادة

التعظيم.

والكتاب: اسم لمجموع حروف دالة على ألفاظ مفيدة، وسمى القرآن كتابًا،

لأن الله أواحه بالفاظه، وأمر رسوله بإن يكتب ما أوحى إليه، ولذلك اتخذ
الرسول ﷺ كتابه يكتبون له كل ما ينزل عليه من القرآن

وإثبات الصفتين: {الرحمن الرحيم} على غيرهما من الصفات العالية للإيمان إلى
أن هذا التنزيل رحمة من الله يعبدها؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، كقوله تعالى:
"قد جاء حكم بنيت من رزقكم وهدى ورحمة" [الأنعام: 157] وقوله تعالى:
"وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" [الأنبياء]، وقوله: "أولم يكن بهم أنت
أرسلنا على بني إسرائيل بنتين على هما إبن في ذلك رحمة وذكاء إلوم
قوم يومئذ" [العنكبوت].

والأجمع بين صفتي: {الرحمن الرحيم} للإيمان أن الرحمة صفة ذاتية الله تعالى

وأن متعلقة منتشر في المخلوقات كما تقدم في أول سورة الفاتحة والبسمة.

وفي ذلك إيام إلى استحاققة للذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب، بأنهم
أعرضوا عن رحمة، وأن الذين اهتدوا بهم أهل الرحمة؛ لقوله بعد ذلك: "قل
هو للذين آمنوا هذيفان وشفاء والذين لا يؤمنون في أذانهم وقرء وهو
عليهم عمي" [فصلت: 44] و

ومعنى "فصلت: آمنت": بينت، والتفصيل: التبين والإخلاص من الالتباس.

والمراد: أن آيات القرآن واضحة الأغراض لا تنتبس إلا على مكابر في دلالة كل
آية على المقصود منها، وفي مواقعها وتميز بعضها عن بعض في المعنى باختلاف
فنون المعاني التي تشمل عليها.

ومن تفصيله أنه كان بلغة كثيرة المعاني، واسعة الأففان، فصيحة الألفاظ،
فكانت سلاله من التناسب الدلالة، وانغلاق الألفاظ، مع وفرة المعاني غير المنفية
في قلة التراكيب، فكان وصفه بأنه عربي من مكملات الإخبار عنه بالتفصيل،
وقد تكرر التنويه بالقرآن من هذه الجهة كقوله: {ليسان عنرو مبين} [الشعراء]
ولذا فرع عليه ذئذ الذين أعرضوا عنه بقوله هنا: { فأعرض أصحبهم فهم لا
يشمرون} [فصلت].
والقرآن: الكلام المقوّة المتلوّ، وكونه قرآناً من صفات كماله، وهو أنه سهل الحفظ، سهل التلاوة، كما قال تعالى: "ولَتَؤْمِنُوا بِالْآياتِ الَّتِيِّ أَنْزَلْنَاهَا وَبِالِلَّذِينَ مَعَهُ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ" (القمر: 17)؛ ولذلك كان شأن الرسول حفظ القرآن عن ظهر قلب، وكان شان المسلمين الاقتداء به في ذلك على حسب الهمم والإمكانات.

وكان النبي يشير إلى تفضيل المؤمنين بما عندهم من القرآن، وكان يوم أحد يقدم في جد شهدائه من كان أكثرهم أخذا للقرآن تنبيها على فضل حفظ القرآن زيادة على فضل تلك الشهادة.

وانتصب "قُرُونَاتٌ" على النعت المقطاع للاختصاص بالمدح، ولا كان مرفوعاً على أنه خبر ثالث أو صفة للخبر الثاني، فقاله: "قُرُونَاتٌ" مقصود بالذكر للإشارة إلى هذه الخصوصية التي اختص بها من بين سائر الكتب الدينية، ولولا ذلك لقال: كتاب فصلت آياته عريماً كما قال في سورة: "يَلِسَانُ عِرْبَى مُّيَّنُواٌ (2)

[الشعراء]، ولك أن تجعله منصوباً على الحال، وقاله "يَلْقَوْنَ يَعْلَمُونَ" صفة لـ "قُرُونَاتٌ"، أي كانا قوم يعلمون، باعتبار ما أفاده قوله: "قُرُونَاتٌ عَرْبَى" (3) من معنى وضوح الدلالة، وسطوع الخجالة، أو يتعلق "يَلْقَوْنَ يَعْلَمُونَ" بقوله: "يَلْقَوْنَ يَعْلَمُونَ" دون غيرهم، فكان لهم بحالة بال نحو المقابل، فهو لا ينزل إلا لهم أي فلا بد إلا أعرض عن فهمه المعاندون فإنهم قوم لا يعلمون. وهذا كقوله تعالى: "وَمَا تَغْفِرُ الْآثَرُ وَالنَّذَرُ عَنْ قُوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (64) (يونس)، وقوله: "وَمَا يَغْفِرُهَا إِلَّا الْعَلْمُوُّونَ (65) (العنكبوت)"

[العنكبوت]

والبشير: اسم للمبشر، وهو المخبر بخبر يسر الخبر. والتذري: الخبر بأمر مخوف عليه، والبشير يشمل عليه من الآيات البشارة للمؤمنين الصالحين، وبالتنذير فيما فيه من الوعيد للكافرين وأهل المعاصي. فالكلام يشبه البلغ. وليس بـ "بَشِيرًا" و "تَذِيِّرًا" اسم فاعل؛ لأنه لو أريد ذلك لقيل: مبشراً ومنذراً، والجمع بين "بَشِيرًا وَتَذِيِّرًا" من قبل محسن الطباق.
وانصبتْ بِشَيْرَةٍ» على أنه حال ثانية من كتاب أو صفه لـْ(ٌفَرِئَا» وصفة
الحال في معنى الحال فالأولى كونه حالا ثانية.
وجيء بقوله: ْ(وَنُذِّرْنَا) مطرعا بالواو للتكنيه على اختلاف موقع كل من
الحالين، فهو يشير لقوم وهم الذين أتبعوه ونذير لآخرين، وهم المعرضون عليه،
وليس هو جامعا بين البشارة والنذارة لطائفه واحدة، فالواو هنا كالواو في قوله
تعالى: ْ(تَبِينَتْ وَأَبَكَرَ) [النحل: ٥] بعد قوله: ْ(مَسَأَلَتْ مُؤْمِنَتْ فَبَيَّنَتْ تَبَيَّنَتْ
عَدَّاتَ سَيْبِحَتِهَا) [النحل: ٥]
وتفرع في ْ(فَأَغْرَضَ أَكْثَرُهُمْ) على ما ذكر من صفات القرآن، وضمير
ْ(أَكْثَرُهُمْ) عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون، كما هي عادة القرآن في
غير موضع.
والمعنى: ْ(فَأَغْرَضَ أَكْثَرُهُمْ) أكثر هؤلاء عما في القرآن من الهدى فلم
يهتدوا، ومن البشارة فلم يعنا بها، بالنذارة فلم يجذرواها، فكانوا في أشد
الحمقة، إذ لم يعنوا بخير، ولا حذروا الشر. فلم يأخذوا بالحيلة لأنفسهم وليس
عالدا (ْلِقُومٍ يَعْلَمُونَ) لأن الذين يعلمون لا يعرض أحد منهم، والفاء في قوله:
ْ(فَهَمُ لا يَسَمَّعُونَ) للتفرع على الإعراس. أي فهم لا يلقون أسماعهم
للقرآن فضلا عن تدبره، وهذا إجمال لإعراضهم، وتقييم المسند إليه على المسند
الفعلي في ْ(فَهَمُ لا يَسَمَّعُونَ) دون أن يقول فلا يسمعون لإفادة تقوى الحكم
وتأكيده.
36- القرآن الغائب

قول الله تعالى: {وَقُلْ النَّارُ كَيْفَ ظَلَّ مُضْرِعاً لِلَّذِينَ كَذَّبُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَإِلَّا لِّلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ}.

فنصت:

حجة المسلمين كتاب الله تعالى. فهو الحق، وهو المحفوظ من لدن حكيم عليم قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُرِئُونَ الْأَزْكَرَ وَإِنَّا نَخْفِيَّونَ} [الحجر]. وهو الغائب في كل حدث بين المسلمين وخصوصهم، وتولدت قناعات لدى الكافرين الذين يحاجون المؤمنين بأن القرآن إذا ذكر دفع حجاجهم، وأبطل تحققاتهم وأبان لهم الطريق الصحيح، وإزاى هذا الحال فإن الكافرين الذين لم يعد لديهم ما يقولونه إزاء ذكر القرآن قد اتخذوا أمورا تواصلوا بها، واتتقعوا بها، وهم لا بد لهم من إتباع القول في كل موقف مع المؤمنين. حتى أن الرسول ﷺ كانت حجة القرآن. فإذا عرض عليه الجاهلون بهذه الرسالة، وأهدافها ومراهمها عرضوا عليه متاعا في الدنيا، ملكا، ومالا، ونساء وطبا، وهذا ماكروه له لأغراه وغوايته لتترك هذا الذين، فإنهم يحاجهم بالقرآن، والغالب حجة، والغالب ما ذكر في ذلك الموقع أو هذا؟ ليبين لهم معجزته التي خصها الله تعالى بها دون غيره من المسلمين، أمده بالحق المبين، أمده بالقرآن العظيم.

ولما غلب الجاهلون، واستنفدوا حجاجهم، وضعفتهم ردودهم، فقد جروا إلى أسلوب جديد يريدون به منع وصول كلمة الحق إلى آذان الناس، ومنع المستعينين الذين ريا تجمعوا للوقوف على أقوال الطروج، المؤمنين والمشرين. لجروا إلى تنبيه أنابهم والسائرين في ركابهم بأن جهذوا فوضى، ويرفعوا أصواتهم، ويصيحوا ويصفروا ويفشدون أصواتهم. {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ} عند سماعهم القرآن أو عند تلاوة بعض آياته أمام الناس، وذلك ظنا منهم أن سيغلبون أولئك الذين حملوا القرآن ليحاجوا به الناس، ويليروا وينذروا بهذا القرآن الغائب، طلبا منهم أن يخرجوا عن طور الجدل والكلام المتبادل إلى إحداث التشويش والتغيير، والصياح، والهياج، لعمله بذلك غلبهم خصومهم ولو مرة واحدة في أي مكان أو زمان.

إن أسلوب اللغو، وأسلوب التشويش والتشويه، ورفع الأصوات المكررة،
والصيام في مواقيف الحديث يفسد وصول القرآن إلى آذان الناس، الذين إذا سمعوه صدقوا وآمنوا واتقوا واتبعو محمدًا ﷺ وآمنوا معه. عندما يروى الكذب والدجل وفي ردود المشركين وأقوالهم ويسمعون كلام الله تعالى الصدق والعدل والإيمان، والبشار والندير التي يحملها إلى الناس كافة، وينع المؤمنين من تبيان الحق الذي يحملون.

هذا الأسلوب المهمج إذا هو سلاح الضعفاء، وسلاح الأغنياء، الذين يظنون أنهم بهذا ستكون له الغلبة على المؤمنين الصادقين الذين ثبتوا، وتحملوا وأوذوا في سبيل الله، فأمدهم الله تعالى بالقوة والصبر والتحمل، والحجة البالغة الغالبة، وجعل هذا القرآن سلاحا في كل المواقيف والمقاتل، وطمأنة لقلوب المؤمنين في ضعفهم وفي قوتهم، وهو سبيل الأمثل لرفعتهم وغلبهم في الدنيا والفؤاد بالنعم بالآخرة.
27- القرآن العربي

ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسول من قبلك إن ربك لذو عرف وزع عقاب أليمر.

ولو جعلنا قراءانا أعمجيا لقالوا لو لا قستت عينيتنا فعجبي وعلمني قل هو للذين هم أبناء هذين وشفاء وآلهتن لا يؤمنون في آدنهم وقبر وهو عليه.

وأولئك بناذرون من مكان بعيد [فصل].


وهذا تسيلة للنبي بطرق الكنياية وأمر له بالصر على ذلك صر من قبله من الرسول طريق التعريض وهذا الكلام تفسيران:

أحدهما: أن ما يقوله المشركون في القرآن والنبي هو داب أمثالهم من المعانين من قبلهم فما صدال ما قد قيل للرسول هو مقالات الذين كذبواهم أي: تشابهت قلوب المكذبين فكانت مقالاتهم متماثلة.

قال تعالى: أنواصوا به [الذاريات: 53].

التفسير الثاني: ما قلت لك إلا ما قلناه للرسول من قبلك، فان لم تكن بدعاً من الرسول، فتكون لقومك بعض الاعتراف في التكذيب، ولكنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم، فما صدال ما قد قيل للرسول هو الدين والوحي فتكون من طريقة قوله تعالى: إن هنداً لبني الصحبة الأولي [الأعلى]، وكلا المعنيين
وارد في القرآن يحمل الكلام على كليهما، وفي التعبير (مَا) الوصولية، وفي حذف فعل القولين في قوله: (مَا يُقَالُ) قولوه: (مَا قَدْ قَبِلَ) نظم متين حل الكلام هذان المعنيان العظيمان، وفي قوله: (إِلَّا مَا قَدْ قَبِلَ لِلسُّرِّ) تشبهه بلغة ومعنى: إلا ما قيل قبئ للرسول.

واجتلاج المضارع في (مَا يُقَالُ) لإفادة تجد هذا القول منهم وعدم ارتعاؤهم عنه مع ظهور ما شاءه أن يصدهم عن ذلك.

واقتران الفعل: (قَدْ) لتحقيق أنه قد قيل ما قالت المشركون للرسول. فهو تأكيد للازم الخبر وهو لزوم الصبر على قولهم، وهو منظور فيه إلى حال المردود عليهم، إذ حسبوا أنهم جاهدوا الرسول بما لم يخطر بالله غيرهم، وهذا على حد قوله تعالى: (كَذَٰلِكَ مَا أُيَلِّي الَّذِينَ مِن قَبِيلِهِم مِّن رَسُولِ إِلَّا قَالُوا سَاحِرًا أَوْ مُجَّنُونِ) [الداريات].

إن رَبُّك أَنتُ الْعَفْرَةُ وَذَٰلِكَ عِقَابٌ أَلِيمٌ"؛ تسليمة للرسول، ووعد بأن الله يغفر له، ووقوع هذا الخبر عقب قوله: (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قَبِلَ لِلسُّرِّ) يومأ أن هذا الوعد جزاء على ما لقيه من الأذى في ذات الله، وأن الوعيد للذين آذوه، فإن الخبر مستعمل في لازمه.

ومعنى المعرفة له: التجاوز عما يلحقه من الحزن ما يسمع من المشركين من أذى كثير، وحرف (إن) فيه لإفادة التعليق والسبب لا للتاكيد.

وكلمة (ذو) مؤذنة بأن المعرفة والعقاب كلهما من شأنه تعالى، وهو يضعهما يحكمه في المواضع المستحقة لكل منهما. ووصف العقاب باللهم دون وصف آخر للإشارة إلى أنه مناسب لما عوقبوا من أجله، فإنهم آلانوا نفس النبي بما عصوا وأدوا.

وفي جملة: (إِنْ زَكِّي الْأَلِيمِ وَذَٰلِكَ عِقَابٌ أَلِيمٌ) محسن الجمع ثم التقسيم، فقاله: (مَا يُقَالُ لَكَ) يجمع قائلا ومقولا له، فكان إلا إباء بوصف (لَدَوَ مَغْفَرَةٍ).
اللَّهِ وَالْقَلِيلِ، وَهُوَ جَارٌ عَلَى طَرِيقَة
الْلَفِّ وَالنَّشْرِ المَعَكُوسِ، وَقِرَائَةَ المَقَامِ تَرَكَ كَالِإِبْتِلَاعِهِ.

۲۶۰

"وَلَوْ جَعَلْنَا قُرُّٰءًا أَعْجَمِيًا لَّقَالُوا: كُلُّ آخَرُ مِنْ أَعْجَمِيّٖ وَعَرَبَٰبٖ" [فصلت].

اتصال نظر الكلام من أول السورة إلى هنا، وتناسب تنقلاته بالتفريع والبيان،
والاعتراف والاستطاء يقتضى أن قوله: "وَلَوْ جَعَلْنَا قُرُّٰءًا أَعْجَمِيًا لَّقَالُوا" إلى
آخره، نقل في درج الأثبات أن قصدهم العناد فيما يتعلمون به؛ ليرجعوا إعراضهم
عن القرآن والانتماء لهبه بما يختلفون عليه من الطعن فيه والتكذيب به، وتكلف
الأعداء الباطلة ليستروا بذلك من الظهور في مظهر المنهم الجموع، فأخذ يتفض
دعاوهم عرفة عرفة، إذ بدأت السورة بتحديهم معجزة القرآن بقوله: "حَكْم
تَنْزِيلُ مِنْ أَلْلَهِ الرَّحِيمِ ۖ كَتَبْ فُصِّلَتْ عِنْتَهُ، قُرُّٰءًا عَرَبَٰبٖ" إلى قوله: "فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ" [فصلت] فهذا تحذير لهم، ووصف للقرآن بصفة الإعجاز.

ثم أخذ في إبسط معاذيرهم ومطاعنهم بقوله: "وَقَالُوا قُلُوبُهُمْ فِي أصِّبَتَتِهِمْ
تَدْعُونَ اِلَّيٍّ" [فصلت: ۱۶۵] فإن قولهم ذلك قصدوا به أن حجة القرآن غير مقتعَة
هم إغاثة منهم للنبي ﷺ، ثم تأليهم على الإعراض بقوله: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا
تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْءَاءَ ۖ وَأَلْغَوْا فِيهِ اَلْعَلَّكَرَ تَعِلَّمُونَ" [فصلت] وهو عجز مكشوف
بقوله: "إِنَّ الَّذِينَ يَلْهِدُونَ فِي اَلْيَتِينَ لا يَخْفَفُونَ عَلَيْهِمْ" [فصلت: ۴۰۱]، وقوله:
"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْعَظِيمِ لَا جَاهِزُوهُمْ" [فصلت: ۴۱۱] الآيات، فاعقابها بأوصاف
كمال القرآن التي لا يوجد مطعنا فيها بقوله: "وَإِنَّهُ كَتَبَ عَزِيزٌ الْيَوْمَ
إِنَّمَا كَانَتِ الْإِبَتِلَاءَ مِنْ بَنِي بَدْيٍ وَلَا مِنْ حَلِيفِهِ"، فقد نهضت الحجة
عليهم بدلاً عليه على صدق الرسول ﷺ من هذه الجهة، فانطلق إلى حجة أخرى عمدادها الفرض والتقدير أن يكون قد جاءهم الرسول ﷺ بالقرآن من لغة أخرى غير لغة العرب.

ولذلك فجملة: "ولو جعلته قرأنا أعجمينا" معطوفة على جملة: "وإن كتب غزيرًا على الاعتبارين المتقدمين آنفا في موضع تلك الجملة. ومعنى الآية متفرع على ما يتضمنه قوله: "كتب فصلت، يا نبيه، قرأنا أعجمينا لقوم يعلمون".

وقوله "فل إن ذاك أنانا بشر من كثر يوحي إلى" [الكهف: 11] من التحدي بصفة الأمية كما علمت آنفا، أي لو جئناهم بلون آخر من معجزة الأمة، فأنزلنا على الرسول قرآن أعجميًا، وليس للرسول ﷺ علم تلك اللغة من قبل، لقالوا معاذيرهم، فقالوا: لولا بنت أيتة بلغة تفهمها وكيف ياطب بكلام أعجمي، فالكلام جار على طريقة الفرض، كما هو مقتضى حرف (ل) الانتفاعية، وهذا إبانة على أن هؤلاء القوم لا تحدى معهم الحجة، ولا ينطعون عن المعاذير، لأن جدالهم لا يريدون به تطب الحق، وما هو إلا تعنت لتزوّج هواهم.

ومن هذا النوع في الاحتجاج قوله تعالى: "ولو كتبنا عليه ببعض الأعجمين" 

فقرأوه، عليه ما كتبوا به، ومتجهين (الشعراء)، أي لو نزلنا بلغة العرب على بعض الأعجمين فقرأوه عليه بالعربية، لا شرطًا للحجة في صفة الأمية في اللغة المفروض إنزال الكتاب بها، إلا أن تلك الآية بيت على فرض أن ينزل القرآن على الرسول العربي بلغة غير العربية.

وفي هذه الآية إشارة إلى عموم رسالة محمد ﷺ للعرب والعجم، فلم يكن عجبنا أن يكون الكتاب المنزل عليه بلغة غير العرب لولا أن في إزاله بالعربية حكمة علمها الله، فإن الله لما اصطفى الرسول ﷺ عربًا، وبدعه بناءً على عربية كان أحق اللغات، بأن ينزل بها كتابه إليه بالعربية، إذ لو نزل كتبه بلغة العربية لاستدعت لغات الأمم كلها في استحقاق نزول الكتاب بها، فوقع ذلك محاسدا بينها؛ لأن بينهم من سوابق الحوادث في التاريخ ما يثير الغيرة والتحاسد بينهم.
خلاف العرب إذا كانوا في عزلة عن بقية الأمم، فلا جرم رجحت العربية، لأنها لغة الرسول ﷺ، ولغة القوم المرسل بينهم، فلا يستقيم أن يبقى القوم الذين يدعوههم لا يفهمون الكتاب المنزل إليهم.

ولو تعددت الكتب بعدد اللغات للفاتت معجزة البلاغة الخاصة بالعربية، لأن العربية أشرف اللغات وأعلاها خصائص وفصاحة وحسن أداء للمعاني الكثيرة بالألفاظ الوظيدة، ثم العرب هم الذين يتولون نشر هذا الدين بين الأمم وتبيين معاني القرآن لهم.


وسباق الآية ولفظها ينبع من هذا المعنى، وكيف و ( لوا ) الامتناعية تنفع من تحمل هذا التأويل وتدفعه. وأما ما ذكره في الكشاف { أنهم كانوا لتعلتهم يقولون: هل نزل القرآن بلغة العجم؟ فقيل: لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعمت، وقالوا: { لولا فصِّلْتَ عِينَتَكَ. أَعْجِمِيَّ وَعَرَبِيَّ } إلخ }، فلم تغل على من ذكر مثله من الفسرين وأصحاب أسباب النزول، وما هو إلا من صنف ما روى عن سعيد، ولو كان كذلك لكان نظم الآية: وقالوا لولا فصِّلت آياته، ولم يكن على طريقة ( لولا ) ووجوابها، ولا يظن قريش أن يقولوا ذلك إلا إذا كان على سبيل التهمك والاستهزاء.

وضمیر { جعلنَّهُ } عاَنت إلى { الْوَرْكِيَّ } في قوله: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْيَدَارِ } وقوله: { أَعْجِمِيَّ وَعَرَبِيَّ } بقية ما يقولونه على فرض أن يجعل القرآن أعجمياً، أي أنهم لا يخلو من الطعن في القرآن على كل تقدير.

و( لولا ) هنا: بينت ووضحت، أي لولا جعلت آياته عربية نفهمها.

والواو في قوله: { وَعَرَبِيَّ } للعطف بينه المعنى. والمعنى: وكيف يلتقى
أعمجي وعبري، أي كيف يكون اللفظ أعمجيا والمخاطب به عربا كأنهم
يقولون: أيلقي لفظ أعمجي إلى مخاطب عبري.
ومعنى (قرزة أنا) كتابا مقرأا. وورد في الحديث تسمية كتاب داوود
قال النبي ﷺ: "إن داوود يسر له القرآن فكان يقرأ القرآن كله في حين يسره
فرسه" (أو كما قال).
والأعمج: المنسوب إلى أعمج، والأعمج مشتق من العجم، وهي الإفصاح
فالأعمج: الذي لا يفسح باللغة العربية، وزيداء الشيء فيه للوصف نحو: أحمر
ودواري. فالأعمج من صفات الكلام.
وأفرد: وعبري أن يجمع، ولكنه آفرد لأنه بنى الإناكر على تنافر حالية الكتاب.
والمرسل إليهم، فاعتبر فيه الجنس دون أن ينظر إلى إفراد، أو جمع.
وحاصل معنى الآية: أنها تؤذن بكلام مقدر داخل من صفات الذكر، وهو أنه
بلسان عرب بلغتهم إماما هديكم فلم تؤمنوا به وكفرتم وتعلتم بالتعلقات الباطلة
فلو جعلنا أعمجيا لقتلنا هلا بيت لنا حتى نفهمه.
فقله هو الديك دامنا هذك وشفاء والتذكر لا يؤمنون في أذانهم وقر.
وهو تعالى عمهُ أو أَنَا كون ينادونه من مكان بعيدٍ [فصلت].
هذا جواب تضمنه قوله: ما يقول لك إلا ما قد قيل للرسلي من قبلك؟ أي ما
يقول من الطعن في القرآن فجوابه: إن ذلك الذكر أو الكتاب للذين آمنوا هدى
وشفاء، أي: إن تلك الحكايات العظيمة للقرآن حرمهم كفرهم الاتفاق بها وانتفع
بها المؤمنون فكان لهم هديا وشفاء، وهذا نازر إلى ما حكاه عنهم من قولهم:
قلونا في أَسْكَانِي مِمَّا تدعونا إِلَيْهِ وَفِي ءَادَانِي وَقَرْنَ [فصلت: 5]، فهو إالتزام لهم
بحكم على أنفسهم. وحقيقة الشفاء: زوال المرض وهو مستعار هنا للإصابة
بالحقائق وانكشاف الالتباس من النفس كما يزول المرض عند حصول الشفاء
يقال: شفيت نفسي، إذا زال مرضه. قال قيس بن زهير:
شييت النفس من حمل بن بدر وسين من حديث قد شفاني
وظنه قومه: شفى غليله، وبرد غليله، فإن الكفر كالداء في النفس؛ لأنه يوجد في العذاب، ويبعث على الس悬念 وجملة: "والذين لا يؤمنون" (فصل 4:44) معطرة على جملة: "هو اللذين آمنوا هذكى"، فهي مستندة استتانافا أبدانيا. أي وأما الذين لا يؤمنون فلا تخلل آيتهم نفسهم؛ لأنهم كمن في آذانهم وقر دون سماعه، وهو ما تقدم في حكاية قومه: "وفي ءادةئنا وقرن"؟ وهذا الاعتبار كان معنى الجملة متعلقا بأحوال القرآن مع الفريق غير المؤمن من غير تكلف لتقدير جعل الجملة خبرا عن القرآن.

ويجوز أن تكون الجملة خبرا ثانيا عن ضمير الذكر، أي القرآن، فتكون من مقول القول، وكذلك جملة: "وهُوَ عَلَيْهِ غَمَيٌّ".

والإيحاب عنه بـ "وقه" و "غمى" تشبه بليغ، ووجه الشبه هو عدم الانتفاع به مع سماع ألاظه، والوقر: داء ومقابلته بالشفاء من حساس الطبق.

وضمير: "وهُوَ عَلَيْهِ غَمَيٌّ" يتذرد أنه عائد على الذكر أو الكتاب كما عاد ضمير: "وهُوَ عَلَيْهِ" (الذراع: 25) العمي: عدم البصر، وهو مستعار هنا ضد الاهتداء بمقابلته بالهدى فيها من حساس الطبق والإسناد على القرآن على هذا الوجه في معاد الضمير بأنه عليهم عمي من الإسناد الجازى؛ لأن عناهم في قوله كان سببا لضلالهم، فكان القرآن سبب سبب كفوله تعالى (وأما اللذين في قلوبهم).

مرضى قراءتهم رجسًا إلى رجسهم" (التره: 125).

ويجوز أن يكون ضمير: هو ضمير شأن تنبيها على فظاعة ضلالهم وجملة: "عليهم غمى" خبر ضمير الشأن، أي وأعظم من الزور أن عليهم عمي أي على أبصراهم عمي. كقوله: "وعلى أبصراهم غشوة" (البقرة: 7).

وإذا عن العمي بالكون على ذواتهم؛ لأنه ما كان عمي مجازا تعين أن يصيبه على أنفسهم كلما لا على أبصراهم خاصة، فإن عمي البصائر أشد ضررا من عمي الأبصار كقوله تعالى: "فإِنَّا لَا نَعْمِي الأَبْصَارُ وَلَكِن نَعْمِي الْقُلُوبِ الَّتَيْنَى في
وجلة: "أولئك ينادون من مكان بعيد" {البقرة: 171}، [فصل] خبر ثالث عن الذين لا يؤمنون، والكلام تمثل حال إعراضهم عن الدعوة عند سماعهم مجال من ينادى من مكان بعيد لا يبلغ إليه في مثله الماندي على نحو قوله تعالى: "وَمَكَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلَ الْأَرْضِ يَقْبَضُونَ ۖ نَحْوَ الْكَيْمَةِ" كما تقدم في سورة البقرة. 

العرب لم يكن من لايهم: كنت تتأذي من مكان بعيد، والإشارة بـ "أولئك" إلى الذين لا يؤمنون؛ لتصد التنبيه على أن المشار إليهم بعد تلك الأوصاف أخريفا بما سيذكر بعدها من الحكم من أجلها نظير "أولئك علّى هدى من رحمة" {البقرة: 9}، ويتصل "من مكان بعيد" لا حالة كما تقدم في تعلقه: "من الأرض" بقوله: "ثم إذا دعوكم دعوة من الأرض" أي دعاكم من مكانكم في الأرض، وبذلك يجوز أن يكون "من مكان بعيد" ظرفًا مستترا في موضع الحال من ضمير "ينادوون" وذكر غير متأت في قوله: "ثم إذا دعوكم دعوة من الأرض" (1)
28- القرآن العربي

«وَكَذَٰلِكَ أُوْحِيَنَا إِلٰكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًا ٌ لَّتُنْدِزَّنَّ أَمَّ الْقُرْءَانِ وَمَنْ حَوَّلَهَا وَلَتَنْدِزَ نَيْمَ أَجْمَعِ.»

لا رَبٌّ فِيهُ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي النَّارِ.» [الشورى] [الشعرى]

معنى قوله تعالى في الآية وكما أوحى إلى الأنباء من قبلك: «وَأُوْحِيَنَا إِلَّكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًا»، وفي هذه الآية الكريمة عودة لذكر القرآن العربي، حيث إنك تعلم وتتحدث به وتعلم الذين طلب إليك إنجازهم من قومك في أم القرى في مكة المكرمة وما حولها، بلغتهم التي يعرفونها ويفهمونها، وكلام عربي فصيح يتحدثون ولا يجدون حاجة إلى التوجه لفهمه؛ لأنهم يعرفون مضامينه، ويرفرعون كلماته، ويعرفون بديعه، ويعرفون قواعده. ويعرفون أنه الحق، ويعلمون أنه واضح جلي مبين: "وَلْتُنْدِزَنَّ أَمَّ الْقُرْءَانِ" وهي مكة: "وَمَنْ حَوَّلَهَا" أي من سائر البلاد شرقًا وغربًا.

وسميت مكة أم القرى؛ لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها ومن أوجز ذلك وأدلها ما قاله الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمن، حدثنا شعبة عن الزهري، أخبرنا أبو سلمة عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد المطلب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحريرة في سوق مكة: "والله إنك لم تخرج رحمته إلى الله وأحب أرض الله إلى الله. ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت، وهكذا رواية الترمذي والنسيائي، وأبان ماجه من حديث الزهري به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله: "وَلْتُنْدِزَنَّ أَمَّ الْقُرْءَانِ" وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد. وقوله: "لا رَبٌّ فِيهِ" أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن بلا مطال. وقوله: "فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي النَّارِ" كقوله: "يَوْمَ الْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ٱلْجَمُّعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْجَمُّعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْجَمُّعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْجَمُّعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْجَمُّعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْجَمُّعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْجَمُّعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْجَمُّعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْجَمُّعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْجَمُّعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ لِيَوْمِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْمَلْعُومُ L.
جاء لسان أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، حدثني أبو قيل المغافري.


وهكذا رواه الترمذي والناسحي جيحا، عن قبيعة عن الليث بن سعد ويكر في منذر، كلاهما عن أبي قيل، عن شفي بن ماتح الأصبغي، عن عبد الله بن عمر. به، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب وساقه البغوى في تفسيره من طريق بشر بن بكر، عن سعيد بن عثمان، عن أبي الزهري، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ. وذكراه بنحوه. وعندئذ زيدان منها: ثم قال: فريق في الجنة وفريق في السعير عدل من الله جل جلاله، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إن الله ما خلق آدم نفضه نفضة المزود، وأخرج من كله ذرية خرج أمثال فقضتهم ف قضية ثم قال: شقي وسعد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما. فقال: فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا الموقف أشبه بالصواب والله أعلم.

وروى الإمام أحمد أحد عن أبي نضرة: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، يقال له: أبو عبد الله دخل عليه صحة يعودونه، وهو يكيه، فقالوا له: ما يكيه؟ أم لم يقل ذلك رسول الله ﷺ: خذ عن شاربك ثم أقره حتى تلقانى، قال: بل، ولكنني
سمع رسول الله ﷺ يقول: إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال هذه هذه، وهذه هذه ولا أبالي، فلا أدرى في أي القبضتين أنا.

وأحاديث القدر في الصحابة والسنة والمسانيد كثيرة جدا، منها حديث على، وابن مسعود وعائشة، وجامعة جهة هو وقще الله جعلتهم أمة وحيدة (الشري: 89)

أي: إما على الهدية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدي من بشاء إلى الحق، وأضل من بشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة، وهذا قال: "يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالَّذِينَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ فِرْقَةٍ لَا تَنْصَبْ (الشري: 3)


(1) تفسير القرآن العظيم ص 1664 بتصرف.
29- القرآن العلی الحکیم

١٠٠ وَالْکِتَابُ الْمَعْمِینِ ۛ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِیًا لَّعَلّكُمْ تَعْقِلُوا ۛ 
وَإِنَّهُ فِی أَمْرِ الْکِتَابِ لَدَیْنَا لَعَلّی حَکِیمًا ۛ ([الزخرف]).

١٠١ مِنِّ الاحرف المقطعة النورانية، والتي تحدثنا عنها في بداية هذه 
الدراسة، وشفعنا آراء العلماء في المواقع التي وردت، وهي في هذا المقام تكرر 
معنى قوله تعالى : ۛ {یس} ۛ وَالْقُرْآنَ عَرَبِیًا حَکِیمًا ۛ ([یس]) ۛ وَۛ وَۛ ( بِس : ۱ - ۲ ) وردت آيتان 
منفصلتان ۛ {حَمَّ}، وَۛ وَۛ ( بِس ) وتلاها القسم بالقرآن. بلفظه وصفه الحکیم في 
الأولى، وبلفظه أيضا وصفه في الثانيه: أي باسمه كتاب وصفته ۛ {المبين}.

ۛ وَالْکِتَابُ الْمَعْمِینِ ۛ كما سنقف على اسم الكتاب الذي ورد أكثر من ورد 
اسمه ۛ {الْقُرْآنَ} ۛ ، وفي كثير من المواقع جميع الاسمين كما هو في هذه الآيات ، 
ۛ وَالْکِتَابُ الْمَعْمِینِ ۛ يقسم الله تعالى بالقرآن كشيء عظيم بالنسبة للبشر، فهو 
القرآن المتفرد من كل الكتب، سواء السماوية أو ما أدركه البشر من علمه، فإنه 
يتبّع متفرد متفردًا مثابراً لخلق الله العظيم والمفرد عن كل ما يفعله خلقه ۛ.

وبذلك فقد تكرر هذا القسم كثيرا بهذا الكتاب الذي فيه الخير هادياً مبيناً ، 
كريماً، عظيماً. ۛ إلخ ما أعطاه الله تعالى من صفات، ولذلك فإن القسم به ، 
کآيات الله تعالى عندما أقسم بالشمس، وأقسم بالقمر، وأقسم بالليل وبالنهار، 
وكلما حجز الإنسان أمامه رغم أنه خير خلق الله تعالى في الأرض، وعلمه ماله 
يعلم تلاكته ۛ وۛ وُعَلِّمْ ءَاذَانَ الْأَشْمَاءِ ۛ كَثِیرًا فَضْرَبْتُمُ عَلَیْهِ صَدْرَهُ ۛ 
ۛ باًسماً هَّنَّا لَّا إِنَّكُمُ صَدِّيقٌ ۛ فَأَوْلُوا سَبِیِّنَكَ ۛ لاَ عِلَمَ لَّنَا إِلَّا مَا عَلَّمْنَا ۛ إِنَّکُمُ 
ۛ أَتَۡ تَنْبِئُونَ عَلَیْهِمۡ وَأَنَبَّأَمُنَّهُمۡ بِۡ أَنْبَأَتِیمۡ ۛ فَلَمَّا أَنَبَأۡهُمْ بِۡ أَنْبَأَتِیمۡ ۛ قَالَ أَلَمْ أَقَلَ 
ۛ لَکُمْ إِلَی أَعۡلَمۡ عَیۡبَ الْشَّنۡوَاتِ وَالأَرۡضِ وَأَعۡلَمۡ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنْتُمۡ تَكُونُونَ ۛ ([البقرة]).
القرآن كما ورد في السابق من سمو منزلته، وكما سيرد لاحقا فإن عقل البشرية المطلق أودعه الله تعالى عقول المسلمين، وفهمه وعرفه أولئك، واتقفوا لأوامرهم على مر الزمان، ثم إنه بقدرة الله الحارقة لم تطله يد البشر، لأن آية محاولة للبشر لم تنجح ولن تنجح، لأن التصدي قائم والمحذدين يحاولون، ولم ينجحوا في آية محاولة رغم أن المحاولين من عيلة المجادلين الأعداء وأشدهم كرها وعدارة.

هذا القرآن، وكانت النتيجة الفشل الذريع.

إنما جعلت له قرآناً عريشاً تأكيد للمعاندين من الكفار الذين اتخذوا العناد والكفر والضلال عقيدة لهم، يطابقهم الله تعالى: إن هذا القرآن من لغتهم، من أحرفكم، كلماتكم، وجعلكم، فيه معجزة البيان، فيه معجزة التحدي، بدأ بالأحرف النورانية التي ما زالت حتى الآن لغزاً حمراً حتى عقول المفكرين المسلمين ولكن كل ما قيل فيها هو من باب الاجتهاد، ومن باب الترجيح ولذلك فإن هذا القرآن المؤلف من هذه الأحرف نزل بلغة العرب التي كانت وقتها في أوج بلاغتها وعطائها، وفي هذا العلو والسمو جاء القرآن عريباً ليصل أوج البلاغة والفصاحة والبيان، وقف منه البلاغاء صاغرين، عاجزين على أن يأتوا بمهله أو بسورة واحدة منه، أن تعلمهم تعلّمته، الحديث للمعاندين من العرب وعلكم سؤال استفسام أي أن حبيبة القرآن وبلاغته وسعة نحتها وما حواء من إعجاز وبيان وأيات كان لكم للقناعة واتخاذ منطق التعقل، والاعتراف الذي يمكن أن يقودكم إلى الإيمان بالله والتصديق بما في هذا الكتاب من الأمثال والقصص وتصوير الأحداث وذكر الغيب، كل هذا لا يمكن أن يكون من محمد الأم والذى عاش في منطقة محدودة وإذا به يذكر لكم آيات من هذا الكتاب تعرفونها وأيات لا تعرفونها وسيعرفها بعدكم آخرون من أجيال وثقافات أخرى في جميع أنحاء العالم.

وإنما في أم القرآن لديثنا لعلكم حكيمين هذا الكتاب العظيم العربي المبين.
إن موقعه عند الله في أم الكتاب: وبين هذا المصدر الأول للكتاب السماويّة التي أثررته الله تعالى، أو أُحِي بها إلى أنبيائه في أزمنة وأمكنة متباعدة، كلها في علم الله وأسماها أم الكتاب، أي المصدر أو اللوح المحفوظ تميز هذا الكتاب عن غيره من الكتب، بأن يعلو عليهم جميعاً (لاعلُم) ويجوي من الحكمة ما لا تخويه تلك الكتب الحكيم والحكمة في العربية معناها منتهى العطاء البشرى. بدليل قوله تعالى: وَمَنْ يُؤْتَ الْحُكْمَةَ فَقَدْ أُوْيِيْ خَيْرًاٰ صَبِيرًاٰ (البقرة: 229) ومن الله تعالى على من أوتي الحكمة من الأنبياء والأوَّفاء وأنهم قد نالوا موقعًا ومكانًا على وُلَدَ طَيِّبٌ ٣٣٣ لَقَمِسَ الحِكْمَةُ أَنَّ أَسْكُنُ ٣٣٤ وَمَنْ يُشْتَكِرُ ٣٣٥ فَإِنَّ اللهَ غَيْبُ حَمِيدٌ (النين: ٤٥) ومن الله تعالى.

وبذلك فإن هذا الكتاب: القرآن العربي المبين، يتميز بالعلم والسمو والحكمة في مصدره عن أم الكتاب في سائر الكتب بأن حفظه الله تعالى من كل تحرير أو تزوير أو تغيير أو زيادة أو نقصان ولم يكن ذلك في الكتب السابقة، وهذه الشهادة من الله تعالى على علم مكانة القرآن الكريم الدليل القاطع على تفرد هذا الكتاب بكل العلوم المرتية والغيبية، والحكمة والمعرفة الإنسانية تناوياً معه كل الكتب سواء التي من أم الكتاب، أو من العطاء البشرى الذي يبقى في مدرك البشر ما علمهم الله تعالى: وَمَا أُوْيِيْ مِنِّ ٱللَّهِ إلَّا قَيْلًا (الإسراء: ٤٥)
40 - صاحب الأحقية في القرآن

"بل مّفطّنٌ هّنّوًا وءاباؤهُم حتّى جاءهم الحق ورسول مبين ؛ ولما جاءهم الحق قلّوا نزل هذا السّنّة على زجل من النّقّارين عظيم ؛" [الزخرف].

الحديث في الآية الأولى من ذريّة إبراهيم من ابنه إسماعيل ؛ إذ إن بني إسرائيل قد فشّلوا في تجربة استمرار الإيمان ، رغم كثرة الرسول الذين أرسلوا إليهم ، من ندرة من بعث لأبناء إسماعيل حتى جاء محمد ؛ من هذه الذريّة ؛ ليقيم الدين ، ولبقى هذا الدين . خاصة وأن المنحرفين في إسماعيل عن دين الحق ، وتمكن بعض المضلين أمثال عمرو بن خالد أن يجرّهم إلى عبادة الأصنام ويخرجهم من دائرة التوحيد . ولتباع بعد ذلك هذا العرض .

الآية: إضراب عن قوله تعالى: "لّهُم يَرْجِعُونَ" [الزخرف] في قوله تعالى: "وَجَعَلْهَا كِتَابًا بَاقِيَةً١ في عَقْبَيْهِ. لَّهُم يَرْجِعُونَ" وهو إضراب إبطال ، أو لم يحصل ما رجّل إبراهيم ؛ من رجوع بعض عقبَيه إلى الكلمة التي أوصى برعايتها ، فإن أقدم أمة من عقبه لم يرجعوا إلى كلمته ، وهؤلاء مع العرب الذين أشركوا وعبدوا الأصنام .

ويهذا الاستناد حصل التخلص إلى ما بدأ من المشركين بعد مجيء الرسول ﷺ من فطحين تغلبهم في الإعراب عن التوحيد الذي كان عليه آباؤهم; فكان موقع بُلْ في هذه الآية أبلغ من موقعها في قول لبيد:

بل ما تذكر من نوار وقد نأت ولا تقطع أسبابها وراقها

إذ كان انتقاله إقطاعا وكان هنا تخلصا حسناً.

وهؤلاء إشارة إلى غير مذكور في الكلام، وقد استقرت(1) أن مصطلح القرآن أن يريد مثله مشركى العرب. ولم أر من اهتدى لتنبيه عليه، وقد قدمته عند قوله تعالى: وَجَعَلْنَاهُ عَلَى هُدًى مُّهِدًا(2) في سورة النساء وفي مواضع أخرى.

والمراذ بابائهم أبياهم الذين سنة عبادة الأصنام مثل عمرو بن كحيل، والذي عبدوها من بعده، وتمتع آبائهم تمهد تمثيل هؤلاء، ولذلك كانت غاية التمتع بحمد الرسول ﷺ.

والتمتع هنا التمتع بالإمكال وعدم الاستصاء كما تدل عليه الغاية في قوله:

«حتى جاءهم الحق ورسلهم مبينين» ، والمراذ بالحق القرآن، كما يدل عليه قوله: وَلَوْ مَا جَاءَهُمْ أَحْقَاءً قَالُوا أَهْدَى سَحْرٌ(3) ، وقوله: وَقَالُوا: أَلَوْ نُزِّلْ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْطَيْنِ عَظِيمٌ(4) ، وهذه الآية ثناء راعي على القرآن متصل بالثناء عليه الذي افتتحت به السورة.

فإنما جاء القرآن على لسان محمد ﷺ انتهى التمتع وأخذوا بالعذاب تدريجياً إلى أن كان عذاب يوم بدر (1) يوم حنين، ولهذى للإسلام من بين يوم الفتح - فتح مكة، وأيام الوفود، وهذا في معنى قوله تعالى: وَأَجْمَالُ الْفَضْلِ نُمِّيْنَ كَمْ بَشَّهَ(5) بَيْنَ عَدَابَ أَيْلِمِلْ(6) في سورة هود.

والحق الذي جاءهم هو القرآن والرسول المبين: محمد ﷺ ووصفه بـ( مبين )؟

(1) الكلام للمؤلف: الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ١٢ / ١٩٦.
(2) هكذا بالأصل، وله المقصود وهو يوم أحد ويوم حنين؛ لأن يوم بدر كان يوما مشهورا في تاريخ الإسلام.
لأنه أوضح الهدى، ونصب الأدلة وجاء بأفصح كلام، فالإبانة راجعة إلى معاني دينه وبالألفاظ كتابه.

والحكمة في ذلك: أن الله أراد أن يشرف هذا الفريق عن عقب إبراهيم بالانتشار من أوحال الشرك والضلال إلى مناهج الإيمان والإسلام، واتباع أفضل الرسول وأفضل الشرعاء، فيجزر الأمة من عقب إبراهيم ما فرطوا فيه من الانتداب بأيهم حتى يكلم لدعوته شرف الاستجابة.

المقصود من هذا زيادة الإمهال لهم لعلمهم يذكرون كما قال تعال: «وَهَذَا كِتَابٌ أَنزْلَهُ مَبَارَكٌ فَاتِبَّعُوهُ وَأَتِمْ لَعْلَمَكُمْ نُزُولًا» (أُلُوْئُ) أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طلابين من قبليا وإن كنا عن دراستهم لغفيلاً (59) أو تقولوا لو أنا أنزل على ألكتب لكننا أهدي مهما فقد جاء حكم بنيت من ربحكم وهدى ورحمة فمن أظللهم بين كتب بيانت الله وصدق عنها صجزوا الذين يضدون عن آييتنا سوء العذاب بما كانوا يصرفون (60) (الأنام) ويستروح في قوله تعال: «وَجَعَلَهَا كِتَابًا بَاقِيًّا فِي عَقِيَّةٍ» (الزخرف: 8) إلى قوله: «وَتَابَّاَهُمْ» أن أباء النبي في عمود نسبه لم يكونوا مضربين الشرك، وأنهم بعض من عقب إبراهيم الذين بقيت كلمته فيهم، ولم ينجحوا بمخالفة قومهم اتباع الفتنة، ولا عجب في ذلك فإن تغيير المتك إنما وجب بالشرع ولم يكن لديهم شرع.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ أُحُقَّ قَالُوا هَنَذَا سَحْرُ مَيِينٍ (61) تعجب من حال تغافلهم

أي: قد كان لهم بعض العذر قبل مجيء الرسول (ص) والقرآن؛ لأن للغفلات المتقدمة غشاوة تحظى جهالة، فكان الشأون أن يستبقيروا لما جاءهم الحق ورسول مبين، فيذكروا كلمة أبيهم إبراهيم، ولكنهم لما جاءهم الحق قالوا: هذا سحري مستعمل في التعجب لا في إفادة صدور هذا القول منهم؛ لأن ذلك معلوم لهم وللمسلمين.

فأخبر مستعمل في التعجب لا في إفادة صدور هذا القول منهم؛ لأن ذلك معلوم لهم وللمسلمين.

وفي تعقيب الغاية بهذا الكلام إبدان بأن تمتعهم أصبح على وشك الانتهاء.
فجملة (ولمَّا جاءهم الحق قالوا هنِّئًا سحرًا) معطوفة على جملة (فحتي جاءهم الحق)، فإن (ولمّا) توقتية فهي في قوة (حتي) الغائية، كأن قيل: (لمّا معت هنئلاً وءاباهُم حتي جاءهم الحق) عقب ذلك التمتع لم يستفيقا من غفلتهم، وقالوا: هذا سحر، أي كانوا قبل مجيء الحق مشركين عن غفلة وتساهل، فلما جاءهم الحق صاروا مشركين عن عناد ومكنارة.

وجملة: (وإنَّا به كفرُون) مفعول ثان أي قالوا: سحر فلا تلتفت إليه، وقالوا: إذا به، أي بالقرآن، كافرون، أي سواء كان سحراً أم غيره، أي فرضوا أنه سحر ثم ارتفعت فقالوا: إذا به كافرون، أي كافرون بأنه من عند الله سواء كان سحراً أم شعرًا، أم أساطير الأولين، وهذا المعنى أكمنوا الخبر بحرف التأكيد ليؤسسوا الرسول ﷺ من إيانههم به. انتهى.

وقالوا: (ولأ تؤلَّه هندي آلِ القرآني على رجلٍ من أقرائتي عظيم) لقد شعر الذين كفروا من العرب عن سماعهم القرآن ومحاجة الرسول ﷺ والمؤمنون لهم به بأن هذا القرآن شيء عظيم تسامى عظمته بقناعتهم كل ما عندهم من بلاغة وقول أوصلوه إلى أنه قول ساحر، وأنه قول كاهن، وأنه قول شاعر، أي أنه يسمو ويكمل ويرفع فوق أقوالهم وفهمهم؛ ولذلك عادوا ليقولوا: طالما أن هذا القرآن بهذه المنزلة الرفيعة السالمة لما إذا أنزل على رجل يتيم فقير؟ عرفوا أربعين سنة من عمره بينهم بأنه يصف بالأمانة والصدق والوفاء بالوعد، وصلة الرحمة، وإطعام المسكين، وكل هذه الصفات لا تكفي لأن يتزلف هذا القرآن العظيم عليه؛ لأنهم يرون أن العظمة تجلب بالقوة والحكم والسلطان وكثرة الأتباع، فلو أن القرآن العظيم نزل على رجل عظيم من مكة أو قريحاً والقرینان هما: مكة والطائف؛ لأنهم أكبر قوى تهامة بلد القاثلين، وسكانها من العرب العدنانيين عرب الشمال وأما يثرب، ويتماء وخوهمها فيمن من بلد الحجاز، وسكان يثرب خاصة من عرب الجنوب القحطانيين ويهب قبائل يهود التي تجاورهم.
فالتعريف في القرىين للعهد، جعلوا عمام التأهل لسياحة الأقواق أمرًا
عظماء المسود، وعظمة قريته. فهم لا يدينون إلا لمن هو من أشهر القبائل في
أشهر القرى، لأن القرى هي مأوى شيوه القبائل، وتمريرهن وتجارتها، والعظمى:
مستشار لصاحب السؤد في قوته فكانه عظيم الذات.

روى عن ابن عباس: أنهم عنوا بعظيم مكة (الوليد بن المغيرة المخزومي)،
وب أعظم الطائف حبيب بن عمرو الثقفي، وعن交通: أنهم عنوا بعظيم مكة عنه
ابن ربيعة، وب أعظم الطائف كنانة بن عبد ياليل. وعن قنادة: عن الوليد بن المغيرة
و عمرو بن مسعود الثقفي. ثم يحتل أنهم قالوا هذا اللفظ المحكي عنهم في القرآن
ولم يسموا شخصين معينين.

ويحتم أنهم سموا شخصين ووصفوها بهذين الوصفين. فاقتصر القرآن على
ذكر الوصفين إيجازًا مع التنبيه على ما كانوا يؤهلون به الاختيار للرسالة تحديدا
لرأيهم. وكان الرجلان اللذان عنوها ذوي مال؛ لأن عادة المال كانت من
مقومات وصف السؤد كما حكي عن بنى إسرائيل قولهم: "ولا نؤتَ سَعَةً مِّنْهَا".

allest] (البقرة: 247).

(1) التحرير والتبوير: 12 / 200.
القرآن: هدى للجن كما للإنس

وقد صرحنا إني لكم نفراؤ من الجن يشتعثرون، لأنهم حضر عقدهم قلنا أصبروا。
فلما قضوا ووُلوا إلى قومهم منذرين، قالوا يقيموا إنا مُشيئاً آننا نصمم، فإن بعد موسى مصداقة لبِين يديه بُدِّى إلى الحق، وإلى طريق مستقيم، يَّنقَمْهُم أُجِبَّوا،
دعا الله وعزموا به، يغفر لحكم من ذُنوبكم تجركم من عذاب عليم.
وسُن لدّج دعا الله وقير في الأرض وليست له من ذويه أولياء أو ولد في ضلل.

[الأخراف] (33)

سياقة قصة النفر من الجن الذين استمعوا هذا القرآن، فتنادوا بالإنصات، واعلمتهم قلوبهم إلى الإيمان، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله، ويشرونهم بالغفران والنجاة، ويجذرونهم الإعراض والضلال سباقية الخير في هذا المجال بهذه الصورة، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا الميس الذي يتمثل في قولهم: "أنصتوا". عندما طرق أسماعهم، يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه، وفيما دعواهم إليه. كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر، الذين جاء القرآن لهم في الأصل، وهو إيجاب مؤثر ولا شك، يلفت هذه القلوب لفترة عنيفة عميقة، وفي الوقت ذاته تجلى الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى وهذا القرآن على لسان الجن، فتعلن هذه الحقيقة التي يدركها الجن ويفغله عنها البشر، ولا يُكُفِّن ما في هذه اللفته من إجابة عميقة متفقة مع ما جاء في السورة.

كذلك ما يرد في كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح، ودلالته على قدرة الله الظاهر فيه خلق السماوات والأرض الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث، وهي القضية التي يجادل فيها البشر وبها يجدون.

وبما أن البحث يعرض مشهدًا من مشاهد القيادة في يوم يُعرَض الذين كفروا على بيُنَارٍ.

[الأخراف]: 20.

ثم تجيء وصية للرسول بالصبر عليهم وعدم الاستعجال هم، وتركهم
للأجل المرسوم، وهو قريب قريب كأنه ساعة من نهار. للبلاغ قبل الهلاك.

وفي هذه العجلة نجعل ما تطرق إليه صاحب الظلم (1) فقال عن الجن: بعد أن أورد بعض الحقائق في الكون هذه الحقائق تلخص في أن هنالك خلقًا اسمه الجن، خلوق من النار. لقول إيليس في الحديث عن آدم: قال آنا خير مينه خلقين من نار وخلقته من طين (ص)، وإيليس من الجن لقول الله تعالى: إلاإيليس كان من آل جين فقس عن أمي ربيه (الكهف: 50) فأسلمه من أصل الجن.

إلا إن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر، منها: خلقته من نار، وأنه يرى الناس ولا يراه الإنسان، لقوله تعالى عن إيليس - وهو من الجن - إنه: برَكْنُ هُو وقَيْلِه، مِمْ حَيْنَى لَتُرْوَاهُمْ (الأعراف: 27) وأنه تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس. للقول السابق: إنه: برَكْنُ هُو وقَيْلِه، وأنه لقدرته على الحياة في هذا الكوكب الأرضي - لا ندري آين - لقوله تعالى - لأدم وإيليس معًا: فأزِلْهُمَا آل الخَيْلَةَ عَنْهَا فآخَرِجْهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقَلَتَا أهْمِطْوا بعَضْكَرْكِ لِبَعْضِ عَدُوٍّ وَلَكِنْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرَمُ ومَنْتُخِّ إِلَى جَنِّ (البقرة).

والجن الذين سخرنا لسليمان (اللهم) كانوا يقومون له بأعمال في الأرض تقضى أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها، وأنه قدرة على الحياة خارج هذا الكوكب. لقوله تعالى حكاية عن الجن: قُوَّانَا لَمَّا أَشْهَمًا فوُجُودُهُمَا مُنفَّضًا حَرْسًا شِيَبِداً وَشُهِبَا (وَأَنَا كَنَا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَعُدًا مُفْعَلًا فَمَا يَسْمَعُ الآنٍ مَنْ يَمَدُّ وَهُوَ يَتَبَأْ رَسَدًا) (الجن)، وأنه يملك التأثير في إدراك البشر وهو مأذون في توجيه الضالين منهم، وغير عبد الله - للنصوص السابقة، ولقوله تعالى في حوار إيليس لللعنين: قال فَيَعْرَفُكَ لَا غَيْبَ بَيْنَهُمَا أَجْمَعُينَ إِلَّا عَبَادَكَ بَيْنَهُمَا المَخْلُصُونَ (الكهف: 67).

(1) في ظلال القرآن - سيده قطب - الطبعة الشرعية السابعة 1968، 6 - 2708 - 2776 بتصرف، دار الشروق.
świadczenie نظرًا، وغير هذا من النصوص المماثلة، ولكننا لا نعرف كيف يوشع ويوجه
وتأدية؟
وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته، بدليلة استماع نفر من الجن
للقرآن وفهمه والتأثر به، قابل للهبه والضلال بدليلة قول هذا النفر في سورة
الجن (41: 16) "وَأَمَّا الَّذِينَ أَلْقَيْنَاهُمْ فِي النَّارِ هُمْ رَتَّبُواْ رَبَّهُمْ وَالَّذِينَ أَلْقَيْنَاهُمْ فِي جَنّ" [الجَنَّ]، وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين
بدعوهم إلى الإيمان، وبعد ما وجدوا في نفوسهم، وعلموا أن قومهم لم يجدوا
بعد.
وهذا هو القدر المستيقن في أمر الجن، وهو حسبنا بلا زيادة عليه ليس عليها
من دليل.
فأما الحادث الذي تشير إليه هذه الآيات، كما تشير إليه سورة الجن كلها على
الأرجح، فقد وردت فيه روایات متعددة أصحها: عن ابن عباس رضي الله عنهما
قال: ما قرأ رسول الله ﷺ عن الجن ولا رأهم. انطلق رسول الله ﷺ في طريق من
أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ. وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء،
وأرسلت عليهم الشهب، فرجع الشياطين إلى قومهم، فقالوا: مالكم؟ فقالوا:
حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب.
قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون في مشارق الأرض
وмагазبة، يتبغون من هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك
النفر، الذين توجهوا نحو هالة إلى رسول الله ﷺ وهو بنحيلة عامدا إلى سوق عكاظ
وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلمما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا
والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهناك حين رجعوا إلى قومهم. وقالوا:
يا قومنا! إننا سعينا قرءانًا عجيبًا ﷺ، قابلًا إلى الراشد فقامتنا به، ونذكر برثنا أحدًا
[الجَنَّ]، وأنزل الله على نبيه ﷺ: "فَأُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَمْسِمَ نَفْرًا مِنَ الجَنَّ" [الجَنَّ]، وإنما أوحى إلى قومه قول الجَنَّ ومع تعداد الروايات


في هذا المضمار، فإن هذه الرواية هي الأكثر والأقرب إعتمادًا لأنها هي التي تتفق تماماً مع النصوص القرآنية «قل أوحي إلي أن أستمع نفر من أنجني»، وهي قاطعة في أن الرسول صلى الله عليه وسلم علم بالحادث عن طريق الرحي، وأنه لم ير الجن ولم يشعر بهم، ثم إن هذه الرواية هي الأقوى من ناحية الإسناد والتدريج، وتتفق معها في هذه النقطة رواية ابن إسحاق، كما يقويها ما عرفناه من القرآن من صفة الجن: «إنه لا يركنم هؤلاء وقيل له من حيث لا ترونهم» (الأعراف: 27)، وفي هذا غناء في تحقيق الحادث.

والتفسير أخيراً: لقد كان إذن تدبرًا من الله أن ينصرف هؤلاء النفر من الجن إلى استماع القرآن، لا مصادفة عابرة، وكان في تقدير الله أن يعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى، وأن يؤمن فريق منهم وينجو من النار المعدة لشياطين الجن كما هي معدة لشياطين الإنس.

ويرسم النص مشهد هذا النفر - وهم ما بين ثلاثة وعشرة - وهم يستمعون إلى هذا القرآن، ويصور لنا ما وقع في حسهم منه، من الروعة والتأثر والرحة والخشوع. فلما قصدوا قالوا: «أصدقواً أنتموا» وتبنيته هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع.

فلمما قصدوا ولون إلى قومهم مذنبين. وهذه كذلك تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإشاطر للقرآن، فقد استمعوا صامتي متنبهين حتى النهاية، فلمما انتهت التلاوة لم يبلوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطب السكوت عليه، أو التفكك في الإبلاغ والإذاعة به، وهي حالة من امتلاك حس إلهي جدوي وحفظ مشاعره مؤثر قاهر غلاب. يدفعه دفعاً إلى الحركة، والاحتفال بشأنه، وإبلاغ الآخرين في جد واهتمام، قالوا يقتومون إنما سيعدنا صاحبًا أنزل من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يبدع إلى الحق وإلى طريق مقتضى، [الأحقاف] ولون إلى قومهم مسارعين يقولون لهم: إذا سمعنا كتابا جديدا أنزل من بعد موسى، قد أصدق كتاب موسى في أصوله، فهم إذن كانوا يعرفون كتاب موسى، فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد سماع آيات من هذا القرآن، قد لا
صفرة كتاب الله في كتاب الله

يكون فيها ذكر موسى ولا كتابه، ولكن طبيتها تشى بأنها من ذلك النبع الذي نبع منه كتاب موسى، وشهادته هؤلاء الجن البعدين، نسبياً عن مؤثرات الحياة البشرية، بمجرد تذوقهم آيات من القرآن، ذات دلالة وذات إيحاء عميق.

ثم عبروا عما خالق مشاعرهم منه، وما أحست ضمائرهم، فقالوا عنه:

"الإله والإسلام"، وفق الحق والهدي في هذا القرآن هائل ضخم لا يقف له قلب غير مطموع، ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوأ الجامع للقيم، ومن ثم لمس هذا القلب لأول وهلة.

فإذا هي تطرق بهذه الشهادة، وتعبر عما مسها من هذا التعبير.

ثم مضوا بنذارتهم لقومهم في حماة المقتعن المندفع، الذي يحس أن عليه واجب
في النذارة لا بد أن يؤديه "بنقوتهم أجبوا داعية الله وءامنو به، يغفر لأحكم من
ذنوبكم ويعزكم من عذاب أليم" [الأحقاف].

فقد اعتبروا تزود هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن، واعتبروا محمدًا داعيا هم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له، فنادوا قومهم: "بنقوتهم أجبوا داعية الله وءامنو به، وآمنوا كذلك بالآخرة، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب، والإجارة من العذاب فشعروا وأنذروا بهذا الذي عرفوه.

ويروى ابن إسحاق: أن مقالة الجن انتهت عند هذه الآية، ولكن السياق يوحي
بأن الآتيتين التالية هما من مقولات النفر أيضا. ونحن نرجع هذا وخاصة الآية التالية:

ومن لا يجيب داعي الله فليس بمُعجِر في الأرض ولا يس له من دونه أولياء
أولئك في ضلل مبين [الأحقاف].

فهى تكملة طبيعية لندارة النفر لقومهم، فقد دعوهم إلى الاستجابة والإيمان، فالاحتمال قوى وراجح أن بينوا لهم أن عدم الاستجابة وخيم العاقبة، وأن الذي
لا يستجب لا يعجز الله أن يأتي به ويوقع عليه الجزاء، ويد기에 العذاب الأليم، فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرون أو يعينونه، وأن هؤلاء المعرضين ضلوا ضلالاً مبيناً عن الصرف المستقيم.
وكل ذلك الآية التي بعدها يحتل كثيراً أن تكون من كلامهم، تعجباً من أولئك الذين لا يستجيبون لله، حاسين أنهم سيفلون، أو أنه ليس هناك حساب ولا جزاء.
وأولما يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يفعّ المخلوقين بقدر儿 على أن
"تحتى آلامي" بنى إلهِ على كل شيءّ قديرّ (ب) [الاحتفاز].
وهي لفظة إلى كتاب الكون المنظور، الذي ورد ذكره في أول السورة، وكثيراً ما يتضمن السياق القرآني مثل هذا التناقض بين قول مباشر في السورة، وقول مجهول في قصة، فهي التطابق بين مصرين على الحقيقة الواحدة، وكتاب الكون يشهد بالقدرة المبدعة إبتداء هذا الخلق الهائل: السماوات والأرض، ويحوي للحس البشري بيسر الإحيا بعد الموت، وهذا الإحيا هو المقصود وصياغة القضية في أسلوب الاستفهام والجواب أقوى. وأكد في تقدير هذه الحقيقة، ثم يجيء التعبير الشامل: "إنه على كل شيء قدير" (ب) ؛ فتضم الإحيا وغيره في نطاق هذه القدرة الشاملة لكل شيء كان أو يكون. انتهى.
وتأتي الصورة المشابهة في هذا السياق وما ورد في سورة الجن، والتي جاءت تؤكد أن حديث الجن واستماعهم للقرآن الكريم كان وحياً للنبيّ، ولم تكن رؤية مباشرة، مع ما ورد عن قراءة النبيّ سورة الرحمن على الجن وكان جوابهم بعد كل قول الله تعالى "فأيَّهَا الرَّبُّ مَنْ كَتَبَ بَيْنِي وَالجَهَّالِ" (الرحمن) ؛ لا شيء من نعمة ربنا نكذب؛ ولا ينبغي ذلك أن قراءة النبي هذه لم تكن مباشرة أي وجهاً لوجه وما ورد في سورة الجن تؤكد وحي الله تعالى لما جرى للجن عندما سمعوا القرآن آمنوا به، وذهبوا منذرين إلى قومهم - فتمهم المؤمن ومنهم دون ذلك، ولعل الحيوان في هذا المعنى لا ينتهى مما حاول الذين ادعوا الاتصال بالجن ذكره وثبته.. فلكل ما زال خاصاً، ومن غير برحة واضح، مع التأكد عند أولئك بتحقيق الرؤيا وبأشكال مختلفة.
42 - تدبر القرآن الكريم

إِفَّالَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۖ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفْقَالَاهَا ۙ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ أَزْدَاوْا عَلَيْهِمْ أَذْرَبْهُمْ مِنْ بَعْدٍ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهَدْىٰ ۖ الْشَّيْطَانُ سُوَّى لَهُمْ وَأَمَلَ لِلَّهِ ۗ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ قَالُوا لِلْذِّينَ كَرَهْوُا مَا نَزَّلَ الْلَّهُ سُنُنِّيَّ عِرْضُهُمْ فِي بُعْضِ الْأُمَّرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْتَرَأْهُمْ ۗ﴾ (حمد).

القول من الآية الأولى (٢٤) : مفرع عن قوله تعالى في آية سابقة (٢٣) "ۚ أَوِلَأَنْ تُقِفَ الْأَلْهَٰمُ لَعْبِهِمْ الَّذِينَ فَأَصْحَبَهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَرَهُمْ؟" ۗ . . . أيي هذا تدبروا القرآن عوض شغل بالهم في مجلسك بتبع أحوال المؤمنين ، أو تفريع على قوله: ۗ فَأَصْحَبَهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَرَهُمْ؟" .

والمعنى: أن الله خلقهم بعقوب غير منفصلة ببعان الخير والصلاح ، فلا يتلذبون

القرآن مع فهمه أولا يفهمونه عند تلقيه وكلا الأئمين عجيب !

والاستفهام تعجبهم من سوء علمهم بالقرآن ومن إعراضهم عن سماعه ،

وجفف أم للإضراب الانتقال ، والمعنى: بل على قلوبهم أفعال وهذا الذي سلكه

جمهور المسلمين ، وهو الجارية على كلام سببه في قوله تعالى: ۗ إِفَّالَا يَتَذَكَّرُوٓ

(القصص) ۗ ۗ أَمْ أَنَاَ خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهْيِنٌۢ؟ [الزمر] : ۵۲ ،

خلافا لما توهبه ابن هشام في مغنى الليتيب .

والتدبر: التفهم في دير الأمر ، أي ما يختفي منه وهو مشتق من دير الشيء أي

خلقه .

والأقوال: جمع قلل ، وهو استعارة مكنية إذ شهبت القلوب ، أي العقول في

عقم إذراكاتها المعاني بالأبواب أو الصناديق المغلقة ، والأقوال تحيز كالأظفار للمنية

في قول أبي ذؤيب البخلي:

إِلَيْكَ كَلِمَةً لَا تَنْفَعُ. ۛ
وتذكر قلوب للتنوع أو التبديع، أي على نوع من القلوب أفعال.

والمعنى: بل بعض القلوب عليها أفعال، وهذا من التعريض بأن قلوبهم من هذا النوع. لأن ثبات هذا النوع من القلوب في أثناء التعجيب من عدم تدبر هؤلاء القرآن يدل بدلالة الالتزام أن قلوب هؤلاء من هذا النوع من القلوب ذات الأفعال، فتكون قلوبهم من هذا النوع مستفاذ من الأضراب الانتقال في حكایة أحوالهم وبدنوه من هذا قول لبيد:

ترك أمكنة إذا لم أرضاها
أو يعتقل بعض النفس جامها
يريد نفسه لأنه وقع بعد قوله: تراك أمكنة البيت، أي أتنا تراك أمكنة.

وإضافة (أفعال) إلى ضمير قلب نظم بديع أشار إلى اختصاص الأفعال بتلك القلوب، أي ملازمتها لها فدل على أنها قاسية.

١٥٢

إِنَّ الْخَيْرَةَ أَرْتَدُّوا عَلَى أَدَابُهُمْ مِنْ بَعْدِ ما تُبِينُ لَهُمُ الْهُدَايَةَ ۖ اِلْشَّيْطَانُ سُوْلٌ ۡلَهُمْ وَأَمَلٌ لَهُمْ ۡلَهُمْ (٨٩) [ محمد]

لم يزل الكلام عن المنافقين، فالذين ارتدوا على أدابهم منافقون، فيجوز أن يكون مراد به قوما من أهل التفاقيا كانوا قد آمنوا حقا ثم رجعوا إلى الكفر، لأنهم كانوا ضعفاء الإيمان قليلا الاعتقان، وهم الذين مثلهم الله في سورة البقرة بقوله: (مَا أَحْلَتْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرٍ ۗ كُلُّ نَّبِيٍّ آتَى مُّوسَى نَزُولًا مِّنْهُ مِّلَاتٌۢ ۚ فَذَٰلِكَ يُرِيدُ ۗ أَلَئِكُمْ تُنْبِرُنَّهُمْ) (البقرة: 89) والارتداد على الأدب وعني هذا الوجه: تمثل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان بحال من سار ليصل إلى مكان ثم ارتد في طريقه وما كان الارتداد سيرا على الجهة التي كانت وراء الشعر، جعل الارتداد إلى الأدب، أي إلى وجه الأدب وجيء مجرد على للدلالة على أن الارتداد ممكن من وجه الأدب كما يقال (على ١٥٣) صرَّطَ مُسْتَقِيمٍ ۡمَثَّلُ مَسْتَقِيمٍ ۡمَثِّلُ) [ سب].

والهدى: الإيمان وتبين الهدى لهم على هذا الوجه ببين حقيقي، لأنهم ما آمنوا إلا بعد أن بين لهم هدى الإيمان(١).
ويجوز أن يكون به جميع المناققين، كما يجوز أن ينطق الأمر على الذين ارتدوا عن معركة أحد بقيادة عباد الله بن أبي ابن سلول، وذلك بعد أن علموا أن القتال حق.

والتسويل: تسهل الأمر الذي يستشعر منه صعوبة أو ضر وتربي ما لا يحسن والإملاء: المد والتمديد في الزمان، ويطلق على الإبقاء على الشيء كثيراً، أي أراهم الارتداد حسا دائماً، كما حكي عنه في قوله تعالى: "هل أذلك على شجرة الاحذى ومملك لا يبيلي" (ط). 

أ铁路 (أنهم قالوا أي الذين) كرهوا ما نزل الله سُنِطعُحكم في بعض الأمور وَاللهُ يعلمن إشراهم (محمد).

استثنا بياتي، إذ التقدير أن يسأل سائل عن مظهر تسويل الشيطان لهم الارتداد بعد أن تبين لهم الهدى، فأجاب بأن الشيطان استدرجهم إلى الضلال، عندما تبين لهم الهدى، فسول لهم أن يوافقوا أهل الشرك والكفر في بعض الأمور، مسولا أن تلك المواقته في بعض الأمر لا تنقص اهتراءهم، فلما وافقوهم وجدوا حلاوة ما ألوه من الكفر فيما وافقوا فيه أهل الكفر، فأخذوا يعودون إلى الكثير المألوف حتى ارتدوا على أدارهم، وهذا شأن النفس في معاودة ما تقبه بعد الانقطاع عنه إن كان الانقطاع قريب العهد.

فمعنى (قالوا): قالوا قولًا عن اعتقاد ورأي، وإنما قالوا: (في بعض الأمور) احترارا لأنفسهم؛ إذ لم يطيعوا في بعض الأمر والذين كرهوا هم الذين كرهوا القرآن وكفروا وهم: إما المشروكون من أهل مكة قال تعالى فيهم: "ذَلِكَ بِأنْهَرَمْ كَرِهَوْا مَا نَزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ" (محمد)، وقد كانت لهم صلة بأهل يثرب، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، اشتد تعدد أهل مكة لأصحابهم من أهل يثرب ليتطوعوا إلى أحوال المسلمين، ولعلهم بعد يوم بدر كانوا يکونون للمسلمين ويتآهون للثار منهم، والذي آذروه يوم أحد.

وأما اليهود في قربة والنصير فقد حكي الله عنهم في قوله: "آلم تر إلَّ
الذين كفرن. فقلوا: إنه سماح! فقلوا: إن الذين كفروا من أهل البيت! [الحشر: 11]
والمراد به "بضع الأمر" على الوجه الثاني بغض أمر القتال يعنون تلك المكيدة التي تبدوها للاغذال عن جيش المسلمين، والأمر هو شأن الشرك وما يلازم أهله أي نطيعكم في بعض الكفر، ولا نطيعكم في جميع الشروط؛ لأن ذلك يفضح نفاقهم، أو المراد في بعض ما تأمر وتأتي به من إطلاق المصدر، وإزالة اسم المفعول كالخلق على المخلوق، وأيا ما كان، فهم قالوا ذلك للمشركين سرا فأطلق الله نبى موسى؛ ولذلك قال تعالى: "وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْتَرْأَهُمْ"، وقرأ الجمهور: أسرارهم يفتح الهزيمة جمع سر، وقرأ هزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بكسر الهزيمة مصدر أسر (انتهى).
43- القرآن: المجيد

قَوْلُ اللَّهُ ﷺ ﴿قُلْ إِنِّي لَتُطَمِّرُ الْكِتَابَ وَإِنِّي لَأُحْكَمُ فِيهِ وَأَلْقَيْتُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ أَنْفُسَهُمْ ﴾[ق]ً

فَقِهٌ من الأحرف النورانية، ولم يذكر هذا الحرف إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، وسميت السورة التي بدأ بها باسمه وعرفت باسم سورة ق، وكأكبر الحروف النورانية لم يكن ق آية مستقلة كما كان شأن: حم في سورة الزخرف، وقد ورد الحديث في كثير من هذا البحث عن لغة الأحرف النورانية فيما سبق ويأتي مباشرة القران متعاطيا على ق القرآن الَّذِي يَحْكِمُ ﴿ق وَالْقُرْآنَ الَّذِي يَحْكِمُ ﴾ويأتي هذا القسم والحرف النورائي مشابهًا تماماً لما ورد في افتتاح سورة: يس يقوله تعالى: ﴿يَسُ ﴾ وَالْقُرْآنَ الَّذِي يَحْكِمُ ﴿كَانَتْ يَسُ آيةً مُنْفَصِلَةً. ﴾}

والقسم بالقرآن يتكرر كثيراً في كتاب الله، فهو أول القرآن آية محكمة من آيات الله، ويعتبر من الأعجائب التي وقف الإنسان عجزاً عن أن يتأثر بها أو بسورة منه، وكذلك وقف الإنسان على تكرار زمانه، وتنوع ثقافاته وعقوله عن سبيله التحدي الذي ورد في هذا القرآن. فالقسم به متكرر لعظمته، ووصفه - كما سيأتي - بأنه لو أنزل على جبل لرآيته خشعاً متصدعاً من خشية الله: ﴿لَوْ أُنزِلْتَا ﴾ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جِبَلٍ لَّرَأِيْتُهُ خُشُّعًا مُّتَصَدِّعًا مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ الآية [الص: 21]. وتكرار القسم به أيضاً تذكير للناس، وإنذار لهم، وبشرى للمؤمنين لما احتوى هذا الكتاب من هذه الأمور التي تركزت فيه من أوله إلى آخره و آية الحكم كما الحكم: من أسماء الله تعالى، وقد أعطاه الله تعالى للقرآن وغيرها من أسمائه جل وعلا، تكريمًا وتمجيدًا لهذا الكتاب المجيد.

ق وَالْقُرْآنَ الَّذِي يَحْكِمُ ﴿ق وَالْقُرْآنَ الَّذِي يَحْكِمُ ﴾ مقدمة لإقرار حقيقة وموقف غير عادي، فهى قولة تعالى: ﴿يَسُ ﴾ وَالْقُرْآنَ الَّذِي يَحْكِمُ ﴿إِنَّ اللَّهَ ﻋَلَى َذَٰلِكَ ﺔرْشَاءٌ ﴾} [يس]، ليؤكد حقيقة نبوة محمد ورسالته بعد هذا القسم.
وهنا أيضاً يؤكد موقف المماندين المشركين بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَمَاتَوا مَاتًا يُنذِرُونَ مَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ} موقف الذين سمعوا هذا القرآن، وعجزوا أمام باغله، وجده وحكمته وقوته، وحاولوا اختراق جدار العظمة بقوهم عن الرسول شاعر، أو كاهن، أو ساحر. لكنهم تصاغروا عندما نفيت هذه الصفات لقينا في أذهانهم وأفكارهم عن النبي ﷺ، انتقلوا إلى موقف آخر؛ إذ تخشىهم العجب أن يأتي نذير لهم منهم، ربما كانت أفكارهم بعيدة عن أحوال الرسول، الذين ظهروا في أماكن أخرى غير دارهم وقرآهم، فأتبع موسي قريبا منهم في يثرب، وأتباع عيسى أيضا في نجران والحبشة وحتى الشام، لكن أن يأتي منهم نذير هذا ما كانوا ليتوقعوه، وكانهم نسوا أو تناسوا نبوة إبراهيم وإسماعيل عليه السلام وكلاهما يعيشان في عمق العقل العربي قبل التحول إلى الوثنية بفعلة عمرو بن حلي، وتناسوا أو نسوا أنهم مرتبطن بجيوث متينة بأسس الديانة الخمينية التي دعا إليها إبراهيم ﷺ وأبوهم إسماعيل.

{غَيَبَوا أَنَّ جَاءَهُمْ مَنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَفَّارُ هَذَا شَيْءٌ غَيْبٌ} شيء لا يمكن أن يقع بينهم وتكرار كلمة العجب بعجوا وإن هذا شيء عجيب، كان منطق الكفار وديثهم كلما أخذوا بأمر غير عادي في حياتهم الرتبة من كفرهم بالله، وخروجهم عن دين إبراهيم وإسماعيل، وما جاء محمد ليقومهم أخذهم العجب كل مأخذ، وإقرار هذا الموقف في هذه السورة بين مدى التخطيط والفوضى التي سادت حياة الكفار في مكة، أو في جزيرة العرب عموما عند ظهور الإسلام؛ ولذلك كانت ردة العقل منهم قاسية ونعيمة يتخللها الكبر والعجب، وكلاهما من ضعف المذدين، والذين كنوا وصدوا عن ذكر الله.
44- القرآن المذكر

"خَنُّ عَلَمُ رَبِّكَ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتُ عَلَيْهِم بِجَبَرٍ فَذَكَّرْ بِالْقُرآنِ مِنْ خَافٍ وَعَيْبٍ" [ق] .

بدأت سورة ق بالقسم بالقرآن الكريم، وعجب الكافرين من هذا الذي أنزل على محمد وتدرج الإذنار في آيات السورة وكذلك ذكر جهد الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، وإنذار الكافرين مع ذكر عظمة الله تعالى في خلقه، والتذكير بآيات الله تعالى المبعدة مما يقع تحت ناظريهم، وعجز المخلوقات عن كشف كنه أسراها، حتى باتوا يمثلها، أو يجزء بسيط لما تحت أيدهم. والتذكير باليوم الآخر الذي أعده الله تعالى لتجزئ كل نفس بما قدمت في الحياة الدنيا كقوله تعالى:

"وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُبَتَّلُ الأَمْوَاتُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ بيَوْمٍ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرْجِ (٤) إِنَّكَ هُنَّ تَحْيَى وَنُعْمَيْتُ وَإِلَيْنَا اِلْمَصْرُوحُ (٥) يَوْمَ تَشْقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ (٦) بِيَوْمِ ذَلِكَ حَتَّى هُمْ عَلِينَا يَسِيرُونَ (٧)" [ق] . تلك الآيات التي سبقت الآية (٤٥) موضوع الحديث فالآية (١) استناد باني ناشئ عن قوله: «فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ» فهو إيفاف في تسلية النبي ﷺ وتعريض بوعدهم، فالخبر مستعمل مجازا في وعد الرسول ﷺ بأن الله سيعاقب أعداءه.

وقوله تعالى: "وَمَا أَنتُ عَلَيْهِم بِجَبَرٍ تطمنين للرسول ﷺ بأنه غير مستقل عن عدم اهتدائهم؟ لأنه إنما بث داعيا وحادا، وليس مبعوثا لإرغامهم على الإيمان، والجبار مشتق من جبره على الأمر يعني إكرهاء.

وفرع عليه أمره بالتذكير؛ لأنه ناشئ عن نفي كونه جبارا عليهم، وهذا كقوله تعالى: "فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنتُ مُدَّخَلٌ مَّعَهُمْ بِمَصِيَّرِهِ (٨)» [الغاشية] ، ولكن خص التذكير هنا بالمؤمنين؛ لأنه آراد التذكير الذي يرفع المذكر، فمعنى، فذكر بالقرآن فيذكر من يخف وعيد، وهذا قوله: «إِنَّمَا أَنتُ مُدِينُ مَنْ خَشَسَهَا (٩)».

(١) تفسير التنوير والتحرير، ٢٦ / ١٢ / ٣٣٤.
وَهَكَذَا فَقِدْ خَنِمَتِ السُّمَوَّةُ الْمَبَارِكَةُ بِالْقُرْآنِ مَذَكْرَا بِهِ وَتَعْجِبُ الْكَافِرِينَ مِنْهُ وَمِنْ عَظْمِهِ وَجَلَالِهِ، وَأَخْتَبَيْنَ بِتَسْلِيْهِ الرِّسُولُ ﷺ بِأَنْ رَآى الْكَافِرِينَ وَأَقْوَاهُمْ وَأَفْعَاهُمْ يَعْلَمُهَا اللَّهُ وَهِيَ عَلَيْهِمْ أَذْىٌ فِي نَارِ جَهَنَّمِ وَبِيَا مَحْمَدٌ لَّسْتُ عَلَيْهِمْ بِجَبَارٍ لَا تَسْتَطِيعُ أَكْرَاهُمْ عَلَيْهِ أَنْ يُؤُمِّنُوا هذِهِ هَدَايَةُ مِنْ اللَّهِ تَعَلَّمَ لَهُمْ أَنْ هُمْ أَهْتَدِىٌ وَعَمِيَّةٌ عَلَى الذِينَ عَطَلُوا حَوْاسِمَهُمْ عَنِ الْحَقَاقِ المَبْنُوَةِ فِي أَنْفَسِهِمْ وَمَا حَوْلُهُمْ وَلَدَلِّ اللَّهِ تَعَالَى نَبِيٌّ عَلَى طَرِيقِ مَذِّ أَثْرٍ لَّبَغَ لَّهُ مَا يَجَرَى الْقُرْآنَ مِنْ تَأَثِيرٍ جَبَارٍ فِي نَفْوِ الْنَّاسِ لَوْسِيَّةً فَقْطَ فِي نَفْسِ الْكَافِرِينَ لَكَانَ أَيْضًا فِي تَثْبِيتِ إِمَامِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَسْلِيْهِمْ عَنْ نَجَاحِهِمُ السَّحِيقِ فِي هَدَايَةِ الْنَّاسِ وَبَذْهُمْ عَلَى الصَّبِرِ وَالْإِثْبَاتِ فَهُمُ الذِّينَ يَخَافُونَ الْعَيْدِ يَخَافُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَيَزِدَدُونَ إِمَاناً كَلَّمَا قَرَأُوا هذَا الْقُرْآنَ وَفَهْمَ آيَاتِهِ وَمَقَاصِدِهِ فَهُمُ الذِّينَ يَخَافُونَ الْعَيْدِ.
45- القرآن المعصر

فَكَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قُوْمٌ نُوحٍ فَكَذَّبْتُمْ أَنفَاسَنا وَأَنفَاسَ أَبِيِّنَا وَأَنفَاسَ عِبَادَنا فَأَذَّنُوا رَبُّهُمْ أَنَّ مَعْلُوِبَ فَأَنْصَرَ فَفَتَنَّا أَبْوَابَ السَّمَاوَاتِ يَكَامُ مُتَفَهِّرًا وَفُجِّرَتْ أَلْرَضٌ عِبَارُهَا فَأَلَقَتْ الْمَاءَ عَلَى أَمَامٍ فَقَدْرٍ ﷺ وَحَمَّلَهُ عَلَى ذَاتٍ أَلْوَاحٍ وَذَسْرٍ ﷺ ثُمَّ ثَبَتْ بِأَعْمَى جَزَءَهُ ﷺ ﷺ ﷺ وَلَقَدْ تَرَكْنِهَا عَابِيَةً فِهِلَّ فَأَذَّنَ مِنْ مَذَكِّرٍ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ 

سورة القرءان من مطلعها إلى ختامها حيلة عذبة نزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالندر، بقدر ما هو طمانينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدق، وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة، كل حلقة فيها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين، يأخذ السياق في ختامها بالحس البشري، فيضطره ويجهزه ويقول له: فكيف كان عذابي.
وَتَذَرُّ، ثُمَّ بَرِسْلَهُ بِالْفَضْطَحِ وَهُزُّ، وَيَقُولُ لَهُ: "فَلَمَّا نَزَّلَتْ الْقُرْآنُ لِلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مَذَكِّرَةً فَهْلَ يَأْكُلُ مِن مَّذَكِّرَةٍ؟".

وَمَحْتَوَىَاتَ السُّورَةِ المَعْصِيَةَ وَارْدَةَ فِي سُورَ مُكَّةَ شَتَىٰ، فَهِيَ مَشْهُدٌ مِنْ مَشْهُدٍ الْقِيَامَةِ فِي الْمَطْلَعِ، وَمَشْهُدٌ مِنْ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ فِي الْخُتُمِ، وَبِينَهَا عَرْضٌ سَرِيعٌ لِمَصَارِعٍ قَوْمٍ نُوحٍ، وَعَادٍ وَثَمُودٍ، وَقَوْمٍ لَوْطٍ وَفَرْعُونٍ وَمَلِئِهِ، وَكُلُّهَا مَوْضُوعٌ تَزَخْرُ يَا السُّورَةِ الْمُكَّةَ فِي صُورَ شَتَىٰ.

وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتُ ذَٰلِكَ تَعْرِضُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَرْضًا خَاصًّا. يَمِلَّهَا جَدِيدَةَ كُلِّ الجَدَّةِ، فَهِيَ تَعْرِضُ عَنْيَةً عَاصِفَةً، وَحَاصِمَةً قاَصِمَةً، يَفْيَضُ مِنْهَا الأَهْوَلِ، وَيَنْتَبِهِ لَهَا الرِّعْبِ، وَيَظْلِمُ لَهَا الدِّمَارِ وَالفِزْعِ وَالَاِبْنَاءِ، وَأَخْصِمَا يَمِيِّزُهَا فِي سَيَاقِ السُّورَةِ: "أَنَّ كُلًا مِنْهَا يُمِيلُ حَلَقَةُ عَذَابٍ رَهِيبٍ سَرِيعَةٌ لَاهِتَةٌ لَاهِتَةٍ".
صفة كتاب الله في كتاب الله

مكروية يشهدها المكذبون، وكأنهم يشهدون أنفسهم فيها، ويسعون إيقاعات سياطها، فإذا انتهت الحلقة وبدؤوا يستردون أنفسهم اللاهية المكروية بما عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولا ورعابة، وهكذا حتى تنتهي الحلقات السبع في هذا الجو المزروع الحائض، فبطل المشهد الآخر في السورة، وإذا هو جو آخر، ذو ظلال أخرى، وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة، إنه مشهد المتين هؤلاء الذين في جَنْسِيَّة وَهْرِّبٍ في مَعْقِدِهِ صِدِّي قَمِّهِ مَقْتَدَرٍ [النصر] في وسط ذلك الهول الراجح والفزع المزروع، والعذاب المهين للمكذبين يَوْمَ يُسْحَبُونَ في آنٍ ثَانٍ عَلَىٰ وَجُهَّهِمْ ذُوقًا مَّسَّ سَفَرٍ [النصر].

فأين، وأين؟ مشهد من مشهد؟ ومقام من مقام؟ وقوم من قوم؟ ومصير من مصير؟

تبدأ السورة بقول الله تعالى: «فَأَقْرَبُتِ الْشَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقُمْرُ ﷺ ﴿وَإِنْ يُرِوْاْ ءاَيَّةً﴾ يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سَحْرُ مُسْتَحِبٍّ ﴿وَمُكَذِّبُواْ وَقَبَّعُواْ أَهْوَاهُمْ ﴿وَسَكَّنَ أَمْرُ مُسْتَقِرٍّ ﴿وَلَقَدْ جَاهِزُوهُمْ مِنَ الْأَلْبَائِ مَآَ فِيهِ مُرْدَجٍ ﴿حَسَّةً بِلِبَغْةٍ فَمَا نُفِىَ الْبَذِّرُ ﴿[النصر]».

لقد ثبت في الروايات الصحيحة انشقاق القمر في عهد رسول الله ﷺ، فقِد رواية أنس بن مالك ﺔ التي رواها الإمام أحمد، وأخرجها الشيخان البخاري ومسلم - من طرق أخرى عن قناته عن أنس، ومن رواية جبير بن مطعم رواها الإمام أحمد، وأرواها ابن جرير والبهقى من طرق أخرى.

قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه، وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا.
وقال الطبراني بسنده آخر: عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كسف القمر على
عهد رسول الله ﷺ فقالوا سحر القمر، فنزلت: 
 "وَإِن يُرَأَى عَلَيْهِ يُعْرَضَوْاْ وَيُقُولُوْا
سُحْرُ مُسْتَكْمِرٌ" إلى قوله: "مستكبر".
وقال البخاري ومسلم من حديث سفيان بن عيينة، وعن مسروق عن عبد الله
ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت فريش: هذا سحر
ابن أبي كيبة. قال فقالوا: انظروا ما يأتيكم من الأسفار، فإنهم قد لا يستطيع
أن يسحر الناس كلههم. قال: فاجاء السحار فقالوا كذلك.
وكل الروايات متواترة من طريق شنئ كما أوضحها صاحب الظلال (1) عن
وقوع هذا الحادث، وتحديد مكانه في كلمة باستثناء رواية عن ابن مسعود أنه
كان في متي - وتحديد زمانه في عهد النبي ﷺ قبل الهجرة - وتحديد هيئة - في
معظم الروايات أنه انشق فلكتين، وفي رواية واحدة: أنه كسف (أي خسف) ،
فالحدث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة.
وهو حادث واجه به القرآن المشركون في حينه، ولم يرو عنه تكذيب لوقوعه.
فلا بد أن يكون قد وقع فعلا بصورة تتعذر معها التكذيب، ولو على سبيل المراء
الذي كانوا يمارسونه في الآيات، لوجدوا منتقساً للكذيب، وكل ماروين عنهم أنهم
قالوا: سحرنا! ولكنهم هم أنفسهم انتهوا الأمر، فعرفوا أنه ليس بسحر، فلم
كن قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به
حين سئلوا عنه وساق صاحب الظلال بعد ذلك كلمة في الروايات يحسن الرجوع
إليها (2).
وتنقل بعد ذلك إلى تلك الصور المخيفة التي ذكرها الله تعال عن الأقوياء
السالفة، وصور العذاب التي أصابت المكذبين للأنبياء، ثم يقول تعالى: وَقَلَدْ
يَسْتَرُبُّ الْقُرَءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدْكُرٍ (3) ومثال ذلك ابتداء: "كَذَّبُوهُ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ".
(1) الظلال 6 / 3426.
(2) في ظلال القرآن 6 / 3426-3429.
(3)
نوح) بالرسالة وبالآيات (فَكَذَّبْبَوْا عَبْدَنَا) .. نوحا (وَقَالُوا مَجَنُونٌ) كما قالت قريش ظالمة عن محمد وهدده بالرجم، وآذوه بالسخرية، وطالبوه أن يكف عنهم، ونهروه بعنف (وَأَرْدَفْنَ) ، بدلاً من أن ينزروا هم ويرعوا ه.

عندئذ عاد نوح إلى ربه الذي أرسله وكلله مهمة التبليغ، عاد لينهى إليه ما انتهى إليه أمه مع قومه، وما انتهى إليه جهده وعمله، وما انتهى إليه طاقته ووسعه، ويدع له الأمر بعد أن لم تعد لديه طاقة لم يبذلها، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول.

(فَعَدَّاهَا رَبُّهُ أَنْ يَمْغُلُوبُ فَأَتَّصَرَّ)  

انتهى طاقتى، انتهى جهدي، انتهى قوتى، وغلبت على أمرى (أَنْ يَمْغُلُوبُ 
فَأَتَّصَرَّ) انتصر أنت ربي، انتصر لدعوتكم، انتصر حقك، انتصر لن negerك، 
انتصر فالأمر لك والأمر أمرك، والدعوة دعوتكم، وقد انتهى دورى وجهاء 
هذا الكلام بعد دهر طويل دام ألف سنة إلا خمسين عاما. ليس يوما أو بعض يوم 
ولا شهرا ولا سنة ولا قرنا، بل قرونا طويلة جدا، أمد الله تعالى بعمر نوح كما 
أمده بعمر القوم الذين أرسل إليهم.

ويأتي بعد ذلك المشهد العظيم حيث قال تعالى: (فَقَفَتْنَا أَبْوَابَ السَّمَاوَاتِ بِمَّهْرٍ) 
و(فَفَجَرُنا الأُرْضَ غَيْبًا) قالت نبى الله عليه وسلم و(مَا اسْتَقِرَّ)  
مام السماء وما الينابيع ليغرب الأرض ويتجو نوح ومعه، ويستمد التصور الواعي لهذا المشهد 
والله يبال الذي أصاب قوم نوح ومنهم أمراه وابنه (وَصَبَّ رَبُّ اللَّهِ مُثَّلًا لِلَّذِينَ) 
كفرنا أمرات نوح (النوح: 10). وقوله تعالى: (فَقَالَ يَتْنُوحُ إِنَّهُ لَيَسْتَنِبُّ) 
(إِنَّهُ عَمِلَ عَيْبًا صَِّلْيَاب) (هود: 46).

وعلى مشهد الانتصار الهائل الكامل؛ واتخاذ الحاسم الشامل يتوجه إلى القلوب 
التي شهدت المشهد كانوا تراء، يتوجه إليها بتصميم التعقيب، لعلها تتأثر 
و تستجيب.
ولقد تركب لها آية فهل من مدكرِ (٥) فهذا الواقعية بملابستها المعروفة، ترتكبها آية للأجيال فهل من مدكر يتذكر ويعتبر.

فكيف كان عذاب وتدبر (٦) ولقد كان كما صوره القرآن. كان عذابا مدمرا جبارا، وكان نذيرا صادقا بهذا العذاب.

وهو القرآن حاضرا، سهل التنوال، ميسر الإدراك، فيه جاذبية ليقرأ ويدبر، فيه جاذبية الصدق والبساطة، وموافقة الفطرة، واستجابة الطبع، لا تنفد عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، وكلما تدبره القلب عاد منه يزداد جديد، وكلما صحبته النفس زادته له ألفة، وله أنسا.

ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكرِ (٧)

وهو التعقيب الذي يكرر، بعد كل مشهد يصور، ويقف السياق عليه بالقلب البشري، يدعو دعوة هادئة إلى التذكر والتذكر بعد أن يعرض عليه حلقة من العذاب الأليم الذي حل بالمكذبين (١).

ثم يأتي خبرعاد: وهو الحلقة الثانية، أو المشهد الثاني من مشاهد التعذيب العنيف، والصرع الذي يقف عليه بعد وقته على مصروع قوم نوح، أول المهالكين ويصور الدمار والعذاب التي أصاب قوم عاد، مشهد مفعول خيف، وعاصفة عنيف، والريح الذي أرسله إلى عاد هي من جند الله، وهي قوة من قوى هذا الكون من خلق الله، تسير وفق الناموس الكوني الذي اختاره وسلطاها على من يشاء، بينما هي ماضية في طريقها مع ذلك الناموس - بلا تعارض بين خط سيرها الكوني، وأدائها لما تميز به وفق مشيئة الله صاحب الأمر وصاحب الناموس.

فكيف كان عذاب وتدبر (٨) يكررها بعد عرض المشهد، والمشهد هو الجواب. ثم يختتم الحلقة بالتعقيب المكرر في السورة وفق نسخها الخاص.

ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكرِ (٩)
ثم يمضى السياق إلى المشهد الثالث في توازي الزمن وفي التاريخ:

«كذبت ثمود بالندير» إلى آخر الآيات، وبعد أن كذب القوم بينهم صالحاً وعقبوا الناقة التي أرسلت معجزة لنبيها وآية من آياته وفتنى للذين كفروا.

فقد أرسلت على القوم صحة واحدة، ففعلت بهم ما فعلت بما جعلهم هشيم المعجزة، واحتفظ صانع الحظيرة وهو يصنعها من أعواد جافة، فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تسج وتتحطم وتتصبح هشما أو أن الحظيرة يجامع لماشيته هشما تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف. وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الواحدة، وهو مشهد مفعزل مفعزل، يعرض رداً على التعال والتكبر إذا المتعالون الكحرون هشيم، وهشيم مهن كهشيم الحظيرة.

وأمام هذا المشهد العنيف المخيف، يرد قلوبهم إلى القرآن ليذكروا ويتذكروا.

وهو مسر للذكر والتدبر: ولقد يسرنا القرآن لذكرك فهل من مذكركم.

ويستدر السياق على الهشيم المهن، وفي العين منه مشهد، وفي القلب منه أثر. والقرآن يدعى من يذكر ويتفكك (1) ويفرع السياق عن حلة جديدة تالية - كل سبق ذكره، قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، كانوا من قدماء الأمم التي هلكت، وقبل أن يبعث إبراهيم، هذه الصورة الجديدة كانت حدثية جداً نسبة إلى ما سبقتها، فقد وقعت في حياة إبراهيم، فلوط أبى عليه هاجر معه من أور وقد أمم معه، فأرسله الله تعالى إلى قوم سدوم في محيط البحر الميت في فلسطين، قرباً من مكان استقرار إبراهيم بين الخليل وبر بسح حيث تركزت حياة إبراهيم، منطقاً منها إلى مصر ومكة.

قُدِّبَت قُوَّمٌ لَوْتُ بَالنَّذِيرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ حَاصِبًا إِلَّا إِلَى لَوْتٍ جَعَلُوهُمُّ

يَسْحَرُونَ بَعْضُهُ مِنْ عَبْدِنَا، كَذَلِكَ جُرِيٌّ مِنْ شَكْرٍ تَعَلَّمُوا

إلى قوله تعالى: فَذَوَّقاً عَدَاي وَنَذِيرٍ، وَلَقَدْ يَسَّرَنَا اللَّهُ عَلَى الْلَّدْرَكِ فَهَلْ مِن

(1) بتدخيل مع فقرات من ظلال القرآن 6/2420-2433-2443.
ورقة قوم لوط وردت مفصلة في مواضيع أخرى، والمقصود بعرضها هنا ليس هو تفصيلاتها، إنما هي العبرة من عقيدة التكذيب، والأخذ الآلية الشديد، ولقد ربط الله تعالى بين لوط ونوح في سورة التحريم، بلزجتهما اللتين خانتهما وأهلكتا مع هلاك قوم نوح قوم لوط، قال تعالى: \(َّصَبَرَُّ اللهُ مَثَالَ لَّلَّدِيْرٍ \) كفرها أمَّاتٌ نوح وأمَّاتٌ لوط، سكنتا تحت عبدين من عبادنا صلحبين في عينهما.
فلما يغيب عنهما من الله شيء وقيل أدخل أتلك مع الدخيلين [التحريم]

وقد جرى السياق مجرى الحكايّة، إذا بحاضر مشهور، وإذا الخطاب يوجه إلى المعذبين: \(َّفَذُوقُوا عَذَابَ وَتُنْذِرُونَ \) فهذا هو العذاب الذي حرَّمته منه، وهذه هي النذر الذي مارتم فيها.

وكان طمس العيون في السماء في انتظار الصباح الذي قدره الله لأخذهم جميعاً. \(َّوَلَقَدْ صَبَحْتُم بِكَرَّةٍ عَذَابٍ مُشْفَرٍ \) وهو ذلك العذاب الذي عجل بذكره في السياق، وهو الحاسب الذي يظهر الأرض من تلك اللوحة ومن ذلك الفساد، ومرة أخرى تغير طريقة العرض، ويستحضر المشهد كأنه اللحظة واقع، وينادي المعذبون وهم يعانون العذاب: \(َّفَذُوقُوا عَذَابٍ وَتُنْذِرُونَ \).

ثم يجيئ التعقيب المألوف، عقب المشهد العنيف: \(َّوَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلْدِّيْكَرِ \\فَهَلْ مِن مَّذْكَرٍ \)
القرآن

الرحمن

سورة الرحم الحكمة، وقد ورد عن أبي جعفر بن جرير، حدثنا محمد بن عباد بن موسى، وعمرو بن مالك البصري. قالا: حدثنا يحيى بن سليم عن إسماعيل بن أمية، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحم أو قرئت عنده: "فيأتي الالآئ زكتما تكتبون". فقال: ملأ أسمع الجن أحسن جواباً لربي منكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ما أتيت على قوله تعالى أو قول الله "فيأتي الالآئ زكتما تكتبون" إلا قالت الجن: لا بشيء من نعمة ربي تكذب ورواى الحافظ البزار، عن عمرو بن مالك به. ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

ذكر الله تعالى من أسمائه الحسنى التنعس وتسعون لفظ الرحم ليبدأ به هذه السورة، ولجلب انتباه القارئ إلى صفة الرحمة التي خص الله تعالى بها البسمة "بسم الله الرحمن الرحيم"

وبدأ بها فتحة الكتاب "الحمد لله رب العالمين". وعلى هذا اسم قد ورد في القرآن بعد لفظ الجلاله: الله بالاتساع والإشارة والذكر والرحم سميت السورة باسمه تعالى: سورة الرحم، والتي تعتبر من السور القوية الشديدة المنذرة المشتركة، وهي أكثر سورة في القرآن الكريم ترددت بها آية وهي: "فيأتي الالآئ زكتما تكتبون"، وأجابت الجن عندما تلتي عليها هذه الآية بالقول: لا بشيء من نعمة ربا تكذب.

فالسورة في عمومها تذكير وإنذار وبشرى، وبدأت بما يشتهيه أو يقارب السور الأخرى التي افتتحت بالأحرف النونية، ولكنها هنا بدأت باسم من أسماء الله تعالى الحسنى الرحمان، وذكر الرحم ما يتناسب بما يله من آيات، وخاصة ذكر القرآن، وخلق الإنسان وتعميه البيان، فمن رحمة الله تعالى بالمؤمنين - وهم من

(1) تفسير القرآن العظيم ص 1794.
علم الله تعالى القرآن وحذف هذا المصعود من علم. لكن الآيات كلها التي ارتبعت بتعليمه تعالى عباده [وعلّمهم آدم الأسماء كلها] [البقرة: 31] [علمَ\) ، وأن الإنسان ما لم يعلم [العلم] وما أُوتِيَ من العلم إلا قليلا [الإسراء].

وأكثر من الآيات التي تشير وتشوه فضل الله تعالى على عباده المؤمنين أن علمهم العلم، وخير ما يعلم الإنسان القرآن، كما في قوله: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، فأتيت تعلم القرآن من الرحمن إلى الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم وفضله على خلقه، وسواه بيده ونهكه، ويعرفه، ويستخلافه في أرضه، وكرمه. هذه صفات هذا المخلوق الذي خلقه الرحمن [ارتجح] علم القرآن، ففضل على فضل وكرم على كرم، ومنه على منة من الله تعالى الذي خلق الإنسان وعلمه القرآن، ويؤكد تاليًا بقوله: [علمه البيان]

وتأتي صفة البيان هنا من صفات القرآن أيضًا فهو البلاغ المتحدي، وهي تالية لذكر القرآن الكريم، وتصل البلاغة بالعرض أوجها، الرحمن خلق الإنسان، علم القرآن، وعلم الإنسان البيان، وتدور كلها حول المؤمنين من الإنسان، واجن في هذه الآيات القصار أربع آيات في أربعة وثمانية حرفًا وصلت أوجه البيان، وبلاغة العرض، وشهد الإنسان القارئ لهذه الآيات إلى متابعة ما عرض الله تعالى في هذه السورة الكريمة، حيث ينتقل بعد هذه الآيات الأربع، نقلةً ملك بها فكر القارئ وعلقه، ليقول بعد ذلك بعرض بلاغ مباغت [الشمسم والقمر في السماء، والنجوم والشجر يسجدان والشماء يرفعها ووضع الميزان] [الله تعالى في الميزان]

وأجمعوا الورث، بلا قطع، ولا تحيرو اليمين [الرحمن] هذا هو القرآن الذي رحم الله به عباده المؤمنين أن علمهم وفهمهم، وسهل عليهم تعليم القرآن، صاحب البيان، الذي تحدى ببيانه الإنس والجان، فعجزوا صاغرين، أمام عظمة وبيان هذا القرآن.
قال جوهر: إن الله لا يقسم بشيء من خلقه، ولكنه استفتاح يستفتح به كلامه، وهذا القول ضعيف، والذى عليه الجمهور أنه قسم من الله جل جلاله، قسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته. ثم قال بعض المفسرين: لا هنا زائدة. وتقديره: أقسم بمواقع النجوم، ورواه ابن جرير، عن سعيد بن جبير، ويكون جوابه: إن أنكر النجوم. وقال آخرون: ليست لا زائدة، لا معنى لها بل يوتي بها في أول القسم، إذا كان مقصما به على منفية، كقول عائشة رضي الله عنها: لا والله، ما مست يدع رسول الله ﷺ امرأة قط، وهكذا ها هنا تقدير الكلام، لا أقسم بمواقع الله كما أقسم في القرآن أنه سحر أوكهانة، بل هو القرآن الكريم.

وقال ابن جرير: وقال بعض أهل العربة: معنى قوله: فلا أقسم، فلا أقسم: فليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد قليل: أقسم. واختلفوا في معنى قوله: بواقع النجوم، فقال حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، يعني نجوم القرآن، فإن نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. وقال الضحاك عن ابن عباس: نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الاتية، الكاتبين في السماء الدنيا، فنجتته السفرة على جبريل عذري ليلة. ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة فهو قوله: فلا أقسم بواقع النجوم، نجوم القرآن، وكذا قال عكرمة، وجاهم، والسدي، وأبو خرزة. وقال

وقوله: "وإنَّهُ لَقَسْمُ لَوْ تَعْلَمُونَ" أي وإن هذاقسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمة قلمبه، عليه: "إِنَّهُ لْقَرْأَانُ كَرِيمٌ" أي أن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم: "في كتب مكذون" أي معظم، في كتاب معظم محفوظ موقر.

قال ابن جرير: حدثني إسماعيل بن موسى: أخبرنا شريك، عن حكيم - هو ابن جرير - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: "لا يَمِسْهُ، إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ" قال: الكتاب الذي في السماء، وقال العوفي عن ابن عباس: "لا يَمِسْهُ، إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ" يعني الملائكة. وكذا قال أنس، وجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، وأبو نهيك، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الأعلى، حدثنا ابن ثورة معمر، عن قتادة: "لا يَمِسْهُ، إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ"، قال: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسه الحوسني النجس، والمنافق الرجس. وقال: وهي في قراءة ابن مسعود: ما يمسه إلا المطهرون، وقال أبو العالية: "لا يَمِسْهُ، إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ" ليس أنتم أصحاب الذنوب. وقال ابن زيد: زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه "لا يَمِسْهُ، إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ" كما قال: "ومَا تَنْزَلْتُ بِهِ آلِ السَّبِيعِينَ وَمَا يَنْزِعُونَ هُمُ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنْ تَهَمَّ عَلَى آمُون لاَّ مُغَزَّولُونَ (3)" [الشعراء]، وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله.
وقال الفراء: لا يجد طمعه ونفعه إلا من آمن به، وقال آخرون: لا يمسه إلآ المطهرُون، أي من الجناة والحدث قالوا: ولفظ الآية خير ومعناها الطلب قالوا: والمراد بالقرآن ها هنا المصحف، كما روى مسلم عن ابن عمر، أن رسول الله نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، خائفة أن يناله العدو، واحتجوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في موطبه. عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرو بن حزم: أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله لعمرو بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر، وروى أبو داوود في المراسيل، من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله قال: ولا يمس القرآن إلا طاهر، وهذه واجدة جيدة. قد قرأه الزهري وغيره، ومنه هذا ينبغي الأخذ به، وقد نسده الدارقطني عن عمرو بن حزم، وعن الله بن عمر، وعثمان ابن أبي العاص، وفي إسناد كل منهما نظر، والله أعلم.

وقوله: "تنزيلُ على الأعيان" أي: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع، انتهى(1).

(1) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير ص 1818، 1819.
48. أثر القرآن في الكون (مثال)

"لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته. خشيعاً متصدعاً من خشية الله وتنزل الأمثلة تشرداً للناس لعلهم يتفكروا في الحشر" [البقرة] 

تأتي هذه الآية الكريمة تزويجاً لكل ما ذكر عن عظمة القرآن الكريم وفضله وسموته، وبأنه الكتاب الوحيد في الكون السماوات والأرضين - مكتماً محفوظاً، مشتائلاً، كل أوامر الله تعالى ونواهيه، مبهرًا من التحريف والتزوير والتغيير والتبديل. كما أنزله الله تعالى من الروح الخفيف في ليلة القدر إلى سماء الدنيا. ليتكفل جبريل بتزييله على خير خلق الله سيدينا محمد، وليبقى القرون والسنون والليالي والأيام على شكله، وعلى محتواه الذي نزل به، وتكفل الله تعالى على حفظه من كلسوء، وما مسه عند نزوله إلا المطرعون من الملائكة.

لا يمسه إلا المطرعون من المؤمنين الذين مهما وصل بهم حبه وتقبه، وترتيبه فلن يصل محل إلى ماورد ووصفه في هذه الآية الكريمة.

لو أن الجبل قد وى بعقل وقلب ولم يكن جامداً صليداً ثابتاً آبداً، لو أن الجبل الشامخ القوى المرتفع الذي هو وتد من الأوتاد التي تحافظ على توازن الأرض في سرعتها، وتنقلها في أبجاتها حول الشمس في العام مرة، هذا الذي نرى من علو وارتفاع، تجسد هذا الجبل لو أنه أعطى ما أعطي الإنسان والجن والملائكة من نعمة التعقل والتفكير والحركة والموت والحياة، لو أن هذا حصل في ظرف أو مكان أو زمان، وانتظر الجبل أيا كلف به ليرى مبلغ ثباته وانغاسه في الأرض كتمثل ليبقى في توازن وثبات.

لو أن هذا حصل وأنزل عليه هذا القرآن أنزل عليه كما أنزل على محمد لنساء، وكما سمع به الجن فقالوا: "قل أواهي إلى أنهم أسمعون نقرن من أجل فقأوا إنا سيعنا قرؤنا عجبنا بهدؤ إلى النضر، فاقطنا به، ولن نشرك بيننا أحدًا" [الجبل] فرايت هذا الجبل الصاعد، الثابت، الشامخ، العالي، المعتر بتكوينه ووظيفته، لرأيت هذا
الجبل خشعاً، والخشوع هو الأخلاق وقهر التكبر، والتواضع، والشعور المطلق
بالعجز أمام عظمة الخالق الذي خلق الجبل والشجر والحجر والوادي والنهر،
وكل ما في الأرض، وكل ما في الكون، خشعاً بأخلاق المؤمن الذي يرى
ظلمته لا شيء أمام عظمة الله تعالى وقوته، خشعاً، ضعيفًا، منحنياً، خاضعاً
رأسه، مسلمًا عينيه، حانينًا جسمه يهيم بالسجود لعظمة الله تعالى.
والشعور المطلق بعظمة هذا الكتاب القرآن الكريم، الذي أنزل من لدن عظيم
السموات والأرض، وليس هذا فقط، بل تراه وقد تكبت أوصاله، وتصدعت
أحجاره، وتثبت صخوره، وتشققت مدارج ومسالكه، وظهر عليه التهالك
والتعرض الذي فقد قوته وخصمه وثباته، وبدا وبأحسن تعبير، وأبلغ مقال
واسمى كلام. "خشيناً متصدعاً".

القرآن ينزل على الجبل فيخشع الجبل ويتصدع عن أي شيء؟ هل لفجر النزول
وصل الجبل إلى هذا الحال. أم أن هناك أمراً آخر؟ أوقع في التماسك والثبات
والشموخ ألا وهو خشية الله تعالى الذي يعلم أن الفارق بين المخلوق والخالق
درجات لا يمكن عدها أو تمثلها أو حصرها، إما هي متشابهات، ولكنها في
الواقع مخلوق تتحرك يد الخالق، هذا والخشية من الجبل الذي أفترض به العقل
والتدبير، وبه النظرة العظيمة التي أودعها الله الإنسان "إن في الجسد موضعه إذا
صلحت صلح الجسد كله وإذا فقدت فقد الجسد كله، إلا وهو القلب" كما
قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه خشعاً متصدعاً من خشية الله تعالى
والخوف منه أو الرهبة أمامه، مما أودع هذا القرآن من أسرار تكشف أثباتها بعد
حين بإذن ربه.

وهذا مثل ليعي الإنسان ما بين يديه من كتاب الله، ليعي الإنسان عظمة هذا
الذي يتناول يومياً ويقرأه في صلاته، ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار،، وهو
لاه أو مناسو، أو غير معنبر لهذه العظمة، وهذه الروعة التي في ثناها هذا الكتاب
العظيم، أمثال يضربها الله للناس لعلهم يتفكرون، ولعلهم يتذكرون ولعلهم يرون
هذه النعمات العظيمة التي أثر الله تعالى بها المؤمنين من أتباع محمد ﷺ الذين
يدبرون القرآن، وليس على قلوب أقفاها.
ولكن تدبر الغير عالم بكل أسرار هذا الكتاب، ولعل الإنسان لو اكتشف كل أسرار هذه المعجزة الخالقة، في وقت واحد لوقع مغشيا عليه، فاقدا كل ما وهبه الله تعالى من مدارك، وإمكانات، وجبروت، ولتقطعت أوصاله بعد أن خدمته كل عمره متماسكة، ومتناشقة، تؤدي كل واحدة فيها وظيفتها التي تكمل بها الأخرى، فيكتمل الإنسان. لعل الإنسان يفكر أكثر، ويعي أكثر، ويفهم أكثر من عظمة هذا القرآن العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، فاعتبروا يا أولى الألباب، وافهموا يا حملة القرآن، ماذا تحملون؟ وماذا تحفظون؟ وماذا تتناول؟ فهذا مثل لعلكم تتفكرون.
وَرَتَلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيَلاً

يَا يَتَأْبِيَ الْمُرْمَلُ ۛ فَقُرِّ الْقُرْآنَ إِلَّا قَليِلاً ۛ بَصَفْهَاٰ ۚ أَوَّلُهُ ۛ أَوَّلُهُ ۛ أَوَّلُهُ ۛ أَوْ رَدًّا عَلَيْهِ وَرَتَلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيَلاً ۛ إِنَّا سُلُقْنِي عَلَيْكَ ۗ قَلْ تَرْتِيَلاً ۛ (المُرْمَل) ۛ

نَقاوَتْ الآيَاتُ الْآرَاءُ حَوَلُ آيَةِ النُّزْلِ الْفَلَقِ. . . أَسْوَرَةُ الْمَدْثُورُ أَمْ سَوْرَةُ الْمُرْمَلُ؟ لَانَّ الْمَعْنِيَّاتِ أَوْ الْكَلِمَتَيْنِ: الْمَدْثُورُ، الْمُرْمَلُ تَشَيَّانِ إلى حَالَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمُ بَعْدَ تَلْقَيِ الْوَرَحَيْفِ فِي غَارِ حَراَةٍ، وَنُزُولِ الْآيَاتِ الْأَوَّلَةِ، عَادَ إِلَى بِيْهُ خَائِفًا يَرْتِجِفُ وَقَالَ: دَثْرُونِي ۛ دَثْرُونِي ۛ، أَوْ قَالَ: زِمْلُونِي ۛ زِمْلُونِي ۛ، أَيْ غَطَا جَسَدَ بَشَّرِ يَعْطِيَهُ الدِّفَاءَ وَالْهَدْوَةَ نَتِيْجَةَ الخَوْفِ وَالرَّعْشَةِ الَّتِي أَصِيبَ بِهَا بَعْدَ تَلْقِيِ الْأَوَّلِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالسُّوْرَةُ تَشَيَّانِ إِلَى حَالَةٍ إِنْسَانٍ خَائِفٍ قَدْ تَلْحَفَ بِأَغْطَيْهَا أَوْ أَرْدِيَّةَ تَقِيَّةَ الْبَرْدِ وَتُحْفَظُ جَسَمُهُ مِنَ الرِّجَافَاتِ فُخَوْطُبِ فِي الْحَالَيْنِ ۛ يَتَأْبِيَ الْمُرْمَلُ ۛ (المُرْمَل) ۛ، وَبِۛ (يَتَأْبِيَ الْمُرْمَلُ ۛ)

وَقَعَ خَطاً بَيْنَ يَوْحِي بِأَنَّ الْمَدْثُورَ الَّذِي نُزِّلَ قَبْلَ .. إِذْ حَادِثَةُ الْتَدْثِيرِ جَاءَتُ بَعْدَ عَوْدَةِ مِنْ حَرَاءِ مَبَارِكَةٍ فَنُزِّلَ ۛ (يَتَأْبِيَ الْمُرْمَلُ ۛ)، وَكَذَٰلِكَ تَكَلَّافُ الْنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمُ فِي الْحَالَّةِ ۛ قُرِّ ۛ أَنْذِرْ ۛ وَرْزَكْ فَكِتَابِ ۛ وَتَبَيَّنْ ۛ فَطَهَّرْ ۛ وَالْرَّجُزُ فَأَهْجُرْ ۛ تَكَلَّافٌ تَعْتَبِرُ مِنْ أَوْلِ الْعَرَفِ إِلَى الْإِسْلَامِ .. إِنْذَارُ النَّاسِ، تَكْبِيرُ اللَّهِ عَلَى وَالاِعْلَافِ بِرَوْدَانِيَّةِ ابْتِدَاءٍ، تُطِیِّهِ الرِّيْبِ لِلْمُثْلِ أَمْامَ الرَّحْمَنِ فِي الصَّلاةِ، أَوْ لِتَلْقِيِ الْقُرْآنِ العَظِيمِ، وَتَرْكُ الرَّجُزِ الَّذِي هُوَ عَبَادَةُ الْآوْثَانِ أَصِلًا وَسُيْكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ مُحْرَماً .

هَذِهِ تَكَلَّافُ جَاءَتُ ابْتِدَاءَ بَعْدَ ۛ أَقُرِّ بِۛ يَآ أَيُّهَا الْرَّجُزُ الَّذِي هُلَّقَ ۛ الآيَاتِ [المَدْثُور ۛ].

بَيْتُ فِي صَحِيحِ البَخْرَى مِنْ حَدِيثِ يَحِي بِنٍّ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةٍ، عَنْ جَابِرِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَوْلُ شَيْءٍ نَّزِّلَ مِنْ الْقُرْآنِ ۛ يَتَأْبِيَ الْمُرْمَلُ ۛ، وَ(المَدْثُور ۛ)
ويقال في المزمن: يتَّبَعُ ٱلدِّيَارُ ٱلْمُزَمَّرُ. وقال: ۖ يَنْزِلُ ۖ يَتَّبَعُ ٱلدِّيَارُ ٱلْمُزَمَّرُ.

مع أن ترتبها في القرآن بعدها.


ثم قال البازار: مهنا بن عبد الرحمن، قد حدث عنه جمعة من أهل العلم، واحتموا حديثه. لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها.

"يَتَّبَعُ ٱلدِّيَارُ ٱلْمُزَمَّرُ ۖ فِي ٱلْيَلِي ۖ إِلَّا ۖ قَلِيلًا". فصار الله تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمر، وهو النغطي في الليل، وينهض إلى القيام لربه - جل وعلا - كما قال تعالى: "يُنْفِقُونَ ۖ أَمَّا ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا ٖ ٱلذِّينَ ٱتَّبَعُوْنَ ۖ يَتَّبَعُوا ۖ يَتَّبَعُوا ۖ" [السجدة]. وكذلك كان ﷺ يمتلأ ما أمره الله تعالى به من قيام الليل وقد كان واجبا عليه ووجوه. كما قال تعالى: "ۖ وَمِنَ ٱلْيَلِي ۖ فَتَهْجَدَ ۖ بِهِ ۖ تَأَفَّلَةَ لَكَ ۖ عَسَى أَنْ يَتَّبَعَ ۖ يَتَّبَعُ" [الإسراء].

وها هنا يبين له مقدار ما يقوم. فقال تعالى: "يَتَّبَعُ ٱلدِّيَارُ ٱلْمُزَمَّرُ ۖ قِيَمَ ۖ إِلَّا ۖ قَلِيلًا". قال ابن عباس، والضحاك والسدي: "يَتَّبَعُ ٱلدِّيَارُ ٱلْمُزَمَّرُ ۖ يَتَّبَعُ ٱلدِّيَارُ ٱلْمُزَمَّرُ ۖ يَتَّبَعُ ٱلدِّيَارُ ٱلْمُزَمَّرُ ۖ" يعني يا أبيها النائم. وقال قتادة: المزمن في ثيابه. وقال إبراهيم الأنصاري: نزلت وهو متزمر بطبيعاء وقال شبيب بن نصر عن عكرمة عن ابن عباس "يَتَّبَعُ ٱلدِّيَارُ ٱلْمُزَمَّرُ ۖ".

---

(1) شيء من الفقرات - مع تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ص 1928 - 1940 سورنا المزمن والمثمر.
قال: يا محمد زملت القرآن.

وقوله: نصفه بدل من الليل. أو أنْقَصِّ منه قليلًا أو زَدْ عَلَيْهِ أي: أمرتك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة، أو نقصان قليل. لا حرج عليك في ذلك. وقوله: "وَرَتَّلِيْنَا آَيًّا طَيِّبًا" أي أقرأه على مهل فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدره.

وكل ذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه قالت عائشة. كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها.

وفي صحيح البخاري: عن أنس. أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مدا، ثم قرأ "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحیمِ" بمد اسم الله، ومد الرحمن، ومد الرحيم. وقال ابن جريج، عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة. أنها سئلت عن قراءة النبي ﷺ فقالت: كان يقطع قراءته آية آية "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحیمِ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي زَيَّنَ الْجَهَّالِ الْجَهَّالِ الْرَّحْمَنِ الْرَّحیمِ مَلِكَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ" رواه أحمد، وأبو داود والترمذي.

وقال الإمام أحمد: حديثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عاصم، عن زر عن عبد الله بن عمو، عن النبي ﷺ. قال: يقال لصاحب القرآن: اقرأ وأراقب ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها. رواه أبو داود، والترمذي والنسائي من حديث سفيان الثوري به، وقال الترمذي. حسن صحيح.

حدثنا يحيى بن بكر، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب: قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة ﷺ. أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: "لم يأذن الله لشيء، ما أذن لنبي أن يغني بالقرآن، وقال صاحب له: يريد أن يجهر به فرد من هذا الوجه. ثم رواه عن علي بن عبد الله بن المديني، عن سفيان بن عيينة، ومعناه، أن الله ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر.

(1) تفسير القرآن العظيم ص 1930.
بقراءته ويسعها. وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنباء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية. وذلك هو الغاية في ذلك. وهو سبحانه وتعالى: يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم.


عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ قال: واقتنهوا وغتنوا به ، ولم يشك وهكذا رواه أحمد والناساني في فضائل القرآن. من حديث موسى بن علي ، عن أبيه قبل ذلك.

عن المهاجر بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: با أهل القرآن لاتعرضوا القرآن. واتلوا حق تلاوته آتى الليل والنهار ، وغتنوا واقتنتوا ، وأذكروا ما فيه لعلكم تفلحون.

حدثنا السائب قال: قال لي سعد: يابن أخي . هل قرأت القرآن؟ قلت: نعم قال: غن به ، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: غنوا بالقرآن. ليس منا من
لم يتغنى بالقرآن، وأبوا فإن لم تقدروا على البكاء فتكاكم»، إلخ (1).

هذه أحاديث عن معانى الترتيل وما ارتبط بها من أفكار، ولعل التأكيد على الصوت الحسن والحنز والبكاء والتغنى موجهات للتأكيد على معانى الترتيل.

ولقد جاء في الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم»، «ليس منا من لم يغنى بالقرآن»، لقد أوتي هذه مزمارا من مزارع آل داود، يعني: أبا موسى، فقال أبو موسى: لو كنت أعلم كنت تسمع فراءتي لhek خيرا، وعن ابن مسعود أنه قال: لا تثروه نثر الدقل، ولا تهده هذا الشعر، فقروا عند عجابه، وحركوا به القلوب، ولا يكمن هم أحكام آخر السورة، رواه البغوي.

(2) إذا سلتي على الله فقولا تقبلنا، قال الحسن، وقادة، أي العمل به وقيل: تقبل وقت نزوله من عظمته، كما قال زيد بن ثابت: أنزل على رسول الله وفخذه على فخذ، فكادت ترض فخذى: وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة. عن عبد الله بن عمر قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله: هل تنص بالوحي فقال: أسمع صلاؤه ثم أسكت عند ذلك، فما مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض، فترد به أحده.

عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل الله كيف يأتيك الوحي، فقال: أحيانا يأتي في مثل صصلة الجرس، وهو أشد على، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل في الملك رجل فكلمني فأعلى ما يقول، وقالت عائشة. ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في يوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصى عرفا. هذا لفظه. وعن عائشة قالت: إن كان ليحوي إلى رسول الله وهو على راحله، فتضرب بجراحها، الجردن هو بطن العنق...

وتمضى سورة المزمل بأيامها التاسعة عشر قبل الأخيرة التي تعادل ما يبوازى نصف السورة، ولعلها من أطول الآيات القرآنية التي نزلت بمكة، وبعض الآراء تذكر بأنها آية مدنية لطولها وذكر الجهاد فيها ولم يكن الجهاد قد فرض في مكة.

(1) تفسير القرآن العظيم - المقدمة، ص 34 - 36 بتصريف.
(2) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير، ص 1930.
وآخرون يذكرون أن ذكر الجهاد في سبيل الله هو من باب ذكر الغيب الذي ذكره الله تعالى وفَحَقَّ ، كمطلع سورة الروم الذي ذكر في مكة ووقع والرسول قد انتقل إلى المدينة.

تنتهى السورة بما بدأت به بذكر قيام الليل ومدته وشكله والمكلفين فيه ، وذكر تلاوة القرآن وهي البداية من الأعمال الأخرى ، كالسعي في الأرض والجهاد ، وغير ذلك ، فإنه يبدأ بذكر قراءة القرآن وتؤكد تلاوته في جزء من الآية (۲۰) من سورة الزمر.
۵۰. اقرأوا ماتيسر من القرآن

إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَا لَمْ أَذْهَبْ مِنْ نَفْسِي لِلَّيْلِ وَنَصْفِهِ، وَلَّهُ الْجَهَّزَةُ وَطَائِفَةٌ مِّنْ النَّاسِ مَعَهُ وَاللَّهُ يَقُولُ رَبُّ الْجَهَّزَةِ عَلَيْهِ أَنْ لَنْ يَضُرُّوهَا فَقَالُوا أَمَا تَسْرَى مِنْ الْقُرْآنِ عَلَى مَنْ سَيَكُونُ مَكْرُهُ وَإِخْرَاجُهُنَّ يُضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ فَتَحْرِكُونَ فِيهَا مَا تَسْرُّونَ مَنْ فَضَّلَ اللَّهُ وَأَخْرَجُونَ رَقَبَاهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالُوا أَمَا تَسْرُونَ مِنْ آرَكُوا وَأَقْرَضُوا أَلْلَهَ فَرَضًا حَسَنًا وَمَا تَقْدِيمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ حُرٍّ بِجَزَاكُوهُ شَكِيّاً [المئزر].

تبدأ الآية بذكر عالم الله تعالى على ما عليه المؤمنون الأولون عن قيام الليل حتى شق عليهم، وعلم الله حال غير المستطيعين على هذا القيام فمنهم من قام نصفه ومن قام ثلثه، ومن قام أدنى أو أكثر من ذلك وبذلك فإن الله تعالى على الإسلام والطائفة الخالفة عنهم لن تحصي تلك المدد المتفاوتة من الليل ولا الليل كله، فأما الذين قاموا في النصف أو الثالث أو هذا وذاك فإن الله تعالى أن لن يقدروا على أن يصحووه، يتوجه الله بعد ذلك للأمر بقراءة القرآن الكريم - قراءة ما تيسر منه. وقد قال: إن ما تيسر منه رؤية آية، وهذا قول غريب.

والله تعالى أمر أن يقرأ المؤمنون القرآن - سواء في القيام أو في الصلاة المكتوبة - ولقد يسركم الله تعالى للحياة تدبرون على الأرض وتحركون وتشغلكم أمور السعي وال الدنيا عن قيام الليل كله أو أي جزء منه، فاليعلم أن هناك مرضا لا يستطيعون القيام وهناك من يضربون في الأرض يسعون وراء أزراقهم ويبنرون الفضل من الله - جلّ قدرته - وآخرون يقاتلون في سبيل الله.

وهنا استدل الذين يقولون: بأن الآية مدنية، ولكن الآية مكية، وهي علم الله تعالى بما سيكون من الغيب وأن جنداً مؤمنين سيقومون بالقتال في سبيل الله تعالى كما حصل عند الفريضة، وتأكيداً مرة أخرى على تلاوة القرآن، وعدم ترك هذه القراءة، وعدم ترك الصلاة، وهنا يبدو أن قراءة القرآن هنا غير الصلاة، وذلك
لذكر فرضة الصلاة مباشرة بعد ذلك مقتربة بالزكاة، وهنا أيضا من يستدل على أن فرضة الزكاة كانت في مكة، ولكن مصارفها وتوزيعها كان ما نزل في المدينة بأنه: إنّما الصدقات للفقراء والمسّكين والعميلين علىَها والمولفية قلوبهم وفی الرقاب والغنم وفی سبيل الله وابن السبيل فرضة فی اسم الله وآلهة عليهنّ صلی الله عليه وسلم.

ويبتع إيتاء الزكاة على أن ذلك فرض يفرضه المزكون لله تعالى، وأقرضاً لله قرضاً حسناً، وما تقدير مأ na أنتي كفرون من خيرِ تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجرًا.

[المزمثل: 20] تقديم الأمور الصالحة تكون لكم، قراءة القرآن، إقام الصلاة، إيتاء الزكاة، إقرار الله فرضًا حسناً إلى جميع الأعمال الصالحة التي يقوم بها المؤمن، وأخيراً أيها المؤمنون: فاستغفروا الله، فإن عليكم من الذنوب الثقيل، تكفر الأعمال الصالحة، ومع هذا فاستغفروا الله إن الله غفور رحيم.
51. استماع الجن للقرآن

لم تأو نحب إلى أن يسمع الناس من الجين، فقالوا: إننا سمعنا فرأوا عجبًا، بحثوا إلى الأرض فقاموا به، ونحن نذكر سيئة أحدًا. وإنهم تعلوا جدًا زينت ما أخذ صحبة ولا ولاءًا. وإنهم كنوا يقولون سيفهنا على الله شططاً، وإننا طلبا أن لن تقول الآنسن

ولكن نذكروا الله كذبًا. وإنهم كان رجال من الآنسن يعودون بريجالي من الجين فزادوهم رهفاً، وإنهم طنوا كما طنتم أن لن بيعت الله أحدًا. وإننا لمستنا السماء ووجدناها ميلت حرصًا شديدًا. وإننا كنا نفعد ميتا مقيعًا للسمع. فمن يستمع إلى أن يجد له، يبهببًا رضادًا. وإننا لا نذكروا أشراباً بيني في الأرض أم أرادوا بهم رجمًا رشداً. وإننا نبتيني الصليعون ومنه دون ذلك كذا طراقي قدما. وإننا طننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه، حرباً. وإننا لما سمعنا أهداً ذاكا، بما لمن يوم بنبره، فلا خافنا نحسنا ولا رهفاً. وإننا بين المعصومون ومنها الفضيلون. فمن أسلم فأولئك خروا رشداً. وإنها الفضيلون فكانوا اجتهان حثباً. وإن أستقدموا على الطريق لأسقيهم ما غدقًا. لتفحيم فيه ومن بعثر عن ذكره. يشكلك عداباً صعدًا. وإن المسجد الله فلا تدعوا مع الله أحدًا.

[الجبن]

متابعة وتوضيح لما ورد عن قضية علاقة الجين بالقرآن العظيم كما وردت في سورة الأحقاف: وإذ صرفنا إلنك نفرًا من الجن يستمعون القرآن فقلت: قلوا أنتم من يوم مذنبو، قالوا ينتقمون إذا سمعنا صحبة. أحمل مم بعد موسى مصداً، لعاين يبين يهود إلى الحق وإلي طريق مستقيم. ينتقمون أجمعوا داري الله وءامنو به. يغفر لحكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب الإيم. ومن لا يجبي داري الله فليس بمصير في الأرض وليس له، من دونه أولباء. أوأولئك في ضلل مبين.
 وإن سورة الجن التي شغلت فيها ثمان عشرة آية قضية استماع الجن إلى القرآن الكريم، والتأثير الهائل الذي أثر في نفوسهم عجيب وقوى.

كما يؤكد أن رسول الله ﷺ لم يقابل الجنوجها لوجه وإياكم كنتمهم ولم يبرهم.

كما ورد في موضوع الجن نصب الذين سمعوا القرآن من النبي ﷺ وهو عائد من هجرته إلى الطائف، وإيمان هؤلاء الجن بمجرد سماعهم القرآن.

كما يؤكد أن هذا القرآن تنقل من اللوح المحفوظ إلى الملائكة البررة الأسماء عليه إلى السماء الدنيا، ثم نقل جبريل له إلى النبي ﷺ، واستبدع الجن من هذه المواضع، أو يكون لهم أي تداخل أو تواجد أو تعارض، لا يؤكد بعد هذا الدين عن الكهانة وعلم الغيب، وإنما تناوب على نقله الملائكة البررة الأطباء الذين يفعلون ما يأمونون.

فقد طوروا على هذا ويكفي أن استماع الجن للقرآن كان من النبي، إذا أوحى الله إلى نفر منهم أن يستمعوه بعد نزوله وتناول أجزاء وآيات منه بين المسلمين وساموا الكفارة له، والذين توالت قضايا إيمانهم وتأثرهم بهذا القرآن بعد ذلك، فجاء إبن أسم الله تعالى إلى الجن متأخرًا وله في أواخر العهد الملكي، وقبل أن يتدخل إبليس اللعين بسح قريش بقتل محمد ﷺ ليلة الهجرة، كما هو مبين واضح في كتب السيرة النبوية.

"فلأوجب إلى أن أسمع تفريز من آلامي، بعد أشقيا عذبًا عظيماً " الحديث للرسول ﷺ، فقد أوحى إليه من ربه أن نفر من الجن قد استمع إلى القرآن الكريم، بأمر الله تعالى إلى الذي يبدوا ملكوت كل شيء، وبيده مقدار المخلوقات على اختلافها الملائكة والجن والإنس والشجر والجبال والبحار والكواكب، وما حوت السماوات السبع والأرض السبع وما كان وما هو كائن وما سيكون بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير.

أوحي الله إلى رسوله أن نفر من الجن قد استمعوا إليه. وكانت ردة فعلهم عالية كبيرة، فقلت: إننا سمعنا قراءةً عظيمةً، ومجرد الاستماع استخدمت كلمة "عجبًا"، وهي صيغة المبالغة من العجب، أي: أن كان بسماعنا له من قبل ولا بد أنهم استمعوا إلى ما أنزل إلى موسى وغيرها وإبراهيم وداود فإن كان ذلك عجبياً.
فالقرآن عجبًا.

ثم إنهم أفادوا بسبيل هذا التعبج الذي جاء على صيغة منتهى التعبج فقالوا: «يَهِدْيَ إِلَى الْرُّشْدِ فَقَانِمًا بِهِ، وَلَن دُفِّعَ بِرَبِّيَّةٌ أَحَدًا» ۳۷ مجرد الاستماع أعطيوا أروع صفات هذا القرآن وآثاره وتأثيره في النفس، وفي العقول والأرواح. فقالوا: «يَهِدْيَ إِلَى الْرُّشْدِ».

هذه الشهادة العجبة من خلوقات الجن الذين خلقوا من نار، وترفع كبرهم إيليس أن يسجد لأدم لأنه خلقه من نار وخلق آدم من تراب، ولكن هؤلاء الجن تجاوزوا العقبة الكاذبة التي أصابت كبرهم إيليس بل على العكس، انكسرت نفوسهم، وأقروا بأن هذا الذي استمعوه يهدى إلى الرشد وهم ربما يكونون قبل الاستماع بعيثون في الأرض فسادا، فهي مهمتهم وما فطروا عليه، لكن ترك الله تعالى لهم منططفاً يعودون إليه كما كان كبرهم قبل أن يقلب على عقبيه ويرفض أمر الله تعالى بالسجود لأدم فاستحقا الحزى في الحياة الدنيا التي هبط عليها وفي الآخرة من الملائمين الخمسين.

تجاوز هؤلاء النفر من الجن هذه العقدة ورأوا وسمعوا القرآن يهدى إلى الرشد. فأنمو فورًا دون عقد ودون مطاعة، ودون جدل ودون مدافعه. آمنوا به فورًا مجرد سماعه، وأقروا بوحدانية الله - تعالى - فقالوا: «وَلَن دُفِّعَ بِرَبِّيَّةٌ أَحَدًا» عادوا إلى وحدانية الله وهديه، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

آمنوا بالله الذي نزل هذا القرآن العجيب وعرفوا أن لا طاقة لأحدهم بلغ من خلق الله أن يوازي هذا الكتاب أو يأتي بأي مثله، وآمنوا: «وَانْتَلَى جَدًّا رَيْتَنَا مَا أَنتَ صَحِيحَةً وَلَا وَلَدًا» ۴۱ في هذا الآية دلالة على أن هؤلاء الجن ربما يكونون من أغوى النصارى وأضلهم بالزوجة والولد التي ابتذوها الله تعالى، وساعدوهم على ضلالهم وغفروهم فحرفوا الإنجيل ليوافق هذا الهوى وهذا التوجه إلا أن هؤلاء الجن اعترفوا بالوحدةانية وأن الله لم يتخص صاحبة ولا ولدا؛ وانَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِينَةٌ عَلَىَّ اللَّهِ شَطْبًا ۴۲ وهذا دليل آخر على السفهاء منهم كانوا.
يتداولون على ذات الله، ينشاون عن الطريق المستقيم بكلام يتقولونه على الله
بأن له صاحبه وولداً؛ أما الآن فقد آمنا بالله وحده فلن نشرك بريثاً أحداً.

وأناً ظنناً أن لن تقول آل إبراهيم وآل إسماعيل على الله كذباً عجيب هذا التنزيل
المبارك، لقد غطي على عقول هؤلاء النفر من الجن قبل نزول القرآن ما شاء من
المعتقدات عند اليهود وعند النصارى، كانوا يعتقدون أن الإنسان والجن لا تكذب
على الله، ولكنها كذبت الإنسان والجن، فإنا أن تمكن الفارون من الجن أن يغوا
الإنس ويضلوهم حتى جاء الأتباع وظافر بأن هذا هو الصدق، وأن الإنسان والجن
لن تكذب على الله لإدراكهم بأن الغايين الذين شطوا قد ضلوا وأضلوهم على
طريق الجن جن يبههم هذا القرآن الذي استمعوه ووعوه وردتهم إلى رشدهم إلى
طريق الهدى والإيمان والصلاح.

وتوالي الآيات بعد ذلك وحتى الآية (18) تبين الأثر الفعال الذي حدا بهؤلاء
النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن فانقلبوا بنعمة من الله وفضل إلى مؤمنين
هداة مهدين، دعاة إلى الله في أقوامهم فقد انقلبوا إليهم مباشرة ليدعوهم إلى اتباع
هذا القرآن.
52. عدم تحريك اللسان بالقرآن

"لا تحرك بِهِ لسانك لِتَعِجَلَ بِهِ إِنّي عَلِينَا جَمِيعًا، وَقَرِئَانِهُ، فَإِذَا قَرَأْتَّ قُرْءَانُهُ. (قف) إِنّي عَلِينَا بِبَيَانِهِ، (القيامة)."

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآيات (1) هذا تعليم من الله - جل جلاله - لرسوله في كيفية تلقية الوحي من الملك. فإنه كان ينادى إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته. فأمر الله - جل وعلا - إذا جاء الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن يسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وإن بيبته له ويفسره ويوضحك.

فالفتحة الأولى: جمعه في صدره، والثانية: تلاوته، والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه، وهذا قال: «لا تحرك بِهِ لسانك لِتَعِجَلَ بِهِ أي القرآن، كما قال: وَلَا تَعِجَلْ بِالقُرْءَانِ من قْبِل أَنْ يُقَضِّي بِكَالْبَيْكَ وَحِيْهُ، وَقَلِبْ رَبِّيَ زَدْنِي عَلَّمًا (طق). ثم قال: إِنّي عَلِينَا جَمِيعًا، أي: في صدرك، وقَرِئَانِهُ، أي، أن تقرأه، وإذا قرأه، أي، إذا تلاه عليك الملك فَأَتَبَعْ قُرْءَانُهُ، أي، فاستمع له، ثم أقرأه كما أقرأك، إِنّي عَلِينَا بِبَيَانِهِ، بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحك، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن أبي عوانة، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أنا أحرك شفتي كما كان رسول الله بِمَرْكَ شفتيه، وقال لي سعيد: وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عباس بِمَرْكَ شفتيه. فأналزل الله تعالى: «لا تحرك بِهِ لسانك لِتَعِجَلَ بِهِ، إِنّي عَلِينَا جَمِيعًا، وقَرِئَانِهُ»، قال: جمعه في صدرك ثم تقرأه: فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَأَتَبَعْ قُرْءَانُهُ، فاستمع له وتأنثت: إِنّي عَلِينَا بِبَيَانِهِ، فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل

(1) تفسير القرآن العظيم، ص. 1942.
ورقد روى البخاري ومسلم من غير وجه، عن موسى بن أبي عائشة، ولفظ البخاري فكان إذا آتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله، جل جلاله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى التيمي، حدثنا موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف فتجريك شفته.

يتبقي أوله ويترك شفته خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره فننزل الله ﷺ لا تحرك يده لساناك لتعمجل بهم.

وهكذا قال الشعبي، والحسن البصري، وقتادة، ومjahid والضحاك، وغير واحد، إن هذه الآية نزلت في ذلك، وقد روى ابن جرير عن طريق العوفي عن ابن عباس: لا تحرك يدك لسانك ليتعجل بهم، قال: كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه، فقال الله تعالى: لا تحرك يدك لسانك ليتعجل بهم، إن علينا جمعه، أي نجمه لك، وقرءانك، أي نقرتك فلا تنسى، وقال ابن عباس وعطاء العوفي: ثم إن علينا بيانه، تبين حلله وحرمه، وكذا قال قتادة.

انتهى.
53- الله منزل القرآن

"إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءٌ وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (27) إِنَّا نَحَنُ نُزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تُنزِيلًا (28) فَأُصِيبَ لَحْمُكُرَجْ لَهُ وَلَا تَطْعَ مِنْهُمْ وَانفُخُ فَوْرًا (29) [الإنسان]."

يأتي ذكر القرآن الكريم باسمه في هذه الآية : "إِنَّا نَحَنُ نُزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تُنزِيلًا (27)". آخر ذكر له في ترتيب المصحف الشريف وبذلك ينتهي هذا الذكر بعد هذا التجوال الطويل الذي بدأ بذكر زمان نزوله في سورة البقرة في شهر رمضان.

الذي أنزل فيه القرآن هذين للناس ويبنيت من الهوى والالفتار فمن شيد منهُ أشهر فليس بمثمر ومن حكَّاه مريحًا أو علي سفر فعدة من أيام آخر يريد الله يجمع ألسم ولا يريد بحكم الأمهات وتهيكلها بالعند وتعطرها بالله على ما هذوه وله مكاً وله مكاً [البقرة].

ويمكن أن نرى أن المناسبتين الأولى والأخيرة ليؤكدان على أن الله تعالى قد أنزل القرآن في رمضان وختم التأكيد بأنه - جل جلاله - قد نزل القرآن على محمد ﷺ تنيزاً وهذا التوافق من معجزات الترتيب وما ورد في هذا الكتاب من آيات بينات، وتوافق، وواصلة وتنازع، وليس في كل القرآن من متشابه ومن متناقض ومن متكرر ما يعطي فرصة واحدة لوجود أي تنافر أو تضاد بين آية منه وأخرى بل إن التواصل والتوافق والتفسير، والإيضاح مع تباعد ورود الآيات في ترتيب المصحف يعتبر الدلالة القاطعة على أن التنزيل من الله - جل جلاله - وأنه أنزل هذا القرآن هدي لنا، وأنه حفظ بجميعه، وتفهمه للنبي ﷺ كما ورد قبل ذلك وتكفل بحفظه من تلاعب البشر أو الجبن، إذ إن الكافرين من هذين المخلوقين قد غيروا وبدلوا فيما سبق، حتى جاء القرآن ليصحح الأخطاء، وبين الحقيقة، وإبطال الأباطيل، وثبيت القلوب والبصائر والأبصار، للناس ومن ثم تكفل بحفظه : "إِنَّا نَحَنُ نُزَّلْنَا آيَاتِنَا اللَّهُ صَلِّي سُرُورًا (30) [الحجر] فأنزل في رمضان وتحديدا في ليلة القدر كما انتهى بعد في نهاية ترتيب المصحف دون الذكر الحقيق، ..."
ولكنه أنهى بذكر الاسم الأوفي بالتنزيل كما ورد في أول ذكر بالتنزيل من الله تعالى على عبده الذي اصطفى محمد.

سبق هذا الذكر آيات تبين للمؤمنين جزاء ربك على أعمالهم الصالحة في آيات بنيت عن ذكر الجنة ونعيمها وما أعد الله تعالى للمؤمنين فيها ويختمها بقوله: "إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سُعْيُكُمْ مَشْكُورًا (4) الإنسان".]

وتأتي بعد ذلك قوله تعالى "إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سُعْيُكُمْ مَشْكُورًا (5) الإنسان، ولما ذكر تعالى زينة الظاهر والجلي قال بعده: "وَسْقِهِمْ زَيْتًا شَراً طَهُورًا (6)".]

فأذهب الله ما في بطونهم من ذوى، ثم اغسلوا من الأخرى فجلت عليهم نضرة النعيم.

وقوله: "إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سُعْيُكُمْ مَشْكُورًا (7)" أي: يقال لهم ذلك تكريما لهم وإحسانا إليهم كقوله: "كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنيِّئًا يَا أُسْلَفَتِينَ فِي الْأَيَاَمِ الْخَالِبَةِ (8)".] وقوله: "وَنَزَعْنَا مَا في صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِّ يَخْرِجُ مِنْ مَحْيَتِ الْأَنْفُسِ وَقَالُوا أَنَّهُمْ عَلَى مَنْ أُنْزَلَتْ لَهُمُ الْقُوَّةُ لَهُمْ أَنَّ هَذَا لَهُمْ جَارِيٌّ (9) الأعراف، وقوله: "إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سُعْيُكُمْ مَشْكُورًا (10)" أي جزاكم الله على القليل بالكثير.

يقول الله تعالى ممنا على رسوله: "إِنَّا نَحْنُ نُرِّئُونَ عَلَيْكَ الْقُوَّةَ أَنْ نَزِيَّلَا (11) يقول الله تعالى ممنا على رسوله، بما نزل عليه من القرآن العظيم تنزيلاً، (11) إنزل عليه من نزلته عن من نزل له من رسوله، وعشرين سنة (1) تفسير القرآن العظيم، ص 1948، 1949.
بعد أن أنزل الله تعالى جملة إلى السماء الدنيا بأيدي سفرة كرام برثة، أنزله الله تعالى على النبي ﷺ في أحوال متفرة، وردت في آيات أخرى أن هذا التنزيل من الله تعالى، وتحمل النبي هذا التنزيل وأدائه على ما أمره الله تعالى به.

ارتبط هذا القرآن بالأمينين: الأمين جبريل الذي حمله إلى محمد من اللوح المحفوظ، والأمين محمد الذي طبع الله في قلبه هذا الكتاب وعلمه كيف يحفظه، ويقرأه، ويبلو، ويعلمه بأمانه وإخلاص ووفاء فكان من رب العزة إلى أمين إلى أمين لا يسعى إلا المطهرون.

فَأَصْبَرْ بِعَمَّارِكَ رَبُّكَ وَلَا تُطْعِمُ مِنْهُمْ أَئِماً إِلَّا كَفُورًا (٣٦) والخطاب ما زال لمحمد ﷺ الذي أنزل عليه القرآن أن يصبر لما حكم الله وبلغه هذا الحكم والذى يجافله في كثير من عادات الجاهلية، وهذا ما أثار حفيظة الكفار فتحولوا من محبين للصادق الأمين إلى خصوم ومعادين حتى من أهله وعشيرته، فاصبر يا محمد حكم الله تعالى لأنه هو الحق من ربك داحصاً البائلاً والكفر والمعتقد.

فطليك يا محمد بالصابر ..، وإياك أن تتبع أهواءهم. ولا تطبع منهم آننا أو كفورا .. من الذين لم يعجبهم حكم الله الذي أنسد عليهم رأيهم ومعتقداتهم وأصل أعمالهم ..، كما قال تعالى في سورة محمد ..، ويذكَّر يأيُّو إعلام النبي ﷺ بما أراده من أحكام .. وتوضيح دين الإسلام الذي هو الدين عند الله مسفعها أحلامهم وبطلاً أراءهم، ناهيا النبي ﷺ عن اتباع أهواءهم، أو إطاعة الأثريين أو الكافرين .. وإياك عودة إلى ما سبق فاصبر لحكم ربك. أي البديل عن إثم هؤلاء وكفرهم اتباع أمر الله الذي ورد في القرآن الكريم الذي أنزله الله عليه تنزيلاً.
45. القرآن والسجود

فَمَا هِيَ لَا يُؤْمِنُونَ إِذًا قَرَىٰ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ لَا يُسْجُدُونَ (119) 

[الانشقاق]

سميت سورة الانشقاق لقوله تعالى: "إِذَا أَلَسْمَاءٌ أَنْشَقَتْ(2)" أي تشققت،
وصدت مؤذنة خرب العالم منذرة بهول يوم القيامة.

حور السورة كالسور اللكية الأخرى، شؤون العقيدة، وتصوير أهوال القيامة،
ولقد بدنت بيان بعض التبدلات الكونية الخطيرة عند قيام الساعة "إذا أَلَسْمَاءٌ أَنْشَقَتْ(2)".

وختمت السورة بتوجيه المشركين والكافار والملاحة والوجوديين وأمثالهم على
عدم إيمانهم بالله تعال وابنادهم بالعقاب الآلهم، والعذاب الشديد، والتهي على
نهاة المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ومنهجهم الثواب الدائم
المستمر الذي لا ينقطع ولا ينقص: "فَمَا هِيَ لَا يُؤْمِنُونَ إِذًا قَرَىٰ عَلَيْهِمْ
الْقُرْآنَ لَا يُسْجُدُونَ(119)".

والخلاصة: أن السورة اشتملت على مقصدين:

بيان ما يلقيه الإنسان من نتائج أعماله يوم القيامة وakhir المصير إما في
جنت النعيم وإما في نيران الجحيم.

ارتباط قراء القرآن الكريم والسجود في آخر السورة وتأكيد هذا السجود

أخرج مسلم والسناوي: أن أبا هريرة قرأ بهم: "إِذَا أَلَسْمَاءٌ أَنْشَقَتْ(2)" فسجد
فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله سجد فيها.
واخرج البخاري ومسلم وأبو داود والسناوي والترمذي وأيبن ماجه عن أبي
رافع قال: صلى مع أبي هريرة العتمة - العشاء - فقرأ: "إِذَا أَلَسْمَاءٌ أَنْشَقَتْ(2)".
فسجد، فلقت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم (العشاء) فقرأ: "إِذَا أَلَسْنَا أَنْشِقْنَا فسجد. فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه. وزاد النسائي عن أبي هريرة نفسه قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ سجدنا مع رسول الله ﷺ في: "إِذَا أَلَسْنَا أَنْشِقْنَا وَأَقُولُ أَيَّامِ رَبِّكَ أَلَمْ تَخْلُقَ "(1)

فَمَا هِيْ لَا لَوْ يَوْمَئِنَّ نَأَيْ شِيءٌ، أو فماذا يمنعهم من الإيمان بصحة البعث، وبالقيامة، ومحمد، وما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك، من الأدلة الكونية القاطعة الدالة على قدرة الله على كل شيء، والمعجزات الدالة على صدق النبي ﷺ، وصدق الوحي القرآني المنزل عليه. وهذا استفهام إناكار، وقيل: تعجب، أي أعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات.

وإِذَا فُرِّقُوا علَى مُلْحَقِّرٍ لَا يُسْجَدُونَ (2) أي وأي منع لهم من سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن الذي دل إعجازه على كونه منزل من عند الله تعالى! ويكون سجودهم إعظاما وإكراما واحتراما لدى القرآن بعد أن علموا كونه معجزا، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة. وقد احتج الإمام أبو حنيفة رحمه الله، بالآية على وجوب السجود فإنه ذم من سمعه، ولم يسجد.

(1) التفسير المثير، 136 / 128 بتصرف

(2) التفسير المثير، 147 / 320
55. القرآن المجيد : في اللوح المحفوظ

"وَاللَّهُ مِن وَزَارَاهُمْ مَحيِّطًا بِلَّهُ وَنَزَّلَهُ فَرْعَانٌ مَهيِّئٌ فِي لَوحٍ مَحفوظٍ"

[البروج]

قلوه تعالى: "وَاللَّهُ مِن وَزَارَاهُمْ مَحيِّطًا " أي يقدر على أن ينزل ربيهم ما أنزل بفرعون، ومحاط به كالمحصور. وقيل: "أي والله عالم بهم فهو يجازيهم": بلى هو فرّعان مهيِّئ في لوح محفوظ "أي مكتوب في لوح، وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه، وقيل: هو أم الكتاب منه أنسخ القرآن والكتب.

وروى الضحاك عن ابن عباس، قال اللوح في ياقوتة حراء أعلاه معقود بالعرش، وأسفله في حجر فلك يقال له: (ما طريون) كتابه نور، وقلبه نور، ينظر الله عز وجل في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء يرفع وضيعاً، وضع رفعاً وغنى قفيراً، ويفقر غنياً، يبقى ويعيت ويفعل ما يشاء، لا إله إلا هو.

وقال أنس بن مالك وجاهد: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله تعالى في جبهة إسرائيل، وقال مقاتل اللوح المحفوظ عن يمين العرش، وقيل: اللوح المحفوظ الذي فيه أصناف الخلق والخليقة وبيان أمورهم، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأئمة النافذة فيهم، ومال عقد أمورهم وهو أم الكتاب. وقال ابن عباس، "أول شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ: إننا الله لا إله إلا أنا، محمد رسول وتسليم لقضيء، وصبر على بلائى، وش بك نعمائي، كتبه صديقاً وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستلم لقضيء ولم يصبر على بلائى، ولم يشكر نعمائي، فليتخذ إله سواه."
وكتب الحاجج إلى محمد بن الحنفية يتوعده، فكتب إليه ابن الحنفيه "بلغني أن الله تعالى في كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة في اللوح المحفوظ، يعز ويدل، ويبطئ ويفرج، ويفعل ما يريد، ففعل نظرة منها تشغلك بنفسك، فتشغلي بها ولا تفرغ.

وقال بعض المفسرين: اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرؤنه.

وقرأ ابن السميقع وأبو حيوة "قرآن جيد" على الإضافة. أي: قرآن رب عجيد.


واللوح (بالضم): الهواء بين السماء والأرض.. والحمد لله تعالى (1).

(1) تفسير القرطبي: 19/ 298، 299.
سورة القدر

 وإنما نزلته في ليلة القدر وما أذرنك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف مـِّــِــِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِـِ~
فصل
الكتاب
1- هدي للمتقين

قمنا هذه الآية الكريمة في فضل القرآن الكريم؛ وذلك للأسباب التي سقناها هناك فهي أولاً وردت في بداية القرآن الكريم بعد سورة الفاتحة وهي فاتحة سورة البقرة واسترسلنا في الحديث عن البداية، عن النهاية، عن المتين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وبالأخيرة هم يوقون. والذين يؤمنون بهذا الكتاب المنزل على محمد ﷺ، وأيضاً طلب أن يؤمنوا بما أنزل على الرسل السابقين لرسالة الإسلام، وبنيه محمد ﷺ فأمنوا ولم يترددوا، ولم يشكن ساعةً، وأصبح爱尔兰 بالرجل والكتب ركناً من أركان الإيمان عند المسلمين، الذين وعوا حقائق الإيمان وأبعاده، فأمنوا بالله وملاكيه وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، فوعوا الإيمان المطلق حيث غاب عن أتباع الأديان السابقين بعد الجيل الأول من تحوّل النبي صاحب الرسالة إلى ملا نهيك فغبروا وبنبلوا، وحروروا، وزادوا وحذروا، وقدموا وأخروا، وكتبوا كتبهم بابديهم وعلى هواهم، وعلى ما حزوه نفسهم من قضايا المصالح في الدنيا، مبدين عن تعاليم الرسول وأوامر الله تعالى لهؤلاء الرسل ومن تبعهم ومع استمرار نهج الإيمان كما قال الله تعالى: وَلَوْ نَامَ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ آمَنُوا هُمُ الْمُفْلِحُونَ وأُحِسَّنُوهُمُ الفَدْيَةُونَ (آل عمران).

فالذين آمنوا من صحابة محمد ﷺ وتابيعهم ومن تبعهم إلى يوم الدين ﷺ وقوموا على هدى ﷺ وأولئك هم المفتيحون (1)، وهم قبل هذا على هدى ﷺ، وقوموا على هذا هدى ﷺ وأولئك هم المفتيحون (2)، وأقر الله تعالى لهم هذا بقوله:

(1) انظر: كتابنا: كتبتم خير أمة أخرجت للناس.
(2) انظر: بحث: هدى للمتقين، من هذا الكتاب في مبحث القرآن.
الذين يكتبون الكتاب

هو وهم لا يعلمون أبداً ما يكتبون الإنجيل إلا أنهم يروينه وإنهم لا يخفون فإنهم يكتبون في القرآن.

الكتب هنا يعني الكتب المقدسة التي أُنزلت على الأنباء السابقين: النور على موسى والزبور على داود والإنجيل على عيسى عليهم السلام، نؤمن – من المسلمين بهؤلاء الرسل وجميع رسل الله الذين يعبههم للناس هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ونؤمن – من المسلمين أيضاً – بالكتاب الذي أُنزلت على هؤلاء الأنباء، أو على من لم يقصص الله تعالى علينا خبرهم، وهم في علمنا تعالى.

الكتب التي عنيت في هذه الآية، أو في الآتيين معاً؛ وفي مواقع كثيرة وغير هذه نوعان:

نوع أنزل من الله تعالى بأصله وهو كلام الله تعالى.

ونوع محمّد غيره الأتباع على مر الزمان، وهو المداول بين الناس الآن في أية صيغة أو شكل أو مسمى، إيماناً بالأصل قائم تمامًا كإيماناً بالرسول الذي أُنزلت عليهم هذه الكتب، أمّا المداول الآن بين أيدي الأتباع في مختلف أشكال المعمورة فهو المعنى في هذه الآيات، محمّد، مبدل، صلة بالأصل الاسم وبعضه لم نتأكد ما هو؟ لآن التحريف طاله كله – عدا ما يمكن أن يتوقف مع ما ورد عنه في القرآن الكريم.

والله تعالى ما تكفل محفوظ هذه الكتب وتكفل محفوظ القرآن، فغُيرت الكتب وُبُدلت، وثبت القرآن في موقعه في اللوح المحفوظ – كما سبقت دلاليه في الفصل السابق، وسيأتي إثبات دلاليه أيضاً في اللاحق، ولدينا الرغبة في أن نسوق الحديث عن هذه الكتب في بعض المواقع التي ورد ذكرها في القرآن الكريم لمنفّذها عن القرآن الكريم لتوافق الاسم في هذا الكتاب، ففي القرآن نجد لذكر القرآن تأقرأ.
гласاً وأسماءه خصصاً، لكن الكتاب - وهو من أسماء القرآن الكريم - يشارك
الأئمة والشيوخ والزندور،وابتداء فإن فهم القارئ العزيز كفيل بالتمييز في أي
موضوع يرد ذكر كتاب السابقين، أو ذكر كتاب الله تعالى "القرآن، القرآن،
الكتاب.

والتقى في هذه الآيات:

يقول الله تعالى: [ومثَّلُ أمَيْن أُمِّيَّن أي سبيلاً من أهل الكتاب. قال: ماجاهد: والآميون.
جمع أمي، وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قال: أبو العالية، والريع، وفتادة،
وإبراهيم النخيزي، وغير واحد وهو ظاهر في قوله تعالى: [لا يَعْلَمُوْرَتْ أَلِبَكَ]
أي: لا يدركون ما فيه. وهذا في صفات النبي ﷺ أنه أمي، لأنه لم يكن يحسن
الكتابة، كما قال تعالى: [وَمَا كَنتَ تَنْتَأَوْا مِن قَبْلَهُ مِن كِتَابٍ وَلَا مَخْطَطٍ. قَبْلَ ئَذَا
لَأَرَابُّ مُبِطَّلٍ] [الفتوت] وقال تعالى: [إِنَّا أَمَيَّةٌ مَّيْتَةٌ لا نَكِتَ وَلَا نَحْسَبُ الشَّهَرَ هَكَذَا وَهَكَذَا ....] الحديث، أي: لا نفتقر في
عبادتنا ومواقيتنا إلى كتاب ولا حساب، وقال تعالى: [هُوَ الَّذِي بَعْثَ فِي الْأَيْنَنَ
رسُوْلًا مَّيِّتًا] [الجمعة: 2].

وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمية من
جهله بالكتابة دون أبيه، قال: وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قول
خلاف هذا، وهو ما حدثنا به أبو كريب: حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن
عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: [ومثَّلُ
أُمِّيَّن أي: الآميون قوم لم يصدقوا رسولًا أرسله الله، ولا كتابًا أنزل الله،
فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفهة جهل هذا من عند الله، وقال: قد أخبر
أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أميين جحودهم كتاب الله ورسله، ثم قال ابن
جرير: وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم
وذلك أن الأمي عند العرب: الذي لا يكتب، قلت: ثم في صحة إسناد هذا عن
ابن عباس بهذا الإسناد نظر، والله تعالى أعلم.
قال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: "لا يُأْمَلَ" [القرة: 78] يقول:
"إلا قولاً يقولونه بأقوامهم كلباً، وقال مjahad: إلا كذباً. وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مjahad: "وميتهم أميون لا يُعْلَمُونَ أَلْكَتِبُ إِلاَّ أَمَاتِي" [القرة: 78]. قال: أو فصام من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئًا، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ويقولون هو من الكتاب، أماني يتنموها، وعن الحسن البصري نعوه.


[الحج: 52].

وقال ابن إسحاق عن ابن عباس: "لا يُعْلَمُونَ أَلْكَتِبُ إِلاَّ أَمَاتِي، وإن هم إلا يُظْنُونَ" [القرة: 78] أي: ولا يدركون ما فيه وهم يجدون نبؤتك بالظن، وقال مjahad:
"وَإِنَّ هُمْ إِلاَّ يُظْنُونَ" [القرة: 78] "القرة: 78" نكتون، وقال قنادة وأبو العالية والريع:
"يظون بالله الظنون بغير الحق.

قوله تعالى: "فَوَيَلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكُتْبَ بِأَيْدِيهِمْ" ثم يقولون هنداً من عبد الله ليشتراها يهوا، نمئة قليلًا" الآية [القرة: 79]. هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاء إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل، والويل: الهاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة.

وقال سنين الثوري عن زيد بن فياض: سمعت أبا عباس يقول: ويل: صديق في أصل جهنم، وقال عطاء بن يسار: الويل واد في جهنم لو سرت فيه.
قال الزهري: أخبرني عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال: (يا عشير المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه غضاً لم يسب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيره - المنزل على أبنائهما - كتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليصرروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عند مسألهتم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل عليكم). رواه البخاري من طريق عبد الزهري وقال الحسن بن أبي الحسن البصري. والتميمي القليل: الدنيا بذاتها. 


(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير القرشي، مؤسسة الريان، مؤسسة ابن حزم 1/667، فيما بعدها. بعض التصرف.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير القرشي، مؤسسة الريان، مؤسسة ابن حزم 1/668.
كتاب الله المصدق لما سبقه

مرأة جاهز في موضع الله مصدق لب ما معهم وكانوا من قبل

يستفتيت عليه الذين كفره فلم يأتهم ما عرفوا سكره وهم

أبشع الناس على الذين كفرهم أو دفعهم أن يصفروا بما أنزل الله بعده أن ينزل

الله من فضله على من يشاء من عباده، فهو يغصب على عقره، والكفارين

عذابهم 55 وإذا قيل لهم ابتنوا بما أنزل الله قالوا نؤمى بما أنزل علينا

ويكفرن بما وراءه، وهو الحق مصدق لب ما معهم، فقيل فلما تقاتلون أنبياء الله

قبل إن كنتم مؤمنين 56 ولمذ جاهد كحكم موسى بالبيت ثم أخذتم الوعيل

من بعده، وأنتم ظللمور 57 [البقرة].

استكمالاً وتوفيقاً يا سبق من إشارة إلى ما سبق القرآن الكريم من كتب،

حرفها أتباعها، وكتبها بأيديهم، خلافة لكل ما أنزل الله تعالى من تعليمات، جاء

القرآن الكريم ليبين هذه الأباطيل والأكاذيب التي انطلت على أتباع الكتب (أهل

الكتاب) ومن جاورهم أو عاش معهم من العرب وغير العرب، جاء القرآن

الكريم ليدحض هذه الافتراءات ويبطلها، ويجموها، ويظهر من صدقها أو تعامل

معها بطلانها ودجلها، وفي الآيات هذه تبيان واضح لما كان بين هذه الأحداث من

نظام وتعلق وتنافر.


"كتبت من عند الله" وهو القرآن الكريم الذي أنزل على محمد.


وقوله:  وَكَانُوا مِن قَبْلٍ يَسْتَفْتَيْتُوهُ عَلَى الْذِّينَ كَفَرُوا [البقرة: 89] أي:

وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجنه على أعدائهم.
من المشركون إذا قاتلواهم، يقولون: إنه سبب نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، كما قال ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم قال: فينا والله وفيهم - يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة: "ولأ يَنَّهُوا ۖ حِيَّةً ۖ لَمْ يَكُنَّ إِلَّا مُضْطَرِّيْنَ" (البرهان: 89) قالوا: كنا قد علمناهم قهراً دهراً في الجاهلية. ونحن أهل الشرك، وهو أهل كتاب وهم يقولون: إنهم سبب الآت الذي تبعه قد أطل زمانه فقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله من قريش وابتعن كفرن به.

يقول الله تعالى: "فَلَمَّا جَآَاهمُ مَا عَرُفُوا حَكَمُوا بِهِ. ۖ فَلِعَلَّهُ مَعَّهُ إِلَّا أَوَّلُ جَهَالُوا ۖ إِلَّا أَنفَرَ قِبْلَةً يَسْتَفْتَحُورُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا (البرهان: 89) قال: يستنصرون، يقولون:

عن نعين محمدًا عليهم، وليسوا كذلك بل يكذبون.

قال ابن إسحاق عن ابن عباس: إن يهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعوثه، فلما بعثه الله تعالى من العرب كفرن به وجعلوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبيبر بن البراء بن معاذ وداود بن سلمة: يا معشر يهود، اتبعوا الله وأسلموا، فقد كتم تستفتحون علينا محمد ﷺ وفيه أهل شرك، وكانوا بعده مبعوث، وتصفونه لنا بصغرته، فقال سلام بن مشكن أخو بن التضرير: ما جاءنا بشيء نعرفه، ما هو والذي كنا نذكر لكم، فينزل الله في ذلك من قولهم: "ولأ يَنَّهُوا ۖ حِيَّةً ۖ لَمْ يَكُنَّ إِلَّا مُضْطَرِّيْنَ" (البرهان: 89).

وقال الصوفي عن ابن عباس: "وكانوا من قبائل يشتاقرون على اليهود كفرن. فألم جآاهم ما عرفوا حكموا، يقول: يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب، يعني بذلك: أهل الكتاب، فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم كفرن به وحسدوه."
قال أبو العالية: كانت اليهود تنصبر بمحمد عليه مشركى العرب فلما
بعث الله مهدداً وراوه من غيرهم كفرؤا به حسداً للعرب، وهم يعرفون أنه
رسول الله، فقال تعالى: "ملأهم جأشهم ما عرفوا كفراؤا به". فلعن الله عليه
الكافرين (البقرة). وقال قتادة: "كانوا من قبل يُسفينجعون على
الذين كفرؤا. فلن جاهزهم ما عرفوا كفراؤا به". (البقرة: 89) قال: وكانوا
يقولون: إنه سبأني نبي. "فلما جاهزهم ما عرفوا كفراؤا به". (البقرة: 89) وقال
مجاهد: إنهم اليهود.

قال مجاهد: "ياً مما أشتروا به أنفسهم". (البقرة: 90) يهود شروا الحق بالباطل
وكنتما ما جاء به محمد. وقال السدي: "ياً مما أشتروا به أنفسهم".
(البقرة: 90) يقول: "ياوا به أنفسهم، يقول: بني نوبياً بما اعتضاء أنفسهم
فرضاً به وعدموا إليه من الكفر ما أنزل الله على محمد عن تصديقه ومؤازرهه
ونصرته وإما حلهم على ذلك البغي والحسد والكراهية: "أن يُنزل الله من
فضله على من يشاء من عباده". (البقرة: 90) ولا حسد أعظم من هذا، قال ابن
ابن إسحاق في رواية عن ابن عباس: "ياً مما أشتروا به أنفسهم". أن يُنزل
الله بغير أن يُنزل الله من فضل الله على من يشاء من عباده". (البقرة: 90) أي: إن الله
جعله من غيرهم. "فبعث بهما على غضب". (البقرة: 90) قال ابن عباس: في
الغضب على الغضب. فغضب عليهم فيما كانوا ضيوعاً من التوراة، وهي معهم
وقت) معنى "فتهم"، "استوجهوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب.
وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب الله
 عليهم بكفرهم بمحمد وبالقرآن.

قوله تعالى: "وللكافرين عذاب مهين" (البقرة) لما كان كفرهم سبيه البغي
والحسد، ومنشأ ذلك التكرار، قمبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما
قال تعالى: {إن الذين يصدكون عن عبادة سييخللون جهنم دايتين} 
(بقرة: 69) أي: صاغرين حقيقين دليلين راغمين، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ قال: {يحشر المتكرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء، من الصغار حتى يدخلوا سجنا في جهنم يقال له: بولس، تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار}.


ثم قال تعالى: {فليم تقتلون أنيモノ الله من قبلك إن كنتم مؤمنين} [بقرة: 116] أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإمام بما أنزل إليكم، فليم تقتلتم الأنباء الذين جاؤكم بتصديق التوراة التي بإيديكم والحكم بها وعدم نسختها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموه بغير وعائدة واستكبارًا على رسول الله فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي. كما قال تعالى {أفأعلم ما جاءكم رسولًا بما لا يهوى أنفسكم}.

{اشتكريم ففرفقا كذبتكم وفرقًا تقتلون} [بقرة: 117] 

وقال السدي: في هذه الآية يعبرهم الله تبارك وتعالى: {قل فليم تقتلون أنيمون}.

{أأن م من قبلك إن كنتم مؤمنين} [بقرة: 116] قال أبو جعفر بن جرير: قال يا محمد: ليهود بني إسرائيل إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله. قالوا نؤمن بما أنزل علينا، لم تقتلون. إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله، أنبياء الله، يا معشر اليهود، وقد حرم الله...
في الكتاب الذي أنزل عليهم قتله، بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم،
وذلك من الله تكذيبهم في قولهم: "نؤمن بما أنزل علينا" [القرة: 91].


(1) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير القرشي، مؤسسة الربان، مؤسسة ابن حزم، 1/ 162 – 169.
4- كتاب الله، وأهله الكتاب

"ولقد أنزلنا إليك َ"ءاَيِّنتَ بَيْنَ يَدِهِ" َوَمَا يُكْفِرُ بِهَا إِلَّا الْفَسَقُونَ َأَوْصَلَنَا عَهْدَهُ عَهْدًَا نَّبِيْهَا َفَرِيقٌ مِنْهُمْ َكَثِيرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ َوَلَمَّا جَآَهُمُ الرَّسُولُ مِنْ عِبَادِ اللهُ َمُصَدِّقٌ لَّمْ أَعْلَمُهُمْ فَرِيقٌ مِنَ الَّذينَ أُوْلَى أَلْيَكَ حَسَنَتَيْنِ وَأَإِذَا طَهَّرُوهُمْ كَانُوهُمْ لَا َيُعْلَمُونَ(٤٧) [البقرة] .

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: "ولقد أنزلنا إليك َءاَيِّنتَ بَيْنَ يَدِهِ" أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحة دلالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواء كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكونات سرائر أخبارهم وأخبار أوايائهم من بني إسرائيل، والنبا عما تضمنته كتبهم التي لم يعلمها إلا أخبارهم وعلماؤهم، وما حرفة أوايائهم وأوايروا وبدله من أحكامهم التي كانت في التوراة، فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، فكان في ذلك من أمره الآيات البنينات فمن أنصف من نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي، إذا كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتي يمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البنينات التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي، كما قال الضحاك عن ابن عباس: "ولقد أنزلنا إليك َءاَيِّنتَ بَيْنَ يَدِهِ" [البقرة: ٩٩]

يقول: فأنزل عليهما ونورهما به، غذوة وعشرية وبين ذلك، وأتت عتمهم أمي لم تقرأ كتباً، وأتت نورهما بما في أديهم على وجهه، يقول الله تعالى في ذلك عبرة وبيان وعليهم حجة لا كانوا يعلمون.

وقال محمد بن إسحاق. عن ابن عباس قال: قال ابن صوريا القطعي في لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بيئة فتتبعك فأنزل الله في ذلك قوله: "ولقد أنزلنا إليك َءاَيِّنتَ بَيْنَ يَدِهِ" وَمَا يُكْفِرُ بِهَا إِلَّا الْفَسَقُونَ(٤٧) [البقرة] . وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ: وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ، والله ما عهد إلينا.
في محمد، وما أنجز علينا ميثاقاً، فأنزل الله تعالى: "أَوْصِلْنَا عِنْدَهُمْ عِبَادَتَنَا بَيْنَ الْأَحَدَينَ" (البقرة).

وقال الحسن البصري: في قوله: "بِنَّ أُمَّتِي لَا يَؤْمِنُونَ (البقرة) قال: نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غداً.

قال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد، وقال قتادة: نبذ فريق منهم، أي نقضه فريق منهم، وقال ابن جريج: أصل النبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط مبوداً، ومنه سمي النبيز وهو التمر والربيع إذا طرأ في الماء.

قال أبو الأسود الدؤلي:

نظرت إلى عونان فبدعته كتب ذلك نعلًا أخلقت من نعالك.

قلت: فالقوم ذمهم الله بنذهم العهود التي تقدم الله إليهم في النمسك بها والقيام بعجها، ولهذا أعظمهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلي الناس كافة الذي في كتبهم وضعه وأعشاره، وقد أمرنا فيها باتباعه ومؤازره ونصرته كما قال تعالى: "الذين يَتَبَيَّنُونَ الرَّسُولَ الْآتِيّ الْآتِيَ الَّذِي نَحْذَرُونَ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي الْبُيُوتِ الْأُجْهَرَ" (الآية: 107، القرآن). وقال هنالك: "ولما جاءهم رسول من عندي الله مصدقًا لما معميهم" الآية (البقرة: 111). أي: اطراف طائفة منهم كتاب الله بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد وراء ظهرهم، أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على علم السحر واتباعه، ولهذا أرادوا اكيداً برسول الله وسحرهم في مشت ومشاقة وحلف طلعة ذكر تحت روعوه في بر ذروان. وكان الذي تولى ذلك منهم رجل يقال له: لبيد بن الأعصم - لعنه الله وقبحه فاطلع الله على ذلك رسول الله وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك موبطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

قال السدي: "ولما جاءهم رسول من عندي الله مصدقًا لما معميهم" (البقرة: 111). قال: لما جاءهم محمد عارضوه بالتوراة، فخاضموه بها، فاتفقت.
التوراة والقرآن، فتبذوا التوراة وأخذوا بكتاب أصف، وسحر هاروت وماروت
فلما يوافق القرآن، فذلك قوله: «كَانَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (ط٠٦). وقال قتادة في
 قوله: «كَانَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (ط٠٦) (البركة: ١٠١) قال: "إن القوم كانوا يعلمون،
ولكنهم نبذوا علماهم وكتبهم وجدوا به".(١)

تتكرر في كتاب الله هذه المواقف لتحدد علاقة اليهود ب المسلمين الذين اتبعوا
عداوة الإسلام منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وسبق ذلك فترة انتظار واختبار
هم وهو في مكة، ولكن بعد أن لامس المسلمون أهل يرب وهم من العرب الذي
أسلموا أو ممن يقي على وثبيتهم واليهود ظهرت عداؤة اليهود رغم علمهم بأنه
الرسول الذي ينتظره، والذي ورد تفصيلاً في السيرة عند صفية بنت حبي برضي
الله عنها بجديتها وذكاءها وما جرى بين أبيها حبي بن أخطب وعمها أبي ياسر
ابن أخطب من الإفرار بالتصديق، وأنه هو المعنى الموصوف في كتبهم,
ولكن قال حبي عندما سأله أخوه: وما العمل؟ قال: العداوة ما حبيت، وهكذا
استمر حبي بن أخطب بعد عداؤة الإسلام ورسول الإسلام حتى قتل مع بني قريبة
بعد غزوة الأحزاب.

وكشف كتاب الله ما عند اليهود من خبث وكذب وحدس وأنانية، وكفر في
كثير من آياته، وما ورد أو ما سبق أو ما سبلك في آيات ببتات في كتاب الله تعالى
عن موقف هؤلاء اليهود والذين استمر ما بهم من حق وكرامه، حتى يومنا هذا
والله ورسوله أعلم.

١٩٧٧.
5- الكتاب الحكيم: دعاء إبراهيم

فإننا وآبائنا فيهم رسولون منهم يلقوا عليهم آياتنا ويعلمونهم الكتاب والحكم.

وفيهم إنك أنت العزيز الحكيم

(الفراء).

في رحلة سيدهنا إبراهيم من بلده: أرو في جنوب العراق وتجواله وبث دعوته في كل مكان حي بدلاً من بلاد الهلال الخصيب إلى أن استقر تقريباً في فلسطين في الخليل وبر السبع، وهي الحد الأخير من طرف الهلال، أراد الله تعالى في زمان التجوال ومكانه أن يرفع القواعد من البيت الحرام في مكة المكرمة حيث بناه آدم وأقام قواعد وشهد إبراهيم وإسماعيل عليه السلام، فكان البيت الحرام الذي أراده الله تعالى وفي تلك البقعة المباركة، وكان قد أودع زوجته هاجر وابنته الرضيع إسماعيل في تلك البقعة.

فإننا إلى أثكنتم من ذريتى واد غبر ذي زرع عند نبيك الابراهىم زيننا ليقمنا

الصلاة فأجعل أفيده ومن الناس أن يكون إليكم وأرذقه من النمرت لعلهم يشكرون

زينا إنك تعلم ما تخفي وما تعلن وما تخفي على الله من شيء في الأرض ولا في السماء.

الحمد لله الذي وَهَب لى على الكتاب إلمعيل، وإلتحتق إن زين لسميع

الدعاء زين أجعل مقيم الصلاة ومن ذريتى زينًا وتقبل دعاء زينًا أغفر لي

ويا ولد قومي يوم يقوم الأجل.

(إبراهيم).

وهكذا أودع إبراهيم من ذريته مكانتا آمنا يأتيه الرزق من كل مكان إلا من هو، فهو واد غبر ذي زرع - وتفجر به زمزم ولم يسل نهراً أو جداول، ولكنه استقر في مكانه يسعى العطاش والجحيم منذ ذلك الوقت وحتى اليوم، ويقدر الزمن باربعة آلاف سنة ونوف.

واستمر إبراهيم بالدعاء لهذه الذريه فمنها سيكون خير خلق الله محمد

وكتاب الله الخالد: القرآن الكريم، والأمة المسلمة وهي بكل تأكيده وقين خير عمة
أخرجت لناس، ففي هذه المئات الثلاثة - الرسول والقرآن وأمة الملسومة - يبقى الخير في الدنيا مصرفًا للشيطان إلى أن يورث الله تعالى الأرض عباده المتقين - وهم من المسلمين - فقد ضل الآخرون وكتب لهم الضلال والغضب من الله والفسوق الذي لا يزول وصفهم في القرآن الكريم في مواقع كثيرة، ومنها وصفهم بالشقاء للحديث عن: "كَنَّا نَصْرَبْنَى أَخْرَجَتِ الْلَّيْلَةِ أَخْرَجَتِ الْتَّنَاسُ تَأْمُّرُونِ يَمْعَرُونِ وَتَهْوَرُونِ عَنِ النَّاسِ يَوْمَتَاذَا مَتَّعُونِ بِاللهِ وَلَوْ مَا سَأَلَهُ الأَحْلَالُ لَكُنَّا خُلِقْنَا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرْهُمُ الْفَسَقُونَ" (آل عمران).

وفي سياق هذا الدعاء الذي رفعه إبراهيم إلى ربه وردت الآية السابقة وجمل الدعاء فيها: "وإذا أتت إثرب رحمه، بكلت فأتمنى قال إن جعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتي قال لا يتنال عليه الظلمين، وإذا جعلنا البيت متابة للناس وأما وأخذهوا من مقام إثربه مصلٌ وعهدنا إلى إثربهم وإすこと أن طهرا تبيى للطبلين والعقبينين، الرضى السجود، وإذا قال إثربهم رض أعجل هذا بلداً نابيًا وأزرق أهلها من الجمرات من عينين يتهم به الله واللوه الآخر قال ومن كفر فأطيعه، قليلاً ثم أضره إلى عذاب التأذ، وينعم المصير، وإذا يرفع إثربهم القواعد من البيت وإصمعل ربيتنا تقبل مني إنك أنت السميع العليم، ربيتنا وأجعلنا مسلمين لك ومن ذريتي أمه مسلمة لك وأرنا مناسكنا ونثبت علينا إنك أنت النواب الرحبم، ربيتنا وأبعث فيها رسولًا وله يبتغوا عليه، إنك وجعلتم ألكبت والحكمه وتبيين، إنك أنت العزيز الحكيم، ومن يرغب عن ملة إثربهم إلا من سلف نفسه، ولقد أصطفينه في الدنيا وإنَها في الآخرة لمن الصادقين، إذ قال له، زينه، أسلم قال أسلمت لربك العالمين ووضى بها إثربهم نبيه ويعقوب بنبني إن لله أصلفى لكم الذين فلا تموص ولا أصم مسلمون" (البقرة).

في قوله تعالى: "ربنا وأبعث فيهم رسولًا منهم الآية (البقرة: 129). يقول

والمراد أن أول من نور بذكره ، وشهد بين الناس إبراهيم ﷺ ، ولم يزل ذكره في الناس مشهوراً مذكوراً سائراً حتى أفضح باسمه خاتم الأنبية لبني إسرائيل نسباً وهو عيسى ﷺ ، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً وقال: «إني رسول الله ﷺ» ، محورًا لما بين يدي من التوراة ومُبصّرًا برسولٍ يأتي من بعيدٍ آمنة: أحمده ﷺ.


قيل: كان مناماً رأته حين حلمت به ، وقصته على قومها ، فشاع منهم واشتهرا بينهم ، وكان ذلك توطئة غضبًا للشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وبنوته بلاد الشام ، وهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلًا للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمرارة الشريفة البيضاء منها.


فقوله: قد استجيب للك ، وهو كائن في آخر الزمان . وكذا قال السدي.
وفاتله، وقوله تعالى: ﴿وَيَعِلْمُهُمُ الْكِتَابُ﴾ يعني القرآن{1}، والحكمة يعني السنة. ﴿وَيَرْكُزُ﴾ قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: طاعة الله. وقال محمد بن إسحاق ﴿وَيَعِلْمُهُمُ الْكِتَابُ وَالْحَكِيمُ﴾ قال الخير فيفعلونه والشر فيقونه، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه، ليستكروا من طاعته ويجتنبو ما يخطط من معصيته، وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، الحكم في أفعاله وأقواله يضع الأشياء في محاذا لعلمه وحكمته وعدله.{2}

(1) دعا إبراهيم ﷺ لرسول الله ﷺ أن يبعثه الله تعالى من سكان البيت ومن ذريته إسماعيل ابنه عليه السلام، وهذا أقصى ما دعا به إبراهيم ﷺ، ودعا أن يرى الرسول ﷺ ولعل على أتباعه آيات الله ومعجزاته وعلمهم الكتاب. هذا الكتاب الذي ذكر هذا قبل نزوله بألفين وخمسة سنة متوازناً نزول التوراة والإنجيل حيث إنهما نزلا بعد إبراهيم وقبل القرآن. فلم يكن الدعاء لما كما لم يكن الدعاء أن نزلا عليهما موسى وعيسى، ولكن موسى ﷺ محمد ﷺ، القرآن الكريم. وعلمهم السنة (الحكمة) ويزكيهم ليفعلوا الخير ويجتنبو الشر.

وهذا ما تحقق برسالة محمد ﷺ ونزول القرآن عليه وسن ستة، وترك أنفسهم بالخير واجتناب الشر. إن هذه الآية الكريمة تبين رواة ما سيكون من بعث محمد والكتاب المنزل عليه وتشكل تلك الأمة ﴿خَيْرَ آيَاتِ الْبَيِّنَاتِ﴾ [آل عمران: 110]. ولعل هذه الآية أول إشارة إلى أن القرآن الكريم محفوظ في اللوح المحفوظ قبل نزوله على النبي ﷺ، وعلم به إبراهيم حيث أوحى الله إليه بذلك، وذكر الرسول ﷺ بقرور طويل بما يدل على عظمة النبي، وعظمة هذا الكتاب وما سيكون عند بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن عليه وتشكل أمته المختارة بين الأمم والله أعلم.

(2) المراجع السابق 1/44422462.
6- المؤمنون بالكتاب

«الذين آتينهم الكتاب يتقونه. حق جل وجلب، أو تلقى بؤمنون به، ومن يكفر به، فأتليلك هم أحنىرون» (البقرة).

سبق هذه الآية خطاب للنبي ﷺ بقول الله تعالى: «إنا أرسلنك بالحق بشيرًا ونذيرًا، وَلَا تَسْتَيِلَّ عَنْ أَصْحَابٍ الْجِهَادِ وَلَا تَرْضَى عَنْكَ الْمَيْهُودُ وَلَا النَّصِيرُ حَتَّى تَتَّقَبَّ مِّلْهُمْ. قُلْ إِنَّ هَدِيَّةَ الْلَّهِ هُوَ أَهْدَى وَلَوْنِي أَنْبِعْتُ أَهْوَاءً هُمْ بعَدَّ الْبَيْرُ جَاءَكَ مِنْ الْمُلُكِ مَا لَكَ مِنِّ الْلَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» (البقرة).

ومن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «نزلت علي ﷺ: إنا أرسلنك بالحق بشيرًا ونذيرًا، قال: بشيراً بالجنة ونذيراً من النار».

ولَا تَسْتَيِلَّ عَنْ أَصْحَابِ الْجِهَادِ قراءة أكثرهم بضم الناء وقروها بعضهم

كُتِبَ على صفة النبي ﷺ، أي لا تسأل عن حاكمهم، كما قال عبد الرزاق، أخبرنا الثوري عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْتَ شَعْرِي مَعَ أَبِي؟ لَيْتَ شَعْرِي مَا مَعَ أَبِي؟ لَيْتَ شَعْرِي مَا مَعَ أَبِي؟» فَنَزَّلَتْ ﻓَرَغَتْ وَلَا تَسْتَيِلَّ عَنْ أَصْحَابِ الْجِهَادِ فَمَا ذَكَرْهُمَا حَتَّى تُوفِّى الله عز وجل، وروى بوجه كثرة.


ثم قال ابن جرير: إن النبي ﷺ قال ذات يوم: «أين أبي؟» فنزلت: إنا أرسلنك بالحق بشيرًا ونذيرًا، وَلَا تَسْتَيِلَّ عَنْ أَصْحَابِ الْجِهَادِ وهذا مرسل
قال أبا محمد: إن هدى الله الذي يعني به هو الهدى يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل.

قال قادة في قوله تعالى: "قُلْ إِنَّ هُدًىٰ لَّهُوَ الَّذِي هُدِيَّأ" [البقرة: 120] قال: خصومة علمها الله محمدًا وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة، وبلغنا - ما

(1) تفسير القرآن العظيم 114/1 بتصرف.
قال قتادة: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين لا يضروهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله.» هذا الحديث خرج في الصحيح عن عبد الله بن عمرو.

**وَلَوْان أَنَبَعَتْ أَهْوَاءُهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ.»** {القرآن} فيه تهديد ووعيد شديد للامة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة، عياذًاً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته؛ وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله: «حَتَّى تَتَبَيَّنَ مَعَاهُمْ.» {القرآن} [القرآن : 120] حيث أفرد الله على أن الكفر كله ملة واحدة، كقوله تعالى: «لمَّا يُنَذِّرُونَ دِينَ نَزِيمٍ وَلَيْ دِينٍ» {الكافرون} فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكافرون وكل منهم يرث قريء سواء كان من أهل دينه أم لا؛ لأنهم كلهم ملة واحدة، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه. وقول في الرواية الأخرى كقول مالك، إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى، كما جاء في الحديث والله أعلم.

وقوله: {الذين ابتينهم أُلْكِتُهم يَتَبَيَّنْهُمْ.} {القرآن} [القرآن : 121] قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: هم اليهود والنصارى، وهو قول عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، وأختاره ابن جرير. وقال سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ، وهذا القول هو الأرجح: أي أنهم أصحاب رسول الله ﷺ، وهم الذين حفظوا كتاب الله وفهموه حق فهم وتبونوه حق الابتداع، ويعملون به ويقرؤونه آناء الليل وأطراف النهار، وذلك ما لم يكن لدى اليهود والنصارى الذين حرروا كتبهم وغيرها، وكتبوا بأيديهم مما لم ينزل به الله، والكلام ينطبق على أصحاب رسول الله ﷺ الذين أخواصوا إخلاصًا شديدًا هذا الكتاب القرآن الكريم، وهم الذين آمنوا به إيماناً لا حدود له، مما هياهم الله لنقل هذا الكتاب بعد ذلك إلى الأتباع حتى يومنا هذا وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، أما الذين كفروا -وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم من الكافرين الخاسرين، ومن الأقوال في هذا: عن ابن عباس وعبد الله بن مسعود، وفيه قال الفرطيني وعن ابن

---

(1) تفسير القرآن العظيم 1/216.
عمر عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يُبَيِّنُونَهُمْ حَقَّ تَلاوَتِهِمْ﴾ قال: «يتبعونه حق اتباعه» وقال أبو موسى الأشعري: «ومن يتبع القرآن يهت بع على رياض الجنة»، وعن عمر بن الخطاب، وهم إذا مروا بأية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بأية عذاب استعاذا بها، وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه إذا مروا بأية رحمة سأل، وإذا مروا بأية عذاب تعود.

يقول ابن كثير: وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ يُؤُمِّنُونَ بِهِ﴾ خبر عن الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته. أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنباء المتقدمة، حق إقامته، آمن بما أرسلناك به يا محمد كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَفْتَمُّ مُّلُومًا أَنْ تُؤْتِيَ الْكُتُبَ الْأَصْحَابَ عَلَى نِسْبٍ لغَيْرِ الْمُكْرِهِمْ﴾ [المائدة: 26]. الآية: ﴿وَمَا أَنْزَلْ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّي مَنْ تَفَسَّرَ مِنْ فُقُودَهُ وَمِنْ تَدْرِكَهُ وَمَا أَنزَلْ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّي مَنْ رَاحَتْهُ وَمَا أَنزَلْ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّي مَنْ زَيَّنَّتْهُ﴾، وصدقهم ما فيها من الأخبار ببعث محمد ﷺ ونعه وصفته والأمر بتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق وانتاب الخير في الدنيا والآخرة... إلخ.

(1) تفسير القرآن العظيم 217/1.
7- كتاب الله وما أنزل الله به من نعمة

"وإذا طلقت النساء فثنان أجلهن فأمسكوهما يُدعوان أو سُرحوهن يُعرَفون ولا تسخطوا ضرَارًا لَّعتُدُوا وممَّن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا أبىت الله هورًا وأدركوا يعُبِّدُون الله أَلَّهُمَّ وَمَا أنزل عليهم من الكذب والتحكمة يُعِظُّون.

فِيهِ وَأَنتَوْا الله وَأَعُلُوْبُوا أَنَّ الله يُكِّلُ شِئَ عَلِيمٌ (البقرة)"

يأتي ذكر كتاب الله تعالى في هذه الآية مملاً على احتوائه الأحكام العامة للمسلمين، وعلى أنه أصل عقيدة المسلمين وشريعتهم، هو وصية النبي ﷺ في ترتيب وتوافق وتكامل، وذكره هنا على أن هذا الكتاب مصدر التشريع الإسلامي وفيه كل ما يحتاج المسلم في حياته، ويهبط العادات الجاهلية، تسليماً لشرعنة الإسلام، وذكر قضايا الطلاق، ويشزن إيراد تفسير الآية كلها للربط بين أخطاء الجاهلية، وعفوية العادة، وبعض العادات التي تأسّست في حياة الناس، وأمر الله تعالى ورسوله بترك هذه العادات، وهجر هذه الأقوال، وهذا حكم الإسلام الذي أنزل على محمد ﷺ محفوظاً في كتاب الله ومتدافلاً في سنة الرسول ﷺ.

هذا أمر من الله عز وجل للرجال، إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها في رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدته، ولم يبق منها إلا مقدار ما يكنته في رجعتها، فإما أن يمسكها، أو يربيها إلى عصمة نكاحها، معروف وهو أن يشهد على رجعتها، ويؤدى عشرتها بالعروف، أو يسرحها، أو يتركها حتى تنقض عدته ويخرجها من منزله بتي هي أحسن، من غير شقاق ولا مخاصة ولا تقابح صال الله تعالى: "وَلَا تمسكوهُم ضرَارًا لَّعتُدُوا" (البقرة: 231) قال ابن عباس، وجاءد ومصروف والخسن وقادة والضحاك والريع ومقاتل بن حيان وغير واحد، كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها، ضرآراً لَّعتُدها إلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق تطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه فقال: "وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَّلَ نَفْسهُ" (البقرة: 231) أي خالفته أمر الله تعالى.
وقوله تعالى: { ولا تُتُخِذُوا عَارِيِّينَ} { البقرة: 231 } قال ابن جرير عند هذه الآية، أخبرنا أبو كريرٍ، عن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعريين، فأتاه أبو موسى قال: يا رسول الله! أغبت على الأشعريين؟ فقال: { يقول أحدكم قد طلقت، قد راجعت ليس هذا طلاق المسلمين}، قلقوا المرأة قبل عدتها} ثم رواه من وجه آخر. وقال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتاجاعها لتطول عليها العدة، وقال الحسن، وقادة وعطاء الخراساني والربيع ومقاتل بن حيان، هو الرجل يطلق، ويقول: كنت لاعباً، أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله ﷺ: { ولا تُتُخِذُوا عَارِيِّينَ} فلزم الله بذلك.


وقوله: "وَآذَرْنَاكُم بِغَمَّتِ اللَّهِ عَلَيْكُم" أي: في إرساله الرسول بالهدى والبيانات إلىكم، "وَمَا أَنزَلْتَ عَلَيْكُم مِّن الْكِتَابِ" والحكمة: أي السنة "وَيُعَظُّكُم بِهِ" أي: بأمركم ويهدكم ويتوعدهكم على ارتكاب المحارم، "وَأَنَّهُ أَلْلَهُ" أي: فيما تأكلون وفيما تذرونه وآعلنا أن الله بكل شيء عليم [البقرة: 231] أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهري وسياجكم على ذلك. (1)

(1) أي ما أنزل إليكم الله تعالى في القرآن الكريم من الأحكام والشريعة، والتوجيه الذي ارتداء الله لكم من القضايا العامة في حياتكم، وخاصة القضايا الاجتماعية، من طلاق وزواج وعناق وغير ذلك مما يقع تحت العلاقات العامة.
(2) المرجع السابق 367/368.
8- الكتاب المنزل بالحق

"لا إله إلا هو " Ал-Куфи" ما يَفْتَرِ جَزَاءَ عَنْهُمْ أَشُهْرٍ، إِلَّا أَنْ يَأْتِونَ جَمِيعًا لَّمَّا بَلَّا يَتَوَلَّىُ عَلَيْهِمْ عَذَابُ شَدِيدٍ " إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ وَجَلِيلٌ " ؛ (آل عمران) .

ورد في هذه الآيات الكريمة اسمان للقرآن.. الكتاب .. والقرآن، وصفة من صفاته وهو كونه هدي للناس، وقد بدأت سورة آل عمران بهذا التعبير الرئيسي السامي الرائع بالآية الأولى بالأحرف النوحية " القرآن " آية مستقلة ثم كرر الله تعالى تعريف الحلقة بذلك بأنه هو الله الذي لا إله إلا هو .. وردت هذه الآية في صدر آية الكرسي. ولقد وردت أحاديث كثيرة عن فضل آية الكرسي في كتب الصحابة والسنن بأسانيدها.. .. وابتداء آية الكرسي بقوله تعالى: "لا إله إلا هو " Ал-كُفīء " .

عن أسماء نبت يزيد بن السكن، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآتيين: "لا إله إلا هو " آل-كُفīء " و " لا إله إلا هو " آل-كُفīء " . ينهاهما اسم الله الأعظم .. وكذا رواه أبو داود عن مسدد، والترمذي عن علي بن خش الزقاق وابن ماجة ثلاثتهم عن عسقل بن يونس عن عبد الله بن أبي زياد به .. وقال الترمذي: حسن صحيح.


فقوله: "لا إله إلا هو " . إخبار بأن المفرد ب الإلهية جميع الخلافات " آل-كُفīء " .
القوم {2} [آل عمران : 20] أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، القيم لغيره، وكان عمر يقرأ (القيام) فجميع الموجودات متفقرة إليه وهو غني عنها لا قوم لها بدون أمره، كقوله: {وَبِمَنْ آتَيْنَاهُ آيَاتَنَا مُتَّقِينَ} {آل عمران: 25}.

وقوله تعالى: {وَذَٰلِكَ لَعَلَّكَ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ يُحْذِرُونَ} {آل عمران: 32} يعني: نزل عليك القرآن يا محمد بالحق، أي لا شك فيه ولا رب بل هو منزل من عند الله، نزله بعلمه والملاكية يشهدون وکفى بالله شهداً، وقوله: {مُصَدِّقًا إِنَّمَا مِنْ يَدٍ يَدِيَهُ} أي: من الكتاب المنزلة قبل من السماء على عباد الله الأنيبياء، فهي مصدقة بما أخبرت به، وبشرت في قدم الزمان. وهو يصدقها، لأنه طابق ما أخبرت به، وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد وننزل القرآن العظيم عليه.

وقوله: {وَأَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَى مُوسَى} {وَالْإِلَيْهِ} أي: على موسى بن عمران {وَالْكُبْرَى} أي: على عيسى ابن مريم عليه السلام. {فَمَنْ قَبْلِهِ} أي: من قبل هذا القرآن {هُدِيَ} لِيَسَى: أي: في زمنهما. {وَأَنْزَلْنَا الْقُرآنَ} وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغفل والرشاد، وما يذكره الله تعالى من الحق والباطل، والدليل الواضح، والبراهين القاطعات، ويبينه ويوضحه ويفسره ويرشد إليه وبينه عليه من ذلك.

وقال قتادة والريع بن أنس: القرآن هاهنا القرآن، واختار ابن جرير أنه مصدر هنا لتقدم ذكر القرآن في قوله {وَذَٰلِكَ لَعَلَّكَ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ يُحْذِرُونَ} {آل عمران: 32} وهو القرآن. وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِيَا نَبِيَّاً لَهُ مَّرَّةً} {آل عمران: 4} أي: جحدوا بها وأتناكروا وردوا بالباطل. {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} {آل عمران: 4} أي: يوم القيامة. {وَآتَاهُمْ عَذَابَ سَيِّئٍ} {آل عمران: 4} أي: منع الجناب عظيم السلطان. {وَدُوَّارَانَ} {آل عمران: 4} أي: عظيم عليه. 

(1) تفسير القرآن العظيم 398/1 وما بعدها بتصرف شديد.
(2) تفسير القرآن العظيم 449/1.
6- آيات الكتاب المحكمات (أم الكتاب)

فَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَمَّنَّهُ إِنَّهُ مَحْكُومٌ وَأَخْرُ مُشْيَكَةُ فَأَمْامَ الْمَنْشِئِينَ فِي قُلوبِهِمْ زَرِّعَ فِتْيَانَهُمْ مَا تَبَيَّنَ مِنْهُ أَبْيَاقَهُ الْفِتْيَةِ وَأَبْيَاقَهُ تَأْوِيلٌ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَالْمُتَسَهِّلُونَ فِي الْعِلْمِ يُقُولُونَ دَامَّاً بِهِ كَلِمَةً عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٥) [آل عمران].

ذكر اسم الكتاب هنا للدلالة على ما سيأتي بعدها.. هن أَم الكتاب - فذكر الكتاب للتناسق والتوافق مع ذكر الآيات اللواتي هن أَم الكتاب. ويتطرق المفسرون إلى ذلك توضيحًا وتسهيلًا وتقييماً معتقلي ذكر كتاب الله تعالى بأسماءه الثلاثة القرآن والفرقاء والكتاب، وصفاته الأخرى المتعلقة بهذا الكتاب الكريم الذي أعطاه الله تعالى صفات من أسمائه جلاء وعلا، فالمؤمن الكريم والقرآن العظيم.. وصفات متعلقة بأنماة الذات الإلهية من الهدى والرحمة والشفاء...

وغير هذا.

يجب تعالي أن في القرآن آيات محكمات. هن أَم الكتاب، أي: بينات واضحة الدلالة لا الّتباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها استضافة في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتته إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهته عينده فقد اهتدى. ومنعكس العكس، وهذا قال تعالى: { فَهُنَّ أَمْ مَّلَكِيَّةٌ } أي أصله الذي يرجع إليه عند الاستشئاء { وَأَخْرَى مُشْيَكَةٌ } أي تحمل دلالتها موافقه الحكم، وقد تحمل شيئاً آخر من حيث اللطف والتركيب لا من حيث المراد.

وقد اختلفوا في الحكم والتشابه فروي عن السلف عبارات كثيرة، فقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، المحكمات: ناسخه، وحلله، وحرمته وأحكامه وحدوده وفرائضه وما يؤمر به ويعمل به، وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: وَالمحكمات قوله تعالى: { فَقُلْ تَعَالَوْا أَنَّ اللَّهَ حَرِيمُ رُسُلِهِمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تَذَكَّروَا}
لا يرضى بهن. إلا يرضى بهن.
صفة كتاب الله في كتاب الله

قالها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى: "إن هؤلاء لا عتبة أثمناً علَّيهم" (الزخرف: ٥٩) وقوله: "إذ ذُكِر مِثْلُ عِيسى عِندَ اللَّهِ كَمِثْلِ يَوْمِ خَلَقَهُ مِن نُّرُوب. ثم قال: "كن فيكون" (آل عمران: ٥٩) وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسول الله.

وقوله تعالى: "وأتباعاً تأويله" (آل عمران: ٧١) أي: تناوله على ما يريدون.

وقال مقاتل بن حبان والسدي يتبغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن، وقد قال الإمام أحمد عن عاشية قالت: قرأ رسول الله ﷺ: "هو الذي أنزل عليه الكتاب ومنه نابض محكمته من مكتوب وآخر مشبهته" (آل عمران: ٧٢) إلى قوله: "أولوا اللاتين" (آل عمران: ٠) فقال: "إذا رأيت الذين يجادلون فيه فهم الذين عني الله فاحذروهم"، رواه ابن ماجه، ورواه محمد بن يحيى العبد في مسنده ورواه ابن حبان في صحيحه، وقد روي هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية، ومسلم في كتاب القدر من صحيحه، قال: قالت عاشية: قال رسول الله ﷺ: "إذا رأيت الذين يتبعون ما تشبه منه؛ فولت ذلك الذين سمي الله فاحذروهم" لفظ البخاري، وفي رواية عن عاشية قالت: نزع رسول الله ﷺ بهذه الآية: "قَبَّةَ تَبَيَّنَّ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ؛ أُبْيَنَ أَلْفِيْنَة" فقال رسول الله ﷺ: "فِي ذَلِكَ ظَهَرَوا"، وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو كام، حدثنا حداد عن أبي غالب، قال: سمعت أبا أامتة يحدث عن النبي ﷺ في قوله تعالى: "فَأَما الْذِّينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْغُ قَبَّةِ تَبَيَّنَّ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ" (آل عمران: ٧٢) قال: "هم الخوارج" وفي قوله تعالى: "يَوْمَ تَبَيْضَ الوجوه وَتَحْورُ الوجوه" (آل عمران: ٦٦) قال: "هم الخوارج"، وقد رواه ابن مروية من غير وجه عن أبي غالب، عن أبي أمتة مرفعاً فذكره.

وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح.

فإن أول بذعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي ﷺ غنائم حنين، فكانهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعد في القسمة.
ففاجؤه بهذه المقالة، فقال قائلهم وهو ذو الخوصرة - بقر الله خاصره -: أعدل فإني لم أعدل. فقال رسول الله ﷺ: "لقد كنت وخسرت، إن لم أكن أعدل، إنما كنت على أهل الأرض، ولا تأملوني". فلما قال الرجل، استأذن عمر بن الخطاب في رواية خالد بن الوليد رسول الله ﷺ. فقال: "دعه فإنه يخرج من ضطضى هذا - أي من جنسه - قوم يقرأ أحدكم صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية، فأنمو لقيموه، فاقتلهوا، فإن في قتلهم أجرًا لقتلهم".

ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب ﭼ وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وأراة، وأهواء ومقالات، ونجل كثيرة منتشرة، ثم نسبت القدرية ثم المتزيلة، ثم الجهيمة وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق في قوله: "وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة" قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: "من كان على ما أنا عليه وأصحابي أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة وقال الحافظ أبو يعلى أنه بلغه عن حديثه أو سمعه عنه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر: "إن في أمتي قومًا يقرأون القرآن يثيرون نهر الدقل يتأولونه على غير تأويله. ولم يخرجوه".

وقوله تعالى: "وما يعلمن تأويله إلا الله" (آل عمران: 7) اختلاف القراء في الوقت ها هنا، فقيل: على الجلالة كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: التفسير على أربعة أنواع; فتفسير لا يعبر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله. ويري هذا القول عن عاشقة وعروة وأبي الشعثاء وأبي نهيك وغيرهم.

وقال الحافظ أبو القاسم في المعجم الكبير بسنده، عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا أخف على أمتي إلا ثلاث: أن يكثر لهم المال فيحاسدوا فيقتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذها المؤمن يبتغي تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، وآله يرسبون في العلم يقولون: "إذن بها" الآية، وان يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون". غريب جداً.
وقال ابن مرجويه بن سندن عن ابن العاصم عن رسول الله ﷺ قال: "إن القرآن لم ينزل ليكتب بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فأخمنا به" وعن أصحاب النبي ﷺ - أسى وأبي أمانة وأبي السدراء - أن رسول الله ﷺ سائل عن الرأسيخين في العلم فقال: "من برت مينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه ومن عفف بطنه وفرج فذلك من الرأسيخين في العلم.

وقال الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قومًا يتدأرون فقال: "إذا هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه بعضًا، وإذا أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضًا، فلا تذكروا بعضه بعضًا، فما علمتم منه قولوا به، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه".

واعلن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء في القرآن كفر - قالها ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه" ذكره أبو يعلى الموصلي في مسنده.

ويقال: الرأسيخون في العلم المتواضعون لله المتذلون لله في مرضاته، ولا يتعاظمون على من فوقهم، ولا يحققون من دونهم، ثم قال الله تعالى عنهم خبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتَنا" (آل عمران: 81) أي: لا تعمهما عن الهدى بعد إذ أقتمتها عليه. ولا تجعلوا كالذين في قلوبهم زيف، الذين يبتعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتا على صراطك المستقيم، ودينك القويم وهم لنا من أدنى رحمته" (آل عمران: 82) تثبت بها قلوبنا، وجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً "إنك أنت الاله غاب" (آل عمران: 61).

(1) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير - طبعة دار المعارف - بيروت لبنان 1986 - 10/1 - 352

357 بنصفر.
10- الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب

"فَأَلْقَّنَّ مَعْدُونٍ إِلَى الْقُرْآنِ (1) أوَتْهَا نَصِيبًا مِنَ الْمَكْتَبِ يُدْعِونَ إِلَى سَجْدَةٍ اللَّهِ لِيَتَحْكُمُ

يَبِينُهُمُ الْعِزَّةَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَثُمَّ مَعْطَرُضُونَ (2) [آل عمران]."

ذكر الكتاب هنا لسِيَّة القرآن الكريم. ولكن كتاب من سِيَّة التوراة والإنجيل،
وإدراجنا هنا تصديقا لما ورد في القرآن الكريم من ذكر هؤلاء الذين حرفوا كتبهم
وحقوا وأضافوا، وحفظ الله تعالى القرآن من أن تمتد إليه يد التحرير أو الحذف
أو الإضافة، في تحذير لكل الإنسان وكلل الجن، وأن يأتوا مثله أو سورة منه، أو
آيات، واصطنال ذكر لفظ الكتاب على الكتب السماوية دون غيرها من الكتب
كتاب البهءة، أو البوذية أو غيرها ... دلالة أن السياقات السماوية مصادرها
إحدى، وحكمها واحد، ولذلك فإن القرطي قد أجز القول في هذا فقال (3):

في هذه الآية ثمان مسائل:

الأولى: قال ابن عباس: هذه الآيات نزلت بسبب أن رسول الله نزلت بسب أن رسول الله دخل بيت المدرس (4) على جماعة من يهود فدفعهم إلى الله، فاسل يعيم بن عمر وحاثر
ابن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال النبي: إني على ملة إبراهيم. فقال:
إنه إبراهيم كان يهودا، فقال النبي: هلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم فأبا
عليه فنزلت الآية. وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود انكرتوا نبوءة
محمد: فقال لهم النبي: "هلمو إلى التوراة فليفهموا صفتي" فأبوا.

الثانية: في هذه الآية دليل على وجبة ارتفاع المدعو إلى الحاكم لأنه دُعى إلى
كتاب الله، فإن لم يفعل كان مخالفاً يتعين عليه الزجر بالأدب على قدر الخلاف،
والمخالف (2)، وهذا الحكم الذي ذكرناه بين في التنزيل في سورة النور في قوله
تعالى: «وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون» إلى

(1) يقال القرطي: إن هذا الحكم حاكم في المغرب والأندلس وقتها وغير حاكم في مصر.
(2) المدراس: أماكن التعليم عند اليهود.
(3) الجامع لأحكام القرآن - 49-49 بتصرف.
قوله: "بل أوَّلَ تَنَبَّأَ هُمُ الْأَلْطَهِرُونَ،" 
[النور]. وأسند الزهري عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: "من دعا خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم ولا حق له" قال ابن العربي: وهذا حديث باطل، أما قوله: فهو ظالم، فكلام صحيح، وأما قوله: فلا حق له، فلا صح، ويحمل أن يريد أنه غير الحق قال ابن خويز مندان المالكي: واجب على كل من دُعِى إلى مجلس الحاكم أن يجيب 
ما لم يعلم أن الحاكم فاسق، أو يُعلَّم عداؤه من المدعي والمدعى عليه. 

الثالثة: وفيها دليل على أن شرائع من قبلنا شريعة لنا إلا ما علمنا نسخه، وأنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء وقبلنا على ما يأتي بيه، وإذا لم تقرأ التوراة ولا تعمل بما فيها؛ لأن من هي في يده غير أمين عليها، وقد غيرها وبدها، ولو علمنا أن شيئاً منها لم يتغير، ولم يتبدل جاز لنا قراءته، وغير ذلك روى عن عمر حيث قال لكعب: إن كنت تعلم أنها التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى بن عمران، فاقرأها، وكان علماء لما لم يتغير منها، فلذلك دعاهم إليها وإلى الحكم بها، وسيأتي بيان هذا في سورة أخرى (المائدة) والأخبار الموردة في ذلك إن شاء الله تعالى، وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في ذلك والله أعلم.
11- من أوتي الكتاب والحكم والنبوة

ما كان ليبشر أن يؤمنه الله الكتاب والحكم والنبوة تمن يقول للناس كونوا عباداً
لي من دون الله ولكن كونوا رجليين بما كنت لتعليمون الكتاب وبيما كنت تدرستون
ولا يأمركم أن تتужدوا الليكية والنبيين أرباباً أي أرمكم بالأكرم بعد إذ أنتم
مُسلمون (أ) [آل عمران].

الأمر عام للرسل - عليهم السلام - الذين أنزل الله تعال عليهم الكتاب من
لدهم ليكون هدى للناس، ونوراً ويبطق ذلك على رسولنا وعلى القرآن
 الكريم، إذ إن الأمر لأي من بني البشر أنزل الله عليه كتاباً أو صحفاً أو ما ينطبق
 عليه لفظ الكتاب.

قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو رافع القرني:
حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل آخر عند رسول الله ﷺ
ودعاهم إلى الإسلام، قالوا: أ تريد يا محمد أن تعبد كم تعبد النصارى عيسى
ابن مريم؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله، أن تعبد غير الله أو أن تأمر بعباده
غير الله». وما بذلك يعني ولا بذلك أمرني، أو كما قال ﷺ، فإنزل الله من
ذلك: ما كان ليبشر أن يؤمنه الله الكتاب والحكم والنبوة تمن يقول للناس كونوا
لي من دون الله (آل عمران: 79) والنبيوة إلى قوله: «بعد إذا أنتم مسلمون (أ)»،
فقال: ما كان ليبشر أن يؤمنه الله الكتاب والحكم والنبوة تمن يقول للناس كونوا
عباداً لي من دون الله (آل عمران: 79) أي: ما ينبغي ليبشر آية الله الكتاب والحكم
النبيوة أن يقول للناس اعتذاري من دون الله، أي: مع الله، فإذا كان هذا لا
يصلح لبني ولا لمرسل، فلين لا يصفح لأحد من الناس غيرهم بطرق الأول
والأخرى، ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته
قال: ذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً - يعني أهل الكتاب - كانوا يعبدون
أحبارهم ورحبهم، كما قال تعالى: أتخذا أحببهم ورحببتههم أرباباً من دوره
وفي المسند والترمذي كما سيأتي أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله ما عبدوه! قال: بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الخصال، فاتبعهم بذلك عبادتهم بإيام، فاجهلته من الأحبار والرهبان ومشائخ الضلال يدخلون في هذا المقام والتوبيخ، يخلف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنهم إمّا يأمرون بما يأمر الله به، ويمرغتهم إياهم رسله الكرام، وإنما يهنوههم عما ينهاههم الله عليه، وبلغتهم إياهم رسله الكرام، فارسل عليهم السلام هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوهم من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أم القيام، ونصحوا الخلق، وبلغوا الحق.


والربانيون واحدهم رباني منسوب إلى الرب، والرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، وكأنه يقتني بالرب سبحانه في تسيير الأمور - روى معناه عن ابن عباس، قال بعضهم: الأصل ربي، فدخلت الألف والنون للمبالغة، كما يقال للعظيم اللحية: خياني، والعظيم الجمالي، ولغالي الرقبة الرقباني.

قال المبرد: الربانيون أرباب العلم، واحدهم: ربّان من قومهم: ربّه يرزقه فهو ربان إذا دبره، وأصلحه فمعناه على هذا يدقرون أموار الناس ويصلبونها، والألف والنون للمبالغة كما قالوا: ربان وعطقان، ثم ضمت إليها ياء النسبة كما قيل: خياني ورقباني وجاني قال الشاعر:

منه الحديث ورباني أحبائي

لو كنت مرتّهناً في الجوّ الأزلي

(1) تفسير القرآن العظيم ابن كثير 3/285.
فمعنى الربياني العالم بدين الرجل الذي يعمل بعلمه، لأنه إذا لم يعمل بعلمه فلا ي успех بعلمه.
وقال الصادق، لا ينبغي لأحد أن يب عده، فإن عده للعالم، وقال ماهر، الربياني: الربياني، الولادة والأحباز، العلماء، وقال ماهر، الربياني، فوق الأخبار، قال النحاس، هو قول حسن، لأن الأخبار هم العلماء، والربياني الذي يجمع إلى العلم البصر بالسياسة، وأخذ من قول العرب: رب أمر الناس يبره، إذا أصلحه وقام به، فهو رابع وراني على التحلي، قال أبو عبيدة، سمعت علاء يقول: الربياني العالم بالحلال والحرم والأمر والنهي، العارف بأبيات الأمة، وما كان وما يكون، وقال محمد بن الحفصة يوم مات ابن عباس: اليوم مات ربياني هذه الأمة، وهي عن النبي دق، أنه قال: ما من مؤمن ذكر أو أنى خير أو مملوك إلا الله عز وجل عليه حتى أن عده من القرآن ويتحبه في دينه - ثم تلا هذه الآية: وليكن قوتاً رجعتين، رواد ابن عباس (1)
وقال الصادق في قوله: ويا كثيرة تعليمون البيت ويا كثيرة تدرسون (2).
حق على من علم القرآن أن يكون فقيهًا: تعلمون أي تفهم عنده، وقري: تعليمون بالتدريب من التعليم، ويا كثيرة تدرسون وحفظون الفاظ، ثم قال الله تعالى: ولا يأمرك أن تنتجوا البنية والديين أربابًا، أي: ولا يأمرك بعبادتك أحد غير الله، ولا برسوله، ولا تملك مقرب، أي: يا أمrk بالله، إذ أنتم مسلمون (3) [آل عمران] أي: لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عدادة غير الله، ومن دعا إلى عدادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إذا يأمون بالإيمان وهو عدادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: وما أرسلنا من قلقة من رسول إلا نوح إلى أن أنه، لا إله إلا أنا، فاعبدون (4) [الأنبياء] وقال تعالى: ولقد بعتنا في سكن أمة رسول الله، أتنتهوا أنت واجتنبوا الطغوت (5) [النحل: 326] الآية، وقال: وسائر من أرسلنا من قلقة من رسول أجعلنا من دون الرب، والله يعلمون، إلهة يعبدهون (6) [الزخرف]، وقال إيهام عن الملائكة: وهم يقل بنيهم إلى إلههم من دونه، فقد إن عرجه جهنم كذل ذلك حري الأطليتين (7) [الأنبياء].

(1) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير 2/385
(2) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير 4/123، 126/122.
12- الإيمان بالكتاب كله

هَاتَنِئَمُوْمُ أَوَّلًا، تَحْبُسُونَهُمْ وَلَا تَجْعَلْنَ تَحْبُسُونَ بَلْ يَكْتُبُ كُلُّهُ. وَإِذَا لَفْوُكَمْ قَالُوا
ءَامِناً وَإِذَا خَلَوْا عَضْوًا عَلَيْكُمُ الْأَنَايْلُ مِنْ الْغَيْظِ قَلُوا مُّوْنَا يَغْفِرُونَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بَدْاتُ الْصُّدُورِ) (1) [آل عمران].

اختالف المنافقون في تحديد أولئك الذين يُحبِّبهم المسلمون، ولا يحبون المسلمين،
فقيل بأنهم المنافقون، قاله أبو العالية ومقاتل، وال المجاهد هنا يعني المصافحة: أي: أنتم-
آيها المسلمون - تصفونهم ولا يصفونك للفراقهم، وقيل: المعنى: تريدون لهم
الإسلام وهم يريدون لكم الكفر (1). فهم لا يؤمنون بالكتاب أي: القرآن كله،
وإذا يؤمنون بعض الكتاب، ويكنون بعض، وهذه صفات المنافقين التي
تكررت وتنوعت أوصافهم في القرآن الكريم يعملون بعض الآيات من القرآن،
وينكرن آيات أخرى، وأنتم آيها المسلمون تؤمنون بكتاب الله (القرآن الكريم)
كله يُذاكَدُونُهُمْ: أي إذا حضروا مجالسكم وهم يعアイشونكم ويعيشون بينكم
قالوا: ءامناً: أي أمنا بالإسلام وبالكتاب وما جاء به محمد (ص) كذا خلوا
عضواً عليكم الأنايل من الغيظ) (آل عمران:119) وذلك تصديقاً لقول الله تعالى:
ومن الناس من يقول: ءامناً بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هِيُّ الْمُؤْمِنُينَ粗糙
أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعَرُونَ إِلَّا نَفَاتُهُمْ وَلَمْ يَشْعَرُوا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (2) وَإِذَا قَبِلَ لَهُمْ لا
تَفَسَّدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (3) أَلََا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن
لا يَشْعَرُونَ (4) وَإِذَا قَبِلَ لَهُمُ دَاعِيُهُمْ كَمَا ذَائَمَ الْأَنَايْلُ قَالُوا كَمَا ذَائَمُ
الْشَّفَاءُ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُشْفِهُونَ وَلَكِنَّ لا يَعْلَمُونَ (5) وَإِذَا لَقَوْا الْذِّينَ قَالُوا
ءَامِناً وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُشْتَهِروُنَّ (6) اللَّهُ يَسْتَوَى

(1) الجامع لأحكام القرآن، 4/181.
وجاءت صورة أخرى لهم ﴿وإذا لقوكم قلنا أوامنا وإذا خلوها عضوا علىكم الآتى﴾ من ﴿القاضى﴾ صورة رائعة لحال هؤلاء الناس الذين يعايشونكم، قد امتلأت قلوبهم بالكفر والخِطى، فيغتاظون لأنكم أمتنم وغتاظون لأنكم انتصرتم، وغتاؤون حين يرونكم تكترون وهم يقلون: يودد هذا الرأي أيضًا الآية التي سبقت هذه الآية وقد فسرها ابن كثير بأنها تدل على المنافقين(1)، وخلص إلى القول في ربط الآية السابقة باللاحقة ثم قال تعالى: ﴿قد بدنت البغضاء من أفروهم وما تحفظ صدورهم أصحٍ﴾ أي: قد لاح على صفحات وجههم وفتنات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتغلون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل، وهذا قال تعالى: ﴿قد بُنِيَ لَكُمُ الآتى﴾.


ويتابع الحديث كله على أن المنافقين هم المقصدون في هذه الآية القرآنية، وقيل: المراد اليهود قاله الأكثر - وهو الرأي الثاني أو الآخر - والكتاب اسم جنس، قال ابن عباس: يعني بالكتاب اليهود يؤمنون بالبعض.

(1) تفسير القرآن العظيم 4/645 فما بعدها.
كما قال تعالى: "وَإِذَا قَبَلَ لَهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنَزَّلَ آنَّـٰحَـٰـرٖ قَالُوا نَّورُينَ بِمَا أُنَزِّلَ عَلَيْنَا وَيُكْفِرُونَ بِمَا وَرَأَهُمْ، وَإِذَا لَقَوْمٌ قَالُوا آمَنَّا آيٌ: بِمِهَادٍ، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "وَإِذَا حَلَّوْا" فيما بينهم عَضَّوْا عَلَيْهِمْ الأَنَامِل يَعْنِي: أَطْرَاف الأصائب من الغيظ، والحق عليكم، فيقول بعضهم لبعض: ألا ترون إلى هؤلاء ظهروا وكثروا، والبعض عبارة عن شدة الغيظ مع عدم القدرة على إفناده.

ومنه قول أبي طالب:

"يِعْضُون غَيْظًا خَلَفْنَا بالآناميل"

وقال آخر:

"إِذَا رَأِونِي - أَطَال اللَّه غِيظِّهِم عَضْوَاء مِنَ الْغَيْظ أُطرَافُ الأَبَاهِيم"

وواحد الأناجيل (أمّة) ويقال: بفتحها والضم أشهرين.

وقوله تعالى: "قُلْ: مَوْتُوا بِغَيْظٍ كَمَّ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور" ( آل عمران 258).


الثاني: إن المعنى أخرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون، فإن مات دون ذلك، فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبيقي معنى الت喟 والإغاظة، ويجري هذا المعنى قول مسافر بن أبي عمرو:

"وَيَتَمَسِّكُ في أَروَمِنَا وَنَفْقَأ عُيْنَانِ مِن حَسْدٍ"

وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى: "مَن كَارَٰكَ يَظْنُ أنَّ لَن يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الْقَدْرِ" (المغفرة: 5).

والأُحُدَّةُ قَلِيمَةُ يَسْبُبُ إِلَى الْحَسَمَةِ ثُمَّ لَيْقُطَعُ" (المغفرة: 5).

١٦٢ (١) الجامع لأحكام القرآن
13- وجوب الإيمان بالله ورسوله
والكتاب الذي أنزل على رسوله

١٠٥٢ البُنيِّيَّاتُ اللَّهِينَ آمَنَوا بِاللَّهِ وَرسُولِهِ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مُّبِينًا}

تجلبة عناصر الإيمان في هذه الآية الكريمة بأسلوب مبعد معجز، مرتب مسترس، مناسب متزاين، وإن كان واحدة من الإيمان - وهي الإيمان بالقدر خيره وشره - لم ترد هنا، لكنها مفهومة من السياق العام للآية.

وخصوص الإيمان بالله تعالى بعد ندائه للمؤمنين \(بَيَّةُ الْيَتِيمِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرسُولِهِ)\ لتحقيق إيمانكم كمخططاً به أن تؤمنوا بالله تعالى - رأس الإيمان ثم رسوله - من الرسول - والذي سيتكرر معهم بعد إفراذه هنا، وكذلك الكتاب الكريم - القرآن العظيم - والذي أفرده أيضاً ثم كرهه مجمولاً مع الكتاب الذي أنزل من قبل على أبنائه السابقين، ثم يهيه النفس المؤمنة مذكرةً إياها بأن من كفر بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر - وكتبها التي سبقت فقد ضل ضلالاً بعيداً.

إنه الأسلوب القرآني المعجز المبدع الذي انفرد دون كلام آخر سبقه أو لحقه بهذا البيان العجيب البديع، والدعوة إلى عناصر الإيمان هذه هي ما أجاب بها نبي الله تعالى جبريل ﷺ عندما سأله عن الإسلام فأجاب وصدق جبريل - وعجب الصحابة رضوان الله عليهم - يسأل ويصدقه. ثم عن الإيمان، فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. فقال: "صدق رسول الله ﷺ وصدق الله العظيم في هذا النداء لعباده المؤمنين، حيث خصهم بالنداء وخصوص بالإيمان بهذه العناصر الحامة. نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين، والمعنى: يا أيها الذين صدقو، أقسموا على تصديقكم وثبتوا عليه(Wَأَلْيَكِنْبُ اللَّهُ نَزَّلَ عَلَى رُسُلِهِ) أي القرآن (وَالَّذِي نُزِّلَ مِنْ فَتُولٍ)
أي: كل كتاب أنزل على النبي.

وقيل: نزلت فيمن آمن من تقدم محمدًا من الأنبياء عليهم السلام، وقيل:

إنه خطاب للمنافقين؛ والمعنى على هذا يا أيها الذين آمنوا في الظاهر أخلصوا الله،

وقيل: يراد المشركين؛ والمعنى: يا أيها الذين آمنوا باللارات والعزي والطاغوت

آمنوا بالله. أي صدقوه على الله وبكتبه(1).

إن نداء يا أيها الذين آمنوا: خصص الله تعالى المؤمنين من المسلمين في الخمسة

وثمانين نداء في القرآن، والتي أنزلت جميعاً في المدينة كانت الغاية منهم خطاب

الجماعة المؤمنة التي تميلت عن غيرها من الجماعات والفئات، وقد ذكر الله تعالى

تلك الفئات، بأسمائها التي عرفت بها وتركررت في كثير من الآيات مثل: «يتأهل

أليكسب» [آل عمران: 14]، و«قل تأتيها الحكلي وربك» [الكافرون]. و«بيعدهم أدم»


ورد أنها نزلت في المنافقين والمشركين فيها كثير من تحمل الآية الكريم ما لا تحتمل

ولكنها تؤخذ على لفظها المتكرر نفياً وثمانين مرة كما ذكرت للمؤمنين من أتباع

النبي ﷺ الذين خصصهم الله تعالى بهذه الصفة وهذه النداءات، ولو رجعنا إليها

جسناً لكافن نداء هؤلاء - ولست هذه وحدها تذذ علىهم، وتحمل أن تكون قد

انفردت بهذا اللفظ - والله تعالى أعلم.

(1) الجامع لأحكام القرآن 5/415.
14- موقف المؤمنين من المستهزئين بآيات الله

وقد نزل عليهم في الكتب أن إذا سَمَعْتُمْ عَنِّي بِكُفْرٍ بِهَا وَتَسَهَرْتُ بِهَا فَلا تَقَعَّدوْا مَعَهُمْ حَتَّى تَخْفُوْضَوا فِي حِدِيثٍ غَيْرٍ إِنَّكُمْ إِذَا بَلَغْتُمُّمُّ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمَتَّنِفِقِينَ وَالْكَفَّارِينَ فِي جَهَّازِ جَمِيعًا ﷺ (النساء).

نهى الله المؤمنين جميعاً سواء كانوا صادقي الإمام أو متظاهرين به وهم المنافقون عن الجلوس في مجالس الفاسدين الذين يستهزئون بآيات الله. فلا تسمعوا لهذه ولا تكثروا معهم حتى يتكلموا في حديث آخر، فإنكم إن قعدتم معهم كنتم شركاء لهم في الكفر، لرضوا بكلامهم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتُ الْذَّيْنَ ﺗُخْفُوْضُونَ فِي ِهَا نَبَتْنَأَ عَنْهُمْ حَتَّى ﺗُخْفُوْضُوا فِي حِدِيثٍ غَيْرٍ ﴿ (الأنعام: 82).

وسبب النهي أن المشتكرين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزؤون به، فتُهِيَ المسلمون عن القعود معهم ما داموا خاضعين فيه، وكان أُحَبُ اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين فُتُهو أن يبقوا معهم، كما نُهُوا عن مجالسة المشركين بِمَكَّة، وكان الذين يقعدون الخاضعون في القرآن من الأُحُبِّاء هم المنافقون فقيل لهم: إنكم إذا مثل الأُحَبْاء في الكفر؛ وفي هذا إيهام إلى أن الساكت عن المنكر شريك في الإثم.

ثم أوضح الله تعالى عاقبته الجميع، فقرر أن الله تعالى جامع المنافقين والكافرين جميعاً في جههم، يعني القاعدين والمتعلق بهم، فإنهم إذا اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا، سيرجعون في عقاب يوم القيامة؛ لأن من رضى بالشيء حكمه حكم المرتكب له تماماً.

ثم بين الله تعالى بعض أحوال المنافقين، وهى أنهم ينتظرون ما يحدث للمؤمنين من خير أو شر (1) أنزل الله تعالى هذا الحكم في كتابه العزيز في القرآن الكريم تبياناً لأحكام المؤمنين الذين يجلسون مع من يستهزئ بآيات الله، بذلك حرم الله

(1) التفسير المير: 5، وهبة الزحلية/5 137/6321.
الجلس في مجالس الكفر الذين يستهزؤون بآيات الله (القرآن) ، والخطاب في قوله : "وقد نزل عليناكم في الكتاب " [النساء : 140] عام جميع من أظهر الإيمان من حق ومنافق ؛ لأنه إذا أظهر الإيمان فقد لزم أن يمتثل أوامر كتاب الله ، وكان المنافقون يجلسون إلى أ ח ح ب اليهود ، فيسخرون من القرآن.

و ف 1 على قوله تعالى : "فلا تقتندوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيّر " أي الكفر " إن كر إنا متلهم " على وجوه اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر ؛ لأن من لم يبتينهم فقد رضي مقامهم . والرضى بالكرف كفر ، قال الله عز وجل : " إن كر إنا متلهم " فكل من جلس في مجلس معصية ، ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزير سواء ، وينبغي أن ينك علّهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها ، فإن لم يقدر على التكرأ عليهم ، وينبغي أن يقوم عنهم ، حتى يكونوا من أهل هذه الآية .

وإذا ثبت تجنب أصحاب المعاصي ، فتجنب أهل البعد والأهواء أولى .(1)
15- أهل الكتاب، سألون النبي
أن ينزل عليهم كتابًا من السماء

"إِسْتَلَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِيكَ فَقَالُوا أُرَيْنَا اللَّهُ جَهَرًا فَأُخْرِجَتْهُمُ الْبَيْنَاءَةُ بِظُلْمَهُمْ فَنُهِّجْنَاهُمْ عَلَى الْعَجْلِ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا جَاءَهُمُ الْيَمِينُ فَعَفَّوْا عَنْ ذَلِيكَ وَتَأَنَّى مُوسَى مُوسَى سُلَطَتُنَا مُعِينًا (٢) {النساء}.

سألت اليهود محمدًا أن يصعد إلى السماء وهم يرون ابنهم فينزل عليهم كتابًا مكتوبًا فيما يدعى على صدقه دفعة واحدة، كما أن موسى بالثوراء تعتنّا له، فأعلم الله عز وجل أن آباؤهم قد عتنوا موسى بأكبر من هذا، فقالوا ارنا الله جهزة، أي عياناً، وجهزة نعت لمصدر مخزوف أي روؤا جهزة فعفروا بالصعقة لعظم ما جاؤوا به من السؤال، والظلم بعد ما رأوا من المعجزات.

وقوله تعالى: "قُلْ انْخْذِلُوا الْعَجْلَ" في الكلام حذف تقديريه: فأخيناهم فلم يبرحوا فانخذلوا العجل من بعيد، ما جاءهم اليمين، أي البراهين والدلائل والمغزرات الظاهرة من البحر والعسا، وقلق البحر وغيرها، بأنه لا معبر إلا الله عز وجل، فعفوا عن ذلك، أي عما كان منهم من العنت: وتأنّى موسى سلطتنا معيَّناً، أي حجة بينة، وهي الآيات التي جاء بها، وسميت سلطاناً لأن من جاء بها قاهر بالحجة، وهي قاهرة للقلوب، بأن تعلم أنه ليس في قوى البشر أن يأتوا مثلاً (١)

أخير جبريل الطبري عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله فقالوا: إن موسى جاءنا بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح حتى نصدقك، فأنزل الله: "إِسْتَلَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ" إلى قوله: "بَيَانًا عَظِيمًا (٢) فجتا رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على

---

(1) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٠٧.
أحد شيئاً فأنزل الله تعالى: [وما قدروا الله حق قدره] (الأنعام: 91).

وروى أن كعب بن الأشرف، وفنيحاس بن عازوراء، وغيرهما قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنت نيا صادقاً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتي به موسى، فنزلت، وقال ابن جريج: سألوا أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به.

ومن المعلوم عند المفسرين أن اليهود سألت موسى أن يصعد إلى السماء فيهم يرونه، فنزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعى على صدقه دفعة واحدة كما أتي موسى بالتوراة، تعتنا له ﷺ، فأعلم الله عز وجل أن آباءهم قد استواهم قد عتموا موسى ﷺ بأكبر وأعظم من هذا؛ فقالوا: [أرَأَيْتُ لَهُمُ الْجِهَرَةُ] أي: عياناً والآية مرتبطة بما قبلها، فموضوعها أهل الكتاب، وكانت الآيات السابقة تبياناً لكشفهم، إذ قالوا: نؤمن بعض الرسل ونكفر بعض، وهذه الآيات تدل على تعتمهم ومطالبتهم بأشياء على سبيل العنان والإخاد(1)، ومن دلالة الآية وما سببها:

1- إن أخلاق اليهود وطبعهم وعزة صعبة غريبة، فهم لا يذعنون للحق، وإذا يجادلون فيه، وينحازون عنه إلى المطالبة بأمر على سبيل التعجيز والإخاد والعنان والtraîغة والتنهش، فقد سألوا النبي ﷺ إنزال الكتاب مكتوباً من السماء دفعة واحدة إلى فلان واللائل يؤيد ما يدعه ويصده فيما يقول، تعتنا كما أتي به موسى، وطلبوا من موسى أن يريهم الله تعالى رؤية جهزة عياناً. وأخذوا الجبل إلما بالرغم من الأدلة القاطعة التي أيد الله تعالى بها موسى ﷺ، من الله والعصا وقفص البحر وغيرها التي تدل على أنه لا معبد إلا الله عز وجل.

2- لا ينفع اليهود إلا إلى المادة، لذالزمهم الله تعالى إطاعة التوراة وإطاعة موسى يرفع الجبل فوقهم كأنه ظلة لتخويفهم.

3- إنهم معتلون مشاعون ماكرون، فقد أمرهم باحترام يوم السبت وعدم

(1) التفسير المنير/ 16
 العمل فيه، فاحترالوا على صيد السمك بوضع حواجز على سواحل البحار يوم الجمعة، يبقى فيها السمك الآتي بالماء البحري حينما ينحسر عنه الجزء.

4- إنهم ينقضون العهود ويخالفون الوثائق، فقد أخذ الله عليهم العهد المؤكد على العمل بالتراتب، ثم نقضوا الوثائق، وخالفوا مقتضى العهد بجرأة نادرة (1)... والكثير .. والكثير من الصفات المتسمة بالظلم والكفر وقتل الأنبياء والخروج عن أوامر الله.

(1) التفسير المثير 6/22424
16- مقاصد القرآن الكريم: كتاب الله تعالى العظيم

«يُتَأَهَّل الَّذِي كَتبَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُكُمْ لَكُمْ سُكُورًا مِّمَّا كُتِبَ مُخْفِونًا من الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْهُ سَكِيرًا قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَكَتَابًا مُّبِينًا.

هَيْدِي بِهِ اللَّهُ مِنْ أَنْبِيَاءٍ رَضُوْنهُمْ سُلَّمُ الْمُلُكَ وَيَخْرِجُهُمْ مِّنَ الظَّلَمَاتِ إِلَى

الْنُّورِ يَضْيِعُهُ وَيَبْدِي إِلَى صُرْطٍ مُّسْتَقِيمٍ» [المائدة].


والبيان «يُتَأَهَّل الَّذِي كَتبَ» [المائدة: 16] وهم اليهود والنصارى ووحد الكتاب لأنه خرج خرج الجنس. «قد جاءكم رسولنا» قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ باللهدي ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل ووصف الهول هنافصفتنين:

الأولى: أنه بينهم كثيراً ما يُخَفِّون، قال ابن عباس، أخفوا صفة محمد ﷺ، وأخفوا أمر الرجم، وعفا عن كثير مما أخفوه، فلم يفضحهم بيانه. ثم إن الرسول ﷺ بين ذلك لهم، وهذا معجزة؛ لأنه عليه الصلاة وسلم لم يقرأ كتاباً ولم يتعلموا علماً من أحد. فلما أخبرهم بأسرار ما في كتابهم كان ذلك إجباراً عن الغيب - يكون معجزاً.

الصفة الثانية: "ويَغْفِرُ عُبَيْدُ رَحْمَةً صَدَقَ" أي لا يظهر كثيراً ما تكتمهم أنتم، وإنما لا يظهره؛ لأنه لا حاجة لإظهاره في الدين. وهذا يدعوهم إلى ترك الإخفاء لثلا تفتضحاً، ولقد كان بيان القرآن لما كتموه سبيلاً في إسلام كثير من أهبارهم.

فالصفة الأولى: أنه بين ما بدلوه وحرفوه وأوَّلوا وافترموا على الله فيه.

والصفة الثانية: أنه يسكت عن كثير مما غيروا، ولا فائدة في بيانه. وروي الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحسب.

 قوله: "يَتَّهَلَّ الْجَيْبَاتِ فَقَدْ جَاءَتْكُمْ رَسُولُ َنُورُ لَنْ يُكُنَّ صَدَقَرْانِ" و"مَا قَطْعَنَّ مِنْ آبَعَ َنُور" فكان الرجم ما أخفوه ثم قال: صحيح الإخراج ولم يخرجوا أي الشيخان (البخاري ومسلم).

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم بأنه كتاب واضح وأن محمداً نور، أو الإسلام نور، فالرائد بالنور محمد، وبالكتاب: القرآن، وقيل: إن الرائد بالنور الإسلام، وبالكتاب القرآن، والقول بين في نفسه، مبين لما يحتاج إليه الناس لهدائهم.

ثم قال تعالى فيما معناه: يهدي بالكتاب من أرادتتبع الدين الذي يرضي الله تعالى بهديهم طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة، ويتجههم من المهالك إليه، أي بتوفيقه، فيزوجهم من ظلالات الكفر إلى نور الإيمان ويرشدهم إلى أوضح الطرق وهو الدين الحق؛ لأن الحق هو واحد لذاته، وطريقه مستقيم واحد، أما الباطل فله شعاب كثيرة وكلها معوجة.

أي أنه تعالى ذكر للقرآن ثلاث فوائد أو مقصود:

1- أن المتبع ما يرضى الله يهديه إلى الطريق المؤدي إلى النجاة والسلامة من الشقاء والمالاب في الدنيا والآخرة؛ لأنه دين الحق والعدل والإخلاص والمساواة.

2- أنه يخرج المؤمنين من ظلمات الكفر والشرك والوثنية والموهوم والخرفاء إلى

(1) تفسير الطبري ٢٠٤، ١٠٣/٦، ١٠٤.
نور التوحيد الخالص.

3- أنه يهدي إلى الطريق الموصل إلى الهدف الصحيح من الدين وإلى خيري الدنيا والآخرة. النبي محمد ﷺ نور كشف زيف أهل الأديان الأخرى، فهو بين لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) ما يخفونه من كتبهم من الإيمان به، ومن آية الرجم، ومن قصة أصحاب السب트 الذين مسخوا قردة، فإنهم كانوا يخفونها، وهو {وَبَعْثُوا عَلَى صَبَّاهُ}. أي: يتركه ولا يبيبه، وإذا بيبن ما فيه حجة على نبوته، ودلالة على صدقه وشهادته برسالته، ويترك ما لم يكن به حاجة إلى تبيينه، فهو متوفر لا فائدة منه.

والقرآن الكريم يبين الأحكام وما رضيه الله من طرق السلام الموصلة إلى دار السلام المزواجة عن كل آفة، والمؤمنة من كل خافثة، وهي الدنيا، ويجترؤ المؤمنين به من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإسلام والهدايات بتوقيته وإرادته ويرشد إلى الدين الحق (1).

(1) التفسير الميسر 6/132-134.152
17- الحكم بما أنزل الله في الكتاب

"وأنزلنا إليك الكتاب بأن الحق مصدقًا لما ببرت، يذكية من السكتك ومهممًا على فأحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبث أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا ميعكم شرعًا وميثاجًا وولي شاء الله لجعلكم أمة وحدة، ولكن ليبلغوك في ما أنتمكم فاستمعوا إلى الله مرجعكم جميعًا قيصركم بما كنتم فيه خلفون... وإن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تبتخ أهواءهم وأحدرهكم أن يفتونوك عن بعض، ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فأعلمن أني بريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كبرًا من الناس لنفسون..." (المائدة).

أسباب نزول الآيات (الأية 69)

روي ابن إسحاق عن ابن عباس قال: قال كعب بن أبي، وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس: أذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفته عن دينه، فجاجوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أن أهبار يهود وأشرافهم وسادتهم، وإن ان أتبراك ابعتنا يهود ولم يبالونا، وإن بنينا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فقضى لنا عليهم، ونؤمن بك، فأبي ذلك، وأنزل الله فيهم، وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تبتخ أهواءهم إلى قوله: "ليقوم يقولون...".

"أفتحكم الجاهلية يغون..." (المائدة: 50).

فيه كما قال الزخرفي وجهان:

أحدهما: أن بني قريظة والنضير طلبا إليه أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى، وروى أن رسول الله قال لهم: القتلى سواء فقال بنو النضير: خذن لا نرضى بذلك. فنزلت الآية.

الثاني: أن يكون تعيرًا للهود بأنهم أهل كتاب وعلم، وهم يغون حكم الله.
الجاهلية التي هي هوى وجهل لا يصدر عن كتاب، ولا يرجع إلى وحي من الله تعالى.

ومن الحسن: هو عام في كل من يبغي غير حكم الله، والحكم حكماً: حكم بعلم فهو حكم الله، وحكم يبغي فهو حكم الشيطان. وست طالع عن الرجل يفضل بعض وله على بعض، فقرأ هذه الآية.

أما المناسبة: فقد ذكر الله تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه وإليه الذي أنزله على عيسى كلمته. وهو ما فيهما. من هدى ونور. وأمر باتباعهما حيث كانا سائغي الاتباع. شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، وأبان منزلته من الكتب المتقدمة قبله. وأن الحكمة اقتضت تعدد السُلسلة والمناهج لبداية البشر بحسب الأحوال والأزمان (1).

وتفسير الآيات: «وأتنزلنا إليك» أيها النبي القرآن الكريم الذي أكلمنا به الذين مستقلة على الحق والصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله «لا يأتينب أثبت على من بني يدين ولا من خليفته» [فصل: 42] مشتقاً ومبدأً للكتاب المتقدمة كالتوراة والإيله، المتضمنة ذكره ومدحه. وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد. وإما تلك الكتب من عند الله، وأن موسى وعيسى رسولان من عند الله لم يفتروا على الله كذباً. وإنما أنتم وآباؤكم حرفتتم ونسبتكم كثيرة ما أوتيتم، والقرآن أيضاً جاء مهتماً، أي حاكماً على ما قبله من الكتب، وشاهدًا عليها بما نزل فيها وشاهدًا لها بالصحة والنثبت في أصلها، ومبيناً حقيقة أمرها وما طرأ عليها من نسيان وتعريف وتبدل.

قال ابن عباس وابن جرير وآخرون: «ومهنيعاً عليه» القرآن أمين مؤمن على ما تقدمه من الكتاب، فيما إذا أخبرنا أهل الكتاب في كتابهم بأمر إن كان في القرآن فصدقوا، وإلا فكلبوا (2).

(1) التفسير المنير 6/216
(2) تفسير الطبري 6/172
وإذا كان هذا شأن القرآن و منزلته، فاحكم يا محمد و كذا كل حاكم، بين أهل الكتاب وبين الناس قاطبة، احكم بما أنزل الله إليك فيه من الأحكام، دون ما أنزل إليهم، إن شريفتك ناسخة ل شريعتهم، احكم بما في هذا الكتاب العظيم و بما قروه لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخ في شرعة، ولا تتبوع أهواهم أي آراءهم التي اصطلاحوا عليها، و تروك بسبيها ما أنزل الله على رسله، ولا تنصرف ولا تغل ولا تعدل عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء، وما أحدثوا من تحريف و تبديل لحكم الرجم والقصاص في القتلى، والبشارة بمحمد رسول الله و غيرها.

ثم استأنف الله تعالى الكلام فقال: "لكم جعلنا بينكم شرعات و مهنئاجاً"، أي: لكل أممن الأمم جعلنا شريعة أوجبتها عليها إقامة أحكامها، ومنهاجاً و طريقاً واضحًا فرضناها عليه سلوكه، حسبما تقتضيه أحوال المجتمعات و طبائع البشر و استعداداتهم و تطور الأزمان، وإن كانت تلك الشريعات متفقة في أصول الدين، وهي توحيد الله و عبادته و حده، وفي أصول الأخلاق و الفضائل.

قال الآلوسي عن آية: "لكم جعلنا بينكم شرعات و مهنئاجاً" استناف جيء به لحفل أهل الكتاب من معاصريه، بما أنزل الله تعالى إليه من الحق، ببيان أنه هو الذي كلفوا العمل به دون غيره ما في كتابهم، وإذا الذي كلفوا العمل به: من مضى قبل النسخ، والخطاب - كما قال جاعة المفسرين - للناس كافة، الموجودين والمارين ب طريق التحليب.

فلكل أم من الأمم الباقية والخلية وضعنا شرعاً ومنهاجاً خاصين بذلك الأمة، لا تكاد أم تنطفي شرعتها. والأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليه السلام، شرعتهم، ما في النورا، والتي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث أحمد عليه السلام، شرعتهم ما في الإنجيل؛ وجميع أمم أهل الأرض من مبعث محمد إلى يوم القيامة شرعتهم الوحيدة المقبولة عند الله: ما في القرآن، ليس إلاً فأنمنا به وعملوا بما فيه (1)، لأن محمدًا خامس النبيين وهو رسول الله إلى الناس كافة، وشرعته كامل الشرائع وأوفاكه، وقويته هو الكتاب الوحيد الباقيء للبشرية.

(1) تفسير الآلوسي 152/6.
 tôn تغيير ولا تبدل، وثابت ثبوت قطعياً يقيني لا شك ولا ريب فيه، والشرعية أو
الشريعة عرف ثابت ثبوت قطعياً يقيني لا شك ولا ريب فيه، والشرعية أو الشرعية
عرفًا، هي الأحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل، وينسخ اللاحق منها
السابق، والدين، هو: الأصول الثابتة التي لا تختلف باختلاف الأئمة.
ثم خاطب الله تعالى جميع الأمم، وأخبر عن قدرته الفائقة أنه لو شاء لجعل
الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها، ولكنه تعالى شرع
لكل رسل شريعة على حدة؛ إذ لا تصلح شريعة واحدة لكل الأزمان والشعوب
بسبب تفاوتهم في الرقي والنضج العقلي، فلما تقاربت البشرية شرع لها شريعة
واحدة، وأن الهدف من تشعيع شرائع مختلفة هو اختبار عباده فيما شرع لهم،
لينظر الطائع في شيء والعادي في عاقبه.
ثم ندب الله تعالى الناس إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال:
فَأَسْتَيْقَوْا َّالْحَرَّاتْ أي ابتذروا وتسابقوا نحو الطاعات، وتنافسوا في طاعة الله
وابتعت شرعه الذي جعله ناصخًا لما قبله، وصدقوا تصديقًا يقينيًا بكتابه القرآن
الذي هو آخر كتاب أنزله، وذلك كله خيركم وصالحكم، وإحرام الفضل
والرضى الأهمي، فإلى الله معاكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة، فيخبركم
بما اختلقت فيه من الحق فيجزي الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاهدين
المذنبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان.
ثم أكد الله تعالى ما تقدم من الأمر بالحتما بما أنزل الله، فقال: ﴿وَأَنَّكُمْ أُهْلُ الْكِتَابِ َّمَا أُذْنَ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ﴾، فالله تعالى، ولا تتبع أهواء المعتقدين،
واحذر أعداءك اليهود أن ضلواك عن الحق، وبدلوا عليك فيما يخبرونك من
أمور، فلا تغفر بهم فإنهم كذبة كفرة خونة ومنعني ﴿عِنْ بَعْضٍ مَّا أُنْزِلَ أَلِيْكَ﴾،
المائدة 49] عن كل ما أنزل الله إليك، والبعض يستعمل بمعنى الكل، وقال ابن
العربي: والصحيح أن ﴿بَعْضٍ﴾ على حااثاً في هذه الآية. وإن المراد به الرجم.
فإن أعرضوا عما تحكبه بينهم من الحق، وخالفوا شرع الله، فلا تبال بهم،
واعمل أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن المدى، بسبب ما
فهم من الذنوب السالفة التي اقترضت اختلافهم ونكاهم ويريد الله أن يلذبهم في الدنيا قبل الآخرة ببعض ذنوبهم، وهو التولي والإعراض عن حكم الله وشرعه وعما تحكم به، وقد تحق ذلك العذاب بسبب عذر اليهود، فاجل الله النبي بني النضير عن المدينة، وقتل بني قريضة، أما بقية ذنوبهم الكثيرة فيعاقبون عليها بعدم أليم في الدار الآخرة.

وإن كُنا ما دلعلى أنباس لِفِي سُوقٍ [35] أي متمردون في الكفر خالفون للحق وحائدون عنه. وخارجون عن حدود الشرع والدين والعقل. وفي هذا مواساة وتسلية للنبي على عدم قبولهم الحق الذي جاء به.

ثم ندد الله تعالى باليهود الذين يريدون التمييز بين القتلى بحسب نوع القبيلة ويريدون تحكيم إهواة الجاهلية مع أنهم أهل كتاب، فوجه هذا الاستفهام الاستنكراني لهم ولأمثالهم بقوله: [«أَفْحَمَّهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ بِيَغْوُنْ»] [المائدة: 50] أي أيؤولون عن قبول حكمك بما أنزل الله، وهو الحق والعدل والصواب، ثم يطلبون حكم الجاهلية القائم على الجور والظلم والهواء، فهذا توهج وتعجب من حاكمهم، وانكار على كل من خرج عن حكم الله المشتمل على الخير، وكل الخير، إلى ما سواء من الأراء والأهواء، كما أن أهل الجاهلية يحكمون به الفضلات والجهالات التي يضعونها بآرائهم المعرجة وأهوائهم الطائشة.

هذا الخطاب في الآية، وهذا الاستفهام والتعجب والانكار إذا هو موجه لقوم يوقعون مغبة الدين ويدعون لشرع الله، ويدركون أنه لا أعدل من الله ولا أحسن حكماً منه، وفسره القرطبي فقال: لا أحد أحسن من الله حكماً (نصب على البيان والتمييز) عند قول بوقعون.

وقدت الآيات تميز القرآن الكريم على سائر الكتب، وما بين هذه الكتب من أصل واحد وهي منزلة من الله تعالى، والآيات تشير إلى دلالات:

أولاً: هناك جو التقاء واضح بين القرآن وما تقدمه من الكتاب كالتوراة والإنجيل لأن هذه الكتاب وصفت كلها بأنها هدى ونور، ونواحي الاتفاق هي في أصول الاعتقاد كتوحيد الإله وربوبية وإثبات ال بوة والمعاد. وفي أصول الأحكام
الشريعة كعبادة الله تعالى والصلاة الصلاة والزكاة، وأصول الأخلاق والفضائل كالأمانة والصدق وتحريم الزنا والسرقة وجرائم العرض، وذلك كله في التوراة والإنجيل الأصليين المنزلين على موسى وعيسى عليهما السلام.

إلا أن القرآن وإن جاء مصدقاً ومؤكداً لتلك الكتب في أصول الشرع والمدين المذكورة، إلا أنه حكم عليها ومهيمن على ما جاء بها، فلا يعمل يحكم فيها عارض القرآن.


وو هذا رأي الجمهور، وقال الشافعية لا تعارض بين الآيتين، ولا حاجة للف.downcase:

أطلق الآية الأولى في المعاهدين، والثانية في الذمرين.

ثالثاً: النبي ﷺ وكل مسلم منه، وعمر عليه أن يترك الحكم بما بين الله تعالى من القرآن من بيان الحق وبيان الأحكام.

رابعاً: الله قادر على توحيد الشعوب والأمم والجماعات، وجعلهم على ملة واحدة ووعيدة واحدة، وشرعية واحدة، فكانوا على الحق، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت جعل الشرائع مختلفة للاختيار.

خامساً: المبادرة إلى الطاعات والتنافس في فعل الخيرات سنة الأتقياء الصالحين، ودل قولهم تعالى: ﴿فَأَسْتَفْقِيَّفَا الْخَيْرَتَينَ﴾ (المائدة: 48) على أن تقديم الواجبات أفضل من تأخيرها، وذلك لا اختلاف فيه في العبادات كلهما; إلا في الصلاة في أول الوقت، فإن أبا حنيفة يرى أن الأول تأخيرها، وعموم الآية دليل عليه، وفيه دليل أيضاً على أن الصوم في السفر أول من الفطر.

سادساً: في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَكُمْ عِنْدَ الْيَتِمَّينَ دَارَ يَا بُني إسْرَائِيلَ﴾ على جرأة النسيان على النبي ﷺ، لأنه قال: ﴿أَنْ يَفْتَنُوكُمْ﴾ وأما ذلك يكون عن نسيان لا عن تعمد.

سابعاً: إن إيا حكم النبي ﷺ والإعراض عنه سبب للمصائب في الدنيا، لأن
الله تعالى قال في اليهود: «فأعلَمُ أنَّا نُريدُ الله أن يُصيبَهم بِبَعْضٍ مِنْ دُنْوِيهِمْ» أي: يعذبهم بالجلاء والقتل وفرض الجزية، وإنما قال: «بَعْضٍ» لأن الجزاء بالبعض كانت كافية في التدمير عليهم. (1)
18 - الكتب المنزل والملائكة

ولَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ قَلَمَصَوْةً أَيْدِيهِمْ فَلَمْ تُنَبِّئَهُمْ بِمَا هَذَا إِنَّهَا لَا يَسْتَحْزَى مِنْهَا وَقَالُوا لَوَلَّ أَنزَلْتُ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْتُ مَلَكًا لَّقَضَى الْأَمَرَ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ [الأنعام].

أسباب نزول الآية:

ولَوْ نَزَّلْنَا... قال الكلبي: إن مشركي مكة قالوا: يا محمد، والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله، وأنك رسول الله، فنزلت هذه الآية، وقال في رواية أخرى: نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل بن خويلد، قالوا: لن نُؤْتِمُّ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يُبْوَعَ [الإسراء].

وقالوا لَوَلَّ أَنزَلْتُ عَلَيْهِ مَلَكٌ روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق، قال:

دعا رسول الله ﷺ فُروِّقَه إِلَى الْإِسلامِ وَكُلْمَهُمْ فَأَبَلَغَ إِلَيْهِمْ، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كلده، وعبد بن عبد يغوث، وأبي ابن خلف، والعاص بن وائل بن هشام: لو جعل معلق يا محمد ملك يحدث عنك الناس، ويرى ملك، فأنزل الله في ذلك ولَوَلَّ أَنزَلْتُ عَلَيْهِ مَلَكٌ [الأنعام: 88] وإذا كانت قد أنزلت سور من القرآن تتضمن اقتراح المشركين إنزال ملك أو كتاب أو إنزال القرآن جملة واحدة قبل هذه الآية، فلا مانع من تأكيد بيان هذا الاقتراح في مناسبة أخرى إظهاراً لعنادهم وتعتيمهم.

ولقد ذكرت الآيات السابقة بعض المواقف من عيان المشركين، وتستمر الآيات هنا في ذكر شهادات جحودهم وعنادهم الموجهة إلى الوحي وبعثة الرسول ﷺ فصاروا منكرى أصول الدين الثلاث، التوحيد والبعثة ونبوة محمد ﷺ. (1)

فَقَلَ مَسُؤوَةٌ بِبَيْنِهِمْ أي: فعلى ذلك ومسوه باليد، كما اقترحوا وبالغوا في ميزه وتقليبه جسماً بأيديهم، ليرتفع كل ارتياب، ويزول عنهم كل إشكال، لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم، وقالوا: «سَخْرُ مَيْشٍ» إذا سكرت أبصرنا وسحرنا، وهذه الآية جواب لقولهم: «حَتَّى نَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقُرُوهُ.» (الإسراء: 93) فأعلم الله بما سبق في علمه من أنه لو نزل لكذبوا به، قال الكاببي: نزلت في النصر بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل بن خويلد قالوا: «لَنْ نَوْفَرَنَّ لَكَ حَتَّى تَفْجِّرْ لَنَا مِنْ الْأَرْضِ يُنْبُوعًا.» (الإسراء: 90). (1)
19- هذا الكتاب المنزل المبارك

وهذَا كِتَابٌ مَّبَارَكٌ مُّصِدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيهِ وَلَتُمَسِّ الْأَرْقَى وَمَنْ
القُرْءَانَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِم مُّحَافِظُونَ

[الأنعام]}

جاءت هذه الآية الكرمة بعد الآية (91) من قوله تعالى: "وَمَا قَدْرُوا آلهَةً حَقًّا
قدْرَه، إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بُنَيَّنَا مِنْ شِرْعٍ. قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الْآَلِي جَاهِرًا،
مَوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ جَعَلْنَاهُ قَرَاطِيسًا تَبْدِلُوهَا وَخُفُونَ كَبِيرًا وَعَلِيمُهُ مَا لَمْ
تَعْمَّرَوا أَنْ تَوَلَّا بَابَكَمُ. قُلِّ اللَّهُ ثُمَّ دَرَّرُوهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ؟ [الأنعام]"

وفي سبب نزول هذه الآية "وَمَا قَدْرُوا آلهَةً حَقًّا قدْرَه" أخرج ابن أبي حاتم
عن سعيد بن جبير قَالَ: جاء رجل من يهود يقال له: مالك بن الصيف. فأخصى
النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: "اتشدو بالذي أنزل النورا على موسى، هل تجد
في النورا أن الله يغض الحبر السمين؟" وكان حبرًا سمينًا. فغضب، وقال: ما
أنزل الله على نور من شيء، فقال له أصحابه ويجبك ولا على موسى، فأنزل
الله "وَمَا قَدْرُوا آلهَةً حَقًّا قدْرَه" [الأنعام: 91] الآية، وهو خبر مرسول، وأخرج ابن
جرير الطبري خوفه عن عكرمة.

وقال ابن عباس في رواية الوالي: قَالَ الْيَهُودُ: يا محمد، أنزل الله عليه
كتابًا؟ قال: نعم، قالوا: والله، ما أنزل من السماء كتابًا، فأنزل الله تعالى: "قُلْ
مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الْآَلِي جَاهِرًا، يُؤْمِنُونَ بِنُورٍ وَهُدًى لِّلنَّاسِ"، ويؤيده قول الحسن
ossip بن جبير: الذي قال: "ما أنزل الله عليه بشر" وهو أحد اليهود، قال: لم
ينزل الله كتاباً من السماء، وقال السدي: اسمه فتحاص، وعن سعيد بن جبير
أيضاً قَالَ: هو مالك بن الصيف.

وقال محمد بن كعب القرظي: أمر الله تعالى محمدًا ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن
 agré  ، وكيف يجدونه في كتبهم ، فحملهم حسن محمد أن كروا بكتاب الله ورسوله . وقالوا : "ما أنزل الله على يثرب من شيء" ، فأنزل الله تعال هذه الآية (1) وذكر ابن عباس في رواية أخرى أن آية : "إذا قلنا ما أنزل الله على يثرب من شيء" يعني: مشرك قريش ، وهذا هو الراجح.

إن مدار أمر القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والموعود ، وما حكي تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه ذكر دليل التوحيد ، وإبطال الشرك ، وأبان الله تعالى ذلك الدليل بالوجه الواضح ، شرع بعده في تقرر أمر النبوة ، فقال: "وما قدروا الله حق قدره" حيث أنكرن النبوة والرسالة ، فهذا بيان نظم هذه الآيات (2).

ثم إن الله تعالى قد حدّد مهمة القرآن الكريم فقال: "وهذا كتاب أنزلته" أي: هذا القرآن كتاب أنزلناه: يهدى إلى الحق وإلى سواء السبيل ، كما أنزلنا من قبله التوراة على موسى ، وقد جعلناه كثير البركة والخير ، ومزيداً لما تقدمنا من الكتب ومهيمناً عليها ، وبشر بالجنة والثواب والمغفرة من أطاع الله ، وينذر بالنار والعقاب للنصب على الله ، وينذر أهل أم القرى: مكة ومن حولها من سائر الناس ، أي من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم كما قال تعالى في آية أخرى: "فَلَن يُؤثِّبَهَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَّا عَذَابًا جَمِيعًا" [الأعراف: 168].


(1) أسباب النزول للواحدى: ص 125 وما بعدها.
(2) تفسير الرازي 22/12 ، التفسير المير 7/288.
وقد أفادت الآية كغيرها بما ذكر عموم بعثة النبي ﷺ للجن والإنس جميع أجناس البشر والطوائف والأقوام. دون تفرقة ولا تمييز بين جنس وأخر أو عنصر وأخر، أو زمن أو مكان دون غيره. والإيمان بالآخرة أصل الدين، ومن آمن بها آمن بالقرآن، والصلاة عمام الدين، ومن أقامها أقام الدين كله.. ومن هدمها هدم الدين كله (٢).

(١) التفسير الميسر ٩٢/٢٩٢.
(٢) التفسير الميسر ٩٣/٢٩٤.
20- الكتاب المفصل دليل صدق نبوة محمد

«أَفَيْغَرَ اللَّهُ أَيْتَمَّ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْهِمُ الْقُرْآنَ مُفَصِّلًا وَالذِّينَ تَأْيِثُهُمُ الْكُلُّ مُعَلُّومُونَ أَنَّهُ مُرَّ لَهُمْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْمُمَتَّرِينَ وَتَمَتَّى كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًُّا لَا مُبَدَّلٌ لِكِلَّمَانِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [ الأنعام ].

بعد أن ندب الله تعالى بالكافر الذين أقسموا بالله ليؤمنن بالآيات إذا جاءتهم، وأبان أنه لا فائدة في إظهار تلك الآيات؛ لأنه تعالى له أظهرها لبقوا مصيرين على كفرهم، أبان هنا أن الدليل الدال على نبوة محمد قد حصل من وجهين:

الأول: أنه أنزل إليه الكتاب المفصل المبين المشتمل على العلوم الكثيرة والفصاحية الكاملة، وقد عجز الخلق عن معارضته، مما يدل على صدق نبوته.

الثاني: اشتمال التوراة والإنجيل على الآيات الدالة على أن محمد رسول حق، وعلى أن القرآن كتاب حق من عند الله تعالى، وهو المراد بقوله: { وَالذِّينَ تَأْيِثُهُمُ الْكُلُّ مُعَلُّومُونَ أَنَّهُ مُرَّ لَهُمْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } [ الأنعام : 114]

وال وجهان مذكوران في قوله تعالى: { سَكَفَّ اللَّهُ بِالْحَقِّ شَهِيدًا بَيْنَ الْمُتَّقِينِ وَمَنْ عِنَّدَهُ عِلْمَ الْكُلُّ مُعَلُّومُ } [ الرعد ]، وبعد أن بين الله تعالى أن القرآن معجز. ذكر أنه { وَتَمَتَّى كَلِمَتُ رَبِّكَ }، أي القرآن. والمراد: تم القرآن في كونه معجزاً دالاً على صدق محمد.

ومعنى الآيات: أفقي الله أطلب لكم حكماً وهو الذي كفاكم مؤونة المسألة في الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصل، أي المبين، ثم قبل: الحكم أبلغ من الحاكم؛ إذ لا يستحق التسمية بحكم إلا من يحكم بالحق؛ لأنها صفة تعظم في مدح، والحاكم صفة جارية على الفعل، فقد يسمى بها من يحكم بغير الحق.

(1) التفسير المثير 8/13
ложен: أذينين أطلقهما الكتاب ويريد اليهود والنصارى، وقال: من أسلم منهم كسلمان وصهيب وعبد الله بن سلام، يعلمون أنه: أي القرآن. مَن رَيَّكَ يَلْحَقُهُ؟ أي: إن كل ما فيه من الوعد والوعيد حلق، فلا تكلون من التَّمْمَيْنَ (1). أي: من الشاكين في أنهم يعلمون أنه منزل من عند الله، وقال عطاء: وَأَذِينَانِ أَطْلِقَهُمَا الْكِتَابُ وَهُمْ رُؤْسَاء أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وقوله تعالى: وتَمَّتْ كِتَابُ رَبِّكَ قراءة أهل الكوفة بالتوحيد، والباقون بالجامع، قال ابن عباس: مواعيد ربك، فلا معير لها، والكلمات ترجع إلى العبارات أو إلى المتعلقات من الوعد والوعيد وغيرها.

قال قتادة: الكلمات هي القرآن لا مبدل له، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون.

(1) صلى الله عليه وسلم.

وحكى الرازي عن قتادة: لا مبدل له فيما حكم به، أي: إنه وإن أمكنه التغيير والتبديل في الألفاظ كما غير أهل الكتاب التوراة والإنجيل فإنه لا يعتقد بذلك، ودلت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن، لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه.

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي. 70.
21 - الكتاب المبارك

"وهذا كتاب أزلته مبارك فأتباعه وأنفوا لعکم ترحون ۛ أن تقولوا إنا آنزل الكتاب على طابيعين من قبلكا وإن كنا عن دراستهم لغفلينۛ أو تقولوا ليو آنزاً أنزل علىنا الكتاب لكتنا أهداه منهم فقد جاء حكم بنى من رحكم وذدى ورحمة فمن أظلم ممن كتب يقابيت الله وصدف عنها ستجري آلذين يضفون عن هاينتنا سوء الاعذاب بما كانوا يضفون ۛ [الأنفال] بعد أن ذكر الله تعالى الوعصيدة العشر في آيات سابقة وهي:

"قل تعالوا أتلون ما حرم رحكم عليكم" ۛ

1 - "لا تشركون به شياً" ۛ

2 - "وبالواليدين إحساً" ۛ

3 - "ولا تقتلوا أولادكم من بين إملتكم نحن ترزقتم وإياعهم" ۛ

4 - "ولا تقرروا ألقوا وحش ما ظهر منها وما بطن" ۛ

5 - "ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذالكم وصدكم به لعلكم تعقلون" ۛ

6 - "ولا تقرروا مال النبي إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدده" ۛ

7 - "وأوفوا الحصيل والميزان بالضبط لا تكلف نفسا إلا وسعها" ۛ

8 - "وإذا قلتم فاعدلوا ولو سكان زا فريق" ۛ

9 - "ويعهد الله أوفوا ذالكم وصدكم به لعلكم تذكر بكم" ۛ"
10 - (وَأَنَّ هَذَا صِبْرُكَ لِمُشْتَقِيَّمًا فَاتَّبِعوهُ وَلَا تَتَّبِعَا أَشْرَكَلَّ فَتَفَرَّقِّيْكُمْ عَنِ السَّبْيَةِ. ذَلِكَ وَصَنَّمُهُ يَهُوَ إِلَّا لَّعَلَّكُمْ تَنْتَفَقُونَ) (الأنعام).

ثمًّا درنتا موسى التكتب تمامًا على الذئب أحسس وتفصيلاً لكل شيء، وهذى وسَحْرَةُ لَعْلَمِهِم بِلِيْلِهِم رَيْتَهُمْ يَوْمُونَ (الأنعام). أخبر الله تعالى عن الغاية من إزال التوراة على موسى عليه السلام. لا يُشَاهِرهَا عند مشركي العرب وسماعهم أخبارها ثم ذكر مكانة القرآن، وكونه كتاب هداية، وأعلم بوجوب اتباعه، ورد على عذرًا المشركين بعد الانقياد له، مما يصلح عذراً بعد جعل القرآن مباركًا كثير الخير والفضل. 

وبعد الوصايا العشر، وذكر التوراة.. انطلق الله تعالى إلى وصف القرآن الكريم فقال: (وَهَذَا كَتَبٌ أُدْرِسْتُهُ لَكَ لَا تَقْوَلُوا هَوْهَا خَطَّابٌ لَأَهْلِ مَكَّةُ: إِنَّا أَقِسَمْنَا إِلَى إِنْزَالِهِ) (الأنعام: 155). أي وهذا القرآن كتب عظيم الشأن كثير الخير والتفوع في الدين والدنيا، ثابت لا ينسخ، جامع لأسباب الهدية الدائمة والنجاح والفرح، فاتبعوا ما هاكلهم إليه.. واتقوا النار والكره بما نهاكم عنه ومنعكموه، لتظروا برجمة الله الواسعة في الدنيا والآخرة. وفي هذا دعوة صريحة إلى اتباع القرآن. من طريق التدبر بأياته، والعامل به. 

وَهَذَا كَتَبٌ أُدْرِسْتُهُ لَكَ لَا تَقْوَلُوا هَوْهَا خَطَّابٌ لَأَهْلِ مَكَّةُ: إِنَّا أَقِسَمْنَا إِلَى إِنْزَالِهِ الكتَبِ عَلَى مِن قِبَلِهِم مِن الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، أَيْ لِيَقْطَعَ عَذَارَمُهُ، وَلَا تَقْوَلُوا إِنَّا كَانَا عِنْ مَعَرَفة الْكِتَابِ الْبَالِغةِ غَافِلِيْنَ لَا نَدْرِي مَا هَايِئُوا، وَلَأَنْ أُقُومَ أُمِّيْنَ لا نَعْرُفُ مَا يُعَرُّفُهُ وَيَدَرُّهُ غَيْرًا.

 جاءكم على لسان رسولنا العربي محمد ﷺ قرآن عظيم، في بيان للحلال والحرام، وهم ما في القلوب، ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه، ويقتلون ما فيه، وهو يشمل على الحق المؤيد للحجج والبراهين في العقيدة والآداب والأحكام.

ثم أبان الله تعالى سوء عاقبة من كذب بالقرآن، فقال: \( فمن أظلمُ ممن كَذَبَ بِقَابِلَةِ اللهِ \) (الأنبأ: 157) أي لا أحد أظلم من كذب بآيات الله، بعد ما عرف صحتها وصدقها، أي يمكن من معرفة ذلك، وأعرض عنها، ومنع الناس عن التفكير فيها كما كان يفعل زعماء مكة، كقوله تعالى: \( وهُمُ يَتَهَوَّنُ عَنْهُ وَيَتَغَيْرُونَ عَنْهُ \) (الأنبأ).

ثم أتبع الله ذلك بالتهديد والوعيد والعقاب لكل معرض عن القرآن، كما هو الشأن الغالب بعد بيان أسباب الهدية، فقال: \( سَتَحْزَىُ الَّذِينَ يَصِدُّونَ \) (الأنبأ: 157) أي سيجاري المعرضين عن آياتنا أشد العذاب بسبب حجب عقولهم ونفسهم، وغيرهم من هداية الله، والإعراض عنها، لأنهم يتحملون وزرهم ووزر من منعهم عن الحق، وحاولوا بينهم وبين هداية الله، كقوله تعالى: \( قَدْ أَفْعَلْتُ فِي الْأَرْضِ جَارِيًّا ۖ عَن سِيِّلِ اللهِ ۗ زَدْنَهُمْ عَذَابًا قَوْى١ۖ فَمَا سَكَانَا يُفْسِدُونَ \) (النحل). أي زدناهم عذاباً غير عذابهم بسبب إفسادهم وصدهم عن سبيل الحق.

وقد دلت الآيات على أن القرآن الكريم مثل التوراة في أصولها الصحيحة الأولي التي فقدت وضعتها، ثم كتب عنها بديل محرم مشوه، مما لم يبق منها للبشرية وكتابة للإنسانية غير القرآن الكريم، فهي الهدية الكاملة والبيان الواضح المؤيد بالبراهين والأدلّة العقلية، والنقلية: السمعية ولم يبق لأحد بعد مجيء محمد ﷺ وتأديته بالمعجزة الخالدة الباقية من غير تبديل ولا تعريف، فإن كذب به أحد، فلا أظلم منه، وسليقي جزاء إعراضه وتكييه، ودل قوله تعالى: \( فَقَمْ أَظَلَّ مِمَّن كَذَبَ بِقَابِلَةِ اللهِ وَصَادَّفَ عَنْهَا \) على تعييم كفر من كذب بآيات الله، ومنع عنها نفسه وغيره من الإيمان بها لأن الأول ضلال، والثاني منع عن الحق والإضلال.

---

(1) التفسير النبه/8، فما بعدها بнесير.
27- الكتاب المنزل، لتنذر به يا محمد، وذكرى للمؤمنين

الصبر كتب أنزل إليك فلا يعن في صدرك حرج مّنunctكر به، وذكرى للمؤمنين أتغفوا ما أنزل إليكم من ذكركم ولا تتكبّعوا من دونه أو يذكروا قليلاً ما تذكرون (1) [الأعراف].

الأعراف: سميت بسورة الأعراف لورود اسم الأعراف فيها. وهو سور بين الجنة والنار. قال ابن جرير الطبري: الأعراف جمع عرف. وكل منفرع من الأرض عند العرب يسمى عرفًا، وإنما قيل لعرف الديك: عرفًا لارتفاعه. روى ابن جرير الطبري عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف، فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقرر بلهم سبئاتهم عن الجنة، وخلفت بهم حسناتهم عن النار، وفوقوا هنالك على السور حتى يقضى الله فيهم.

السورة مكية إلا ثمانية آيات. وهي قوله تعالى: وَشَعَلُوهُ عَنْ أَلْقَرْبَى إِلَى قُولَهُ: ءأَلْقَرْبَى فأَلْقَرْبَى ظَلَّتْ. بدأت مواضيعها المتعددة والمختلفة بأن القرآن الكريم كلام الله المعجز، وبأنه معجزة الرسل الحالية، وأنه نعم من نعم الله تعالى، وأنه يجب إتباع تعاليمه، ولا يخلو معاودة ذكر القرآن الكريم في هذه السورة بأسلوب آخر.

بدأ الله تعالى هذه السورة بالحروف الأجنبية (النورانية) المقطعة (1 لمس). كثيرًا من السور التي نزلت بمكة لإثبات النبوة والرحي.

هذا القرآن كتاب عظيم الشأن، أنزل إليك يا محمد من عند ربك بقصد الهدى والخير، ووصف بالإنذار للدلالة على عظيم قدره وقدر من أنزل عليه، فلا يكن في صدرك ضيق من الإذان به وتضليل للناس وتذكير أهل الإيمان به ذكرى تنفعهم ومؤثرة فيهم.

ومن المعلوم أن كل نبي ومصلح يلقى عادة إيذاء ومقاومة لدعوته، وصودرو وإعراضاً عن رسالته، وما على الداعية إلا الصبر والمثابرة ومتابعة الطريق.
لاقصرر كم صبر أولوا أمر من تسول (الائحات 32) ؛ لذا كان المراد من هذا النفي شد العزيمة والاجتهاد في مقاومة الصعاب، وتحمل الشداد، انتظاراً لما عند الله على ذلك من وعد بالخير والفضل.

وأما أن هذا الكتاب ذو مهام خليقة؛ فقد خاطب الله تعالى العالم بقوله: اتبعوا أيها الناس ما أنزل إليكم من رب كل شيء، ومليكته وخلافته ومدربه وراعيه فهو وحده صاحب الحق في التشريع وفرض العبادات والتحلل والتحريم؛ لأنه العليم بما هو مصلحة، الخير بما هو ضرة لكم، فلا يشرع إلا الخير والسداد.

ولا تتبعوا من دون الله أولياء كأنفسكم، أو الشياطين التي توسوس لكم بما فيه الضرر والخطر، والضلال والفساد، والشر والسوء والإهيجاب بأن الأصنام شركاء ذات تأثير عند الله، مع أنها أحجار لا تضر ولا تفع، أي لا تخزروا عما جاءكم به الرسول إلى غيره. فتكونوا قد عدلتم عن الحق إلى الضلال، وعن حكم الله إلى حكم الشيطان والأهواء، ولكنكم تذكرون قليلاً وتسنون الواجب عليهم نحو ربككم، وهذا مثل قوله تعالى: وما أصحرا الناس وولو خرست بمؤمنين ( يوسف).

ـ دلائل الأيات على ما يأتي:

١- القرآن كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، والعقل يشهد بأن هذا لا يكون إلا بطريق الروح من عند الله تعالى؛ لأن الرسول ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب؛ ولأنه كلام معجز لا يصرح عن بشئ وآيات الأحداث ومرور الأزمنة تثبت تفوقه لكل الأوقات. وهذا لا يمكن أن يتصف به التشريع الوضعي - أي تشريع وضعى.

٢- واجب النبي ﷺ وسائر الأنبياء تبليغ الوحي المنزل، وأما النتائج والآثار، وانتصار الدعوات الإلهية فمردها إلى الله تعالى. وقد سر الله عن نبيه فنهاه أن يضيف صدره لعدم الإيان به، فإذا عليه البلاغ، وليس عليه سوى الإنداد به، من شيء من إياهم أو كفرهم، كقوله تعالى: فجعلت بنجع نفسك على أئمته (الكهف). وقوله: لعلكم بنجع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ( الشعراء).
3- المقصود بالقرآن إنذار الكافرين والعصاة بسبب إعراضهم عنه، وتذكير المؤمنين به؛ لأنهم المتعفون به.

4- الأمر العام جميع الناس باتباع ملة الإسلام والقرآن، وإحلال حلاله، وتحريم Haramه، وامتثال أمره، واجتناب نهيه. واتباع الرسول ﷺ داخل في ذلك؛ لأن الله تعالى أمرنا باتباعه وطاعته بقوله: «وَأَنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتُنْبِئَ النَّاسَ مَا أُنزِلْ إِلَّاً». النحل: 44. فدلت الآية على وجوب اتباع الكتاب والسنة.

5- تحرير اتباع أحد من الخلق في الدين، كما فعل أهل الكتاب في طاعة رهبانهم: «أَخْنَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُرُوجِ الله». التوبة: 21.

6- ترك اتباع الآراء الشخصية أو الاجتهادية مع وجود النص الشرعي.

7- المنع من عبادة أحد مع الله، واتخاذ من عدل عن دين الله ولياً؛ علمًا بأن كل من رضى مذهباً، فأهل ذلك المذهب أولياءه.)

(1) التفسير المنير 8/137 فما بعدها.
27 - فضل القرآن الكريم على البشر

» ولقد جيتنهم يكتب ظلهم على علم هدؤ ورجمة لقوم يؤمنون (١) هل ينظرون إلا تأويله؟ يوم يأتي تأويله! يقول الديب دسوة من قبل قد جأت رسول زينت بالحق فهل لنا من شفاعة، ففيهفنا لينا أو ترك فتعمل غير الذي كنا نعمل قد خيرها أنفسهم وصدعهم ما صحنوا يفترونهن (٢) (الأعراف).

يقول تعالى خبرا عن إبهاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين كقوله تعالى: { كتب أحكمت إبراهيم } فصلته (١) [ مود: ١٠ ]، وقوله: { فصلته على علمر } أي: { علمر } معا فصلاني به كقوله: { أنزله بالبيئة } ( النساء: ١٦٦ ] قال ابن حجر، وهذه الآية مرودة على قوله: { كتب أنزل إليه فلا يكُن في صدرك حرج منه } ( الأعراف: ٢ ) الآية: { فلقد جيتنهم يكتبهم الآية } الآية. وهذا الذي قاله فيه نظر، فإنه قد طال الفصل ولا دليل عليه وإنما الأمر أنه لما أعبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة ذكر أنه قد أزاح علهم في الدنيا بإرسال الرسول وإنزال الكتب كقوله: { وما كُن معدٌين حتي تبعوا رسولنا } ( الإسراء )، وهذا قال والله { هل ينظرون إلا تأويله } أي ما وعدوا به من العذاب، والنكال، والجنان والنار. قاله مهادن وغير واحد.

وقال مالك: ثوابه، وقال الربيع: لا يزال يجيء، من تأويل أمر حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة، ويدخل أهل النار النار، فيأتي تأويله يومئذ.

في كتاب الله

الذي كتب تأمل ١٦٣.  كقوله تعالى: ١٦٢. ولما ترّئ إذ وفقوا على الْدِّارِ
قالوا يَتَّبِعْنا مَرَّدًا ولا تَكُذِّبْ بِئْنَا وَتَكُونَنَّ من المُؤمِنِينَ بِلَّيْلًا بَدَا هُمَّ
كانوا يُخْفَقُون من قَبْلٍ. ولما رَّدُوا لَعَادَوا لِيَشْتَهَا عَنْهُ وَإِنْ لَكِنْذِبْحُبٌ يَفْقَرُونَ ١٦٤. (الأنعام).

كما قال هنا: ١٦٥. قد خَبَرُوا أنفسهم وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا سَكَنُوا يَفْقَرُونَ أي: خَسَرُوا أنفسهم بدخولهم النار وخلوهم فيها وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا سَكَنُوا يَفْقَرُونَ أي ذهب منهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشعرون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينفدونهم ما هم فيه (١).

فالقرآن العظيم أعظم نعمة على الإنسان، لأنه بان للإيمان الصحيح والحق الثابت، والعبادة المرسية لله تعالى، ولأنه أهدى ورحمة للمؤمنين، كقوله تعالى:

١٦٦. وهندَّا كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارِكٌ (الأنعام: ١٦٦).

وتظهر في كل حين في الدنيا عاقبة ما أُذِن به وحذر، وما أعلم به وأخبر له قوله تعالى: ١٦٨. سُرِيهمُ وَأَيْنُبِيّنَا فِي الْأَفْقَاءَ وَأَنْفُسَهُمْ حَتُّى يَتَّبِعُنَّ لَهُمْ أَنْتُ هُمُ الأَحْقَقُ (التوبة: ٣)، وكذا في الآخرة: لقوله تعالى: ١٦٩. هِلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ، أي: عاقبة ما فيه، وعاقبة القرآن: ما وعد الله فيه من البحث والحساب وزجرة التكذيب به.

وتبدو عواقبه يوم القيامة، فيعرف منكروه بأنه الحق الثابت والصدق الأحرج، يتمنون الخلاصة بأنه وسيلة ممكنة إما بشفاعة الشعاء، أو الرد إلى الدنيا لتصبح الأعمال بما يتفق مع مرضاة الله. ولكن لا يجابون إلى مطالبهم فيدمون ولا يسخرون.

إلا أن هؤلاء الكفار المتكنرين قد خسروا أنفسهم بتعريضها للعقاب والعذاب في النار، وبطل ما كانوا يقولون من أن مع الله إلَّا آخر، ولم يتفقوا بالأصنام التي عبدوها في الدنيا، ولم يتفقوا أيضاً بنصرة الأديان الباطلة التي بالغوا في نصرتها (٢).

(١) تفسير القرآن العظيم. ٢٢٩/٨.
(٢) التفسير المبكر. ٢٢٩/٧.
24- الذين ورثوا الكتاب

فَخَلَفْنَ بِعَدْدِهِمْ، خَلَفُونَ، وَرَثُواَ الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَهُ هَذَا الإِلَادَةُ، وَيَقُولُونَ
سُبْحَانَ اللَّهِ لَا وَإِنَّكَ نَأْتَهُمْ عَرَضَهُ مَثْلًا، يَأْخُذُوهُ أَلْتُ، يَولَّدُونَ عَلَيْهِمُ فَيُقُولُنَّ النِّسَبُ أَلْتُ
يُقَوْلُونَ عَلَى اللَّهِ هُنَّ أَلْتُ لَنْ يُقَوْلُوا مَا كَانَ سَيْ يُقَوْلُونَ فَوَأَقْامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَنَضْيِعُ أُجْرَ الْمُصْلِحِينَ

(العَرَفَ) .

أجمع المفسرون على أن الكتاب الوارد في الآيات هو التوراة الذي أُنزل على موسى (١)؛ إذ إن الحديث يتعلق بالأتباع الذين حملوا التوراة، وحرفوها وأحدثوا فيها الكثير من التغيير والتبديل، والحديث عن الوارئين للكتاب لا يفي بأي حال المسلمين الذين ورثوا القرآن وحافظوا عليه وأدركوا حفظ الله تعالى له، حفظوه في الصدور وفي الكتب وفي جميع الوسائل التي تحتفظ القرآن الآن.

والذي دعا إلى ذكر هذه الآيات هنا هي الآية (١٧٠) التي ربطت مقيمي الصلاة مع كتاب الله تعالى، والتي توجيه للوهلة الأولى أن مقيمي الصلاة هم المسلمون أتباع محمد، والكتاب هو القرآن الكريم. وقد أكد المفسرون كما سبق على أن هؤلاء الذين يتمسكون بالكتاب - مقيمي الصلاة - هم طائفة من اليهود مؤمنة بالتوراة ويتمسكون له، وليس الذين يُمْسِكُونَ بالكتاب (العَرَفَ: ١٧٠) قرأ الجمهور يُمْسِكُونَ (العَرَفَ: ١٧٠) بالتشديد من مسك ومسك، وروى عن أبي بن كعب أنه قرأ (مسكواً)، والمعنى أن طائفة من أهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب ولا يعملون بما فيه من كونهم قد درسوه وعرفوه وهم من تقدم ذكرهم، وطائفة يتمسكون بالكتاب أي التوراة، ويعملون بما فيه ويرجعون إليه في أمور دينهم، فهم المحسون الذين لا يضيع أحزهم عند الله، والم الوصول مبتدأً، إلا أن نضيعُ

(١) انظر: فتح القدير للدوشافي ٩٩٦/٩، تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٢٧٠/٩ وغيرهما من التفسير.
أجرَ الصلحين (١٦٠) [الأعراف] خبرهٰ، أي لا يضيع أجر المصلحين منهم، وربما وقع التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوارة؛ لأنها رأس العبادات وأعظمها.

ودفعًا لأي مفهوم آخر بارتباط مقيم الصلاة بالتمسك بالكتاب، وحتى لا يظن أن هؤلاء المقيمي الصلاة هم من المسلمين، والكتاب هو القرآن الكريم.

سقنا هذه الأدلة، والله أعلم.
25- لولا كتاب من الله سبق

ما كَانَ لِيُبِينَ أنِّيْكُمْ أَنْ تَأْتِينَ اللّهَ أَسْرُؤِيْلًا حَتَّى يُخْلِصَنَّكُمْ
أَنْتُمْ إِلَّا مِنَ الْجِنَّةِ وَاللّهُ يُرِيدُ الْأَجْرَةَ وَاللّهُ عَظِيمُ حِكْمَتِهِ لَوْلَا كَتَبَ اللّهُ مِنَ اللّهِ سَبِيقٌ لَمْ يُشَاكِلُ فِيهِمْ أَحْذِمْ عَدَابٌ عَظِيمٌ فُلَكَّوْا بِمَا غَيَّرُوتُمْ حَيَالًا طُبِّيْبًا وَأَتَقُوا اللّهَ إِلَّا وَهُوَ أَحْكَمُ رَجُمٌ (١٨٠) [الأنفال].

وردت الآية (٨) بين آتين، آية الأسرى قبلها، وآية إحلال الغلماء بعدها، وهما أمران في الفقه متلازمان، وقد أخذت قضية الأسرى - لعدم وجود الحكم قبل بدر أخذت اتجاهات مختلفة، وقد بسط المفسرون في تفسيرها كثيراً، وكذلك المؤرخون، كما أن إحلال الغلماء للرسول ﷺ وحده من دون الرسول كافة أمر آخر له في الشريعة الإسلامية أحكامه وضوابطه، وورود اسم الكتب بين الآتيين أبعد المعنى عن كون الكتاب هو القرآن الكريم ولكن المفسرين قد أفادوا في تفسيره احتمالات ثبوت المعنى عليه قول الله تعالى: لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللّهِ سَبِيقٌ لَمْ يُشَاكِلُ فِيهِمْ أَحْذِمْ عَدَابٌ عَظِيمٌ [الأنفال: ١١]. في هذا الكتاب الذي سبق (ما هو؟) على أقوال:

الثالث: ما سبق في علم الله من أنه سيحل لهذه الأمة الغلماء، بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم.

والثاني: أنه مغفرة الله لأهل بدر، ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، كما في الحديث الصحيح: إن الله اطلع على أهل بدر فقال: أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

القول الثالث: هو أنه لا يعذبهم ورسول الله ﷺ فيهم. كما قال سجاحه وتعالى: وَمَا سَكَبَ اللّهُ لِيَعْذَبُهُمْ وَأَتَتْ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مَعَذِبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [الأنفال: ٣٢].

---

(1) تفتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ١٠/٢٧٢، طبع دار ابن كثير، دمشق، بيروت، والكلمة الطب ط، ١٩٩٤ م.
القول الرابع: أنه لا يعذب أحداً بذنب فعله جاهلاً لكونه ذنباً.

القول الخامس: أنه ما قضاء الله من نحو الصغار باجتناب الكبائر.

القول السادس: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد تأكيد الحجة، وتقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك.

وذهب ابن جرير الطبري إلى أن هذه المعاني كلها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمها: "لمسككم" أي:خلبكم فيما أخذتم، أو لأجل ما أخذتم من الفداء، "عذاب عظيم" والفاء في "فكلوا مغنمكم" لتزديج ما بعدها على سبب مخوف: أي قد أنجب لكم الغنائم، فكلوا مما غنتم، ويجوز أن تكون عاطفة على مقدار مخوف، أي: اتركوا الفداء فكلوا مما غنتم من غيره، وقال: إن ما عبارة عن الفداء، أي كلوا من الفداء الذي غنتم فإنه من جملة الغنائم التي أحلها الله لكم و"حلائ طيباً" منتصبان على الحال، أو صفة المصدر المخوف، أي اكلا حلالاً طيباً "وأتقوا الله" فيما يستقبل فلا تقدموا على شيء لم يأت الله لكم به "إن الله غفور" لما فرت منكم "رجيم" بكم، فلذلك رخص لكم في أخذ الفداء في مستقبل الزمان. إنه(1).

راجع موضوع الأسرى مفصلاً في المرجع المذكور وفي بقية التفاسير لهذه الآيات الكريمات.

(1) راجع: موضوع الأسرى مفصلاً في المرجع المذكور، وفي بقية التفاسير لهذه الآيات الكريمات.
الكتاب الحكيم الحق

26- { الأر يلقى عيناً الكتاب الحكيم أكان للكأس عجبًا أن أعهنا إلى رجل ممن أن آذر الناس ونشر الدين كنا أن له قسم من صدق عند ربي قال الحكيمون إن هذى لله مبين{ ينوس }

27- { الآر كتب أحكمت عيني فصلت من الله حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله إن كن لتك مثنا تدير وخبير } { هود }

28- { العبر يلقى عيناً الكتاب والذى ننزل إليك من ربك الحق ولنكن أصبر الناس لا نؤمنون } { الرعد }

29- { الآر كتب أرسلنا إليك ليخرج الناس من ظلمت إلى النور بإذن ربيه إلى حرتس التマー السامح لبى الالذى لله ما في السمووت وما في الأرض وويل لك الكفار من عذاب شديد } { إبراهيم }

تلمن سور خمس من سور القرآن الكريم مرتاليات، وهي من السور الطويلة وكلها من السور المكية إلا سورة الرعد فهي مدنية، والسورة التي لم ترد هنا هي بداية سورة يوسف وهو قوله تعالى: { الآر يلقى عيناً الكتاب ألف المبين إن أرسلنا فقرة عرفية لعلكم تعظلون } { يوسف } ووردت في فضل القرآن تحت عنوان ( القرآن العربي )

هذه السور الخمس المتاليات تشارك بداياتها بالأحرف المقطعة النورية وتحديداً ب: ل ر آل، إلا السورة المدنية الرعد تبدأ ب: ل م ر العبر. ثم يذكر القرآن الكريم مباشرة باسم الكتاب، وتتفرد سورة يوسف بتعريف الكتاب بقوله تعالى { إن أرسلنا فقرة عرفية لعلكم تعظلون } { يوسف }

أما السور الأربع الأخرى فيأتي بعد ذكر الكتاب مع صفة الحكيم في يونس
۲۶- أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً رسولًا أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر ذلك منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا، فنزل الله «أَكَانِ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعَجْبَةَ» والآية. ونزل «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِ إِلَّا رَجْلًا» الآية (بISON: ۱۰۹) ومواضع أخرى، فلما كرر الله عليهم الحجج، قالوا: وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة: لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْأَرْقَابِرَ عَظِيمٍ (الزخرف)، يكون أشرف من محمد، يعني الوالد بن المغيرة من مكة، ومصعب بن عمرو الثقفي من الطائف، فنزل الله رداً عليهم: أَهْمَرْ يُقَيِّسُونَ رَحْمَتُ رَبِّكَ الْآَلِيَةَ (الزخرف: ۲۲).

وتفسير الآيات: الزخرف، بيونس) تقرأ هذه الحروف الثلاثة هكذا: ألف، لام، راء. والقصص منها التنبية إلى ما يتبني المرء بهم ما يسمع أو يقرأ، وتمديد الحروف على طريق التحدي، كما مر في أول سورة البقرة. تلك آيات القرآن الحكيم، أو ذات الحكمة لاستماله عليها، أو تلك آيات السورة الحكيمة التي أحكمها الله وبيتها لعباده. كما قال تعالى: الرأي كنت أحكمت رأيتيه، ثم انتهيني من لدن حكيم خبير، أو أحكمت معانيه وبانيه، والأولى بالصابر. كما ذكر القرطي أن المراد القرآن؛ لأن الحكيم من نعت القرآن كما قل قوله تعالى: كنت أحكمت رأيتيه، والحكيم: الحكيم بالخلال والحرام والحدود والاحكام. أن كان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجلين مبتهم. يذكر الله تعالى على من تعبج من الكفار على إرسال المسلمين من البشر، كان الاشتراك في البشرية تحول دون الإرسال، وكانهم يريدون رسولًا من غير جنسهم كما قال تعالى في آيات أخرى.
حكاية عنهم بنَّيتَ أبو هذلول [التغابن: 16]، فأتَّبعت الله بنَّيتاً رَسُولاً [الإسراء: 44]،
"لَوْ شَأْنَا زُبَيْنا لَأَنْزِلْ مَلَائِكَةً" [نسل: 14]. وقال هود وصالح لقومهما:
"أَوْعِجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذَيْرُ مِنْ زَيْجٍ عَلَى زَيْجٍ مَتَكَشَرٍ" [الأعراف: 13].

قال ابن عباس: ما بعث الله تعالى محمدًا ﷺ رسلًا أنكرت العرب ذلك أو من
أنكر منهم. فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشأً مثل محمد فنزل الله عز
وجل: "أَكَانِ اللَّهُ أَعْجَبَاهُمَا" - أما معايير البشر فهي خطأ مثل كون محمد يتيم
أبي طالب. إذا قال القرشيون: العجب أن الله لم يجد رسولًا إلا ينيم أبي طالب،
أو أنه فقير، وهم يريدون كونه غنيًا مترفًا وزعيمًا مرموقًا.

"لَوْلَا نَزَّلَ هُذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتِينِ عَظِيمٍ" [الزخرف: 3]، وهم
يعنون إما الوالد بن المغيرة من مكة، أو مسعود بن عمر الثقفي من الطائف.

ومهمة هذا النبي الموحي إليه هي الإبداع من النار: "أَنذِرُ آنَذِرَ آنَذِرَ"، أي
أوحينا إليه بأن نذير الناس وخوفهم من عذاب النار يوم البعث، إذا ظلوا كافرين
ضالين عاصين، كما قال تعالى: "لَيَنْذِرُ قَوْمَٰمَا مَا أَنذَرْتَ إِبْنَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَنِظَلُونَ ".
[بس] إلخ (1).

ومن هنا فإننا نقول: بأن القرآن الكريم كتاب محكم واضح بين فيما اشتمل عليه
من خلال وحراج وحدود وأحكام، والإجابة إلى رجل من البشر؛ ليؤدي رسالة
الله إلى الناس أمرٌ طوعي منطقي، ليس محل تعجب واستغراب، وإنما هو موافق
لحكمة والعقل والواقع.

وليس مقومات اختيار الأئمة بحسب معايير الناس ومفاهيمهم كالمال والغني
والثروة والجاه والزعامة، وإنما المعيار هو ما في علم الله جل وعلا من كون النبي
المصطفى هو الأهل الكفء الأجداد بتحمل أعباء الرسالة، والأوفق لتحقيق
المصلحة وتبلغ الوحي إلى الناس.

(1) التفسير الميسر 99/11، 1000 بتصرف.
أخيراً فإن مهمة الرسول هي الإنذار والتبيان، إنذار من عصاة بالنار، وتبشير من أطاعه بالجنة. إلخ .

(1) التفسير الميسر

(2) سورة الرعد أيضاً مدنية كما سرد من تفسيرها

(3) التفسير الميسر
"إِنِّي أَنْزَلْتُ لَكُمْ نَذِيرًا وَبَشَّرَيْنَ"، أي: وَقَل لِلنَّاسِ: إِنِّي كَانَ لَكُم مِّن جَهَةِ اللَّه، نَذِيرٌ مِّن النَّذَابِ، إِن خَالَفَتُوهُ وَبَشَّرَ بِالثَّوَابِ إِن أَطَمَّعُوهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ. أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَعِيدَ الصَّفَا فَدَعَا بَيْنَ قَرِينَ الْأَقْرَبِ وَثُمَّ الأَقْرَبِ، فَاجْمَعُوا فَقَالُوا: "يَا مَعْشِر قَرِينِ، أَرَأَيْتُمْ لَو أَخْبَرْتُمُ أنْ خَلِيَّا تُصِيبُوكُمُ السَّمُدْقُ؟" فَقَالُوا: مَا جَرَّبَ حَكْمًا كَذَلِكَ فَقَالُوا: "فَإِنَّيْ نَذِيرُ لَكُم بِيَدِ عَذَابٍ شَدِيدٍ".

وَهذَا بِيَانٌ مِّهمَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَوظَفَتِهِ وُضُعِّفَتْ وَهِيَ الإِنذَارُ لِمَن عَصَاهُ بِالنَّارِ، وَالبَشَّرُ

مِن أَطَاعَهُ بِالجَنَّةِ، وَلَكَد أَرُشِّدَ لِلآيَاتِ إِلَى مَا يَأْتِيُ:

۱ - آَيُّ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ محْكَمَةٌ كُلَّهَا لَا خَلَلٌ فِيهَا وَلَا بَاطلٌ، مَنْظَمَةً بِنُظُرِ محْكَمَةٍ الْفَظُّ، وَالعَنْيُ، لَا تَنْقَلْبُ فِيهَا وَلَا اضْطَرَابٌ مَفْصِلَةٌ تَنْضِلَ اِلَّامْ شَامِلُ جَمِيعُ الدَّلائِلِ الدَّالِّةِ عَلَى الْتَوْحِيدِ وَالنَّبْوَةِ وَالْبَعْثِ وَغَيْرُهَا، فَهِيَ كَامِلَةُ الصُّوُرَةِ وَالعَنْيٌّ، مُحَقَّقَةً لِلْمَصَالِحِ الْبَشْرِيَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَقُولَهُ: ﴿اللَّذِي حَفَظَكُمْ وَلَدُونَ مِن قَلْبٍ﴾ (البَرَاءَةَ: ۲۱) دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ الْخَالِقِ.

۲ - دَعَوَةُ الْقُرآنِ صَرِيحَةٌ تَنْهِجُ فِي هَذَا تَحَقِّقَ العبُودِيَّةَ لِلْخَلَقِ المَنْعِمِ الْمَفْضِلِ وَتَخْصِيصُهُ وَإِفْرَادُهُ بِالْعُبَادَةِ دُونَ أَحَدِ سَوَاهُ، فَأَلْيَاءَ مُشْتَقَّةً عَلَى الْأُمْرِ بِعُبَادَةِ اللَّهِ وَمِن عُبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ.

۳ - وَظَفَّةُ الرَّسُولِ ﷺ هِيُ الإِنذَارُ وَالْتَخْرِيْجُ لِمَن عَصَاهُ بِالنَّارِ، وَالبَشَّرُ بِالرضاَةِ وِجَلْطَةٌ لِمِن أَطَاعَهُ. (۱)

۲۸ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَسْقِهِ أنْتَ آلِ نَاسٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (رَعد). أَمَّا الْكَلَامُ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى الْحَرُوفِ المَقْطَعَةِ فِي أوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَقَدْ تَقْدِمَ فِي أُولِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَقَدْ مَدَّ يَدَهُ مِنّي الْغَلَامِ مِنْ رَبِّكَ الْحَقِّ وَلَكِنْ أَسْقِهِ أنْتَ آلِ نَاسٍ لَا يُؤْمِنُونَ أنْ تَزَوَّلَهُ فِي عَنْدِ اللَّهِ عَلَى لِاْكَشِكِ فِيهَا وَلَا مَرَّةٌ لَا رَيْبٌ فِيهَ، وَهَذَا قَالُهُ: ﴿وَلَكِنْ أَسْقِهِ أنْتَ آلِ نَاسٍ﴾ (۱) التَّفَصِّيلِ الْمَنْهِرَ ۱۱/۱۲ فَمَا بَعْدُهَا بِتَصَرُّفٍ.
أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن، ومثل التوراة والإنجيل - قال مjahid وقادة.

وفي نظره، بل هو بعيد، ثم عطف على ذلك عطف صفات.

قال: «وَلَذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ» أي: يا محمد.

من رَبِّكَ الْقَبْلَيْنَ خَبَرُ تَقْدِيمِ مَبْتَدِئ وَهُوَ قَوْلُهُ: «وَلَذِي لَآ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ».

هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مjahid وقادة.

واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة.

واستشهد بقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الحمام، وليت الكتبة في المزدحم.

وقوله: «وَلَيْنَ أَصْحَبَ آثَارَ آئِمَّاتِنَا لَا يُؤْمِنُونَ».


البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنزاع.

والآمر: البدء بهذه الحروف الهجائية المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم.

وبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه، بالرغم من كونه بلغة العرب.

ويتكون من حروف الكلمات التي ينطقون بها، فبعد أن وصف الله تعالى القرآن، في آخر سورة يوسف (2) خمس صفات أضاف هنا صفة أخرى وهي كونه حقاً من

___________

(1) تفسير القرآن العظيم 16/116.
(2) انظر: التفسير المثير 14/136.
الصفات الخمس هي: ما كان القرآن حديثاً يفترى ويتلقي ويكذب من دون الله، فهو كلام عجز ولا يستطيع بشر ولو كان نبياً أن يأتي مثله، وكذلك ما كانت قصة يوسف حديثاً يفترى من دون الله تعالى.

القرآن الكريم مصدق لما تقدمه من الكتب السماوية من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ومهيمن عليها وحارض لها.

والقرآن الكريم فيه تفصيل كل شيء، مما يحتاج إليه العباد من الحلال والحرام، والشرائع والأحكام.

وهو أيضاً هدية ورثة من الله لعباده وللمؤمنين بالغيب، وإنقاذ للبشرية من الضلال والانحرار ومن الفساد إلى النظام والصلاح في ذلك الحكيم لا زيت فيده هدى لِلدُّمَثْقِينَ (2) [البقرة] اتهى.

إن آيات هذه السورة - سورة الرعد - آيات القرآن البالغ حدد الكتاب، أو تلك الآيات العظام القدر والشأن آيات الكتاب وهو القرآن الكريم.

وكل القرآن الذي أنزل إليك يا محمد من ربك حق لا شك فيه، وهو على التفاصيل الأول بأن الآيات هي السور إجمالاً بعد تفصيل، أو عموم بعد خصوص.

فبعد أن أثبت تعال هذه السورة وصف الكمال والرفعة عموم هذا الحكم على القرآن كله جميعه.

ولكن أكثر الناس لا يصدقون بالمنزل إليك من ربك، ولا يقدرون ما في القرآن من سمو التشريع والأحكام ورعاية المصالح المناسبة لكل عصر وزمان.

وإذا كان واقع البشرية اليوم أن أكثر سكان العالم لا يؤمنون بالقرآن الكريم، وأن المسلمين بالنسبة لغيرهم هم الخمس.

فكون ذلك معجزة للقرآن الكريم الذي أخبر عن حال أكثر الناس في الماضي كأهل مكة وفي مسيرة التاريخ، وفي الوقت الحاضر والمستقبل.

وقد دلت الآية على أن آيات القرآن بالغة حد الكمال في الإعجاز والبيان، وأن القرآن الكريم حق منزل من عند الله تعالى لاشك فيه ولا ريب، باق على وجه الدهر.

ولكن مع الأسف حجب العنان والكفر كثيراً من الناس عن الإيمان بما جاء فيه من حكم باللغة، وأحكام رصينة، وتشريعات محكمة.

وهذا ليس إقراراً لهم، وإلا هو على سبيل الزجر والتهديد (1).

٢٩ - قوله تعالى: ﴿الر﴾

قد تقدم الكلام في أمثال هذا، وبيان قول من الله قال: إنه متشابه، وبيان قول من قال: إنه غير متشابه، وهو إما مبتداً خبره كتاب أو خبر مبتداً مخوذ، ويكون ﴿صَيْبَتِي﴾ خبراً مخوذ مقدر أو خبراً ثانياً لهذا المبتدأ.

(1) التفسير المتير ١٣١/١٠٠
أو يكون { الآر } مردوداً على نفط التعديد فلا محل له.

{ إنزلتلك } صفة لكتاب { على } أرسلنا الكتاب إليك يا محمد، ومعنى

{ لتخرج الناس من الظلمت إلى النور } لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل

والضلال إلى نور الإيمان العلم والهدية.

جعل الكفر منزلة الظلمات والإيمان منزلة النور على طريق الاستعارة،

واللام في لتخرج للفرض والغية، والتعريف في الناس للجنس.

والمعنى أنه { يخرج الناس بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله طم من الشرائع

 acos; ضماً في من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور.

وقيل: إن الظلمة مستعارة للبدعة والنور مستعار للسنة.

وقيل: من الشك إلى اليقين، ولا منع من إرادة جميع هذه الأمور.

والباء في { ياذن ربه } متعلقة بتخرج، وأسند الفعل إلى النبي ؛ لأنه

 الداعي والهادي والمذر.

قال الزجاج: ما أدنى لك من تعليمه ودعائهم إلى الإيمان { إلى ضرط العميز

 الحميد } هو بدلاً من إلى النور بتكريم العامل كذا يقع مثله كثيراً. أي: لتخرج

 الناس من الظلمات { إلى ضرط العميز الحميد }.

 وهو طريق الله الواضح التي شرعها لعباده وأمرهم بالصير إليها والدخول فيها.

ويجوز أن يكون مستأثناً بتنصير سؤال كأنه قيل: ما هذا النور الذي أخرجهم إليه!
قال المفسر: صراط العزيز الحميد.

والعزيز هو القادر الغالب، الحميد هو الكامل في استحقاق الحمد (الله العلي).備مَا في السماوات وما في الأرض).

قرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خير مبتدأ محدود أي: هو الله المتصف بكل ما في السماوات وما في الأرض.

وقرأ الجمهور بالجزء على أنه عطف بيان كونه من الأعلام الغالبة، فلا يصح وصف ما قبله به; لأن العلم لا يوصف به.

وقيل: يجوز أن يوصف به من حيث المعنى.

وقال أبو عمرو: إن قراءة الجهر مجموعة على التقدم والتأخير، والتقدير: إلى صراط الله العزيز الحميد، وكان يعقوب إذا وقف على (الحبيب) رفع، وإذا وصل خفض.

قال ابن الأنباري: من خفض وقف على (وما في الأرض) ثم تعود من لا يعترف بريبيته، فقال: (وَوَيِّبِ الْكَفَّارِ رَبَّنِي عَذَابَ سَدِيدٍ).

قد تقدم بيان معنى الويل، وأصله النصب كسائر المصادر، ثم رفع للدلالة على الثواب.

قال الزجاج: هي كلمة تقال للعذاب والهلكة، فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول الله ﷺ بما أنزله الله عليه مما هو فيه منظلمات الكفر إلى نور الإيمان (من عذاب شديد) متعلق بويل على معنى
يولون ويضجون من العذاب الشديد الذي صاروا فيه

وبعد أن بين تعالى مقاصد القرآن وأثره في الهداء، وبين أنه سبيل ميسر للاهتاد به، لكونه بلغة قوم الرسول فقال: "وما أرسلنا من رسول إلا يليسان قريبوه، ليتير هم فِيْضَلُّ آلِهَةٍ مِنْ يَشَاءَ وَيَتَهْدِيكِ مِنْ يَشَاءَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ".

[إبراهيم].

هذا من لطفة تعالى أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما قال تعالى: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ فِرَائِسًا أَعْجَمِيَّةً لَّفَصَلَّوْا لَوَتًا فِيْضَلُّ رَبِّكَ" [فصلت: 44].

وأخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: "لم يبعث الله نبياً إلا بلغة قومه".

فِيْضَلُّ آلِهَةٍ مِنْ يَشَاءَ أي أنه بعد البدائع وإقامة الحجة على الناس يكون الناس فريقين، فريقاً يضله الله عن وجه الهدى، لإيغاله في الكفر، واجتراجه السينات والآثام وعناده.

وفريقاً يهديه الله إلى الحق، ويشرح صدره للإسلام فيتبع سبيل الرشاد.

وهذا كلام مستأنف وليس معبط على ليتير ولهو آلزير الحكيم، لا للإضلال ولهو آلزير الحكيم، والله سبحانه القوي الذي لا يغلب، فما شاء كان، وما لم يشا لم يكن والحكيم.
في صنعه وأفعاله، ففضل من يستحق الإضلاع، ويهدي من هو أهل لذلك، فلا يفعل شيئاً إلا على وفق الحكمة والعلم\(^{1}\).
فهرس الموضوعات
<table>
<thead>
<tr>
<th>الصفحة</th>
<th>الآية</th>
<th>العنوان</th>
<th>الرقم</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>5</td>
<td></td>
<td>الإهداء</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>7</td>
<td></td>
<td>المقدمة</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>9</td>
<td></td>
<td>المدخل</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>11</td>
<td></td>
<td>القرآن : المكان</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td></td>
<td>والزمان</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>30</td>
<td></td>
<td>معنى لفظ القرآن</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>34</td>
<td></td>
<td>كتاب الله والقلم</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>40</td>
<td></td>
<td>لا يمسه إلا المطهرون</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>45</td>
<td></td>
<td>القرآن – الاحرف</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td></td>
<td>النورانية – معجزة النطق</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>56</td>
<td></td>
<td>القرآن الكريم في القرآن الكريم</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>58</td>
<td></td>
<td>أسماء القرآن الكريم وذكرها في القرآن الكريم</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>65</td>
<td></td>
<td>معنى السورة والآية والكلمة والحرف</td>
<td></td>
</tr>
</tbody>
</table>
فصل: القرآن الكريم

65 ذلك الكتاب لا ريب فيه 1 هدى للمتقين
66 أءلا يتذرون القرآن 2 تدبير القرآن
77 يا أيها الذين آمنوا لا 3 القرآن البيان
تلأسوا
81 قل أي شيء أكبر شهادة 4 القرآن النذير
85 وإذا لم تأتهم بآية قاتوا 5 القرآن الرحمة
93 إن الله اشترى من 6 القرآن الوعد الحق
المؤمنين
98 وإذا تلقى عليهم آياتنا 7 القرآن المخلد
105 وما كان هذا القرآن أن 8 القرآن المعجز
يفترى
114 وما تكون في شأن 9 القرآن الشامل
117 الر تلك آيات الكتاب المبين 10 القرآن العربي
121 كذلك أرسلنا في أمة قد 11 القرآن الخارق
خلت
125 الر تلك آيات الكتاب 12 القرآن المبين
128 وما خلقنا السماوات 13 القرآن العظيم
والأرض وما بينهما إلا
بالحق
133 من عمل صالحًا من ذكر أو 14 القرآن المحفوظ
أثنى
142 إن هذا القرآن الكريم هى أقوم
146 ولقد صرفنا في هذا القرآن
150 وإذا قرأت القرآن
155 وإذا قلنا لك إن ربك أحاط
157 أقام الصلاة لدلوك الشمس
162 ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة
165 قلن لنن اجتمعت الإنس والجن
170 وبالحق أنزلناه وبالحق نزل القرآن المحفوظ المحروس
181 ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل
184 والقرآن ذكره لمن يخشى (أ)
188 وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا
192 وقال الرسول يا رب القرآن .. وأعداء النبي من المجرمين
196 طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين

15 أهداف القرآن الكريم
16 القرآن المذكر
17 القرآن الحجاب الساطر
18 الشجرة الملعونة في القرآن
19 قرآن الفجر المشهود
20 القرآن الشافى
21 عجز المخلوقات عن الإتيان بمثل
22 القرآن المحفوظ المحروس
23 القرآن المتصرف به للناس من كل مثل
24 القرآن ذكره لمن يخشى (أ)
25 القرآن العربي (ب)
26 القرآن .. وأعداء النبي من المجرمين
إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل

29  القرآن : هدى ورحمة
202  وأن آثلو القرآن
30  تلاوة القرآن
31  القرآن surpré à vous
32  إن الذي فرض عليك القرآن المفروض
33  القرآن لرادك إلى معاذ
34  القرآن مجمع الأمثال
35  القرآن من كل مثل
36  يس . القرآن الحكيم
37  القرآن الحكيم
38  القرآن ذي الذكر
39  القرآن مجمع الأمثال
40  القرآن من كل مثل
41  القرآن العربي البشير
42  الرحمن
43  التنذر
44  وقال الذين كفروا لا
45  تسمعوا لهذا القرآن
46  القرآن الغالب
47  ما يقال لك إلا ما قد قيل
48  للرسل من قبلك
49  القرآن العربي (1)
50  وكذلك أوصيتنا إلك قرآنا
51  عربيا
52  حم . والكتاب المبين
53  القرآن العلي الحكيم
54  صاحب الأحقية في القرآن
55  بل معت هؤلاء وآباءهم
56  القرآن
اأذن صرفاً إليك نفرا من
الجَن

إذا تدبر القرآن الكريم
القرآن المجيد
القرآن المثير
القرآن المحسن
فلا أقسم بموارق النجوم
لو أنزنا هذا القرآن على
جَبَل

يا أيها المزمل
ورتِل القرآن ترتيلاً
إن ربك يعلم أنك تقوم
اقرأوا ما تيسر من
القرآن

قل أوى إلى أنه استمع
نفر من الجن
لا تحرك به لسانتك لتعجل
بِه

عَدَمَ تَحْرِيكِ اللِسان
بالقرآن

إِن هذا كان لكم جزاءً
الله منزل القرآن
فما لهم لا يؤمنون
القرآن المحسن
وَلله من ورائهم محيط
المحفظ
فصل: الكتاب

المنقذين فيهما
1. هدى

2. الذين يكتبون الكتاب ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب

3. كتاب الله المصدق لما سبقه

4. كتاب الله وأهل الكتاب ولقد أنزلنا إليك آيات بينات

5. الكتاب الحكيم: دعاء إبراهيم عليه السلام

6. الذين آتيناهم الكتاب يلتمسونه

7. كتاب الله وما أنزل الله إذا طلقت النساء فبلغن أهلهن

8. الكتاب المنزل بالحق الم. الله لا إله إلا هو الحق القيوم

9. آيات الكتاب المحكمات هو الذي أنزل عليك الكتاب

10. الذين أوتوا نصيبا من الكتاب

11. ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم

12. الإيمان بالكتاب كله إنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم.
13. وجوب الإيمان بالله ورسوله والكتاب
14. موقف المؤمنين المستهزئين بأيات الله
15. أهل الكتاب يسألون النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء
16. مقاصد القرآن الكريم رسولنا
17. الحكم بما أنزل الله في الكتاب
18. لو أنزلنا عليك كتابا في قرطاس والمائدة
19. وهذا كتاب أنزلتاه مبارك
20. أُفْقِرُ اللَّهُ أَبْتَغِي حَكَمًا صدِّيق نُبْوَة محمد ﷺ
21. وهذا كتاب أنزلتاه مبارك
22. الكتاب المبارك
23. المصد . كتاب أنزل إليك
24. وفضل القرآن الكريم على البشر
25. ولفقد جنناهم بكتاب فصلتاه
26. الذين ورثوا الكتاب
27. خلف من بعدهم خلف
28. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا
25 لولا كتاب من الله سبق أسرى حتى يُذكَر في الأرض
26-27 الكتب الحكيم الحق تلك آيات الكتاب الحكيم
291 فهرس الموضوعات
صفحة كتاب يبالله
في كتاب تابع الله
حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

الإدارة: ش. الإمام محمد عبد الله، للواجه لكلية الآداب صب ١٣٠٧/١٧/٠٨
E-MAIL: darelwafa@HOTMAIL.COM
WWW.EL-WAFAA.COM
20- الكتاب وأم الكتاب

«وَلَلَّذِينَ طَارِئُهُمُ الْكِتَابُ يَقُولُونَ إِنَّمَا أَنزَلْتُهُ الْمَلَكُ وَإِنَّ الأَخَزَابَ مِنْ يُبِرَّ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ وَإِنَّ الْمَلَكَ مِنْ أَنتَ وَلَلُّدُنِّينَ حُجْرَةَ عُرْقِيَاءٍ وَإِنَّ الْأَخَزَابَ أَحْوَاءً مُّنْ عَلِيّمٍ مَّا لَكَ مِنَ الْآخِرَةِ وَلَقَدْ أُنْزِلَتْ لَكَ رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرُّتٍ وَمَا كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ يَقُولُ إِلاَّ بَيَانَةٌ إِلَى اللَّهِ لِكُلِّ أُجُلِّ حِكْمَةٍ يُبَيِّنُهَا اللَّهُ ما يُشَاء وَيُنْقِطُ وَعَتْهُهُمُ الْمُصْرِفُ(١)» [الرعد].

اختالف المفسرون في تفسير الكتاب المذكور، فقال: هو النوراة والإخيل والذين يفرحون بما أنزل إلى رسول الله ﷺ هم من أسلم من اليهود والنصارى، وقيل: الذين يفرحون هم أهل الكتاب لكون ذلك مواقينا لذا في كتبهم مصدقا له، فعلي الأول يقول المراد بقوله: «وَمِن الأَخَزَابِ مِنْ يُبِرَّ بَعْضَهُمْ» من لم يسلم من اليهود والنصارى، وعلى الثاني يكون المراد به المشركين من أهل مكاه ومن يائلهم، أو يكون المراد به البعض من أهل الكتاب، أي: من أحزابهم، فإنهم أتاروا لما يشمل عليه من كونه ناسخا لسائرهم، فتوجه فرح من فرح به منهم إلى ما هو موافق لما في الكتاب، وإنكار من أنكر منهم إلى ما خالفهما، وقيل: المراذ بالكتاب القرآن الكريم، والمراد من يفرح به المسلمون، والمراد بالأحزاب المتحزبون على رسول الله ﷺ من المشركين واليهود والنصارى، والمراد بالبعض الذي أنكروه ما خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقاداتهم.

واعتبر على هذا بأن فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة من ذكره، وأجيب عنه بأن المراذ زيادة الفرح والاستبشر، وقال كثير من المفسرين: إن عبد الله بن سلام والذين آمنوا معا من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في النوراة، فأنزل الله: {فَلَيْنَ أَدْعُوا اللَّهَ وَأَدْعُوا الرَّحْمَنَ} [الإسراء: 110] ففرحوا بذلك، ثم لما بين ما يصل بنزول القرآن من الفرح لبعض والإنكار للبعض صرح بما عليه رسول الله ﷺ، وأمره أن يقول له ذلك فقال:
قل إنما أمرت أن أنبئ الله وَلا أشريك بهِ [الرعد، 1] أي: لا أشرك به بوجه من الوجه ؛ أي: قل لهم يا محمد إلزاما للحججة وردًا للإنسكار: إنما أمرت فيما أنزل إلى عبادة الله وتوحيده، وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع، وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملائكة بالرسول.

وقد اتفق القراء على نصبْ (ولَا أشَرِكَ بِهِ) عطفًا على (أنَبِئَ) قرأ أبو خليد بالرفع على الاستئناف، وروى هذه القراءة عن نافع، (إِلَيْهَا أَذَاعَوْا) أي: إلى الله لا إلى غيره، أو إلى ما أمرت به وهو عبادة الله وحده، والأول أول لقوله: (وَإِلَيْهِ مُتَابَ) فإن الضمير الله سبحانه وتعالى، أي: إليه وحده لا إلى غيره مرجعي، ثم ذكر بعض فضائل القرآن، وأوعد على الإعراض عن اتباعه مع التعرض لرد ما أنكروه من اشتغاله على نسخ بعض شرائعهم، فقال: (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرِيضًا) أي: مثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا القرآن مشتملاً على أصول الشرائع وفروعها، وقيل المعنى: وكما أنزلنا الكتاب على الرسول بلغاتهم، كذلك أنزلنا عليه القرآن بلسان العرب، ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام أو حكمة عربية مترجة بلسان العرب، وانتصاب حكماً على الحال (ولَيْنَ أَتَبَعْ أُهوَاءهُمْ) التي يطلبون منك موافقتهم عليها، كالستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم، وعند خالفتك لشيء مما يعتقدونه.

(فَبَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِيرَ) الذي علمك الله إياه (مَا لَكْ مِنَ اللَّهِ) أي: من جنبه (فَمِن وَلَدَيْ) يلي أمرك وينصرك (وَلَا وَقْتَ) يقبل من عذابه، والخطاب لرسول الله تطريض لأمته والإسلام في: (وَلَيْنَ أَتَبَعْتُ) وهي الموطئة للقسم، و(مَا لَكْ) سدًا مسد جواب القسم والشرط.

و(وَلَنَقَدْ أَرُسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قِبَلِكَ وَجَعَلْنَا هَلَمْ أَزْوَاجًا وَذَرِّيَّةً) أي: إن الرسول الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر، لهم أزواج من النساء، وهم ذريه توالدوا منهم ومن أزواجهم، ولم ترسل الرسول من الملائكة الذين لا يزوجون ولا يكون لهم ذريه، وفي هذا رد على من كان ينكر على رسوله تزوجه بالنساء; أي: إن
كل يوم كتاب

هذا شأن رسول الله المرسلين قبل هذا الرسول، فما بالكم تذكرون عليه ما كانوا
عليه وما كان يرسلون أن يأتى بقائمة إلا بإذن الله سبحانه. أي لم يكن لرسول
من الرسول أن يأتي بقائمة من الآيات. ومن جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلا بإذن
الله، وفي رد على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ من الآيات ما اقترحوا
بما سابق ذكره.

{ لكل أجل كتاب } أي لكل أمر ما قضاه الله، أو لكل وقت من الأوقات
التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتب على عباده ويحكم به فيهم.

وقال الغزاء: فيه تقديم وتأخير، والمعنى: { لكل أجل كتاب } (الرعد)
أي: لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل، ووقت معلوم، كقوله: { يكلل نبي
مُستحق } (الأنعام: 17) وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراراتهم، بل على
حسب ما يشاؤه ويشتاره.

قوله تعالى: { يمحوا الله ما يشاء ويثبت } أي: يمحو من ذلك الكتاب ما يشأ
أن يوقعه بأهله، ويأتي به { ويثبت } ما يشاء، أي يؤخره لوقته، يقال: مبوت
الكتاب موابه، أي: أذهب أثره { ويثبت } أي: يثبت.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: { ويثبت } بالتخفيف، وقرأ الباقون
بالتشديد وهي قراءة ابن عباس واختارها أبي حاتم وأبي عبد لثورة من قرأ بها;
لقوله: { يثبت الله الازيري فامنوا } (إبراهيم: 27). وقال ابن عمر: سمعت النبي
يقول: { يمحوا الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشفاوة والموت }، وقال ابن
عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء الحلال والخالق والأجر والرزق والسعادة
والشفاوة، وعنبه: هما كتابان سوى أم الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت
{ وعندما } { أم الكتاب } والذي لا يتغير منه شيء، قال القشيري: وقيل: السعادة
والشفاوة والحلق والرزيق أشياء لا تنغير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء وفي
هذا القول نوع تحكم.

(1) فتح القدر 13/104.
وعن ابن عباس {يَمْحَوْاٰ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} يقول: يبدل الله من القرآن ما يشاء.

فينسخه، {وَيْتَبُّ} ما يشاء فلا يبدل في {وَعِنْدَهُ} {أَمَّ الْعِبَادِ} يقول: جلة ذلك عنديه في أم الكتاب، النسخ والمنسوخ، وقال سعيد بن جبير أيضاً: يغفر ما يشاء.

- يعني من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره، وقال عكرمة {يَمْحَوْاٰ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} يعني: بالثواب، جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب، حسنات. قال تعالى:

{إِلَّا مُنَاتَ وَأَمْرَ أَعَلَىٰ عَمَلٍ صَلِّيْهُ} (القرآن: 70).

وقال الحسن: {يَمْحَوْاٰ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} من جاء أجله، {وَيْتَبُّ} من لم يأتي أجله.

وقال الحسن: يمحمو الله الآباء ويثبت الأبناء.

وقال السدي: {يَمْحَوْاٰ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} يعني، القمر {وَيْتَبُّ} يعني: الشمس، بيانه قوله: {فَمَمْحَوْاْ نَافَةَ اللَّيلِ وَجَعَلْنَاهَا نَافَةَ اللَّيْلِ مُبَصِّرَةً} (الأسراء: 112).

وقيل: {أَمَّ الْحَكِيمُ} اللوح الحفوظ الذي لا يبدل ولا يغفر، ولقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنه يجري في الجراح الآخر، وسُلَّل ابن عباس عن أم الكتاب فقال: علم الله ما هو خلق، وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً، ولا تبدل في علم الله، وعنه أنه الذكر دليله قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَبَحَنَا فِي الْزَّوْرِ مِنْ بَعْضِ الْذَّكَرِ} (الأنبياء: 105). وهذا يرجع معناه إلى الأول وهو يعني قول كعب:

قال كعب الأحبار: {أَمَّ الْحَكِيمُ} علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق.

(1) الجامع لأحكام القرآن 329/6 فما بعدها بتصرف.
كتاب الله تبيان لكل شيء

وَيَوْمَ نُبْعِثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِنَّتَا بَكَّ شَهِيدًا عَلَّ هُنُوَالآءَ وَزِيَّرًا عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ تَبيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ وَيُبَشِّرُ الْمُسْلِمِينَ

[النحل : 89]

خصص الله تعالى بالذكر شهادة محمدٍ ﷺ على أمره، وهو نوع آخر من التهديد المناعي للمعاصر، فقال مخاطباً رسوله ﷺ: وَيَوْمَ نُبْعِثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَى هُنُوَالآءَ وَزِيَّرًا عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ تَبيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ وَيُبَشِّرُ الْمُسْلِمِينَ [النحل : 89].

أي، أيذكر بأن الرسول يوم نبعث في كل أمة (أي قرن وجراحة) نبيها يشهد عليها، قطعاً للحججة والمعذرة، وجنتنا بك شاهداً على هؤلاء: أي أمتكم بما أجابوك به عن رسالتك، فيظهر له الشرف الرفيع والمقام العظيم.

وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: فَكَيْفَ إِذَا جَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٍ وَجِنَّتَا بَكَّ عَلَّ هُنُوَالآءَ شَهِيدًا [ النساء] فقال له رسول الله ﷺ: حسبك فقال ابن مسعود: فالتفت فإذا عيناه تذرفان.

ثم أبان الله تعالى: بمناسبة بيان شهادة النبي صلى الله عليه وسلم أن أراض علتهم فيما كلفوا، فلم يبق لهم حجة ولا معذرة، فقال: وَزِيَّرًا عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ تَبيِينًا الآية. أي ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبيانا لكل شيء من العلوم والمعارف الدينية، مما يحتاج إليه الناس في حياتهم، وهم للضالين ورحة لمن صدق به، وبشري من أسلم الله وجهه، أفاطعه واتباع إليه، بجانب الخلد والثواب العظيم، وبيان القرآن لأحكام التشريع خلاله وحراجمه إما بالوجهي نصاً ومعنى مباشرة، وإما بالوجهي معنى وهو السنة التي فيها بيان آخر لمجل القرآن، كما قال تعالى: فَلْيَبِينَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [النحل : 44]. وقال فيما رواه أبو داود والترمذي عن المقدم بن معد: إني أوتيت القرآن ومثله معه، ثم يأتي دور الاجتهاد في نطاق النصوص الشرعية، وفي ضوء مبادئ التشريع، وروح الشريعة.
العامة، وضمن مقاصدها وأهدافها العامة، والاجتهاد يشمل كل مصادر التشريع الأخرى غير النصية من إجاع وقياس واستصلاح واستحسان وعرف وسد ذريعة واستصحاب وغير ذلك(1).

إن الأنبياء شهدوا على أمهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة، ودعوهم إلى الإيمان، وفي كل زمان شهد، وإن لم يكن نبيًا، وهم أئمة الهدى خلفاء الأنبياء، والعلماء حفظة شرائع الأنبياء.

والنبي ﷺ شاهد على أمته والأمم الأخرى، كما قال تعالى: "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكَ أَمِّيَّةً وَسُنُّٰتَُّ لَكُنَّ أَرْسُولًا عَلَىٰ آدمٍ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُم مِّنْ شَهِيدٍ" [البقرة: 143]. وقال: "يَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتُكُونُوا شَهِيدًا عَلَىٰ أَلَٰمْسِ" [المعد af: 78]

قال القرطبي(2): فعلى هذا لم تكن فترة إلاً وفيها من يوحد الله، فقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن سُفيان الذي قال فيه النبي ﷺ "يبعث أمة وحده" وورقة بن نوفل الذي قال فيه النبي ﷺ "رأيته ينغمس في أنهار الجنة"، فهؤلاء ومن كان مثلهم - حجة على أهل زمانهم، وشهداء عليهم، والقرآن الكريم تبيان لكل شيء، من أصول التشريع والгалال والحرام والشرائع والأحكام، ومبادئ الحياة الإنسانية، قال تعالى: "مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْئٍ" [النساء: 38].

وذلك يدل على أنه لا تكليف من الله - تعالى - إلا ما ورد في هذا القرآن. أي: إما جملة وتفصيلاً، وإما جملة فقط، أما الأدلة الأخرى كالإجاع وخبر الواحد والقياس. فقد دل القرآن الكريم ذاته على حجيتهما، كما هو معروف في علم أصول الفلسفة، وكانت السنة والإجاع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب. فمن ثم كان تبياناً لكل شيء، كما قال الرخشيري(3).
22- الكتاب المنزل المقرر

"أو يكون لكي بيت من زخرف أو ترق في السماء وأن نؤمن بربنا كتب حتى تتزل عليّنا كتبًا مفروضة، فلست ثيابهم على هل يفسحون إلا أن نبعث والعهده لا إله إلا ينصر الوسول (3) وما من الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم، إلا أن قالوا أبعث الله بنيرًا رسوًا (3) (الإسراء).

سبق هذه الآية آيات متتالية تتم بعضهن بعضًا في توافق المعنى، واستكمالاً لما كان يجري بين الرسول والشركين، والذين كانوا يسألون النبي أمورًا خارقة للطبيعة، بعيدة عن قدرة الإنسان واستكمالًا لمعلمه من طلب سبقهم من أنيابهم أن يفعلوا المعجزات التي حصلت على أيدي أولئك الأنيباء، فلما قضيت عادوا لكثيرهم وضلواهم.

قال تعالى: "وقالوا أن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ثعبًا (4) أو تكون لك جنة من نخيل وعبن فتغمر الأنهار وحللها تفجيرا (5) أو تسقط السماء (6)

كما زعمت علينا كسفًا أو نأتي بإله وأملت بص布拉 (7) (الإسراء).

"أو يكون لكي بيت من زخرف" أي يكون لك بيت من ذهب يختلف عن بيوتهم المبنية بالحجارة والطين والتراب ليميز لحبيبهم، فيكون الأغني، ويكون الأقوي كما سمعوا عن صنع فراعة مصر أو ملوك كسرى أو قيصرة الروم الذين استدلوا الناس واسترهبهم واستنفرنا بكل غالي وثمين.

فإن الشركين يريدون أن يكون محمد مثلهم مثل طغاة البشر الذين استعبدوا الناس وادعوا الآلوهية، وبذلك أرادوا أن يقوم ببناء بيت من ذهب مُخلِّي بالجواهر، يحاكي قصور أولئك وبيوتهم "أو ترق في السماء" أي ترتفع في السماء، تعلو وترتفع عن الأرض بقدرة خارقة لا يستطيع أحد غيره أن يفعلها، وإن فعلت ذلك، أي ارتعت في السماء "وأن نؤمن بيديك حتى تتزول علينا كتبًا مفروضة"، فإننا لن نؤمن لك فقط أن ترتقي وتعود إلينا خلايا الوفاض، ولكن قد نؤمن إذا أنزلت علينا من رقيق هذا كتابًا مفروضة.
وهنا ورود الكتاب لا يعني القرآن الكريم الذي أنزل منجماً متفرقًا على مدى ثلاث وعشرين سنة، ولكن لا يريدون أن يأتي بهذا الكتاب المدون المجموع كما أنزلت التوراة جملة واحدة - ويريدون ليؤمنوا أن يعمي كل واحد منهم نسخة من هذا الكتاب وحتى يستطيعوا قراءته وفهمه، إنه أسلوب المشركين في كل مكان - فبعد أن أرادوا الجنان والأهوار أن يتفجر في واديهم - الذي هو غير ذي زرع من أيام إبراهيم عليه السلام - عندما قال: [يرامى: 37] أرادوا الآن أكبر من هذا، وهو أن يرقى في السماء ويزنل من صعوده بكتاب يقرؤنه. وفي إسراوء ومعراج النبي الذي أخبرهم به وحمل معه الصلاة الطيبة عماد الدين، وقام به، وهي الحد الفاصل بين الكفر والإيمان، ولم يصدقوه بل كفروا وعنتوا عنتاً كبرياً، وأجابهم الرسول بما يستطيعه ويدر عليه، فهو بشر وقدره محدودة - جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الظلمة إلى الهدى، وهو بشر مثلهم، ولكن سلل أرسل الله تعالى - ليحقق رسالته بهدي الناس وكشف الظلمات عقولهم وقلوبهم.

وينذرهم من عذاب يوم عظيم [إسراوء: 93] هذا هو رضي الله عنه، فما هو إلاّ بشر - يملك طاقات البشر - ويتميز عليهم أنه رسول من الله جلت قدرته.

ويأتي البيان التالي لهذه الآية بقوله تعالى: [وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى؟] فهم لم يصدقوا بما جاء به محمد ﷺ من الهدى، ومن القرآن الكريم الذي هو المعجزة الدائمة الباقية إلى يوم الدين محفوظًا من الله قد هيليا الله سبب حفظه، في صدور الحفاظ المؤمنين على مختلف العصور والدهور بعيدًا عن التحريف والتآويل والتغيير والتبدل، والزيادة والنقصان، وبعد أن جاءهم الهدى فلم يؤمنوا بل تساءلوا، ويكمل استخفاف وكفر [إلا أن قالوا أبعت الله بشرًا رسلًا؟] أضافوا إلى كل طلباتهم عندما أخبرهم الرسول ﷺ بهمته ورسالته وطاقتهم، وبين لهم من اهديه بسلوكه وما أنزل الله عليه، قالوا: هل يرسل الله رسولًا من البشر، فقد وردت في آيات أخرى أنهم يريدون أن يكون ملكًا، وإن كان بشراً فليس بأبي.
طالب، ولكنهم قالوا: لا لا نزل هذا القرآن على رجل من القرية عظيم ( الزخرف) وبذلك فقد اختلطت عليهم الأفكار واختلطت عليهم المطالب، ويسوقون في كل موقف أمرًا يبعدهم عن الإيمان، ويبعدهم عن التصديق برسالة المصطفى ﷺ، ومنهم من آمن ومنهم من كفر - فلعنة الله على الكافرين.
22- الكتاب المستقيم غير ذي عوج

فَأَحْمَدَ بَلَوْثَةَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الرَّحْمَنِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَغْفِرْ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا فَقَدْ أَيَّدَهُ بِأَشْدَادٍ مِن أَنْ تَعْرُجَ ؛ وَيُبَيِّنُ لِذِٰلِكُمْ التِّحْكَمَ لِيُكَلِّمُكُمْ بِهِ مَثَلًا وِلَوْ أَنْ هَذَا هُوَ الْعَذَابُ الْأَصِيلُ مَنْ يَعْلَمُ مَا لَدَى الْحَكِيمِ .

حسناً مَّكَثَ بِهِ فِيهَا بِأَيَّامٍ وَيُبَيِّنُ الْحَقَّ قَالُوا أَنْ هُدَى اللَّهُ وَلَدَا مَا هُوَ بِهِ مِنْ عُلْمٍ وَلَا أُذُنٍ كَبِيرَةٍ كَبَّرَتْ سَكِيلَةٌ نَّجَحَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كُلَّمَا

[ الكهف ] .

تellidoها: سميت سورة الكهف: لبيان قصة أصحاب الكهف العجيبة الغريبة
فيها في الآيات (19 إلى 23) ما هو دليل حاسم ملموس على قدرة الله الباهارة.
وهي إحدى سور خمس بدلت بـ «أَحْمَدُ بَلَوْثَة» [الكهف] وهي الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسيا، وفاطر، وهو استهلال يوحي ببعودية الإنسان لله تعال، وإقراره بنعمه وأفضاله، وتمجيد الله - عز وجل، والاعتراف بعظمته وجلاله وكماه.

مناسبتها لما قبلها: تظهر مناسبة وضع هذه السورة بعد سورة الإسراء من نواحٍ:
هي افتتاح الإسراء بالتسبيح. وهذه بالتحميم، وهما مقتاران في القرآن الكريم.

ولما أمر اليهود المشركين أن يسألوا النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء: عن الروح وعن قصة أصحاب الكهف، وعن قصة ذي القرنين، أجابت تعالى - في آخر سورة بني إسرائيل عن السؤال الأول، وقد أفرد فيها الجواب عن الروح، ثم أجاب -
تعالى - في سورة الكهف عن السؤالين الآخرين، فناسب أتصالهما ببعضهما.
ولما ذكر الله تعالى في الإسراء: وَمَا أُوْيِيَنَّ مِنْ آيَٰلٍ إِلَّا قَلِيلًا 
ناسب ذكر قصة موسى مع العبد الصالح - الخضر - كالدليل على ما تقدم؛ وقد ورد في الحديث، أنه لما نزل: وَمَا أُوْيِيَنَّ مِنْ آيَٰلٍ إِلَّا قَلِيلًا قالت اليهود: فقد


ثم استمر إلى حديث كثير فمرض، والفت من الخطاب في قوله: { وقى ربي تكبيرًا } [الإسراء] إلى الغيبة في قوله: { علّي عبدو } لما في عده من الإضافة المقتضية.

تشريفه (2).

وإيضاً فإن القرآن لم يذكر بلفظ القرآن في أي سورة كما ذكر في الإسراء، وافتح الله تعالى الكهف بذكره القرآن بلفظ الكتاب المستقيم، وفي منتصف السورة بذكر القرآن الذي اشتمل جميع العلوم والأمثال.

وفي بداية سورة الكهف استهلت بيان وصف القرآن بأنه قيم مستقيم للاختلاف فيه ولا تناقض في لفظه ومعناه، وأنه جاء للبشير والإيذاء، ومن آيات السورة: بيان علية القرآن بضرب الأمثل للناس للعظة والذكرى، وإيضاح مهام الرسل للبشير والإيذاء، والتحذير من الإعراب عن آيات الله (45 إلى 57). وأن سياسة التشريع اقتراح الرحمة بالعدل، فليست الرحمة فوق العدل، ولا العدل فوق الرحمة: { ورزقه 않고 غفور ذو الرحمى } [الكهف: 58].

فضل هذه السورة: ورد في فضائل سورة الكهف أحاديث صحاح ثابتة.

(1) تناسق الدور في تناسب السور للسيوطي ص 34 وما بعدها، طبع مدين الكتاب العربي، دمشق.
(2) التفسير المثير 192/197، 197.
منها: ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال».

وقال: «من قرأ العشر الأولى من سورة الكهف، عصم من فتنة الدجال»، وفي لفظ النسائي: «من قرأ عشر آيات من الكهف» الحديث.

وقال: ما أخرجه النسائي في سنة عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأولى من سورة الكهف، فإن عصمه له من الدجال».

دلت هذه الأحاديث على أن قراءة الآيات العشر الأولى أو الآيات العشر أو أي عشر آيات من سورة الكهف عصمة من فتنة الدجال، والسنة أن يقرأ الشخص الكهف يوم الجمعة وليلتها لما رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد عن النبي ﷺ: «من قرأ الكهف في يوم الجمعة، أضواء له من النور ما بين الجمعتين»، وروى الدارمي والبيهقي: «من قرأ ليلة الجمعة، أضواء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق» 1.

وأخبر ابن مردوих عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها بين السماء والأرض، كاتبها من الأجر مثل ذلك. ومن قرأها يوم الجمعة عفر له ما بينه وبين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام، ومن قرأ الحمس الأول منها عند نومه يبعث الليل من أي الليل شاء»، قالوا: بل يأ يأ يأ يا رسول الله - قال: سورة أصحاب الكهف»، وأخرج ابن مردوих عن عبد الله بن مغفل، قال: قال رسول الله ﷺ: «اليت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله الشيطان تلك الليلة»، وفي الباب أحاديث وأثر كثيرة وتأتي شرحها بعد ذلك.

علم عباده كيف يجدونه على إفادة نعمه عليهم، ووصفه بالوصول يشعر بعلية ما في حيز الصلة لما قبله، ووجه كون إنزال الكتاب، وهو القرآن نعمته على رسول الله ﷺ كونه اطلع بواستة على أسرار التوحيد وأحوال الملائكة والأنيبياء وعلى كيفية الأحكام الشرعية التي تعبده الله وتعبد أمته بها، والذك العبد كان

1 التفسير الميرو 199,200,1, والريح المختوم ص 318.
إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم مثل ما ذكرنا، وفي النبى: "وَلَمْ يَجَّلْ لَهُ عَوْجَا" [الكهف: ١٠١]. إن نبي من العوج بنوع من أنواع الاختلال في اللفظ والمعنى.

والعوج بالكسر في المعاني، وبالفتح في الأعيان كذا قال: ويرد عليه قوله سبحانه: "لَا تَرَى فِيهُ عَوْجًا وَلَا أَمَتاَء (٢٠) [الله]." يعني الجبال، وهي من الأعيان قال الزجاج: المعنى في الآية لم يجعل فيها اختلافًا كما قال: "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ آلِهَةٍ لَوْ جَدُوا فِيهِ أَحَدًا مُّقَدَّمًا (٢٠) [النساء]، والقيم: المستقيم الذي لا ميل فيه أو القيم بصالح العبادات الدينية والدنيوية، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهتمًا عليها. وعلى الأول يكون تأكدًا لما دل عليه نفي العوج، فرب مستقيم في الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج في الحقيقة.

وانصاب "قَيْمًا (الكهف) بمضمر، أي جعله قيمًا، ومنع صاحب الكشاف أن يكون حاليًا من الكتاب، فاصلاً بين الحال ذي الحال بعض الصلة، وقال الأصبهاني: هما حالتان متوايان إلا أن الأول جلالة والعائد مفرد، وهذا صواب؛ لأن قوله تعالى: "وَلَمْ يَجَّلْ لَهُ عَوْجَا" لم يكن متعينًا على ما قبله بل الواو للحال فلا فصل بين الحال ذي الحال بعض الصلة، وقيل: إن "قَيْمًا" حال من ضمير "وَلَمْ يَجَّلْ لَهُ عَوْجَا" وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: أسأل على عبد الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً.

ثم أراد سبحانه - تعالى - أن يفصل ما أجمله في قوله "قَيْمًا" فقال: "لِينُذِّرَ بَأَسًا شَدِيدًا" وحذف المنذر للعلم به مع قدس التعميم، والمعنى ليذر الكافرين، والباس: العذاب، ومعنى "مِنْ لَدَنَا" صادرأ من لدنه نازلاً من عنده.

روى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ "مِنْ لَدَنَا" بإشمام الدال الضمة، ويكسر العون والهاء، وهي لغة الكلابيين وروى أبو زيد عن جمع القراء فتح اللام وضم الدال وسكون العون و"بِبَيْشًا الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْصِّبْرَ" قرئ بشر
بالشدد والتخفيف، وأخرج الموصول على موصوه المذكور؛ لأن مدار قبول الأعمال، هو الإمام (أن لهم أجرًا حسنًا) وهو الجنة حال كونهم مكثيرين فيه. أي في ذلك الأجر (أبدا)، أي: منكنًا دائماً لا انقطاع له، وتقدم الإذاع على التبشير لإظهار كمال العناية بجزر الكفار ثم كرر الإذاع، وذكر المذود خصومه وحذف المذود به، وهو البأس الشديد لتقدم ذكره فقال: ﴿وَيَنْبَجِرُ الْأَذىَ قَالُواْ أَنْتَ أَخْبَرْنَا وَلَدَأْ أَنَا﴾، وهم اليهود والنصارى وبعض الكفار من قريش القائلون بأن الملائكة بنات الله.

ذكر - سبحانه - أولاً قضية كلية، وهي: إنذار عموم الكفار، ثم عطف عليها قضية خاصة هي: بعض جزئيات تلك الكلية، تتبنيه على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية، فأفاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله - سبحانه - أقيح أنواع الكفر ﴿وَلَا يَأْتِيُّهُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ إِلَّا مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بالولد، أو اتخاذ الله إياه، و(من) مزيده لتأكيد النفي، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأثة والمعنى: ما لم بذلك علم أصلاً ﴿يَا إِبْنَيَّ إِنْ تَعَظَّمْتَهُمْ﴾ علم: بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة. وقلدهم أبناءهم فضلوا جميعًا ﴿كَبِيرَ سَكِيلَةٍ خَرَجَ مِنْ أُفُوْهِهِمْ﴾ انتصاب ﴿سَكِيلَةٍ﴾ على التمييز، وقررت بالرفع على الفاعلية.

قال الفراء: كبرت تلك الكلمة كلمة، قال الزجاج: كبرت مقاتاتهم كلمة، والمراد بهذه الكلمة هي قولهم: اتخذ الله ولداً، ثم وصف الكلمة بقوله: ﴿خَرَجَ مِنْ أُفُوْهِهِمْ﴾ وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوه بها، والخارج من الفم، وإن كان هو مجرد الهوى، لكن لما كانت الحروف والآصوات كفيات قائمة بال אותו أسد إلى الحال ما هو من شأن المجال، ثم أراد تقييد ما وقع منهم فقال: ﴿إِنْ يَقُولُوْاْ إِلَّا كَبِيْبًا﴾ أي: ما يقولون إلا كذبًا لا مجال للصدق فيه مجال. انتهى.

وقد أوضح الآيات أن أعظم لمعة من الله على عباده إنزال القرآن الكريم الدواء الناجع لأشكال البشرية، والمنتقى من الظلمات إلى النور، والحقيق والعدل المستقيم الذي لا أعوجاج فيه ولا التواء، ومهمته أيضاً إنذار الكافرين وتقويفهم
بالعذاب الشديد في نار جهنم والنقال في الدنيا، وخصوصاً المشركين الذين جعلوا
الله ولداً وهم كفار العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود الذين قالوا:
عذار ابن الله، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، ولا دليل لهم ولا لأسلافهم
على ما يقولون، وتلك كلمة كبيرة الإثم، شديدة الشناعة، عظيمة الجرم.

وذكر القرآن مهمة أخرى هي تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات من التصديق
بما جاء به النبي محمد ﷺ، والالتزام الأوامر واجتناب النواهي بالأجر الحسن، وهو الجنة
التي يخلد فيها أهلها، فهي دار الخلد التي لا يموتون فيها (۱).

(۱) التفسير المثير ۱۵/۲۰۶
24- كتاب الله الذي لا مبدل ل كلماته

"وانتَ مَا أُوْجِح إِلَيْكَ مِن سِيْقَانِ ۖ لَا ۚ مُبْدِئٌ لِّكِلَمَتِهِۖ وَلَنْ تَجِدَ مِن دُونِهِ مُتَّحِدًا (33) (الكهف)."

"وانتَ مَا أُوْجِح إِلَيْكَ مِن سِيْقَانِ ۖ لَا ۚ مُبْدِئٌ لِّكِلَمَتِهِۖ وَلَنْ تَجِدَ مِن دُونِهِ مُتَّحِدًا (33) (الكهف)."

لقولهم: "أنبَّ يقْرَأُهُمَّ غَيْرُ هَذَا أو بَذَلَهُهَ (بَيْنَ يَدَيْهِ) ۖ لَا ۚ مُبْدِئٌ لِّكِلَمَتِهِۖ " لا معير لأحكامه، فلا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره "مُتَّحِدًا" ملجأ تعدل إليه إذا هممت به.

وبدعها يأتي قول الله تعالى: "وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَذُوعُونَ ۖ رَيْبُهُمْ بَلْ عَذَّٰلَةً وَالْعَلَّمِيُّ يَرْبِدُونَ وَجُهَهُمْ ۖ وَلَا تَغْفِرْ عِبَارَةَ عَنْهُمْ تَرْجِعُ زِينَةَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطُفُّ مِنْ أَعْقَلَنَّ فَلِيُّ عَنْ ذَكْرِيْنَا وَأَنْبِيَنَا هُوَ كَارِسُ أُمُورِهِ فَرَّطْتُ (32) " وسبب نزول هذه الآية (عن سلمان الفارسي، قال: جاءت المؤلفة القلب إلى رسول الله ﷺ: عينية ابن حصن، والأقرع بن حابش وذووهم)، فقالوا: يا رسول الله: إنك لو جلس في صدر المجالس، ونحات عن هؤلاء وأرواح جبابهم، لبعون أبا ذر وسلمان وقراء المسلمين - وكانت عليهم جباب الصوف - ولم يكن عليهم غيرها، جلسنا إليك، وحادناكنا، وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى: "وانتَ مَا أُوْجِح إِلَيْكَ مِن سِيْقَانِ ۖ لَا ۚ مُبْدِئٌ لِّكِلَمَتِهِۖ " (33) إلى قوله: "إِنَّا أَعْتَدَنَا لِلطَّلَّابِنَّ نَارًا يَتَهَدِّهِمْ بِالنَّارِ فَقَامَ النَّبِيُّ يَلْتَمِسُهُمْ حَيَّةً إِلَى إِنْ لَّهُمْ جَهَرًا ۖ فَأَصْبَرْ نَفْسِي مَعَ رِجَالٍ مِّن أَمْيَةٍ مَّعَكَ الْمَلَكِ وَمَعَكَ الْمَلَامِ" (34).

"وانتَ مَا أُوْجِح إِلَيْكَ ۖ يأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَيْ رَسُولَهُ ﷺ في هذه الآية بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس، قالت له: وانت الكتب الموحي به إليك، وابع ما جاء

(1) أسباب النزول للواحدى ص 171.
فيه من أمر ونهي، فإنه لا منغير لكلمات ربك من وعد الطائعين، ووعيد للعاصاة، ولا محرف ولا مزيل لها، فإن لم تعمل به فوقعته بالوعيد فلن تجد ملجأ ولا ولاياً ناصراً من دون الله تعالى.

هذا هو التوجيه الأول: تلاوة القرآن والعمل بمقتضاه.

والتوجيه الثاني: هو مجالسة الفقراء والمستضعفين فقال تعالى: { وَأَصِيَّرْ تَفَسِّكَ مَعَ الَّذِينَ يُدُعْوَونَ رَبِّهِمْ } أي جالس الذين يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه ويكرون ويسألون في الغدآء، (صباحًا) والعشة، (مساءً)، أي في كل وقت، سواء أكانوا فقراء أو أغنى { وَيُبِذِّلُونَ وَجْهَهُ } أي طاعته ورضاه.

تضمنت الآية الإرشادات التالية:

١ - وجب اتباع القرآن وما جاء به؛ لأنه لا منغير لما واعد بكلماته أهل معاصره، والخالفين لكتابه، ووعد أهل طاعته المنبعين ما أمر به، المبعدين عما نهى عنه.

٢ - الإسلام دين المساواة، فلا فرق في نظامه بين شريف ووضيع، وغي وفقي ورئيس ومرؤوس ولا تفرقة في أموره الاجتماعية بين الطبقات، الكل سواء في المجالس والمعاملة والحقوق والواجبات، وقد قضى القرآن بآية: { وَأَصِيَّرْ تَفَسِّكَ مَعَ الَّذِينَ يُدُعْوَونَ رَبِّهِمْ } على الامتيازات في المجالس والخطاب أو الكلام بين أشراف قريش وساداتها وبين فقراء المسلمين وضعفهم.

(1) التفسير المثير ١٣٨ / ٢٣٨ فما بعدها بتصرف شديد.
25- ذكر الصالحين

وَذَكِرْ فِي الْكِتَابِ مَرَيْمٍ إذَّ أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرَفًا (٢) ١٠١٩ مِرْيَمٍ.

في الآية السابقة والآيات اللاحقة، ٤١، ٥١، ٥٣، ٥٦، ذكر بعض الأنبياء والرسلين عليهم السلام إلا الآية السابقة التي يدور الحديث فيها كلية عن مريم ابنة عمران والدة عيسى عليه السلام.

والباقي يدور حول أنبياء متفاوتة الظهور، وجاءت مريم آخر حلقة النساء اللواتي كان له علاقة بالبوصة (١) أعلاه.

ثم توالى أخبار الأنبياء بتقديم وتأخير، وذكر الكتاب هنا يعني أن يذكر هؤلاء في القرآن الكريم عموماً أو تخصصاً في سورة من سور القرآن الكريم هي سورة مريم، وربما هذا الذي عزز تسمية السورة باسم سورة مريم، فذكر هؤلاء في كتاب الله المعجزة الخالدة تكريماً لهم، والأهم هو تقويم حياة الأنبياء عليهم السلام، بعد أن أفقدتهم كتب السماوات وخاصه التوراة المحرفة- كل قدسية وصيحة وإخلاص، وسمو، ورفع، فأطلقوا، وابدأوا، وقاعدوه هؤلاء الذين هم رأس المخلصين من عياد الله بن البشر في مواقف من الكذب والزنا، والехزاف، وبناء الأصنام، وغيرها وغيرها مما تعلوه تلك الكتب.


(١) انظر كتابنا: نساء في حياة الأنبياء - طبع دار الوفاء، ط ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م ص ٢٢٦.
وهذا ما نشير إليه عند ذكر الأنبياء، عن هذه الصفات التي لم يلبها غيرهم، وحقهم الصالحيون من عباد الله فالشهداء. فإن صورة الأنبياء في القرآن الكريم صورة الطهارة والإيمان والإسلام والإخلاص والتزام، والتحمل الغير محدود في سبيل الدعوة، وفي سبيل هدية الناس، وترافق ذكر هؤلاء كل المعاني السامية الرائعة التي ولدت في نفس المؤمنين وخاصة من المسلمين تلك الصورة المضيئة الصافية للأنبياء عليهم السلام من سمو ورفعة وبلاغة، وإعجاز ذكر هؤلاء الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

ومريم هنا ذُكرت في تسلسل بليغ من حملها إلى أن رفع ولدها إلى الله عز وجل، وحملها في بطن أمها أي وهي جنين في بطن أمها إلى أن حملت من روح الله ووضعت عيسى بشرًا نبأً عبد الله ورسولاً، ولكن في هذه الآية من سورة مرّم ذكرت مريم مرفوعًا واحدًا لها وهو أنها: «وَادْخُلْ إِلَى الْكِتَابِ مَرْيَمْ إِذِ اتَّبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيعًا» وارتبط ذكرها بالقرآن بعد ذلك، وفي جميع الآيات التالية التي تحكي قصتها عليها السلام «وَادْخُلْ إِلَى الْكِتَابِ مَرْيَمْ» وذكر في القرآن الكريم غير مرّم (إذّانت) حين اعتزلت. مكاناً شريعاً أي اعتزلت في مكان نحو الشرق من الدار.

أي وأذكر أيها الرسول الكريم للناس في هذه السورة (الكتاب) قصة مرّم البنت عمران من سلالة داوود، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، حين تنحت واعتزلت من أهلها وتباعدت عنهم إلى مكان شرقي في بيت المقدس، أو المسجد المقدس لتنقطع إلى العبادة. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: إنّي لأعلم خلق الله لأي شيء، اعتنمت النصارى المشرق قبلة، لقول الله تعالى: «إِذَا أَنْبَذَتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيعًا» وأخذوا ميلاد عيسى قبلة. .. إلخ. (1)

لقد ذكرت مرّم مجردة باسمها أو اسم أيها مرّم ابنة عمران إحدى عشرة مرة في القرآن أكثرها في سورتي آل عمران ومرّم. وذكرت مرّم مقرّنة بابنها عيسى عليه السلام مرّم ثلاثًا وعشرين مرة. وكل ما ذكرت به هو تفضيل وعفاف ورفعة وخدم ذكرها فقال تعالى: بعد أن ذكر الصفحات من النساء:

(1) التفسير النور 88/16
وَمَرَّتُمَا آتِيْتُمَا عَمْرَانٌ أَلْبَىَ أَحْصَنَتْ فِرْجُهَا فَقَضَتْهَا فِيهِ مِنْ رُوحٍ وَقَضَّتْهَا بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُلُّهَا، وَكَانَتْ مِنَ الْقَانُوُنِينَ ([التيار])، هِيَ مَرْيَمُ العَذْرَاءُ بَعْدًا عَنْ افْتَرَاءِ المَفْتَرِينَ، مَعْجَزَةُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، كَانَتْ تَأْتِيَهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، قَبْلَ أَن يَهْبِ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا غَلَامًا ذُكِيًا، وَكَانَتْ مَعْجَزَةُ بُعْلِهَا وَوَلَادَتِهَا وَكُلُّ خَطْوَةٍ فِي حَيَاتِهَا، وَقَدْ أَدْتَ أَمَانَتَهَا الَّتِي أُوْدِعَهَا اللَّهُ تَعَالَى خِيرًا أَدَاءً، فَكَانَتْ خَيرَ النَّسَاءِ، بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَصْدِيقِ نِبِيِّ اللَّهِ ﷺ مُحَمَّدٍ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ (۴).
(۱) نَسَاءُ فِي حَيَاةِ الأَلِبِياءِ، لِلْمُؤلِفِ ص١۴۶.
36- ذكر الصالحين

» وأذكر في الكتب إبراهيم إنه كان صدقياً نبياً (ع) [مرم].

هذه القصة الثالثة في سورة مريم بعد قضية زكريا ومجيى، وعيسى ومريم وهي قصة إبراهيم، ومن المعلوم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبأ والخ星级، والمنكرون للتوحيد اتخذوا معبداً سوى الله تعالى، وهؤلاء فريقان:

منهم من أثبت معبداً غير الله حياً عاقلاً فاحماً وهم النصارى ومنهم من أثبت معبداً غير الله جاداً ليس بحت ولا عاقل ولا فاحم وهم عبادة الأوثان، والفريقين وإن اشتركا في الضلالة، إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم، فلما بين الله تعالى ضلال الفريق الأول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عباد الأوثان.

وأوضح وصف إبراهيم في القرآن عظمة وسم الوّرقة هذا النبي ورسالته التي جاء بها، وذكر ذلك منفرقاً في مباحث كثيرة، وكلما ذكر كان تركيه ومدحاً: «إن إبراهيم كارب أمه» (النحل: 120) وغير ذلك من الأوصاف التي تليق بهذا النبي الذي يعتبر محق أنبياء الذين جاؤوا بعده. ولقد ذكر في القرآن ثمان وستين مرة مكرراً في أكثر السور، وكل ذكر كان جزءاً من حياته، وتبيان فضائله وعظمته ورسالته الخانفة المسلمة، والتي كانت أساساً لرسالة الإسلام الخميني، ولم ينج إبراهيم من افتراء المفتيين الذين ثبتوا الافتراء عليه في كتبهم المحرقة واتهموه بالكذب والراوغة وغيرها من الصفات التي لتيت بإنسان عدل عادي فكيف ترجؤوا على نبي هو أبو الأنبياء، وصاحب رسالة غرابة وحمل دعوته إلى جميع المنطقة المأهولة في ذلك الوقت من جنح الملل الخصيب - البصرة - إلى الجنح الآخر مكة.. ووصل إلى مصر مروراً بصحرا سيناء حيث ستنزل رسالة موسى عليه فيها.

(1) التفسير المنير 16/104.
37- ذكر الصالحين (3)

وَأَذُكُّرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُحْلِصًا وَكَانَ رَسُولاً تَنِيًَّا [مريم].

موسى عليه السلام أكثر الأنباء ذكرًا في القرآن الكريم، فقد ذكر مئات وتسعين مرة، وفي أكثر سور القرآن المائة والأربع عشرة، وهو من أولى العزم من الرسل. أنزلت عليه التوراة تشريعاً لبني إسرائيل الذين جهد حتى أخرجهم من ظلم فرعون وأيده الله تعالى. بآيات تسع، معجزات لفرعون وجتابه وسحره، وأن يكسب من حاشية فرعون سحرته الذين آمنوا برب موسى عليه السلام. ذكره الله في القرآن، وأمر النبي أن يذكره، وقد ذكره النبي في أحاديث كثيرة وياتي هنا:

وَأَذُكُّرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ.

والمناسبة: هذه هي القصة الرابعة لأخبار العرب وغيرهم من موسى عليه السلام، مثل إبراهيم عليه السلام، أخاوش الله تعالى من الشرك والرباء، وأسلم وجهه لله تعالى، وقبله أيضاً، أوخو هارون، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هارون عليه السلام أكبر من موسى عليه السلام، وإنما وهب الله له نبوته لا لشخصه وآخره، وإنما استجابه لدعائه. موسى في قوله: وَأَجْعَلْ لِئِزْرَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ هُرُونٌ أَخَٰىٰ هُرُونٌ أَخٰىٰ أَشْدَدُ بُهْرَىٰ أَرْزُىٰ [طه]، فجوابه الله تعالى: قَدْ أُوْيِيَ سُوْلَكَ يَنُمُوسَىٰ [طه].

وقوله: سَنَسْتَدْعَ عَضْدَكَ بَعْجِيْكَ [القصص].

ومعنى هذه الآية: وَأَذُكُّرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ لما ذكر الله تعالى إبراهيم الخليل، وأثنى عليه عطفًا بذكر موسى الكليم، فقال: وذكر يا محمد في الكتاب، وأتيل على قومك أوصاف موسى التي سأخبرك عنها وهي خمس صفات.

1- كان مُحْلِصًا أي جعلناه موفّراً مصطفى، وأخلصناه مظهراً من الأتام والذنوب، كما قال تعالى: إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى الْأَلَّاهِ يِسَأَلُونِي وَيَكُلُّونِي.

---

1) مخلصاً: موفّراً مصطفى مخلصاً من الدنس، ورئي بكر اللام: أي مخلصاً في عبادته من الشرك والرباء، موحدًا أسلم وجهه الله.

2- وكان رسول الله ﷺ جمع الله له بين الوصيّين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولى العزم الخمسة وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم صلوات الله تعال وسلم، أرسله الله إلى عباده دعاءاً ومبشراً ونذيراً فأنبأهم عن الله بشرائعه.

والرسول: هو من أُوْحِي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وكان معه كتاب فيه شريعته كموسى عليه السلام أنزل عليه كتاب مستقل أم كتاب من سبقه.

والنبي: هو من أُوْحِي إليه بشرع يُجَهَر به عن الله ويجهر به قومه، وليس معه كتاب كيوشع ﷺ.

3- وَنَتَبَتَّىْنَهُ مِن جَانِبٍ الْطُّورِ الْأَيْمَنُ (صريحة: 52): أي: كُلَمَنَا نَحْوِ جَانِبِ الطُّورِ عَن يَوْمِ مُوسِىٖ أو عن يَوْمِ الجِبَلِ نفسه حين جاء من مدين متجهة إلى مصر ف فهو كليم الله بعثه، وأصبح رسولًا، ووعادناء بعد إغراق آل فرعون، وأنزلنا عليه كتاب التوراة، والمناداة عن يَوْمِ مُوسِىٖ أصحت؛ فإن الجبال لا يين لها ولا شمل.

4- وَفَرِّنَتْهُ نَجَّاً (صريحة: 52): أي: أدْنِيَّنَا إِذْنَاء تَشْرِيط وِقُرْبِ منْزَلَة، حَتَّى كِلَمَنَا، أو حين مناجاتها لنا فقوله: نَجَّاً، من المناء في الخاطبة، أي: إنه أصبح في العالم الروحي قريب المنزلة من الله تعال.


(1) التفسير المنير 13/16 فما بعدها بتصرف.
28 - ذكر الصالحين

» أذكر في الكتاب إسماعيل ومانع الله ونام أيوب عليه السلام. (سمة)

وكان يأمر أهل الله بالصلاة والزكوة وكان عند نبيه مرضيًا» (مریم).

إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام نبي ابن نبي الجد الأبعد لسيدنا رسول الله ﷺ، ولد إسماعيل من أكادي جاء من أور من جنوب العراق وأم (أميرة أسيرة) من طبيعة في جنوب مصر ونشأ وتزوج وكبر في قبيلة عربية هي قبيلة جرهم. الأول من نطق بالعربية، وأول من روض الحصان، وكان يصيد الربوع وذكر في القرآن الكريم اثنتين عشرة مرة.

وهذه هي قصة الخامسة في سورة مرین، وهي قصة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وكان على شريعة أبيه في توحيد الله ومحاربة الوثنية وعبادته الأصنام، وإبراهيم كما عرفنا أبو العرب يبنيها ومضيرها.

قال الزمخشري: كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاة والعبادة، جعلهم قدوة لمن وراءهم، ولأنهم أول من سائر الناس.

أضواء على قصة إسماعيل النبی

رأى إبراهيم لله في مناه - رؤيا الأنباء حتى - أنه يدح ولده قربانًا لله تعالى: وكان ذلك الولد - على الأصح الراجل اليقين - إسماعيل - فعرض الأمر على ولده، فتقبل القضاء بالرضاء وقال: » يتأتى أفعلا ما تؤمر ستجردن إن شاء الله من الصبرين ؟ (الصافات 92) فلما بدأ بتحقيق الأمر وأهوى بالملدية إلى ذبح ولده ناداه الله بالكف، وأنه هذا العمل منه يكفي تصديقا للرؤيا، وأرى إبراهيم كشا قربا منه فذبحه فدية عن ولده، ولم تعين الآيات اسم ذلك الولد، ولكن سياق الآيات، وتبشير إبراهيم بإسحاق بعدها، يدل على أن النبي إسماعيل وذلك في الآيات من سورة الصافات (99-113)، وفيها: » فبشرته بعليمه في الأجوزين (الصافات) والضمير يعود إلى الصافات، ثم قال: » وتركتا عليه في الأجوزين (الصافات)"
الذببح، ثم قال: "وَخَذِّنَنَّهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًا مِنْ أَصْلَيْهِنَّ" (الصفات)، فالإثيان بالبشرية بإسحاق بعد ذكر قصة الذبائح صريح في أن إسحاق غير الغلام للأمور بذله، وعودة الضمير إلى الغلام الذبيح، وذكر اسم إسحاق معه صريحاً يقتضي التعبير بين الذبائح وإسحاق.

ورى اليهود أن إسحاق هو الذبائح ليفتخروا بأن أبائهم هو الذي جاد بنفسه في طاعة ربه، وهو في حال صغره.

والدليل على أن الذبائح هو إسماعيل من التوراة نفسها، أن الذبائح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد، والإقدام على ذبح الولد الوحيد هو الإسلام بعينه أي الطاعة والامثال، ولم يكن إسحاق وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام؛ لأن إسحاق ولد، وإسماعيل أربع عشرة سنة، كما هو صريح في التوراة. وبقى إسحاق على أن مات إبراهيم، وحضر إسماعيل وفاته ودفنه، وذبح إسحاق ينافض وعد الله لإبراهيم أن سيكون له ابن هو عقوق، ثم إن مسألة الذبائح وقعت في مكة، وإسماعيل هو الذي ذهب به أبوه إليها رضيعاً كما في حديث البخاري (1).

وعند الزخرفي في الكشاف الحديث: "أنا ابن الذبائحين" رواه الحاكم في المناقب.

ًّ (وَذَكَرْتُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَعِيْلَ) وذكر أنه ذبح في القرآن في صفات إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو والد عبد الحجاز كلهم وهي صفات أربع:

1. إنَّهُ كَانَ صَادِقًا ﴿الْوَعْدِ﴾ مشهوراً بالوفاء، مبالغًا بإنجاز ما وعد، فما وعد وعده مع الله أو مع الناس إلا وفى به: فكان لا يخالف شيئاً ما يأمر به من طاعة ربه، وإذا وعد الناس بشيء أعجز عنه، وناهيك من صدق وعده أنه وعد أباه أن يصير على الذبائح، فوفي بذلك، قائلًا: "ستجذبني إن شاء الله من الصبنيين" (الصفات).

(1) قصص القرآن: عبد الوهاب النجار ص 101 - 103.
صدق الوعد من الصفات الحميدة في كل زمان ومكان، وخلفه من الصفات الذمنية، قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لم تقولوا ما لا تفعلون" كتب [الصف]

مفسكو: "أن تقولوا ما لا تفعلون" [الصف]

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان والترمذي، والنسائي عن أبي هريرة: "أي المنافقين ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اعترض خان" وإذا كانت هذه وصفات المنافقين فضدي صفات المؤمنين، وما يؤمن له أن خلف الوعد شائع بين المسلمين، وبخاصة التجار والعمال وأصحاب الحرف.

2- وكان رسول الله ﷺ جمع الله له بين الوصفين كلهما، وكموسى ﷺ فكان رسول الله ﷺ جبرهم إلى جرهم في مكة لتبلغهم شريعة إبراهيم، وإخبارهم بما أنزل الله تعالى. وهذا دليل على أنه لا يشترط إنشال كتاب مستقل على الرسول، وفي هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق، لأنه إذا وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبي والرسالة، وأخرج الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله أصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل".


(1) راجع كتابنا: وأنذر عشيرتك الأقربيين.
4- وكان يأمر أهله بالصلاة والركاية وكان عند ربي مرضيًا (4) أي رضياً زاكياً صالحاً، رضي العمل غير مقصر في طاعة ربه فعلى المؤمنين الاقتداء به (1).

(1) التفسير المنير 116/116 بصرف.
29- ذكر الصالحين (5)

وأذكر في الكتاب إديرس إنه كان صديقاً ثقيلاً ورغمته مكاناً عاليًا.

(مريم).

(إديرس) هو سبط شيث، وجد أبي نوح، واسم (أختى) لقب إديرس لكثره درسه؛ إذ روى أن الله تعالى أنزل عليه ثلاثين صحبة، وأنه أول من خط بالقرآن، وخاطب النباب وليس المختير، وكانوا قبله يلبسون الجلود، وأول من نظر في علم النجوم والحساب، وأول من اتخذ الموازين والكانيات والأسلحة قاتل بن قابل، وأول مسجت بعد آدم.

هذه قصة إديرس وهي السادسة من سورة مريم، ذكرت للعبرة لأنه دعا إلى دين الله والتوحيد وعبادة النافع، وتخلص النفس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا، وحفظ على الزهد في الدنيا، والعمل بالعدل، وأمر بالصلاة والصيام أيامًا من كل شهر، وحفظ على جهاد الأعداء، وأمر بالزكاة معونة للضعفاء، وغلهظ في الظهارة من الجناية والكلب والحمار، وحرم المسكر من كل شيء. وهو أول بني آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيء على السلام، فهو من ذرية آدم لقربه منه، لأنه جد أبي نوح، وإبراهيم من ذرية من حمل مع نوح، لأنه من ولد سام بن نوح. وجاء في حديث مسلم حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر به في السماء الرابعة، وهذا هو الصحيح، وأما ما ذكر في البخاري من أنه في السماء الثانية فهو وهم.

ولد يمنف في مصر، وسموه (هرمز الهرامسة) وقيل: ولد بابل، وأخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جد جد أبيه، وأقام بصر يدعو الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الله عز وجل. وكان علمهم كيفية تخطيط المدن.

أقام في الأرضين وثمانين سنة، وكان على فص خرجه: إن الصبر مع الإمام بالله يورث الظفر، وعلى المنطقة التي يلبسه: الأعياد في حفظ الفروع، والشريعة من تمام الدين، وقام الدين من كمال المروة وعلى المنطقة التي يلبسها
وقت الصلاة على الموت: «السعيد من نظر لنفسه، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة» وكانت له مواضع وأداب. ذكر في القرآن الكريم مرتين فقط.
وصف الله إدريس الذي أول من خط بالقلم، وخاط الثياب، وليس المخيط
صفات ثلاث هي:

1 - إنه كان صديقاً، أو كثير الصدق، قوي التصديق بأيات الله تعالى.
2 - وكان رسولًا نبياً، أي موحى إليه بشرع مأمورًا بتبلغه إلى قومه وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر.
3 - ورفعه الله مكانًا عاليًا، أي على قدره وشرفه بالنبوة، وجعله ذا منزلة عالية.

كما قال الله تعالى لبنيه: { وَرَفَعَنَا لَكَ ذِكْرَكَ } [الشرح].
وروى مسلم في صحيحه: أن رسول الله ﷺ مرّ به ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة، وجرت العادة ألا يرفع إلى السماء إلا من كان عظيم القدر وال منزلة.
والأولى في رأي الرازي أن المراد بالصفة الثالثة الرفعة في المكان إلى موضع عال، لأن الرفع المرتونة بالمكان تكون رفعة في المكان، لا في الدرجة والظاهر في ذلك أن المراد الرفعة في الدرجة، إذ لا فرق في التعبير بين المكان والمكانة، فيقال: فلان ذو مكان عال عند السلطان.

وسبب رفع مكانته أنه كان كثير العبادة، يصوم النهار، ويتعبد في الليل. قال:
وهو بن مته: كان يرفع لإدريس كاليوم من العبادة مثلما يرفع لأهل الأرض في زمانه، وأصحاب هذه الخصال هم قدوة يقتدي بها المؤمن، ويتحلى بها المخلص، وقد بدأ الله نبيه بالأمر بها والخطاب معه؛ لأنه قدوة أمته والمثل الأعلى للمؤمنين على الدوام مشيراً لذلك في الآية التالية (1):

وبعد أن ذكر الله تعالى - قصص هؤلاء الأنبياء ختم أخبارهم، وقد فصل من جملة الأنبياء فقال:

{ أوَلِيْكَ الَّذِينَ آمَنُوا أَلْقِ الْأَمْوَالَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ مِنْ ذِرْيَتِكُمْ وَمَمَاتُوْهَا مَعَ نَهْجِهِمْ أَيُّضَاعًا إِبْرَاهِيمُ وَإِسْرَئِيْلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَأَجْبَتْنِيَ إِذَا نَذَّلْتَ عَلَيْهِمْ نُزُولًا } [مريم].

(1) التفسير المثير 123/16 فما بعدها بصرف.
цииального» [الثناء 44]، وقيل في ذكركم، أي: ذكر أثر دينكم، وأحكام شرئكم، وما تصرعون إليه من ثواب أو عقاب.
وقيل: في حديثكم، قاله مجاهد. وقيل: مكارم أخفافكم ومحاسن أعمالكم.
وقيل: في العمل بما فيه حياتكم، قاله سهل بن عبد الله.
وقيل: فيه موعظتهم.
والاستفهام في: [أَفَلَا تَعْقِلُونَ] للتوبيخ والتقريع، أي: أَفَلَا تَعْقِلُونَ أن الأمر كذلك، أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما ذكر.
ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الأمم المشتبة بقوله: تعال: [وَكَمْ قَضَمَنَا] من قرينة كانت طالمة وأنشأنا بعدها قوماً أخرين [الثناء 1].
ثم إن القرآن الكريم سبب لرفع شأن العرب، لأنه نزل بلغتهم، وفيه أحكام الشرع، وببيان مصر الناس في الآخرة، وما يلقونه من ثواب وعقاب.
وهو أيضًا عذبة وعبرة برغب وبشير، ويجذب وينفر، ويأمر وينهى، ويرشد إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويوضح ما فيه سعادة الدارين، ويرشده

(1) فتح القدر 17/724.
البشرية كافة إلى اتباع النظام الأصلح، ويحم القرآن الكريم - دائماً - على تدبر ما جاء به من أحكام، وتفهم ما تضمنه من نظام سديد في الدين والدنيا والآخرة(1).
٤١ - يَلَّكُمُ الْكِتَابُ أَلْقِيَتْ أَلْقِيَتُ الْكِتَابِ الْمُهْدَىْ لَعَلَّكُمْ بِنِعْمَتِكُمْ نَفَسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنَّ ذَٰلِكَ نِعْمَةٌ عَلَيْهِمْ مِنِّ الْأَرْضِ وَالْآيَةِ فَظَلَّتْ أُنْقِيَتْهُمْ مَا خَلَفَهُمْ وَمَا بَيِّنَهُمْ مِنْ ذَكْرِهِ مِنْ أَرْضَهُمْ مَعْذَرٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرَضٌ (٤) [الشعراء].

٤٢ - تَلَّكُمُ الْقُرْءَانُ وَصِيَّتُ مُوسَىٰ هَدًىٰ وَبِشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥) [النسم].

٤٣ - يَلَّكُمُ الْكِتَابُ أَلْقِيَتْ أَلْقِيَتُ الْكِتَابِ الْمُهْدَىْ نَتُلَّوْا عَلَيْكُمْ مِنْ بَنِي مُوسَىْ وَفِي مَعْرَضٍ يُؤْمِنُونَ (٦) [القصص].

تلك سور ثلاث من أوسط سور القرآن الكريم، وجاءت كلها في الثلاث الثاني من القرآن الكريم من الجزء السابع عشر، اشتركت هذه السور بالأحرف النورانية المختلفة عن كل الأحرف التي وردت أو سلحت، اشتركت سورة ( الشعراء والقصص ) بنفس الأحرف ( ط س م )، وفضل بينهما سورة النمل بـ ( ط س ) فقط، كما أن السورتين اللتين اشتركتا بـ ( ط س م ) اشتركتا أيضاً بالآية الثانية وهي قوله تعالى: "َلَّكُمُ الْكِتَابُ أَلْقِيَتْ أَلْقِيَتُ الْكِتَابِ الْمُهْدَىْ" (٧) كما أن الأحرف النورانية اعتبرت آية في كلتا السورتين، أما سورة النمل فقد اعتبرت ( ط س ) جزءاً من آية وذكر الله تعالى بعد ذلك القرآن إضافة إلى الكتاب في هذه الآية بقوله تعالى:

٤٣ - تَلَّكُمُ الْقُرْءَانُ وَصِيَّتُ مُوسَىٰ (٨) [القصص].

الابتداء محرف (ط) شاركت هذه السور بأبداثها سورة طه، أما سورة النمل فقد استبدل الطاء بـ (ي) في سورة (يس)، والمليم في سورة القصص، وشاركنا أربع سور بـ (الم) وهي ( البقرة ، آل عمران ، ولقمان والConvertible )، وجاءت كل سورتين متاليتين ، وجاء ذكر كتاب الله بعد كل هذه الأحرف - عدا سور مريم ( ك هـ ي ع ص ) والروم (الم) والعنكبوت (الم) ، حيث ابتدأت السور الثلاث بالأحرف النورانية، ولم يذكر كتاب الله تعالى بعد أي سورة بأحد أسمائه ( القرآن ، الكتاب ، القرآن ) أو بإحدى صفات الكثيرة.
كيفية كتاب الله في كتاب الله

هذا الترتيب المتناسق المتوازن في هذه السور إنها هو ترتيب عجيب جاء به القرآن الكريم ليؤكد إعجازه في كل سورة من سوره بل في كل آية من آياته وسورة معجزات وآيات بنيات محكمات لا يأتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومهما قدم المفسرون من توضيحات لهذه الأحرف فإنها معجزة من معجزات هذا القرآن فنحن الآن لم نقف على توضيح أو تفسير لورود هذه الأحرف المتفرقة والتي تشكل في كل المصحف آية أو جزءا من آية إنها في علم الله وهو علم الغيوب.

437
41 - الكتاب المبين

٤١ ﴿اصْطَعِ النَّاسُ عَلَى‌ۡ نَّفْسَكَ إِنَّذَا نُزِّلَ عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاوَاتِ مَا نَفَقَّدَتْ أَعْنَاقُهُمْ هَٰذَا خَنْضُعُوا وَمَا يَأْتِي مِنْ ذَكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانَ عَنْهُ مُعْرَضِيْنَ﴾ ۡمَّ (الشعراء).

فَطَسَّ تَلَّكَ ءَايَةُ الْقُرْءَانِ وَصِيَّةَ مَيْنَ (ۡمَى ۡوَاءٍ ۡسِينَ جِيمٍ) ﴿الْأَحْرَفِ﴾ (طا سين ميم) الأحرف المقطعة للتبنيه إلى أن آيات الكتاب المبين - ومنها هذه السورة مؤلفة من مثل هذه الأحرف، وهي في متناول المكذبين بالوحى، وهم لا يستطيعون أن يصوغوا منها مثل هذا الكتاب المبين، والحديث عن هذا الكتاب متداول في السورة وفي مقدمتها ونهايتها، كما هو الشأن في السور المبدوة بالأحرف المقطعة في القرآن.

وبعد هذا التبنية يبدأ في خاطبة رسول الله ﷺ الذي يهمه أمر المشركين ويوذيه تكذيبهم له ولقرآن الكريم، فليس له، ويهون عليه الأمر. ويستنكر ما يعانيه من أجلهم، ولقد كان الله قدرأ على أن يلوي أعناقهم كرها إلى الإيمان، بأية قاهرة تكسرهم عليه قسراً.

﴿لَعَلَّكَ بَنَجِعْ نَفْسَكَ إِلّا يُكْونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (ۡلَعَلَّكَ بَنَجِعْ نَفْسَكَ إِلّا يُكْونُوا مُؤْمِنِينَ) في التعبير ما يشبه العتاب له على شدة ضيقه وهو بعدم إيمانهم ﴿لَعَلَّكَ بَنَجِعْ نَفْسَكَ إِلّا يُكْونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ويجع النفس: قتلها، وهذا يصور مدى ما كان رسول الله ﷺ يعاني من تكذيبهم، وهو ي혹ن ما يتذكرهم بعد التكذيب، فتدوب نفسه عليهم - وهم أهله وعشيرته وقومه - ويضيق صدره، فربه يرأف به، ويتنهيه على هذا الهم القاتل، ويهون عليه الأمر، ويقول له: إن إيمانهم ليس مما كلفت ؛ ولو شتانا أن نكرههم عليه لأكرهناهم، ولأنزنا من السماء آية قاهرة لا يمكنهم معها جدالاً، ولا انصرافاً عن الإيمان.
ويصور خضوعهم لهذه الآية في صورة حسية: "فظلت أعينهم حُنضُتين"، ملؤهم، محتويه، حتى كأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم، فهم عليها مقيمون! ولكنه - سبحانه - لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة، لقد جعل آيتها القرآن منهج حياة كاملة معجزًا في كل ناحية. ومعجزًا في بنائه التعبيري، وتنسيقته الفني، باستقامته على خصائص واحدة، في مستوى واحد، ليلتفت ولا يتفاوت، ولا تتلف خصائصه، كما هي الحال في أعمال البشر، إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف في عمل الفرد الواحد، المتغير الحالات، بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيري على نفس واحد، ومستوى واحد، فهو ثابت لا يختلف، بل على مصيره الذي لا يختلف عليه الأحوال.

معجزًا في بنائه الفكري، وتنسيق أجزائه وتكاملها، فلا فلطة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تنقلي وتناسق وتكامل، وتحيط بالحياة البشرية وتستوعبها، وتبليها وتدفعها دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك النهج الشامل الضخم مع جزئية أخرى، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقتصر عن تلبيتها، وكلها مشدودة إلى محور واحد، وإلى عروة واحدة في انساق لا يمكن أن تقفنا إليه خبرة الإنسان المنحدرة، ولا بد أن تكون هناك خبرة مطلقة غير مقيدة بقيود الزمان والمكان، وهي التي أحاطت به هذه الإحاطة، ونظمته هذا التنظيم.

معجزًا في يسر مداه إلى القلوب والنفس، ولس مفاتيحها، وفتح مغاليقها واستجابة مواقف التأثر والاستجابة فيها، وعلاجات علقها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين، وفي ترتيبها وتصريفها وفق منهجه بأيام اللمسات، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة.

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة - ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادحة تلوي الأعناق وتضعها وتضطربها إلى التسليم - ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها وللأجيال كلها، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقرب. لكل أمة وكل جيل. والحوار القاهرة لا تلوي إلا أعناق من
يشاهدونها، ثم بعد ذلك تبقى قصة تروى، لا واقعاً يشهد.

فأما القرآن فها هو ذو بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً، كتاب مفتوح، ومنهج مرسوم، يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم - لو هدو إلى اتخاذ إماماً - ويلبي حاجاتهم كاملة، يقودهم بعدها إلى عالم أفضل، واقع أعلى، ومصير أفضل وسيجد فيه من بعدها كثيراً ما لم نجده خن، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ويبقى رصيده لا ينفد، بل يتجدد، ولكن لم يكونوا يفطنون إلى هذه الحكمة الكبرى فكانوا يعرضون عما ينزل عليهم من هذا القرآن العظيم حيناً بعد حين(1).

(1) في ظلال القرآن 5، 2584.
42 - آيات الكتاب المبين

قال: {هذين آياتاً من الكتاب المبينين نتلوا عليك من نبى موسى وفرعون بالحق لقوم يوم القيوم}

كما وردنا في سورة الشعراء، وتم الحديث المستفيض عن خاتم الآيتين المعينين من كتابنا هذا، والمراد التبٰيّن والتوجيه، وذكر صفات كتاب الله تعالى وفضائله وعظمته، والذي أوردها الله تعالى بخلاف بين سورة سورة، خاصة فيما ورد من هذه الآيات بعد الأحرف النورية وذكر كتاب الله بأسمائه وصفاته، ثم الانتقال إلى مواضيع مختلفة من مواضيع القرآن الكريم.

(طاء س م) {هذين آياتاً من الكتاب المبينين} تبدأ السورة بهذه الأحرف للتبٰيّن إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين، البعيدة الرتبة، المتبادلة المدى بالقياس لما يتالف عادة من هذه الأحرف في لغة البشر الفاني.

{هذين آياتاً من الكتاب المبينين} فهذا الكتاب المبين ليس إذن من عمل البشر وهم لا يستطيعونه، وإنما هو الوحي الذي ينزله الله على عبده، ويبدو فيه إعجاز صنعته، كما يبدو فيه طابع الحق المميز لهذه الصفة في الكبير والصغير.

{نلتوا عليك من نبى موسى وفرعون بالحق لقوم يوم القيوم}.

فإلي القوم المؤمنين يوجه هذا الكتاب، يريهم به ويشمهم ويرسم لهم النهائ، ويشق لهم الطريق، وهذا القصص المتلّو في السورة، مقصود به أولئك المؤمنين، وهم به يتفنون.

وهذه التلاوة المباشرة من الله، تلقي ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين، وتشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة، وكيف ؟ والله ذه ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم، وهم؛ بصفتهم هذه التي تؤهلهم لتلك
العناية الكارية: "لقومٍ يَوْمِئُونَبَّ (۱۳) .

وبعد هذا الافتتاح يبدأ في عرض نباً لموسى وفرعون، يبدأ في عرضه منذ أول حلقة في القصة - حلقة ميلاده - ولا بدّ أنه هذا البدء في آية سورة أخرى من السور الكثيرة التي وردت فيها، ذلك أن الحلقة الأولى من قصة موسى والظروف القاسية التي ولد فيها. وتجرده في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة، وضعف قومه واستدلّاه في يد فرعون، ذلك كله هو الذي يؤدي هدف السورة الرئيسي، ويبزر يد القدر ساّفة متحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر، وتضرب الظلم والطغيان والبغي ضربة مباشرة عندما يعجز عن ضربها البشر، وتنصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة، ومن المعنيين الذين لا حيلة لهم ولا وقية، وهو المعنى الذي كانت القلّة المسلمة المستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره وتبثه، وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى معرفته واستيفائه.

ولقد كانت قصة موسى (۱۳) - تبدأ غالباً في السور الأخرى من حلقة الرسالة - لا من حلقة الميلاد - حيث يقف الإمام القوي في وجه الطغيان الباغي، ثم ينتصر الإمام وينذل الطغيان في النهاية، فأنا هذا ليس هذا المعنى هو المصدد؛ إذاّ المصدد أن الشر حين يتحمض يجعل سبب هلاكه في ذاته، والبغي حين يتمدد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر، بل تندهل يد القدرة وتأخذ المستضعفين المتداع علىهم فتناذهم وتستند عناصر الخير فيهم، وتربّيهم، وتجعلهم أثمة، وتجعلهم الوارين.

فهذا هو الغرض من سوق القصة في هذه السورة؛ ومن ثم عرضت من الحلقة التي تؤدي هذا الغرض، وتبرزه، والقصة في القرآن تضع في طريقة عرضها للغرض المراد من هذا العرض، فهي أداة تربية للنفس، ووسيلة تقرير لمعان و الحقائق، ومبادئ، وهي تتناسق في هذا السياق الذي تعرض فيه، وتعارف في بناء القلوب وبناء الحقائق التي تعمّ هذه القلوب.

والحلقات المعروضة في القصة هنا هي: حلقة مولد موسى (۱۳) وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها، وما صاحبه من رعاية الله وعنايةه، وحالتة فتوته وما آتناه الله من الحكم والعلم وما وقع فيها من قتل القبطي، وتأمر فرسون وملئه
صفة كتاب الله في كتاب الله عليه، وهربه من مصر إلى أرض مدين، وزواجه فيها، وقضاء سنوات الخدمة فيها، وحلقة البناء والتكليف بالرسالة، ثم مواجهة فرعون وملته وتكذيبهم لموسى وهارون والعاقبة الأخيرة - الغرق - مختصرة سريعة (1).

(1) في ظلال القرآن 5/2675.
43- آتِلِ ما أُوحِي إِلَيْكَ مِنَ الْكُتْبِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَحْيَى عَرْشٍ
الْفَحْشَاءَ وَالْمُنْكَرَ وَذَلِكَ اللَّهُ أُحْكَامُهُ وَلَمْ يُأْتِيَ عَلَيْهِ بَشَرٌ مِّنَ الْأُوْلِيْاءِ
[العنكبوت].

سُورَةَ العِنْكَبُوتِ إِيَّدَى سُورَةَ الْكَوْرَةِ ثُلَاثَةَ سُورَةَ في الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ابْتَدَتْ بِالْأَحْرَفِ النَّورَانِيَّةِ
المقطعةِ ولم يَلْحَقَ بِهَا اسْمُ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ صَفَةٌ مِّنْ صُفَاتِ هَذِهِ الْكِتَابِ، وَقِبْلَهَا
مَرْيَمٍ، وَبَعْدًا الْرُّومُ، وَلَمْ يَجِنَّ أَنْ يَعْمَدَ ذَكَرَ كِتَابِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

لَمْ يَأْتِ مَا أُوحِي إِلَيْكَ مِنَ الْكُتْبِ، أَيَّ: أُقَرِّرُ بِيُوحَيْ، وَمِثْلُ كُلِّ مُسْلِمٍ
وَأَدْمَغُ اللَّيْلَةَ، تَلَاوَةَ هَذَا الْقُرْآنِ وَتَبْليغُهُ لِلْمُتَعَلَّمِينَ، فِي إِمَامِ وَثْرَ، وَهَذِئُ وَرْحَةِ
وَدِلِيلُ خِيرٍ وَنُجُوحٍ، وَعَلاَجٌ ما أَسْتَعْمِزُ مِنْ الأَزْمَاتِ وَالْقَصَمِ، وَخِطْبَةِ مَراَحِلِ الْأَيَّاسِ
والْقَنْوَتِ، وَهَذَا أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِرِسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِتَلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ بِقَرَاءَتِهِ
وَإِبْلَاغِهِ لِلْمُتَعَلَّمِينَ لِلْمُعْرِفَةِ الْمَكْتُوبَةِ مِنْ الحَكَمِ الْكَبَّرِيَّةِ، وَوُجُودِهِ
وَقُدْرَتِهِ وَحُكْمَهُ. 

كَذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الصَّلاةِ، قُرْءَةٌ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقِالَ: أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ
الْصَّلَاةَ تَحْيَا عَرْشٍ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ أَيَّ: أَقِمِ الْكُتْبِ، وَكُلُّ مُؤْمِنٍ فَرِيضَةٌ
الْصَّلَاةِ، نَافَعُهَا تَأْمُّةُ الأَرْكَانِ وَالْشُرُوطِ، مِنْ الخَشْوَةِ وَالْخَضْوَةِ وَالْحُكْمِ، وَالصَّلَاةِ، وَالْلَّهِ
مُعَضَدَةُ الرَّفَعِينَ، وَهُوَ عَمَّامُ الْمَلَائِكَةِ، وَسُبْحَانُ الْإِلَهِ الْبَارِيِّ، وَدِلِيلُ الْإِيمَانِ وَالْعَلِيمِ
وَفَرْجَةُ الْمُلْكِ وَالْأَحْزَاءِ، وَسُبْحَانُ الْإِلَهِ الْبَارِيِّ، وَسُبْحَانُ الْإِلَهِ الْبَارِيِّ
فِي الْحُدْيَّةِ الْأُخْرَى، أَخْرِجِهِ الْمَيْتِي وَغَيْرِهِ مِنْ رُوَيَةِ عُمَرَ، وَأَبِ عِبَادٍ مُرْفَعَاءٍ;
«مِنْ لَمْ تَنْهِهِ صَلَاتِهِ عَنِ الْفُحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ تَزَدَهِ مِنَ اللَّهِ إِلَّاً بَعْدًا». 

وَرَوَى أَحْمَدُ وَالْإِنْسَيِّ وَالْحَاَكِمُ وَالْبَيِّنِيُّ عَنْ أَسِيَّةٍ أَنَّ النَّيَّ، فَقَالَ: حِبْبٌ
إِلَى مِنْ دُنْيَاكَ اللَّهُ، وَالْطِيْبُ، وَجَعَلَتْ قُرْءَةَ عِنْيَةً فِي الصَّلاةِ.
وَكَانَ ذَلِكْ مِشْرَوْطًا بَاِدِئًا بِخَشْوَةِ وَخَضْوَةِ وَاِخْلَاصِ كَمَا ذَكَرَ، حَتَّى تَكُونَ
ذات مدلول وروح، وذات إشعاع يلأ النفس استحضاراً لعظمتنة الله والخوف منه،
ولاً كانت مجرد حركات وأفعال مادية فاقدة لأثر المستوجب منها، ثم أكد أن
صلاة أكبر من سائر الطاعات، وذكر الله وتفقه الناس العابدين برجمه أكبر من
ذكرهم إياهم بطاعته، والله عليم بما تصنعون من خير أو شر، وعليم بذات
الصدور.

فعلى المسلم مواطبة التلاوة لآي القرآن الكريم، وتتبع أحكامها المستفادها منها
فإن القرآن كتاب هداية ودستور حياة فاضلة.

وعلى المسلم المؤمن استدامه إقامة الصلاة: وهي أدوها في وقتها بقراءتها
وركوبها وسجودها، وقعودها وتشهدا، وجمع شروطها.

إن الصلاوات الخمس لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة عن
الفواحش والمنكرات، وتكفر ما بها من الذنوب إذا أديت بحقها، وكانت مع
استحضار عظمته الله وباسمه. أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي
قال: "أرأيتم لو أن نهراً باباً أحبدهم يغسل فيه كل يوم خمس مرات. هل يبقى
من دارته شيء؟" قالتوا: لا يبقى من دارته شيء. قال: "فذلك مثل الصلاوات
الخمس، يحو الله بهن الخطايا" وروى أسن بن مالك قال: كان فيتي من الأنصار
يصلي مع النبي، ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركبه. فذكر ذلك
لذي قال: "إن الصلاة ستنهاء" فما لبث أن تاب وصلحت حاله، فقال
رسول الله: "لم أقل لكم!؟!

ويؤكد الحديث المتقدم الذي رواه الطبراني وغيره: "من لم تنهي صلاته عن
الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً، ولم يزدده من الله إلا مقناً
".

قال أبو العالية في قوله تعالى: "إِنَّ الصِّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَخْشَاةِ وَالْمُنْكَرِ":
إن الصلاة فيها ثلاث خصال فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال
فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله فالأخلاص يأمره بالمعروف،
والخشية تنهاء عن المنكر، وذكر الله: القرآن يأمره وينهيه.

دَل قوله تعالى: "وَلَذَٰلِكَ أَصْحَبُرَ" على أن الصلاة -أكبر من سائر الطاعات
وأفضل من كل العبادات وأن ذكر الله لعباده بالثواب والثناء عليهم، ورحمة إياهم أكبر من ذكرهم له في عبادتهم وصلاحاتهم، وكذلك تلاوة القرآن وإقامة الصلاة تنفيذ أن يكون الإتيان بها على أبلغ وجوه التعظيم. روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في قوله ﴿وَلَذَٰلِكَ أُسْتَغْفِرُكَ اِلَّهُ إِيَّاكمُ﴾ (أَذْكُرُواٰ اِلَّهَ إِيَّاكمُ) أكبر من ذكركم إياكم.

وفي حديث آخر: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في مالاً ذكرته في مالاً خير منه» (١).

ذكر النافع: هو الذكر الذي يكون مع العلم وإقبال القلب، وتفرغه إلا من الله، وأما ما لا يتجاوز اليسان فله رتبة أخرى.

ودُرِجَ لِلْعَبْدِ: هو إفادة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العباد عليه، قال الله ﷺ: ﴿فَآذَّرُوهُنَّ أَذْكُرُوكَمُ» [البقرة:٨٢].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَضْعَفُونَ﴾ نوع من الوعد والوعيد وحث على مراقبة الله – تعالى – في السر والعلن (٢).

(١) روى الطبري عن معاذ عن أنس حديثاً بلفظ: ﴿لا يذكرني عبدٍ في نفسه إلا ذكرته في مالاً من ملائكتي ولا يذكرني في مالاً إلا ذكرته في الملال الأعلى﴾.

(٢) التفسير الميسر ٢٠/٤٨٨ فما بعدها بتصرف.
44- آيات الكتاب الحكيم

في القرآن الكريم، يُهدي وَرَحْمَةٌ لِلمُحِييْنِ، الذين يُقيمون الصلاة وَيَوْمَونَ الزَّكَاة وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يَوقِنُونَ، أولئك على هَذَا هَمْ رُيَّهم وَأُولِيَاهُم هُمُ الْمُفْلِحُونَ {2}

ثم تزيل الكتاب لا يَزِبُ فيه من رَبِّ العلَّمِينَ أَمْ يُقُولُونَ أَقْرِنْهُ بَل هُوَ الْحَقِّ مِن رَبِّك لَتَنْبِذُ قُوَّمًا مَا أَتَهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبِيلٍ لَّهُم يَهْتَدُونَ {3}

[السجدة]

(أَ لَّمْ) أَسْتَدَّ أَحَدَ اللَّهِ - تعالى - بِهَا الْقُرْآنِ بَعْدَ الفَاتِحَةَ وَابْتَدَأَ بِهَا اللهُ - تعالى - في أول سورة البقرة، وذكرها الله - تعالى - في مطلع سورة آل عمران. وهاتهان السورتان أطلَّت سور القرآن الكريم وجاءت من متابتين {2}، وجاء ذكر كتاب الله تعالى بعد {أَ لَّمْ} ومع الجدل الطويل والأراء المختلفة لتفسير هذه الأحرف وأشباهها، لكن جميع القائلين، ما زالوا عاجزين عن فك أغزاء هذه الأحرف المقطعة.

ثم وردت {أَ لَّمْ} في بداية أربع سور متتالية في نهاية الثلاث الثاني من القرآن في الجزء العشرين وبداية الثلاث الثالث من أقسام القرآن الكريم. في أربع سور متتاليات، لكنها اختلفت عن بعضها ففي سورتي العنكبوت والروم ابتدأت ب {أَ لَّمْ} ولم يذكر بعدهن كتاب الله تعالى، حتى ولا إشارة له، وابتدأت ب {أَ لَّمْ} سورتا لقمان والسجدة، وجاءت مباشرة في ترتيب كتاب الله بعد العنكبوت والروم، وجاء ذكر كتاب الله تعالى بعدها، ثم آيات مرتبطة أيضًا بكتاب الله تعالى وتوجيهات تتعلق بالقرآن الكريم.

(أَ لَّمْ) وردت في السور الست آية متصلة، ولم ترد جزءًا من آية. ويفيد التذكير بأن الأحرف النورانية التي كثر الحديث حولها استخدم فقط فيها أربعة عشر حرفًا من الأبجدية العربية المؤلفة من ثمانية وعشرين حرفًا وفواح السور التي
وردت فيها (آ. ل. م): 1- "للَّهُ ذَلِكَ الْكِتَابَ لَا رِيبَ فِيهِ هَدِيّ لِلْمُتَّقِينَ. اللَّهُ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاِنْزَلْنَاهُمُ الْكِتَابَ عَلَى هَٰذِهِ مَنْ رَبِّهِ وَأُولَٰيَةِ الْكَفَّارَةِ. آمِنُوْنَ [البقرة]."

2- "للَّهُ أَنَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقُوَّمُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ وَالَّذِي مَنْ قَتَلَهُ هَٰذَا لِلْكَافِرِينَ وَأَنْزَلَ الْفِرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا رَفَعَتْ اللَّهُ عَذَابَهُ وَلَعَلَّهُ عَظِيمٌ. [المائدة]."

3- "للَّهُ أَحْسِبَ الْأَوَّلَادَ أَنْ يُزَكََّرُوا أَنْ يُقُولُوا عَامَّةً وَهُمْ لَا يَعْتِنُونَ [العنكبوت]."

4- "للَّهُ غُلِبَ الْأَرْضَ وَهُمْ مَرَّ بَعْدَ عَلَيْهَا سَيْلَيْلَتَينَ فِي بُعْضِ الْسَّيَامِ. اللَّهُ أَمَّرَ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَ يُجْرَاهُ [الروم]."
الكتاب الحكيم

"الله يُرَّمَحَّى لِلْمُخْتَسَرِينِ" (الله يُرَّمَحَّى لِلْمُخْتَسَرِينِ)

"يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بَالآخِرَةِ هُمْ يُوقَفُونَ" (يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بَالآخِرَةِ هُمْ يُوقَفُونَ)

الآيات (الثمانَى).

الافتتاح بالأحرف المقتصدة (ألف. لام. ميم). وإلخ.

"يَلْيَنَّ يَلْيَنَّ الَّذِينَ كَانُوا كُفَّارًا عَلَى هَدَايَتِ الْهَيْئَةِ الْأُولَى وَاِلْآخِرَةِ ۖ هُمْ مُّفْلِحُونَ" (يَلْيَنَّ يَلْيَنَّ الَّذِينَ كَانُوا كُفَّارًا عَلَى هَدَايَتِ الْهَيْئَةِ الْأُولَى وَاِلْآخِرَةِ ۖ هُمْ مُّفْلِحُونَ)

الآيات (الثمانَى).

"وَلاَ تَرْجِهِمْ وَأَوْلَاهُمْ هُمْ مُّفْلِحُونَ" (وَلاَ تَرْجِهِمْ وَأَوْلَاهُمْ هُمْ مُّفْلِحُونَ)

الآيات (الثمانَى).

 소개 كتاب الله في كتاب الله

"الله يُرَّمَحَّى لِلْمُخْتَسَرِينِ" (الله يُرَّمَحَّى لِلْمُخْتَسَرِينِ)

"وَلاَ تَرْجِهِمْ وَأَوْلَاهُمْ هُمْ مُّفْلِحُونَ" (وَلاَ تَرْجِهِمْ وَأَوْلَاهُمْ هُمْ مُّفْلِحُونَ)

الآيات (الثمانَى).

 소개 كتاب الله في كتاب الله

"الله يُرَّمَحَّى لِلْمُخْتَسَرِينِ" (الله يُرَّمَحَّى لِلْمُخْتَسَرِينِ)

"وَلاَ تَرْجِهِمْ وَأَوْلَاهُمْ هُمْ مُّفْلِحُونَ" (وَلاَ تَرْجِهِمْ وَأَوْلَاهُمْ هُمْ مُّفْلِحُونَ)

الآيات (الثمانَى).

 소개 كتاب الله في كتاب الله

"الله يُرَّمَحَّى لِلْمُخْتَسَرِينِ" (الله يُرَّمَحَّى لِلْمُخْتَسَرِينِ)

"وَلاَ تَرْجِهِمْ وَأَوْلَاهُمْ هُمْ مُّفْلِحُونَ" (وَلاَ تَرْجِهِمْ وَأَوْلَاهُمْ هُمْ مُّفْلِحُونَ)

الآيات (الثمانَى).
وأثرها في الشعر والسلوك، وتعتقد به تلك الصلة الوثيقة بين القلب والرب، ويتهم به هذا الآنس بالله، وتذوق حلاوة التي تعلق القلب بالصلاة، وإياء الزكاه يحقق استعلاو النفس على شحها الفطري. وإيقامة نظام حياة الجماعة يتركن إلى التكامل والتعاون، ويجد الواجبون فيه وحمر رون الثقة والطمانتين ومواد القلوب التي لم يفسدها التزرف ولا الحمران، ويقين بالآخرة هو الضمان ليقفزة القلب البشري وتعلقه إلى ما عند الله، واستعاشه على أوقاف الأرض، وترفعه على متابعة الحياة الدنيا، ومرافقه الله في السر والعلن، وفي الدقيق والجليل، والوصول إلى درجة الإحسان التي سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (1).

وهؤلاء المحسنون هم الذين يكون الكتاب لهم هدى ورحمة؛ لأنهم بما في قلوبهم من فتح وشفافية يجدون في صحبة هذا الكتاب راحة وطمانتين ويتصلون بما في طبيعة من هدى ونور، ويدركون مراميه وأهدافه الحكيمة. وتصطلح نفسهم عليه وتحسن بالتوافق والتناسق ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق، وإن هذا القرآن ليعطي كل قلب بمقدار ما في هذا القلب من حساسية وفتح وإشراق ويقدر ما يقبل عليه في حب وتطلع وإعزاز.

إنه كأنه جه يعطف القلوب الصديقة، ويجاوب المشاعر المتوجهة إليه بالرفوة والحنين! وأنه الذين يقيمون الصلاة ويؤدون الزكاة وهم يوقنون بالآخرة. "أولنِّكَ على هَذَا الْقُطْرِ وَأَوْلِيْكُمُ الْمُقَدِّشُونَ" (2) ومن هذي فقد أفلح، فهو سائر على النور، واصلى إلى الغاية، ناج من الضلال في الدنيا، ومن عواقب الضلال في الآخرة، وهو مطمئن في رحلته على هذا الكوكب، يتناسق خطاه مع دورة الأفلاك وتوامس الوجود يحس بالأنس والراحة، والتجاويف مع كل كائن في الوجود.

أولئك المهتدون بالكتاب وآياته، المحسنون، المقيمون للصلاة، المؤمنون للزكاة، الموقئون بالآخرة، المفتيحون في الدنيا والآخرة. أولئك هم فريق الخير والفلاح (3).

(1) أخرج البخاري، ومسلم في كتاب الإمامة.
(2) في طلال القرآن 2784/2783.
(3)
سورة السجدة: هذه السورة المكية توجّذ آخر من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري بالعفوية الضخمة التي جاء القرآن ليوقظها في الفطرة، ويركزها في القلب عقيدة الديناتية الله الأحد الفرد الصمد، خلق الكون والناس، وصدور السماوات والأرض وما بينهما من خلائق لا يعلمها إلا الله، والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء.

(ألف. لام. ميم.) هذه الأحرف التي يعرفها العرب المخاطبون بهذا الكتاب، يعرفون ما يملكون أن يصوغوا منها، ومن نظائرها من كلام، ويبدرون الفارق الهائل بين ما يملكون أن يصوغوه من هذه القرآن وهو فارق يدرك كل خبير بالقول، وكل من ممارسات التعبير باللغةفيدر إلى العقول إلا القليل من الذين يمكنهم أن يعلمهم الأحكام، كما يدرك أن في النصوص القرآنية قوة خفية، وعرضاء مستكباً يجعل لها سلطانًا وفاعلًا في القلب والحس ليس سائر القول المؤلف من أحرف اللغة، مما يقول البشر في جميع الأعصار، وهي ظاهرة ملحوبة لا سبيل إلى الجدل فيها؛ لأن السامي يدركها، ويبيدها، ويستدها من بين سائر القول ولا لم يعمل سلفاً أن هذا القرآن.

والتجارب الكثيرة تؤكد هذه الظاهرة في شتى أوساط الناس. والفارق بين القرآن وما يصوغه البشر من هذه الحروف من كلام، هو الفارق بين صناعة الله وصناعة البشر في سائر الأشياء، صناعة الله واضحة مبينة، لا تبلغ إليها صناعة البشر في أعظم الأشياء، وأن توزيع الألوان في زهوة واحدة ليبدو معجزة لأمير السماوى في جميع العصور، وكذلك صناعة الله في القرآن، وصنع البشر فيما يصوغون من هذه الحروف من كلام.

(ألف. لام. ميم.) (تراث الكتب لا يكتمل في رتب العلماء) قضية
مقطعه بها، لا سبيل إلى الشك فيها، قضية تنزيل الكتاب من رب العالمين، ويعجل السياق بنفي الريب في منتصف الآية بين المبدا فيها والآخر، لأن هذا هو صلب القضية، والنقطة المقصودة في النص، والتمييز لها بذكر هذه الأحرف المقطعة يضع المرتدين الشاكين ويجعل أمام وجه أماكن واقع الأمر الذي لا سبيل إلى الجدل فيه. فهذا الكتاب مصوغ من جنس هذه الأحرف التي يعرفون، وطبه هو هذا النمط المعجز الذي لا يعانون في إعجازه، أمام التجربة الواقعية، أمام موازين القول التي يقر بها الجميع.

إن كل آية وكل سورة تبدي بالنصص المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن، وتشير بالقوة الحفيفة المودعة في هذا الكلام، وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف، وترابل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن، كلما تفتح القلب، وصفا الحس، وارتفع الإدراك، وارتفعت حساسية التلقى والاستجابة، وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحا، كلما اتسعت ثقافة الإنسان ومعرفته بهذا الكون وما فيه ومن فيه، فليست هي مجرد وصلة تأثيرية وجدانية غامضة، فهي مثقبة حين تخطب القرآن الفطرة خطاباً مباشرًا، وهي مثقبة كذلك حين يخطب القلب الجرب والعقل المثقف، والذهن الحاصل بالعلم والمعلومات، وإن نصوصه ليتسع مدى مدلولاتها ومفهوماتها وإيقاعاتها على السواء كلما ارتفعت درجة العلم والثقافة والمعرفة، ما دامت الفطرة مستقيمة لم تتحرك ولم تطميس عليها الأهواء، مما يجزم بأن هذا القرآن صنعة غير بشرية على وجه اليقين، وأنه تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالِم.

فأقولُ؟ أَفْتَرِنَّهُ؟ ولقد قالوا فيما زعموه متعتتين. ولكن السياق هنا يصوغ هذا القول في صيغة المستنكر، لأن يقال هذا القول أصلاً فَأَمْ يُقُولُونَ أَفْتَرِنَّهُ؟ هذه القول لا ينبغي أن تقال؛ فتاريخ محمد ﷺ مفيه بنفي هذه الكلمة الطالمة من جهة؛ وطبيعة هذا الكتاب ذاتها تنفيه أصلاً ولا تدع مجالاً للريب والتشكّك: 

«فَلَهُوَ الْأَحْقَرُ مِنْ زَيْكُ؟»
الحقّ بما في طبيعته من صدق ومطابقة لما في الفطرة من الحق الأزلي وما في طبيعة الكون كله من هذا الحق الثابت، المستقر في كيانه، الملحوظ في تناقه، واطراد نظامه، وثبات هذا النظام وشموله، وعدم تصادم أجزائه، أو تناثرها، وتعارف الأجزاء وتلاقيتها.

الحقّ يترجمه لونويس هذا الوجود الكبير ترجمة مستقيمة، وكأنه هو الصورة النفيطة المعنية لتلك النواميس الطبيعية الواقعية العاملة في هذا الوجود.

الحقّ بما يحقق من اتصال بين البشر الذين يرتدون منهجه، وهذا الكون الذي يعيشون فيه ونواحيه الكلية، وما يعتقدون فيه وبين قوى الكون كلها من سلام وتعاون وتقاء وتلاق، حيث يبدو أنفسهم في صدارة مع كل ما حولهم من هذا الكون الكبير.

الحقّ الذي تستجيب له الفطرة حين يلمسها إيقاعه، في بصر وسهولة، وفي غير مشقة ولا عدت لأنه يلتقى بما فيها من حق أزلي قديم.

الحقّ الذي لا يتفرق ولا يتعارض وهو يرسم مبناها الحياة البشرية كاملاً، ويلحظ في هذا المنهج كل قواها وكل طاقاتها، وكل نزاعاتها، وكل حاجاتها، وكل ما يعترفها من مرض أو ضعف أو نقص أو آفة تدرك النفس وتفسد القلوب.

الحقّ الذي لا يظلم أحداً في دنيا أو أخرة، ولا يظلم قوة ولا طاقة ولا يظلم فكرة في القلب، أو حركة في الحياة، فيكفها عن الوجود والنشاط، مما دامت متفقة مع الحق الكبير الأصيل في صلب الوجود.

بل هو الحقّ من حقك، فما هو من عندك، إنما هو من عند ربك، وهو رب العالمين كما قال في الآية السابقة، إنما هذه الإضافة هنا للتكرير تكرير الرسول الذي يهموه بالافترا، وإلغاء ظلال القربي بينه وبين ربه، رب العالمين، رداً على الاتهام الأوليم، وتكرير الفصلة الوثيقة التي تحمل مع معنى التكرير معنى وثاقت المصدر، وصحة التلقي، وأمانة النقل والتبلغ.
لا يُنذَّر قَوْمًا مَا أَنْتُمُونَ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِ لَعَلَّهُمْ يَتَبَيَّنَّهُ.  
والعرب الذين أرسل إليهم محمد ﷺ لم يرسل إليهم أحد قبليه، ولا يعرف التاريخ رسولًا بين إسحاق عليه السلام وجد العرب الأول وبين محمد ﷺ (1)، وقد نزل الله عليه هذا الكتاب الحق، لينذرهم به، ولعلمهم بهدايتهم، فهدايتهم مرجوة بهذا الكتاب، لما فيه من الحق الذي يخطب القلوب وقلوب (2).

(1)ورد الكثير من المؤرخين أن النبي ﷺ يعيبا أرسل إلى قوم من العرب في مدين من سلالة إسحاق.
(2)راجع قصة النبي ﷺ شعيب في كتاب التفسير، وكتابنا: نساء في حياة الأنبياء ص 168 بنات شعيب وأحمد رسول الله ﷺ عبد الجليل السحاب. في ظلال القرآن 5/380 وما بعدها.
42 - الكتاب المتنوٍّ والموحي إلى الرسول المورث

إن الذين يظهرون كتب الله وأقاموا الصلاة ونفروا ما زارنهم نير وعلائيته
بوجرون لجنة لينبوز ليوفيهم أجرهم ويردهم من فضله إبن غفور شكور والذي أوحينا إليك من الكتاب وهو الأحق مصدقًا بما بين يديه إن الله يعبده خبير تصوير ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا فينهم طالب أنفسهم وهم مقتصدهم وهم سابق بالخيرات إذن الله ذلك هو الفضل

تكرر ذكر كتاب الله في كل آية .. لكنه في كل واحدة منها التزم بمعنى غير الذي كان فيما سبق، ففي الآية الأولى (29) ذكر الذين يتلون الكتاب وصفاتهم وما أعطاهم الله تعالى من نعيم يسم بالريح الدائمة، وفي الآية الثانية (31) يوجه إلى النبي بالحديث بأن الكتاب الموحي إليك يا محمد إما هو الحق مصدقًا لما سبقه من الكتاب.

وفي الآية الثالثة: (32) إشارة إلى أن هذا الكتاب حول كل شيء من علوم الدنيا ومن علائم الإيمان ومن تاريخ الأقدمين ومن خبر الحاضرين، وعن أبناء الآتيين، وبعد ذلك فقد حفز من الله تعالى، أورثه الله تعالى للمسلمين فضلاً منه ورضواناً، مربناً، محفوظًا، لا تمتد إليه يد التحريف والتأويل يتساقط أمامه المبطلون - رغم محاولاتهم - ويولون الدبر مجهزين أمام تحدياته، فضلاً من الله تعالى إلى الذين أورثوا هذا الكتاب، الذي لم يداني ولم يشبهه ولم ولن يتمكن البشر من الإثبات بآيات أو سور أو ما شابههما حاولوا - ورغم محاولاتهم المتكررة - فضل الله المؤمنين الذين يعملون هذا الدين إلى يوم الدين، وهذه صور أخرى مستفاةً من ظلال هذا القرآن).

إن تلاوته كتاب الله يعني شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت تعني تلاوته عن تدبر، يتهي إلى إدرار وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك، ومن

(1) في ظلال القرآن 2943/5 فما بعدها.
ثم يتبعها إقامة الصلاة بالإنفاذ سراً وعلانية من زرق الله، ثم رجاؤهم بكل هذا تجارة لن تبور، فهم يعرفون أن ما عند الله خير ما ينقصون. ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح، يعملون فيها الله وحده وهي أريح معاملة ويتاجرون بها في الآخرة وهي أريح تجارة... تجارة مؤدية إلى توفيهم أjavهم وزيدتهم من فضل الله.

إنه: غفور وشكور يغفر التقصير، وشكر الأداء، وشكره تعل كتابة عما يصاحب الشكر عادة من الرضا وحسن الجزاء، ولكن التعبير يوحي للبشر بشكل المعم، تشبها واستحيا إذا كان هو الشكر لعباده حسن الأداء أكلا يشكون له هم حسن العطاء؟ ثم إشارة إلى طبيعة الكتاب وما فيه من الحق، تمهيداً للحديث عن ورثة هذا الكتاب.

والذى أوحينا إليه من الكتاب هو الحق مصدقًا لمما بين يدنه: إن الله يعباده، خبير بصير، ودلائل الحق في هذا الكتاب واضحة في صبه، فهو الترجمة الصحيحة لهذا الكون في حقيقته، أو هو الصفحة المقرورة والكون هو الصفحة الصامدة، وهو مصدر لما قبله من الكتاب الصادرة من مصدره، والحق واحد لا يوجد فيها وفيه، وعززه نزله للناس وهو على علم بهم، خبرة بما يصلح لهم ويسلحهم: إن الله يعباده، خبير بصير.

هذا هو الكتاب في ذاته، وقد أورثه الله لهذه الأمة المسلمة، اصطفاها لهذه الوراثة، كما يقول هنا في كتابه: ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا وهي كلمات جيدة بشأن توحيه هذه الأمة بكرامتها على الله، كما توحى إليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة، وهي تبعة ضخمة ذات تكافل، فهل تسمع الأمة المصطفة وتسجيب؟ إن الله - سبحانه - قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للوراثة، ثم أكرمه بفضله في الجزاء حتى من أساء: فمنهم طالبان لضعفه، ومنهم مقتصداً ومنهم سابق بالخيرات بلى إن الله.
فالفريق الأول - ولعله ذكر أولًا لأنه الأكثر عدداً - ظالماً أنتفخيه، تربي سياته في العمل على حسناته، والفريق الثاني وسط مُقتصد تتعادل سياته مع حسناته، والفريق الثالث ساقي بِالّذين يخرجون بيذنِ الله تربي حسناته على سياته، ولكن فضل الله - تعالى - شمل الثلاثة جميعاً، فكلهم انتهى إلى الجنة.

وإلى النعيم الموصوف في الآيات التالية على تفاوت الدرجات

ولا ندخل هنا في تفصيل أكثر مما أراد القرآن عرضه في هذا الموضوع من كرامة هذه الأمة باصطفاها وكرم الله - سبحانه - في جزائها، فهذا هو الظل الذي تلقىه النصوص هنا، وهي النهاية التي تنتهى إليها هذه الأمة جميعاً - بفضل الله - ونطوي ما قد يسبق هذه النهاية من جزاء مقدر في علم الله.

"ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْعَظِيمُ ۖ جَعَلْتُ عَذَّبَتُ ۗ يُدْخِلُونَهُمْ فِيهِ مِنْ أَمْسَارٍ ۖ يَدْمِجُونَ ۖ وَلَبَاسُهُمْ فِيهَا حُرِّيرٌ ۖ" انتهى.

"فَإِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ كِتَابَ اللَّهِ هُذهِ الآية آيةُ القراء العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه، الذين يقيمون الصلاة - صلاة الفرض والترف، وينفقون بما رزقهم الله سراً وعلانية. هؤلاء هم الذين يتغون. تحصل الثواب من الله على طاعاتهم، ويزيدهم الله من فضله، والزيادة هي الشفاعة في الآخرة، إن الله - غفر أعطاء الأجور - غفور للأذنوب، ومن إعطاء الزيادة شكور قبل القليل من العمل الخالص، ويثيب بالجزيل من الثواب، وقوله: "فَيُجُوَّرُونَ ۗ تَجْرِيّةٌ لَّنْ تَبُوزُ ۖ" إشارة إلى الإخلاص أي ينفقون لا لياقة: إنه كريم، ولا لشيء من الأشياء غير وجه الله."}

(1) التفسير المثير 2/262.
47- الكتاب المنزل بالحق

أ - تنزيح الكتاب من الله العزيز الحكيم. (وإنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) فأعبد الله خليصا له الدين. (الزمر).

ب - حم. تنزيح الكتاب من الله العزيز الحكيم. (وإنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) فأعبد الله خليصا له الدين. (الزمر).

ش - حم. تنزيح الكتاب من الله العزيز الحكيم. (وإنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) فأعبد الله خليصا له الدين. (الزمر).

ج - حم. تنزيح الكتاب من الله العزيز الحكيم. (وإنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) فأعبد الله خليصا له الدين. (الزمر).

د - حم. عشاق كذبل نوحي إليك وآل الذين من قبلك الله العزيز الحكيم. (الشورى).

ه - حم. والكتب المبينين. (وإنا أنزلنا في ليل مباركة) إننا من مدرين. (الدمعة).

و - حم. والكتب المبينين. (وإنا أجزاهم بما كتب他们在) فيها يفرق كل أمر حكيم. (الذرية).

ز - حم. تنزيح الكتاب من الله العزيز الحكيم. (وإنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) فأعبدو الله خليصا له الدين. (الزمر).

ح - حم. تنزيح الكتاب من الله العزيز الحكيم. (وإنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) فأعبدو الله خليصا له الدين. (الزمر).

[الأحقاف]
تلكم سُورة ثمان من سور القرآن الكريم وردت متابعة في ربع الجزء الثاني من
الجزء الثالث والعشرين وشملت كل الجزئين الرابع والعشرين والخامس
والعشرين. ونصف الجزء الأول من الجزء السادس والعشرين (1).

ابتدأت كلها عدا سورة الزمر بالحرف المقطعين النورانيين (ح. م.) وتلاها ذكر
كتاب الله تعالى باسمة الكتاب والقرآن وبالاحتي في سورة الشورى. وكذلك قد
وردت أحرف نورانية أخرى هي (ع. س. ق.) في بداية السورة بعد (ح. م.)
وهذه الأحرف لم ترد في غير هذه السورة (ح. م.) وردت آية في كل الفواتح
(وعطف) أيضاً وردت آية.

إن سورة الزمر التي بدأت فواتها بذكر كتاب الله تعالى لم ترد بافتتاحتها تلك
الأحرف لكنها ابتدأت فوراً بذكر كتاب الله المنزل من الله العزيز الحكيم، وهذا
التابع والتناسق وتوافق البداية من الأحرف المقطعة المعجزة أولاً، ومن ثم ورد
اسم كتاب الله تعالى فقد عز ذكره باسمية الكتاب والقرآن مرتين، وصفة الوحي
مرة واحدة، وتكرار الآيات أحياناً بذاتها، تزيل اللكتب من الله العزيز الحكيم
ثلاث مرات، والعلم والرحيم، كلها معجزات متكررة في كل آية وسورة وما
زال سر الأحرف لم يكشف.

(1) هذه السورة بده سبع سور كلها تبدأ بالحرفين (ح. م.) منها سورة واحدة تذكر فيها بعد هذهين
الحروف ثلاثة حروف أخرى هي (عين، سين، قاف) وقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة في
أوائل السور، وأنها إشارة إلى صياغة هذا القرآن منها. وهو معجز منهم مع تيسير هذه الأحرف لهم
ومعرفتهم بها، وهي أحرف غيرهم التي يتحذرونها ويكتوبونا وتمثلها الإشارة إلى تزويج الكتاب.
إحدى الحقائق التي تذكر الحديث عنها في السورة البحية بوجه خاص في معرض بناء العقيدة، في
ظلال القرآن 5/ص 2068.
47- الكِتابُ المنْزلُ بالحَقِّ

«تَنزِيلُ الْآيَةُ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْخَبِيرِ، إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ قَيْمَتُهُ مُحِيصًا لِهُ الْأَلِيِّمِ» [الزِّمر].

سورة الزمر: نكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد، وهي تطوف بالقلب البشري في جولات متتابعة، وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة، وتنهز هزاً عميقاً متواصلًا لطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكينها، وتتفي عنه كل شبهة وكل ظل يشبث هذه الحقيقة، ومن ثم فهي آيات ذات موضوع واحد متصل من بدئها إلى خاتمها؛ يعرض في صور شتى (1).

عظم الله - تعالى سبحانه - أمر القرآن الكريم، وله المكلفين على القيام بما فيه واتباع أواهه ونواهيه بناءً على قول: «تَنزِيلُ الْآيَةُ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْخَبِيرِ» المعال عن المثل والشبه؛ «الْحَكِيمُ» في أفعاله وأقواله فوصفه هنا نفسه بالعزة تعزيراً من خلافة كتابه بالحكمة إعلاناً بأنه يحفظه حتى يصل إلى المكلفين من غير تغيير لشيء منه. «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ» أي لم ننزله إبادةً بل غير فرض، ومثل معناه بالأمر الحق أي بالدين الصحيح، «فَأَعْبَدْنَاهُ الَّذِينَ أَتْبَعُوْنا» أي توجه بعبادتك إلى الله وحده، «مُلْكُهُ لِلَّهِ» من شريك الأوثان والأصنام والإخلاص أن يقصد العبد بيته وعمله إلى خالقه لا يجعل ذلك لغرض الدنيا (2).

تَنزِيلُ الْآيَةُ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْخَبِيرِ، إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ، فَأَعْبَدْنَاهُ مُحْيِيًا لِهِ الْأَلِيِّمِ» [أَلَّا يَكُونَ الَّذِينَ أَتْبَعُوْنا إِلَّا لِيُقِيرُونَ أَنَّ اللهَ رَبِّنَا إِنَّ اللهَ حَكِيمٌ بِبَيْنَهُمْ فِيهِ]

(1) في ظلال القرآن 5/33.
(2) مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو الفضل بن حسن الطبري 8/488، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
تبدأ السورة بهذا التقرير الحاسم قال تعالى: "إنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبُ سَكَّانِ."

العزيز القادر على تنزيله، الحكيم الذي يعلم فيم أنزله، ويفعل ذلك محكمة وتقدير وتذبير.

ولا يلبث السياق عند هذه الحقيقة طويلاً; فهي مقدمة للقضية الأصلية التي تكاد السورة تكون وقفاً عليها، والتي نزل الكتاب لتقريرها وتوكيدها قضية توحيد الله، وإفراده بالعبادة، وإخلاص الدين له، وتنزيله عن الشرك في كل صورة من صوره والاتجاه إليه مباشرة بلا وسيط ولا شفيع.

"إنَّا أَنْزَلَنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ" وأساس الحق الذي أنزل به الكتاب:

والوحدانية المطلقة التي يقوم عليها الوجود، وفي الآية الخامسة من السور يجيء:

"خلق العرش والشمس والقمر والجبال وغيرها" فهو الحق الواحد الذي قامت به السماوات والأرض وأنزل به هذا الكتاب. الحق الواحد الذي تشهد به وحدة النظام الذي يصرف السماوات والأرض والذي ينطق به هذا الكتاب: الحق الذي يسمى به كل ما خرج من يد الصانع المبدع في هذا الوجود "فأَعْطَيْنَاهُ اللَّهُ مَخْلُوقًا فَزَيَّنَاهُ".

والخطاب لرسول الله الذي أنزل إليه الكتاب بالحق.

وهو منهج الذي يدعو إليه الناس كافة. عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له ليس كلمة نطق باللسان إذا هو منهج حياة كلي كامل. يبدأ من تصور واعتقاد في الضمير، ويتهي إلى نظام يشمل حياة الفرد والجماعة والقلب الذي يوجد الله بدنية وحده ولا يحي له أحد سواء، لا يطلب شيئًا من غيره، ولا يعتمد على أحد من خلقه، فهذا وحده هو الذي mutating عنده، وهو القاهر فوق عباده، والعبد كلهم ضعاف مهازل لا يكونون له نفعًا ولا ضرًا، فلا حاجة به إلى أن يحي هامته لواحد منهم، وهو مثله لا يكونون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، والله وحده هو المانع المانع، فلا حاجة إلى أن يتوجه لأحد غيره وهو الغني والخلق كله فقراء".

(1) في ظلال القرآن 5/3036.
«َأَلَا يَلِّي الْدُّنْيَا ٱلْخَالِصَۢۢ﴾ يُعَلِّنَا هَذَا مَدْوَةَ عَالِيَةٍ فِي ذَلِكَ الْتَعْبِيرٌ اِلَّمَلْجِلَّ بَاِدَاةً الْافْتِتاحِ﴾ أَلَا﴾ وَفِي أَسْلَوْمِ الْقُرْآنِ﴾ يَلِّي الْدُّنْيَا ٱلْخَالِصَۢۢ﴾ فَيُفْكَر مَعْنَا مَعَهَا بِالبِنَاءِ الْلِفْظِيِّ لِلْعِبَارَةِ، فِيِّ الْشَّعْرَاةِ الَّذِي يَقُوم عَلَيْهَا حِيَاةً كُلُّهَا بِلِمَ يَقُوم عَلَيْهَا الْوَجْدُ كُلُّهُ. وَمَنْ ثُمَّ يَنْبِغِي أَنْ تَرْسِخْ وَتَتَضَخِّمْ وَتَتَخَلَّقُ فِي هَذِهِ الْأَسْلَوْمِ الْجَازِمِ﴾ أَلَا يَلِّي الْدُّنْيَا ٱلْخَالِصَۢۢ﴾ ، ثُمْ تَعَالَى الْأَسْتُرِّةُ الْمُعْقِدَةُ الَّذِي كَانَ المَشْرُوْنُ يُوْجِهُونَ بِهَا دُعُوةَ الْتَوَهِيْدِ .

وَلِلْدُّنْيَا أَخْتَذُوهَا مِنْ دُونِهَا أَوْلًيًا، مَا نَعْبُدُهُمُ إِلَّا نَبِيَّنَا ٱلْرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ الْلَّهُ تَرَكَ مِنْ هُوَ كَنِّيَّةٌ كَثَّـٰرٌ .

فَلْخَلَقَ كَانَا يُلْعَنُونَ أَنِّي خَالِقَهُمُ وَخَالِقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلِكَانُوا لَمْ يَكُونُوا يَسِيرُونَ مِنْ مَنْطَقَةِ الْفَطْرَةِ فِي إِفْرَادِ الْخَالِقِ إِذْنَ بِالْعَبْدَةِ، وَفِي إِخْلاَصِ الْدِّينِ لِلَّهِ بِلَا شَرِيْكٍ، إِنَّا كَانَوا يَبْتَغُونَ أَسْتُرْوَةَ بِنُوءِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي سَبِحَّهَا، ثُمَّ يَصِبُوُونَ لِلْمَلَائِكَةِ تَمَاثِيلَ يُبِدْعُونَهَا فِي هَٰذَا، ثُمَّ يَزَعُوُونَ أَنْ عَبَادَتِهِمُ الْتَمَاثِيلُ الْمَلَائِكَةِ - وَهَٰذِي دُعُوَّةُ أَلْلَهُ أَمْثَالُ الْلَاَّتِي النِّعْمَةَ وَأَعْزَى وَمَنِى، لَيْسَ عَبَادَةُ هَٰذَا إِلَّا هَٰذَا زَلْفَى وَقَرَىِّلِلَّهِ، كَيْ تَشْفَعُ لَهُمْ عَنْهُ، وَتَقْرِبُهُمْ مِنْهُ .

وَهُوَ اِخْرَافٌ عَنْ بَساطَةِ الْفَطْرَةِ وَاِسْتَقْمَاتُ هَاذَا، إِلَى هَذَا التَّعْقِيدِ وَالْتَخْرِيفِ فَلاَ لِلْمَلَائِكَةِ نَبَاتُ اللَّهِ وَلَا الأَصِنَامُ تَمَاثِيلُ لِلْمَلَائِكَةِ، إِلَّا اللَّهُ - سَبِحَهُ - يَرْضَى بِهِ هَذَا اِخْرَافُ، وَلَا هُوَ يَقْبَلُ بِهِ هَذَهِ الشُّفَاعَةِ وَلَا هُوَ يَقْبِلُهُمْ إِلَى هَذَا الْطَرِيقُ .(١)
48- الكتاب المتشابه

«آللَّهُ نُزِلَ أَحْسَنَ أَحْدِيثٍ كِتَابًا مُّضِيقًا مَّعَانَا تَقَعَّصَ مِنْهُ جَلُودُ أَنَّ ذَينَ تُحَشَّوْتُ زِيَادَهُمْ نَحْيَ دِيَمُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اِللهِ ذَا لِكَ هَذَا لِلَّهِ يُهَدِيهِ بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلُّ الْلَّهُ فَإِنَّهُ مِنْ هَٰذِهِ [الزمر]».

لا استكمال الصورة والمقصود من هذه الآية نذكر الآية التي قبلها وهي قوله تعالى:

«فَأَفْمَنْ سَرَحَ الْلَّهُ صَدْرَهُ. إِلَّا الْإِسْلَمُ فَهُوَ عَلَيْ نُورٍ مِّنْ زَمَانِهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَسَّمِيَّةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ» [الزمر].

وسبب نزول الآية (33) المقصودة: "آللَّهُ نُزِلَ.

روى الحاكم وغيره عن سعد بن أبي وقاص قال: نزل على النبي ﷺ القرآن، فتلاه عليه زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثنا؟ فنزل: "آللَّهُ نُزِلَ أَحْسَنَ أَحْدِيثٍ.

وعن ابن عباس: أن قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله... حدثنا

بأحاديث حسان وبأخبار الدهر فنزل: "آللَّهُ نُزِلَ أَحْسَنَ أَحْدِيثٍ.

وبعد أن بين الله تعالى ما يجب الإقبال على الآخرة بطاعة الله تعالى، وما يوجب الإعراض عن الدنيا، أوضح أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور ونور القلوب ثم أوضح أن من أصله الله فلا هادي له، وأن من يلقى في النار ليس كمن آمن وامن، فدخل الجنة وأن مكذبين الرسل لهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة.

«فَأَفْمَنْ سَرَحَ الْلَّهُ صَدْرَهُ. إِلَّا الْإِسْلَمُ» أي: وسعه لقبول الحق وفتحه للاهتئام إلى سبيل الخير. قال السدي: وسع صدره للإسلام للفرح به، والطمأنينة إليه،

(1) التفسير النذر 23/277.
والكلام في الحمزة والفاء كما تقدم في { أقسم حق علبي كلمة العذاب } [ الزمر : 19 ]

ومن: مبتدأ، وخبره: مخزوف تقديره كمن قسا قلبه وشرح صدره. ودل على
هذا الخبر المخزوف قوله: { قوي لي اللُّغة* قلوبهم } والمعلنى: أقسم وسع الله صدره
للإسلام فقبله واهتدى بهديه { قُوِّئ } بسبذ ذلك الشرح { عُلِي نُور مِن نُوره } يفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختباره فصار في ظلمات الضلالة، وليات
الجهالة. قال قادة: النور كتاب الله يؤخذ وإليه ينتهي.

قال الزجاج: تقدير الآية { أقسم شرخ الله صدره } كمن طبع قلبه فلم يهتد
لقوشه. { قوي لي اللُّغة* قلوبهم مِن ذكرى الله } قال الفراء والزجاج: أي عن ذكر
الله كما تقول أنتمت عن طعام ومن طعام أكلته. والمعنى: أنه غلط قلبه وفقاً عن
قبول ذكر الله، يقال: قسا القلب إذا صلب وقلب قاس: أي: صلب لا يرق ولا
يلين، وقيل: معنى من ذكر الله من أجل ذكره الذي حقه أن تنشرح له الصدور،
وظمنته به القلوب، والمعنى: أنه إذا ذكر الله اشمزروا، والأول أول، ويؤديه
قراءة من قرأ عن ذكر الله، والإشارة بقوله { أُولِي الْكَلَب } إلى القاسية قلوبهم، وهو

(1) مبتدأ وخبره { في صَلِّيل مُيِّن } أي: ظاهر واضح

أخبر الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: { لا تكتروا الكلام بغير
ذكر الله } فأن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله
القلب القاسي.

وعلت أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: { قال الله تعالى: اطلبوا الجوائز
من السُّمَحاء فإنني جعلت فيهم رحمتي، ولا تطابوه من القاسية قلوبهم فإنني
جعلت فيهم سخطي }.

وقال مالك بن دينار: لما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب
الله على قوم إلا تنزع الرحمة من قلوبهم.

ثم وصف الله القرآن الذي يشرح الصدر، فقال: { نزل أحسن الحديث }

(1) فتح القدير 4/526.
كتبتا ما شاهدا من نبات تفسير مبته جلود الذين تخشونين، رضه ثم تلبن جلودهم.
وقلوبهم إلى ذكر الله أي الله (1).

نزل أحسن الأحاديث وهو القرآن، لما فيه من الخيرات والبركات، والمنافع العامة والخاصة، وهو كتاب يشبه بعضه بعضًا في جمال النظم وحسن الإحكام والإعجاز، وصحة المعاني، وقوة المباني، وبلوغه أعلى درجات البلاغة، وتنشى فيه القصص وتردد، وتكرر فيه المواعظ والأحكام من أمر ونواة ووعيد ووعد.
ويشى في التلاوة فلا يمل سامعه ولا يسأم قارئه.

إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائنين لله، كما قال الزجاج، وتضطرب النفس ويرتد بالخوف ما فيه من الوعيد، ثم تسكن وتطمئن الجلود والقلوب عند سماع آيات الرحمة، قال قدادة: هذا نعت أولياء الله، نعتهم بأنها تشعر جلودهم، ثم تطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، فإنا ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان.

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: كان أصحاب النبي إذا قرأ عليهم القرآن، كما نعتهم الله، تدعهم أعينهم وتقشر جلودهم، وقيل لها: فإن أنسا إذا قرأ عليهم القرآن خر أحدهم معيشًا عليه، فقالت: أعود بالله من الشيطان الرجيم.

(1) ذلك هدى أَلْلَّهُ يَهِدِّي بِهِ مَنْ يَشَاءُ أي: ذلك الكتاب أو القرآن هو هدية الله يهدي به من يشاء وقائه ل乐园، وهذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو من أصله الله ومن يُضَلِّلِهِ أَلْلَهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَدٌ أي من يُجْلِبَ اللَّهُ عِنْ الإِيَامَ بِالقُرآنِ مِنَ الفِسَاقِ وَالْفُجْرَةِ فَلا مَرَشِدٌ له (2).

فالقرآن الكريم هو أحسن الحديث: أي إن أحسن ما يسمع هو ما أنزله الله وهو القرآن، وهذه هي الصفة الأولى للقرآن، ومن خصائصه وصفاته أنه متشابه بعضه.

(1) الابتداء باسم الله، وإنساد ضمير نزل (الزمر: 33) إليه، فيه تفسير للمنزل ورفع منه، كما يقول: الملائكة أكرم لآبائنا.
(2) التفسير الميسر 23/279، 280.
مع بعض في الحسن والحكمة والإحكام أي في العظم والمعنى، وصدق بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف، وأنه مثاني أي تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام، وتثنى تلاوته فلا يمل منه، وأنه يجمع بين الترهيب والترغيب، فالنفس المؤمنة به تضطرب وتخاف ما فيه من الوعيد، ثم تطمئن وتسكن عند سماع آيات الرحمة، وأنه هدى الله الذي يهدي به من يشاء من هدايته، وأما من يضلله الله ويخذله من الفساق والفجور المعرضين عنه، فلا مرشد له، فهذه صفات خمس للقرآن المجيد.

وإبتداءً لا يستوي المهتدي الذي شرح الله صدره للإسلام فهو على هدى من ربه، ومن طبع على قلبه وحرم البداية، فالويل ثم الويل لفسقة القلوب المعرضين عن ذكر الله فهم في ضلال واضح (1).

(1) التفسير المثير 23/281.
الكتاب المنزل من الله للناس بالحق

إنا أنزلنا علىك الكتاب للناس بالحقائق فمن أهتدى في نعيم مصباح
فإنما يضلل عليها وما أن أنت عليهم بوسعي
{
إننا أنزلنا علىك الكتاب للناس بالحقائق
إلى الآية.

الحق في طبيعته، والحق في منهجه، والحق في شريعته، الحق الذي تقوم عليه
السموات والأرض، ويلتقي عليه نظام البشرية في هذا الكتاب ونظام الكون كله
في تناقض، هذا الحق نزل "للناس" ليهتدوا به ويعيشوا معه ويقوموا عليه، وأنت
مبلغ، وهم بعد ذلك وما يشاؤون لأنفسهم من هدي أو ضلال، ومن نعيم أو
عذاب، فكل مورد نفسه ما يشاء، وما أن يمسط عليهم ولا يمسؤل عنهم.
فمن أهتدى في نعيم مصباح، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أن أنت عليهم بوسعي.

إذا الوكيل عليهم هو الله، وهم في قضيته في صورتهم ونوعهم، وفي كل حالة
من حالاتهم، وهو يتصرف بهم كما يشاء(1)، يفاطب الله تعالى رسوله محمدًا
بقوله: "إنا أنزلنا علىك الكتاب للناس بالحقائق" أي: إنا نحن رب العزة وإله
الكون نزلنا عليك يا محمد القرآن العظيم لأجل الناس، أي واجئ، ولبيان ما
كلفنا به، وإذادرهم به، أنزله ربك مقوًّنا مصباحًا بحق مبتسماً به وهو دين
الإسلام، قال الزمخشي: "للناس" لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ليبشروا وينذروا
فتقروا دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعاصية، ولا حاجة لي إلى ذلك فأننا الغني
فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ومن اختيار الضلالة فقد ضرها(2).

قال تعالى: "فمن أهتدى في نعيم مصباح، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أن أنت
عليهم بوسعي" أي فمن عرف طريق الحق وسلكها فاهاضها لنفسه، ويعود نفعاً

(1) في ظلال القرآن 5/3054.
(2) الكشف 3/33.
ذلك إلى نفسه، ومن حاد عن طريق الحق، فضل الله على نفسه ورجع وبال ذلك على نفسه، وما أنت - أيها الرسول - موكول أن يهتدوا ولا مكلف في حملهم على الهدية بل عليك البلاغ، وقد فعلت، قوله تعالى: { إنما أنت تذبهر وآلهة على كل شيء وحكيم} [هود]، وقوله سبحانه: { فإنما عليكم البلاغ وعلى ألسنتكم الجساب} [الرعد]. وقوله عز وجل: { فذكري إنما أنت مدعو} لست عليه بمضطر [الغاشية]. (1)
50- الكتاب المنزل من الله العزيز العليم

( حَمَّ ) تنزيلً اللَّكْنَبْ مِنَ اللّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ غَافِرُ الذُّنُبِ وَقَابِلٌ التَّوَابُ
شَدِيدٌ العِقَابِ ذَٰلِكْ الَّذِي أَطْوَلَ لَهُ إِلَّا هُوُ إِلَيْهِ الْمُصَرِّرُ مَا يُجَدِّدُ فِي عَيْنِهِ اللّهِ
إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يُغْرَكُ تَقَلِيمُهُمْ فِي الْيَمِينِ وَالْبَلَدِ ( غَافِرُ )

تسميتها: تسمى هذه السورة سورة ( غافر )؛ لافتتاحها بتنزيل القرآن من الله
غافر الذنب وقابل التواب، والغافر من صفات الله وأسمائه الحسنى، وتسمى
أيضاً سورة ( المؤمن )؛ لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون.

مناسبتها لما قبلها: تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من ناحيتين:

الأولى: التشابه في الموضوع: فقد ذكر في كل من السورتين أحوال يوم القيامة،
وأحوال الكفار في يوم الخير.

الثانية: الترابط بين خاتمة السورة السابقة ومطلع هذه السورة. فقد ذكر في
نهاية سورة الزمر أحوال الكفار الأشقياء، والمتقين السعداء، وافتتحت سورة غافر
بأن الله غافر الذنب لث الكافر على الإيمان وترك الكفر.

ومناسبة الأحاديث السبع لسورة الزمر: تشابه الافتتاح بـ ( تنزيل اللَّكْنَبْ )
ورتبت الأحاديث إثر بعضها لاشتراكاتها بلفظة ( حَمَّ ) وبذكر الكتاب بعد ( حَمَّ )
وأنها مكية، بل ورد في حديث أنها نزلت جملة واحدة، وفيها شبه من ترتيب
ذوات (الإلا) الست (1) ذكر السيوفي عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب
السورة: أن الأحاديث نزلت بعد الزمر، وأنها نزلت متتاليات كنبرتها في المصحف،
المؤمن ثم السجدة ثم الشورى ثم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف
والل حتى نزلت غيرها وذلك مناسبة واضحة لوصفها هكذا.

(1) ذوات الراء الست هي على التوالي: سورة يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحج.
تبدأ كلها باحرف ( الْرَّ )، عدا سورة الرعد فإنها بدأ بالحروف ( المَرْ )، وقد جرى الحديث
عنها في أماكنها.
ويقال لها أيضاً: آل حم، قال ابن مسعود: آل حم دباج القرآن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن لكل شئ لبابة، ولباب القرآن آله حم، أو قال: الخوامر، وقال النبي: "لكل شيء نمرة، وإن ثمرة القرآن ذوات حم، هن روضات حسان خصبات متجاورات، فمن أحب أن يرعى في رياض الجنة فليقرأ الخوامر".

وقال رسول الله لأصحابه في بعض الغزوات - فيما رواه أبو عبيدة: "إن بيت الليلة، فقولوا: حم لا ينصرون - أو لا ينصرون".

وروي الحافظ أبو بكر البزار والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: "من قرأ آية الكرسي، وأول حم (المؤمن) عصمه ذلك من السوء".

مشتملاتها: سورة غافر والخوامر السبع مكية، فهي تعني بأسلوب العقيدة كسائر السور المكية لذا جاءت آياتها عنيفة شديدة التأثير لآيات وحدانية الله وتنزيل القرآن، والبعث.

ووصف ملائكة العرش، وإنها الصراخ بين أهل الحق وبين أهل الباطل، أو فريق الهدى وفريق الضلال وقد ابتدأت بإعلان تنزيل القرآن الكريم من الله المتصف بالصفات الحسنى، وهاجمت الكفاح الذين يجادلون بالباطل، ثم وصفت مهاج ملائكة العرش.

وأخبرت عن طلب أهل النار الخروج منها لشدة العذاب ورفض هذا الطلب، وأقامت الأدلة على وجود الله القادر، وخوفت من أهوال يوم القيامة، وأنذرت الكفاح من شداد ذلك اليوم.

ثم لفتت الأنظار لوضع العبرة من إهلاك الأمم الغابرة، وهو كفرهم بالآيات اليناب التي جاءوا بها، وخصت بالذكر قصة موسى مع فرعون وهامان وقارون، وما دار من حوار بين فرعون وقومه، وبين رجل من آل فرعون يكتب إيمانه، وما فعل فرعون الطاغية من قتل أبناء بني إسرائيل وقومه واستحیاء نسلهم وخشية انتشار الإيمان في قومه، وانتهاء القصة بهلاك فرعون بالغرق في البحر مع جنوده، ونجاة موسى وقومه جندها الإيمان في ذلك العصر، وتلك هي قصة الإيمان والطغيان.
وقد أردت ذلك بإعلان خذلان الكافرين، ونصر الرسل والمؤمنين نصرًا مؤزراً في الدنيا والآخرة.

وختمت القصة بأمر النبي ﷺ وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر موسى وغيره من أولى العزم، ثم أوردت السورة الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله وقدره، وضربت الملك للمؤمن البصير ولكافر بالأعمى، فالمؤمن نير القلب والبصيرة بنور الله، والكافر ظلم النفس يعيش في ظلما الكفر وأثبت ذلك بيان نعيم الله على عباده من الأنعام والفك وعيرها.

وختمت السورة بما يؤكد الغرض المهم منها: وهو الاعتبار بصرع الظالمين المكذبين، وما يلقون منه من أصناف العذاب، ومبادرتهم إلى الإيمان حين رؤية العذاب، ولكن لا ينتفعهم ذلك، فإن سنة الله الثابتة ألا يقبل إيمان اليأس أو حال رؤية البأس (1).

«حم» - هذه السورة بدء سبع سور كلها تبدأ بالحروف ( ح ح م م م م س س ع ع ق ق ف ف ) منها سورة واحدة يذكر فيها بعد هذين الحرفين ثلاثة حروف أخرى: ( ع عين سين قاف).

وتبليها الإشارة إلى تنزيل الكتاب، إحدى الحقائق التي يذكر الحديث عنها في السور الملكية بوجه خاص في معرض بناء العقيدة. تُشير آية الكتاب من الله العزيز الحكيم (2)، وهي مجرد إشارة ينتقل السياق منها إلى التعريف ببعض صفات الله الذي نزل هذا الكتاب، وهي مجموعة من الصفات ذات علاقة موضوعية بمحتويات السورة كلها وقضاياها.

治理体系 العليم (3) عافر الدُّنْب وَقَابِل ذات أَلْفَيْن شديد العقاب ذي الطول. لا إِلَه إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. العزة والمعلم، عفان الذنب، وقبول النوبة، وشدة العقاب، والفضل والإنعام، ووحدانية الألوهية ووحدانية المرجع والمصير.

وكل موضوعات السورة تتعلق بهذه المعاني، التي جاءت في مطلع السورة،

(1) التفسير المثير 24/69، 70.
والتي سبقت في إيقاعات ثابتة الجرس، قوية التركيب، توحى بالاستقرار والثبات والرسوخ.

والله - سبحانه - يعرف نفسه لعباده بصفات، ذات الأثر في حياتهم ووجودهم ويلمس بها مشاعرهم وقلوبهم، يثير رجاءهم وطموعهم، كما يثير خوفهم وخشيتهم، ويشعرهم بأنهم في قضيتهم لا مهرب لهم من تصريفه. ومنها هذه الصفات.

«العزيز» القوي القادر الذي يغلب ولا يغلب، والذي يصرف الأمر لا يقدر عليه أحد، ولا يعقب عليه أحد.

«العليم» الذي يصرف الوجود عن علم وعن خبرة، فلا يخفى عليه شيء، ولا يند عن علمه شيء، «كافر الدُّنْب» الذي يعفو عن ذنوب العباد بما يعلمه سبحانه - من استحقاقهم للغفران، وقيل «الغُرْب» الذي يتوب على العصاة، ويتقبلهم في جماه، ويفتح لهم بابه بلا حجاب.

«شديد العقاب» الذي يدمر على المستكبرين ويعاقب المعاندين، الذين لا يتوبون ولا يستغفرون. «ذى الطوْل» الذي يتفضل بالإنعام، ويضاعف الحسنات، ويعطي بغير حساب.

«لاأني إلا هو» فله الألوهية وحده لا شريك له فيها ولا شبيه. «إليه العصر» فلا مهرب من حسابه ولا مفر من لقائه، وإليه الأوبة والمياد.

وهكذا تنتضح صلته بعباده وصلة عبادته به، وتتضح في مشاعرهم وصورتهم وإدراكهم، يعرفون كيف يعاملونه في يقظة وفي حساسية، وفي إدراك لما يغضبه ولا يرضى.

وقد كان أصحاب العقائد الأسطورية يعيشون من آلهتهم في حيرة، ولا يعرفون عنها شيئًا مضبوطًا، ولا يتبينون ماذا يشعطون وماذا يرضيهم، ويصرون عليها متقلبة الأهواء، غامضة الأفكار شديدة الانفعالات، ويعيشون معها في قلق دائم.
يتحسون مواضع رضاها بالرقي والتمائم والضحايا والذبائح، ولا يدركون سخطت أم رضيت إلا بالولهم والتخمين.

فجاء الإسلام واضحاً ناصعاً، يصل الناس بإلههم الحق، يعرفهم بصفاتهم، ويصبرهم مثابته ويعملهم كيف يتقربون إليه، وكيف يرجعون رحمته، ويخشون عذابه على طريق واضح قاصد مستقيم.(1)


(1) في ظلال القرآن/5 2068.
(2) فتح القدر/24 502.
51- المكذبون بالكتاب

"إن الذين يصدون في عنيت الله إن يضربون الذين صدّقوه بألصيقتهم وهم أرسلنا بهم رسولنا قُسّوف يعلمون (1) [غافر]."

وردت آيتان في هذه السورة عن حال المجادلين في آيات الله، قوله تعالى: "إن الذين يصدون في عنيت الله يُغفر سلطن أنهم إن في صدورهم إلا صبر ما هم يبتغون فاستعذ بِالله إنه هو السميع البصير (2) [غافر]، ثم الآية (29).

موضوع البحث.

إذا هذا المخلوق الإنساني ليسى نفسه في أحيان كثيرة، ينسى أنه كائن صغير، ضعيف، يستمد القوة لا من ذاته، ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول. من الله فيقطع اتصاله هذا ثم يروح يتفخ، ويورم ويتشامخ، ويعمل، يжив في صدره الكبير، يستمد من الشيطان الذي هلك بهذا الكبير، ثم سلط على الإنسان فاتته من قبله.

إنه ليجادل في آيات الله ويكابر، وهي ظاهرة ناطقة معبرة للضرورة لبلسان الفطرة، وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إذا ناقش؛ لأنه لم يقتنع ويجادل لأنه غير مستيقن، والله العالم عباده، السميع البصير المطلع على السرائر يقر أن الكبر، والكبير وحده، هو الذي يحيك في الصدور. وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدل فيما لا جدل فيه، الكبير والطافل إلى ما هو أكبر من حققه. محاولة أخذ مكان ليس له، ولا تؤهله له حققه، ولست له حجة يجادل بها، ولا يرهان يصعد به.

إذا هو ذلك الكبّر وحده.

والآية الثانية: قوله تعالى: "إن الذين يصدون في عنيت الله إن يضربون (3) أي: لا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين المشركين المجادلين بالباطل في..."

(1) الطالب 5/3089.
آيات الله الواضحة الموجبة للإيمان بها، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ مع قيام الأدلة الدالة على صحتها، وأنها في نفسها موجبة للتوحيد.

» الذين كبدوا بالصيكنب وبما أرسلنا به رسولنا قسوس يعلمون (1).«

إنههم هم الذين كذبوا بالقرآن وبالذي أرسلنا به الرسول من التوحيد وإخلاص العبادة لله والشرائع الصالحة حياة الإنسان في الدنيا والبتور من الشرك والوثنية والإيمان بالبعث، ثم هددهم ووعدهم بقوله: »فسوس يعلمون« عاقبة أمرهم ووبالقدرهم.

ثم ذكر مضمون التهديد الشديد والوعيد الأكيد بقوله: »إذ الأعدل في أعيثهم والمسلس يسحبون (2) في الحسيم ثم في الكار يسحرون (3) [غافر].«

فمن العجب العجاب أن المشركين الذين يجادلون في آيات الله بغير حق ويكذبون بما يصرعون به عن الهدى إلى الضلال وعن الحق إلى الباطل.

سيعملون بما قريب بطلاً ما هم فيه إذا أدخلوا النار، وعللّت أيديهم إلى أعباقهم، وسحوا بالسلاسل في الحيمي أي العلم الساحن المسحق بنار جهنم، واحاطتهم بهم النار إحاطة تامة. تقول لهم الملائكة بعد دخولهم النار تقريعاً وتوبيحاً: أين أصانكم الذي كنتم تعبدونها من دون الله، ما لكم لا تنتصرون بها اليوم (1).

(1)التفسير المنبر 24/164 بتصرف.
52- الكتاب المفصل آياته

"حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتب فصلت ومضت قرءنا عرضا لقوم
يعلمون بشيرا وتنذيرا فأعرض أصبرهم فهم لا يسمعون" [فصلة].

ورد في فصل القرآن تحت عنوان: القرآن العربي البشير النذير، وتحت رقم (35) يحسن الرجوع إليه.

"حم، عنشق كذ الى يوجي إليك وإليه ولى الدين من قلتك Allah العزيز الحكيم
له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم" [الشورى].

سيرد في فصل الوحي بعون الله تعالى.

"حم، وألّكت البشرين، إنا جعلنا قرءنا عرضا لعلكم تعطلون" [الرفس].

ورد في فصل القرآن الكريم تحت عنوان: القرآن العلي الحكيم، وتحت رقم (39) يحسن الرجوع إليه.

"حم، وألّكت البشرين، إنا أنزلنا في ليلة مباركة إنا كنا منذرين" [الدخان].

فيها يفرق كل أمر حكيم [38].

ورد في بداية الكتاب بعنوان: القرآن - الزمان والمكان.
53- الإيمان بما أنزل الله من الكتاب

قل لِكَ فَأَذَّنَّكَ وَأَسْتَقَمْنَ صَحِحًا َأَمْرًّتُ وَلَأَنْتُ أَحَوْاَهُمْ قَلْ عَمِّيَتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ أَنْ تَحَيَّ فَيْنَ أَنْتُ بِهِ وَلَيْسَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ مِنْ صَحِحِ أَمْرًّتُ لَأُعِيدُ بَيْنَكُمْ بِاللهِ رَتَّبَنا وَرَزَقْنَاهُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَهُ جَنَّةً بَيْنَنا وَبَيْنَنَا وَلِلرَّحْمَانِ وَلِلرَّحْمَنِ يَاكُورُ بِاللهِ فِي آيَاتِنَا مَدَّتْنَا عَلَى الْمُصَّرِّفِ وَلَفَاعَ الْعَدَّةِ شَهَادَةً للهِ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يَدْرِكُ لَعَلَّالسَّاعَةِ قَرِيبٌ أَنْ يَعْجُلَ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقِونَ مِنْهَا وَيُعْلَمُنَّ آنَهُمْ أَحَقُّ أَنْ تَمَّ وَقَّعُوا في آيَاتِنَا لَيْسَ صَلُّ بَعْدَهْ وَقَامَ [الشورى].

في كل آية من كتاب الله، كما في عدة من الآيات أحكام منفردة أو مجموعة أحكام، عدا عن ارتباط الكثير من السور بعضها ببعض، وعموماً فإن كتاب الله هو المعجزة الخالدة البارزة على مدى الدهر، تستبغي منه الأحكام وتقدم الحدود وتكشف المخبأات التي وعد الله تعال بها عباده بإخبارهم بها بعد حين، ففي كل زمان، وفي سنة كل علم، وفي الاكتشافات التي تطلع علينا كثيرة مفاجئة في كل حين، فمثلاً كن كتاب الله تعال يعطيهما الحالول، وبعض التصورات، ويعطينا ما لم نتعلم، وكأنه منزل الآن، فإن الله أيضاً قد هيأ لنا خدمة دينه من يحفظ القرآن، ويعلم تفسيره، ومن يحفظ الحديث ويتعلم مراتبه ومن يجد في ظل كتاب الله تعال الملاذ الآمن دائماً، وتفتح العقول والأذهان والأفكار ليفي القرآن منارنا، وظناً الذي تستظل به، ومرجعنا الحق لكل ما يمكن أن يعتري حياتنا من تقلبات وهو ثابت باق خالد، الحق فيه وفي كل آيته وأحكامه، ووصفه منزله جل وعلا شأنه «لا يَأْتِي البَطِيلُ مِن بَيْنِ يَدَيَّ وَلَا مِن خَلْفِيَّهِ» (فصل: 42).

في كتابنا عن جزء صفة كتاب الله تعالى في كتاب الله، نجد أنفسنا مكتفين أحياناً بأيّة، ولكن في الكثير من الصفات يجب أن نكتب فيما سبق وفيما لحق،
وفيما الخصر بين أيتين، فالأجواب يكون متتاليةً ويكون متأخرًا، ويكون في آية سبقت، أو سورة سبقت لتفت بعد ذلك خسعيين أمام عظمة هذا الكتاب - كتاب الله تعالى الذي ارتفع خلقه ليسود الحق والعدل والسلام - ولعل الآيات السابقات دليل على هذا الارتباط، فلا يمكن أن نقطع بآية دون معرفة سببها وسببها وقد يكون فيما سبق، أو ما قد يلحق، فعلينا للوصول إلى مباغتنا من عرض مستفيض متكاملاً، ألا نقطع الواقع عن السابق أو اللاحق.

ففي الآية (15) من الشورى ذكر كتاب الله وقد سبق في بداية السورة، وأعيد ذكره في الآية (17) وفاجأ أمر ارتباط بالآية (18) - قضية الساعة - حيث ورد الإخبار عنها في الآية (17)؛ ليكتمل الحديث عن هذه القضية في الآية (18).

وهكذا في كثير من الحالات.

وبعد هذا التقدم نعود لربط الآية (15) بما سبقها فهي لاحقة لمعان كثيرة وردت في الآيات السابقات حتى في الآيات التي تصدرت هذه السورة، ولا ننسى المشاركة في السورة مع السورة سبقتها والتي ستلحق بها - والله نرجع أن يهدينا سبحانه ويكشف عن بصائرنا ويعلمنا ما ينفعنا ويزيدنا علماً.

ويربط صاحب الفلالد - رحمه الله - بين هذه الآيات وما سبقها ويبطح صورة الارتباط بالانقياد الإيجاني فيقول: "فاذلك فاذلك وأستمهم كما أمرت ولا تنفع أهواءهم وقلت اتمنى بما أنزل الله من حكمة وأمرت لأعدي بنعبكم الله ربيتي وربكم لنا أعمنا ولكلكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله جميع بيننا وإليه المصير.

إنها القيادة الجديدة للبشرية جمعاء، والقيادة الخازمة المستقيمة على نهج واضح وقين ثابت، تدعو إلى الله على بصيرة، وتستقيم على أمر الله دون أخراج، وتنأى عن الأهواء المضطربة المتناحرة من هنا وهناك.

القيادة التي تعلن وحدة الرسالة، ووحدة الكتاب، ووحدة النهج والطريق،

(1) في ظلال القرآن 5/3150.
وَلَيْ تَرْ دِينِ الْإِلَهَانِ إِلَى أَصْلِهَا النَّابِئِ الْوَاحِدِ، وَتَرْدُّ البُشْرَى كُلًا إِلَى ذَلِكَ الأَصْلِ الْوَاحِدِ. وَقَلِ نَتَّمَتْ بِمَا أَنْزَلَ الَّهُ مِنْ مَكَّةِ. ثُمَّ هُمْ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ.

وَأَمَّرُّ لَأَعْدَلِ بِتَنْكُمْ. فَهِي قِيَادَةَ ذِاتِ سِلْطَانٍ، يَلْعَنُ العَدَلَ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ بِنَايَةً وَشَابَاءَ مَضْطَهَدةٍ هُمْ وَأَصْحَابُهَا، وَلَكِنُّ طَبْعَتِهَا الْمِهيْمِنَةُ الْشَّامِلَةُ تَبْدُو وَفَضَحةٌ. وَتَعَلَّمَ الْرَّبُوبِيَّةُ الْوَاحِدَةُ، "اللَّهُ رَبِّنَا، وَزَيَّنَّكُمْ، وَتَعَلَّمَ فَرْدَةً الْتَّبْعَةِ، "لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُّوهُمْ". وَتَعَلَّمَ إِنِّيْهَا الْجَدَلُ فَبَيْنَ الْفَصِّلِ لاَ حُجَّةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، وَتَكُلُّ الْأَمْرِ كَلِهُ إِلَى اللَّهِ صَاحِبُ الْأَمْرِ الآخِرِ، "اللَّهُ جَمِيعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ".

وَتَكْشِيفُ هذِهِ الآيَةِ الْوَاحِدَةِ عَنِ الْطَّبْعَةِ هذِهِ الرَّسَالَةِ الآخِرَةِ، فِي مَقَاطِعَهَا الْقَصِيْرَةِ الْفَالِصَةُ عَلَى هذِهِ النَّحْوِ الرَّجَمِيَّةِ الْحَازَمِ الدَّقِيقِ، فَهِي رَسَالَةُ جَاءَتْ لِتَمْضِيَ فِي طَرِيقَهَا لَا تَتَأَّثَرُ بِأَهْوَاءِ الْبَشْرِ، وَجَاءَتْ لِتُهْمِنُ فِتْحَقِّقِ الْعَدْلَةِ فِي الْأَرْضِ، وَجَاءَتْ لِتَوَجَّدِ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ كَمَا هُوَ فِي عَقِيَدَتِهِ مَوْحِدٌ عَلَى مَدِيَ الْرَّسَالَاتِ.

وَبَعْدَ وَضُوْحِ الْفَضْحَةِ عَلَى هَذِهِ النَّحْوِ، وَإِسْتِجَابَةِ العَصِيَّةِ الْمُؤْمِنَةِ اللَّهِ هَذِهِ الْإِسْتِجَابَةُ، يَبْدُو جَدِلُ الْمِجَادِلِينَ فِي اللَّهِ مُسْتَنَكْرَا لَا يُسْتَحْقِقُ الْإِلْتِفَاتُ، وَيَبْدُو حُجُّتهُمُ بَاطِلًا فَشَائِلًا لَا غَزْنُ وَلَا حَسَابٌ، فَتَنْهَيُ هذِهِ الْفَقْرَةُ فِي الْفَصِّلِ فِي أَمْرِهِمْ، وَيَكُنُّ لَوْعَيْدَ اللَّهِ الشَّهِيدِ.

وَالَّذِينَ "خَيْرُكُمْ" فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَسْتَجِبَلَ لِهِمْ حُجُّتهُمُ "دَاحِضَةُ عِنْدَ رَبِّكُمْ" وَعَلِيمَهُمُ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ "اللَّهُمَّ اضْرِبْ الْحُجُّجَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَعْدَاهُمَا وَأَعْدَاهُمَا سَيْخَنُوْنَ".

وَمِنْ تَكُونُ حُجِّتَهُ بَاطِلَةٌ مَّغْلُوبَةٌ عَنْدَ رَبِّهِ فَلا حُجَّةٌ لَّهُ وَلَا سِلْطَانٌ. وَوَرَاءَ الْمُرِيزَةِ وَالبَطَالِ فِي الأَرْضِ الغَضِبَ وَالْعَذَابُ الشَّهِيدُ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ الجَزِئُ الْمُنَاسِبُ عَلَى الْلِجَاجِ بِالبَاطِلِ بَعْدَ إِسْتِجَابَةِ الْقَلُوبِ الْخَالِصَةِ وَالْجَدِلِ المَغْرِضُ بَعْدَ وَضُوْحِ الحقِّ الصَّرِيحِ.
ثم بدأ جولة جديدة مع الحقيقة الأولى:

لله إذن أنزل الكتاب بالحق والعدل، وجعله حكما فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة، فيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم، وأقام شرائعه على العدل في الحكم، العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم، وتوزن به الحقوق، وتوزن به الأعمال والتصرفات.

ويتقل من هذه الحقيقة، حقيقة الكتاب المنزل بالحق والعدل إلى ذكر الساعة، والمناسبة بين هذه وهذه حاضرة، فالساعة هي موعد الحكم العدل والقول الفصل والساعة غيب، فمن ذا يدري إن كانت على وشك لا بديلِ لَّعلّ الساعة قريبة الناس عنها غافلون، وهي منهم قريب، وعندها يكون الحساب القائم على الحق والعدل، الذي لا يحمل فيه شيء ولا يضع.

ويصور موقف المؤمنين من الساعة وموثق غير المؤمنين: لا يشعجلَّ بها الزبير لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشيقون منها ويعلمون أنها الحق.

والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها، ولا تقدر ما ينظرون فيها فلا عجب يستعجلون بها مستهترا لأنهم محجوبون لا يدركون، وأما الذين آمنوا منهم مستيقنون منها، ومن ثم هم يشقيرون ويخافون ويتظرونها بوجل وخشية، وهم يعرفون ما هي حين تكون: إنها حق، وإنهم ليعلمون أنها الحق، وبينهم وبين الحق صلة فهم يعرفون.

فلا إلَّا إنَّ الذين يمارونُ في الساحة لِّي ضَلَّلُ بِيَدِي ۝ ۝، فقد أوغلوا الضلال وأبعدوا، فعسير أن يعودوا بعد الضلال البعيد.
وتبدي المناسبة بعيدة في ظاهر الأمر بين هذه الحقيقة وتلك، ولكن الصلة تبدو وثيقة عند قراءة الآية التالية: "مَن كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الْأَجْرَةِ فَلَن يُبْلِدَهُ فِي حَرِيضَهُ، وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الْأُمُورِ فَلَن يُبْلِدَهُ فِي فُتُوحَهُ."

[الشورى] فَاللَّهُ لطيف بعباده يرزق من يشاء، يرزق الصالح والطالح، والمؤمن والكافر، فهؤلاء البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئاً، وقد وهبهم الله الحياة. وكفّل لهم أسبابها الأولية، ولو منع رزقه عن الكافر والفاسق والطالح ما استطاعوا أن يرزقوا أنفسهم، ولما كونوا جوياً وعريباً وعطاشاً، وعجزاً عن أسباب الحياة الأوليّة، وما تحقق كثرة الله من إيجاههم وإعطائهم الفرصة ليعملوا في الحياة الدنيا ما يحسب لهم في الآخرة أو عليهم.

ومن ثم أخرج الرزق من دائرة الصلاح والطالح، والإيمان والكفر، وعلقته بأسباب الوصلوبة بأوضاع الحياة العامة واستعدادات الأفراد الخاصة، وجعله فتنة وابتلاء يجري عليهما الناس يوم الجزاء.
54 - مصدر كتاب الله (1)

حمّ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إن في السماوات والأرض لا يبت أن تؤمنوا (الجاثية).

حمم قد بينا ما قبل فيه، وأوجد الأقوال أنه اسم للسورة، قال على بن عيسى: وفي تسمية السورة بحمّ دلالة على أن هذا القرآن المعجز ملك من حروف المعجم، لأنه سمي به ليدل عليه بأوصافه، ومن أوصافه أنه معجز وأنه مفصل قد فصلت كل سورة من أختها، وأنه هدى ونور، فكان قيل هذا اسمه الدال عليه بأوصافه.

تنزيل الكتاب من الله أضاف التنزيل إلى نفسه في مواضع من السور استفنا بتعظيم شأنه وتخفيف قدره بإضافته إلى نفسه، من أكرم الوجه وأجلها وما اقتضى هذا المعنى لم يكن تكريرًا، فقد يقول القائل: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني اللهم وسع على في رزقي، فأتي بما يؤذن أن تعظيمه لربه منعهد بكل ما يدعو به، وقوله: فين الله يدل على أن ابتداء من الله تعالى.

العزيزي أي القادر الذي لا يبالغ، الحكيم العالم الذي أفعاله كلها حكمة وصواب، إن في السماوات والأرض لا يبت أن تؤمنوا الذين يصدقون بالله وبالملاكين، لأنهم المتفعون بالأيات وهي الدلالات والحجج الدالة على أن لها مدبراً صانعاً قادراً عالماً.

ثم إن هذا القرآن منزل من عند الله القوي الغالب الذي لا يظهر الحكيم في كل شيء تدوره ووصفه في المكان المناسب له، وتحقيقه المصلحة لعباده، ويتضمن إثبات هاتين الصفتين الله عز وجل، كونه قادراً على جميع الممكنات، عالماً بجميع المعلومات، غنياً عن كل الحاجات، فلا يصدر منه البعث والباطل.

(1) جمع البيان في تفسير القرآن 9/72.
ثم ذكر ما تقضيه العزة والحكم، فقال:  بعثت في آسماء وآرض لأي ين في آسماء وآرض لأي
لأي وراءهم في خلق السماوات وخلق الأرض لدلائل قاطعة على وجوده ووحدانيته، وقدره العظيمة، وهذا دليل من الكون، ثم ذكر تعالى دللاً
من الأنفس.

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

1- كون مصدر القرآن الكريم هو الله عز وجل، وليس له أي مصدر آخر سواء.

2- إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته، وقدره بأدلة ستة في ثلاث آيات
الدليل الأول من الكون: خلق السماوات والأرض فهو يدل على وجود الإله
كما ذكر الرازي من ستة وجوه.

أولاً: إنها أجسام حادثة، وكل حادث له حديث.
ثانياً: إنها مركبة من أجزاء تماثلية في مواضع متفاوتة عمقاً وسطحاً مما يدل
على أن وقوع كل جزء في موضعه لابد له من مرجع وخصوص.
ثالثاً: إن الأفلاك والعناصر مع تماثلها في ماهيتها الجسمية، اختص كل واحد
منها بصفة معينة كالحرارة والبرودة، واللطافة والكثافة الفلكية والعصرية، وذلك
لابد له من مرجع.

رابعاً: إن أجرام الكواكب المختلفة في الألوان مثل: كمودة راحل، ويضاء
المشرى، وحمرة المريخ والضوء الباهر للشمس، ودرية الزهرة، وصفرة عطارد،
ونور القمر وغيره، واختلافها في تلك الصفات دليل على أن الإله قادر المختار
هو الذي خصص كل واحد منها بصفته المعينة.

خامساً: إن كل ذلك خصص بحركة إلى جهة معينة، وخصص بمقدرة واحد من
السرعة والبطء. وذلك دليل على خصص. فاعل خيار وهو الله وحده.

(1) التفسير المثير 25/251
(2) تفسير الرازي 37/258.
سادساً: إن كل ذلك خاص بالمهمة معينة، فلا بد من خصص فاعل خثار.

الدليل الثاني والثالث: من الأنفس، وهما خلق الإنسان والندوب بتركيب عضوي عجيب، وخصائص وطاقات مادية ومعنوية مذهلة، يدلنا ذلك على أن هناك خالقاً مبدعاً لتلك الأنفس وهو الله تعالى.

الدليل الرابع والخامس والسادس من الظواهر الكونية: وهي تعاقب الليل والنهار بنحو دائم وتفاوتهما وإنزال الأمطار والثلوج لإحياء الأرض بالنباتات، وتغذية اليابايع والأنهار، وتقليب الرياح وتغييرها. كل ذلك دليل واضح على وجود الله القادر القاهر، الحكيم القادر الصنع البديع الخلق والإنفاذ (1).

إن ما ذكرناه هو أيضاً بيان وشرح لما بدأت به أيضاً سورة الأحقاف كما سيأتي في العنوان التالي.

(1) التفسير المنير 25/254.
55 - مصدر كتاب الله (٢)

فَحَمَّرَ هِلْبَلِ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، فَمَا خَلَقَهَا الشَّمْسُ وَالْأَرْضُ،
وَمَا بَيْنَهَا إِلاَّ الْحَقُّ وَالْحَقُّ مَسْتَنِعٌ وَالذِّينَ كَفَرُوا عَنْهَا أُنْدِرُوا مَعَيْضُونَ.

[الأخفاف].

سُيِّبَت (سورة الأحقاف) للحديث فيها عن الأحقاف، وهي مساكن عاد في اليمن الذين أهلكهم الله بريح صرَّصر عاتية بسبب كفرهم وطغيانهم في قوله تعالى:

«وَأَذَّرُوا أَخًا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قُوَّمَهُ بِالْأَخَافَاتِ» [الأخفاف].

مناسبتها لما قبلها: تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة هي:

1- تطابق مطلع السورتين في: (فَحَمَّرَ هِلْبَلِ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ).
2- تشابه موضوع السورتين وهو إثبات التوحيد والنبوة والوحي والبعث والمعاد.
3- ختمت السورة السابقة بتوبخ المشركين على الشرك، وبدأت هذه السورة بتوبخهم على شركهم ومطالبتهم بالدليل عليه، وبيان عظمة الإله الخالق المجيب من دعاه، على عكس تلك الأصنام التي لا تستجيب لدعاتها إلى يوم القيامة (١).

فَحَمَّرَ هِلْبَلِ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، أي إنه تعالى كمبدأ سورة الجلالة الذي أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ، وليس من عند محمد ﷺ، كما يزعم المشركون، وهو مع هذا التزيل موصوف بالعزلة التي لا يفوقها شيء، فهو القوي القاهر الذي لا يغلب، وهو الحكيم في تدبيره وصنعه وأقواله وأفعاله يضع كل أمر في موضعه، وإذا كان الأمر كذلك فما على الناس إلا الإيمان بالقرآن والتصديق بما جاء فيه والإيمان بصدق محمد ﷺ في نبوته، فيما دعاكم إليه من التوحيد الخالص.

________

١ اللفظ المثير ٦/٢٦
وإثبات البعث والجزاء، ودعوة الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة والأخلاق النافعة الكاملة لما خلقنا السموم والأرض وما بينهما إلا الحق وأجل مسيى، وَأَلَمْ يُؤْتُوا عِمَّا أَنزَلْنَاهُ مَعْرُضَانِ؟ أي: ما أوجدنا وأبدعنا السماوات العلًا والأرض السفلى وما بينهما من سائر الخلق إلا خلقاً متبساً بالحق الذي تقتضيه المشيئة الإلهية، وليس على وجه العبث والباطل، فليس خلقها عبثا ولا باطلاً.

وقد خلقناها إلى مدة معينة محددة لا تزيد ولا تنقص، وهي يوم القيامة، فإن السماوات والأرض والمخلوقات تنتهى، وتبدل السماوات والأرض بغيرها.

أما الذين جهدوا بالله، بالرغم من هذه الأدلة، ومن إنزال الكتب، وإرسال الرسل، فهم لا هون عما يراد بهم، مولون عما خوفوا به في القرآن من البعث والحساب والجزاء، غير مستعدين له وسيعلمون غلب ذلك وعاقبته (1).

(1) التفسير المثير 26/8
56 - الكتاب المسطور

وَالْطُورُ وَكَبِّرْ مَسْطُورٍ وَلَبْنَتُ الْمَعْمُورِ وَالْمَلْفَقِ
الْمَرْفُوعٍ وَالْبَخْرِ أَنْ تَسْجُرْ وَالْمَلْفَقِ إِنْ عَذَّبُكَ لَوْقَعَ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ
(الطور).

إن وردتْ وَكَبِّرْ مَسْطُورٍ وَلَبْنَتُ الْمَعْمُورِ وَالْمَلْفَقِ في جملة هذه الأمور التي يقسم بها الله تعالى في سورة الطور، يجعلنا نعود إلى تركيبة السورة، وهي ليست الوحيدة التي أقسم الله تعالى بها، مثل: وَأَوْلَدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَلْفَقِ إِذَا سَجَى (الضحى)، وأَلْسَمَاء وَالْقَرَاءَ (الطنار) وكثير غير هذا فإن الحديث عن تركيبة السورة ضروري للوقوف على هذا الكتاب الذي أقسم الله به والذي هو: وَكَبِّرْ مَسْطُورٍ.

هذه السورة تمتح جملة عميقة التأثير في القلب البشري، ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تسارعه وتتكدسه إليه وتختعب هنا وهناك في حناءه ودحض كل حجة وكل عذر قد يتخذ للحيدة عن الحق والزغي عن الإمام حلة لا يصبها ماقلب يلقاه، وهي تلاحظه حتى تلجؤه إلى الإذعان والاستسلام.

ويبدأ السورة بقسم من الله سبحانه بمقداسته في الأرض والسماء، بعضها مكشوف معلوم، وبعضها مغيب مجهول: وَالْطُورُ وَكَبِّرْ مَسْطُورٍ وَلَبْنَتُ الْمَعْمُورِ وَالْمَلْفَقِ.

القسم على أمر عظيم رهيب، يرجى القلب رجاً، ويرعب الجسد رعباً في تعبر يناسب لفوّه وملونه الرهيب، وفي مشهد كذلك ترجمه له القلوب إِنْ عَذَّبُكَ لَوْقَعَ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَلْفَقِ إِذَا سَجَى وَتَسْرُّ أَلْجَابَ سَيِّرًا.
(1) [الطور].

(1) في ظلال القرآن 6 / 3391.
(2) في ظلال القرآن 6 / 3391.
هذه الآيات القصيرة، والفواصل المنغمة، والإيقاعات الفاصلة، تصاحب السورة في مطلعها، وهي تبدأ كلمة واحدة، ثم تصبح كلمتين، ثم تطول شيئاً فشيئاً حتى تبلغ في نهاية المقطع الثني عشرة كلمة مع المحفوظة الكاملة على الإيقاع.

والطور: الجبل فيه شجر، والأرجح أن المقصود به هو الطور المعروف في القرآن. المذكور في قصة موسى عليه السلام، والذي نزلت فوقه الألواح، فاجو جو مقدسات يقسم بها الله سبحانه على الأمر العظيم الذي سيجئ.

والمكتوب المنشور في رق منشور الأقرح أن يكون هو كتاب موسى الذي كتب له في الألواح للمناسبة بينه وبين الطور، وقيل هو اللوح المحفوظ تمشياً لما بعده: البيت المعمور، والسقف المرفوع، ولا يمنع أن يكون هذا هو المقصود.

والبيت المعمور يكون الكعبة، ولكن الأرجح أن يكون بيت عبادة الملائكة في السماء لما ورد في الصحيحين في حديث الإسراء. ثم رفع إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم: «يعني تتبعون فيه ويطوفون به» كما يطوفون أهل الأرض بكتابهم» (1).

وفي رأي آخر: «والطور» أقسم به الله سبحانه بالجبل الذي كلم عليه موسى عليه السلام، الأرض المقدسة - عن جمعة من المفسرين وقيل هو الجبل؛ أقسم به لما أودع فيه من أنواع نعمة - عن مjahد والكلي.

و«كتاب المـَسْتَعْطِر» أي مكتوب وهو الكتاب الذي كتبه الله ملائكته في السماء يقرؤن فيه ما كان وما يكون، وقيل: هو القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ وهو الرق المنشور.

وقيل: هو صحف الأعمال التي تخرج إلى بيي آدم يوم القيامة فمنهم خذ كتابه بيمينه وأخذ بشماله وهذا كقوله: «وَخَرَجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صِحِبَتِهِ يَلْقَفُهُ مَنْشُوْرًا» (الإسراء) عن القرآن.

(1) في ظلال القرآن 96/3 بتصرف.
(2) مجمع البيان في تفسير القرآن 163/27.
وقيل: هي التوراة كتبها الله لموسى فحص الطور بالذكر لبركتها وكثره منافقها في الدنيا وذكر الكتاب لعظم موقعها من الدين، عن الكلب.

وقيل: إنه القرآن يكتب المؤمنون في رق منشور أي وينشرون له قراءته والرق ما يكتب فيه، وقيل: الرق هو الورق عن أبي عبيدة.

وقيل: إذا ذكر الرق لأنه من أحسن ما يكتب فيه، وإذا كتب الحكمة فيما هو على هذه الصفة كان أبيه والمنشور المسوط.

والبيت المموري - كما ذكر عند الرأي الأول.

إلى هنا يقف الحديث عما ذكر في كتاب الله من لفظ الكتاب. وهو الاسم الثاني الذي خص الله تعالى به القرآن الكريم. توخيت أن أحصى كل ما ورد في ذلك، وسعت لاقف على جميع التفسيرات المتاحة لكلمة الكتاب (القرآن الكريم)، وذلك لارتباط هذا الاسم مع كثير من المفاهيم والأحكام والمعجزات كما مكنى الله تعالى من الحديث عنها.

لا أدعى الكمال جال فالمالم الله وحده، وحن خظئون، ثابرون إن شاء الله. لندخل فيما ورد أيضاً من صفات هذا الكتاب الجليل. الذي أرحى الله تعالى أن يجعله شفيعاً مشفعاً لي يوم القيامة وأن يبينه الله تعالى على كل حرف مما كتب توخياً لمرضاة جل وعلا، واعترافاً بعظمة هذا الكتاب الكريم الذي هو رحمة للعالمين.

(1) انظر أيضاً: تفسير القرآن العظيم 256/4.
فصل
الفقران

1- منزل الفقران: {الله} لا إله إلا هو آلِه أللَّهِ الْقَبْلُونَ [آل عمران]

2- التقي والقرآن: يَتَّبِعُهَا الْذِّينُ يَأْمَنُونَ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ [الأنفال]

3- تبارك الذي نزل الفقران: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفَرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ [القرآن]
1- منزل القرآن

الله لا إله إلا هو أُسَمِّي الْقُرْآنُ تَزَوِّل عَلَيْكَ الْكَتَابُ بِالْحَقِّ مُصْدِقًا.

لِمَا بَيْنِ يَدِهِ وَأَنْزِلَ الْقُوْرُسُنَّ وَالْإِلْحَٰجِلَ مِنْ قَبْلِ هُذِهِ الْمَنْهَاسِ وَأَنْزِلَ الْفَرْقَانَ إِنَّ الْمَلَأِنَّهُمْ كَفُرُوا بِبَيَانِي إِنَّ اللَّهَ لَا عَذَابٌ شَدِيدٌ وَلَا عَذَابٌ لِّدِينٍ إِلَّا إِنَّا آتِيْنَاهُم مَّعَنَّىٰ} (آل عمران).

سمي القرآن الكريم بأسماء ثلاثة: وهي القرآن، الكتاب، والقرآن. وله الكثير من الصفات التي تدل عليه وهو ما سيكون موضوع هذا البحث وفيها الهدي، التنزيل، الآيات، والذكر، والبيان. وغيرها كما سيرد لاحقًا.

ذكر القرآن باسمه القرآن في ثلاثة مواضع تحدثنا عن الأولى فيها وهي تسمية القرآن باسمه في مطلع سورة آل عمران وتأتي الانتهاء في موضوعهما إن شاء الله تعالى وقد درسنا هذه التسمية في بحث الكتاب لورود هذه التسمية في بحث الكتاب لورود هذا الاسم مقدماً على اسم القرآن في بحث: «الكتاب المنزل بالحق وتحت رقم 8».
2- النقي و الفرقان

"َيَقُولُوهُمُ اَلْبَيْنَاءُ اَلْبَيْنَاءُ إِنَّا نُبَتِّحُكُمُ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفُرْ عَنْهُمْ سَيَنَافِكُمْ"

وَيَغْفِر لَكُمْ وَلَدَّهُ دَوْاً الفَضْلِ الْعَظِيمِ (1) [الأنفال].

أجمع المفسرون أن كلمة الفرقان هنا تعني: ما يفرق بين الحق والباطل، وفي أن إضاءة هذا الفظ على القرآن الكريم في آثين: لا يعد المعنى كثيراً؛ لأن الفرقان ( القرآن ) أيضاً يفرق بين الحق والباطل. ولكن التفريق بين الحق والباطل سواء أكان في القرآن الكريم أو في طاعة الله تعالى فإنها تبقى بذات المعنى. وفي الآية تأكيد للنصوص التي تمتلك بها القلوب وتطبع بها النفس، وتهدف بها القلوب المؤمنة يجعل الله للمتقبلين فرقاناً.


وقيل: الفرقان: المخرج من الشبهات، والنجاة من كل ما يخافونه، ومنه قول الشاعر:

مالك من طول الأسى فرقان
بعد قطين رحلوا وبانوا

ومنه قول الآخر:

وكيف أرجي الحبل والموت طلي، ومالى من كأس المنية فرقان

وقال الفراء: المراد بالفرقان: الفتح والنصر، قال ابن إسحاق: الفرقان:
الفصل بين الحق والباطل. وبعثه قال ابن زيد.

(1) فتح القدير : 9 345/6
وَقَالَ الْسَّدِّي: الْفَرْقَانِ: الْجِنَاحُ ، وَيُؤيِّدُهُ تَفْسِيرُ الْفَرْقَانِ بِالمُحْرِجِ وَالنَّجَاحُ . قُوْلُهُ
تَعَالَى: ۚ وَمِنْ يَتَّبِعُ اللَّهَ مَعَهُ ظَهْرًا (الْطَّلَاقِ: ۲) وَبَعْدَهُ قَالَ مَجاهِدُ وَمَالِكُ بْنِ أَنْسٍ
ۚ وَيُنْفِرُ عَنْكُمْ سَيْتَائْكُمْ ۖ أَيْ يِسْتَرِهَا حَتَّى تَكُونَ غَيْرُ ظَاهِرَةٍ ۚ وَيُغْفِرُ لَكُمْ
ما أَفْتَرَفَتْ مِنَ الْذَّنْوِبِ . وَقَدْ قَالَ: إِنَّ الْمَرَادَ بِالسَّيِّئَاتِ: الصَّغَائِرُ وَبِالْذَّنْوِبِ الَّذِي
تَغْفِرُهُ الْكِبَارُ وَقَلِيلٌ: الْمَعْنَى: إِنِّي يُغْفِرُ لَهُمْ مَا تَقْدِمُ مِنَ الْذَّنْوِبِ وَمَا أَتَّخَذَهُ ۚ وَلَهُ الْفَضْلُ الْعَظِيمُ ۖ فَهُوَ الْمَتَفْضِلُ عَلَى عِبَادِهِ يَنْفِرُ السَّيِّئَاتِ وَيُغْفِرُ الْذَّنْوِبِ
وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنِ جَرِيرٍ وَابْنِ الْمَذْرِرَ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قُوْلِهِ: ۚ يَجْعَلُ
لَكُمْ فَرْقَتًا ۖ قَالَ: هُوَ الْمُحْرِجُ . وَأَخْرَجَ ابْنِ جَرِيرٍ عَنْهُ قَالَ: هُوَ النَّجَاحُ . وَأَخْرَجَ
ابْنِ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرِمَةِ مَثِلِهِ ، وَأَخْرَجَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الْشَّيْخِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالُ:
هو النَّصرٌ .
٢- تبارك الذي نزل القرآن

» تبارك الذي نزل القرآن على عبده، ليكون للعالمين تذيرًا. أَلَّذِي لَهُ ملک السموات والأرض، ولم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق سبحانه في صنع شيء، فقادره. تقديراً، واحتدوا من دومنه، إلهه لا خلقه، شياً، وهم مخلقون ولا يملكون أنفسهم ضراً ولا تفاص ولا يملكون موتا ولا حياً ولا نشوراً.

وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك أفتره وأعانه على قوم اخترعون فقد جاء ومكره وقولوا أسطير الأولين أَسْكَنْتَهَا فهُي تُمَّلِعَ عَلَيْهِ بَحْرَةً وأصيلاً.

فقل أَنْزِلْ النَّزِيرَ يَعْلَمُ الْبِيْتَ في السموات والأرض إننه، حكمن غفورًا رحيمًا. [القرآن]

القرآن: اسم ثالث للقرآن الكريم مع القرآن وكتابه وافتتاح هذه السورة المباركة التي سميته بسورة القرآن، دليل عظمة هذا الاسم وعلو رفعته ومعنى.

وردت كلمة القرآن في القرآن مرتين. في قوله تعالى: (١) نزل عليك النزلات بالحق مصدقًا، إما بين يدك وأُنزل القرآن، والآية (٢) من قتل هدى للناس ونزل القرآن (آل عمران) والمرة الثانية في هذه الآية وتحديدًا في الآية رقم (١) من سورة القرآن.

ورد أيضًا به معرفة الكتاب في آتيين ذكر بهما موسى عليه السلام وما نزل عليه بقوله تعالى:

(١) وَإِذْ أَيْتَنَا مُوسَى عَلَى الْكِتَابِ وَالْقُرْآنِ لَعَلَّكَ تَهْدَّنَا (البقرة).

(٢) وَلَقَدْ أَيْتَنَا مُوسَى وَهُذِينَ الْقُرْآنَ وَضِيَاءًا وَذَرَّا لِلنَّطْفِينَ (الأنبياء).

وردت الكلمة أيضًا به معرفة الذكر في الحق من الباطل بقوله تعالى:
وورد مرة واحدة بذكر يوم بدر بروم القرآن وهو ابتداء الصدام بين الحق والباطل في معركة فاضلة وهي غزوة بدر بقوله تعالى:

«وَمَا أُنزِّلْنَّا عَلَى عِبَادٍ يَوُمَّ الْفَرْقَانِ» (الأنفال: 41). 


والمراد يبعد نبينا محمد ﷺ، ثم علل التنزيل: لِيُكُونُ لِلْعَلَّمِينَ تَذِيرًا (4).

فإن الذارة هي الفرض المقصود من الإزلان، والمراد: محمد ﷺ أو القرآن: والمراد بالعالمين هنا: الإنسان والجنب: لأن النبي ﷺ مرسى إلهمها، ولم يكن غيره من الأنباء مرسى إلى التقلين، والذرير والمذرر: أي: ليكون محمد منذرًا، أو ليكون إزلان القرآن منذرًا، ويجوز أن يكون النذير هنا معني المصدر للمبالغة: أي: ليكون

(1) معجم كلمات القرآن العظيم - محمد عدنان، دار الفكر، دمشق كلمة (فرقان).
(2) فتح القدر: 180/170-172 بتصرف.
إنزاله إنشادًا، وجعل الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم أولى؛ لأن صدور الإنذار منه حقيقة، ومن القرآن جازًا، والجمل على الحقيقة أولى ولكونه أقرب مذكور، وفيه: إن رجوع الضمير إلى الفرقان أول لقوله تعالى: "إن هذا القرآن يُندى إلى النبي هى أقوم".

[الإسراء: 9] [ثم إنه - سبحانه - وصف نفسه بصفات أربع:

الأولى: "له، ملك السماوات والأرض" دون غيره فهو المتصدر فيهما، ويحمل أن يكون الموصور الآخر بدلاً أو بياناً للموصول الأول والوصف أولى، وفيه تشبه على افتقار الكل إلى في الموجود وتواضع من البقاء وغيره.

والصفة الثانية: "ولَمْ يَتَخَشَّى وَلَدًا" وفيه رد على النصارى واليهود.

والصفة الثالثة: "ولَمَ يَكُنْ لَهُ شريك"، وفيه رد على طوائف المشركين من الوثنية والثنوية وأهل الشرك الخفي.

والصفة الرابعة: "وَخَلَقَ سَلَةٌ شَيْءًا" من الموجودات: "قدَرُره، تقديرًا".

أي: كل شيء ما خلق يحكمه على ما أراد وهباه لما يصلح له. قال الواحد: قال المفسرون: قدر له تقديرًا من الأرض والرزق. فجرت التقدير على ما خلق وقيل: أريد بالخلق هنا مجرد الإحداث، والإيجاد - جازًا - من غير ملاحظة معنى التقدير، وإن لم يحل عنه في نفس الأمر فيكون المعنى: وجد كل شيء فقدمه للأخلاق، ثم صرح - سبحانه - بتزويج مازا زابع عبد الأومن فقال:

» أن تخذهما من دونه "الله" والضمير في اتخاذهما للمشركين وإن لم يقدمهم لهم ذكر لدلالة نفي الشرك عنهم، أي اتخاذ المشركين لأنفسهم - متعززين الله - آلهة: "لا تخفقون، شرك" والجملة في محل نصب: صفة لآلهة أي: لا يقدرون على خلق شيء من الآشوب، وعلى العقلاء على غيرهم؛ لأن في معبدات الكفار: الملائكة وعزيراً، والملح: "وهَمْ تخفقون" أي مخالكون الله - سبحانه - وقيل:

عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جريًا على اعتقاد الكفار أنها تضر وتتفع.

وقيل: معنى "وهَمْ تخفقون" أن عبديهم يصورونهم. ثم لما وصف -
سبحانه - نفسه بالقدرة الباهرة، وصف الله المشركين بالعجز البالغ فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لَـنْفُسِهِمْ شَيْءًا وَلَا نَفْعًا﴾. أي لا يقدرُون على أن يجعلوا لأنفسهم نفعاً ولا يدعوا عنها ضراً، وقدم ذكر الضر لأن دفعه أهم من جلب النفع، وإذا كانوا يحثون لا يقدرُون على الدفع والنفع، فما يتعلق بأنفسهم، فكيف يملكون ذلك من يعبدهم.

ثم زاد في بيان عجزهم قصصاً على هذه الأمور فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْئَا وَلَا حَيَاةٌ وَلَا نُشُورَ﴾. أي لا يقدرُون على إماتة الأحياء، ولا إحياء الموتى، ولا بعثهم من القبور، لأن النشور: الإحياء بعد الموت، يقال: أنشر الله الموتى فشروها، ومنه قول الأعشى:

﴿يا عجبًا للملت للملت الناشر،﴿

ولما فرغ من بيان التوحيد، وتطبيع مذاهب المشركين، شرع في ذكر شبه منكري النبوة:

فالشبهة الأولى: ما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَقَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾. أي: كذب ﴿أَفْرِنُهُ﴾ أي اختلقه محمد ﴿والإشارة بقوله هذا إلى القرآن الكريم وآياته عليه﴾. أي: على الاختلاق ﴿قُوماً أَخُرُوا﴾ ﴿يُعْتُونَ الْيَهُود﴾.


فلهذا عجزتُ عن معارضته، ولم تأتوا بسورة من مثله. وخص السر للإشارة إلى انطواء ما أنزله - سببانه: على أسرار بديعة لا تبلغ إليها عقول البشر، والسر الغيب: أي يعلم الغيب الكائن فيهما وجلبه: إنه؛ حكماً غُفَورًا رَحِيماً (ي تعيل لتأخير العقوبة). أي إنكم وإن كنت مستحقين لتعجيل العقوبة مما تفعلونه من الكذب على رسوله والظلم له، فإنه لا يعجز عليك بذلك؛ لأنه كثير المغفرة والرحمة.

وخرج عبد بن حيد، وأبي المنذر، وأبي حاطم عن قنادة قوله: ۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚۚ

وفرق الله به بين الحق والباطل.
صاحة كتاب الله في كتاب الله

لم يكون لِلَّذِيْنِ يَدِّرَةً مَّن نَّذِيرًا قال: بِإِنَّهُمْ هُمَا نَّذِيرًا مِّن اللَّهِ لِلَّيْتِذِرُ النَّاسُ بأَمَرِ اللَّهِ وَوَقَاعِه بِمَن ضَلَّ مَثَلَكُم مَّعْلُومٌ وَخَلَقَ شَيْءًا فَقَدَّرَهُمُ الْقِدَّرَةُ قال: بِنَفْسِي لَكُلِّ شَيْءٍ مِّن خَلْقِهِ صَالِحٌ وَجَعَلَ ذلِك بِقَدَرِ مَعْلُومٍ وَأَخَذَهُمْ مِّن دُونِهِ الْهَيْهَةَ قال: هَيْ الأَوْثَانَ الَّتِي تَعْبَدُونَ مِنْ ذِنُوبِهِمْ لَا تَخْلَقُونَ شَيْئاً وَهُمُ الْخَلَقُونَ وَهُوَ الْخَالِقُ الْرَّازِقُ

وَهَذِهِ الأَوْثَانُ تَخْلَقُونَ لَوْ تَخْلَقُونَ شَيْئاً لَا تَطُورُونَ وَلَا تَتَفَعَّلُونَ، وَلَا يَذْكَرُونَ مَا أَتَى وَلَا حُيَّةٌ وَلَا نَشْرُ أَبْعَاثًا: يُعِينُ بُعُوثاً. وَقَالَ اللَّهُ ﷺ: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَذَا قُولُكَ مَشْرِكِي الْعَرَبِ: إِنَّ هَذَا إِلَّا إِنَّكُ الَّذِيْنِ كَفَّرُوا وَقَالَ اللَّهُ ﷺ: أَقْتِرَنَّهُ وَأَعِنَّاهُ عَلَيْهِ إِنَّكُ حَدِيثُ هَذَا وَأَمْرُهُ: قُوُّمُ أُحْرُورُونَ، أَسَطِيرُ الأَوْلِيَاءُ كَذِبَ الأُولِياءِ وَأُحْرُورُونَ
فصل الآيات
1 - الآيات البينات

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْقُوْرُسَةَ وَمَا يَكُفُّرُ بَياْثَا إِلَّا الْقَسَّامُونَ أَوْ كَلَّمَهُمَا

عَنْهُمُوا عِندَهُمَا تَبَيِّنَتْهُمَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ مُصْدِقٌ لَّمَّا مَعَهُمْ نَزَّلَ فَرِيقٌ مِنْ أَنْبِئِنَّ أُفُوْنَا إِلَّا كَبِبْسُ سَيْبَبَ اللَّهُ وَرَأَى

ظُهُورُهُمْ كَانُوا لَا يُعَلُّمُونَ {بَكْرَةٌ} مَّكَرَر بِمَعْرِضٍ أَخْرَ.

والآية: العلاقة ... وزنها فعَّلَهُ في قول الخليل، وذهب غيره إلى أن أصلها آية.

فَعَلَتْ فَقْلَبَتْ الْبَيْاءَ أَلْفَةً لَّا نَفْتَاحَ ما قَبْلَهَا - وَهَذَا قَلِبٌ شَاذٌ

قَوْلُهُ عِنْدَ عِزٍّ وَجُلَّ: {يُسْتَرِيِّهِمْ آيَاتُنَا فِي الأَقْفَاقِ وَيُعَفِّفُونَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}

{وَأَوْلَمْ يَكُفَّنَ يُبْرَيكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ مَثَلٍ شَهِيدٌ} [فصلة]

وقال الزجاج: معناه نربيهم آياتنا التي تدل على التوحيد في الآفاق، أي آثار

من قبلهم من خلق الله- عز وجل- في كل البلاد وفي أنفسهم من أنهم كانوا نطفا

ثم علقة ، ثم مضغأ . ثم عظاما كسيت لحما، ثم نقلوا إلى التمييز والعقل وذلك

كله دليل على أن الذي فعله واحد ليس كمثله شيء ، تبارك وتقدس.

والآية من التنزيل. ومن آيات القرآن العزيز.

قال أبو بكر: سميت الآية من القرآن لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام.

ويقال: سميت الآية آية لأنها جماعة من حرف القرآن، وأيات الله عجائبها.

وقال ابن حزة: الآية من القرآن: كأنها العلامات التي يفضي منها إلى غيرها.

كأعلام الطريق المنصوبة للهداءة كما قال:

إِذَا مَضَى أَعْلمُ مِنْهَا بِدَا عِلَم

والآية: العلامة. وفي حديث عثمان: أحتجهما آية، وحمرتهما آية.

قال ابن الأثير: الآية المحلة قوله تعالى: {لَإِلَّا مَا مَلَكَتَ أَيْمَانَكُمْ} [النساء: 24]
الآية: العبرة، وجمعها آية قال الفراء في كتاب المصادر: الآية من آيات القرآن والعبرة. سميته آية. كما قال تعالى: {لقد كان في يوسف ويهوده، إني لرسول للناس}. (يوسف) [بسم الله الرحمن الرحيم] أتى أمور وعبر مختلفة، وإما تركت العرب همتهما كيفهما يهمزون كلما جاءت بعد ألف سنة؛ لأنها كانت في الأصل آية. فثبت عليهم التشديد فأدبوا ألا لانتقاح ما قبل التشديد.


وجمع الآية: آية وآيات؛ وأنشد أبو زيد: لم يبق هذا الدهر من آياته. 

لقد وردت حوالي ست وعشرون من آيات القرآن الكريم تعنيه: أو تعني أجزاء منه، أو تعني صفته المجزرة، أو تعني كما ورد في معاناه عجائب أو محرمات. أو تحيل أو تحريم أمر من أمور الشريعة، وسنقف إن شاء الله على المعاني التي تربطنا بالقرآن من أي جملة كانت. قوله تعالى: {ولقد أنزلنا إليك آيات يثبت، وما يكفر بها إلا القفراء} [البقرة].

اللغة: الآية: العلامات التي فيها عبرة؛ وقيل: العلامات التي فيها الحجة والبينة.

الدلالة الفاصلة الواضحة بين القضية الصادقة والكاذبة مأخوذة من إبانة أحد.

(1) لسان العرب - ابن منظور 1400، 1411 - دار لسان العرب، بيروت.
الشيئين من الآخر ليزول التباسه به.

النزل:
قال ابن عباس: إن ابن صوريا قال لرسول الله ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتبعها فانزل الله هذه الآية.


وقيل: هي النزورة، والإنجيل والإخبار عما غمض ما في كتب الله السالفة من الأمام، كقوله تعالى: ﴿فيا أهل البيت قد جاء صم رسلنا ببينٍ لكم كثيرة ممآ صمتم تخفى من كتبكم وبعضها عن كثير قد جاءكم من اسم الله نور﴾ ﴿وبيّنت مبين﴾ (المائدة).

(بنت)
أي: واضحات تفصل بين الحق والباطل ﷺ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴿بنت﴾، ومعناه الفاسقون، إذا سمى الكافرون، وإنفسهم، لأن الفسق خروج من شيء إلى شيء، واليهود خرجوا من دينهم وهو دين موسى بكذيب النبي ﷺ، وإن لم يقل الكافرون، وإن كان الكفر أعظم من الفسق لأحد أفراد.

أحدهما: إن المراد أنهم خرجوا عن أمر الله ﷺ إلى ما يعظم من معاصيه.

والثاني: إن المراد به أنهم الفاسقون المتمردون في كفرهم، لأن الفسق لا يكون إلا أعظم أنفسهم الكافرون، فإن كان في الكفر فهو أعظم الكفر، وإن كان فيما دون الكفر فهو أعظم المعاصي. أوردت كتب التفسير في شرح هذه الآيات الكثير من تاريخ بني إسرائيل وشرورهم، ونقد عهدهم وعهدهم لكتبهم تستخلص منه ما يلي:

- هذا سجل من قبائح اليهود أوضحه الله تعالى وهو من أخبار الغيب التي لا يعلمها إلا علام الغيب، وقد رصد فيه عيونًا أربعة هي:

(1) البيان في تفسير القرآن 1 / 168.
(2) التفسير الميّر 1 / 240.
1- التكذيب بآيات الله وبياناته وأدلته الواضحة القاطعة على وجوده ووحدانيته وربوبيته ولزوم عبادته وإطاعة أورامه وإجتناب نواهيه.

2- عدم الثقة بهم في أي شيء؛ لأنهم دأبوا على نقش العهود والغدر بالمعاهدين في كل زمان.

3- انقطاع الأمل وسد باب الرجاء في إيمان أكثرهم؛ لأن الضلال قد استحوذ عليهم.

4- لم يبذل فريق منهم كتاب الله (الكتاب) جملة وتفصيلا، بل نبذوا منهم ما يبشر بالنبي ويبين صفاته وما يأمرهم بالإيمان به، فإنما في كتابهم من البشارة بنى يبني من ولد إسماعيل لا ينطبق إلا على النبي الكريم.
2- آية خير من آية

ما نسخ من ءاية أو نسبيها تأتي بحثتِ مثناها أو مثليها. ألم تعلم أن الله علّى كل
شيء قادرٌ [ البقرة ]

المعنى اللغوي: ما نسخ: النسخ في اللغة: الإزالة. يقال: نسخت الشمس
الظل: أي إزالته.

الإنساء: إهداء الآية من ذاكرة النبي ﷺ بعد تبليغه إياها. فمعنى نسبيها: نبيح
لكم تركها، من نسي: إذا ترك: ثم تعدى بالألف.

تأتي بحثتِ مثناها: أنفع للعباد في السهولة أو كثرة الأجر.

أو مثليها: في التكليف والثواب.

على كل شيء قادرٌ [ البقرة ] ومنه النسخ والتبديل.

سبب النزول:

قال المفسرون: إن المشركون قلوا: أترون إلى محمد بأمر أصحابه بأمر، ثم ينهوا
 عنه ويأمرهم بخلافه. ويقول اليوم قولاً، ويرجع عنه غداً. ما في هذا القرآن إلا
 كلام محمد يقل به من تلقؤ نفسه، وهو كلام ينافض بعضه بعضاً مثل: تغوير حد
 الزانية بالتعبير باللسان فقاذوهما، والزانية بالإمساك في البيوت
 فأمسكوهما [ النساء: 15 ] إلى الجلد، فأنزل الله: وإذا بدلتِما ءاية مصائب
 بأيّة وألة أعلم بها، لا ينزن قالتوا إنما أتى مفترٌ بل أكثرهم لا يعلمون [ النحل ].

وانزل أيضاً: ما نسخ من ءاية أو نسبيها تأتي بحثتِ مثناها أو مثليها. ألم تعلم أن
الله علّى كل شيء قادرٌ [ البقرة ]
التفصيل: نزل القرآن منجما مفرقا لا على وفق المناسبات والحوادث والوقائع أخذًا ببداية تروبي ناجح آله وهو التدرج في التشريع لإصلاح المجتمع العربي الجاهلي تدريجيًا، ومراعاة للمصالح وتمكنها من التخلص من العادات والتقاليد الموروثة شيئاً فشيئاً، وإعدادًا للحكم الشرعي المستقر بقبول النفس له وتزويتها على وفق العادة الشرعية بنحو بطيء، واقتناع عقله ذاتي بأفكار التشريع ومراميه البعيدة، فإذا توافرت المصلحة العامة للأمة بقي الحكم وإن لم توافر بأف功 عدل أو بدل ونسخ.

والنسخ الذي هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعى متاخر يكون إما بنسخ لفظ الآية ومعناها أو أحدهما، أو بانتهاء الحكم المستفاد منها مع بقاء نصها، كل ذلك يحسب المصلحة أو الحاجة، كالطيب الذي ينوع الأدوية والأغذية، واحتلاف الأزمة، والمرارة، والأحوال الصحية، والأنباء، صلوات الله وسلامه عليهم أطباء الأمة، ومصلحو النفس، يوحي إليهم تبديل الحكم الشرعي لمراعاة الأحوال الحاضرة أو المستقبلية، فما قد يصلح علاجًا في الماضي قد لا يصلح في المستقبل، وذلك كله يدل على مرونة الإسلام.

وليس النسخ لظهور أو إبداء المصالح الجديدة المقنعة لتغيير الحكم، فالطريقة - سببانه: النسخ يعلم الماضى والحاضر والمستقبل، وهو يتدرج في معالجة الأوضاع تبعاً للظروف والأحوال منها من الفائدة وأحكام الطفرة؛ كالتدرج في تجريم الخمر أو الربا، الذي مر بمراحل أربع، والتدرج في تقرير أحكام الجهاد من مسلم مطلق إلى إعداد النفس، إلى فرضية القتال يحسب الضعف، ثم يحسب القوة وكثرة العدد.

ومعنى الآية: ما نغير حكم آية، أو نجعل تساها فلا تذكرها، أو تأمر بتركها، أو توجبها إلا أن تكون بها هو خير منها للعباد بكثرة الشواب إن كان النسخ أثقل أو تحقيق المصلحة إن كان النسخ أخف، أو مثلها على الأقل في التكليف والثواب. قال الفخر الزاهي: وقد جاء النسيان بمعنى الترك في قوله تعالى: فَقَنِىَّ وَلَمْ يُرْضِيَ عَزْرَمَا (8) [ طه]، أي فنزل، وقال تعالى: وَقَالَ الْمُؤْمِنُ نَسْتَنْكِرُ كُمَا تُؤْمِنُو
ليس الله على كل شيء قادر؟ فهل قدراً على كل شيء لا يصعب عليه نسخ الأحكام.
والله؟ فهل هو يملك كل ما في الكون أرضه وسمائه، ويتصرف بحسب إرادته ومشيئته. ويدبر الأمور حسبما يري من المصلحة فله أن ينسخ ما شاء من الأحكام، وليس لكم ولا سواء توالت أموركم، ولا ناصر ولا معين ينصركم ويعينكم وعلى هذا فبيح للمسلمين أن يجلوا بما يأمرهم به رسلهم، وينتهوا عما نهاه عنه (1).

(1) التفسير الميسر، 1 / 266 فما بعدها بتصرف.)
بحث ضروري في أحكام النسخ:

كتب الدكتور وهبة الزهيلي في كتابه: التفسير المثير بحثاً مستفيضاً حول النسخ وعنه ورد هذه الآية، ودرءاً للأقاويل التي تزيد إثارة الفتى نسق هذه الدراسة.

وقوع النسخ: النسخ جائز عقلاً بإجماع أهل الشرائع ما عدا اليهود والنصارى وواقع شامل بإجماع المسلمين، ما عدا أبا مسلم الأصفهاني.

ودليل الجواز العقلي: أنه لا يترتب على فرض وقوعه حال، وهو معنى الجواز.

أما لو راعينا في أحكام الله مصلوح العباد، وأنا التشريع قائم على أساس المصالح، كما تقول المتزلفة، فالمصالح تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان.

وما دامت المصالح تتغير، والأحكام يراعي في تشريعها مصالح الناس، فإن النسخ أمر ممكن غير مجال، سيكون جائزًا عقلاً.

وأدلة وقوع النسخ عقلاً كثيرة:

منها: إجماع الصحابة والسلف على أن شريعة محمد نسخة لجميع الشرائع السابقة، أي في غير أصول العقيدة والأخلاقي، مثل: تحريم الشحوم وكل ذي ظفر على اليهود بسبب ظلمهم، وأكلهم أموال الناس بالباطل بالربا وغيره.

ومنها: الإجماع على نسخ وجب التوجه إلى بيت المقدس، باستقبال الكعبة وعلى نسخ الوصية للوالدين والأقران بآية الموايت. ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان، ونسخ جواب تقديم الصلدة بين يدي مناجاة للنبي بالعفو عنه.

(1) المصدر السابق 1/ 262 فما بعدها.
أما أبو مسلم الأصفهاني من علماء التفسير المتوفى سنة 232 هـ فأنه أجاز النسخ مطلقاً بين الشرائط كما هو المشير عنه. ولكنه مع وقوعه في الشريعة الواحدة. مستنداً بقول الله تعالى في صفة القرآن: ﴿لا يأتِيه البطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم خнизٍ﴾ (فصلت). فلو وقع النسخ في القرآن لأطاح الباطل. وأجيب بأن النسخ إبطال، لا بطل؛ لأن النسخ حق وصدق والباطل ضد الحق. كل ما في الأمر أن يصبح حكم المنسوخ غير معمول به، فلا دلالة في الآية على مطلوب الأصفهاني. ثم إن كل آية قبل فيها: إنها مسومة فإنه يؤولا تأويلًا، إما بالتخصيص، أو إنهاء أمر الحكم الشرعي، أو بالتقيد ببعض الأحوال، أو الأشخاص، وتحذير ذلك كما فعل في آيات العدة وأيات القتال وغيرها .. الآتيه.

أنواع النسخ: للنسخ أحوال نسخ أهمها ثلث:

1- نسخ التلاوة والحكم معاً؛ مثل نسخ صحف إبراهيم وموسى والرسل السابقين ومسند النسخ عدد الرضعات من عشر إلى خمس. قالت عائشة رضي الله عنها: كما في صحيح مسلم وغيره: «كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يجرمن، فنسخ بخمس رضعات. فتوفي رسول الله ﷺ، وقيل فيما يلي من القرآن والقسم الأول مسومة الحكم والتلاوة، والقسم الثاني وهو الحكم مسوم في التلاوة باقي الحكم عند الشافعية.

2- نسخ التلاوة دون الحكم، مثل قول عمر ﷺ: «كان فيما أنزل الشيخ والشيخة إذا زني فارجوهما البثة: نكالاً من الله ورسوله» ثبت في الصحيح: أن هذا كان قرآناً يتيّى، ثم نسخ لفظه، وبيه حكمه.


3- نسخ الحكم دون التلاوة، وهو كثير. مثل نسخ حكم آية الوصية للوالدين.
وللتمييز. ونسخ آية الاعتداد بحول كامل، ونسخ آية الحبس للمرأة في البيت، وإيذاء الرجل باللسان في حد الزنا، ونسخ آية تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول. ويجوز بالاتفاق نسخ نص القرآن بالقرآن، والسنة المتواترة بملتها وخبر الآحاد.


وأجيب: إن السنة من عند الله كالقرآن؛ لقوله تعالى: "وما ينطق عني أهوئ" [النحل: 107]. إن هؤلاء يُخُوَّي" [النجم]. إلا أن القرآن معجز ومتعبد بتلاوته، والسنة ليست كذلك والمراد بالخبرية والملتية هو في الأحكام بحسب مصلحة الناس لا في اللفظ، فيكون الحكم الناسخ خير من الحكم المنسوخ لااشتماله على تحقيق مصالح العباب. وقد تأتي السنة بما هو أفع للمكلف كما يدل على أن هذه الآية ليست دالة على أن القرآن لا ينسخ بالسنة وقد وقع نسخ القرآن بالسنة في آية الوصية بالحديث المتواتر: "لا وصية لوارث".

وقال الشافعي أيضاً: لا يجوز نسخ السنة بالقرآن، ويتطلب كون الناصح سنة أيضاً، لأن الله تعالى في قوله: "وأنزلنا إليك أليم حكمة ليثبت بإنسان ما نزل إليهم" [النحل: 44]. جعل السنة بياناً فلما نسخت القرآن، خرجت عن كونها بياناً. وذلك غير جائز.
وأجيب: بأن المراد بالبيان هو التبليغ، سواء بالقرآن أو غيره.

المراد بالآية في قوله تعالى: "ما تنسب من عَلَاةٍ" [البقرة: 106].

ذهب الإمام محمد عبده إلى أن الآية لا يراد منها الآية القرآنية: بل المراد المعجزات الدالة على صدق الرسول. حيث يبدل الله معجزة الرسول السابقة بالمعجزة التي يأتي بها الرسول الذي بعده. استدلالا بقوله تعالى: "لا تعلم أن الله علِّم كل شيء قديراً" [البقرة]. وأجيب بأن هذه الآية جاءت للتمهيد في تحويل القبلة، ونسخ التوجه إليها بالتوجه إلى الكعبة، فهي في نسخ الأحكام المقررة بالآيات. والمراد بالآية إذا أطلق: القطعة من السورة المتضمنة أمرًا أو نهيًا أو غير ذلك.

فقص الحياة والأخلاق:

أجمع السلف على وقوع النسخ في الشريعة، ولدت وقائع ثابتة على وقوعه بغض النظر عن التقدير في تأويل الآيات المنسوحة، وليس النسخ جهلا بالحكم الأخرى، أو من باب البداية، بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة، وحكم إلى حكم، لنوع من المصلحة التشريعية الملائمة لحاجات الناس إظهاراً لحكم الله وكمال ملكه، ولا خلاف بين العقلاء أو شرائع الأئمة قصد بها مصالح الخلق الدنيوية والدينية، وإذا كان يلزم البداية "الظهور بعد الخفاء"، أو ظهر مصلحة لم تكن ظاهرة للمشروع) أليس يكن عالمًا بالآب الأمور وأما العالم بذلك، فإنما تتبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح، كالطيب المراعي أحوال العليل، فراعى ذلك في خلقته بمشيئة وإرادته لا إلهاً هو، فخطابه يتبدل، وعلمه وإرادته لا تتغير، فإن ذلك محل على الله تعالى.

وجهت اليهود النسخ والبداية شيئاً واحداً، والفرق بين النسخ والبداية أن النسخ تقول العبادة من شيء إلى شيء قد كان حالاً فيحرم أو كان حروماً فيحلل وأما البداية فهو ترك ما عزم عليه، وهذا يلحق البشر لنقصانهم.

والمناسخ في الحقيقة هو الله تعالى، والناسخ إزالة ما قد استقر من الحكم
الشرعى بخطاب متراز عنه والنسوخ هو الحكم الثابت نفسه، لا مثله، كما تقول المعتزلة: لأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدم زائل. وقادهم إلى ذلك مذهبهم في أن الحسن صفة ذاتية للحسن لا تفارقه، ومراود الله حسن، والفرق بين التخصيص والنسخ أن الأول قصر للحكم على بعض الأفراد والثاني قصر له على بعض الأزمان.

3- الرسول الذي يتلوا الآيات

«كما أرسلنا فيهم رسولًا من أنفسهم يتلوا عليهم آياتنا ويرجعونها في الكتاب والحكممة ويعملون ما لم تكونوا تعلمون فأذكرون أذكركم وأصحابكم في ولا تكفرون» (البقرة).  

ذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد وعلى آله وسلم إليهم، ينزل عليهم آيات الله بينات في وسعتهم (آل عمران: 164) ، أي يظهرهم من رذائل الأخلاق وذنوس النفس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور في علمهم الكتاب في النور. وهو القرآن الكريم والحكمة وهي السنة النبوية المطهرة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانت في الجاهلية الجهلاء يسفون بالعقول الغراء؛ فانطلقوا ببركة رسالته، ومن سفارته إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبهربهم قلوبهم وقلوبا وأقلهم تكافلا وصدقهم لهجة. فقال تعالى: «لم يقدر من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم يتلوا عليهم آياتنا ويرجعونها» (آل عمران: 164) . وذلك من لم يعرف قدر هذه السنة فقال تعالى: «لم تكن على الدين بدلوا يعمت الله كفرًا وأحولوا قومهم دار الباوار» (إبراهيم). قال ابن عباس: يعني بنعة الله محبداً.  

وذا هذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة، ومقابلتها بذكره وشكره. وقال: «فاذكرون أذكركم وأصحابكم في ولا تكفرون» (البقرة). قال ماجاهد:

في قوله: «كما أرسلنا فيهم رسولًا من أنفسهم يتلوا عليهم آياتنا ويرجعونها» يقول: كما فعلت فأذكرون.  

قال عبد الله بن وهب، عن هشام بن سعيد، عن زيد بن أسلم: إن موسى التقى، قال: يا رب، كيف أشكرك؟ قال له ربه: تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتي فقد شكرتني، وإذا نسيتي فقد كفرتني.

قال الحسن البصري، وأبو الطالب، والخالد، والريشبي بن أبي ناس: إن الله يذكر
من ذكره، ويزيد من شكره، ويعذب من كفره.

وقال بعض السلف في قوله تعالى: «يرجِعَ الَّذِينَ عَمِنْ أَنْقَوْاُ اللَّهَ حَتَّى تَفْتَأَيْهُمُ» (آل عمران) وقال: وهو أن يطاع فلا بعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.


وقال الحسن البصري: في قوله: «فأذَكَرُونَ أَذَكَّرْكُمْ». قال: اذكروني فيما أوجب لك على نفسك. وعن سعيد بن جبير: اذكروني بطبعكم، أذكروكم بعفترتي، وفي رواية برحتى (1).

(1) تفسير القرآن العظيم 2 / 2012، 202.
4- الآيات والذكر الحكيم

"ذَلِكَ نَتْلُوُهُ عَلَيْكَ مِنْ آلِيَنَّ وَالْذَّكَرِ الحَكِيمِ" {آل عمران}.

تسبيق هذه الآية الآية الدالة على خلق عيسى عليه السلام من غير آب {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى بْنِ ٱللهِ كَمَثَلَ ۖ إِدَمُ قَالَ لَهُ كَانَ ۖ فَيَكُونُ} {آل عمران}.

ولحقت هذه الآية آيتان من سورة آل عمران الحديث بهما الأولى من حالت الكافرين {فَأَمَّا ٱلْذِّينَ كَفَرُوا فَأُعِدُّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} {آل عمران}، والثانية {وَأَمَّا ٱلْذِّينَ يَعِدُوونَ وَعَمِلُوا} {آل عمران}.

وتعني الآية بين ما حق وما سبق: إن الله تعالى ينزل عليك يا محمد ﷺ من الآيات المعجزات الدالة على نبوتك، والتي تقع كل ذي عقل رشيد فيمن بك، وعليه القلوب، وأما الذين جدروا وكفروا وعموا وصموا، وأغلقوا قلوبهم وعقولهم أمام هذه الآيات التي يلمسونها ويجسونها ويرونها بأعينهم ويحسونها بأيديهم. فتطرق عقولهم وتؤديهم القناعات بما يخلل عقولهم وما يقولون لهم الشيطان فيما يقولون كأنه من غير آب فإن هذا شيء مبهر لأنهم لم يروا ولم يسمعوا أن يولد مولود من غير آب أو من غير آم وكل مولود يجب أن يتوفر فيه الشروط حتى يكون مولوداً، وأما إن كان غير هذا فهو في حدود اللامعقول. أو أن أمرا جرى سدى فإنه المولود، إنها وساؤس الشيطان.

وتفاعلات الكفر والجزوح بآيات الله تعالى.

فجاء الجواب المخبر عن الكافرين ومصيرهم، والمؤمنين ومصيرهم. ثم ذكر الآيات والذكر الحكيم ليقول: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى بْنِ ٱللهِ كَمَثَلَ ۖ إِدَمُ} {آل عمران}.
من سلالة من حا مسنين، من تراب. أو لم يعلموا أنهم خلقوا من تراب وَقَمَّ أَيْنِيَّهُ أَنْ خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرْتُمْ تَشَيْرُونَ] [الروم، فتحقيق الآيات بآية الله تعالى بها: ذٓاَلْكَ تَنَلُّوهُ عَلَيْكَ تَقْرُؤُهُ عَلَيْكَ وَنَكِمْكُهُ بِهِ. وقيل: نأَمر جبريل أن ينلوه عليك مِنَ الأَيْنِيَّة اَيْ مِنِ جَمِلَةِ آيَاتِ الحَجْج الدالة على صدق نبؤتك إذا علمتم بما لا يعلمه إلا قارئ كتاب، أو معلم، ولست بواحد منهما فلم يبق إلا أنك قد عرفته عن طريق الوحي: وَالَّذِيْنَ الْحَكِيمُ القرآن الحكيم، وإما وصفه بأنه حكيم؛ لأنه بما فيه من الحكمة كأنه ينطق بالحكمة. كما تسمى الدلالة دليلا، لأنها بما فيها من البيان كأنها تتعلق بالبيان والبرهان، وإن الدليل في الحقيقة هو الدال (1).
5- آيات الله

{«يَا قَوْمِ ادْعُو لِلَّهِ بِشَجَرَةٍ مَّجِيدٍ أَوْ تَلَقَّيْتُ نَزْلًا مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ بِكُلِّ نَذْرٍ مَّلِيظًا}} {النور}.

اللغة: الطاعة: موافقة الإرادة الجاذبة للفعل بالرغبة فيه والإجابة موافقة الإرادة الواعية إلى الفعل، ولذلك يجوز أن يكون الله مجيباً إلى عبده إذا فعل ما دعا العبد به، ولم يهري أن يكون مطيعاً له وأصل الاعتصام الامتيناغ، وعصمه لبصره .. إذا منه و/or لا يعاصِمَ أَلِيُّومٍ مِّنَ أَمَّرِيْاَلِّدًا إِلَّا مَّنْ رَحَمٌ {حود: 43} : أي ولا منع، والعصام: الحبل لأنه يعتصم به.

المشقة: نزلت في الأوس والخزرج، لما أعْرَى قوم من اليهود بينهم بذكر حروبهم في الجاهلية ليغتنمو عن دينهم - عن زيد بن أسلم والسيد.

وقيل نزل قوله: {وَكِفْ تَكُفُّرُونَ} في مشركي العرب عن الحسن.

المعنى: ثم حذر المؤمنين عن قبول قولهم فقال: {يَا قَوْمِ ادْعُو لِلَّهِ بِشَجَرَةٍ مَّجِيدٍ أَوْ تَلَقَّيْتُ نَزْلًا مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ بِكُلِّ نَذْرٍ مَّلِيظًا}}. أي صدقوا الله ورسوله، وهو كتاب للأوس والخزرج، وبدخل غيرهم من المؤمنين في عموم اللظة. {إِنْ تُطِيعُوا فَرَقًا مِّنْ أَلِيُّومٍ أَوْتُوا آَتِيَتُكُمْ وَمَعْنَا: إِنْ تُطِيعُوا هؤلاء اليهود في قبول قولهم، وإحياء الضغائن التي كانت بينكم في الجاهلية بِزُدُّوْكُمْ بَعْدَ إِعْتِنيَكُمْ كَفِيرُونَ {النور} آية يرجعونكم كفاراً بعد إيمانكم ثم أدرك تعال الأمر وعظم الشأن فقال: {وَكِفْ تَكُفُّرُونَ} ، أي وعلى أي حال يقع منكم الكفر منكم أَوْتُوا آَتِيَتُكُمْ عَلَى قَبْلِ إِلَّهٍ} وهذا استبعاد أن يقع منهم الكفر مع معرفتهم بآيات الله، وفيهم داع يدعوهم إلى الإيمان. وقيل: هو على التعجب، أي لا ينبغي لكم أن تكفروا ما يقرأ عليكم في القرآن المجيد من الآيات الدالة على وحدانية الله ، ونبوة نبيه محمد ﷺ {وَفِي قُرْآنٍ عَلِيمٍ} يعني محمداً ﷺ وترون معجزاته.
والقرآن وإن كان فظعاً في كل حال فهو في مثل هذه الحالة أفضع، ويجوز أن يكون المراد بقوله: {وَفِي صُدْرِهِمُ رَسُولُ ٱللّٰهِ} القوم الذين كان النبي ﷺ بين أظهرهم خاصة، ويجوز أن يكون المراد به جميع أمته لأن أثاره وعلاماته من القرآن الكريم وغيره فنها قائمة باقية، وذلك بنزالة وجوده فينا حياً.

{وَمَنْ يَعْقِبُ ٱللّٰهُ} وأي تمسك كتابه وآياته وبدينه، وقيل من يمتني بالله عمن سوى بأن يعده، ولا يشرك به شيئاً. وقيل: ومن يمتني عن الكفر والهلاك بالإيمان بالله ورسوله {فَقُدْ هُدِّيَ إِلَى سَبِيلٍ مُّسْتَقِيمٍ} إلى طريق واضح، قال قتادة: وفي هذه الآية علماء بنيان: كتاب الله ونبي الله؛ فأما نبي الله فقد مضى، وأما كتاب الله فأبقاه الله بين أظهركم، رحمة منه ونعمته فيه جلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته.

وقيل: إنهم قد شاهدوا في نفسه معجزات كثيرة، منها أنه كان ينام بعينيه ولا ينام قلبه، ومنها أن كان لا يطوله أحد وإن طال. ومنها أنه كان بين كتفه خاتم النبوة، ومنها أنه كان إذا مر بوضع يعلمه الناس لطبه، ومنها أنه كان يسطع نور من جبهته في الليلة المظلمة، ومنها أنه ولد خاتوناً، إلى غير ذلك من الآيات (1).

ثم إن معجزة الرسول ﷺ على مختلف العصور والأزمان هياً لهذه الأمة من سجل حياة النبي ﷺ بكل جزئياته، وبكل دقائقها وما زال علماء السيرة والحديث ذائحين على هذا المنوال، وفي هذا الطريق حتى أصبحت كل صغيرة أو كبيرة معروفة للناس في حياته ﷺ. وكذلك فقد هيا الله تعال علماء صدق فألهموا الحق من الباطل، وأبعداً عن هذا العلم والذين كل ضعيف ومرفوض ومتاؤل عليه، فلم يقتصر الأمر على ما قاله ولكن شمل الحديث الشريف كل ما قاله أو فعله أو أقره. وزحلمت السيرة النبوية كل حركة وفعل وصفات وشمس واحراق. 

وبذلك فقد تحقق في هذه الآية - حفظ كتاب الله تعالى المعجزة الحالية إلى يوم الدين - وكذلك معجزة حياة النبي ﷺ كأنه حي بين أظهرنا، ونصلى ونسلم عليه.

(1) جمع البيان في تفسير القرآن 4/880، 881 بتصريف.
في كل لحظة وآن، وفي كل نبضة قلب أو طرفة عين – فالصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله.

ويأتي بعد ذلك قضية هامة في هذا المضمار وهي قضية الاعتصام بالله، الاعتصام بكتاب الله، الاعتصام بسنة رسول الله، وهذا الاعتصام بجموعه هو الهادئ إلى الصرافت المستقيم الذي هو عزنا في الدنيا ودربنا إلى الجنة بثقة وثقة بوعد الله تعالى للمؤمنين.
6 - آيات الله المثلى بالحق

"قيل: أيت الله تثلىها عليكم بالحق، وَمَا اللَّهُ يَريدُ ظلَمًا للْهُدَى، وَلَيْكُمْ مَا في
الْأَرْضِ وَمَا اللَّهُ تَرْجَعُ الْأَمْوَاتِ (١٣٠) آل عمران.

الآية مربطة بما قبلها، وما بعدها، وهي في سياق الآيات التي تتحدث عن
أهل الكتاب وتعاملهم في الدنيا ومصيرهم في الآخرة. وعن مواقفهم من
الرسول ﷺ والمؤمنين. واتخاذهم العداة ديدنا ومبدعا، وتحريضا على الإسلام
والمسلمين حتى يومنا هذا .. وعلل الصراع القائم الآن على أشهده في أماكن
واسترخاء في أماكن أخرى، إنما هو ما امتلأت به القلوب والأحقاد من اليهود
خاصة، ومن تمكن اليهود أن يجدوه في عالم الأقوياء، وسقفهم للدخول في
حروب مكشوفة مع المسلمين، والهيمنة الطاغية الطالفة على مقدرات المسلمين
وارضهم، واتخاذ الحجج والأسباب التي تؤدي إلى إذلال المسلمين وعزة أعدائهم
في الدنيا.

والآية تضع الخيط الواضح للمسلمين متمثلًا في الخطاب إلى الرسول ﷺ والمسلمين عليه من الذين صدقوه وآمنوا معه ونصروه، فحقق الله تعالى لهم النصر
والفوز في الحياة الدنيا، والجنة في الآخرة إن هم أحسسوا التعامل والجهاد في
سبيل الله. تلك الفضيحة الإسلامية المصادفة التي يحاولون إنهاها من نفوس
 المسلمين بحجة الإرهاب اليوم وعحارة الإرهاب.

"قيل: أيت الله تثلىها عليكم بالحق، الخطاب للرسول ﷺ، وما أنزل على
محمد كان لأتباعه على مر العصور والأزمنة.." آيات الله معجزاته التي أبد بها
النبي ﷺ، ولكننا نعود ونؤكد أن المعجزة التي أبد الله تعالى بها الأنباء ومن صلح
من الناس، إنما هي فعل مختلف آتي. ذهب ولم يعد. .. فلم تبق عصاه موسى بعده
ولا ناقة صالح بعده، ولا إحياء الموتى بعد عيسى، ومعجزة لوط ووهود وصالح
وموسى دمر الله بها الكافرون كلهن بأسلوب غير الآخر. وقد شاهد الناس تلك
المعجزات واعترفوا بها سواء أكنت لنبي أم صالح من الناس، كأصحاب الفيل الذي استشهد به النبي على ولادته حيث ولد في ذات العام وأنزل فيه قرآنا فلم يجد من يكذبه بعد نيف وأربعين عاما، عندما ذكر بها الأحياء الذين عاصروا الحدث وشاهدوه. اللهم - آيات الله قرآنا الذي اختص به رسوله طاهرا مطهرًا محتفظًا ثابتا شاملا تكشف معجزاته يوما من يوم فهو معجزة النبي الخالدة الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يشير الله تعالى إلى هذه الآيات وتباعها بقوله: «فِيَّ آيَاتِ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ، والمغزوات المادية التي سرت على يدي رسوله أنها هي الحق؛ لا يأتيها الباطل ولا يأتيها سحر أو كهانة أو لعب بعقول الناس، إنها آيات ينزلها الله على رسوله بالحق الناصع المبين الباقية الخالدة المحتفظ من رب العالمين» وَمَا أَلَّاثُ يُرِيدُ ظلَّمًا [آل عمران: 19].

كيف يجري الظلم على يد الله وهو الخالق البارئ المصير؟ كيف يظلم الله هؤلاء العباد الذين خلقهم ليعبدهم؟ فإن فعلوا فقد استحقوا الرحمة والغفران وإن كفرنا فآولتك هم الظالمون: «إِنَّ الْلَّهَ أَطِيرُ بِيَدِهِمْ إِلَيْهِ يَرْجُونَ [الثور: 19]. إن الله أطير بِيَدِهِمْ [لبثنا] وهنا نفى قاطع لن يظن أن الله يجري على يديه شيء من الظلم مما صغر، إنه هو إقرار من الله تعالى بأنه لا يريد علما للعالمين إن لم يكونوا هم الذي يقودون أنفسهم إلى الظلمة بكفرهم بالله تعالى أو تعديهم على حدود ما خلقوا له في الأرض، ويعتلون المؤمنين ويعمون نشر هذا الدين في أي زمان ومكان.

إن الله لا يظلم مثال حجة، فله ملكوت السماوات وكل ما فيها من مراتب ومجموعات ونجمة وكواكب وكل ما دس الله تعالى فيها من خلقه فله كل ما في السماوات وكل ما في الأرض. وبعد هذا كله فإن الله ترجع الأمور، إن رجوع الأمور إلى الله يعني كل خلقه حي الذي كلفه به، ويثبط على الإحسان إحسانا مضاعفا وعلى الإساءة مثلها ويمجر الله ما يشاء ويثبت وعنه أم الكتاب. الخلاصة: إن آيات الله تعالى - من القرآن الكريم، والمعجزات التي ساقها
على يد محمد ﷺ، وذكر الآيات التي استحقها الأنبياء، فإنما هي تذكر بوحدانية الله تعالى ومقدره، وضعف المخلوقات مهما عظمت وكبرت، فإنما هي خلق من خلق الله وتبارك الله أحسن الخالقين.
٧- إن الله قادر على أن ينزل آية

«إِنَّمَا يَسْتَجِبُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمُوْمِينَ بِعَهْدِهِۦٓ إِلَيْهِ يُرْجِعُونَ ۖ وَقَالَواً
لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ذِي الْرَّحْمَٰنَ ۖ فَلَرَدَّ اللَّهُ آيَةً عَلَىٰ ذَٰلِكَ ۖ وَلَكِنْ أَسْرَىٰهُمْ لَا يُعْلَمُونَ» ۖ (الفيماء)

الآية هنا هي: الآية المادية المعجزة المخالفنة لسنن الله في خلقه؛ كثافة صالح، وعصا موسى ومحاتة عيسى. ﴿وَلَكِنْ أَسْرَىٰهُمْ لَا يُعْلَمُونَ﴾ إن نزولها بلاه عليهم لأنهم سيهلكون إن جحدوها.

والآية: هي القرآن المعجز كله أو جزء منه سورة أو آية التي تحدى الله تعالى بها المشركين الذين لا يكتفون بهذه الآيات المعجزات، ولكنهم يريدون أن تكون معجزات مادية.

مناسبة هذه الآيات:

نزلت بعد غزوة (أو وقعة) حرب الأسود بعد وقعة أحد، وما بين الله تعالى في الآيات السابقة أن الناس صنفان متفاوتان في الاستعداد بقبول الهايدية الإلهية.

صفن يختار الهدى على الضلال، وصف بالعكس.

بين هنا أن الصف الأول: هم الذين يسمعون الدلال والبيانات سمعاً تدبر وفهم.

والصف الثاني: لا يفقهون ولا يسمعون، وإنما هم كالآماث. (1)

لقد كان هذا من كفار قريش تعنتا ومكربة حيث لم يقدروا بما قد أنزله الله عليهم رسوله والآيات البينات التي من جملتها القرآن وقد علموا أنهم قد عجزوا على أن ياتوا بصورة مثلك، ومراهم بالآية هنا: هي التي تضطرهم إلى الإيمان؛ كنوز اللائكة برأي منهم وسمع، أو تلق الجبل كما وقع لبني إسرائيل، فأمره الله سبحانه أن يجهبهم

(1) التفسير المثير ٧ / ١٩٠}
بأن الله قادر على أن ينزل على رسوله آية تضطرهم إلى الإيمان، ولكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التكليف الذي هو الابتلاء والامتحان. وأيضاً لو أنزل آية كما طلبوها لم يهلههم بعد نزولها ؛ بل سيعالجهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا.

قال الرجاح: طلبوها أن يجمعهم على الهدى، يعني جمع إجابة للذين أصيبتهم لا يعلمون أن الله قادر على ذلك، وأن تركه حكمة بالغة لا تبلغها عقولهم.

ويعنى أن طلبهم آية مادية مع وجود هذه الآيات البينات القرآنية إنها هو محاولة تعيز الرسول، فلو فرض حدوثها لما آمنوا وناقشوا: إنها سحر. كما قال تعالى: "ولو تزرو قلما كتابا في قرطاس فلم تذوقوا شيء مما كفرتم به من سحر ما كفرتم به من نور" [الأعراف: 7]. إن يرووا أيما يعرضوا ويقولوا سحر مستمرون [المجردة: 106]، ومن ثم فإن الاستجابة لدعوة النبي ﷺ تتطلب سماع القرآن سماع إصغاء وفهم وإرادة الحق، وهذا منهج المسلمين الذين يقبلون ما يسمعون فيتفعون به ويعملون.

وبالأما مطالبهم تنزيل آية مادية محسوبة من ربهم فليس إلا تعتن بعد ظهور البراهين، وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا عن أن يأثروا بصورة مثله، لما فيه من الأخبار بالغيبيات، وسلامته من التناقض وسمو نظمه.

ولكن أصحه لا يعلمون أن الله عز وجل إما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده، ولا ينزل آية بسبب الطلب المتعصب، أو تعيز الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لا يقدر على شيء من إنزال الآيات أو غيرها إلا بمشيئة الله وإرادته.

---

(1) فتح القدر 7 / 129
(2) التفسير الكبير 7 / 192
8- الخائضون بآيات الله

«وإذا رأيت الذين خوضون في ءايتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غِيّره، وإنما يسيئنك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الطامحين»

[ الأربع] 

»مَخْوُضُونَ في ءايتنا»: المراد بها هنا الاسترسال بالحديث، وقد استعمال القرآن أيضاً في المشاركة في الباطل مع أهله، وأصل الخوض: الدخول في الماء سيراً أو سباحة.

»مَخْوُضُونَ في ءايتنا»: يتكلمون في القرآن استهزاءً.

فأعرِضْ عنهم»: انصرف عنهم ولا تجالسهم.

وإمّا يسيئنك الشيطان»: أي يسيئنك ووجب الإعراض عنهم فقعدت معهم.

بعد الذكرى»: المراد هنا التذكرة.

سبب النزول:

روي الطرى عن السدي ففي آية: «وإذا رأيت الذين خوضون» قال: كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ والقرآن، فسنهو واستهزؤوا به، فأمرهم الله ألا يقعوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

وروى مثل ذلك عن جبير وابن جرير وفتادة ومقاتل.

وروي الطرى أيضا عن سعيد بن جبير ومجاهد أنهما قالا في قوله تعالى:

»وإذا رأيت الذين خوضون في ءايتنا» الذين يذكرون بأيامنا(1).

1) تفسير الطبري 7 / 148. تفسير الرزاز 12 / 25.
وروي عن ابن عباس، ابن سيرين: أنها نزلت في أهل الأهواء والبدع من المسلمين الذين يؤولون الآيات بالباطل، لتأديب ما استحدثوا من مذاهب.

وأما قال المسلمون: إن قننا كلما خاضوا، لن تستطيع أن تجلس في المسجد، وأن نطول فنزل: «وما على الَّذين يَتَعَفَّقُون مِن جَسَابِهِم مَن شَيْءٍ وَلَن يُعْلَمُ ذَٰلِكَ لَّهُمُ الَّذِينَ يَتَعَفَّقُونَ مِن شَيْءٍ» [الأناضول]. أي يتقون الله من حساب الخائضين ممن شيء أي: إثم إذا جالسونهم، ومن صلة زائدة.

الناسبة: بعد أن بين الله تعالى في الآيات السابقة أن الرسول ﷺ ليس عليه أن يكون حفظًا رقيباً على أعمال المكتَذبين بآيات الله، وإذا هو مبلغ، وأن الزمان سيخرجهم عاقبة تكذيبهم، أبان في هذه الآية وجوب إعراض الرسول ﷺ والمؤمنين عن مجالس المشتركين إن ضموا إلى كفرهم وتكذيبهم الاستهزاء بالدين، والطعن في القرآن والرسول ﷺ وأرشدت الآية الكرمة إلى:

1- وجوب الإعراض عن مجالس المستهزيئين بالقرآن أو بالنبي ﷺ، أو بأحكام الإسلام ومجالس المتآولين آيات القرآن وغير حق، وتحريفها عن مواضعها.

2- قال ابن خزيمة منددًا: من خاض في آيات الله، تركت مجالسته وهجر مؤمنا كان أو كافروا إذا علم الرجل من الآخر منكراً، وعلم أنه لا يقبل منه وعظًا ولا نصحاً، فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر، ولا يقبل عليه، كما قال الفرطى.

3- قال ابن العربي: وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل. ومنع الملكية الدخول إلى أرض العدو ودخول كاتسهم والبيع، ومجالس الكفار وأهل البدع، ولا تعتقد موادتهم، ولا يسمع كلامهم ولا مناظرهم.

4- لا يطرأ السيناء أصلاً على الأنبياء فيما يجب عليهم تبليغه من أحكام القرآن: لعصمتهم عن ذلك، وإذا يمكن طروء السيناء عليهم في الأمور العادية

---

(1) التفسير المير ٢٤٦، ٢٤٧.
(2) تفسير الفرطى ١٢.
(3) أحكام القرآن لابن العربي ٢٦٣١.
كالسهو أثناء الصلاة وغير ذلك وليس النسيان من قبيل وجود السلطة والتصرف مع الشيطان على الإنسان، فتسليطه مصور في المشركين والكافرين، لا في المؤمنين.

5- الاستهزاء في الدين ليس مسوغا في أي شريعة أو ملة، والمستهزئون ما هم إلا لاعبون لاهرون غرتهم الحياة الدنيا آي لم يعلموا إلا ظاهرا في الحياة الدنيا، وإن تأصل الكفر فيهم أفسد عليهم فطرتهم، فحجب عنهم كل خير.

6- القرآن خير مذكر للإنسان من تعرض نفسه للهلاك والعذاب في نار جهنم والمسلم الحق: من أخذ القرآن إما وسنة النبي ﷺ منهجا، لا من اغتير بالأمانى والأوهام (1).

(1) التفسير المثير 7/250 بتصرف.
9 - مطالبة المشركين بالنبوة

(1) تفسير القرطبي 7/ 80
وصل ابن كثير: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسول كقوله: 

والله تعالى: 44. وقال الدين لا يزورون إبقاءنا وراء عليّاً المليئة أو نرى زينًا.

فقد أستخبروا في أنفسهم وعثروا عثراً كبيراً (القرآن). 1

البَنْوَةَ والرسالة تمنح لمن هو مأمون عليها وموضع لها، وأقدر على تحليل أفعالها،
وليس هي مثل مناصب الدنيا التي تعتد على النفوذ والسلطة أو المال والجهة، أو النسب، أو كثرة الأعوان والأولاد.

وما على الناس إلا الإيمان بما جاء به الأنبياء؟ لأن نبوتهم تثبت بدليل قاطع
وبعجزة خارقة للعارة. فإن لم يؤمنوا أصابهم أمران: صغر وذل وهوان،
وعذاب الله الشديد في الآخرة، بسبب إجرامهم ومكرهم، وحسدهم وحقدهم،
وهذا حق وعدل، تغيز بين الطائنين وبين العصاة، وإنما قدم الصغار على ذكر
الضرر؛ لأن القوم إذا عردوا على طاعة محمد طلبًا للعزة والكرامة. فقابلهم
الله بمضت مطلوبهم. 2

ورد ابن كثير: في مجال تفسير هذه الآية - بعدما من الأحاديث التي تدل على
أن الله تعالى باختيار للنبي من هو أهل لها ردًا على مشركي قريش، وليعلموا أن
منصب النبي هو اختيار من الله والتي أعلم حيث يجعل رسلته:

- محمد وعيلة بن الأسق ع قال: إن الله اصطفى من ولد
إبراهيم إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل كنانة. واصطفى من بني كنانة قريشا
واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفى من بنى هاشم، انفرد بإخراجه مسلم
من حداث الأوزاعي.

- وعن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ع: بعثت من خير قرونه بنى آدم
قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه، آخرجه البخاري.
وقال العباس ﷺ قال: بلغه بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال:
«من أنا؟» قالوا: أنت رسول الله ﷺ، فقال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إن الله خلق الخلق، فجعلني من خير خلقه، وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا، فأتاني خيركم بيتا، وإخركم نفسا» رواه الإمام أحمد، وصدق صلوات الله وسلامه عليه.

وعن عائشة رضي الله عنهاقالت: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: قلبت الأرض ممارقها ومغاربها، فلم أجد رجلا أفضل من محمد، وقلبته الأرض ممارقها ومغاربها، فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم» رواه الحاكم والبيهقي وغير هذا كثير.
الجل: الخوف والفسوع، والمواد: إن حصول الخوف من الله والفسوع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملة الإيمان، المخلصين لله، والخصر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان، قال جاعة من المفسرين: هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنائم، ولا يخفف أن هذا، وإن صح إدراجه تحت معنى الآية من جهة أن وجل القلوب عند الذكر وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يستلزم امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال للرسول، ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية من كمل إيمانه من غير تقيد مجال دون حال؛ ولا بوقت دون وقت، ولا بواقعة دون واقعة والمراة من تلاوة آياته: تلاوة الآيات المنزلة (في القرآن الكريم من الله تعالى)، أو التعبير عن بديع صنعته، وكمال قدّرته في آياته التكوينية بذكر خلقها البديع وعجائبها التي يشع عند ذكرها المؤمنون، قبل: والمراة بزيادة الإيمان هو زيادة انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، والخلاص من الخاطر عند تلاوة الآيات.

وقيل: المراة بزيادة الإيمان: زيادة العمل؛ لأن الإيمان شيء واحد لا يزد ولا ينقص، والآيات الكثيرة والأحاديث المتواترة، ترد ذلك وتدفعه ﷺ: وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَّوَكَّلُونَ لَا عَلَى غِيرهِ، والتوكيل على الله تفرض الأمر إليه في جميع الأمور، والموصول في قوله تعالى: قَلْ ذَينَ يَقِيمُونَ الْصُّلُوَّةَ وَمِمَّا رَزَقْتُهُمْ يَتَّقُونَ. ﷺ: يَقِيمُونَ الْصُّلُوَّةَ في محل رفع على أنه وصف صلة للموصول الذي قبله، أو بدل منه، أو بيان له، أو في محل نصب على المدح، وخصوص إقامة الصلاة والصدقة.
لكونهما أصل الخير وأساسه، ومن فيٌّ (مَا) أي أن هؤلاء هم الكاملو الإيمان، البالغون فيه إلى أعلى درجاته، وأقصى غايته (حقَّهُ) ومصدر مؤكد لضمن جملةهم المؤمنون في حق ذلك حقاً أو صفة مصدر مذود، أي: هم المؤمنون إيماناً حقاً، ثم ذكر ما أعد لمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال: (هُمْ دَرْجَتِهَا) وأي: منازل خير وكرامة وشرف في الجنة كائنة عند ربهم، وفي كونها عند سبحانها، تشريفهم وتكريم وتعظيم وتفخيم، وجعله (هُمْ دَرْجَتِهَا عند رَبِّهِمْ) خبر ثان (أَوْلَيْكُمْ) أو مستأثرة جواباً لسؤال مقدَّر (وَمَغْفِرَة)، معطوف على درجات، أي: مغفرة لذنوبهم (وَرَزَقَكُمْ) يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض جودّه.

(1) فتح القدر ٩/٣٢٧، بتصريف.
11- آيات الله تعالى تناولت على الكافرين

إِنَّ كُلُّ شَيْءٍ مِّنَ الْكَافِرِينَ قَالُواْ أَفَلَمْ يُلْعِنُّنَّ وَالِدَّهُ هُدَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْتِيْرُ الْأَوَّلِينَ ۖ أَوَّلًا قَالُواْ أَلَمْ يُنَذِّرُنَّهُمْ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ أَلْبَاءُ مِنْ عِبَارَةِ نَزْلَتْ عَلَيْهِمْ ۖ جَعَلَهَا مَنْ أَلَمَأَ ۖ أَوْ أَلْبَاءُ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِ ۖ [الأنفال] ۚ

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ كَفَّارِ يُشْرِقُ وَعَنوْمِهِمْ، وَمُتْرِدِهِمْ وَعِتَادِهِمْ، وَدَعَاءُ البَاطِلِ عَلَى

سَمَاعٍ إِنَّهُ إِذَا تَنَأَّلُوا عَلَيْهِمْ قَالُونَ: فَكَذَّبَ لَهُمْ لُعْنَةٌ مَّيْلَ هَذَا ۖ

وَهَذَا فَقُولُهُ بَلَأ لَوَلِيَ أَفْدَاءً غَيْرَ مَا مَرَّ قَدْ يَأْتِنَا بِسَوْرَةٍ مِّنْ مَّثَلٍ فَلا يَجِدُونَ إِلَّا سَيِّبًا وَإِذَا هَذَا القُولُ مَنْ يَقْرَأُهُ بِأَنفُسِهِمْ وَمَنْ يَتَبِعُهُمْ عَلَى

بَاطِلٍٖ.

وَقَدْ قَالَ: إِنَّ القَالِئَ لِذلِكَ هُوَ النُّضَرُ بِنَ الحَرْثِ لِعِنْهُ اللَّهَ كَمَا نَصَ عَلَى ذلِكَ

سُعِيدُ بِنِ جَبِيرٍ، وَالسَّدِي وَابْنِ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمْ، فِي نَهَيْهِ اللَّهُ كَانَ قَدْ ذَهِبَ إِلَى بَلَادِ

فارس، وَتَعَلَّمَ مِنْ أَخْبَارِ مَلْكِهِمْ رَسْمَهُ وَإِسْفِنَدِياءٍ، وَلَا قَدَمَ وُجُدَّ رَسُولٌ اللَّهُ

قَدْ بَعْثَهُ اللَّهُ وَهُوَ يَتَلُو عَلَى النَّاسِ الْقُرْآنَ، فَكَانَ عَلَى الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ إِذَا قَامَ مِنْ

مَجَالِدِهِ فِي النِّضَرِ، فَحُدِّثَهُمْ مِنْ أَخْبَارِ أَوَّلُكَ أَنْ يَقُولُ، بِاللَّهِ أَنَا أَحْسِنُ

قَصْصَةَ أَنَا أَوْ مُحَمَّدٍ ..؟ وَهَذَا مَا أَمْكَنَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ يَوْمٍ بَدَرٍ وَوَقَعَ فِي الأسَارِيَّةَ؟

أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَضْرِبْ رَبِّي صَبْرًا بَيْنِ يَدِهِ فَفَعَّلَ ذلِكَ وَلَهُ الحَمْدٍ

وَكَانَ الَّذِي أَسْرَهُ الْمُقَدَّدُ بِنَ الأَسَوَّدٍ . كَمَا قَالَ إِبْنُ جَرِيرٍ عِنَ سُعِيدِ بِنِ جَبِيرٍ

قَالَ: قُتِّلَ الَّذُيْ يَوْمُ بَدَرٍ صَبْرًا عَقِبةً بَنِ أَبِي مَعِيطٍ، وَطَعَمَهُ إِبْنُ عَدِيٍّ، وَالْنَّضَرِ

ابْنِ الْحَرْثِ، وَكَانَ الْمُقَدَّدُ أَسْرُ النَّضَرِ، فَلَمَّا أَمَرَ بِقَتْلِهِ قَالَ الْمُقَدَّدُ: يَا رَسُولُ اللَّهِ 

أَسْرَىً .. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ( إِنَّ كَانَ يَقُولُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزُوجُلِّ ما يَقُولُ )،

فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِهِ.

فَقَالَ الْمُقَدَّدُ: هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ . قَالَ: وَفِي هَذِهِ آيَةٌ ( فَوَإِذَا تَنَأَّلُ ۖ}

دَلِّي هُدَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْتِيْرُ الْأَوَّلِينَ ۖ)}.
وجملة "أسرن الآولين" وهو جمع أسطورة أي كتبهم أقيمتها فهو يتلمع فيها ويتلواها على الناس، وهذا هو الكذب الحق كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى "و قالوا أسرن الأولين أكتسبت بعضكم على بعض" وقيل أنزله الله يعلمه أسرن في السموات والأرض إنه سكن غفورًا رحيمًا.

قوله: "وإذ قالوا لله إن كارب! هنأ هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أتينا بعذاب أليم؟" (الأنفال) هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم، وهذا ما عيبوا به وكان الأول لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فافدها له ووفقنا لاتباعه، ولكنهم استفتحوا على أنفسهم وأستعوا العذاب وتقديم العقوبة. (1)
12- المثيرين بآيات الله تعالى

« حذّر المُنفِّقِينَ أنَّ يَتَّلِى عَلَيْهِمُ سَوْرَةُ تَنَزِّهِهِمُ بِمَا فِي قُلْوِهِمْ قَلِ أَشْهَرْؤُوا
إِنَّ اللَّهَ خَرَجَ مَا حَدِّرُوْتُوهُ وَلَوْنَ سَأَلُهُمُ لِيُقُولُوْنَ إِنَّمَا حَسِنُّوا مَحْوُضُ وَتَلْعِبُ
قُلْ أَيْ بَيُّنِي وَأَعْيَنِي وَرُسُولُهُ كَنْتُمْ تَسْتَهِيرُوْتُمْ ١٩٣ » (الثنى).

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولا
كان المؤمنون يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء: « المُنفِّقٌونَ
والمنافقين بغضبهم من بعضهم يأمرن بالمنصص وينهون عن المعروف
وينقضون أديهم. نُسوا الله قد استُهْنُوهُم. إنَّ المُنفِّقٍ نُهِمُ الفِسَقُورُ ١٩٤ »
(الثنى) أي عن الإنفاق في سبيل الله وهذه الصفات جائت تالية في آيات أخرى.

يقول ماجد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يشي علينا سراً
هذا، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ١٩٥ « وأَيُّذَا جَاءَكَ حُجَّةٌ يَمَّا لَّمْ تُحْتَكِّبْ بِهِ اللَّهُ
ويقولون في أنفسهم لولا يعدبنا الله بما نقول حسنه جهيم يصلى بها فليس المصير
» (المجادلة) وقال في هذه الآية: ١٩٦ « قَلِ أَشْهَرْؤُوا إِنَّ اللَّهُ خَرَجَ مَا وَرَبَّ تَحْدِرُ
» (الثنى)، أي أن الله سينزل على رسوله ما يفضحهم به وبين له أمركم
كقوله تعالى: ١٩٧ « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يُقُولُونَ مُرَضٌ أنَّ اللَّهَ أَضْعَفَهُمْ ٢٠٠ »
إلى قوله: ١٩٨ « وَلَعَظَفْنَاهُمُ فِي أَخْتَرَ أَلْقَوْلٍ » (عدد ٢٠٠) وهذا قال قتادة: كانت
تسمى هذه السورة (الفاضحة) فاضحة المنافقين.

قال أبو معشر المدينى عن محمد بن كعب القرطبي وغيره قالوا: قال رجل من
 المنافقين: ما أرى قرآن هؤلاء إلا أرحبنا بطونا، وأذنبا ألسنتا، وأجبنا عند
اللقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال في رسل الله ﷺ، وقد أرمل وركب
نافته فقال: يا رسول الله، إننا كنا نخوض ونلعب فقال: أَيَّا إِبَنِهِ وَأَيَّاهُ، وَرُسُولُهُ
كَسْبُهُ مَتَّعُوْرُوْتُهُ ٢٠١ » إلى قوله: ٢٠٢ « سَكَانَا أَحْمَرْيَبَ » (الثنى: ٢٦٦) وإن رجله
ل사항 الحجارة، وما بقت إليه رسول الله ﷺ، وهو يتعلق بسفيف رسول الله ﷺ.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله ابن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائتنا هؤلاء أرغب ببئننا. ولا أكذب ألمسا ولا أجنع عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت ولكم منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. ولبلغ ذلك رسول الله ﷺ. ونزل القرآن. فقال عبد الله بن عمر وأنا رأيته متعلقاً لكنب ناقة رسول الله ﷺ. تنكب الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إما كنا خوض ونلعب! ورسول الله ﷺ يقول:

"أيا الله وأيابنيه، ورسوله، كنفر قشتىوروت".

قال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المناقين منهم وديعة بن ثابت أخو بنى أمية بن زيد حليف بنى سلمة، يقال له: مخشن بن حمير يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك. فقال بعضهم لبعض: أنسوسن غلال (حرب) على الأسفر (الروم) كتبت العرب بعضهم ببعضاً، والله لكنا نكم غذا مترين في الجبال، إرهاقاً وتهرباً للمؤمنين. فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أن أقضي على أن يضرب كل رجل من آتائنا جلدة، وإما ن瓴ت أن ينزل فينا قرآن لقائمك. هذه وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني: لعمار بن ياسر: "أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا؟ فإن أكروا، فقول: بلقي ثم كذا فانطلق إليهم عممار، فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله ﷺ يعتدون إليه. فقال وديعة بن ثابت ورسوله ﷺ واقف على راحلهه فجعل يقول وهو أخذ صحبته: يا رسول الله، إذا كنا نخوض ونلعب. فقال مخشن بن حمير: يا رسول الله قد ثبت اسمي واسم أبي فكان الذي أفا عنه في هذه الآية مخشن بن حمير، فتسبس عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعمل بمكائه فقال يوم اليمامة لم يوجد له أثر. وعن قتادة رواية أخرى بهذا الموضوع، وبهؤلاء النفر.

(1) الحقب: الحقب بالتحريك، الحزام الذي يلبى حقو البهير، وقيل: هو حبل يشد به الرجل في بطن البهير مما يلي تيله.
(2) تفسير القرآن العظيم 10/381، 382.
12- ينسخ اللهم تعالى: ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته

ومَا أُرْسِلْنَا بِنَيَّةٍ لَّنَذْرَىٰ أَبِيَّةٍ إِلَّا إِذَا نَزَّلَتُ آيَةٌ لَّهُ أُرْسِلْنَا بِهَا تَحْكُمُ اللَّهُ بِأَمِينٍ، فِي نَسْخِ اللَّهِ مَا يَلْقَى الْشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِ مَرْضٌ وَقَالَ مِنْهُ شَيْءًا مِّنْ شَيْءٍ أَلْطِيْلِينَ لَنِفِي شَيْءًا بِعِنْدِهِ وَلَعَلَّمَ الْذِّينَ أَوْقَتُوا الْعَلَّامَهُ أَنْ أَلْحَقَهُ مِنْ رِزْقٍ قَيُوءًا وَفَتَحَتْ لَهُ، قُلُوبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْذِّئْبَىٰ جَمِيعًا إِلَى صَرْطٍ مَّسْتَقِيمٍ ﴿۳۶﴾ [الحج].

أسباب نزول هذه الآيات:

ذكر كثير من المسنونين ها هنا قصة الغرينيق، ورجع كثير من مهاجرة الحبشة إلى مكة، لذا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، وذروت روايات مختلفة، كلها من طرق مرسلة، ليست مسندة من وجه صحيح كما قال ابن كثير (1).

منها ما رواه ابن أبي حاتم، وأبي جرير، وأبي المنذر عن سعيد بن جبير: أن النبي ﷺ جلس في ناد من أندية قومه، كثير أهله، فتنزه يومئذ ألا يأتيه من الله شيء، فثبتوا عنه يومئذ، فأنزل الله عليه: ﴿وَالْمَجْرَمُ إِذَا هُوَيٰ ﴿[النجم] فقرأ حتى إذا بلغ إلى قوله: ﴿وَأَفْرَمَيْنَ آلِهَتَهُ وَالْغَرِّىٰ وَمَنْوَىَ الْقَالِبَةِ الْأُخَرَىٰ ﴿[النجم] واللقى الشيطان كلمتين: تلك الغرينيق (2) العلا، وإن شفاعتهن لترتقى فكلم بها، ثم مضى بقراءة السورة كلها، ثم سجد في آخر السورة، وسجد القوم جميعا معه، وقال المشركون: ما ذكر أهتنا بخير مثل اليوم، فسجد وسجدا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَمَا أُرْسِلْنَا مِنْ قَلِيلٍ وَلَا ظَيِّىٰ﴾ الآية.

ورفع الوليد بن المغيرة ترابا إلى جبهته وسجد عليه، وكان شيخا كبيرا. فلما

(1) تفسير ابن كثير 17/379
(2) الغرينيق: إما الأصنام وإما إشارة إلى الملائكة أي هم الشفعاء لا الأصنام، لأن الكفار كانوا
يعتقدون أن الأوثان والملائكة بنتان لله، كما حكي عنهم.
أمسى النبي ﷺ أثناء جبريل، فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين قال: ما جئت بهاتين. فأوحي الله: "وإِنْ سَكَّدُوا لَيْفَوْنَا عَنْ الْكُلُّ أَوْحَيْتُونَا إِلَيْكُمْ لَيْفَرَّيْنَا عَلَيْنَا غَيْرَهُ. وَإِذَا لَمْ تَخْيِبُوا وَحْيًا إِلَّا مَنْ أَنْزَلْنَاهُ لَيْفَرِّيْنَا عَلَيْنَا، حَيْلًا. إِنَّمَا لَقَدْ كَانَتْ لَقُدْمَيْنَا كَذَّبَتْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ بَعْضِهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا. لَّا تَجِدُنَّ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا.
( الآية 25) [الإسراء] فما زال مهجوماً حتى نزلت: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ وَلَا بَيِّنَى إِلَّا اِذَا تَمَتَّعَ الْقَلِيفُ الْشَّيْطَانُ فِي أَمْيَتِهِ".

قال ابن العربي، وعياض: أن هذه الروايات باطلة لا أصل لها.
وقال الرازي (1)، أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة لا أصل لها موضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول.


وأما السنة: فهي ما روى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة: أنه سئل عن هذه القصة، فقال: هذا وضعت من الزندقة. وقال البهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وأيضاً فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون، والإنس والجنس، وليس فيه الحديث الغرانيق.

وأما المعقول فمن وجهه منها: إن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر؛ لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم شيء كان في نفث الأوثان.

(1) انظر: أحكام القرآن لابن العربي 3/1288 - 1290، وتفسير الفرقان 12/82.
(2) تفسير الزرازي 23/50.
قال الرازي: وأقوى الوجوه: أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شره - أي شرع الله - وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك، ويطلي قوله تعالى: "ِّتَبَيَّنَّا الْأُرْسُولَ ِّبَلَغَ مَا أَنْزَلَ ِّإِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تُفْعَلْ فَإِمَّا بَلَغَتُ رُسُلَتَهُ وَاللَّهُ يَغْصَمُكَ مِنْ آنَاسِي إِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدِي ِّأَلْقَوْمٍ ِّالْكُفَّارِينَ" [المائدة]. فإنه لا يفرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه، فهذا عرفنا على سبيل الإجالة أن هذه القصة موضوعة.

أرشد الآيات إلى ما يلي:

1- هذه تسلية أخرى للنبي ﷺ بعد قوله المتقدم: "ِّوَإِنْ يَكُدَّبُوْكَ" أي فلا تخزن ولا تتألم لما يردده الكفار على لسان الشيطان، فقد أصاب مثل هذا من قبل من المسلمين والأنيبياء.

2- الآية تدل على إحكام الوحي، وحفظ كتاب الله تعالى وحرية من أقاويل الشيطان وأباطيله وخرافاته، فإنه إذا ألقي شيئًا من الكلام في ثنايا آيات القرآن الكريم، أو حديث النبي ﷺ في نفسه فيبطل الله ما ألقى الشيطان ويختم آياته ويثبتها.

قوله تعالى: "ِّتَبَيَّنَّا" و "ِّأَمَنِيبَهُ" أي قرأ وتلا، وقرأته، وروى البخاري عن ابن عباس في ذلك إذا حدث - أي النبي - آلا الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقى الشيطان والمعنى: أن النبي ﷺ كان إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيلة، فيقول: لو سألت الله عز وجل أن يغمم لبسط المسلمون: ويعلم الله عز وجل أن الصلاح في غير ذلك فيبطل ما يلقى الشيطان أي إن المراة حديث النفس. قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأعجبه.

3- إن في إلقاء الشيطان حكمة وهو أن يجعل فتنته ابتلاعًا وختيارًا لآتينهما المنافقون والمشركون وهم الظالمون أفسهم. والظالمون أى الكافرون لقى خلاف وعصيان ومنشأة الله عز وجل ورسوله ﷺ.

(1) التفسير المنير 17/247، 248.
4- قال البقلي: في آية الله يُ يجعل ما يَليق عالَمَ الشِيطان فَتْنَةً وَ في الآية دليل على أن الأنباء يجوز عليهم السهو والغفلت بوساوس الشيطان، أو عند شغل القلب حتى يغفل. ثم ينبه ويرفع إلى الصحيح. وهو معنى قوله: «قَنِعَ أَنَّهُمْ مَا يَلِيقٌ عَالَمَ الشِّيْطَانِ فَتْنَةً».

وكان إذا يكون الغفلت على حسب ما يغفل أحدنا، فإما ينسب إليه من قولهم: تلك الغرابين العلا. فذكتب على النبي ﷺ، لأن فيه تعظيمًا للأصنام، ولا يجوز ذلك على الأنباء، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن، ثم يشيد شعراً ويقول: غلطت ووظنته قرآناً.

5- وحكمة أخرى لإلقاء الشيطان هي أن يعلم المؤمنون أن الذي أحكم من آيات القرآن هو الحق الصحيح الثابت من الله. فيؤمنون به، وخشى وتسكن قلوبهم، وإن الله يهدى المؤمنين إلى صراط مستقيم أي يثبتهم على الهداية.

6- سيضلل الكفار في شك من القرآن أو من الدين: وهو الصراط المستقيم أو من الرسول أو ما ألقى الشيطان على لسان محمد ﷺ، وهو لم يقله فيقولون: ما باله ذكر الأصنام أًخرج ثم ارتذ عنها؟ ويستمر الشك إلى وقت جيء زمن الإيمان القسري أو المليج فجأة، وهو إما يوم القيامة وإما الموت، وإما يوم الحرب كبدر. وذلك يوم عقيم، وقد تبين لدينا أن الراجح في تفسير اليوم العقيم هو يوم القيامة.

قال الصحاح: عذاب يوم لا ليلة له. وهو يوم القيامة.

قال الرازي: وهذا يقول أولى؛ لأنه لا يجوز أن يقول الله تعالى: «وَلَوْ زَالُ أَيْتَمَا» [الحج: 50] ويكون المراد يوم بدر؛ لأن من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر، ولا يكون هناك تكرار بينه وبين قوله: «الساعة» لأن الساعة من مقدمات القيامة، واليوم العقيم هو ذلك اليوم نفسه كما أن في الأول ذكر الساعة، وفي الثاني ذكر عذاب ذلك اليوم. ويعتبر أن يكون المراد بالساعة، وقت موت كل أحد. وبعذاب يوم عقيم: القيامة.(1)
7 - الملك والسلطان له وحده يوم القيامة دون منازع، فهو الذي يقضي بالجزاء بين العباد ويكون قرار حكمه أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات في جنات النعيم، وأن الكافرين الكاذبين بايات القرآن الكريم في عذاب مهين. وقوله:
«الملك يومئذٍ بيني ولي» من أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو يوم القيامة(1).

(1) التفسير المثير 17 / 255.
14- تلاوة آيات الله

تظهر على وجه الذين كفروا المنكر

فَأَمَّنْ تَعَلَّمَ أَنَّ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنْ ذَلِكَ عَلَى
اللَّهِ يَبِيعُرُ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلَيْهِ مَا لَمْ يُبَلِّغَهُ إِلَّا سُلَطَتُهُ وَمَا لَيْسَ هُمْ بِعَلِيمٍ
وَمَا لِلَّهِ مِنْ نَظَارٍ إِنَّهُ يَعْلَمُ عِنْصَرَتِ الْحِيَاةِ الْأَخِيرَةِ وَغَيْرَهَا يُبْنِي أَبْنِيَّنَا بُلَيْثَ بِعَلِيمٍ
كَفَرَهُمَا الَّذِيْنِ يَكْذَبُوْنَ بِبَيْنَ يَدَيْنِ يُفْتَنُّهُمُ الْمُكَذِّبُونَ بَيْنَ يَدَيْنِ يَلُوُّ بَيْنَ يَدَيْنِ أَبْنِيَّنَا قَلِ أَفَتَبْنِكم
يُجْبِرُهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْكَآرَبِ وَعَدَّهَا اللَّهُ يَدَيْنِ كَفَرُوا وَبِيَسِينَعْبُدُونَ [الحج]

يَبِينُ اللَّهُ عَلَى عَقَلِهِ مَا كَانَ مِنْ ما فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَلا يَفْرُنَّ مِنْهُ مِثْلُ مَا كَانَ مِنْهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ
وَبِأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ كَيْفَاتِهِمْ كَلِّهَا قَبْلَ وَجْهِهِذَا وَكَتَبَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُّخْفُوْضٍ
كَمَا ثَبَتُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمِ عِنْدَ اللَّهِ بْنِ يَمَنِرِ يَوْمِ قَالَ رَسُولُ اللَّهُ ﷺ: «وَإِن
اللَّهُ قَدْ قَدَرَ مَقَادِيرَ الخَلَايِقِ قَبْلَ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ وَكَانَ
عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ».

وَفِي الْسَنَةِ مِنْ حَدِيثِ جَمَاعَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "أَوَّلٌ مَّا
خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَبَ، قَالَ لِهُ: اكْتُبْ. قَالَ: وَمَا أَكْتُبْ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَأَنَّهُ وَإِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ" (١).

وَالَّكِتَابُ هُنا كَمَا تَدُلُّ الأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ أنَّ اللَّوْحِ المُخْفَوْضِ الَّذِي كَبَرْبِهِ اللَّهُ
خَلَقَهُ مَا كَبَرْبَهُ فِي اللَّوْحِ المُخْفَوْضِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِى حَمِلَهُ اللَّهُ دُلْوَةَ الأَطْهَارِ مِنْ
السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى السَّمَاءِ الْآدِمَيْنِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ جَبَرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (٢).

وَهَذَا مِنْ قَمَّامِ عَلَمِهِ تَعَالَ أَنَّهُ عَلَمَ عَلَمَ الأَشْيَاءِ قَبْلَ كُونَهَا وَقِدرَهَا وَكِتَابِهَا أَيْضًا
وَمَا العَبَادُ عَامِلُونَ قَدْ عَلَمَهُ تَعَالَ قَبْلَ ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِى يَفْعَلُونَهُ، فَيَعْلَمُ قِبْلَ

(١) رَاحِبُ بِحَبْثٍ "كِتَابِ اللَّهِ وَالْقَلَبِ" مِنْ فَصِيلِ الْقُرْآنِ فِي هَذِهِ الْكِتَابِ.
(٢) انْظُرِ أَيْضًا: "الْقُرْآنِ الْزَّمَانِ وَالْمَكَانِ" فِي فَصِيلِ الْقُرْآنِ فِي هَذِهِ الْكِتَابِ.
الخلق أن هذا يطبع باختياره، وهذا يعصى باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه، يسير لديه، وهذا قال تعالى: "إنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يُسِيرُ (3)".

ويعبدون من ذوات الله ما لم ينزل به سلطانًا الآية. يقول الله تعالى خبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطان. يعني حجة وبرهان كقوله: "ومّن يدع مع الله إلَّاهًا آخرًا لا يرهَن لهُ يُهَرِّبۡ عَلَيْهِمۡ سَلَطَانًا وَمَا لِيْسَ هُمۡ عِلَمٌ (4)" عامر زينب. إنهم لا يفلحون ما لم ينزل به سلطانًا وما ليسهم علمهم ما لم ينزل به سلطانه. ولذا توعدهم تعالى بقوله: "وما للظالمين من نصير (5)".

ثم قال: "وإذا تأتي عليهمِ ابْيُنَاتٌ بِيِّنَتَيْنَ (6)" أي وإذا ذكرت لهم آيات القرآن الكريم، والحج والعمرة والدعاية الواضحة على توحيد الله وأنه لا إله إلا الله، وأن رسله الكرام حق وصدق "يا كاذبون يسْتَنْصُرَ بِالذِّينَ يُسْتَنْصُرُونَ عَلَيْهِمْ ابْيُنَاتٌ (7)" أي: يكادون يبادرون الذين ينتصرون عليهم بالدعاية الصحيحة من القرآن ويستوطن إليهم الذين ينتصرون عليهم بالدعاية الصحيحة من القرآن ويستوطن إليهم الذين ينتصرون عليهم بالدعاية الصحيحة من القرآن، ولا يغادرون مالية "قلُآيِ بْنُ هُؤْلَاءِ أَيْ مِن ذَلِكَ الْقَلْبُ وَعَذَّبْهَا اللَّهُ الْقَلْبَ (8) كَفَرَوْا وَقِيَتْ آلِهَةَ رَسُولٍ (9)

(1) تفسير القرآن العظيم، 17/245 بتدخل وصرف.
15- وأنزلنا فيها آيات بينات

{ سورة النور } أنزلنا فيها وفرضناها وأنزلنا فيها آية بينتين لعلكم تذكرون

[ النور ]

بعض المعاني: { سورة النور } طائفة من آيات القرآن، محددة البدء والنهائية شرعاً.

بالتوقيف أي النقل الثابت عن النبي ﷺ، والحري الإلهي بواسطة جبريل ﴿أنزلناها﴾ وأعطيناها الرسول، وأوجينا بها إليه. والتعبير بالإنزال الذي هو صعود إلى نزل وإشارة إلى العلو للدلالة على أن هذا القرآن من عند الله تعالى المتعال على كل شيء وكل من دونه نازل عنه في المرتبة، فلا يفهم من ذلك أنه تعلل في جهة { وفَرَضَنَا } جمع آية، وهي العلامة، والمراد هنا جملة من القرآن الكريم متصلة الكلام تحقق غرضنا معيناً. { فَرَضَنَا } واضحة الدلالة على ما فيها من الأحكام.

- هذه السورة { سورة النور } أوجيناها، وأعطيناها الرسول ﴿أنزلناها﴾. وفرضنا ما فيها من أحكام، كأحكام الزنا، والقدف، واللعن والخليف على ترك الخير والاستذان، وغض البصر، وإيداع الزينة للمحارم وغيرهم، وإنكاح الأيام وستعفاف من لم يجد نكاحاً، ومكتبة الأرقاء، وإكراه الفتيات على البقاء، وطاعة الرسول، والسلام على المؤمنين.

وأنزلنا فيها دلائل واضحة، وعلامات بينة على توحيد الله وكمال قدرته لتذكرموها، فتعتقدوا وحدانيته وقدرته تعالى، وتكرار { وأنزلنا فيها آية بينتين } لكمال العناية بشأنها، كما هو الحال في ذكر الخاص بعد العام.

- إن سورة النور متضمنة آيات بينات ترشد إلى النظام الأقوم والسلوك الأمثل في الأسرة والمجتمع يقصد بها تحقيق العفاف والصون وحماية العرض، واتقاء المحرمات، وتوفير السكينة والطمأنينة القبلية البعيدة عن الشواغل والهواجس الشيطانية الداعية إلى المعصية والرذيلة.
كما أن في هذه الأحكام تذكرا وعظة للمؤمنين، وتربية النفوس، وحقيقة للفقد التي يستشعر بها المؤمن التغى جلال الله وعظمته، وعلمه وقدرته، وحسابه على كل صغيرة وكبيرة لهذا افتتحت السورة بما ينبه على العناية بها والاهتمام بأحكامها. 

(1) التفسير المتير 18/122، 123.
16- آيات الله والحكمة

وَأُذْهَبْتُ ما يُقَلَّبُ في بُوْتِكُن مِّن ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لِكُلِّ اْيْثَارًا [الأحزاب]

لطيفًا خيرًا (الاحزاب) 

هذه الآية الكرمة واحدة من الآيات التي خص الله تعالى بها نساء النبي ﷺ، ليكون هداهن هدى لنساء المسلمين جهًا، وتخذهن الله مثلاً بهذا الخطاب ليكون بعد ذلك الخطاب عاماً جارياً على جميع نساء المسلمين. مع خصوصيات حُمل على نساء النبي ﷺ زيادة على ما على نساء المسلمين من التكاليف فقد ضعف الله لنساء النبي ﷺ ومسلم العقوبة على الذنب كما ضعف له الثواب على الحسنات ووجهت هذه الآية بعد قوله تعالى: «إِنَّ اِبْنَاهُمْ ﷺ لَّهُمْ صَاحِبُ مِنَ الْيَسَاءَ إِنَّ اَنْقَبَطْنَ ﻓَلاَ تَحْصُرَنَّ ۖ بِالَّذِينَ فِي جَوَابٍ مَّرْضٍ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿

وقرن في بُوْتِكُن ولا تَبْرَجُوا ثَرَجًا جَنِحَةً الأولى ۖ وَأَفْقَهُ الْمُصْلُوْةَ وَأَنزِلَتْ الْكِحْلَةَ وَأَطْعَمَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿، إنّما يُريد الله يُبْدِهُ عَنْكُمُ الرَّجُسُ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُظْهِرُكُمْ تَظْهِيرًا (الاحزاب) »

وبعد هذه التكاليف جاءت الآية المذكورة.

ويطلب الله تعالى من نساء النبي ﷺ العمل بما ينزل الله تبارك وتعالى - كما يقول ابن كثير - على رسوله ﷺ في بُوْتِكُن من القرآن الكريم (الكتاب) ومتى يفعل الرسول ﷺ، وهي أسرار كشفها النبي ﷺ لأمته حتى تكون لهم هداية ومنهجاً وسنة.

قال قنادة وغير واحد: وذكرن هذه النعمة التي خصصن بها من بين الناس أن الوحي ينزل في بُوْتِكُن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها أولاً بهذه النعمة، وأحظاه بهذه الغنمة وأخصح بهذ هذه الرحمة العميقة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك الرسول ﷺ.

(1) تفسير القرآن العظيم 22 / 494.
قال بعض العلماء: رحمه الله لأنه لم يتزوج بكرًا سواها، فناسب أن تخصص هذه المزية، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية.

ولقد تحدثت نساء النبي - أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن، وأطعن الله تعال بذكر ما يلقي في بيوتهن ومن أفواههن، وكان فقه النساء في الإسلام من أحاديث عائشة وحفصة وأم سلمة، وخديجة قبلهن التي وقفت مع الدعوة وهي الوحيدة التي لم يشاركها أحد في حياتها مع النبي من نساء أخريات.

وبعد هذه الآية جاءت الآية الكرية التي شملت المسلمين جميعًا بالغفرة وحسن الثواب يقوله تعالى: { إنّ الّذين كفروا فذُبحوا وذُبح فداءً منك لصداقتك وصداقتك وصداقتك والصداقات والصداقات والصداقات والصداقات، فمن الجحش يفرح بهم، ومن الطعام يرثهم، وأولئك أئمة المسلمين بكم أنت مدعو، وهم عند الله يغفر له، وهم عند اللّه يغفر له، وهم عند اللّه يغفر له، وهم عند اللّه يغفر له، وهم عند اللّه يغفر له}، [الأحزاب].
۱٧- آيات الله يكذب بها المستكبرون

"أو تقول لو أن الله هدىني لحَكَّسكُن مِّن المُّتَّقين ۚ أو تقول حِين ترى
العذاب لو أن بيِّنَك فَكُنْ مِّن الْمُحْسِنِينَ ۚ بل قَد جاءتكِ عَيْنَى
فَكُنْ بِهَا وَأَشْكُرْكِ وَكُنْ مِّن الْكُفَّارِينَ ۚ [ الزمر ] "

هذه الآيات وما سبقها من قوله تعالى: "أن تقول نفسٌ يَحَسِّسَنَّ عَلَى ما فَرَقْتُ في
جَنَّبِ اللَّهِ وإن كنت آمن السُّنُورين ۚ تتحدث عن النفس التي أذنت والخرفت،
وكتفت بالله وبَياْتِهِما لما جاءتها وجعل الله تعالى النفس نبيبة عن الإنسان، والنفس في
كثير من الآيات في القرآن تدل على صاحبها كقوله تعالى: وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ۚ
فَأَفْلَحَا فِي هَٰذِهِ ۙ وَقَدَ أَفْلَحَ مِن زُكْنَاهَا ۚ وَقَدَ حَابَ مِن أَدْسَدَ ۚ
بِنَايَتِهَا الْنَّفْسُ الْمُدْمِنَةُ ۚ أَرْجِعُ إِلَى زِيَكَ رَاضِيَةَ مَرَضِيَةٍ ۚ فَأَدْخُلُي فِي
عِبَادِي ۚ وَأَذْكُرِي جَنَّتِي ۚ [ الفجر ] فَالحديث للنفس التي تعبر عن الإنسان
رجل أو امرأة.

كما أن استخدام كلمة جنب، أي: قرب، وجنب الله: قرب الله تعالى، تتحدث
الله تعالى عن هذا التفتير الذي أبعداها عن قرب الله تعالى، أي عن الجنة
في مجمع البيان تقول الله تعالى: "لَوْ أُنْبِئْنَآ إِلَى حَكَّسكُن مِّنْ الْمُتَّقينَ
ۚ أو تقول لو أراد الله هدىني لكنك ممن يبتغي
معاصيه خوفا من عقابه، وقال: إنهم لما لم ينظروا في الأدلة وأعرضوا عن القرآن،
واشعطوا بالدنيا والأباطيل توهموا أن الله تعالى لم يهدهم؛ فقالوا ذلك بالظن وهذا
والله عليكم بقوله: "بَلَّى قَدِ جَاءَتكِ عَيْنَ يَأْتِي ۚ الآية ، وقال: معناه لو أن الله هدايتي إلى
النجاة بأن يردني إلى حال التكلف لكنك ممن يقتى المعاصي، عن الجبائي، قال:
لأنهم يستُطرلون يوم القيامة إلى العلم بأن الله قد هدىهم ۚ أو تقول حِين ترى العذاب"

۹) مجمع البيان في تفسير القرآن ۲۳ / ۰۰۴، ۰۰۴ ۰۰۴. ۰۰۵.

إِنَّ كَبِيرَ الْأَنْفُسِ الْضَّلَّالَةِ، لَتَرُى الْحَقَّ فَتَطَرَّضْ بِهِ أَوْ الْبَاطِلَ، فَتَخُوضُ فِي هَذِهِ الدُنْيَا كَفُراً وَفَسَاداً وَبَعْدَا عَنْ أَيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مَبْتَهِثًا فِي الْكُونِ وَفِي النَّفْسِ، وَفِي الْخَوَاسِ، وَفِي كُلِّ مَا يَنْفَعُ الْإِنسَانَ فِي هَذَا الْكُونِ مِنْ مَعْجَزَاتِ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ بَثَّ آيَتَهُ فِي هَذَا الْكُونِ مِنْ أَصْغَرِ المَخْلُوَقَاتِ المَخْسُوْسَةِ أَماَمَانَا فِي الْأَرْضِ إِلَى الْبَعْدِ الْهَائِلِ الْلَّاهِيَةِ فِي هَذَا الْكُونِ، الَّذِي يَنْطِقُ بِنَامِ اللَّهِ وَيَنْبَغِي عَلَى عَزْمِهِ، وَحَتَّى لاَ يَبْتَغَ أَيَاتُهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، وَالَّذِي حفظَهُ مِنْ كُلِّ تَحْوِيلٍ أَوْ تَحْرِيفٍ أَوْ تَغْيِيرٍ لَيْكُونُ دَلَّاَةً لِيَنْذِرُ الْإِنسَانَ فِي هَذِهِ النَّفْسِ الَّتِي تَنْيَى إِلَى الْخَسَرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَرُى الْعَذَابَ فَتَقُولُ: (١٠٢): لَوْ أَنْ لى سَحَابَةٍ فَأُكْرِبْنَ مِنْ الْمُجَّهِّسِينَ (٢)
18 - الذين يلحنون في آيات الله - الذين كفروا بالذكر

"إِنَّ الَّذِينَ يَلَبِنُونَ فِي اِبْتِيَاتِهِنَّ لَا يَجْفَوُونَ عَلَيْهِنَّ أَفْقَهُم مِّنْ يَأْتِي

ءَامًا يَوْمِ الْقِيَامَةِ أُعْقِلُوا مَا شَيْمَتْهُمْ إِنَّهُ يُعْمَلُ بِصِرَارٍ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْذِّكْرِ

لَمْ يَجَأَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُتِبَ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيَهُ الْمُنَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ

تَنَزِيلٌ مِّنْ حِكْمَةِ حَمِيدٍ(١)" [فصل].

في هذه الآيات البيات ذكر القرآن الكريم بصفتين، وذكر باسمه مرتين:

"وَلَوْ جَعَلَنَّهُ قَزِيرًا أَعْجَمِيًا" [فصل: 44].

ذكر بالآيات بقوله تعالى:

"إِنَّ الَّذِينَ يَلَبِنُونَ فِي اِبْتِيَاتِهِنَّ لَا يَجْفَوُونَ عَلَيْهِنَّ" الآية، وذكر «بالذكر» بقوله تعالى:

"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْذِّكْرِ لَمْ يَجَأَهُمْ وَلَا يَأْتِيَهُ الْمُنَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ.

كما ذكر بالتنزيل.

وأخيراً في قوله تعالى: "وَلَوْ جَعَلَنَّهُ قَزِيرًا أَعْجَمِيًا لَفَقَالُوا لَوْلَا فَصَلَتْ إِبْتِيَاتُهُ".

وقد تم ذكر هذا في فصل القرآن الكريم رقم 37 بعنوان: القرآن العربي.

يقول الشوكاني(١):

"إِنَّ الَّذِينَ يَلَبِنُونَ فِي اِبْتِيَاتِهِنَّ" أي: كيملون عن الحق، والإخضاد: الميل والعدول

ومنه اللحد في القبر: لأنه أميل إلى ناحية منه، يقال أخد في دين الله، أي مال وعدل عنه، وقيل: للد أقد قبر. قال محايد: معنى الآية كيملون عن الإيمان بالقرآن. وقال أيضاً: كيملون عن تلاوة القرآن بالملاكاة والتصدية، واللغو والغناه.

وقال قتادة: يكذبون في آياتنا. وقال السدري: يعانون ويشاقون. قال ابن زيد:

(١) فتح القدر ٢٤ / ٥٩٤.
يشركون. لا تخفون عليهم بل من نعمتهم فنجازهم بما يعملون، ثم بين كيفية الجزاء والتفاوت بين المؤمن والكافر فقال: أفقم يلقيني في النار، خيراً من أن يقللوا أملّي من هذه الاستفهام لالتقريب، والغرض منه التنبه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار. وأن المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة.


إِنَّ الْذِّينَ كَفَّرُوا بَابِ الدُّكَرِ لَمَّا جَاءَهُمْ، الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وخبر إن محدود أي: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم، أو هالكون، أو يعذبون، وقيل: هو قوله: يُنادُوُّونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (1) [فصل] - وهذا بعيد وقيل حجة عمرو بن العلاء.


ومعنى الباطل على هذا: الزيادة والنقصان.
وقال مقاتل: لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله، ولا يجيء من بعده كتاب فيطلبه. وله قال الكلبي وسعيد بن جبير. وقيل: الباطل هو الشيطان. أي: لا يستطيع أن يزيد فيه، ولا ينقص منه، وقيل: لا يزايد فيه، ولا ينقص منه، لا من جبريل، ولا من محمد ﷺ (تنزل من حكيم جليل) هو خبر مبتدأ مذود أو صفة أخرى للكتاب عند من يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح، وقيل: إنه الصفة للكتاب. وحلة [لا يثبت] [فصلت: 44] متعلقة بين الموصوف والصفة ثم سلا سبحة رسوله ﷺ عما كان يتأثر به من أذى الكفار فقال: 

ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسول من قبلك إن ربك لدو معفرة وذو عقاب أليم.
19- الآيات البينات

وإذًا تمتّل عملهم، أبنتنا بنتنا ما كان حجّهم إنّا أن قالوا إنّوا بالآية إن كنتم صديقين (13) قال الله تعالى: "الله معكم، ثم يجميعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، وليكن أحكام الناس ليعملون (. ) [الجاثية]"


قال الرازي: هذه الآية من أقوى الدلائل على القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى (1).

ثم ذكر تعالى شبهتهم ودليلهم على إنكار البعث:

وإذًا تمتّل عملهم أبنتنا بنتنا ما كان حجّهم إنّا أن قالوا إنّوا بالآية إن كنتم صديقين (13) أو إذا تثبت عليهم بعض آيات القرآن واضحات الدلالة على قدرة الله والبعث واستدل عليهم، وبينهم الحق، وأن الله تعالى قادر على إعادة الحياة إلى الأنس بعد فتائها، لم يكن لهم حجة إلا طلب إعادة إحياء آبائهم الذين ماتوا. وإن كنتم أُبي المؤمنون صديقين في إمكان البعث، فاحيؤهم إن كان ما يقولونه حقا ليشهدوا لنا بصحة البعث.

وهذا كلام ساقط فإن البعث يكون بعد نهاية الدنيا، ولا يلزم من عدم حصول الشيء في الحال امتثال حصوله في المستقبل يوم القيامة.

ثم ذكر الله تعالى دليل إمكان البعث قائلًا: قل الله معكم ثم يجميعكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، أي قل: أبى النبي هؤلاء المشركين منكرى البعث: إن الله أحياكم في الدنيا، ثم يبتكم عند انقضاء أجالكم، ثم يجمعكم (1)

(1) تفسير الرازي 27 / 270.
جميع يوم القيامة جمعا لا شك فيه، فإن الذي قدر على البداية قادر على الإعادة بطرق الأولي والأخرى كما قال:

"أولم يروا أن الله يبسط الزرقاء ليس يشاء ويقدر إن في ذلك لا يبت لقوم يؤمنون" 

و هذه إشارة إلى الآية المتقدمة، وهو أنه كونه تعال عادلا منزها عن الجور والظلم، يقضى صحة البعث والقيامة.

و لكن أصح الناس لا يعمون أي أكثر الناس وهم مشركون العرب حينذاك ينكرون البعث، ومن غير تأمل وتدربر وروية، ولا يدركون الحقيقة العلمية، ويفضلون نظرهم على المحسوسات، دون تفكر بالغيبات فاستبعدوا قيام الأجساد أحياء كما قال تعالى: "إنهم يرونها بعيدا وترنها قريبًا" [المعارج]

كذلك لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والنبات على وجوه الإله القادر الحكيم. وتلخص المقصود إذا قررت على المشركين آيات الله تعالى المنزلة ( القرآن الكريم) في جواز البعث لم يكن له دفع حجة أو شبهة إلا أن قالوا: انتوا بآبائنا الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون (1).

(1) التفسير المنير 257 / بصرف.
20- الذين اتخذوا آيات الله هزوا

وانبل اليوم تنسيك كمما نسيت لقاء يومكما هندا ومأوى النار وما لذك حق

نصيرين [٨٣] دلوك بذكر أخذتهم إبنته الله هزوا وعرضوك الهبوة الدنيا فأنبوع لا

مخيرون مهما ولاهم يسععون [٨٤] [الجائية]

بعد أن أبان الله تعالى في هذه السورة أحوال القيامة وأهوائها ، أبان الله تعالى
أحوال المؤمنين الطائعين وما أعد لهم الله من الرحمة والثواب ، وأحوال الكافرين
وأعد لهم من العقاب ، والتوبيخ على تفريطهم في الدنيا ، وما حل بهم جزاء
استهزاهم بالاذاعة ، ومعاملتهم معاملة المنسي بتركهم في النار ، دون انتظار
الخروج منها أو التوبة واسترضا الله عن الذنوب السالفة.

والآيات ٣٠ - ٣٧ من سورة الجاثية بين حكم الله في خلقه يوم القيامة ، سواء
أكانوا مؤمنين أم كافرين فقائمة الله كنتما وعملوا الصبر حت فذخلهم ربهم في
رحمة } ذلك هو السفر السادة [٨٤] [الجائية] هذا حكم الفريق الأول وأمام الدين
كفرنا أقفمو أقفمو ألقى عليهم علية فاستنكتم وكم فقوما محترمين [٨٥] [الجائية]
أي وامن الذين أتاروا وحدثانية الله والبعث ، فيقال لهم ترنيعا وتوبناهما: أما قرئت
عليكم آيات الله تعال فاستنكتم وأتتم الإيان بها ، وأعرضتم عن سماعها
وابتهاها ، وكتبت قولا حرجين في أفعالكم ، تركبكم الآفام والمعاصي ، وتكدبون
في قولكم بالمال والثواب والعقاب؟!

ثم أياهم الله تعالى من النجاة قائلة:

واقبل اليوم تنسيك كمما نسيت لقاء يومكما هندا ومأوى النار وما لذك حق

نصيرين [٨٤] [الجائية] أي: وقيل لهم: اليوم نعاملكم معاملة الناس لكم وكالشيء
المنسي الملقي غير المبال به. فترككم في العذاب ، كما تركتم العمل لهذا اليوم
وجاهلتم ما جاء عنة في كتب الله: لأنكم لم تصدقا باليوم الآخر ، وسكنكم
ومستثمر الذي تؤمن إليه هو النار، وليس لكم من أنصار ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب.

وذلك جمع الله تعالى عليهم من وجه العذاب الشديد ثلاثة ألوان هي:

الأول: أن تقطع رحمة الله عنهم بالكلية.

الثاني: أن يجعل مأواهم النار.

الثالث: فقدان الأعوان والأنصار.


ثم ذكر الله تعالى أسباب هذا العقاب أو الجزاء فقال:

"ذالك كونتم اتخذتم ءابئ الله هزوا وأعرتق آلهة الدنيا. فاليوم لا تخرجون منها ولا هم يستعتبنكم (6) [الجاثية]. أي ذلك العذاب الذي وقع بكم بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزوا ولعبا، وخدعتم الدنيا بزخارفها وزينتها، فاطمأنتم إليها، وظنتتم أن لا دار غيرها، ولا بث ولا نشور، فاليوم لا تخرجون من النار ولا يطلب منهم العقاب بالرجوع إلى طاعة الله، واسترضائه، لأنه يوم لا تقبل فيه النوبة، ولا تنفع فيه المعدرة (1)."
21- الآيات البينات وصفات أخرى

{إذا تَلَقَّى عَلَيْهِمْ أَيْتَامًا بَيْنَثَنَّ قَالُ آلَ الْدِّينِ كَفَّارًا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سَحْرُ مُبِينٌ ۖ أَمِّي يَقُولُونَ أَقْضِهِ تَأْمُرَهُ قَالَ إِنَّ أَقْضِيَتُهُمْ، فُلَا نَمَّلِكُونَ لى مِنْ أَلِيهِ شَيْءًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَقْبِيضُونَ فِيهِ كَفَّ يَشَّدُّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْعُفُورُ الرَّحِيمُ قَلْ مَا كُنتُ بَدْعًا مِنْ الرَّسُولِ وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ يِلٌّ يِنْبِعُ إِلَّا إِنَّمَا يُوحِى إِلَى وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرُ مُبِينٌ ۚ فَلَنَأُرِيُّكُمُ إِنَّ كَانَ مِنْ عِبَادِ اللّهِ كُفَّارَ مِنْهُ وَسَيَهْدُ مِنْ بَيْنِي إِسْرَئِيلِ عَلَى مَلِيكِهِ فَاقْمُ وَأَسْتَكْبِرُ ۖ إِنَّ اللّهَ لَا يُهْدِي الْقَوْمَ الْأُلَّمَانِ ۖ وَقَالَ الْأَلَّهِنَّ حَسَنُوا لِلْذِّكَّرَينَ ۖ وَكَانَ حَيِّا مَا سَقُونَ إِلَيْهِ ۚ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ وَقِسُيَّةُ أَذَاثُ هَذَا إِلَّا إِنَذَارُهُ ۖ وَقَلَّ مِنْ قَلْبٍ كَبْبُ مَوْسِيٍّ إِلَّا وَرَحْمَةً وَهَذَا كَبْتُ مُصَدِّقًا لِلْمُحِيْسِنِينَ }[الأنفاس].

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الستِّ مِنْ سُورَةِ الْأنفَاسِ وَرُوِّدتْ أَكْثَرُ صَفَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِاْسْمِهِ وَهَذَا كَبْبُ مُصَدِّقٍ وَبِصَافَتِهِ نَّأَوَّذُ عَلَيْهِمْ أَيْتَامًا وَنَّبِيَّتِهِ وَقَالَ الْأَلَّهِنَّ حَسَنُوا لِلْذِّكَّرَينَ ۖ وَكَانَ حَيِّا مَا سَقُونَ إِلَيْهِ ۚ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ وَقِسُيَّةُ أَذَاثُ هَذَا إِلَّا إِنَذَارُهُ ۖ وَقَلَّ مِنْ قَلْبٍ كَبْبُ مَوْسِيٍّ إِلَّا وَرَحْمَةً وَهَذَا كَبْتُ مُصَدِّقًا لِلْمُحِيْسِنِينَ }[الأنفاس].

وَقُولُهُ تَعَالَى: وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الثانيَّةِ بَعْدَ قُولِهِ تَعَالَى: قُلْ أَرْهَبُ أَفْحَلُ مَنْ سَكَانٍ مِنْ عِيْدٍ اللّهِ ثُمَّ كَفَّارُ مِنْهُ مِنْ أَصِيلٍ مِنْ هُوَ فِي شِيَاقٍ بِعَيْدٍ }[[Vصله].

ثُمَّ قَولُهُ تَعَالَى: وَأَوَّذُ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ وَقِسُيَّةُ أَذَاثُ هَذَا إِنَذَارُهُ ۖ وَأَخَيْرًا ذَكَرُ بِصَافَتِهِ أَنَّ إِسْتَبْدَأَ عَزْبًا وَمِثَّلُهُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمِ: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قُوْمِهِ لِيَبْيَِّبُهُمْ فِي صِلْطِ اللّهِ مِنْ يَبْشَأْ وَيُهْدِيَ مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكَمُ }[النور].

وَأَخَيْرًا لِيَبْنِي الْأَلَّهِنَّ ظَلَّمُوا وَنَشَأَ لِلْمُحِيْسِنِينَ }[الأنفاس].
الله تعالى في الإنذار بهذا الكتاب وصباح بلشفة قوية أخذة بالأباب.

وقد ورد ذكر كتاب الله تعالى في هذه السورة في مواقف كثيرة أخرى من أبرزها استماع الجن للقرآن من الرسول ﷺ وذلك في قول الله تعالى: "وإذ صرفا إلآك نفرًا من أهلْنَجِّ يسيِّمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنا نصوتأ فلما قضي ولى إلآك قومهم ممنذرين " قالوا ينقومنا إنا سمعنا حكبنا أنزل من بعد موسي مصدقًا إنا بين يديه يهدى إلى آلهَّتي وطريق مستقيم (١) (الأحقاف) ويتبع بعد ذلك قصة الجن مع سماء القرآن.

وليس هذا فقط فإن السورة كلها من مجموعة "الحواميم" الست التي تحدثنا عنها في بحث سابق. كل هذا يقودنا إلى أن سورة الأحقاف يمكن أن تكون سورة القرآن لتكرار ذكره فيها وشموها على كل هذه الآيات المتعلقة به. والملفت للنظر أن كل الآيات تقريبا تركز على تنبيه الناس إلى ملكوت الله، والإنذار والتبشير. الإذار للكافرين والبشرى للمسلمين باتباع ما أنزل الله تعالى في هذا القرآن من هدى وآيات بينات بسان عربي مبين. ونلقت النظر إلى تلك الإبداعات الجليلة.

سِبِبْ نُزُولَ الآيَةِ [١٠٠]: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنَّ كُلَّ مِنْ عِنْدِ الْآلهِ وَكُفْرُ تِمْهِ. وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ نِيَّتِ إِنْصَرَّْلِهِ الآيَةِ."


*(1) انظر: بحث "القرآن هدى للجن كما للإنس" (٤) رقم (٤) في فصل القرآن الكريم.*
قومه: أي رجل تعلموني يا معشر اليهود؟
قالوا: والله ما نعلم فينا رجلا كان أعلم بكتاب الله، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد أنه النبي الذي يحدون في التوراة، قالوا: كانتم ثم ردوا عليه، وقالوا فيه شرا، فنزل الله: {قل أرءيتم} الآية.
وأخرج الشيخان البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: في عبد الله ابن سلام نزلت، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله.
وأخرج ابن جرير والترمذي وابن مردوخ عن عبد الله بن سلام قال: في نزلت. ونزل في {قل هكذا بناء الله شهيدا} بيني وبنبحكم وممن عبده، علم الله الكتاب.

وسبب نزول الآية [11]: {وقال الذين صكروا} أخرج الطبراني عن قتادة قال:
قال ناس من المشركين: نحن أعز، ونحن، ونحن، فلولا كان خيرا ما بقينا إليه فلان وفلان، فنزل: {وقال الذين صكروا} وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كان لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها: {زينين} أو {زنيرة} فكان عمر يضربها على إسلامها حتى يفتر، وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيرا ما سبقتنا إليه {زينين} فنزل الله في شأنها: {وقال الذين صكروا} لآية.

وقال عروة بن الزبير: إن زنيرة رومية كان أبو جهل يذهب إليها - أسلمت، فأصيب بصرها، فقالوا لها: أصابك اللات والعزي، فرد الله عليها بصرها، فقال عظام قريش: لو كان ما جاء به محمد خيرا ما بقينا إليه زنيرة فنزل الله هذه الآية.

وقال ابن عباس والكاببي والزجاج: إن الذين كفروا هم بنو عامر وعطقان وتيم وأسد وحنظلة وأشجع قالوا لمن أسلم من غفار وأسلم وجهينة ومزينة وخزاعة: لو كان ما جاء به محمد خيرا ما بقينا إليه رعاية الهم؛ إذ غن أعز منهم.

(1) التفسير المبرم 26 / 17
وقال أكثر المفسرين: إن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعني
عبد الله بن سلام وأصحابه، لو كان دين محمد حقاً ما سبقنا إليه (1).

وترشذ هذه الآيات كما استخلصها صاحب التفسير المثير (2):

1- عادي مشركون مكة النبي ﷺ، فكذبوا كون القرآن نازلاً من عند الله،
وكذبوا النبوة ووصفوا القرآن بأنه سحرة واضح.

2- ولم يكتفوا بوصف القرآن بأنه سحر، بل قالوا ما هو أشعع من ذلك.
قالوا: إن محمدًا اختلقه وافتره من عند نفسه، لا من عند الله.

3- رد الله عليهم افتراءهم بأنه لو افتراء محمد ﷺ على سبيل الفرض والتقدير
لجعل الله العقوبة في الدنيا، ولم يقدر أحد أن يرد عنه عذاب الله، والله أعلم
بما يتقوله ويخوض به من التكذيب هؤلاء المشركون. وكفى بالله شاهداً على أن
القرآن من عند الله. وأنه يعلم صدق نبي وأنهم مبطلون.

وبالرغم من ذلك فالتوبة الخفورة لن تاب، الرحيم بعبادته المؤمنين، فذا أمن
هؤلاء المشركون، غفر لهم ما قد سلف منهم من الذنوب والمعاصي.

4- ليس النبي ﷺ أول نبي أو رسول يرسل، بل هو خاتم الرسل الكرم. قد
كان قبله رسول فليست دعوته إلى التوحيد، وإنكار عبادة الأصنام، وعدم علمه
بالغيب مقصورة عليه، وذلك دعوة قديمة هي دعوة جميع الرسل.

5- النبي ﷺ غير عالم بالغيب، إلا بطريق الوحي، فلا وجه لطلب إخباره
بمنييات لا يعلم بها، فهو لا يدري ما يفعل به ولا بالناس من أحوال الدنيا
и أحوال الآخرة، من الأحكام والتكاليف وما يؤول أمر الكليتين إليه، وبه يعلم
أن ما يدعى من علم بعض الأولياء بالغيب هو أمر باطل وكذب متفرج. لكن النبي
يعلم فنه نبياً، فهو يعلم أنه لا تصدر عنه الكبائر، وأنه مغفور له، وقد تأكد
هذا بقوله تعالى: «فَتَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الذُّنُوكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُحِبُّ يَعْمَتْهُ عَلَيْكَ» [الفتح].

(1) التفسير المثير 26/25
(2) المصدر السابق 26/21
6- دلت آية قل أزرمت إن كان من عند الله عن إنذار المشركين الظالمين
بإذاب أميم إذا استمروا في تكذيبهم بالقرآن. وتكبروا على الإيام به وعن اتباعه
وياة الرسول المنزل عليه، بالرغم من شهادة رجل منصف عارف بالtourة بأن
القرآن حق، سواء أكان عبد الله بن سلام أم موسى عليه السلام وعلى كل حال
فهذه الآية بشراء للنبي في التوراة وعلى لسان موسى وحسن علماء بنى
Israel. فهيئة بشراء عيسى عليه السلام محمد. إذ قال عيسى آبن مريم
يبني إسرئيل إني رسول الله إني جكر مصيناً لا يَدْدَيْ من النزورة ومَبْيِرَارِ بِرُسُولِ
يأتى من بعد أي اسبة، أهمن، فلما جاءهم بالنبي قالوا هكذا يعمر مييين

[الصف]

وقوله: إن الله لا يُهدي آلقوم الظالمين تهديد، وهو قائم مقام
الجواب المذكور للشرط: إن والتقدير قل أرأيت إن كان من عند الله، ثم
كنتم به فإنكم لا تكونون مهتدين، بل تكونون ضالين.

إن شأن المتكبرين المقصرين تسويغ تقصيرهم بأنه الأسباب وأسفخ المقالات
بدافع الكبرياء والاستعلاء لذا قال أهل مكة: لو كان هذا الدين حقا ما سبقنا إليه
هؤلاء العبيد المستضعفين، وأضافوا إلى ذلك - حينما لم يهتدوا - افتراهم
بقولهم: هذا القرآن كاذب متوازت، وأساطير الأولين، ومن جهل شيئا عاده.

وأما بدل على صدق القرآن وأنه من عند الله توافقه في أصول العقيدة والشريعة
مع التوراة كتاب موسى عليه السلام الذي يقولون بأنه كتاب الله، فهو قدوة ورحلة
يؤتم به في دين الله وشرائه، والقرآن مصدر للتوراة وما قبله من كتاب الله في أن
حمداء رسول حقا من عند الله، وهو بلغة عربية فصيحة بينة واضحة لكل من
نظر فيه وتأمل، يشتمل على إنذار الكافرين وبشراء المؤمنين.

وكانه تعالى قال: الذي بلد على صحة القرآن أنكم لا تتنازعون في أن الله تعالى
أنزل التوراة على موسى، وإن جعل هذا الكتاب إماما يقتدي به، ثم إن التوراة مثمرة على البشارة يمدغم محمد، إذا سلمتم كون التوراة إماما يقتدي به، فاقلوا
حكمه في كون محمد رسول حقا من عند الله تعالى.
إن الذين جمعوا بين الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبين الاستقامة على الشريعة في غاية السعادة النفسية والمادية. فهم مؤمنون مطمئنون مرتاحون لا يعكر صفوهم خاوف المستقبل ولا أحزان الماضي، وهم خالدون دائمون في جنات النعيم، بسبب ما قدموا من عمل صالح في دار الدنيا(1).
22- هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم
يتلو عليهم آياته ويزكيهم

[الجامعة]

1- نزلت هذه السورة بعد سورة (( الصف )) السابقة لها، وهي تعالج الموضوع
الذي عالجه سورة الصف ولكن من جانب آخر وأسلوب آخر، ومؤثرات
جديدة. وأن هذا فضل من الله عليها، وأن بعثة الرسول الأخير من الأميين - وهم
العرب - من كبرى تستحق الانتباه والشكر. وتقضي كذلك تكاليف تنهض بها
المجموعة التي استجابت للرسول، واحتملت الأمانة، وأنها موصلة على الزمان
غير مقطعة ولا متينة. فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتصدع، بعد ما نكل بنو
إسرائيل عن حمل هذه الأمانة، وانقطعت صلتها بأمانة السماء، وأصبحوا يحملون
اللوراء كأخمار يحمل أسفارا ولا وظيفة له فمن إدراجها، ولا مشاركة له في
 أمرها(1).

2- (( يُسِيَّبُ يَتِّلُهُمْ مَا في السِّمَوَاتِ وَمَا في الْأَرْضِ أَلِيِّكُم الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ))
وهذا المطلع يقر حقيقة التسبيح المستمرة من كل ما في الوجود لله، وتصفه -
سبيحاته - بصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة، السورة التي اسمها
(الجامعة) وفهي تعليم صلاة الجامعة. وتذكر (( أَلِيِّكُم )) الذي يملك كل شيء
مناسبة التجارة التي يسارعون إليها ابتعاد الكسب.

(1) في ظلال القرآن 6/ 2563، 2562.
وذكر (القعدة) الذي يتقدس ويتزه ويتوجه إليه بالتقدس والتنزيه كل ما في السماوات والأرض الذي ينصرون إليه عن ذكره. وذكر (المغيرة). مناسبة المباهلة التي يدعو إليها اليهود، والموت الذي لا بد أن يلاقى الناس جميعًا وبرجع إليه والحساب. وذكر (المكي الكبير) مناسبة اختيار الأئمة ليعبث فيهم رسولًا ينثو عليهم آياته ويزكيهم ويعملهم الكتاب والحكم، وكلما مناسبات طفقة المدخل والانصال.

3- هؤلاء الذين بيعت في الأمة والرسول. قال: إن العرب سموا الأمين لأنهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون في الأعم الأغلب - وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: "الشهر هكذا وهكذا وأنا وأنا وأنا أشلح بأصحابه وقال تعالى: "إن من أممن أمة أمينة لا نحسب ولا نكتب". (البقرة) 1). انتظر اليهود أن يكون منهم لكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبي من العرب، من الأمين غير اليهود. فقد علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية، وأنها زاغت وضالت - كما جاء في سورة الصف - بأنها لا تصلح حمل الأمانة بعد ما كان منها من فساد في تاريخها الطويل.

4- وكانت هناك دعوة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - تلك الدعوة التي أطلقها في ظل البيت هو وإسماعيل (عليه السلام) "وإذ رفع ﷺ إليهم آلههم الذين كانوا من أيّامهم وسمع عليهم رأيتين وأجعلنا مسلمةً لكم ومن ذرتينّ أمة مسلمةً لكم وأراهما مناسكنا وتب عليكم إنك أنت آله الوهاب الرجيم (البقرة) رأيتين وأبعث فيهم رسولًا مبسوطًا يعلموا آياتك ويعملهم الكتاب والحكمة ويزكيم. إنك أنت الغير الباقي الحكيم (البقرة) ". كانت هنا هذه الدعوة من وراء الغيب، ومن وراء القرونين محفوظة عند الله تضع حتى يجيء دورها في الكون حسب التدبير الآله الذي لا يتمد عليه شيء ولا يتاخر عن موعده المرسوم.

(1) ذكره الإمام الجصاص صاحب أحكام القرآن وغير إسناط.
وتحقق هذه الدعوة - وفق قدر الله وتديره - بنصها الذي تقرره السورة هنا لتذكر بحكایة إلaffe إبراهيم: "رسولنا ميمونا يلهايم: ربّي أقرب لك ويعمل ميمونا "حكبة وحكمة" 
و"حكمة"، وكذلك قال إبراهيم! حتى صفة الله في دعاء إبراهيم "إنك أنت العلي الرزمي الحكيم".

وقد سئل رسول الله ﷺ عن نفسه فقال: "دعاء إبراهيم، وبشيري عيسى ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءته له قصور بصرى من أرض الشام".

5- والمنة ظاهرة في اختيار الله للأمين ليجعلهم أهل الكتاب المبين، ويرسل فيهم رسولًا منهم، يرتفعون باختياره منهم إلى مقام كريم، ويخرجهم من أميتهم أو من أميتهم بلئوا آيات الله عليهم، وتهيئهم ما لهم وقيميهم على العالمين (1).

6- ثم إن التركية وهي تظهر للعمل والسلوك، وتطوير للحياة الزوجية، والحياة الاجتماعية، تظهر ترتفع به النفسوس من عقيدت الشرك إلى عقيدة التوحيد ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح. "وَعَلِمْهُمْ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَةَ" فيصبحون أهل كتاب بعد أن كانوا أميين، وأي كتاب هذا الذي علمهم الله تعالى؟ كتاب القرآن الذي لم ولن يوازيه كتاب أو يبتعد له شيء من التحريف والترويج على مدى القرون والأمズان لأن الله حفظه، فلا يمكن أن يتعسر أو يتبدل - يصح الأميين أهل كتاب خالد، معجزة دائمة، يتفجر إعجازه في كل وقت وحين. ومع الكتاب يتعلمن الحكمة أيضا.

7- أما الآخرون: قال الإمام البخاري رحمه الله: "عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ فالتالت عليه سورة الجمعة "وَتَأْخَرَنَّ مَنْ تَحَقَّقَ بِهِمْ" قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً، وفيما سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يبدع على سلمان الفارسي ثم قال: "لو كان الإيمان في الثورا لناله رجال أو رجل من هؤلاء" وهذا نقل ماجده في هذه الآية:

(1) في ظلال القرآن 6/ 3566، 3564 / بتصرف ويسن الرجوع إلى ذلك التفسير.
هم الأعاجم وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب. وعن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: "إِن فِي أُصَلَابِ أُصَلَابِ رِجَالٍ وَنساءٍ مِن أُمَّيَّةٍ يَدخِلُونَ الجَانَّ بِغَيْرِ حِسَابٍ" ثم قرأ: "فَوَهَاخْرِينَ مِنْهُمْ لَمْ يَلْحَقَّوْاَ بِهِمْ" - ثم تأتي قضية فضل الله ﷺ جدًا يُؤتى فضله لم يشاء من عباده.
23 - إن كان ذا مال وتينين (3) إذا تُنَذِّل على أيِّنتنا قال أَسلَّتي الأأوليين

24 - الذين يُكَذِّبون يوم القيوم (4) وما يَكَذِّب به إلاّ كل معتنٍ أَئِيمٍ (5)

إذا تَنْذِل على أيِّنتنا قال أَسلَّتي الأأوليين (6) [المطفين].

سبب نزول هذه الآيات (22): أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قوله: ولا تُطْعَ كل حَلَافكَ مهينٍ (7) [العلم] وقال: نزلت في الأخنس بن شريف، وأخرج ابن المنذر عن الكلبي مثله، وهو قول الشبعي وابن إسحاق، وأخرج ابن أبي حاتم عن مjahid قال: نزلت في الأسود بن عبد يغوث، أو عبد الرحمن بن الأسود.

والمشهور أن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة. أخرج ابن جريج عن ابن عباس قال: نزلت على النبي (4) ولا تُطْعَ كل حَلَافكَ مهينٍ (8) هَمًا مَشياء يَنْبَمَيمٍ (9) [العلم] فلم نعرفه، حتى نزلت عليه بعد ذلك (عُرِّف بِعْد ذَلِكَ زِيَمٍ) (10) [العلم] فعرفناه، له زغة كَرَمَة الشاة.


ءَبْيَنًا وَالقُرآن الكريِم (أَسْلَتْيُمُ الآوْلِيَّة) (12) وأي: هي خرافات وأباطل الأقدمين.

وبعد أن وصف الله بأوصاف منها (هَمَا مَشِئَا يَنْبَمَيمٍ) و(مَعْتَنٍ أَئِيمٍ) و(عُرِّف بِعْد ذَلِكَ زِيَمٍ). أخرج الإمام أحمد، وأصحاب الكتب السنة إلا أبا داود عن حارثة بن وهب

(1) أي الجزء المستثنى من آذنها حين تشدق، ويبقى كالجزء المتعلق.
قال: قال رسول الله ﷺ «لا أبتسم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف» (1) لى أقسم على الله لأبىره. لا أبتسم بأهل النار كل عتل جواة» (2).

وبح الله الويلد بن المغيرة الذي كان دعي في قريش، ليس من أصلهم، ادعاه أبوه بعد ثمانية عشرة سنة من مولده، فقد وجبه على مقابلته الإحسان والنعمه بإفساده، فقد أنعم الله عليه بالمال والبنين، فكر وافتك، ويوصي تقدير الآية: «أن كان ذا مال وبنين» (3) لين كان ذا مال وبنين يكر وافتك؟ ويجب أن يكون التقدير: لين كان ذا مال وبنين يقول: "إذا تُذكِّرْ علَّهُ يُفْتَرِهْ قُلُوبُ السُّنيِّينَ" (4). أي: وإنما إذا تثبت عليه آيات القرآن. زعم أنها كذب مأخوذ من قصص وأباطيل القدماء، وليس هو من عند الله.

وأله تعالى خصص من بين المكذبين النهى عمن أتصف بصفات عشر هي:

1- الخلاف: الكثير الحلف.
2- المئه: الحقير الرأى والتمييز والتفكير.
3- اهتماز: الذي يذكر الناس في وجوههم.
4- اللحباك: الذي يذكر الناس في مغيبهم.
5- النمام: الذي يشي بالمهمة بين الناس ليفسد بينهم.
6- المناع للخير: للمال أن يتفق في وجوهه، ويومن الناس عن الإسلام.
7- المعتدي: أي الظالم، المتجاوز للحد صاحب الباطل.
8- الأثيم: الكثير الإثم والذنوب.
9- العتل: الغليظ الجافي الشديد في كفه الشديد الخصومة بالباطل.
10- الزنن: الملصق بالقوم الدعى - وكان الويلد كذلك. وهذا كله نزل

(1) روي بكسر العين وفتحها، والمشهور الفتح ومعناه يستضعف الناس ويعقرونه، وبالكسر: التوافت المذنبل.
(2) الجواهر: الجماع المناع، الذي يجمع المال وينعمه.
بالوليد بن المغيرة، ولا نعلم أن الله تعالى. بلغ من ذكر عيبوب أحد ما بلغه منه فللحقه به عارا...

أما الآيات التالية في سورة الطففين (۲۴)، وسميت بهذا الاسم لافتتاحها بقوله تعالى: "وَبَلْ لِلْمُطَفِّفِينَ" » وهم الذين يبخسون المكياج والميزان إما بالزيداد إذ اقتضا من الناس، وإما بالنقصان إذ قضواه أو وزنوه أو كلاهما. وسبب نزول الآية الأولى: أخرج النسائي وابن ماجه بسنده صحيح عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله:

»وَبَلْ لِلْمُطَفِّفِينَ « فأحسنا الكيل بعد ذلك.

وقال السدي: كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكياجان، يأخذ بالآويفي ويعطى بالنقص فنزلت وهي آخر سورة نزلت بمكة، فهي مكية بقول ابن مسعود والضحاك ومقاتل، ويقال إنها أول سورة نزلت بالمدينة، فهي مدنية بقول الحسن وعكرمة (۱).

روى أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، وكانوا من أخبث الناس كيلا، فنزلت، فأحسنا الكيل (روى النسائي)، وهذا أن السورة مدنية، أو قرأا عليها بعد قودومه إن كانت مكية. وكانت أول بوادر الإصلاح للمجتمع الذي سيكون دولة الإسلام.

أما ما يخص موضوعنا فورود نفس الآية الواردة في سورة القلم، فإنها تقدم هؤلاء الطففين وكذلك الكفار في موضوع واحد وتفكيك واحد ومنهج واحد. ومع تخصيص المغيرة بن شعبة في سورة القلم فهنا تشمل المجموعات الملتفية على هدف واحد من الطففين والكافرون ومنهم في ركابهم.

»وَبَلْ يَوْمَ يُؤْمِنُ لِلْمُكْتَذِبِينَ أَلَذَينَ يَكْتُبُونَ بِيَمْوَانِيَّ بَيْنَ الْأَلَّبَينَ « أي عذاب شديد.

يوم القيامة من مارب بالبعث والجزاء، وما جاء به الرسول ﷺ، فإنهما المكتوبان هم الذين لا يصدقوان بوقوع الجزاء، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره، وهذا وعيد للذم لا للبيان؛ لأن كل مكذب فالوعيد بعليه، سواء كان مكذبا بالبعث أو بسائر آيات الله تعالى.

(۱) راجع التفسير المنير ۳۰/۱۰۹، ۱۱۰.
ثم أبان الله تعالى صفاته من يكذب يوم الدين وهي ثلاث. فقال:

وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مَعْمَدٍ آمِنٍ إِذَا تَنُّوَّلَ عَلَيْهِ حَمْصًا قَالَ أَسْتَيْطِرُ الْأَوَّلِينَ

أَيَ لا يَكذب يوم الدين إلا من كان متصفا بهذه الصفات الثلاث وهي:

أولاً: كونه متعادياً، أي فاجراً جاذباً متجاوزاً منهج الحق.

ثانياً: أنه آمٍ: وهو المتمسك في الإثم في أفعاله من تعاطي الخرَام وتجاوز المباح. وفي أقواله إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر.

ثالثاً: أنه إذا تل على القرآن. قَالَ أَسْتَيْطِرُ الْأَوَّلِينَ، أَيَ أَحْيَارُ الأَوَّلِينَ المتقدمين وأكاذيبهم وأباطيلهم التي زخرفوها. تلقاها من غيره من السابقين.

وذاك يعني في زعمهم أن القرآن الكريم ليس وحياً من عند الله تعالى.

وهذه الصفة الثالثة تشبه قوله تعالى: "وَإِذَا قَبَلْتِ لَهُمْ مَّادَةٌ أَنْزِلْ رِيقَ حُكْمَ أَسْتَيْطِرُ الْأَوَّلِينَ (النحل)". وقال سبحانه: "وَقَالَوا أَسْتَيْطِرُ الْأَوَّلِينَ أَسْتَيْطِرُ الْأَوَّلِينَ (القرآن)". قبل أن نزلت في الولد بن المغيرة وأبي جهل ونظرائهم.

ثم بين الله تعالى أسباب افترائهم على القرآن فقال: "كُلّ يَأْتُوا لَأَنتُمْ عَلَى قَلْوِيٍّ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الמטافين)". أَيَ ارتدوا وانزروا عن هذه الأقوال فليس الأمر كما زعمته أيها المعتدون الآثمون، ولا كما قلت إن هذا القرآن أسطير الأولين، بل هو كلام الله، وحديقة، وزينته على رسول الله ﷺ، وإذا السبب هو كثرة الذنوب والخطايا التي حجبت قلوبكم عن الإيمان بالقرآن والتي كونت عليها.

الرَّمَّانَ الذي منع نفع الحق والخير والنور إليها، فأعماها عن رؤية الحقيقة. والرَّمَّانَ: يعتري قلوب الكافرين فقوله تعالى: "يَأْتُوا لَأَنتُمْ عَلَى قَلْوِيٍّ مَا أَيَ غَطَّى عليها.

خرج ابن جرير وأحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

"إن العبد إذا أذن بهذى نكته في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر،"
صل قلبه وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في القرآن قال الحسن البصري عن الران: هو الذين على الذنب حتى يعفي القلب ويسوء من الذنوب.
والطبع: أن يطبع على القلب وهو أشد من الرنين. فالقرآن ليس أسانيد الأولين كما زعموا، وإنما هو كلام الله الحق المنزلي على قلب نبيه المصطفى ﷺ. وسبب زعمهم كثرة القبائح والمعاصي التي غطت قلوبهم بالران وهو الحجاب الكثيف الذي يحدث بسبب تراكم الذنوب - فمنعتها من رؤية الحق والباطل، والتمييز بين الخير والشر. 

(1) التفسير المنير، ٣٠ / ١١١ - ١٢٣ بتصرف.
فصل
الكلمات
لا تبديل لكلمات الله

"لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة لا تبديل لحكمة الله ذاك هو الفوز العظيم" [يونس]

سبق هذه الآية قول الله تعالى: "لا إله إلا الله لا خوف عليهم ولا هم خرّجون" [اليتيم] "لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة لا تبديل لحكمة الله ذاك هو الفوز العظيم" [يونس]

الحديث في هذه الآية استكمال لوصف أولياء الله حيث يقرر الله تعالى أن المؤمنين الذين يفهمون أن يكونوا أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم خارجون - هؤلاء الأولياء هم الذين آمنوا بالله وملائكته وكتب رسله، وآمنوا بما أنزل على محمد من الحق .. ما أنزل عليه من القرآن .. ما آتاه الله من وحي وتنزيل وكلمات .. كانوا بعد هذا متقيين لله في أعمالهم، وفي أقوامهم وفي معتقداتهم. يقول الله تعالى في السر والعلن، يונו الله جواسيمهم وأفكارهم وقلوبهم وعقولهم .. يقون الله إيمانه به وتسليمه له، و بذلك قد وصلوا إلى تلك المرتبة التي رفعهم الله تعالى بقوله: "لا إله إلا الله أولياء الله هذه المرتبة التي لم يصلها إلا الأنياب والشهداء والصالحين .. ثم هؤلاء "أولياء الله" الذين وعدهم الله تعالى بأنه لا خوف عليهم ولا يحزنون.

قال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله . وقد ورد هذا في حديث مرفوع عن ابن عباس وسعيد ابن جبير

قال: قال رجل يا رسول الله، من أولياء الله؟ قال: "الذين إذا رؤوا ذكر الله"

ثم قال البزار، وقد روى عن سعيد بن جبير مرسلا

وعن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: "إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنياب والشهداء" قيل: من هم يا رسول الله لعلنا نخبرهم؟ قال: "هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أئذاء، ووجههم نور على منابر من نور، لا يخفون"

صنفة كتاب الله في كتاب الله
إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزين الناس». ثم قرأ: «أما أين؟ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم مخزونين» رواه أبو داود بإسناد جيد.

وحبه مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يا يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تنتبه بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله وتصافوا في الله، يضع الله يوم القيامة منازل من نور ليجلسهم عليها. يفزع الناس ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم مخزونون» والحديث مطول رواه الإمام أحمد.


وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "لىهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة" قال: "في الدنيا الروؤيا الصالحة يراها العبد - أو ترى له - وهي في الآخرة الجنة".

وعن أبي هريرة أنه قال: "روؤيا الخسنة بشرى من الله وهي من البشرات".

وفي حديث البراء ﻫـ: "إن المؤمن إذا حضره الموت جاءة ملائكة بيبس الوجه ببب الثياب، فقالوا: اخرجوا أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخروح من فمه كما تسيل العطرة من فم السقاء، وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى: "لا خزونهم الفزع الأكبر وتتقنونهم المليحة هددًا يومًا مك أو يومئذ نوعدونه" [الأنبياء]." 

وقوله: "لا تبتديل لصكتين الله" أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخفف ولا يغير.
بل هو مقرر ثابت كائن لا محالة في القرآن الكريم كلاما لا يتغير ولا يبدل وفيه الوعد الطيب لأولائه وهي كلمات خالدات في هذا الكتاب الحاقد، الذي يعتريه الخلل من أي قوة في ملكوت الله تعالى أثبته الله بكلمات من عنده في اللوح المحفوظ وما زال وسبقى محفوظا من البشر بهذه الكلمات التي تشكل الآيات والسور، بهذه التوجيهات الروحانية التي حفظها الله تعالى وحافظ عليها المؤمنون، ولم يتمكن بعد من غير المؤمنين - أن يفعلوا أمرا يقابل تقدى الله تعالى لهم بل عجزوا وسبقو عاجزين، لا حول لهم ولا قوة ولا اختراع ولا إبداع ولا تغيير ولو كلمة واحدة من هذه المعجزة الحاقدة - القرآن الكريم. وتناسق الآية بقول الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّمَا الْبَشَّرُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلُ لَهُمَا صَدِيقَ اللَّهِ العَظِيمِ"

(1) تفسير القرآن العظيم 11/439 بتصرف.
2- الإيمان بالله وكلماته

"قل يتأثيها الناس إلى رسول الله ‏‏(رسول الله) إِإِيْهُمْ جَيْحَعَا الَّذِي نَعَبَ مُّلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَقَدْ نَبِيَّا نُبِيبَ الْأَمِينُ الَّذِي يُوْمُرُ بِاللَّهِ وَكَلَمَتِهِ وَأَنْبَعِهِ لَعَلَّكُمْ تُهْدَى (الأعراف)"

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: "قل يا محمد يتأثيها الناس" وهذا خطاب للأحرار والأسود والعربي والعجمي إلى رسول الله ﷺ إِيْهُمْ جَيْحَعَا أي مجموعهم، وهذا من شفته وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال تعالى: "قل الله شهد بنى وبنينكم وأوحي إلى هذا القرآن لأُنْبِيْمُهُ بِهِ ومن بلغ ابنكم لتشهدون أن مَعَ الله الْإِلَهَاتِ أَخْرَى فَلَا أَسْهِدَ فَلِمَ يَمْثَلَ إِلَهُ وَاحِدٌ إِنَّ بَعْضَها مَا نَعْبُرُونَ (الأعراف)" وقال تعالى: "ومَ يَكَفِّرُ عِنْهُ مِنَ الأَحْزَابِ فَلَاتَّلَّغُ مَوْعِدُهُمْ (هود: 17)" وقال تعالى: "وقل لِلَّذِينَ آوَتُوا الْكِتَابَ وَالَّذِينَ أَسْلَمُوا فَإِنَّ أَسْلَمَوْا فَقُدْ أُهْدِيَوْا وَإِنَّ تَوْلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَغُ (آل عمران: 20)

والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر. وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله ﷺ إلى الناس كلهم.

قال البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية: عن أبي الدرداء ﭗ قال: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خاعرة، فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضباً، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأتلف أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء وحن عنه، فقال رسول الله ﷺ: "أما صاحبكم هذا فقد غامر" أي غاضب وحاقد وندم عمر على ما كان منه، فأتلف حتى سلم وسلم إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر. قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لنا
 كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: "هل أنت تَأْتِكون لصَاحِبِي؟ إنني قدَّلت يا أبِي، الناس، إنني رسول الله ﷺ يَعِيد جَمِيعًا، فقالت: كذبت وقال أبو بكر صدِّقت" انفرد به البخاري.

رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال: "أعطب خسا لا يعطين نبي قبلي، ولا أقوله فخرا.. بعثت إلى الناس كافة الأخر والأسود، ونصرته بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لالأرض مسجدا وظهرا، وأعطيت الشفاعة فألقتها لأمني يوم القيامة فهُو لَن يشرك بالله شيئاً إسناج جيد ولم يخرجوه، وعن الإمام أحمد حديثًا مثله أيضًا بلفظ آخر.

و عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: "من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني فلم يؤمن بي لم يدخل الجنانة" وهذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر، وحديث مثله عن أبي موسى أبنا، وتفرد الإمام أحمد بحديث مثله بلفظ: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "والذي نفسي بهد لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذنبي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار" تفرد به الإمام أحمد.

قوله تعالى: "الذَّي لَهُ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهُ إِلَّا هُوَ الْقَدِيرُ الْمَجِيدُ" وصفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ: "إن الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه وملكه الذي بيده الملك والإحيا والإماتة وله الحكم".

وقوله تعالى: "فُنِّيْنَا بِاللّهِ وَرُسُولِهِ الْبَيِّنِيُّ الْأَميِّ" أخبرهم أنه رسول الله ﷺ إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به وقوله: "البَيِّنِيُّ الْأَميِّ" أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه مبعوث بذلك في كتبهم وهذا قال: "البَيِّنِيُّ الْأَميِّ" وقوله: "الدَّكِرُ يَوْمَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ"، أي يصدق قوله عمله وهو يؤمن ما أنزل إليه من ربه إلى القرآن الكريم، و"أَتَّبَعْتُوهُ" أي اسلكا طريقه واقتفوا أثره.

"لَعَلَّكُمْ تَهْجَدُونَ" أي إلى السراعة المستقيمة(1).

(1) تفسير القرآن العظيم 9 / 265، 266.
3- الكلمة الطبية

"إِنَّمَا تُرَكْ كَيْفَ صَرِبَ اللَّهُ مثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أُصْلِّهَا نَابِئَةٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ وَتَأْصِلُهَا كُلِّ حِيْنٍ بِذِنَانٍ رَيْثَا وَيَصَبُّ اللَّهُ اللَّطِيْلَ يَلْتِمَسُهَا ۚ وَمِثلُ كَلِمَةٍ حَيْيَةٍ كَشَجَرَةٍ حَيْيَةٍ أَجْتَنَبَتْ مِن فَوْقَ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ وَتَطْبِقُ اللَّهُ الْقُوَّةَ عَالِمَيْنِ بَالْقُوَّةِ أُنَابِيْنَ فِي الْحَيَوَانَى وَفِي النَّارِ وَيَصَلُّ اللَّهُ الْطَلَّابِ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۖ [ إِبْرَاهِيمُ ]

بعد أن بين الله تعالى أحوال الأشقياء وما آل إليه أمرهم من العذاب في نار جهنم، وأحوال السعداء وإدراكهم الفوز عند ربهم، ذكر مثلاً بين فيه حال الفريقين، وسبب التفرقة بينهما، بتشبيه المعاني لترسيخ المعاني في الأذهان، كما هو الشأن في القرآن الكريم.

"إِنَّمَا تُرَكْ كَيْفَ الآية وَأَمِرَ بِكَافِٰثٍ كَيْفَ اعْتَمَدَ اللَّهُ مثَلاً وَوَضَعَهُ مِن مَّوْضِعِهِ المّناسبِ لَهُ وَهُوَ تَشَبيهُ الكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ وَهُوَ كَلِمَةُ اللَّهِ الْحَكِيمُ الْعَالِيمُ ۙ وَرَأَا النَّارَ بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ وَهُوَ النُّهَالَةُ الْمُرْسَفَةُ بِصَفَاتِ أَرْبَعِ هَٰذِهِ:

1- كُنَّتُمُ السُّجَرَةُ طَيِّبَةً المَنْظُورِ وَالشَّكْلِ، وَطَيِّبَةَ الرَّائِحَةِ، وَطَيِّبَةَ الثُّمَّرَةِ، وَطَيِّبَةَ المَنْقَعَةِ أَيْ يَسْتَلَذُ بِأَكَلِهَا وَيَعْتَمِدُ الْانْتِفَاعُ بِهَا.

2- "أَصْلُهَا نَابِئَةٌ" أَيْ رَاسِخٌ بَاقٍ مَّتَمَكِنُ فِي الْأَرْضِ لَا يَنْقَلِعُ.

3- "وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ" أَيْ كَامِلَةُ الْحَالِ لِلْانْتِفَاعِ أَغْصَانُهَا إِلَى الْآعْلَى، وَبَعْدَا مِن عَفُونَاتِ الْأَرْضِ، فَكَانَتْ شَمَرَاتُهَا نَقْيَةٌ طَيِّبَةٌ خَالِئَةٌ مِن جَمِعِ الشَّوَابَ.

4- "فَتَزَوَّجَ أَصْلُهَا كُلُّ حِيْنٍ بِذِنَانٍ رَيْثَا" أَيْ نَثِرُ كُلٌّ وَقِتَ الْهُمَّ عَلَى اللَّهِ لِإِثْمَارِهَا بِمَعَادِرِ بَعْضِهَا وَتِسَيْرِهَا، وَلَا كَانَتْ الْأَشْجَارُ تُؤُنَّى كُلَّ سَنَةٍ مَّرَةً. كَانَ ذَلِكَ فِي حَكِيمٍ.
روى عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هي قول: لا إله إلا الله، وأن الشجرة الطيبة هي النخلة، وكذلك روى ابن مسعود أنها النخلة، وهو مروى عن أنس وابن عمر عن النبي ﷺ.

وحدثت ابن عمر رواه البخاري، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال:

"أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم - أو كالرجل المسلم - لايتقات ورقها صيفة ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها".

قال ابن عمر، فوقع في نفسه أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان.

فكرت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئا، قال رسول الله ﷺ: "(النخلة).

ثم ذكر الله تعالى مثال حالة الكفر، فقال: "وَمَثَلُ كَلِمَةِ حُرِّيْثَةٍ أَوْ وَمَثَلُ كَلِمَةِ حُرِّيْثَةٍ" أي وصفة الكلمة الخبيثة وهي كلمة الكفر أو الشرك كصفة الشجرة الخبيثة، وهي شجرة الحنظلة وخووه كما قال ابن منظور فيما روى أبو بكر البزار، ومرفوعا فيما روى عن ابن أبي حاتم: أن النبي ﷺ قال: "وَمَثَلُ كَلِمَةِ حُرِّيْثَةٍ كَشَجْرَةِ حُرِّيْثَةٍ" هي الحنظلة ووصف الشجرة الخبيثة بصفات ثلاثة هي:

1- إنها خبيثة الطعام أو لا فيها من المضار، أو الرائحة وهي الحنظلة، وقيل: الثوم، وقيل: الشوك.

2- "آجيتت من فوق الأرض"، أي قلعت واستصلت، وليس لها أصل ولا عرق، فذكذك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة.

3- "ما لها من قرار"، أي ليس لها استقرار، وهذه الصفة كالتممة للصفة الثانية.
وهذه صفات في غاية الكمال، فالمحترم وصف للمضار، والاجتشاث وعدم القرار وصف للخلو عن المنافق، والموازنة يتبع الفرق بين كلمتي الحق والباطل، فكلمة الحق، وهي كلمة التوحيد والإيمان والقرآن قولة ثابتة نافعة للناس، وكلمة الباطل وهي كلمة الشراك أو الكفر ضعيفة ضارة ليس فيها استقرار ولا ثبات. وأصحاب الكلمة الأولى هم المؤمنون، وأولوا الكلمة الثانية هم الكافرون والعصاة.

ثم أخير الله تعالى عن فوز أهل الكلمة الأولى بمراهم في الدنيا والأخرة فقال:

"قد فعل الله ما يشأ."

أي أن كرامة الله وثوابه ثابتان للؤمن في الآخرة بالقول الذي كان يصدر عنهم في الدنيا وهو الإيمان المستقر بالحجة والبرهان في قلوبهم، والمقصود ببيان أن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في النواه والكرامة من الله تعالى.

ثم ذكر الله تعالى مصير الكافرين بقوله:

"أي يتحمل الله مصائبكم بقوله:

"قد فعل الله ما يشأ."

أي إن شاء هدى، وإن شاء أضله، واصلاهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواكبة الفتن، وتزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضلل وأذل، والضلال لسوء الاستعداد، والميل مع أهواء النفس.

والكلمة الطيبة وهي الإيمان، أو لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أو المؤمن نفسه: هي الثانية الخالدة، الطيبة النافعة، أو القرآن الكريم. روى أنس عن النبي قال:

"إن مثل الإيمان كشجرة ثابتة: الإيمان عروقها، والصلاة أصلها والزكاة فروعها، والصيام أغصانها، والتأذى في الله نباتها، وحسن الخلق ورقها والكف عن محرر الله نثرها". والشجرة الطيبة في الأصح: هي النخلة، ذكر الغزنوئي والطبراني فيما رواه ابن عمر عنه:

"مثل المؤمن كالنخلة، كل شيء فيها ينتفع به".

(1) التفسير المبكر 13 / 242 وما بعدها بصرف شديد.
4- كلمات الله

"قل لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ زَيْكَ لِتَنَفَّدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنَفَّدَ كَلَّمَتُي زَيْكَ وَلَوْ جَعَلْتَ بَيْثًا". مَدَدًا، قِلْ إِنَّمَا أَنَا بِنَبَّأٍ يُكَلِّمُكُوْؤُكَ قَبْلَ أَنْ تَجَسَدَ الْبَحْرُ إِلَّا أَنْ تَجَسَدَ إِلَى إِلْهِكُمْ إِلَّا وَاحِدًا فَمَنْ كانَ يَرِجُو لِقُلْوَاتِ زَيْكَ فَلَبَعَضَ عَمَّالًا صَلِيْحًا وَلَا يُمْشِك بِعِبَادَةِ زَيْكَ إِلَّا أَحَدًا (۱)" [الكهف].

ليس أبلغ مثالاً، ولا أروع تشبهها، ولا أعظم تحدياً لبني البشر ولجلب معهم من هذه الآية "قل لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ زَيْكَ لِتَنَفَّدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنَفَّدَ كَلَّمَتُي زَيْكَ وَلَوْ جَعَلْتَ بَيْثًا". [الكهف]. أي تصور يمكن للإنسان أن يقيس هذه البلاغة على ما يعطي البشر، أو على ما أعطى من علم وتفكير وتذوق في أدوات الكتابة، أو في استيعاب العقل البشري، أو في التصور الإيماني لقيس كل هذه الأمور بهذه الآية البلاغة، والتي أكمالها، أو على الأقل شأبهها الآية [۲٧] من سورة لقمان "وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدَ الْبَحْرَ يَمِدُّهَا مِنْ بَعْضِهَا سَيْعَةً أَخْرَى مَا نَفَّدَت كَلَّمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ". البحر - مداد -

ساتي أدياء الكتابة.. والأشجار - كل الأشجار - صنعت أمكن. .. وماذا بعد؟ ..

ماذا يمكن أن تؤدي هذه الشبيهات وهذه الصور المعجزة الخلاقة .. تعجز هذه الأدوات ؟ الأقاليم والمداد - تعجز أمام عظمة الله تعالى وتعجز أمام كلماته - وما هي هذه الكلمات .. الآيات ، المعجزات ، الكتب السماوية - القرآن الكريم تخصصا في سموه وعظمته وكرامته ، جزء بسيط وبسيط جدا من كلمات الله تعالى . وليس بالقدر الذي يحيط عقل الإنسان به حتى محاور الدنيا ، وأسرار السماء إلا تناية ونقطة من ماء المحيطات والبحار .

وقد أكد المفسرون على أن الاسم - اسم الجنس - ليس تشبيها ولكن تأكيدا على اسم الجنس الماء الذي يملأ البحار والمحيطات ، ومنه من بعده سبعة أبحر ... أو أكثر من ذلك ، واستخدمت السبعة لتمكين الإنسان أن يحيط بالفكره .. يتصورها
ويمدفوع وراء ذكر ميئتها وأبادها، ويُفسِّر العقل ويُ发射 القلب، وتتكسر النفس ويعود الإنسان: المفضل بين خلق الله، الذي تعلم الأسماء كلها، الذي نفيَّخ الله فيه من روحه بعد أن سواه بيه يتصغر، ويتصغر، ويتصغر أمام هذا العرض العظيم بآتين من كتاب الله لِذَلَّة، يذوب، يذوب، ويذوب، ويشتَّق أنَّه في ساعات الوعي، قادر على أن يستوعب هذا التحدي أو الإحاطة بالتصوُّر الذي رسمته عيان الآيات.

المخلوقات كلها جلوس.. مصانع تصنع كل الأشجار أقلاعاً، ومصانع تحول ماء البحر إلى مداد.. إلى حبر ثم ماذا..؟ ليس الموضوع يقف هنا.. فالآمر أكبر، وأعظم، وأبلغ من أن يحيط مخلوق بهذا.. البحر بجسده ومانته، والشجر المنبت في الأرض وما سبقه وما سبقه وما سبقه.. سباحك ربي إلى كنت من الظلمين..، وكم تصور اليهود أن لديهم ذخبرة عظيمة فقالوا: إن لدينا التوراة، ذخبرة علم.. وتحاول الله بأن يتأوّل بالنورة يتلوها إن كانوا صادقين.. إنَّه فيض من علم الله.. حتى القرآن الكريم إما هو كلمة من كلمات الله تعالى التي لا تنفد ما نُفِّدت كلمات الله، وما انتهت، وله أن الأمر تم فعل ونجذب مياه البحار التي تَمَّ خذها سبعة أُجر.. فكلمات الله تعالى سائرات في جلال من الله وعظمته سباحته و تعالى عما يشركون.

قل إنما أنا بشرٌ مُثَكَّرٌ يومَ يوحي إلى أنَّما إلَى هُمُّم إلَّهٍ وحيدٌ (الكهف: 110) ما أعظمك يا رسول الله، ما أسمى تفكيرك ما أروع طاعتك، ومعرفة حدودك لربك وأمام ربك. إنك بشر تعترف اعتراف المتيمين بكل ما يحيط به.. وما أنزل عليه من ربه.. أمانته حِلَّها وبلغها.. وهي كلمة من كلمات الله تعالى من حالفك ومن أطاعك.. إنَّما أنت بشر.. فزرت على الناس وتفوقت عليهم بما يوحى إليك من ربك وعظمة هذا الوحي.. عظمة هذا القرآن، عظمة هذا الكتاب أنَّه يريد التأكيد على حقيقة أبدية.. إنَّما إلَى هُمُّم إلَّهٍ وحيدٍ.. لا شريك له يملك الملك ويتصرف به.. وهذه واحدة من خلق الله.. الوصول إلى أقصى حدود التفكير بعظمة ما خلقه، ولعظمة الكلمات.. فالله أعظم وأعلم، وهل يحتاج إلى شريك، أو يحتاج إلى معين أو يحتاج إلى ولد، أو يحتاج إلى تلك التكافؤات من مخلوقاته؟ جل جلال الله.. ولا حول ولا قوة إلا بإله.
الاعتراف بالبشرية ومحدودياتها الضيقة جداً جداً مع كل ما أعطى بنو البشر من إمكانات من الله تعالى ووقبرهم حتى أراد أن يكونوا خلفاء في أرضه تبدو إمكاناتهم أمام هذا التشبيه المعمد بالعظيمة. والسمو تواهها.. لا يعطي لها بال.. ومع هذا فقد تطاول الخلق، فأشركوا بالله، وجاء النبيون ليبينوا للناس الحقيقة في مثل هذه الآيات التي تعجز اللغات أن تعطيها بعضاً من حقها.

فمن كان يرجو لقاء ربي، فليعمل عملاً صلحاً ولا يشرك بإباحة ربي أحدًا.

يأرب جل جلالك، وعظم شأنك، وسمت قدرتك، وعجز اللسان حتى عن التعبير المنطوق أو المهم عن تصور كلماتك.. يا رب ألقاك، فمن كان يرجو لقاء ربي، يا رب ألقاك؟! أليست وجهك؟! ولما تجيئ للجبل ذاب وخر موسي صعقاً .. أنا ألقاك .. يا رب عمل الصالح، وتوحدك، وعدم الإشكال بك يوصلاني لفقائك .. نعم .. يا رب ثني على الإيمان بك، وارتقى العمل الصالح .. فليس أروع ولا أعظم، ولا أبدع .. ولا أجمل أن أصدقك يا رب فتصدقني .. وما زلت .. وأنا سائر لألقاك .. يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيمسلطانك، أنا وحدي قد أصل وأخرج .. يا رب أعطني حبلاً من حبالك .. فإنا أريد أن ألقاك .. ألقاك يا رب وأنت راض عنني .. لا أشرك بك شيئاً وأعمل عملاً صالحاً ترضاه .. يا رب اقبلني .. يا رب اقبلني برحملك وغفرانك .. يا أرحم الراحمين.
1 - تحدى الكفار بأن يأتوا بسورة مما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ

» فإن كُنتمُ في رَبِّ مِمَّا تَرَّلَّلْتُ إِلَيْهِ عَبْدَيْتُ فَانْتَوْا يَسُوءُونَ مَنْ مَثَلهِ، وَأَوْعَى شُهَدَاهُ كَمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ﴿۶۲﴾ فَإِنَّ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَقْتَفُوا النَّارَ أَلَّا وَقُودُهَا آتَانَا وَالْحَجَّاجَةُ أَعْدَتْ لِلْكَفَّارِينَ ﴿۶۳﴾ [ البقرة ].

قوله تعالى: «وَإِن كُنْتُمُ في رَبِّ مِمَّا تَرَّلَّلْتُ إِلَيْهِ عَبْدَيْتُ فَانْتَوْا» أي في شك . «وَأَوْعَى شُهَدَاهُ» يعني القرآن الكريم ، والمراد المشركون الذين تحدوا ، فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا: ما يشبه هذا كلام الله ، وإذا لقي شك منه فنزلت الآية.

ووجه اتصالها بما قبلها أن الله سبحة له ما ذكر في الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوة نبيه ، وأن ما جاء به ليس مفترى من عنده.

قوله: «وَأَوْعَى شُهَدَاهُ» يعني ﷺ ، والعبد مأخوذ من التعبد ، وهو التذلل فسمي الملوكي - من جنس ما يفعله - عبد لتنزله لموالاه ؛ قال طرفة بن العبد:

وأفردت إفراد البعير المعبد

أي المذلل . قال بعضهم : لما كانت العبادة أشرف الخصال ، والتسمى بها أشرف الخطط ، سمى نبي عبدا ، وآسدوا:

يا قوم قلبي عند زهراء

يعرفه السامع والرائي

لا تدعني إلا بيا عبدا

فإنه أشرف أسماءٍ-

» فَانْتَوْا يَسُوءُونَ ﴿۶۲﴾ ألفاء جواب شرط ، انتوا : مقصور لأنه من باب الجيء ؛ قاله ابن كيسان ، وهو أمر معناه التعجيز ؛ لأنه علم عجزهم عنه .
 والسورة واحدة السور - وتقدم الكلام عنها(1) وفي إجاز القرآن (2).
و (يُمنِ) - في قوله - (يُمنِ مَثَلًا) زائدة كما قال : (فأَقُولُوا بِسُورَةٍ مِن مَثَلِهِ). 
والضاير في (مثله) عائد على القرآن عند الجمهور من العلماء - كنتادة ومجادل
ويرجى الرأى، فيقول : يعود على التوراة والإنجيل، والمعني فائتوا بسورة من كتاب مثله 
فإنها تصدق ما فيه، وقيل : يعود على النبي ، والمعني: من بشر أمي مثله لا
يكتب ولا يقرأ، فمن في هذين التأويلين للتبعيض. والوقف على (مثله) ليس
بتام؛ لأن (وادعوا) نسق عليه.
قوله تعالى: (وادعوا شهداءكم) ومعناه أعوانكم ونصراءكم، قال الفراء:
آلتمكم. وقال ابن كيسان: فإن قيل كيف ذكر الشهداء هاهنا، وإنما يكون الشهداء
ليشهدوا أمراً أو ليخبروا بأمر شهدوه، وإنما قيل لهم: (فأقولوا بسورة مثاله؟)
فالجواب: إن المعنى استعينوا بممن وجدتموه من علمائكم، وأحضروا ليشهدوا ما
تأتون به؛ فتكون الرد على الجميع أوكد في الحجة عليهم.
قلت: هذا هو معنى قول مجاهد، قال مجاهد: معنى: (وادعوا شهداءكم) أي
ادعوا ناساً يشهدون لكم; أي يشهدون أنتم عارضتموه. قال النحاس:
(شهداءكم) نصب بالفعل جمع شهيد، يقال شاهد وشهيد، مثل قادر وقدير.
وقوله: (مِن دُونِ الله) أي من غيره ودون نفيض فوق; وهو تقصير عن الغاية،
و يكون ظرفًا. والدون: الحكيم الخمس.
قال:
إذا ما علا المرء رما العلاء، ويجع بالدون من كان دونا
ولا يشتق منه فعل؛ وبعضهم يقول منه: دان يدون دونا. ويقال: هذا دون
ذلك أي أقرب منه. ويقال في الإغراء بالشيء: دونكهو. قالت تقيم للحجاج:
أقربنا(3) صالحاً وكان قد صلبه - فقال: دونكوه.

(1) راجع: تفسير القرطبي 1/ 105 فما بعدها.
(2) راجع: نفس المصدر 1/ 179 - 180.
(3) أقربنا: أي اصح لنا بدنه.

فإن قيل: كيف دخلت «إن» على (لم) ولا يدخل عامل على عامل، فالجواب هاهنا غير عاملة في اللفظ، فدخلت على (لم) كما تدخل على الماضي لأنها لا تعمل في (لم) كما تعمل في الماضي، فمعنى إن لم تفعلوا إن تركتم الفعل.

قوله تعالى: «وَلَنَ تَفَعَّلُواْ» نصب بلن، ومن العرب من يُلزم بها. ذكره أبو عبيدة، ومنه بيت النابغة: فلن أعرض أبيت اللعن بالصفد.

قوله: «وَلَنَ تَفَعَّلُواْ» إثارة لهمهم، وخربك لنفسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغربة التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها. وقال ابن كيسان: «وَلَنَ تَفَعَّلُواْ» توقعاً على أنه الحق، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب، وأنه مفترى، وأنه سحر وأنه شعر وأنه أساطير الأولين، وهم يدفعون العلم ولا يأتون بسورة مثله.

وقوله: «فَاتَقِواَ النَّارَ» وجواب: «فَإِنَّمَا تَفَعَّلُواْ» أي انقوا النار بتصديق النبي وطاعة الله تعالى.

قوله: «أَعْيَدَتْ لِلَّكُفَّارِينَ» ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها، وليس كذلك؟
بدليل ما ذكره في غير موضوع من الوعيد للمذنبين والأحاديث التثبتة في الشفاعة
على ما يأتي، وفيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة؛
خلافا للمبتدعة في قولهم: إنها لم تخلق حتى الآن وهو القول الذي سقط فيه
القاضي منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي.

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود (1) قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع
وجبة (2) فقال النبي ﷺ: ((تدرون ما هذا؟)) قال: قلنا الله ورسوله أعلم: قال:
(هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا فهو يهوي في النار الآن حتى
انتهى إلى قعرها)). (3)

(1) كذا في الأصول، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة.
(2) الوجبة: صوت الشيء يسقط فيسمع له كافية.
(3) تفسير القرطبي 1/233 فما بعدها يصرف شديد.
2- التنزيل المصدق لأهل الكتاب

"بيني إسرائيل اذكروا يعتمى على تأصيلك وأوقفوا يعتمد أوف يعتمدكم وإنى فأمهبى وعاهبى كأولى أولى وعاهبى فأمهبى لا تلتموا بيني قليلًا وإنى فأمهبى ولا تلتموا الحق بالنبط ونكملوا الالحق وادعى تعلمون البقرة.

وقف المسرون أمام هذه الآيات، وتوعس كثير منهم في سرد شروح ومعان لما في هذه الآيات من صفات بنى إسرائيل (1) ووافقهم من الدعوة الإسلامية - من الرسول ومن القرآن الكريم والذي ورد بصفة التنزيل المصدق لما سبقه من رسل وكتب، وأورد صاحب التفسير المير موجزا لهذه الآراء نسقته فيما يلي (2):

اختصت هذه الآيات من 40 - 42 بالكلام عن بنى إسرائيل - وإسرائيل هو (يعقوب) بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام وبنوه وأولاده وهم اليهود، ومعنى (إسرائيل) صفى الله، وقيل: الأمير المجاهد، وقيل: عبد الله أى إسرائيل: عبد وطيل: بلغتهم الله - وفيما يقارب جزء كاملا لكشف حقائقهم وبيان مثالهم. وكانت الآيات السابقة من أول السورة إلى هنا حول إثبات وجود الله ووحدانيته، والأمر بعبادته، وأن القرآن كلام الله المعجز، وبيان مظاهر قدرة الله مخلق الإنسان وتكريمه، وخلق السموات والأرض، وموقف الناس من ذلك كله، وانقسامهم إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين. ثم بدأ سبحانه مخاطبة الشعوب التي ظهرت فيها البوه. فبدأ باليهود، لأنهم أقدم الشعوب ذات الكتب السماوية، ولأنهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين بالقرآن. مع أنهم أول الناس بالإيمان بحتم الرسل؛ لذا ذكرهم الله تعالى بنعمته الكبيرة التي أعطى بها عليه، وذكرهم

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، 330 - 342، فتح القدر، 51 85 - 90، وجمع البيان/ 96.
(2) التفسير المير، 147 - 152.
(3) بعد هذه الآيات يستمر السياق عن بنى إسرائيل حتى الآية 142.
بالعهد المؤكد معهم على التصديق بنبوة محمد ﷺ، وتتنوع أسلوب القرآن في خطابهم، تارة بالملائة والملاطمة، وتارة بالتخريف والشدة، وأحيانا بالذكرى بالنعم، وطورا بتعداد جرائمهم وقبائحهم وتوفيقهم على أعمالهم وإقامة الحجة عليهم.

فمعنى قوله تعالى في هذه الآيات: «أو أولاد النبي الصالح يعقوب، كونوا مثل أبيكم في اتباع الحق، وتفكروا بالنعم التي أنعم الله بها على أبناأكم من الإنجاع من فروعون، وظليل الغمام، واشكروا الله على نعمه بامتثال أوامره وإطاعته، وأوفوا بما عاهدتكم عليه من الإيمان بالله ورسله دون تفريق، وبخاصة محمد خاتم النبيين، أوف بعهدي لكم في الدنيا والآخرة، بالتمكين لكم في الأرض المقدسة - في زمنهم الغابر - ورفع شأنكم، وتوسيع ميزككم ونصركم على أعداكم، وتوفير السعادة لكم في الآخرة.

وأيمنا - ضمن مشتقات العهد - بالقرآن إما صادقا - وأنه من عند الله، وأنه نزل مؤيدا ومصدقا ومواقفًا للنبوءة وكتب الأنبياء السابقة، في الدعوة إلى توحيد الله، وترك الفواحش، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفي النبوة وصف النبي محمد ﷺ، فلا تكونوا يا أهل الكتاب أول الناس في الكفر به، فأتهم أحق الناس بالإيمان به، لوجود دليل صدقه في النبوءة، ولا تبعوا آيات الله الدالة على صدق محمد في نبوته ودعوته بثمن دنيوى صغير. من رياية أو زعامة، أو مال أو موروثات وعادات قديمة، فإنه ثم قليل ليس، وتجارة خاسرة غير راجعة، ولا تخافوا أحدا سوى الله، فهو بيد الخير كله، ولا تخالطوا الحق الموجود في النبوة بالباطل الذي يتصرفون وكتبونه، ولا تكتموا وصف النبي وشارته التي هي حق، وأنتم تتعمرون ضرر الكتمان، فليس جزاء العالم في الآخرة كالأجاهل، وأدوم ما افترض الله عليناكم من الصلاة والركاية، وأودوا جماعة مع النبي محمد ﷺ، وعبر بالركن من الصلاة ليبعدوها عن صلاتهم القديمة التي لا ركوع فيها.

ولقد أرشدت الآيات إلى أحكام كثيرة في العقيدة والأخلاق والعبادة والحياة الخاصة والعامة فأوجبت على اليهود ألا يغفلوا عن نعم الله التي أنعم بها عليهم ولا يتناسوها. والنعماء هنا: اسم جنس مفرد بمعنى الجمع قال الله تعالى: «وإن
تَعْدُوْنَ يَعْمَلُونَ آنَّا لَا تَعْصِمُونَاهَا [ إِبْرَاهِيمٌ : ۳۴ ]

ومن أهم ما طلب منهم - من اليهود - الوفاء بالعهد، وخشية الله وحده والإيان ( التصديق ) بما أنزل الله .. وهو القرآن، ونهاهم عن أن يكونوا أول من كفر، ولا يأخذوا على آياته ثمناً أي على تغيير صفة محمد ﷺ شيئاً، وكان الأخبار يفعلون ذلك فنهوا عنه(1).

---

(1) انظر : تفسير الرازي ۳۳ وما بعدها ، قال بعض المعارف : عبيد النعم كثيرون. وعبيد المتعم قليلون.
3- حسد المشركين بما أنزل على محمد

ما يَوْدُ أَلْدَرْبَيْنَ كُفَّرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا أَلْدَرْبَيْنَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ مِنْ رِيْبَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَتَّمَ سَبِيلَهُم مِّنْ بَعْدِهِ عَلَى مَلَكِ الْعَالَمِ وَلَّهُ الْعَظِيمُ

[البقرة]

هذه الآية جواب واستكمال لما سبقها من قول الله جل شأنه: «بِيَاثِيْهَا الْأَلْدَرْبَيْنَ

أَمَّنَّا لَا تُقُولُوا رَاعِيَتُنا وَقُولُوا أُنَظِرُوا وَأَشِمَعُوا وَلِلَّدَيْنِ الْمُخْلِصَيْنِ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

[البقرة]

سبب نزول هذه الآية (1) قال ابن عباس في رواية عطاء: ذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها، فلما سمعهم اليهود يقولونها للنبي أعجبهم ذلك، وكان (رَاعِيَتُنا) في كلام اليهود سابقاً فقالوا: إذا كنا نسب محمد سرا، فالآن أعلنوا السب محمد فإنه من كلامه، فكانوا يقولون نبي الله، فيقولون: يا محمد راعنا، ويضحكون. فقطن بها رجل من الأنصار، وهو سعد بن معاذ وكان عارفا بلغة اليهود وقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذى نفس محمد بيده لمن سمعتها من رجل منكم لأضمن عنه، فقالوا: أُнструم تقولونها؟ فأنزل الله تعالى: «بِيَاثِيْهَا الْأَلْدَرْبَيْنَ أَمَّنَّا لَا تُقُولُوا رَاعِيَتُنا» الآية.

سبب نزول الآية (105) قال المفسرون: إن المسلمين كانوا إذا قالوا لخليفتهم من اليهود: آمنا بمحمد، قالوا: هذا الذي تدعونا إليه، ليس خير بما غن عليه فأنزل الله تعالى تكذيبهم. خاطب الله المؤمنين في هذه الآية في شأن مشتركون بينهم وبين اليهود، موجههم إلى ما هو الأمثل في اختيار الفضي الذي يبدأ به الكلام مع النبي، فكانوا يقولون إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا سمعك أي اسمع لنا ما تريد أن نسأل عنه، ونراجحك منقول لتفهم عنك، وكانت كلمة (1) أسباب النزول للواحدة:ص 18، ولاحظ أن الواحد ذكر (سعد بن عبادة) والذى عليه المفسرون أنه (سعد بن معاذ).
صفحة كتاب الله في كتاب الله

(۱۰۱۱) عند اليهود كلمة سب قيبح من الرعونه. فكانوا يخفطون بها النبي قاصدين معنى السب والشتم، وأصلها في العبرية (راعينو) أي شرير فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة. وأمرهم بكلمة تماثلها في المعنى، وتختلف في النطاق، وهي: (أنظرن) التي تفي معنى الإنكار والإمهال كما تفيد معنى المراقبة التي تستفاد من النظر بالعين. وإجمال المعنى: أقبل علينا وانظر إلينا.

واسمعوا أنها المؤمنون القرآن سماح قبول وقدر وإمان، وللكافرين ومنهم اليهود - عذاب قومهم شديد. وفيه إشارة إلى أن ما صدر منهم من سوء أدب في خطاب النبي أكثر، لأن من يصف النبي بأنه شرير، قد أنكر نبوته، فهذا أدب للمؤمنين وتشينع على اليهود. وأنتم أيا المؤمنون الذين عرفتم شأن اليهود مع أبنائهم كونوا على حذر، فما يوذ أهل الكتاب ومشركون العرب أن ينزل عليهم خير من ربيكم كالقرآن والرسالة. والكتاب الكريم أعظم الخيرات فهو الهدية العظمى، وبه جمع الله شملكم ووحد صفوفكم، وظهر عقولكم من زيف الوثنية، وأقامكم على سنن الفطرة وهم يودون نزول الشر بكم وانتهاء أمركم، وزوال دينكم.

وحسد الحادس لا يمنع نعم الله، والله العليم القدير الحكيم يختص بالنبوة والرحة والخير من يشاء من عباده في الله أعلم حيث يجعل رسالته، [انعام : ۱۲۴]. وعلم ما يؤدي وأجبه بشانها خير أداء فلا ينغي لأحد أن يجسد أحدا على خير أصابه، وفضل أوثى من عند ربه، فلله وحده صاحب الفضل العظيم.

وقد قوله تعالى: "آية الله تعالى: "فتعتزع برحمة منه شيء" على سد باب الحسن. قال الإمام على بن أبي طالب: "تعتزع برحمة منه شيء"، أي ببنته. خص بها محمد، وقيل: الرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قدما وحديثنا. ورحمة الله لعباده: إعفاه عليهم وعفو عنهم(۱).
4- الإيمان بالله وما أنزل على رسوله

"قولوا، إني أنا الله وما أنا إلا ملكاً ينيوك وما أنا إلا أن أنزل إلى إبرهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأساطين وما أمنى موسى وعيسى وما أمنى الذين أرسلنا بهم ترتقي بين أحلافهم، ونحن على مسلمون فإن عيننا بما ءامن به فقد أهتدوا وإن تولوا فإنا هم في شقاء وفسق لا يعفونهم الله وهم السميع العليم.

(القرة)

أجمع المفسرون على أن الخطاب للمسلمين إتباع محمد وما أنزل إلينا هو القرآن الكريم. أن نؤمن أيضًا بالسابقين من الرسول والكتب وألا نفرق بين أحد منهم ونحن الله مسلمون. وإن شد على ذلك بعض المفسرين أن التداب الأهل الكتاب، لكن مبدع الآية يتجه إلى أن الخطاب للمسلمين تكرار صفهم من جهة وتسليمهم في آخر الآية. ومن ذلك ما قيل:

"قولوا، أمنا يا إلينا خطاب للمسلمين، وقيل خطاب للنبي محمد والمؤمنين، أمرهم تعالى بإظهار ما يبينونه على الشرع، فبدأ بالإيمان بالله لأنه أول الواجبات، ولأنه بتقدم معرفته تصح معرفة النبوات والشرائع. وما أنزل إلينا يعني القرآن الكريم، نؤمن بأنه حق وصدق وواجد اتباعه في الحال وإن تقدمته كتب.

"وما أنزل إلى إبرهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأساطين".

قال قنادة:

(1) جميل البيان 1/ 217 بصرف.
هم يوسف عليه السلام وأخوته بنو يعقوب، ولد كل واحد منهم أمة من الناس فسموا الأسباط.

قال كثير من المفسرين: أنهم كانوا أنياء، والذي يقتضيه مذهبنا أنهم لم يكونوا أنياء بأجمعهم، لأن ما وقع منهم من المعصية فيما فعلوه يوسف عليه السلام، والنبي عدنان مصوص من القبائح صغيرة وكبيرة، وليس في ظاهر القرآن أن ما يدل على أنهم كانوا أنياء. وقوله تعالى: وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا لَبَدْ عَلَى أَنْهُمْ كَانُوا أَنيَاء. لأن الإجيز أن يكون على بعضهم من كان نبيا، ولم يقع منه ما ذكرناه من الأعمال القبيحة، وتحمل أن يكون مثل قوله: وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وإن المنزل على النبي خاصة، لكن المسلمين ما كانوا مأمونين بما فيه أضيف الإبئال.

وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَىَ أُيُوبَ أُيُوبٍ "أَيُّهَا النَّارَ" أي ما أعطاه النبيون من رحمتهم لا يفرق بين أحدهم منهم، أي بأن نؤمن بعض ونكفر بعض كما فعله اليهود والنصارى، فكفرت اليهود بعيسى ومحمد وكفرت النصارى بسليمان ونيبنا محمد وَخَلَقَ لَهُ مِثْلَهُمْ، أي نحن لما تقدم ذكره.

وقيل: الله خاضعون بالطاعة، مذعون بالعبودية. وقيل: منقادون لأمره ونهيه.

وفائدة الآية: الأمر بالإيمان بالله، والإقرار بالنبيين، وما أنزل إليهم من الكتب والشرائع والرد على من فرق بينهم فيما جمعه الله عليه من النبوة، وإن كانت شرائعهم غير لازمة لنا، فإن الإيمان بهم لا يقتضى لزوم شرائعهم.

وروى عن الضحاك أن قال: علموا أولادكم وأهلكم وخدموكم أسماء الأنياء الذين ذكرهم الله في كتابه حتى يؤمنوا بهم، وصدقوا بما جاؤوا به. فإن الله تعالى يقول: "يَوْمَا مَاتُوا ۖ قُلُوا لِللهِ ۖ بِاللَّهِ الآية.

فإن آمنوا فأحسنت أن هؤلاء الكفار حتى آمنوا على حد ما آمن المؤمنون به. فقد اهتدوا إلى طريق الجنة، وقيل: سلكوا طريق الاستقامة.
والهدى. وقال: كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: أقرروا بما آمنتم به فليس
الله مثل، وهذا محمود على أنه فسر الكلام لا أنه أنكر القراءة الظاهرة مع صحة
المعنى. وقوله: (وَلَنْ تُؤْلَوْاَ) أي أعرضوا عن الإيمان وحدهم ولم يعترفوا به
فإنما هم في شياقٍ أي في خلاف. قد فارقوا الحق، وتمسكوا بالباطل،
فصاروا خالفين لله سبحانه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقريب منه ما روى عن جعفر الصادق أنه قال: يعني من كفر وقيل في ضلال
عن أبي عبيدة؟ وقيل في منازعة ومحاربة وقيل: في عداوة (فَسَيَكْفِينَكُمُ الْأَطْرَابُ)
وعد الله رسوله بالنصرة وكفاهته من يعاديه من اليهود والنصارى الذين شاقوه وفى
هذا دلالته بيئة على نبوته وصدقه. والمعنى: أن الله سبحانه سبكليك يا محمد
Armor (وَهُوَ الْسَّمِيعُ) لأقوالهم (الْعَلِيمُ) بأعماهم في إيطال أمرك ولن يصلوا
إليك. انتهى.
5- شهداء ما أنزل الله على محمد

"لَيْكِنَّ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أنزلَ إِلَيْكَ أنْزُلَهُ يَعْلَمُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. (النساء)"

استكمالاً لما أوحي تعالى إلى النبي ﷺ والنبيين. أورد الله شهوداً على النبي عليه ﷺ والملائكة الخفِظة الذين نقلوا القرآن من السماوات السابقة إلى السماوات الأولى، وبذلك فإن الله تعالى يشهد أنه هو الذي أنزل الكتاب وكتب بالله شهيداً لما ضمنه قوله تعالى: (إِنَّا أُوحِيَ إِلَيْكَ إِلَى أُحِرَّ السَّبِاقَ إِبْنَاتِ نُوحِهِ) إلى آخر السياق - إثبات نبوته ورد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب. قال الله تعالى: "لَيْكِنَّ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أنزلَ إِلَيْكَ أنْزُلَهُ يَعْلَمُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا.

والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب - قال الله تعالى: "لَيْكِنَّ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أنزلَ إِلَيْكَ أنْزُلَهُ يَعْلَمُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا.

فالرسول الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم "لَا يَأْتِيهِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خِلَافِهِ، تُبَيِّنُ مِنْ حُكْمِي، حَيْرَانًا") (فشتة) - وهذا قال: "أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ، وَايِفْهِمْهِ وَلَا يَأْتِي فِي مَرْسَالِهِ مُبْتَلِئًا."

فأي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البيات والهدايا والقرآن وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه وياباه، وما فيهم من العلم بالغيب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسلاً ولا ملك مقرب إلا أن يعلم الله به، كما قال الله تعالى: "وَلَا يَجِبُوُّونَ بِشَيْءِ مِنْ عَلَيْهِ إِلَّا بِمَا شَأَّ، وَقَالُ: "وَلَا تَجْعَلُوْنَ بِهِ عَالِمًا".

وقال ابن أبي حاتم، حدثنا علي بن الحسين، عن عطاء بن السائب قال: أقراني أبو عبد الرحمن السلمى القرآن وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل ثم يقرأ قوله: "أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا". قوله: "وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ". أي بصدق ما جاءك وأوحي إليك وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى لك بذلك.

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا" قال محمد بن إسحاق. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "
دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود. فقال لهم: إنَّى لأعلم والله إنكم لتعلمون أنى رسول الله ﷺ، فقالوا: ما نعلم ذلك فأنزل الله عز وجل: "لَكَنِّي أَلْقِيْتُ لَهُ ذَكْرَىً مَا أَنزَلْتُ إِلَيْكَ" (الآية). (1)
6- الإيمان بالكتب وما أنزل على محمد

"قل يا محمد: فإنك لِلسُّمَّت عِلَى شَيْءٍ، حَتَّى تَقِيموا الْكُتُبَ وَالْإنْجِيلَ وَما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طَغْيَانًا وَكَفُورًا. فَلا تَأْسِ عَلَى ٱلْقُوُّمِ ٱلْكَفَرِينَ" [المائدة].

يقول تعالى: "قل يا محمد: فإنك لِلسُّمَّت عِلَى شَيْءٍ" أي من الدين حتى تقيموا الْكُتُبَ وَالْإنْجِيلَ أي حتى تؤمنوا جميع ما بأيديكم من الكتب المزدوجة من الله على الأُنيَبَا وَتَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا وَمَا فيها الإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالآمر بِاتباعه وأمر بِالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ وَالإيمان بِمُحَمَّدٍ

وحذا قال ليث بن أبي سليم عن مjahid في قوله: "وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ" يعني القرآن العظيم، وقوله: "وَلَيْبَدِِّ بِكَ" كثيرة منهم ما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طَغْيَانًا وَكَفُورًا فلا تأسٍّ عَلَى ٱلْقُوُّمِ ٱلْكَفَرِينَ" (1) أي فلا تحزن عليهم ولا يهينك ذلك منهم (2).

وقوله تعالى: "علَى شَيْءٍ" فيه تخفير وتقليل لما هو عليه: أي لستم على شيء بعثته به حتى تقيموا الْكُتُبَ وَالْإنْجِيلَ أي تعملوا بما فيها من أورى الله ونواهي التي من جملها أمركم باتباع محمد ﷺ، ونهيكم عن خالفته.

قال أبو على الفارسي: ويجوز أن يكون ذلك قبل النسخ فهماً. قوله: "وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ" قيل: هو القرآن فإن إقامة الكتابين لا تصح بغير إقامتهم، ويجوز أن يكون المراد ما أُنزل إليهم على لسان الأُنيَبَا من غير الكتابين وقوله:

(1) "وَلَيْبَدِِّ بِكَ" كثيرة منهم، أي كفرَكَ إلى كفرهم وطغيانًا إلى طغيانهم، والمراد بالكثير منهم من لم يسلم واستمر على العائدَة، وقال: المراد به العلماء منهم، وتصدر هذه الجملة بالقسم لتأكيد مضمونها، قوله: فلا تأسٍّ عَلَى ٱلْقُوُّمِ ٱلْكَفَرِينَ فتح الفقير ٦/٧١.

(2) تفسير القرآن العظيم ٦/٨٢.
وقررت كثيراً منهم ما أنزل إليكم من ذكاء طغيانًا وكفرًا كما شرح في الخاشية قوله: "فلا تأس على القوم الذين كفروا" أي دع عنك التأسف على هؤلاء، فإن ضرر ذلك راجع إليهم ونازل بهم، وفي المتبين لك من المؤمنين غنى لك عنهم.

إن امتداد العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب إما هو توكيد لوحدة رسالتهما النبي عليه السلام وصدق كل بني مين سبقة أمر في غاية الشفافية والصدق وكل ما عند أهل الكتاب من اتفاق هو أنهم جيحا قد شروا برسول الله وأدوا لما لم يتمكنوا من إخفائهم في كتبهم وأخبارهم صفة النبي وبعض ذكره باسمه صريحاً، والذين يؤكد أيضاً اتفاقهم على هذا يؤكد أيضاً أنه ما جاء أحد منهم للناس كافة إلا الإسلام، وهو هذا تصدق أبك بأن محمد، ومعجزته الدائمة، (القرآن الكريم) هو الفيصل في هذا.. وإن كفر الأتباع بما أنزل على أنيابهم فحقق عليهم أن يكنوا بما أنزل على محمد - إلا من هدى الله تعالى على مر العصور والأزمان وهم ليسوا بالقلائل، وليسوا أفرادا، وليسوا نادرين، بل إن شعوباً بأكملها قد تحولت إلى الإسلام، وله الشاهد القوي في هذا ما نراه اليوم من تحول الكثيرون إلى الإسلام بغير إكراه ولا ضغط، فليس في هذا الدين - الإسلام - ما يوجب الإكراه بل إن الإسلام يرفضه رفضاً باتاً ابتداء من قوله تعالى في سورة البقرة: [256] لا إكراه في الدينين قد تنين أعوجش من الذي فهم يكتفر بالطغوت ويومن باليه فقد أمستمك بالمرأة الأونتي لا أنفصفها لها وللله سميع علم، إلى قوله تعالى: [قل ينابيكم المكسيرون] لا أعبد ما لم يعبدون ولا أشتري عبيدون ما أعبدت [الكافرون] إلى كل ما صرح الله تعالى في القرآن من العلاقة مع أهل الكتاب.

وهذه واحدة من هذه الآيات الواضحة التي تبين تلك العلاقة الواضحة مع أهل الكتاب في فترة ظهور الإسلام، وفي تطور الأحداث منذ ذلك الوقت مروراً بهذا الزمن، وانطلاقاً إلى المستقبل الذي يبين الله تعالى لنا - كيف يمكن أن تكون هذه العلاقة في أي زمان ومكان. والتي رسمتها الآية الكريمة قل يتأهِل آلكتب.
تعالوا إلى حكمة سواء بيننا وبينكم ألا تعبد إلا الله ولا تشرك به شيا ولا يتخذ بعضا بعض أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدنا بأنك مسلمون

[آل عمران]
7- ما أنزل على الرسول ﷺ

فإنما صنعوا ما أنزل إلي الرسول ﷺ م-windows ونفثه في الصدور بما عرفوا من الآلٍ ﷺ يقولون ربنا إنيا فذكرنا مع الشهدان ﷺ، وما لنا إلا بعنين بالله وما جاءنا من آلة ﷺ وتعمّم أن يدخلننا ربنا مع القوم الصالحين ﷺ. [المائدة]

هاتان الآيتان ترتبطان بما سبقهما من الآيات وما خلقت بهما، وذلك لتبين وتوضيح مواقف أهل الكتاب مما أنزل على محمد من جهة، ومن الدعوة الإسلامية على عمومها. وهنا وبعد أن ورد تعبير أهل الكتاب إجمال اليهود والنصارى - فرق بينهما في المعاملة تماما، وأوضح جل وعلا مواقفهما المعلنة والمحبّة لقوله تعالى بالآية السابقة لهذه الآيات. نتجدن أجل أناس عدوى، يلدين آمنوا اليهود والديون، أشتروا واتخذوا أفرادهم مودة يلدين آمنوا الذين قالوا إن نصرين ذلك بأن معهم قيسيسين ورهبانا وأنهم لا يستحبرون.

[المائدة]

نسوق بعض المعاني للآية [92] وما تلاها من موضوع دراستنا:

 آلّاس ﷺ، هم اليهود العرب ومشاركو العرب ونصارى الحبشة في عصر التنزيل.

عدوّة، اعتداء، وغضاء، والعداوة ضد المملكة والخيبة.

وَالَّذِينَ آتِرَكُوا ﷺ، هم الذين جعلوا مع الله إله إنا آخر كعبده الأولومن من أهل مكة. وسبب عداوتهم للمؤمنين هو زيادة كفرهم وجهلهم وإغراقهم في اتباع الهوى، فذكرنا بالله بقلوبهم، أي قرب مودتهم للمؤمنين بسبب أن منهم قيسيسين، جمع قس وقسيس وهو أحد رؤساء النصارى: العالم بالدين والكتاب فوق الشماس ودون الأسقف، والقسيسون: علماء النصارى.
ورَهْبَانَآ عبادا. جمع راهب وهو العابد المنفرع للعبادة في دير أو صومعة.
وَأَنَّهُمْ لَيَتَّشَفَّيْرُونَ {٤٥٨} عن اتباع الحق، كما يستكبر اليهود وأهل مكة.
ما أنزل إلى الرسول ﷺ القرآن الكريم.
أَعْيَنُهُمْ تَفْيِيضًا مِّنَ الْدَّمِّ مَعَ جَمِيعِهِمْ، للذين يفنى نفاه في جوائها
ءامِنًا صدقنا بنبيك وكتبك ، فأَكْتَبْنَا مَعَ الشاهدِينِ {٣٨٩} القريبين الذين
يشهدون بروبينك وألوهيك وبتصديق نبيك.
وَمَا لَنَا لَنَؤْمِنَ بِاللَّهِ {٤٥٩} أي لا مانع لنا من الإيمان من وجود مقتضيه.
وَمَا جَآءَنا مِّنْ الْحَقِّ {٤٥٩} القرآن الكريم.
فَأَسِهِمْ تَجَازاهُم.
بِيَمَا قَالَوَا {٤٦٠} أي ما أعلنا من اعتقاد.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسبح وأبي بكر بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير قالوا: بَعْث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى وكتب معه كتاب إلى النجاشي، فقد قال النجاشي فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمحاربين معه، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين، ثم أمر جعفر بن أبي طالب، فقرأ عليهم سورة مريم، فآمنوا بالقرآن، وفاضت أعينهم من الدموع، فهم الذين أنزل الله ﷺ فيهم {وَلَتَتَّجَذَّبْ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً} إلى قوله: فأَكْتَبْنَا مَعَ الشاهدِينَ، وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: بَعْث النجاشي ثلاثين رجلاً

(1) التفسير المثير ١٧٠٦
من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم سورة «بسم»: فبكوا وقالوا:
ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى فنزلت الآية.

وأخير النسائى عن عبد الله بن الزبير قال: أنزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه:

(1) وَإِذَا سَمَعَهُمَا مَا نَزَّلَ إِلَى الرَّسُولِ وَرُوَى الْطَّبَرَانِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسِ نَفْحَةٍ

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي: المراد به النجاشي وقومه

الذين قدموا من الحبشة على الرسول ﷺ وأمنوا به.

قال الطبري: والصواب في ذلك من القول عندى: أن الله تعالى وصف صفة
قوم قالوا: إننا نصارى، أن نبي الله ﷺ يجدهم أقرب الناس وداذا لأهل الإيمان بالله
ورسوله، ولم يسم لنا أسماؤهم، وقد يجوز أن يكون أزيد بذلك أصحاب
النجاشي، ويجوز أن يكون أزيد به قوم كانوا على شريعة عيسى، فأدركهم
الإسلام، فأسلموها لما سمعوا القرآن، وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه

الناسبة: بعد أن أوضح الله تعالى أحوال أهل الكتاب، فأوضح مخازى اليهود
وعيوبهم ومن أهمها قولهم: أَلِهَمُ يَدُ اللَّهُ مَغْلُولَةً (المائدة: 41). (2) وَقَتَلْهُمُ
الاثنيات» (آل عمران: 181) وأبان زيف عقيدة النصارى في الثلث وتأليه المسيح
ذكر هنا موقفهم في العدادة والتحجة من المؤمنين ونهى على أن اليهود في غاية
العدوة للمسلمين. ولذلك جعلهم قرنة للمشركين في شدة العدادة بل إنهم
أصد عداؤهم من المشركين لتقديم ذكرهم على ذكر المشركين قال ﷺ، فيما رواه ابن
مردوخه عن أبي هريرة: «ما خلا يهود مسلم قط إلا هم بقتله»، وذكر تعالى
أن النصارى ألين عريكة من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم

وقدر رأى النبي ﷺ من النصارى خيراً، فلقي نصارى الحبشة المؤمنين
المهاجرين إليها بالجماعة والتكريم، هرباً من أذى المشركين، ورد هرق ملك
الروم النصارى كتاب النبي ﷺ رداً حسنة، بعد أن حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام

(1) أسباب النزول للسيوطي، أسباب النزول للواحد.  
(2) تفسير القرطبي 7/ 3.  
(3) التفسير المنير 7/ 80، 7/ 8.
وكان الموقف عظم القيس في مصر أحسن ردائه، فأرسل إلى النبي ﷺ هدية،
وبعد فتح مصر والشام أسلم كثير من النصارى في تلك البلاد، لما رأوا في
الإسلام من مزايا، وأسلم أصحابه النجاشي ملك الخبيشة مع بطانه. و لما مات .
صلح عليه النبي ﷺ صلاة الجنازة على الغائب ونعاه الناس.
وكان سبب مودة النصارى للمؤمنين: أنه يوجد فيهم قيسون (علماوا)
ورهبان (عبايد) يدعون للإيمان والفضيلة والتواضع، ثم وصفهم بالانتقاد للحق
واتباعه، والانصاف.

وإذا سمعوا شيئاً من القرآن المنزل على رسول الله ﷺ وهو موضوع الآية
[83] - بكوا بقاء حاراً غزيراً تعاطفاً مع كلام الله، وما عرفوا من الحق، مما
عندهم من البشاره ببعثة محمد ﷺ، ثم يبدرون لقبول دعوة الإمام قابلين: فريقًا
أمما فأكتسبنا مع الشهيدين. والمراد به إنشاء الإمام والدخول فيه أي آمناً بك
وبرسلك ومحمد ﷺ، فاكتسبنا مع من يشهد بصحة هذا المنزل على الأنيباء ومنهم
محمد ﷺ، ويشهد لك بالوحدانية.

وروى ابن مردوخه وأبي حاتم والحاكم عن ابن عباس في قوله: فأكتسبنا
مع الشهيدين وأي مع محمد ﷺ وأمته الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم
القيامة، كما قال تعالى في خصائص أمة المصطفى وكدأبكم أمة وسطاً
ليكونا شهداءً على الناس وليكون الرسول عليهم شهيداً [البقرة: 143]. ثم
أكدوا قولهم فقالوا: ونا لتأهون إنكار استبعاد، أو ولا مانع يمنعنا من
الإيمان بالله، واتباع الحق الذي جاء به محمد ﷺ. ونعلم أن يدخلنا ربياً الجنة
بصحة الصالحين أتباع هذا النبي الكريم الذين ثبت لنا صلاحهم وصحة
إيمانهم (1).

(1) التفسير المنير 7/908.
8- دعوة إلى الإيمان بما أنزل الله وإلى الرسول

وإذا قيل: هم تعلووا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه

وأبناء أولو كانا أباوهم لا يعلمون شيا ولا يهتدون 

وردت هذه الآية الكرمة بعد قوله تعالى: "ما جعل الله من خير ولا ساقي ولا وصيلة ولا حرام ولا الذين كفروا يقترون على الله الكذب وكثرهم لا يعقلون".

هذه الخمرات الواردة في الآية والتي حرمنا العرب على أنفسهم وكذب الله هذا التحريم والتي جاءت على يد عمرو بن حلة، من خزاعة، الذي غير دين إسماعيل والخليفة التي كان عليها العرب، وأحضر من الشام مثالي ودعا قومه لعبادتها في مكة وتقديسها وقلب مفاهيم العرب من الوحدانية إلى الشرك، وحرم عليهم وأحل لهم، وروى الطبري: عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الحوت: "يا أكثم، رأيت عمرو بن حلة بن قمعة بن خندف يجر قصبه - أمعاه - في النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك".

(1) "ما جعل"، ما شرع شيئا من الأحكام التي كانت العرب في الجاهلية، ولا أمر بواحدة من الحمرات، ولكنهم يفترون ويقذبون.

و"الخيرات" هي الفئة التي كانوا يبحرون أذنها، أي يشقونها شقا واسعا، إذا أنتجت خفة أبطن إناثا أخرى أثنت وكانت حراما على النساء لحما ولبنها، فإن كان أخرا ذكرًا عنيها تأكده النساء والرجال، وقيل: غير ذلك بأن أخرا ذكرًا.

و"السابيتة" الناقة التي كانت تسبب بنذرا لأنشتهم الأصمام، فتعطى للسيدة، وتعرى حيث شاءت، ولا يحمل عليها شيء ولا يجز صوحتها، ولا يجلب لهن إلا لضيف.

و"الصبية" الشاة أو الناقة التي صال أخاه، فإذا بكرت في أول النتاج بأنثى كانت لهم، وإن ولدت ذكرًا كان لأشتهم وإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاهما فلم يذبحوا الذكر لأشتهم.

وقيل: غير ذلك.

و"الحمر النحل الذي يضرب في حال صاحبه فولد من ظهره عشرة أرنيف، يقولون: جمى ظهره، فلا يحمل عليه ولا يجمع من ماه ولا مرعى.
فقال أخشي أن يضرني شبهه يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: "لا إنك مؤمن وهو كافر إنه أول من غير دين إسماعيل وبحر البحيرة وسبب السائدة وحمة الحاج (1)." 

ثم ناقشهم القرآن بقوله تعالى: "وإذا قيل هم تعلوا أي إذا قيل للمشركين: تعلقوا إلى العمل بما أنزل الله في القرآن الكريم من الأحكام المؤيدة بالبراهين، وإلى الرسول المبلغ له والمنين لجملها، وأجابوا يكفينا ما وجدنا عليه أبائنا، فهم لنا أئمة قادة مشرعون وحن لهم بع. فرد الله عليهم مستفهما استفهاما إنكارياً أي كفهم ذلك، أو لو كان باباً لهم لا يعلمون شيئاً أبداً من الشرائع ولا ينتون إلى مصلحة أو خيراً أصلاً في الدين والدنيا فهم يتخطبون في ظلمات الوثنية، وخرافة المعتقدات ويشرعون لأنفسهم بحسب أهوائهم من وأد البنات، وشرب الحمر، وظلم الأيتام والنساء، وارتكاب المنكرات وشن الحروب لأنفه الأسباب، وإثارة العداوة والبغضاء. وهذا تزيد بالتقليد الأعمى والتعصب المؤروث من غير وعى ولا إدراك كما قال الله تعالى في آيات كثيرة (2)."

(1) التفسير الذهبي 7/85.
(2) تفسير الطبري 7/56، وابن كثير 2/107.
9- تنزيل رب العالمين

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۛ نُزُّلَ بِهِ آلِهَةٌ آمِينَ ۛ عَلَى فَلَبَكِ لِكُلّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۛ لِيَكُونَ مِنْ أَصْحَبِ النَّارِ أَوْلَٰئِكَ ۛ فَلَا تَسْتَنَبِئُوا بِهِ بِمَآ أُنْبِئْتُمُوهُ فَعِلْنَى عَلَى مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۛ وَلَوْ تَزَيَّنَتْ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۛ فَقَدْ أَهْلَكَهُمْ فَلَا يَهْدُونَ بِهِ وَلَا يَقْبَلُونَ بِهِ ۛ حَتَّى يُعَذَّبَ الْأَعْجَمِينَ ۛ فَقَبْلِهِمْ بَعْضُهُمْ وَهُمْ لَا يُشَعَّرُونَ ۛ مَنْ كَبْرٌ مِّنْهُمْ {

[ الشعراء ]

قبل هذه الآيات ذكرت قصص الرسل والرسالات، وقصص التكذيب والإعراض، وقصة التحدي والعقبات، وقد بدأت هذه القصص بعد مقدمة السورة والحديث عنها خاص برسول الله ومشركي قريش يُشْلُكُ ذُي النُّفْسَةَ عَلَى أَحْيَانِ هُذِهِ الْمُحْتَصَبِينَ لَعَلَّهُمْ يَبْخَضُونَ ۚ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۛ إِنَّ ذَٰلِكَ أَنْتِ عَلَيْهِمْ مِنْ هُدًى عَلَى ۡأَنَّا ۗ فَخُضِعْتُ ۚ وَقَدْ أَنتَ مَنْ فَيْقِيتهُمَّ هَٰذَا ۡخَيْبَةٌ {

[ الشعراء ] فلما انتهى القصص عاد السياق إلى موضوع السورة الذي تقدمته المقدمة، فجاء هذا التعقيب الأخير يتحدث عن القرآن، فيؤكد أنه تنزيل رب العالمين - ومنه هذا القصص الذي مضت به القرون، فإذا كان القرآن نزل به من رب العالمين - ويشير إلى أن علماء بنى إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول، وما معه من القرآن؛ لأنه مذكور في كتب الأولين. إذا المشركين يعانون الدلائل الظاهرة، وي القدمون أنها سحر أو شعر، ولو أن أعمجيا لا يتكلمون العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين؟ لأن العناية هو الذي يعتده بهم عن الإيمان لا ضعف الدليل! وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن على محمد - ۗ كما تنزل بالأخبار على الكهان وما هو كذلك بشعر، فإن له منهجا ثابتا والشعراء يهتمون في كل واد وفق الانفعالات والأهواء.

إذا هو القرآن المنزل من عند الله تذكير المشركين، قبل أن يأخذهم الله بالعذاب.
وقيل أن يأتوا أنباء ما كانوا به يستهرون وسيعمل الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون (۷۳) [ الشعراء ۷۶]. وإنَّهُ مَنْ تَزَيَّنَّ زَبَّ الْعَمَّامِينَ (۷۴) الآيات.

والروح الأمين جبريل ﷺ نزل بهذا القرآن من عند الله على قلب رسول الله ﷺ وهو أمين على ما نزل به، حفيظ عليه، نزل به على قلبه فتلقاه تلقى مباشر، ووعاء وعياً مباشراً. نزل به على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين، هو لسان قومه الذي يدعوهم به ويتلوا عليهم القرآن، وهو يعرفون مدى ما يلتك البشر أن يقولوا، ويدركون أن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وإن كان بلغتهم، وأنه بنظمه، ويعانيه، ومنهجه، وتناسقه، يشى بأنه أن من مصدر غير بشرى بيقين.

وينتقل من هذا الدليل الذاتي إلى دليل آخر خارجي:

فإنَّهُ لِنَفَسِ زُبَرَ الْأَوَّلِينَ (۷۵) أو لم يَنْجِكْ هُمُ الْكَابِرُونَ هُمُ الْأَمْيَلُونَ، بَلَّٰ اَسْتَوْيَانَ أَتْنَا عِلْمًاً وَأَرَادْنَا إِسْرَائِيلًا.

فقد وردت صفة الرسول الذي نزل عليه القرآن، كما وردت أصول العقيدة التي جاء بها في كتب الأولين. ومن ثم كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة، ويتظرون هذا الرسول، ومحسون أن زمانه قد أظلمهم ويحدث بعضهم بعضاً بهذا كما ورد على لسان سلمان الفارسي، ورسول الله ﷺ بن سلام رضي الله عنهما والأخبار في هذا ثابتة كذلك بيقين.

إذاً يُكَإِرُ المُشْرِكُونَ ويعاندون جُمُرَ المُكَابِرُ والعاَنُونَ؛ لضغف الحجة ولا لقصور الدليل، فل Crowley به أعمم لا ينطق العربية فتلاه عليهم قرآناً عربياً ما آمنوا به ولا صدقوا، ولا اعترفوا أنه موحى به إليه، حتى مع هذا الدليل الذي يجهه المكابرون.

وَلَوْ تَزَلَّتْهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (۷۶) في هذا تسيرة عن رسول الله ﷺ وتصوير لعندهم ومكابرهم في كل دليل، ثم يعقب على هذا بأن الكتاب مكتوب على القوم ملازم لهم يحكم عندهم ومكابرهم، فهكذا قضى الأمر أن يتلقوه بالتكذيب، كانه طبع في قلوبهم. لا يطول حتى يأتهم العذاب وهم في غفلة لا يشعرون.
كدلك سلكتم في قلوب المجربين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم في بُغْتَة وهم لا يشعرون
[الشعراء] والتعبير يرسم صورة حسية ملزمة التكذيب لهم. فقوله: إنه على هذه الهيئة، هيئة عدم الإيمان والتكتيب بالقرآن، على هذه الهيئة نظمناه في قلوبهم وأجبراهما فهو لا يجري فيها إلا مكذبا به وظل على هيئة هذه في قلوبهم حتى يروا العذاب الأليم في بُغْتَة وهم لا يشعرون.
فقال: في واقف على حكم منتظرين في الشعراء.

(1) في ظلال القرآن 19/2617، 2618.
10- الإيمان بما أنزل الله (القرآن، وما سبق من الكتب)

ولا تجدوا أهل الكتاب إلا بابتي هي أحسن إلا الذين ظلموا بهم. فقولوا
ءامنوا بالذي أنزل إلينا و أنزل إلى هم و هم و هم و هم و هم و هم و هم و هم مسلمون
وكذلك أنزلنا إليكم الكتاب فادتنا به و تنبهتم فوفيت و مات و من هؤلاء من يؤمن به و و ما يحج من قومه إلا الذين يؤمنون
وما كتبنا من قبلك يؤمنون في كتاب و لا يؤمنون. يمكينك إذا لأكتاب المبطولون
على هو اليت ينت في صدور الذين أوتوا العلم و و ما يحج من قومه إلا الذين يؤمنون
و و قالوا أو تكونو أتونا أزل على يتن من ربي نقل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين
أولم يكفهم أننا أنزلنا عليه الكتاب ينت بيلى عليه إن في ذلك رحمة و ذكرى لقوم
يؤمنون [العنكبوت].

في هذه الآيات ست من سورة العنكبوت تعدد ذكر كتاب الله تعالى باسمه
أو الكتاب وصفات أخرى أهمها التنزيل والآيات.

وصفات الإعجاز لكتاب الله تعالى والكتاب السابقة له وردت خمس مرات.

والآيات سواء آيات القرآن الكريم أو الآيات المعجزات من غير القرآن وردت أربع مرات.

والكتاب، سواء القرآن أو الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل أربع مرات أيضا. وقد أكد الله تعالى أيضا ذكر الكتاب - القرآن الكريم - في الآية التي سبقت هذه الآيات مباشرة في قوله تعالى: «أتى ما أوحى إليك من الكتاب وأقيض الصلوة إن اللاتي آلهة تنت في الله و صلى الله و نزلت أحكام الله تعالى ما تضرعون [العنكبوت]» وقد وردت تفصيلاتها في فصل الكتاب تحت رقم 42.

ومن معاني هذه الآيات ست (1):

(1) التفسير المثير 21 / 5 فما بعدها.
ولا تجبروا في الجادلة والمجدلون، الحجاج والمناظرين والمناقشين.

أُهِلَّ الَّذِينَ يُصِيبُهُمُ الْيَهُودُ والنصارى، أتباع موسى وعيسى عليه السلام.

يؤمنون بوجود الله واليوم الآخر، والتراب والأنجيل، إن إلا يأتين هم أحسن، أو إلا بالحصيلة التي هي أحسن كمعارضة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، وضبط النفس، والمتشغبة بالنصب، والتبني إلى آيات الله، وحجة الله.

إن الله الذين ظلموهم فلئنهم أي، لكن الظلمون منهم بالإفراط في الاعتداء والعناد والممارسة، فجادلوهم وعاملوهم بالمثل.

وقدوْلوا أمَناَ مَثَالًا لم سالكم وأءذن للحق، أو قبل المعاهدة السلمية معكم إذا أخبروك بشيء ما في كتبهم.

أمَانًا يَلَبِّدُونَ أَنزِلَ إِلَيْنا وَأَنزِلْ إِلَيْهِمْ، أي صدقاً بما أنزله الله إليتنا وهو القرآن، وما أنزله إلينا في أصوله الصحيحة من التوراة والإنجيل، ولا تصدقوهم ولا تكذبوهم في ذلك، فهذا من الجادلة بالتي هي أحسن وعن النبي ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا لله وملائكته وكتبه ورسله، فإن قالوا يا علماء لم تصدقوا، وإن قالوا حقا لم تكذبوهم.

وإنهم وإليهم رحمة وحنان، مسلمون خاضعون مطيعون له خاصة وفيه تعربض باتخاذهم أخبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى.

وقد ذلك الإزالة، أنزلنا إليكَ الصَّيِّبَةَ أي القرآن كما أنزلنا إليهم التوراة وغيرها، وكان القرآن وحيا مصدقا لسائر الكتب الإلهية.

فأَلَاذَينَ أتَينهمُ الصَّيِّبَةَ التوراة كعبد الله بن سلام وأمثاله الصَّيِّبَة.

يُؤْمِنُونَ بهـٍ بالقرآن.

ومن هؤلاء أهل دين العرب أو الكتابوم الموجودون في عهد الرسول ﷺ.
"وما يضحى بِنَابِئِيْتَنَا مع ظهورها وقيام الحجة عليها. والجد: إنكار الشيء.
بعد معرفته والعلم به.
إلا آل الكُفَّارُ والموجلون في الكفر. وهم المشركون، وغير المسلمين الذين.
لا يؤمنون بالإسلام والقرآن والنبي محمد. بعد أن ظهر لهم أن القرآن حق،
ومحمد حق، ثم جحدوا ذلك.
وما كنت تَنْتَلَوَّا من قَتِيلٍ من كُتِبٍ ولا حَظْرٌ. يُسِيِّبِيكُمْ. أي إنك أنت لم تكن
تعرف القراءة والكتابة قبل نزول القرآن. فإن هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم
الذي نزل على أمي لم تعرف القراءة وتعلمت أمر خارق للعادة. إذا لأَرْتَابٌ
المطلوب؟ أي لو كنت قارئًا كنت لشك أهل الباطل كاليهود فيك، وإذا
سماعهم مبطلين لكنفرون وكونهم غير محقين فيما ذهبوا إليه من التنكر للرسالة
رسالة الإسلام.
بل هو القرآن الذي جئت به. ما أَيْتَبَنْتُ في صُدُور النَّزيِّبَ أَوْنَا
الآلمَنْ. أي هو آيات واضحة الدلالة على الحق في قلوب أهل العلم، وهم
المؤمنون فيحفظونه من كل تحرف.
وما يضحى بِنَابِئِيْتَنَا إِلا آل التَّلَمِّيذْ. أي وما ينكؤ آيات الله إلا الذي أنفسهم
والذين جحدوا وجه الحق بعد وضوح دلائل إعجاز تلك الآيات.
وقَالُوا لَوْلَا أنْزَلَ عَلَيْهِ: أي قال كفار مكة: هل أنزل على محمد (صلى الله
عليه وسلم) قبل ناقة صالح وعصا موسى، ومائدة عيسى (قل إنما الآيات عند الله).
قل يا محمد لهم: إنما الآيات ينزلها الله كيف يشاء، ولست أملكها، فأتهم بما
تقترحونه. وإنما أنا دُنْدَى مُيِّرَتٌ. أي: ليس من شأني إلا إذاد أهل المعصية
بالنار بما أعطيت من الآيات.
وأَوْلَمْ يَكْفِيهِمْ آيةٌ مما طلباً أو اقترحوا (السجِّيب) القرآن؟ يِلَيْلَيْ عَلَيهِمْ
تدمو تلاوته عليهم فهو آية ثابتة مستمرة لأقطعها، يتحداهم، يخالفون سائر
الآيات "إِنِّي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ لَا يَوْمًا مِّسَّى قُرْآنًا مُّنْصُورًا لَنَعْمَة عَظِيمَة"، وَذَكْرُهُ عَظِيمَة وَتَذكُّرَة "لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" لِمِن هُمُّ الْإِيْمَانِ دون الشهود (1).

بعد سرد المعاني هذه الآيات الكريمة [46 - 47] والإشارة إلى أن تكرار اسم وصفات القرآن الكريم، وارتباط هذه المعاني بوجود القرآن الكريم كآية منزلة من الله تعالى، ومعجزة خالدة إلى يوم الدين والتأكيد على أن هذا القرآن من عند الله، ليس لأحد كان ولا جمح نفسه إلا الإيمان والغضوب واللقى، فهو قبل نزول القرآن لبث سنين طوال ما ادعى، أو فكر، أو أشار، أو حاول القول لأي أمر يتعلق بهذا الموضوع، موضوع تلقى الكتاب، ولكنه عندما نزل عليه الوحي حمل وصدقة وآيات أواخر الله تعالى مبيناً إنه هو مندلع للفتيين متباعدتين نوعا ما في المعتقد وهبات الفتائهما هما أهل الكتاب (نصارى ويهود) ومشركو العرب من أهل مكة، ونبين ببعض الأحكام المرتبطة بهذه الآيات تحقيقاً للفائدة وتوضيحًا لما غمض في بعض الجوانب.

يقول مجدد صاحب التفسير المثير:

سبب نزول الآية [51] (آخر آية مرتبطة بالموضوع):

"أَوَلَمْ يَكُفِّهْمُ" : أخرج ابن جرير وأبي حاتم والدارمي في مستند واي وابن داود عن يحيى بن جعده قال: جاء ناس من المسلمين بكتاب كتبوه، فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: "كفى بقوم حقاً أو ضلالة أن يرغبوا بما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلي غيرهم" فنزلت: "أَوَلَمْ يَكُفِّهْمُ أَنَا أَنزُلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتَّبَعُ عَلَيْهِمْ".

وأخرج البخاري عند تفسير الآية قوله ﷺ: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن".

أي: يستغني به عن غيره.

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الله بن الحارث الأنصاري قال: دخل عمر بن...
الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضيع من التوراة، فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيرًا شديدًا لم أر مثله قط، فقال عبد الله بن الحارث لعمرا: أما ترى وجه رسول ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بِالله رباً، وبالإسلام ديناً، ومحمد نبيًا. فسرى عن النبي ﷺ وقال: «لو نزل موسى فابتعثموه وتركتموه لضلتهم، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظى من الأمم».

وبعد بيان كون القرآن منزلًا من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ. ذكر الله تعالى شبهة للمشركون، وهي أنهم قالوا للنبي ﷺ: إنك تقول: إنه نزل إلى كتب كما أنزل إلى موسى وعيسى، ألا تأتيان بآية أو معجزة مادية محسوسة كما أتى بذلك الآباء السابقون كثافة صالحة وعصا موسى وائدة عيسى؟ فاجابهم الله تعالى: «إِنِّي أَلَا أُرَبِّيُّ عَنْدَ اللَّهِ أَيْ لِيَسُ مِنْ شَرْطِ الرَّسِيَّةِ الْآيَةِ الْمَعْجِزةِ، وَاللَّهُ يُبَيِّنُ فِي رُسُلِهِ ذَٰلِكَ الَّذِي هُمْ أَخْبَرُونَ بِهِ ۚ وَلَا أَنذِرُونَ بِخَسَرَانٍ أَوْ يُحْشَرُونَ أَنَّ الرَّحْمَٰنَ الَّذِي تَعَالَى تَعَالَى أَنَّ الْعَذَابَ لَا يَأْتِيهِمُ بِسَوْءَهُمْ وَعَلَّجَاهُمُ، وإِنَّا لَهُ أُمِّيَّزُونَ فِي حِمَاطَةِ نَفْسِهِ وَأَرْضَهُ رَحْمَتِهِۚ» (الأنفال 21).

وبعد بيان الطريقين في إرشاد الفريقين: المشركون وأهل الكتاب، أعلن الله تعالى الإنشاد الشامل العام بقوله: «وَالْمُجَاهِدُونَ ۖ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَلَمْ يُحْصِنُوا بِاللَّهِ أَوْلَيْكُمْ هُمُ الْخَيْرُونَ ۖ وَلَا أَنذِرُونَ بِخَسَرَانٍ أَوْ يُحْشَرُونَ أَنَّ الرَّحْمَٰنَ الَّذِي تَعَالَى تَعَالَى أَنَّ الْعَذَابَ لَا يَأْتِيهِمُ بِسَوْءَهُمْ وَعَلَّجَاهُمُ، وإِنَّا لَهُ أُمِّيَّزُونَ فِي حِمَاطَةِ نَفْسِهِ وَأَرْضَهُ رَحْمَتِهِۚ» (المائدة 298).

1- فإن فضيلة الجدل والنقاش بالأسلوب الحسن بالحكمة والمروعة الحسنة، فذلك أدى عند العقلاء إلى توفير القناعة، والوصول إلى الإيمان، وتحقق الهدف المقصود.

2- إن المعاملة بالمثل واللجوء إلى القتال والعنف واستخدام القوة هو سبيل المتعين في الرد على أهل المعصية والعناد والإصرار على الكفر.
3- إن هذه الآية الألماة بإجماليها هي أحسن ودعاة إلى الله عز وجل باللهم والفضائل والبراءة أية محكمة كما قرر إثبات العلماء والمفسرين مثل ماجد التأليف وغيره، قال القرطبي: وقول ماجد حسن: لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها: إنها منسوخة إلا أن يكون يقلع العذر، أو حجة من معقول (1).

و لهذا اختيار ابن جرير الطبري وابن العربي. قال ابن العربي: الآيات ليست منسوخة، وإنما هي محضورة. لأن النبي ﷺ نظر باللسان يقذف به في الله. ثم أمره الله بالشفاء واللسان، فمن قال، فمن سلم بقي الجدل في حقه ولكن بما يحسن من الأذلة، وحفل من الكلام. وليس الخطاب (2).

4- بعض أهل الكتاب متعاصبون في آرائهم وتعقيداتهم، بعيدون عن الشرك وإثبات الوحد والثليث ولهؤلاء ينفع معهم الجدل والنقاش، فهم يؤمنون بالله ويكتبهم وباللهون الآخر، ولم يبق إلا الإيمان بمحمد ﷺ، والإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام. وبعض أهل الكتاب متعاصبون حارين خلطوا بين التوحيد والثليث، وحفروا في الكتاب وغيروا، ونسوا الله ولدا أو شريك، ثم صيروه هو الإله، وهؤلاء يصعب معهم الجدل، وقد لا ينفع معهم النقاش، ومع ذلك ندعوه إلى الإيمان بأنها هي أحسن: لأنه لا إكراه في الدين، والإسلام يقر بحرية الرأي، والتعبير، والاعتقاد. بعد التبليغ والإذاعة، والرغبة، والتهيبر.

وأما المشركين عبادة الأولان ففي جزيرة العرب لا مجال لأقرارهم على وثنيتهم وأما في غير جزيرة العرب فكذلك ندعوهم إلى الإسلام بالحكمة والوعظة الحسنة.

5- النبي محمد ﷺ دليل قاطع واضح على أن القرآن كلام الله العزيز الحكيم ثم ذكر اللاقح في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال: مات النبي ﷺ حتى كتب وقرأ وقد ثبت في صحيح البخارى ومسلم أن النبي ﷺ في صلح الحديبية كتب بعده محمد بن عبد الله، كلمة رسول الله حينما أصر المشركين على كتابتها.

(1) تفسير القرطبي 13/ 350
(2) أحكام القرآن 3/ 475 بتصريف.
قال القرطبي: الصحيح أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً، وإنما أمر من يكتب، وكذلك ما قرأ ولا تهجي. وقال: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب". رواه الشيخان، وأبو داود والسائقي عن ابن عمر.

آيات القرآن آيات بينات واضحات، وليس هذا القرآن كما يقول المبطلون: إنه سحر وشهب، ولنكن علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه، وتلك الآيات يخفظها علماء الأمة ويقرؤنها وقد وصف الله المؤمنين بالعلم: لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله و الكلام البشري والشياطين، قال: كعب الأحبار في صفة هذه الأمة: إنهم حكماء علماء، وهم في الفقه أئمة.

7- لا ينكر كون القرآن متزلا حقا من عند الله إلا القوم المبطلون الجاهلون، وهم المشركون، و إلا الكفار الظالون الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ وما جاء به.

8- ليس القرآن من خترعات أحد من الملائكة أو الإنسان أو الجن، إذ لا يستطيع الكل على الإيان به أو مثل عشر آيات أو مثل سورة من أقصر سورة، وهذا الإعجاز المتحدى به دليل قاطع على كونه كلام الله الموحي به إلى قلب نبيه المصطفى ﷺ.

وثم بعد:

1- طلب المشركين من النبي ﷺ معجزة مادية محسوسه، مثل: عصا موسى ونافحة صالح ومائدة عيسى. على سبيل العنايد والكفر والتكبرة. لا على سبيل التوصل فين نية إلى الإيمان بالله عز وجل وتوحيده.

2- كان الرد القرآني المفحم عليهم أنه: لا يكفيهم هذا الكتاب المعجز الذي قد تحدثهم الله بأن يأتوا بمثله أو بسورة منه، فعجزوا. ولو آثروا آيات موسى وعيسى لقالوا: سحر وصح لا يعرف السحر، والكلام مقدر لهم ومع ذلك عجزوا عن المعارضا، وليس من شرط الرسالة وجود المعجزة. فقد علمنا وجود رسل كثيف ودريس وشعيب، ولم نعلم لهم معجزة.

3- والقرآن رحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، رحمة في الدنيا باستنقاذه من

(1) التفسير المثير 21/11 - 13.
الضلالة، وفي الآخرة بصرفهم عن النار، وهو أيضا ذكر في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق، ومعجزة باقية يتذكر بها كل إنسان على مر الزمان. فيكون القرآن أم من كل معجزة؛ لأنه باقي الأثر، والمعجزات المادية لم يبق لها أثر ولأنه بلغ خبره المشرق والمغرب وسمعه كل أحد، والمعجزات المادية محصورة في مكان واحد (1).
11 - اتبعوا ما أنزل الله

"وإذا قيل لِمِنْ أَنْبَأْكُمُ مَا نَزَّلَ اللَّهُ فَلَنّي نَقِيٌّ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ عَبْدًا وَأَوْلُو سَكَانَ ١١٦ الشيطانِ يُدْخِلُوهُمْ إِلَى عَدَابٍ أَسْيَرٍ ١١٧ فَمَنْ يَسْتَقِيمُ وَجَهَتَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ هُدًى فَقَدْ أَسْتَمَسَّكَ الْغَرْبَةِ وَإِلَى اللَّهِ عَلَيْهِ الْفَعْلُ وَالْأَمْرُ ١١٨ [لقمان]."

ما فرغ سباحته وتعال عن قصة لقمان، رجع إلى توضيح المشركين، وتبكيتهم وإقامة الحجج عليهم، فقال: "أَلَمْ تَرَُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِى ١١٩ الأرض؟" قال الزجاج: معنى تسيرها للأدميين الانتفاع بها فمن خلق مراتب السماء المشكورة لبني آدم: أي التي يتنفرون بها الشمس والقمر والنجم، ونحو ذلك، ومن جملة ذلك الملائكة فإنهم حفظة لبني آدم بأمر الله سبحانه عليه، ومن خلق مراتب الأرض المشكورة لبني آدم: الأحجار، والتراب، والزروع والشجر، والشرم، والحيوانات التي يتنفرون بها، والعشب الذي يرعون فيه دوابهم، وغير ذلك فيما لا يحصى كثرة، فالمراد بالتفسير: جعل المشتر بمثل يتنفز به المشتر له سواء كان متقادا له، وداخلا تحت تصرفه أم لا.

"أَوْ اسْتَغْلِقْ عَلَيْكُمْ نَعْمَةً، وَظِنَّةً، وَبَاطِنَةً ١٢٠ أَيْ أَمْ، وَأَكْلُ عَلَيْكُمْ نَعْمَهُ، يَقُولُ: سَبِّتَ النَّعْمَة: إِذَا تَمَت تَكُلُّت. قَرَأَ الجَمِهِرُ "أَسْبَغَ" بِالسَّين. وَقَرَأَ ابن عَبْسٍ وَيَشَيْبُ بِعَمَّارَةً "أَسْبَغَ" بِالصَّادِّ مَكَانَ السَّين، وَالنَّعْمَ: جَعَلَ مَعْنًى عَلَى قَرَأَةَ نَافِعَ أَيْ بَعْضَ عَمَّرَ وَهَفَضَّ. وَقَرَأَ الْبَاقِيْنَ "نَعْمَهُ" لَسَكُونَ الْعُيْنَ عَلَى الْإِفْرَادِ والتَّنَوْنِ: أَسْمَ جَنَّ يَرَدُّ بِهِ الْجَمِعُ، وَيِدَلُّ عَلَى الْكَثَّرَةِ كَقُولُهُ: "أَوْ إِنْ تَعَدْواْ يُعْثَبُ ١٢١ اَلْلَّهُ لَا تُحْصُوهُمَا " [يَمُوسُوحُ: ٤٧]، وَهِيَ قَرَأَةُ ابن عَبْسٍ. وَالمراد بالنَّعْمَ الظاهِرة: مَا يَدْرِكُ عَلَى الْعَقْلِ، أَوْ الْحَسَنِ، وَيَعْرِفُهُ مِنْ يَتَعَرَّفُهُ، وَبِالْبَاطِنِ: مَا لا يَدْرِكُ وَيُغْفِرُ عَلَيْهِمَ. وَقِيلُ: الظاهرَةُ مَا يَرَى بِالأَبْصَارِ مِنَ الْمَالِ، وَالْجَاهِ، وَالْجَمَالِ، وَفِعْلَ الطَّعَاعَاتِ،
البلاطة: ما يجد المهرب في نفسه من العلم بالله، وحسن اليقين، وما يدفعه الله عن
العبد من الآفات. وقيل: الظاهرة: نعم الدنيا، والبلاطة: نعم الآخرة. وقيل:
الظاهرة: الإسلام والجمال، والبلاطة ما ستره الله على العبد من الأعمال السبئة.

"وَمَنَ آلِهَةٍ مِّنْ يُجْهَدُونَ فِي اللَّهِ" أي: في شأن الله سبحانه في توحيده،
وصفاته مكابرة، وعندما بعد ظهور الحق له، وقيام الحجة عليه، ولهذا قال:
"يُقْهِرُ عَلَيْهِ" من عقل، ولا نقل "وَلَا هُدِيَ" يهتدي به إلى طريق الصواب "وَلَا
كتب مُنِيرٍ" أنزله الله سبحانه. بل مجرد تعبث، ومحض عناد وقد تقدم تفسير هذه
الآية في سورة البقرة "وَإِذَا قَبَلْنَ لَهُمْ أَتْبَعُوا مَا أنْزِلَ اللَّهُ" أي: إذا قيل هؤلاء
المجادلين، والجمع: باعتبار معنى "من"، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من
الكتاب، تمسكوا بمجرد التقليد البحث، و"قالوا" ينفع ما وجدنا عليه "اباءنا".
فتعبد ما كانوا يعبدون من الأصنام ثم قال: على طريق الاستفهام للاستبعاد،
أي: يتبوعهم في الشرك، ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك،
وأما أفح التقليد وأكثر ضرره على صاحبه، وأوحى عاقبة، وأشأن عائدةه على من
وقع فيه.

2- ما نزل على محمد

قال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أصل أعملهم وقال الذين ظلموا وعملوا الصيدحات وهم أتمنوا بما نزل على محمد وهو أحق من زعمهم كفر عنهم سيتائبين وأصلح بهم بالهم.


وجعل الدائرة عليهم، قاله الضحاك، وقيل: أبطل ما عملوه في كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم، ومن صلة الأرحام وفك الأساري، وقرى الضيف، وحفظ الجوار.

وقال ابن عباس: نزلت في المطعنين في بدر وهم اثنا عشر رجلا: أبو جهل والحارث بن هشام، وعثبة وشيبة ابن ربيعة، وأبي وأمية ابنا خلف، ونبنه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام والحارث بن عامر بن نواف.

قوله تعالى: «وإن الذين ظلموا وعملوا الصيدحات وهم أتمنوا بما نزل على محمد وهو أحق من زعمهم» الآية. قال ابن عباس وجاهد: هم الأنصار. وقال مقاتل: إنها نزلت

«كفر عبهم سيئاتهم» أي ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان. "وأصلَ بإيامهم" أي شأنهم عن مجاحد وغيره. وقال قتادة: حالفهم. قال ابن عباس: أمروهم، والثلاثة متفقون، وهي مادة على إصلاح ما بينهم. وحكى النقاش: أن المعنى أصلح نياتهم. وهي مقارنة واضحة في هذه الآية وما بعدها بين من كفر فله عقابه وبين من آمن فله ثوابه. والأمر متعلق بما أنزل على محمد من القرآن، أو كل القرآن فهو الحق من ربيهم.

(1) تفسير القرطبي 16 / 323 ، 324.
12- إنزال السورة المحكمة

وفيقول: إنزلت سورة المحكمة فإذا أنزلت سورة المحكمة وذكر فيها القتال
رأبت الدين في قلوبهم مرضاً ينطرون إيلك نظر المغضبي عليه من الموت فأولى لهم
طاعة وقول معروف فإذا عزم الآمر فقلو صدوا الله لكان حيي ولهم 
[يميل]
قله تعالى: "أولى لهم طاعة وقول معروف فأولى لهم" قال الجوهري:
وقولهم: أولى لك تهديد ووعيد.
قال الشاعر:
أولى ثم أولى ثم أولي
وهل للدرب يجلب من مرد؟
قال الأصمعي: معناه قاربه ما يهلكه؛ أي نزل به. وأنشد:
فعادى بين هاديئن منها
وأولى أن يزيد على الثلاث
أي قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحد في أول: أحسن ما قال
الأصمعي.
وقال المبرد: يقال لمن هم بالعطب ثم أفلت: أولى لك؟ أي قارب العطب.

كما روى أن أعريا كان يوالهم الصيد فابلته منه يقول: أولى لك، ثم رمى صيدا فصار به ثم أفلت منه فقال: فلما كان أولى تطعّم القوم صدتهم ولكن أولى يترك القوم جزعا.


وقيل: إن التقرر أمر طاعة وقول معروف مبجذب المبتدأ فيوقف على فأولى كذا من أقد يقلون منا طاعة، وقال: إن الآية الثانية متعلقة بالأولى، واللام في قوله: لُهم، بمعنى الباء. أي: الطاعة أولى وأليق بهم وحق لهم من ترك امتثال أمر الله، وهو قراءة أبي: «يقولون طاعة».

وقيل: إن طاعة نعت أي صفة لـ سورة على تقدير: فإذا أنزلت سورة ذات طاعة، فلا يوقف على هذا على فأولى لُهم. وقال ابن عباس: إبن قولهم طاعة. إخبار من الله عز وجل من المنافقين، والمعنى لهم طاعة وقول معروف. قبل: وجوب الفرض عليهم، فإذا أنزلت الفرض شق عليهم نزوته، فوقف على هذا على فأولى قوله تعالى: فإذا عزم الأمر أي جد القتال، أوجب فرض القتال، كرهوه، فكروه جواب (إذا) وهو مزغوف.

وقيل: المعنى إذا عزم أصحاب الأمر قلصَّدوها أي في الإيمان والجهاد: لكان خيرًا لهم من المعصية والمخالفة (1).

(1) تفسير القرطبي 16 / 244، 243.
14- تنزيل من رب العالمين

"إنه لقول رسول كريم وما هو يقوقل شاعر قليلًا ما تؤمنون ولا يقول كاهن قليلًا ما تذكرون تنزل من رب العالمين " [الحافة].

أسباب نزول الآيات (28040):


"إنه" أي القرآن لقول رسول كريم أي لقول جبرائيل وحمد عليه السلام، رسول كريم على الله، يبلغه عن الله تعالى، فإن الرسول لا يقول عن نفسه والمراد به هنا النبي في قول الأثرين، وأما المراد به في سورة التكوين فهو جبريل.

"قللا أقسم" بما تنصرون وإنما لا تنصرون إن أنه لقول رسول كريم.

أي أقسم خلقهم بما تشاهدون من الخلقات الدالة على كمال في أسماوى وصفاتي، وما غاب عنكم من الغيبات، أو أقسم بالإشارة إليها ما يصير منها وما لا يصير إلا القرآن كلام الله ووجهه وتنزل على عبده ورسوله الذي أصطفاه لتبلغ الرسالة وأداء الأمانة: وإنه لثلاوة رسول كريم، وقول يبلغه رسول كريم، مؤدي عن الله بطرق الرسالة. وإنماأضافه إلى الرسول على معنى التبلج؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن الرسول. وفي ذكر "الرسول" إشارة إلى أن هذا القرآن ليس قوله من تلقاء نفسه، وإنما هو قوله المؤدي عن الله بطرق الرسالة. وفي وصفه بالكرم إشارة إلى أدائه، وأنه ليس من غير الرسالة طمعا في أغراض الدنيا الخنساء.

والآخرون على أن الرسول الكريم هذا هو محمد ﷺ؛ لأنه ذكر بعده أنه ليس...
بقول شاعر ولا كاهن. والقوم ما كانوا يصفون جبرائيل بالشعر والكعانية وإنما يصفون محمدًا.

وأما في سورة التكوير فالأكثرون على أنه جبريل عليه السلام؛ لأن الأوصاف التي بعده تناسبه، كما سيأتي (وَمَا هُوُّ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ) [القاهرة] أي ليس القرآن يقول شاعر، كما تزعمون: لأن محمدًا ليس بشاعر، ولأن الآيات، آيات القرآن ليست من أصناف الشعر وأنتم تؤمنون إيانا قليلا وتصدقون تصديقًا يسيرا، والعلة على ظاهرها وهي إقرارهم إذا سئلوا: من خلفكم؟ قالوا: الله وحده لا شريك له. (وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا تُؤْمِنُونَ) لأنهم قد صدقوا بأشياء سيرة لا تغني عنهم شيئا إذ كانوا يصدقون أن الخير والصلاة والعفاف ونحوه الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ هو حق وصواب وإذا قيل عند نفي الشعر عليه قليلاً ما تذكرنا (وَقَالَ نَفْيُ الكِهَانَةِ قَلِيلًا مَا تُذَكَّرُونَ) لأن انتفاء الشعرية عن القرآن أمر كاليين الحسوس.

أما من حيث اللظف الظاهر: لأن الشعر كلام موزون مقصي، وألفاظ القرآن ليست كذلك إلا النادر غير المعتمد، وأما من جهة التخيل فإن القرآن فيه أصول كل المعارف والحقائق وبراهين الدلائل الفيدهة للتصديق إذا كان المكلف ممن يصدق ولا يعاد. 

وانتفاء الكهانة عنه يحتاج إلى تأمل. فإن كلام الكهان أسجع لا معاني لها، وأوضاع تبث عنها الطباع وأيضا في القرآن سب الشيطان وذم سيرتهم، والكهان إخوان الشياطين، فكيف رضوا بإظهار قبائحهم (ولَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) (أي وليس القرآن يقول كاهن) وهو من يدعى الغيب في المستقبل؟ كما تزعمون، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين القرآن، ولأن القرآن ورد بسب الشياطين، فلا يعقل أن يكون بإلهائهم، ولكنكم تذكرون تذكروا قليلا، ولذلك يلبس الأمر عليكم. فلا تذكرون كيفية نظم القرآن، واشتغاله على شتم الشياطين، فقلتم: إنه كهانة، ثم صرح تعالى بالقصود فقال: (تَزَهِّيْلٌ مَّنْ رَبِّ).
العلمين ۱۰۶ أي بل هو تنزيل من الله رب الإنس والجن، نزل به جبريل الامين على قلب رسوله محمد، وهو قول هذا الرسول يعني أنه مبلغ له عن المرسل وهو الذي أظهره للخلق، ودعنا الناس إلى الإيمان به وضعه حجة لنببته.

روى الإمام أحمد عن شريح بن عبيد قال: قال عمر بن الخطاب: "خرجت أعرج رضوان الله عليه قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقدمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن. قال: فقتلت كاهن، قال: فقرأ: "ولَنَفْقِلَ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَلَّمَاتِ وَلَوْ تَقُولُ عَلَيْنا بَعْضُ الْأَقَافِيلِ لَأَحْدَثْنَا مِنْهُ بَالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ آلَوْيَنِ فَمَا يَنَبِّئُ مِنْ أَحَدِ عَنْهُ حَيْجَرَينَ" إِلَى أُخْرَى السورة. قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع، قال ابن كثير: فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعال مؤثرة في نهاية عمر بن الخطاب، ولَوْ تَقُولَ عَلَيْنا بَعْضُ الْأَقَافِيلِ لَأَحْدَثْنَا مِنْهُ بالَّيْمِينِ أي لو افترى محمد أو جبريل شيئا من الأقوال الباطلة، وجاء به من عند نفسه، ونسبة إلى الله على سبيل الفرض، لأخذناه بالقوة، وعاجلنا بالعقوبة، وانتقمنا منه، أو لأخذنا بيمه، كما يتخذ الشخص عند إرادة قتله، فألَّمِينَ القوة.

كما قال الشماخ:

إذا ما راهنة رفعت لحج تلقها عرابية باليمين

ثم لقطعنا منه آلواتين أي ثم بتراوحتين من قلبه، وهو عرق متصل من القلب بالرأس. إذا انقطع مات صاحبه، وهذا تصوير لإهلاكه بأفعзн وأشع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه

(1) التفسير المنبر ۲۹ ۱۰۱ ۱۰۷ ۱۰۷ بصرف.
1- الوحي المنزّل على رسول الله ﷺ

«إنّا أُوحِيْنا إِلَيْكَ كَمَا أُوْحِيَنَا إِلَى نُوحٍ وَالْأَرْبَيْنِينَ مِنْ بَعْدهِ. وَأُوْحِيَنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ وَيُهْوَثُ وَأَبُو بَكرِ وَعُمَيْرَةَ وَوَيْسَ وَيُوسُفُ وَهُدُورُ وَسَلَحُينَ
وَأَيْنُزِيلْنَا دَاوُدَ رَحْمَةً (١٠٧) [النساء].
»

«إنّا أُوحِيَنَا إِلَيْكَ كَمَا أُوْحِيَنَا إِلَى نُوحٍ وَالْأَرْبَيْنِينَ مِنْ بَعْدهِ.» هذا متصل بقوله
تقول: «يُشْتَلِكَ أَهْلُ الْكِتَابِ»


(١) القائل: هو الإمام الشوكاني. فتح القدير ٦/٢٠٠.
يشتمل على كلام داود يستغيث بالله من خصومه، ويدعو الله عليهم ويبتكره، وتارة يأتي بمواعظ. وكان يقول ذلك في الغالب في الكنيسة. ويستعمل مع تكلمه بذلك شيئا من الآلات، التي لها نغمات حسنة. كما هو مصوح بذلك في كثير من تلك المزومرات.


سيببه:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا
والئثب أخشاه إن مررت به
وفي واحشى الريح والمطرا

ومعنى: «مِنْ قَبْلِ» أنه قصهم عليه من قبل هذه السورة، أو من قبل هذا اليوم قبل: إنه لما قال الله في كتابه بعض أسماء نباته، ولم يذكر أسماء بعض. قالت اليهود: ذكر محمد الأنبياء ولم يذكر موسى. نزل: «وَكَلَّمَ آَلِ مُوسى تَسْكِيلًا»

تفضل منه ورحمة. ومنعني قوله: "بَعْدَ الرَّسُولِ" بعد إرسال الرسل وكان الله عَرَفَهَا لا يغالبه مغالب حِكْيَمًا في أفعاله التي من جملتها إرسال الرسل.

وقد أخرج عبد بن حيد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد: "وِيَصُدُّهُمْ عَن سَبِيلِ الله كَثِيرًا". قال: أنفسهم وغيرهم عن الحق.

وأخرج ابن إسحاق في الدلائل عن ابن عباس في قوله: "لِكُلِّ رَسُولٍ كُلُّهُمْ" قال: نزلت في عبد الله بن سلام وأسد بن شعبة، وثعلبة بن شعبة، حين فارقو اليهود وأسلموا.

وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبهتري في الدلائل عنه أن بعض اليهود قال: يا محمد: ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى فأنزل الله "إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ" الآية.

وأخرج عبد بن حيد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن حبان في صحيحه، والحكم، وابن عسکر عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله (1): كم الأنبياء؟ قال: "مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا". قالت: كم الرسل فيهم؟ قال: "ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير".

وأخرج نحوه عن ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق رافعًا إلا أنه قال: "والرسول ثلاثمائة وخمسة عشر"، وأخرج أبو يعلى والحاكم بسندر ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "كان فيمن خلا من إخوان الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى، ثم كنت أنا".

وأخرج الحاكم عن أنس بسندر ضعيف نحوه.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: لا أحد آخر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا

---

(1) توسع ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" كثيراً في ذكر حديث أبي ذر: وتوجه إلى أن فيه ضعفاً راجع 6/598-602.
أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) انتهاء.
2- اتباع الرسول ﷺ لما يوحى إليه

"قل لا أقول لكم عبدي حزبان لله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إلى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يسوى الأعمى والبصر أفا تتفكرون وأذن بيه الذين يخافون أن يصدروا إلي ربهم ليس لهم من ذويه ولي ولا شفعاء لعلهم ينتقون.

[الأنعام] (5)

يذكر صاحب الظلالي في هاتين الآيتين وما تلاهما (1) من قضايا اختلاط المفاهيم التي تسبت الديانات السابقة واتخاذ المفاهيم بين السحر والغيب والكهناء والبوة مشوهة قائمة مظلمة في مفاهيم البشر حتى جاء الإسلام ليقدم النبي الإنسان، والعلم الموهى إليه من ربه، وليبطل الأباطال، ويزيز الشواذ عن أبصار الناس قبل بئسهم. يقول: هذه الموجهة بقية في مواجهة المشركين بجميع الرسالة، وطبيعة الرسول؛ مناسبة طلبهم للخوارج بعدما عبثت بها جاهلية العرب وغيرهم من الأمم حولهم، فاتبعدت بها عن حقيقة الرسالة وحقيقة النبوة بالسحر والكهناء، واتخاذ الوحي بالجن والجئون أيضا!

وأصبح يطلب من النبي أن يبتنا بالغيب، وأن يأتي بالخوارق، وأن يصنع ما عهد الناس أن يصنعه صاحب الجن والساحر.

ثم جاءت العقيدة الإسلامية لتفقه بالحق على الباطل فتدعمه فإذا هو زاهق ولترد إلى التصور الإغريءي ووضحه وبساطه وصدقه وواقعيته، ولتخلص صورة النبوة وصورة النبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضداد، التي شاعت في الجاهلية كلها. وكان أقربها إلى مشركى العرب جاهلية أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم، وكلها تشرك في تشويه صورة النبوة وصورة النبي أفيق تشوية.

ويستقل بعد ذلك لتوضيح صورة النبوة بتفسير هاتين الآيتين يقول (2):

(1) في ظلال القرآن 7/1094، يحسن الرجوع إليها تفصيلا ولقد نقلنا بعضها منها بصرف.
(2) في ظلال القرآن 7/1097.
قل لا أقول لكم عنيدي خزازين (1) الله الآية.

إنه يأمر من ربه أن يقدم نفسه للناس من قريش خاصة - بشرا جردا من كل الأوهام التي سادت الاجهادات عن طبيعة النبي والنبوة، وأن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجزرة من كل إغواء، وكل إدعاء. إنها عقيدة يحملها رسول لا يملك إلا هداية الله تثير له الطريق.

ولا يتبع إلا وحى الله يعلمه ما لم يكن يعلم (القرآن الكريم) وأوامر الله تعالى عليه. إنه لا يعتقد على خزازين الله، ليغذى منها على من يتبعه، ولا يملك مفتيح الغيب ليدل أتباعه على ما هو كائن. ولا هو ملك كما يطلبون أن ينزل الله ملكا، إما هو بشر رسول، وإما هي هذه العقيدة وحدها. في صورتها الناصعة الواضحة البسيطة.

إنها العقيدة هتف هذه الفطرة، وقوم هذه الحياة ودليل الطريق إلى الآخرة إلى الله، فهي مستنيرة بذاتها عن كل زخرف من أرادها لذاتها فهو بها حقيقة وهي عنده قيمة أكبر من كل قيمة. ومن أرادها سلعة في سوق المنافع فهو لا يدرك طبيعتها. ولا يعرف قيمتها، وهي لا تمثله زادا ولا غنا.

لذلك كله يأمر رسول الله أن يقدمها للناس هكذا، عاطلة عن كل زخرف؛ لأنها غنية عن كل زخرف، ولتعرف من يفتيون إلى ظلها أنهم لا يفتيون إلى خزازين مال ولا إلى وجهة دنيا، ولا إلى تميز على الناس بغير النظر. إنما يفتيون إلى هداية الله وهي أكرم وأغنى في القيم وأي做的事 الديني والصرى في أغلب تتفكر في.

ثم إن اتباع الرحي وحده هداية وبصر والتروك بغير هذا الهادي متروك أعظم. هذا ما تقرر هذه الآية في وضوح وصرامة. فما شأن العقل البشري في هذا المجال؟

سؤال جوابه في التصور الإسلامي واضح بسيط. إن هذا العقل البشري الذي

(1) خزازين جمع خزازية، وهي اسم المكان الذي يخزن فيه الشيء حيث لا تناله الأبدية. جميع البيان 304 / 7
وهب الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي وإدراك مدلولاته. وهذه وظيفته،
ثم هذه هي فرسته في النور والهدى. وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
فأما حين يستقل هذا العقل البشرى بنفسه بعيدا عن الوحي، فإنه يتعرض
حينئذ للضلالة والأكراف وسوء الرؤية ونقص الرؤية، وسوء التقدير وسوء
التدبير. ثم يقول ((1)): 
والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي - حتى عند فرد واحد من البشر
هموه بلغ عقله من الكبر - إما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله. فالله قد
جعل حجيته على الناس هي الوحي والرسالة، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم
البشرى ولا حتى فظورتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربيا الواحد والإيمان
به؛ لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضلل وأن الفطرة وحدها تنحرف، وأنه
لا عاصم لعقل ولا لفطرة إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهدى وهو النور
والبصرة.

وترد الآيات إلى:
1- إن الرسول ليس عليه خزائن الله، ولا يملك التصرف في الكون ولا
يستطيع إنزال ما اقترحوه من الآيات.
2- إنه لا يعلم الغيب مثل بقية البشر.
3- إنه لا يملك حساب المؤمنين وجزاءهم.
4- لا يعمل إلا بالوحي، أي لا يقطع أمرًا إلا إذا كان فيه وحي، وبهذا
تستك القائلون بأنه لم يكن للنبي الاجتهاد. بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي
ويتأكد هذا بقوله تعالى: "وَمَا يَنطِقُ عَنْ أَمْرٍ بَعْدٍ إِنَّهُ وَالَّذِي يَوْحَىۡ إِلَىٰٓ [ النجم]. وقال نفأ القياس: وإذا كان لا يعمل إلا بالوحي فلا يجوز لأحد من أمه
أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه.

(1) في ظلال القرآن 7/ 1098
والصحيح لدى الأصوليين أن الأنباء يجوز منهم الاجتهاد والقياس على المنصوص، والقياس أحد أدلة الشرع والأدلة السابقة خصوصا بالقرآن بالرد على من زعم أن محمدًا ﷺ يترى القرآن من عند نفسه ولإثبات كون القرآن منزل عليه بالوحي الإلهي، ومهمة الرسول كغيره من الرسول الموصوفين بكونهم مبشرين ومنذرين، هي الإنذار لقوله تعالى: "وأنذر به الآلِينَ تَكَفُّونَ أن تَخَشُّواٰ". (1)
3- آتيك ما يوحى إليك
قَلْ يَتَّبِعُونَ النَّاسَ قَدْ جَاءَ حُكْمُ الْحَقَّ مِنْ ذِكْرِي ْفَإِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ
لِنفَعِيْه، وَمِنْ ضَلْلٍ فَإِنَّما يُضِلُّ عَلَيْهِمْ وَمَا إِلَّا لَيْسَ عَلَيْهِمْ بِعِكْسَيْلِ ْوَأَتَّبَعَ مَا يَوْحِي
إِلَيْكَ وَأَصْبَحَ حَتَّى يَمْكُحَمُ اللَّهُ ْوَهُوَ خَيْرُ آللَّهِمِينَ ْ[ بُنَس ]
الأمر للرسول ﷺ والخطاب له بإبلاغ الرسالة إلى الناس جميعا، فبدأ الخطاب بالمفرد ْقَلْ يَا محمد ْماذا يجب عليك أن تقول في أمر هنا واحد من مجمل الدعوة الإسلامية تأكيدا وتوثيقا لأن يتبع الناس الحق الذي جاءهم به محمد ﷺ، وورد أن ْالْحَقَّ هنا هو القرآن الكريم أي أي الناس المبلغون اتبعوا ما جاء في هذا القرآن الذي هو الكتاب الحكيم نزل على النبي الخاتم في وقت بلغت الإنسانية حالة من الإدراك والوعي والفهم ما يمكن أن تحمل هذه الرسالة الممثلة بهذا القرآن الخالد الذي تكلف الله تعالى بحفظه.
ولذلك فإن الله تعالى أمر النبي أن يخاطب الناس جميعا بأنه قد جاءكم الحق وعلل الذين أندروا بهذا القرآن من أهل الكتاب يعلمون أنه الحق من ربيهم، ففهم صرفا ذلك على لسان أنيبيتهم الذين بشرو بالرسول ﷺ وشددوا بهذا الحق الذي يجدونه عندهم في كتبهم وأسفارهم وصحفهم التي أنزلها الله على أنيبيتهم ولذلك فإن بعض المفسرين قال: إن الخطاب لأهل الكتاب خصوصا والناس عامة حيث إن عرب الجزيرة الذين جاءهم الحق وهم قد اعترفوا عن ديانة إبراهيم ﷺ وإسحاق أي عبادة الأوثان يعلمون من جاورهم من أهل الكتاب، ويعلمون بشارة إبراهيم عليه السلام بأنه سيكون منهم النبي الخاتم ويبقى فإن البلاغ في هذه الآية سواء أكان للعموم من الناس أو للخصوص من أهل الكتاب فإن مهمة محمد ﷺ أن يبلغهم بأن الزمان الذي عشتم لتروه، وحدثتهم كل من سألكم لماذا جتم إلى يربع إلى جزيرة العرب .. أ.force: لقد أطل زمان نبي ستكون يربع مهاجره سمؤمن به
ونقلكم - قتل عاد وارد. فلما جاءهم الحق من رحمه هذا الذي عاشوا ليروه، كفرنا به وصدوا عن سبيل الله، ثم يعود الخطأ ثانية للرسول ﷺ لعلمه بأن عليك الإذار.
وعلى الله تعالى الهدابة، فَمَـنِ آهَتْهُ ذَٰلِكَ فَإِنَّمَا يُنْهَىٰ لِنَفْسَهُ» . ولا تخزى يا محمد على النتائج التي ستحصل عليها من إذارك وإعلامك هؤلاء القوم فمن آمن معك فقد آمن لنفسه، وَمَـن ضَلَّ فَإِنَّمَا يُضَلِّ عَلَيْهَا ّأي عاقبة الصد واالهجران والكفر بما أنزل الله عليك إذا نتائجه يتلقاه الذين ضلوا عن هذا سبيل، وهم يعلمون عاقبة ضلالهم ويعرضون مصيرهم إلى النار.
وَمَـا أَنَّا عَلَيْكُم بِوَصْيَتِهِ» ورأى لا تخزى ولا تأس على القوم الكافرين فأنث يأج_ALLAH ﷺ وَأَيَّذَاٰنِ فِي الْيَوْمِ بِالْحَجِّ يَا نُقُولُّ رَجُالًا الآية. أن إبراهيم ﷺ أمر بالاذان بالحج بعد أن أمّ بناء الكعبة مع ابنه إسماعيل فأمره الله تعالى أن يؤذن في الناس بالحج أي يدعوهم إلى هذه الفريضة. فقال إبراهيم ﷺ: رب وأين يصل صوت؟
قال: يا إبراهيم عليك الهداء، وعلى الإجابة وزعنتي وجلال سألعها في ظهور آبائهم وأرحام أمهاتهم حتى يوم الدين. وهذا هو الحجيج يزداد يوما بعد يوم وعاما بعد عام ملئين هذا الهداء، الخالد لبيب اللهم لبيب، لبيب لا شريك لك لبيب، إن الحمد والنعم لك والملك لا شريك لك.
وهكذا جاء الأمر ﷺ بالبلاغ والله يتولى هداهم فهو عليهم الوكيل، قلها يَا محمد ﷺ: وَمَـا أَنَّا عَلَيْكُم بِوَصْيَتِهِ»
وانت عليك يا محمد أن تتبع ما يوحى إليك من ربك من هذا القرآن، واتبعه بوصلك إلى الصد والهجران، ولكفربما بلغت، واصبر حتى تحكم الله. فإذا فعلبك الصبر حتى يحكم الله تعالى في أمر هؤلاء سواء المحبين أو الصادين، وهو خير الحاكمين فلا حاكم إلاك روا ظان نفسه أى خير أو قوة أو سلطان فلله خير الحاكمين، ولا راد لهكمه جل وعلا.

إن هذه الآيات تسليه للنبي ﷺ ودرسا للدعوة إلى الله عز وجل في كل الأزمن والأماكن فعليهم الواجبات التالية:

1- الإبلاغ للناس جميعاً وعلى مختلف اتماء اتهم ومشاربهم ومعتقداتهم. فقد جاء آخرا لكل الرسالات وآخر الأنبياء.

2- تقديم ما بين أبديهم في هذه الدعوة القرآن الكريم ﴿الحق من ربك﴾ وهو خير ما يريد إليه الناس فهو الفيصل المعجز أبد الدهر.

3- ليس على الدعوة تحصيل النتائج التي يريدونها وهذا أمر مصطلب بالمجج جل وعلا دون سواه وإنما على الدعوة الصبر والثبات حتى يحكم الله تعال - بأمره فهو الموكل بهذا الأمر.

4- على الدعوة الثبات على المبدأ، وعدم التحول واليأس والقنوط من النتائج التي يتحصلون عليها، فلله هو الذي يحكم بينهم وهو خير الحاكمين.
4- الإندادBALوحي

قال إنما أندذركم بالله وَلَا يَسْتَمِعَ الْصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يَنْذَرُونَ

[الأنيابا] .

جاءت هذه الآية استكمالاً ومتابعة لموقف الكفار من دعوة الإسلام، وأنهم هم الأعلون في الأرض الفائزون والنصور عليهم المسلمين. ونسبة أن الموت الذي سيلاقوه في ختام أعمارهم، ثم المال الذي سيؤولون إليه من العذاب والنار والمساءلة عن أعمالهم، ونسبة أن الله تعالى قد اتبع منهم في هذه الدنيا بقوله تعالى:

بل مِنَهُمَا هُنَاكَ، وَإِنَّاهُمْ حَتَّى تَأْلَى عَلَيْهِمُ الْعُمَّرُ ۬ أَفَلا يُرْوَىٰ أَنَّا نُنَزِّلُ ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ.}}

[الأنيابا] .

يقول تعالى: مخبراً عن المشركين إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء، ثم قال واعظاً لهم: «أَفَلا يُرْوَىٰ أَنَّا نُنَزِّلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّا نُنْزِلُ إِلَى ۖ أَنَّ}.

وقوله: قَالَ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُم بِاللَّهِ} أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أذركم بها من العذاب والنكال؛ ليس ذلك إلا لما أوحاء الله إلى في كتابه الكريم القرآن العظيم الذي بين بوضوح في هذا القرآن مصير الكافرين، وأيات الإنداد التي أوحى الله تعالى بها إليه ليبلغهم مصيرهم إنهم استمرؤوا الشرك والكفر وأصروا
 عليه، وأقاموا أمرهم على أن عذاب الله لن يتاحم، ولن يطأتم.nlما أنه لم يلحق بهم ما يكرهون فوجدوا في معانتهم راحة وإطلعن - ولكن لا يجد هذا عمن أعمى الله بصيئته، وختم على سمعه وقلبه. ولهذا قال: "ولأ يسمع الظمnl الدعاء، إذا ما يندربون (2)." 

هذه السورة للاستكبار واستصغار ما أنذرنا به مما أوحي إلى رسول الله .

أكد الله تعالى بها أن هؤلاء قد أعمى الله أبصارهم، وأن غشاوة من الضلال قد غطت أبصارهم، وأمام هذا الموقف حجمت النفس الشريرة هؤلاء على أن يستجيبوا للداعي، ويستجيبوا لما بلغهم من هدنة ووحي يسمعونه ويصمون آذانهم عنه، وأعمامهم عما ررون آمالهم من خواتيم الظالين مهما تطولوا في ظلمهم، وغطت تلك النفوس المشاعر كلها على أن تستجيب لدعوة الله - عز وجل - الذين وعوا الوحي وفهموه، وآمنوا به وصدقوه واستيقنوا صدقه واستوعبوه، أولئك على هدى من ربهم "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَبَغَوْا مَا أَنْهَىَ أَنْفُسُهُمْ (7) [ عماد]."
5- أمر الله جل وعلا لرسوله ﷺ باتباع ما يوحيه إليه

{ يَبْنِيَ بْنِيَ أَيْنَ أَنَّى أَلَّهُ وَلَا نَطْعِعُ الْكَفَّارِينَ وَالْمُنْفِقِينَ إِبْرَاهِيمُ صَادِقًا عَلِيْمًا

حَكِيمًا} وَأَنْبِئْ مَا مُوَلِّي إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمٌ أَنَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا

وَتَوَسَّكَلَّ عَلَى اللَّهِ وَحَسَنَ كَفَّارَاتُهُ وَكَبِلَّهَا.} [الأحزاب ].

في جمل الصراع المحتوم بين الإيمان والكفر، تتفق المواقف أحيانا وتختلف أحيانا أخرى، ولكنها جميعا يتجسّس بها الكافرون عن مداخل يدخلون بها على المؤمنين عموما، وعلى النبي المرسل إليهم خصوصا، الموافق هنا يتجلى بأن الكفار في قريش لما است İnsوا من ذكر النبي ﷺ لأهلهم محير، رضا منه أن يقبل الأصنام - يمكن أن يكونوا شفعاء عند الله - فإن محتوى عقيدتهم تركز كما قال تعالى: { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَقْرَبُوُّنَا إِلَى اللَّهِ رَلَّوَّى } [ الزمر : ۵ ] . وهنا يأمر الله تعالى نبيه بقوله:

{ يَبْنِيَ بْنِيَ أَيْنَ أَنَّى أَلَّهُ} (۱) أَيَ: دم على ذلك، وازدد منه { وَلَا نَطْعِعُ الْكَفَّارِينَ من أهل مكة، ومن هو على مثل كفرهم

وَالْمُنْفِقِينَ} أَيَ: الذين يظهرون الإسلام ويطنعون الكفر.

قال الواحد: إنه أراد سباهنه بالكافرين: أبا سفيان، وعكرمة، وأبا الأعور السلمي، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: ارفض ذكر آهتنا، وقال: إنها شفاعة لمن عبدها.

قال: والمنافقون: عبد الله بن أبي وعد عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

{ إِبْرَاهِيمُ صَادِقًا عَلِيْمًا حَكِيمًا} (۱) أَيَ: كثير العلم والحكمة بليغهم.

قال النحاس: ودل بقوله: { إِبْرَاهِيمُ صَادِقًا عَلِيْمًا حَكِيمًا} على أنه كان يميل إليهم، يعني النبي ﷺ استدعاء لهم إلى الإسلام.

(١) فتح القدر ٢١/٢٠٠.
والمعنى: أن لا يأمرك أو ينهاك إلا بما علم فيه صلاحاً، أو فساداً لكونه وسعة حكمته «وَأَتَبَيَّنَّ مَا يُوحَيَ إِلَيْكَ مِنَ الْقُرآنِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ» من القرآن وما أنزل إليك منه. أي اتباع الوحي في كل أمرك، ولا تتبع شيئاً ما عدا من مشورات الكافرين والمنافقين، ولا من الرأي البحت، فإن فيما أوحي إليك ما يغنيك عن ذلك، وجملة <إِنَّ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ إِنَّمَا تَعْمَلُونَ حَبَرًا> تعليلاً لأمره باتباع ما أوحي إليك، والأمر له أمر لامته، فهم مأمورون باتباع القرآن كما هو مأمور باتباعه، وهذا جاء بخطابه، وخطابهم في قوله <بِمَا تَعْمَلُونَ> على قراءة الجمهور بالفوقية للخطاب. واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم، وقرأ أبو عمرو السلمي وابن إسحاق بالتحية <وَتَوَّجَّهَ عَلَى الَّذِي وَصَفَّيْهِ بِاللَّهِ وَكِيلًا> أي: اعتمد عليه وفرض أمروك التي هي من الوحي الذي أمر الله باتباعه، انتهى.

هذا درس للدعاء في كل زمان ومكان. إن الله تعالى قد أنزل القرآن في هدى للناس وبينات من الهدى والفرقة فلا يجد دليل الكافرين والمنافقين على اتباع مقترحات منهم خرج المسلم عن صلب العقيدة، والتوحيد، والولاء لغير المؤمنين حتى لا يجد المسلم بما يقدمه هؤلاء الدين لم ينته أمره بجهازة الرسول لم ينتهوا بدخول قريش الإسلام، وزوال المنافقين في المدينة، إنه استمر دائماً، وصراع مستمر بين الإيمان والكفر وصونه النفاق وليتق المؤمنون ربهم - وقاؤها الله تعالى لرسوله - انقوا الله في فهم وتمثل هذا الدين في كل زمان ومكان.
سورة كتاب الله في كتاب الله

67، 68 - وَحَيْ اللَّهُ إِلَيْهِ مَنْ سَبِقَهُ مِنَ الأُبَيُّاءِ

6- ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْهِ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ اللَّهُ الْخَيْرُ ۗ اللَّهُ ٰرِيْزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى].

7- ﴿مَّنَّكَمْ مِنَ الْأَرْضِ ۑ وُسِّئِلَ يَا نُوحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَوْحِيْتُمْ إِلَيْكَ وَمَا وَصَيْتُكَ بِإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَيْسَوْا الْأَرْضَ وَلَا تَفْرَجُوا فِيهِ كَثِيرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَذِعُوهُمْ إِلَيْهِ ۖ ۗ اللَّهُ الْحَكِيَّٰمُ ۗ اللَّهُ الْقَرُورُ﴾ [الشورى].

8- ﴿وَمَا كَانَ لِيَبْنُ إِسْرَئِيْلَ أَنْ يُكْلِمَهُنَّ اللَّهُ إِلَّا وَجِيَّهًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرِسِّلْ رَسُولًا فِيْوُحيَ إِلَيْهِمْ مَا يُشَاءُ إِلَى هُمْ عَلَى حُكْمِهِۦ ۙ وَكَذَٰلِكَ أَوْحِيْتُ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كَتَبْنَ ۗ فَنَدَّرُي مَا أَلْكِنَبْتُ وَلَا أَهْوَمُنَّ وَلَكِنْ جَعَلْتُهُ نُورًا بِهِۦ ۗ مِّنْ نُشَاءٍ مِّنَ ۗ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهۡدِي إِلَى ۚ صِرۡطَ مُسۡتَقِيمٍ﴾ [الشورى].

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية، ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوعي والرسالة؛ حتى ليصبح أن يقال: إنها الخوار الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها، وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعًا لتلك الحقيقة الرئيسية فيها.

لكن مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوعيدية وتعرضها من جوانب متعددة، كما أنها تتحدث عن حقيقة الوعي والإيمان بها، وتأتي ذكر الآخرى ومشاهدها في مواضع متعددة منها، وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها، كما تلم بقضية الزراق، بسطه وقبضه، وصفات الإنسان في السراء والضراء.

لكن حقيقة الوعي والرسالة، وما يتعلق بها تظل مع ذلك - هي الحقيقة البارزة في محيط السورة التي تطبعها وتظللها، وكأن سائر الموضوعات الأخرى
مسوقة لتقویة تلك الحقيقة الأولى وتوکیدها ویسیر سيا سورة في عرض تلك الحقيقة، وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدیر والملاحظة، فهى تعرض من جوانب متعددة يفترق بعضها عن بعض ببضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق أو وحدانية الرازق، أو وحدانية المنتصف في القلوب أو وحدانية المنتصف في المصير، ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوهي والرسالة إلى تقریب وحدانیة الوحی - سبحانه - ووحدة الوحی ، ووحدة العقیدة، ووحدة المنهج والطريق ، وأخيرا وحدة القيادة البشریة في ظل العقیدة.

۶ - (۶۰۰) عشیقی "کذِّب‌کُل‌یوْهُجی‌إِلِّیَّکَ" الآیة. سبق الحدیث عن الأحرف المقطعة (النورانیة) في أوائل السورة، وهي تذكر هنا في مطلع السورة ويليها قول الله تعالى: "کذِّب‌کُل‌یوْهُجی‌إِلِّیَّکَ" الآیة.

اى مثل ذلك وعلى هذا النسق، وبهذه الطريقة يكون الوحی إلیک، وإلى الذين من قبلک فهى كلمات وألفاظ وعبارات مصوحة من الأحرف التي يعرفها الناس، ويفهمونها، ويدرون معانیها، ولكنهم لا يملكون أن يصوغا مثلها مما بين أيديهم من أحرف يعرفونها.

ومن الناحیة الأخرى تترک وحدة الوحی، بوحدة مصدر الوحی هو الله العزیز الحکیم، والوحی إلیهم هم الرسل على مدار الزمان، والوحی واحد في جوهره، على اختلاف الرسل واختلاف الزمان "یلِّیک" و"یلِّیک" من قبیلک، إنها قصة بعيدة البداية، ضاربة في أطواق الزمان، وسلسلة كثیرة الحلقات، متشابكة الخلقات، ومنهج ثابت الأصول على تعدد الفروع.

وهذه الحقيقة - على هذا النحو - حين تستقر في ضرائر المؤمنین تشعرهم بأصالة ما هم عليه وثبتته، ووحدة مصدره وطريقه، وتشدهم إلى مصدر هذا الوحی "الله الاعزیز الاحکیم" كما تشعرهم بالقراءة بينهم وبين المؤمنین أتباع الوحی في كل زمان ومكان. فهذه أسرته تضرب في بطون التاريخ، ومتما جذورها في
شاعب الزمن، وتتصل كلها بالله في النهاية، فيلتقون جمعاً. وهو ﴿العزيز ﴾
القوي القادر ﴿الحكيم ﴾ الذي يوحى لم يشاه بما يشاهد وفق حكمة وتدير، فأتي
يصرفون عن هذا المنهج الإلهي الواحد، الثابت إلى السبل المتفرقة التي لا تؤدي إلى
الله ولا يعرف لها مصدر، ولا تستقيم على أطروح قاعد قويم؟

ويبتكر في صفحة الله الذي يوحى وحده إلى الرسل جمعاً، يقرر أنه المالك
الوحيد لما في السماوات وما في الأرض، وأنه وحده العليم.

٧٦٥ - ﴿يَطْرُقُ السَّقَارَ لِكَ لِكُلِّ يَدِينٍ مَا وَصَّىٰ بِهِ، نُوحًا وَالْبَيْتٍ عَلَىٰ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسِيَ ﴾ ﴿أَيَقُومُوا الْيَوْمَ ﻟَوْ لاَ يَتَفَقُّوْا فِيهِ ﴾ ﴿كَبَرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿تَذَكَّرُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ أَيْتَمَّهُمُ ﴾ ﴿إِلَىٰ إِلَيْهِ مَنْ يُبْتَغِي ﴾ ﴿[الشعور] ﴾.

لقد جاء في مطلع السورة ﴿كَذَا يَوْحِيٰ إِلَيْكَ إِلَىٰ أَلْدِينٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ﴿الحَكِيم ﴾ ﴿[الشعراء] ﴾، فكانت هذه إشارة إجمالية لوحدة المصدر، ووحدة المنهج، ووحدة
الاجتهاد، فالآن يفصل هذه الإشارة، ويقرر أن ما شرعه الله للمسلمين هو - في
عموم، ما وصى به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى - وؤلاء مع نبياً محمد ﴿أَوَلِّيَ الزَّنِمَ ﻣِنَ الرَّسُولِ ﻻَ يَتَفَقُّوا فِيهِ ﻻِ يَرْجُوا نِتائِجَهَا ﻣِنَ وجَوَابِ الْبَرَاءَةِ عَلَى
المنهج الإلهي القويم، دون التفات إلى أهواء المختلفين ومن هيمنة هذا الدين
الواضح المستقيم، ودحض حجة الذين يجاجون في الله، وإنذارهم بالغضب
والعذاب الشديد.

ويبدو من التماسك والتناسق في هذه الفترة كالذي بدأ في سابقتها بشكل
ملحوظ.

ويذلك يقرر الحقيقة التي فصلناها في مطلع السورة، حقيقة الأصل الواحد

(١) في ظلال القرآن ٢٥ / ٣١٣٦ - ٣١٤٠ بتصرف.
والنشأة الضاربة في أصول الزمان ويفضّ إلى مكة لطيفة الوقع في حس المؤمن،
وهو ينظر إلى سلفه في الطريق المتمتدة من بعيد فإذا هم على التتابع هؤلاء الكرام:
نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد - صلوات الله وسلام عليهم أجمعين.
ويستشعر أنه امتداد هؤلاء الكرام، وأنه على دربهم يسير.
ثم إنه سيستروح السير في الطريق، مهما يجد فيه من شرك ونصب، وحرمان
من أعراض كثيرة، وهو برفقة هذا الموكب الكرم على الله. الكرم على الكون
كله منذ فجر التاريخ.
ثم إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد، السائحين على شرعه
الثابت، وانتفاء الخلاف والشقاق والشعور بالقرب الوثيقة، والتي تدعو إلى
التعاون والتفاهم، ووصل الحاضر الماضي، والماضي بالحاضر والسير جملة في
الطريق.
إذا كان الذي شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين محمد هو ما وصى به
نوح وإبراهيم وموسى وعيسى. فلم يقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى؟! وفيم
يقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى مع أتباع محمد؟! وفيم يقاتل
من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين، ولم لا يتضامن الجميع
ليقفوا تحت الرأية الواحدة التي يحملها رسولهم الآخر؟ والوصية الواحدة الصادرة
للجميع (أن أقيموا آدانا ولا تنفروا فيما لا يحبب الله)، يقرون بتكافلهم،
ولا ينحرفون عنه ولا يلقون به ويفقرون تحت رأيته صفاً، وهي رأية واحدة، رفعها
على التواالي نوح وإبراهيم وموسى صلوات الله عليهم، حتى انتهت إلى محمد
في العهد الأخير.

الله أختين إلّهى من يشاء وحده إلّهى من يُنبّي. وقد أجته للرسالة وهو
يفتح الطريق لمن ينبي إليه وتوب (1).

(1) في ظلال القرآن 2 / 147، 3148 و 3149.
وفي ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى التي تدور عليها السورة حقيقة الوحي والرسالة، يعود إلى هذه الحقيقة ليكشف عن طبيعة هذا الاتفاق بين الله والمختارين من عباده، وفي أية صورة يكون، ويؤكد أنه قد وقع فعلا إلى الرسول الآخر لغاية يريدها الله سبحانه، ليبدئ من يشاء إلى صرائط مستقيمة. ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة. وقد روى عن عائشة رضي الله عنها: "(من زعم أن محمد رأى ربه فقد أعظم على الله الغرية) متفق عليه. إنما يلم كلام الله للبشر بواحد من ثلاث:

1 - "(وَحَبْيًا) يلقى في النفس مباشرة تعرف أنه من الله.

2 - "(أَوْ مِن وَرَأْيِ جَهَابٍ) كما كلم الله موسى وحين طلب الرؤيا لم يجب عليها، ولم يقل تعالى الله على الجبل: "وَرَجَعْتُ مُوسَى صَعِيقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تَبَيْنَ إِلَيْكَ وَأُولَى الْمُؤْمِينِ".

3 - "(أَلَا يُرِيَّس رَسُولَ اللَّهِ) وهو الملك، فيوحي بإذنه ما يشاء، بالطرق التي وردت عن رسول الله ﷺ.

أ - الأولى: ما كان يلقي الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال: "(إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلبه).

ب - الثانية: أنه كان تميم له الملك رجلا، فيخطبه حتى يعى عنه ما يقول.

ج - الثالثة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشد عليه، حتى إن جبينه ليتفصد عرايا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبا. ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفهمه على فخذ زيد ابن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

د - الرابعة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء أن
وفهل يحكي وَكَذَّبَ لِكُمْ أَوْحِيْتَا إِلَّاً رَوْحًا مِّنْ أَمْرِي، الآن. وكذلك يُمثل هذه الطريقة
وبالتالي المتصل في قلوبنا في الواقع العملي المشهود. ما كنت تدري ما
ويعرجها وينميها في القلب وفي الواقع العملية المشهود. هكذا يصور نفس رسول الله ﷺ وهو أعلم بها. قبل أن
تتلقى هذا الوحي. وقد سمع رسول الله ﷺ عن الكتاب وسمع عن الإيمان، وكان
معروفا في الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فهم معهم، وأنهم عقيدة
فليس هذا هو المقصود، إنما المقصود هو استعمال القلب على هذه الحقيقة والشعور
بها والتآثر بوجودها في المرء. وهذا لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذي
لا بأس قلب محمد ﷺ.
ولكن جعلته نورا هادئا بين نشاء. وهذه طبيعته الخالصة، طبيعة هذا
الوحي. هذا الروح، هذا الكتاب، القرآن الكريم إنه نور، نور ينحال بشاشته
القلوب التي يشاء لها الله أن تهتدى به، بما يعلمه من حقائقها، ومن خالطة هذا
النور لها. (1)

(1) عن زاد المذاذ لابن شمس الدين أبي عبد الله بن قيم الجوزية. راجع: في ظلال القرآن ٢٥ / ٣١٧.
(2) في ظلال القرآن ٢٥ / ٣١٧١. ومابعدا.
6- إن هوا لاإ وحى يوحى

وَأَلْتُجَذَّبِرُ إِذًا هُوَيْنَ مَا صَلَى صَاحِبُكَ وَمَا غَوَىَّ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ آهَوَىَ

إِن هُوَ إِلَّا وَحى يُوْحى عَلَهُ شَهِيدُ الْقُوْيَ مَعَرَّقُ مَوْرَةٍ فَأَصِبَ وَهُوَ بِالْأَفْقِ

فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى

[النجم]

تَسْمَيْتُهَا: سُمِّيت سورة النجم؛ لأن الله تعالى افتتحها بالقسم بالنجم، وأل للجنس. أي بنجوم السماء وقت سقوطها وغروبها؛ لأن النجم إذا كان في وسط السماء لم يهتدب به الساري؛ لأنه لا يعلم المغرب من المشرق، والجنوب والشمال، فإذا ما ف في الأفق عرف به هذه الجهات، والميل إلى أفق المغرب أولى بالذكر؛ لأن الناظر إليه يستدل بغيره على الجهة.

افتتحت السورة بإثبات ظاهرة الوجي بوساطة جبريل والكلام عن (المعراج) وقرب النبي ﷺ من ربه، ورؤيته عجائب ملكوت الله تعالى، ومشاهدة جبريل على صورته الحقية الملكية مرتين (1).

وَالْنُجُومُ إِذًا هُوَيْنَ مَا صَلَى صَاحِبُكَ وَمَا غَوَىَّ أَيَّ أَقْسَمَ بِالْنُجُومِ أَي

بالنجم عندما تمثيل للغروب؛ إذ بالميل إلى الأفق تعرف الجهات، ما عدل محمد عن طريق الهداية والحق، وما صار غاويًا متكلمًا بالباطل، وقيل: النجم: الثريا إذا سقطت مع الفجر، روى ابن أبي حاتم عن الشعبي وغيره قال: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق.

وقد عرض الرازي مقارنة في القسم به والقسم عليه بين هذه السورة والسورة المتقدمة، فذكر أن السور التي تقدمت وهم: الصفات والذاريات والطور وهذه السور كان القسم فيها بالأسماء دون الحروف، أقسم الله في الأولى لإثبات

التفسير المنير 27/92، 93
الوحدةانية إن إلهكم وحيدٌ [الصافات] وفي الثانية لإثبات الحشر والجزاء
إِنَّ هُوَ إِلَيْهِ الْفَوْقُ الْأَعْلَى [النور] وفي الثالثة نبوة محمد ﷺ، فاكتملت
الأصول الثلاثة: الوحدانية، والحشر والنبوة (1).

وإذا قسم الله على الوحدانية والنبوة قليل في القرآن، والقسم على
إثبات البهت كثير، كما في سورة القدر والطور والليل والشمس والبروج
وغير ذلك، لأن دلالات الوحدانية كثيرة وكلها عقلية كما قيل: وفي كل شيء له
آية تدل على أنه واحد.

وأهمية النجوم أقسم الله بها على أن محمد ﷺ ليس بimas في الحق، ولا
ثالث تأله عن الحق، وسبب نسبه وعدم ضلاله وغوايته ما قال تعالى:
أَيَّ مَا يُقَولُ قَوْلاً مِّنْ أَهْوَأْيَةِ ﴿۱﴾ إِنَّ هُوَ إِلَيْهِ الْفَوْقُ الْأَعْلَى
وأما ينطق عن أهوى ﴿۱﴾ إن هو إلا وحي ﴿۱﴾ أي ما يقول قولاً عن
هوى وغرض. وما ينطق بالقرآن من هواه الشخصي، فإما ينطق بحوي من الله
أوحت إليه، ويبلغ ما أمر به كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال: كنت
كتب كل شيء اسمه من رسول الله ﷺ، أريد حفظه. فنهنئي قريش فقالوا: إنك
كتب كل شيء تسمه من رسول الله ﷺ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب.
فاسمكت عن الكتاب، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (اكتب فوالذي نفسى
بيده ما خرج منه إلا الحق).

وأخرج الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لا أقول إلا
حقا) قال بعض أصحابه، فإنك تداعبنا يا رسول الله، قال: (إني لم أقول إلا
حقا).

ثم أخبر الله تعالى عن معلم رسول الله ﷺ وهو جبريل فقال:
أي علم القرآن النبي

(1) تفسير الرازي 28 / 277.
جبريل، والذي هو شديد قواه العلمية والعملية. وهو ذو قوة وشدة في الخلق، وذو حضافة في العقل، ومتانة في الرأى. وقد استقام جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، حين أحب النبي ﷺ رؤيته كذلك، فظهر له في الأفق الأعلى أي في جهة العلما من السماء، وهو أفق الشمس، فقد الأفق عندما جاء بالوحي إلى النبي ﷺ أول ما جاء بالوحي.

وتنظر الآيات عن جبريل قوله تعالى: "إنه لقوم رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكبّر مطاع ثم أمين وما صاحبكر بمجتهد ولقد رآه بالآفاق الذين [التكوير]."

* نعم دنا فتدلِ: فكان قاب وسنين أو أدنى فأوحي إلى عبده، ما أوحى{: }

أي استوى واعتدل جبريل بالآفاق الأعلى أولاً، ثم قرب من الأرض، وأزاد في القرب والنزول، حتى نزل على النبي ﷺ، فكان مقدّر ما بين جبريل إلى عبده الله ورسوله محمد ﷺ ما أوحاه من القرآن في تلك المنزلة من شؤون الدين، وقال:

أوحي الله إلى محمد ﷺ ما أوحى، وفيه تفخيم لشأن الوحي.

وهذا كان ورسول الله ﷺ في الأرض، لا ليلة الإسراء، وهذا قال الله تعالى بعده: "ولقد رأته نزلة أخرى عند سدرة النهضى( ) روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود، قال في هذه الآية: فكان قاب وسنين أو أدنى ؛ قال رسول الله ﷺ: رأيت جبريل له ستماثة جناح.

أو اخرًا: القرآن الكريم ليس كلاما للرسول ﷺ، وإنما هو وحي صادر من الله. قد ينتج بقوله تعالى: "إن هو إلا وحي أوحى"( ) من لا يجوز لرسول الله الاجتهاد في الحوادث، وهذا خطأ؛ لأن المراد بالآية إثبات كون القرآن وحيا من عند الله، والقرآن ذاته أمره بالاجتهاد. وقد اجتهاد في الحروب فيما لم يحرمه الله. وأدنى لبعض المنافقين بالتفاوت عن غزوة تبوك، فعاتبه ربه بقوله: "عفا الله عنكم همّكم [النوتة: 43]."(1)

(1) التفسير المثير 27 / 92-105 بتصرف.
فصل
النور
1- النور الذي أنزل مع الرسول

الذين يتبعون الرسول النبي الذي يجدهم، مكتوبًا عندهم في النزورة والإنجيل بأمرهم بالمعروف ويتبعون على المكشر وجعل لهم الطيبين وجعل عليهم الخبيث ويتبع عليهم إصرهم والاعلم الذي كان علىهم فألذين عامداً به وعزرؤوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفصولون.

[الأعراف]

الذين يتبعون الرسول النبي الذي يجدهم وهو محمد ﷺ، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل والأمم، إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب وهم العرب، أو نسبة إلى الأم، وإن معنى أنه باق على حالته التي ورد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب! وقيل نسبة إلى أم القرى، وهي مكة.

الذي يجدهم يعني اليهود والنصارى أي: يجدون نعته مكتوبًا عندهم في النزورة والإنجيل. وهما مرجعهما في الدين، وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل فهو من باب الإخبار بما سيكون، ثم وصف هذا النبي الذي يجدهم كذلك بأنه يأمرهم بالمعروف، أي: بكل ما تعرفه القلوب ولا تنكره من الأشياء التي هي من مكارم الأخلاق.


قوله: وجعل لَهُمَّ الطَّبِيبَتِ أي: المستذلات، وقيل: يجعل لهم ما حرم عليهم
من الأشياء التي حرمته عليهم بسبب ذنوبهم "وَخَرَّمُ عَلَيْهِمْ أَخْبَاتٍ" أي:
المستحسنات كالحشرات والخنازير. "وَيَضِعُ عَنْهُمْ إِضْرَارَهُمْ" الإصر: التقل، أي:
يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقلة. وقد تقدم بيفة في سورة البقرة: "وَالْأَغْلَالِ
التي كانت عليه" أي: يضع عنهم الأغلال التي كانت عليهم، الأغلال
مستعارة للتكاليف الشاقة التي كانوا قد كلفوها.

(1) فَالذَّينَ ءاتُنَا بِهِمْ »أَيْ مُحَمَّدٍ« »وَأَتَبَغَوا« فيما جاء به من الشرع
"وَعَرَّفْوَاهُ" أي عزمه ووقروه، قايل الأخفش. وقيل: معناه: من عدوه،
وأصل العزر: المنع، وقرأ الجحدري »وَعَرَّفْوَاهُ« بالتخيف، »وَنَصْرَوْهُ« أي:
قاموا بنصره على من يعاديه. »وَأَتَبَغَوا آلِيْهِ نَزْلَتْ مَعَهُ« أي: القرآن الذي
أنزل عليه مع نبوته، وقيل المعنى: واتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه.
والإشارة بـ»أَوْلَاهُمْ« إلى المنصفين بهذه الأوصاف »هُمْ الْمُفْلِحُونَ«
والفاترون بالخير والفلاح لا غيرهم من الأمم (1)

والإشارة واضحة بذكر النورمعنى القرآن الكريم، ذلك النور الذي ينير
أبنارهم وبصائرهم، ينير قلوبهم ودروهم، هذا النور "القرآن" الذي يخرجهم
من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى، وقد شبه أو ذكر بصفة النور لعله منزلته
ومكانه وأشرفه الذي يقابل نور الشمس أو نور القمر، أو نور عظيم يزيل
الظلم العميم. أورد ابن كثير (2) في معنى هذه الآية "الذين يَتَبَغُّونُ آرَسُولَ
الْآخِيَ الْأَمْيَ الَّذِي تَحْدِثُونَهُ، مَكَّنُونَ تَأَمَّلُهُمْ فِي الْبُنُوعَةَ وَالْإِفْجَرَةِ" وهذه صفة محمد
في كتب الأنبياء بشروا أبهم ببعثه وأمهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في
كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم.

(1) فتح القدير 9 / 287 , 288
(2) تفسير القرآن العظيم 9 / 262
كما روى الإمام أحمد حدثنا إسماعيل عن الجريرى عن أبي صخر العقيلي
حدثى عن رجل من الأعراب، قال: جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله
 صلى الله عليه وسلم، فلما فرغت من بيعي، قلت: لألفين هذا الرجل فلا أسمع منه، قال فقلت
بين أبي بكر وعمر يشون فتبعتهم، حتى أتوا على رجل من اليهود ناصر التوراة
يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها. فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: )) أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفي وخرجى؟
 فقال برأسه هكذا... أي: لا... فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة إذا نجد في
كتابنا صفتاك وخرجك، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: )) أقيموا اليهودى عن أخيكم)) ثم تولى كفنه والصلاة عليه،
هذا حديث جيد قوى له شاهد في الصحيح عن أنس.
الإيمان بالله ورسوله والتنور الذي أنزل الله}

«(Build) أ(*) أَنْ لَنْ نُبِعْنَ أُنْ قُلْنَ بَلَى وَرَبِّنَا لَنْ نُبَعْنَ أُنْ لَنْ نُتَبَعْنُ بِمَا عَلَّمْنَا وَذَلِكَ عَلَى

اللهُ يَسِيرُ ﷺ فَحَمْلُهُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ﷺ وَالنُّورُ أَنْزَلْنَا ﷺ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا لَّهُ.»

[التمان].

وَلَنْ أَنْفُكُمْ أَنْفُكُمْ لِلَّهِ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ 

وَجَلَ عَلَى وَقُوعَ المَعَادُ.

الأولى منها: قوله تعالى: ﷺ وَيَسْتَبْعِدْكُمْ أَحَقُّ هُوَ ﴿قُلْ إِنَّا نُفَعِّلُ مَا تَأْمُرُنَا بِهِ﴾. [يونس].

والثانية منها: قوله سبحانه: ﴿فَوَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا آنَاسًا فَقُلْنَ بَلَى وَرَبِّنَا لَنْ نُبَعْنَ أُنْ لَنْ نَتَبَعْنَ مَعَالِمَهُ﴾. [سايا].

والثالثة منها: قوله سبحانه: ﴿فَوَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُبَعْنَ أُنْ لَنْ نُبِعْنَ أُنْ لَنْ تَبَعْنَ نَبِيِّ مِنْذَ كَيْلَلَ ﷺ وَذَلِكَ عَلَى ﷺ﴾. [يس].

إن أسباب تعذيب الكفار: هي كفرهم بالله وجوههم بآياته، وتذكير رسولهم الذين آرسلوا إليهم بالمعجزات والدلائل الواضحة، وإنكارهم البهث والحساب، والجزاء.

وكان كفرهم برسلهم أنهم أنكروا أن يكون الرسول من البشر، واستصغروه ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده، كما لم يعلموا أن الله تعالى مستغن بسلطتنهم عن طاعة عباده.
أمر الله تعالى نبى بأن يقسم برية للمشركين على أن البهث حق كائن لا محالة فلايد من أن يخرجوا من قبورهم أحياء، وعلى أنهم سيخرجون بما عملوا، وأن البهث والجزاء يسير على الله إذا الإعادة أسهل من الابتداء. وبعد بيان أدلته التوحيد والألوهية والربوة، والرد على منكر الكبيرة، وميساح ما نزل من العقوبة بالأمم الماضية، لكفرهم بالله وتكذيب الرسول طالب الله تعالى بالإيمان بالله ورسوله، وبأي القرآن والبهر، علماً بأن الاعتراف بالبهر من لوازم الإيمان، ثم حذر من الحساب والجزاء في الآخرة، وآبان مظاهر التغابن فيه، وفصله.

{ فقامتوا بالله ورسوله، وبالنور الذي أنزلنا. والله يعفوون كثيراً } [ التغابن ]

أي: إذا كان أمر البهث هيناً يسيراً على الله لا يصرفه صارف، فصدقوا بالله ورسوله محمد وكتابه المثير الهادي إلى السعادة، والمنجى من ظلمة الضلالة، فهو نور يهدي به إذا أشكلت الأمور، والله عالم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم، فهو جزاءكم على ذلك خيراً أو شراً. وفي هذا وعيد على كل ما يؤتي من المعاصي، أو يترك من الفرائض والواجبات. ووصف القرآن بأن نور: لأنه يهدي به من الشهات، كما يهدي بالنور في الظلمات.

فبعد الإخبار بقيام الساعة، أمر الله عبادة بالإيمان به ورسوله محمد وبالقرآن المنزل عليه الذي يستخدم من صفات القرآن (النور)، لتلا ينزل بهم من العقوبة ما نزل بالأمم الماضية لكفرهم بالله وتكذيب الرسول. وأخذ تعالى الأمر بقوله:

{ والله يعفوون كثيراً } [ التغابن ]

(1) التفسير المثير 28 / 241-242 بتصريف.
3- ولكن جعلنا نورًا

وكَذَٰلِكَ أُوحِيَ لَكَ رَوْحًا مِّنِّي أَمْرًا ۚ مَا كُنتَ تَذْرِي مَا أَلْكَتْنَا وَلَا آَلِيَمْسِنَّ وَلَكِنَّ جَعَلْنَا نُورًا نُورًا نَّهَٰذِي بِهِ مَنْ نَّنَهَى مِّنِّ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى

صِرْطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۖ صِرْطَ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَی اللَّهِ تُصْبِرُ اللَّهُ مُرْجِعًا [الشورى] .

ورد شرح هاتين الآيتين في فصل الوحي الذي اشتمل على الأقسام (٦ ، ٧) ، وكانت هاتان الآيتان شرحًا تحت رقم (٨) ويسن الرجوع إلى ذلك الشرح .
فصل
الهندى
1- الهدى الواجب الاتباع

فَفَتَّلَقَّ أَدْمُ مِنْ زِينَهِ. كَلَّمَتْ قَوَّةَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هوَ الْخَلِیْفَةُ الرَّحْیمُ. فَلَنَا أَهْبِطُوا

فِيَنَا جَعَلْنَاكُمْ مِنْ هَذَا فِئَةً. لَمَّا خَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ خَرَّحُونَ

وَلَا يَدْقِرُونَ وَكَذَّبُوا بِنَيْسَانَ أَوْلَئِكَ أَصْحَبُ آلِنَارِ هُمْ فِيَهَا خَلِیْفَةٌ [38]

البقرة.

جاءت هذه الآية [38] وما قبلها وما بعدها في سياق الحديث عن بدء الخليقة

وخلق أدم النفي من تراب الأرض وبعيش في الأرض وإقرار الله تعالى أنه جاعل

في الأرض خليفة ثم إسكان أدم في الجنة مؤقتا بعد سجود الملائكة له ورفض

إيبليس السجود، ثم إخراج أدم ودواء من الجنة وصوبتهم إلى الأرض، وتحرير

النبوات والكتب والندعاء والأثر والشر.. إلخ وإنفاء هذه الحياة في هذا

الكوكب.

بعد المعركة التي كانت بين أدم وإيبليس في مكان يعلمه الله - وذكر أنه جنة-

ومحاولات إيبليس المتكررة لغواية أدم وإخراجه عن طاعة الله تعالى والإقدام على

مخالفة أمره، ونجاح إيبليس في غواية أدم وأكله مع زوجته حواء من الشجرة التي

حرمه الله تعالى عليهم، واستيقاظ ضمير أدم وتوهته وقبول الله هذه التوبة.

انتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل، وانطلق من عقابها ما تهدأ لحظة

وما تعرض، وعرف الإنسان في فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار

وكيف ينكس إذا اختار لنفسه الخسارة.

وبعد، فلا بد من العودة إلى مطالع القصة، قصة البشرية الأولى:

لقد قال الله تعالى للملاتكاة: "إِنَّهُ جَعَلَ فِي الْأَرْضِ خَلِیْفَةً" [البقرة: 30] وإذا

أدم خلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى: ففيما إذا كانت تلك الشجرة المنورة؟

وفيما إذا كان بلاء أدم؟ وفيما إذا كان الهبوط إلى الأرض، وهو خلوق هذه
الأرض منذ اللحظة الأولى.

على ألمه - كما يقول المؤلف (1) - أن هذه التجربة كانت تربة هذا الخليفة وإعدادا له كانت إيقاظا للقوى المذكورة في كينه. وتدريبا له على تلقى الغواية، وترعج النذمة، وتذوق العاقبة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين.

إن قصة الشجرة الجزرة، ووسواس الشيطان باللذة، ونسينان العهد بالمعصية والصحوة بعد السكرة، وطلب المغفرة! إنها هي تجربة البشرية المتكررة أو المكررة.

لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته؛ مزودًا بهذى التجربة التي ستعرض لثلا طويلا استعدادًا للمعركة الدائمة وموعظة وتحذيرا.

وبعد. مرة أخرى، فأين كان هذا الذي كان؟ وما الجنة التي عاش فيها آدم وزوجته حينا من الزمن؟ ومن هم الملائكة؟ ومن هو إيليس؟ وكيف قال الله تعالهم؟ وكيف أجابوه؟

هذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغيب الذي استائر الله تعالى بعلمه، وعلم مكتمل أنه لا جدوى للبشر من معرفة كنهه وطبيعته، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به، والأداة التي وهمهم إياها خلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على هذا الغيب وبقدر ما سخر الله للإنسان من النوميس الكونية، وعرفه بأسرارها، بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب، فيما لا جدوى له في معرفته.

وما يزال الإنسان مثالا على الرغم من كل ما فتح له من الأسرار الكونية يجهل ما وراء اللحظة الحاضرة جهلًا مطلقا، ولا يملك بأي أداة من الأدوات المعرفة المتاحة له أن يعرف ماذا سيحدث له بعد حزته، وله النفس الذي خرج من فمه عائد أم هو آخر أنفاسه؟ وهذا مثل من الغيب المهجوب عن البشر لأنه لا يدخل في مقتضيات الخلافة، بل ربي كان مقوما لها لو كشف للإنسان عنه! وهنالك

(1) في ظلال القرآن 1 / 58.
أولان من مثل هذه الأسرار الموجبة عن الإنسان في طي الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ومن ثم لم يعد للعقل البشري أن يخوض فيه؛ لأنه لا يملك الوسيلة للوصول إلى شيء من أمره وكل جهد بذل في هذه المحاولة هو جهد ضائع، داهب سوى، بلا ثمرة ولا جدوى، إن من قدر الله تعالى الذي خلق الإنسان من تربة الأرض، وقدر في علمه أن يكون هذا المخلوق خليفة له فيها فلا بد من التذكير بما قدر الله تعالى الذي قبل توبة آدم وقرر أن يهبط الجميع في عد في المنهاج الخالص والمحقق في الحديث عن جامع ظاهرا آدم وحواء وإنسيس، فإذا فقد حرم إنسيس من دخول الجنة وأغوى آدم، لكنه الآن سيهبط مع آدم وحواء إلى الأرض ليعيشا معا خلوة من النار — لا يرى إلا إذا تمثل — وخلوق من تراب لا يبقي عن العين إلا المخبأ.

وهنا بين الله جل جلاله هذه لؤلؤة من سلاسلة آدم الإنسان ومن أتباع إنسيس الجن أن الله سيكون معهم ويأتيهم من لدن هدى، والهدى هو إرادة الله تعالى من خلقه وعما خلقته أجلين وألا يهوين إلا ليعبدون [الزوريات] [القرآن] فالهدى هو العبادة فين تبع هذين فلا خوف عليهم ولا هم محزونون [التوبة]، والهدى سيكون يرسل وأبناءه، وكتب وصحف، ووحي وذكير فمن تبع هدى الله فلا خوف عليهم ولا هم محزونون، وجوم الرسالات والنبوات بهمد خاتم الأنبياء والرسلين وبكتاب الله (القرآن الكريم) المفتوح من الله، والبعيد عن تأثير البشر والحيزامين ونقدائهم. فهؤلاء الذين سيطبعون الهدى وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم محزون.

أما الآخرون من الكفار فهم أصحاب النار هم فيها خالدون.
2- هدى الله

وَلَنْ ترَسِى عَنْكَ الَّذِينَ يَهْوُدُونَ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعُوا مَلَكُهُمْ قَلِ إِنَّ هَذِهِ آيَةٌ هُوَ أُمُّ الْكِتَابِ وَلَيْنَ أَنْتُ مَنْ أَهْوَاءُهُمْ بَعْدَ الَّذِينَ جَاءَكَ مِنَ الْعَلِيمِ ﷺ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ ثُمَّ وَلَيْنَ تَصَبِّرُوا١٠٨ [القرة].

هذا إقرار من الله جل جلاله، خالق الناس، ورجل الرسل ومنزل الكتب، والعلمين الخبرين بتطوراتهم وأحوالهم والهادى إلى الخير، والذي يعلم السر وأخفى وكيف وصل به جل جلاله والناس يوم أن بعث محمدًا ﷺ وأنزل معه الكتاب ليكون هادياً وبيداً ونذيراً، ويعمل أن البشرية في وقت بعث محمد ﷺ هي محتاجة إلى الخروج من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى ويهديه، والله جل جلاله الذي أعطى محمدًا الرسالة والقرآن؛ ليكون المسلمون شهداء على الناس، ويكون الرسول ﷺ عليهم شهيداً.

وأخيرًا محمدًا بن مريم ﷺ وبيت الله ﷺ، بين اليهود والنصارى والمشركين والكافرين من البشر، والآيات السابقة تحذيراً للعلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب مستقبلاً وإقراراً واضحاً موقف هؤلاء الذين اعترفوا بعقيدة التوحيد ولهودي الله تعالى إلى الشرك والضلالة، وماذا سيكون موقفهم من دعوة الإسلام التي ستحكي عن أصول دعوتهم وأسماء رسلهم وأنبيائهم ومواقفهم من الرسل والأنبياء، وتكشف أخراجهم وردهم عن الطريق الذي رسمه الله تعالى لهم على لسان أنيابهم ؛ إنها ومدة صميم الهداى الذي أراده الله تعالى -كما سبق في البحث السابق- فتتبع هذاي فلما خُوَّفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ خَزَّانُونَ١٠٩

إنها معركة العقيدة، إنها ليست معركة الأرض، ولا الغلة، ولا المراكز.
العسكرية، ولا هذه الرايات المزيفة كلها، إنهم يفierenها علينا لغرض في نفوسهم
دفون، ليخدعون عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا تحن خدعاً بخدعيتهم لنا فلا
نلوم إلا أنفسنا - ونحن بعد عن توجيه الله تعالى لنبيه ﷺ ولأمه وهو - سباحه -
أصدق القائلين:
» وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الَّذِينَ الْأَلْبَاهُدُ وَلَا الْأَلْقَصُّرُ حَتَّى تَنْتَابَ مَثَلَّهُمْ [ البقرة : 12]، فذللك

هو الثمن الوحيد الذي يرضونه، وما سواه فمروض ومرود.

ولكن الأمر الحاكم، والتوقيع الصادق [قل إن هدى الله هو أهدى] على
سبيل القصر والخصم. هدى الله هو الهدى، وما عاده ليس بهدى. فلا براح منه،
ولا فكاك منه ولا محاولة فيه، ولا ترضية على حسابه ولا مساومة في شيء منه
قليل أو كثير. ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وحذر أن تميل بك الرغبة في
هدايته وإمانتهم، أو صداقتهم ومؤدونهم عن هذا الصراط الدقيق [وَإِنْ أَتَبَعْتُ
أَهْوَاهُمْ بَعْدَ أَنْذَرْتُكَ مِنْ أَلْبَاهُدِكَ] [البقرة] بهذا التهديد المفعوض، وبهذا القطع الجامع، وبهذا الوعيد الرعيب. ولن؟ لنبي الله
ورسوله وحبيبه الكريم! إنها الأهواء - إن أنت ملت عن الهوى. هدى الله الذي
لا هدى سواه. وهي الأهواء التي تفهيم منك هذا الموقف وليس نقص الحجة ولا
ضعف الدليل.

والذين يجدرون منهم من الهوى يتنون كتابهم حق تلاوته، ومن ثم يؤمنون
بالمหาذى معك فأنا الذين يكرون به فهم الحاضر، لا أنت ولا المؤمنون.
» اللذين أذن لهم أن يكتب يُلقونه، حتى تلاوته أولاً أولاً يؤمنون به، ومن يكفر به
فأولاً أولاً هم أنفسهم [البقرة : 25] وأي خسارة بعد خسارة الإنسان. أعظم آلها
الله على الناس في هذا الوجود (1).

إن المساموات الرخصية على العقيدة الحقة لا تفيد شيئاً. ولا تحقيق هدفاً، وإن

(1) في ظلال القرآن 1/ 108.
ففي كل ذلك عبارة للأجيال، كما قال تعالى: "لقد كارب في قصصهم غيزة لا أولى الألفاب ما كارب حديثا يفتحك ولبعين تصديق اللذي بين يديه وتفصيل صكيل شئ وهمة ورحمه لقوم يؤمنون" (بوفس). وإن تلاوة كتاب الله ينبع عن تكون بديع وفهم وإيمان، ولا مجرد التلاوة، كما قال تعالى: "أفلا يبديرون أمرا على قلوب أقفالها" (عمد) وقال: ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب.

والفائدة المشورة من القرآن هو العمل به، فهو كما تثبت في الحديث الصحيح: "القرآن حجة لك أو عليك" ومن يتل القرآن وهو معرض عن آياته والعمل به يكن كالمستهزئ بريه. أما الأمه فعليه السوأ العلماء لشرح معنى القرآن، وإفهامه. مراده: فاستعنا أهل الذكر إن كنت لا تعلمون" (النحل) (1).
3- الهدى والبيانات

«إن الذين يكثمون ما أنزلنا من ال鼹تنت وأهدىهم من بعد ما ببنته للناس في الكتب أولى بعليهم الله ويعيمهم اللعنون {116} إلا الذين تابوا وأصبروا وثبنتوا فأولى بعليهم وأولى بالثواب الرجيم {117} [الجسر]»

سبب نزول الآية (159) وما بعدها:

نزلت في علماء أهل الكتاب، وكمانهم آية الرجم وأمر عماد. روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن معاذ بن جبل وسعد بن معاذ وخارجة بن زيد سألوا نفا من اليهود عما في التوراة من ذكر النبي {74} فكتبهم إياهم. فأنزل الله هذه الآية.

المناسبة من الآيات: كان تحويل القبالة في الآيات السابقة نعمة كبرى على المسلمين، إذ جعلتهم مستقلين عن التبعية لغيرهم. ومكانتهم من الإشراف على البيت الحرام لتطهيره من الشرك والوثنية. ووجهت أنظار المسلمين نحو مكة - قلب الجزيرة والعالم. ولما أثني الله على الصابرين، وكان الحج من الأعمال الشاقة المضنية للمال والبدن ناسب هنا ذكر الحج وبعض شعائره. وهي السعي في الصفا والمروة (الآية 158) لإقامة النعمة بالإشراف على مكة، والتذكير بأهميتها، وإقامة مناسك الحج فيها. وكل من الاتجاه إلى الكعبة، والسعى هو أيضاً إحياء لله إبراهيم {26}. فلا مسؤول بعدئذ لمعاندة أهل الكتاب والشركين في تحويل القبلة، ولا داعي لزرع الأحقاد والضغائن ضد المسلمين؛ الذين أمرهم الله تعالى بالاستعانة بالصبر والصلاة.

ولقد عاد القرآن الكريم إلى كشف موقف أهل الكتاب (اليهود والنصارى) في عاد النبي {74} ومعاداتهم إياهم، ولا سيما علماء اليهود وأحبائهم، وما تضمنته موقفهم من أنهم يعرفون النبي {74} كما يعرفون أبناءهم، وأنهم يكثرون الحق وهم يعلمون.

إن الذين يكثرون ويخفون ما أنزل الله - إما بعدم ذكر نصوصه للناس حين
الحاجة إليه أو السؤال عنه. كالبشارة بالنبي، وصفاته الموجودة في سفر التثنية. وإما بتحريف الكلمة عن مواضع حين التزجة، ووضع شيء مكذوب من عندهم مكانه، سواء في التوراة والإنجيل - جزاؤهم الطرد من رحمة الله، وغضب الله عليهم، ولفعنهم من الملائكة والناس أجمعين.

وحكمة هذا الجزاء: أنما أنزل الله من البنات والهدى، كان خير الناس. وهديتهم إلى الطريق المستقيم عن طريق إبادة الأدلة الواضحة على صدق محمد، وتبان حقية أمره ووجوب اتباعه والإيمان به، فإذا كتموا ما أنزل، وحجوا الحقائق عن الأعيان، وأوقعوا الناس في ضرر جسيم عميم، وعظموا الكتب السماوية، وفوتوا ما تأتيه من طم وعيا سطية مرجمة منها.

والآية عامة في كل كاتب ومكتوم، يحتاج الناس إلى معرفته في أمر معاشهم وعبادهم، ومنه كتمن العلم الذي فرض الله بيانه للناس، كما روى عنه أنه قال: "من سئل عن علم يعلم وجهه فكلهم أجمع يوم القيامة بلجام من نار"; ولا عبرة بخصوص السبب الذي نزلت فيه الآية والمراد من قوله: "ما أنزلنا من آياتنا وآهذهب". كل ما أنزله الله على الأنبياء من الكتب والبريق والدلائل التي تهتدي بها العقول في ظلمات الخيرة.

والمراد من قوله: "بعد ما بَعِثَتْ لَدَيْنَا السِّنَّاتِ " وإما التوراة والإنجيل، والكتوم: ما جاء فيه من صفة محمد والأحكام، وإما الكتب المتقدمة وما بعدها وهو القرآن واستثنى القرآن من جزاء الكتمن السابق من تاب من أهل الكتاب وأصلح ما أفسده واعلن الحق المطروح في الكتاب المنزيلة، وأقر بنوبة محمد، وصدق ما جاء به من عند الله وأماة اللجام عما أنزل الله من غير تعرف ولا تبديل، وأصلح نفسه بصلاح الأعمال، فهؤلاء يتوب الله عليهم ويغفر لهم، ويدخلهم الجنة، لأن الله تعالى قال التوبة من غير حدود، رحيم بالمقبلين عليه ورحمة واسعة، يعفو عن المسمى، ويغفر زلة المخطئ ويفيض برحمته على المقصرين.

إذا أتباوا وتابوا ورجعوا إلى الله تعالى.
أما من ظل مصرا على الخطأ، معانداً عن قبول الحق، معرضًا عن دعوة الله في قرآنه، وعلى لسان نبيه ﷺ، وظل يغير ويحرف حتى مات. فهذا وأمثاله هم الذين كفروا بالله ورسوله وماتوا، وهم كافرون، لذا استحققا لعنة الله، وغضبه، وعنة الملائكة والناس أجمعين. وكانوا خالدين في النار خلودا دائمًا، لا يخفف عليهم العذاب، ولا هم يهلون، فهم ماكثون في تلك اللعنة الشاملة على طريق الدوام، حتى يردوا النار، ويتلون في عذاب جهنم، لموتهم وهم كفار.

وفي بيان موقف التائبين والمعاندين ترغب في التوبة عما فرط الإنسان من الذنب، وحث على ترك العناي، وإبعاد البأس من رحمة الله قبل هجوم الموت. كما قال تعالى: ﴿قلِ يَعِبَادَيْنِ الَّذِينَ أُشْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْتَطُوا مِنَ رَحْمَتِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الْذَّنْبَۖ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر) (1).
الهدى والرحمة للمؤمنين

في نبئيه بالله عز وجل في الصدر: "فكل بفضل الله وبرحمته، فذللك فليفكرهوا هو خير مجتمعون".

معنى القرآن فيه ما يتعذر به من قراءة وعرف معناه، والوعظ في الأصل: هو التذكير بالعواقب، سواء أكان بالترغيب أو الارتداء، والوعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضره. ومن في "فكل بفضل الله وبرحمته، فذللك فليفكرهوا هو خير مجتمعون" فتكون إبتدائية، أو متعلقة بمجرد فتكون تبعية.

كيف أن لهما في الصدر، ويشاهده على تزيف العقائد الباطلة، والهدى: الإرشاد لم ولك الآمر من بعده القرآن وفكر به وتدبر معانيه إلى الطريق الموصى إلى الجنة، والرحمة: هي ما يوجد في الكتاب العزيز من الأمور التي يرحم الله بها عباده، فيطلبها من أراد ذلك حتى يئبه.

فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور، ثم أمر رسول الله ﷺ وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم، فقال: "فكل بفضل الله وبرحمته، فذللك فليفكرهوا".

والمراد بالفضل من الله سبحانه: هو تفضله على عباده في الآجال والعادل بما لا ي市の بحة الحصر والرحمة: رحته لهم.

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: فضل الله: القرآن، ورحمة:

الإسلام.

وروى عن الحسن، والضحاك، ومجاهد، وقادة: أن فضل الله: الإيمان.
ورحّمه القرآن، والأولى: حمل الفضل والرحمة على العموم. ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولاً أولاً.


موثقة فضل الله ورحمة في ذلك، أي: في مجيئهما في الفرح.


وقد أخرج الطبراني وأبو الشيخ عن أبي الأحوص قال: جاء رجل إلى عبد الله ابن مسعود وقال: إلى أخي يشتكى بطنه فوصف له الخمر، فقال: سبحان الله ما جعل الله في رجس شفاء، وإذا الشفاء في شيء من القرآن والعمل، فهما شفاء لما في الصدور، وشفاء للناس. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: إن الله تعالى جعل القرآن شفاء لما في الصدور، ولم يجعله شفاء لأمراضكم.

وأخرج ابن المنذر، وابن مردوخ عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى
النبي ﷺ قال: إني أشتكى صدرى، فقال: (اقرأ القرآن، يقول الله: وَشَفَيْنِ يَمَامًا في الصدور)، وأخرج البيهقى في شعب الإمام عن واثلة بن الأسقع أن رجلاً شكا إلى النبي ﷺ، وجع حلقه قال: (عليك بقراءة القرآن والعسل، فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء).

وأخبر أبو داود، والحاكم وصحبه، وأبي مردوية عن أبي قال: أقراني رسول الله ﷺ بالباء، يعني: الفوقية، وقد روى نو هذا من غير هذا الطريق.

وأخبر أبو الشيخ، وأبى مردوية عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: قُلِّ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴿ۚۚۚ﴾ قال: بفضل الله القرآن، ورحمه: أن جعلك من أهله.

وأخبر الطبراني في الأوسط عن البراء مثله من قوله.

وأخبر سعيد بن منصور، وأبى أبي شيبة، وأبى جریر، وأبى المنذر، وأبى حاتم، وأبى الشيخ، والبيهقى، في الشعب، عن أبي سعيد الخدري مثله.

وأخبر سعيد بن منصور، وأبى المنذر، والبيهقى، عن ابن عباس في الآية.

قال: بكتاب الله وبالإسلام.

وأخبر ابن جرير، وأبى المنذر، وأبى حاتم، والبيهقى، عنه قال: فضلهم الإسلام، ورحمه: القرآن. وأخبر ابن أبي شيبة، وأبى جرير، وأبى المنذر، وأبى حاتم، والبيهقى، عنه أيضاً قال: بفضل الله القرآن، ورحمه، حين جعلهم من أهله. وقد روى عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدمة.

وأخبر ابن جرير، وأبى المنذر عن ابن عباس: (هو خير مما يجمعون من الأموال والحرث والأنعام)۱.

۱) فتح القدر ۱۱ / ۵۱۶ فما بعدها.
5- إيمان الجن بالهدي

وأنتَ طالس أن لن تُعجز الله في الأرض ولن تُعجزه هرَبًا وإنما سمعنا
أهدينا عِباداً بَعْدَ قَمْنَ يُؤومُون بِرَبِّهِمْ فلا يَخاف فنَّاسا ولا رَهَقًا [الجن] [الجن]
هاتان الآيتان استكمال ومتتابعة للآيات التي أبدأت بها سورة الجن والتي أتينا
على شرح بدايةها في موضع آخر (11)، وما زال الحديث على لسان الجن الذي
استمعوا إلى كتاب الله تعالى ينادي في هذه الدنيا بعد أن جاء موعد نزوله على محمد
قل أوحي إلى أن أسمع نَفْرَ مِنَ السَّبَعِ يَقُولُوا إنا سَيِّئًا قَرَأْنا عَجَبًا وَبَدَى إِلَى
آرَشَد فَقَنَانِي بِهِ وَلَن نَّفَرَ بِرَبِّيَّ أنَّا أَحَدًا [الجن] [الجن]
ويعد السياق إلى هاتين الآيتين إلى حديث الجن. الذين خلقوا من نار ولا
ندرى أشكالهم ولا أعمالهم إلا مساكنهم إلا أنهم هبطوا إلى الأرض مع آدم
وجواه زعيمها منهم ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون، وطال الحديث عنهم
في بداية السورة، وتلقيلهم القرآن الذي أعطوه صفة ما أعطيت له في كل المواقع
التي ذكر فيها في هذا البحث فقُلُوا إنا سَيِّئًا قَرَأْنا عَجَبًا. عادوا في هاتين
الآيتين للحديث عن علاقتهم بهذا الكتاب والذي اتخذ صفة الهدى عندهم هذه
المرة عادوا ليساءوا بينهم عن العلاقة التي تمت بينهم وبين هذا الكتاب العجيب
بل أكثر من هذا قَرَأْنا عَجَبًا.

وأنتَ طالس أن لن تُعجز الله في الأرض الحديث هنا أنهم يمكن أن يفعلوا شيئا
في هذا الكوكب بعد أن هبطوا إليه أنهم يمكن أن يخرجوا عن سلطان الله تعالى بعد
أن هبطوا مع مثلي الإنسان أو أبي أو البشرية (آدم وحواء) ليتعاونوا معا في بداية
الخلق - هم من نار - والإنسان من تراب - ظنوا أنهم قادرون على أن يعجزوا الله

(11) انظر: فصل القرآن الكريم رقم 41 (القرآن هدى للجن كما للإنس).
في الأرض، لما أعطوا من طاقة في بداية الخلق... وهم من تلك النار التي تأكل الأخضر واليابس على سطح الأرض، والتي منحها الله تعالى لهذه المخلوقين، ومن ثم جعلها هي مأوى الكافرين من الإنسان والجinn، والذين سيكونون في مآفس حطبا لها... كما تشير كثير من الآيات التي تحدثت عن الإنسان والجinn في هذا المضمار، قوله تعالى: "وقد دارنا ليجنهم كثيرا في الجinn وإن الإنسان لم يقربابه إلا أولئك كالأعنام بين هم أصل أولئك هم الذين نغلب " (الأعراف) وغيرها. ولكن جعل الله تعالى شهابا رصدا من يحاول من الجinn أن يخرج من هذه الأرض، أو يستمع إلى خبر السماء فظن بذلك الجinn أنهم يمكرون أن يعجزوا الله تعالى بمحاولة هروبهم من هذه الأرض " إلا من أشرك آمنا آمنا"
(الحج). قوله تعالى: "فمن يستمع آمنا آمناhooks لَهُ شِيَائِبُ رَضَى"
(الجinn).
ثم عادوا واستدركا أمرهم وعرفوا موقعهم في هذه الدنيا "وما خُلِقَت أَلْجِنَّ وَالإِنْسَانِ إِلاِّ ليُعْبَدَونَ إِلَيْهِ" (الذاريات). عادوا في هذا الموقع الذي عرفوا أن القرآن الكريم هو الهادي لهم كما هو الحال بالنسبة للإنسان، فاعتبرهم وإيمانهم به في مطلع السورة التي سميت باسمهم ورقهم (72) عادوا إلى رشدهم ليؤكدوا إيمانهم بهذا القرآن "وأَنَّا لَمَّا سُمِّيْنَا الْأَهْدَى أُنَفِّيَتْ مِنْهَا" أي سمعنا القرآن الذي من صفاته الهدى وبعد أن علمنا بسماعهم القرآن في مطلع السورة، عند سماعهم لهذا اهدى من ريبهم قالوا: "فَقَاتَمْنَا بِهِ" إذا فقد أكدت هذه الآيات أن القرآن الكريم هو هداية الجinn، وليس هناك كتاب آخر نزل إليهم، وإن شموهم في كثير من الأماكن من الإنسان في قضايا الإيمان بالقرآن الكريم والضلالة المشتركة، والإيمان المشترك بينهم وبين الإنسان أكدوا الإيمان باهدى "فَمَن يُؤْمِنُ بِهِ " فلا يخفى نعضا ولا رُهقا" وهنا يتحولون إلى الاعتراف الكامل، والانتقاد الكامل، ومعرفة مآل المؤمنين بهذا القرآن فلا يخفى المؤمن "نَعْشَى وَلَا رَهْقَا" والبخش: النقش، بحش.
حقيقة يبخسه يخس إذا نقصه (1). والرهق، الكذب. قال الشاعر:

حلفت يمينا غيرة رهق
بالله رب محمد وبلال
ويقول أبو عمر: الرهق: الخفة والعربة وأنشد في وصفكرمة وشرابها
هنا حليب كأن المسك خالطه
يغشي الندامى عليه الجود والرهق
أراد: عصير النعن.

والرهق: جهل في الإنسان وخفة في عقله (2).

وهذا المدى من القرآن الكريم فلا يخف كذبا ولا تقصا ولا خفة ولا جهالة
وخفة في عقله، وإنما يتلقى الجزاء الأوفي من ربه عز وجل، وبذلك فقد أكدت
الأيتان إيمان «الفئة من الجن» التي سمعت القرآن العجب فأمنت به، وعادت
لتأكد أن الإيمان هو الطريق الأمثل للوصول إلى مرضاة الله تعالى.

(1) لسان العرب: ابن منظور ۶ / ۱۲۴.
(2) لسان العرب ۱۰ / ۱۲۸.
فصل
الذكر
1- ذلك نتدوا عليك من الآيات والذكر الحكيم.

وردت في فصل الآيات تحت رقم 4.

2- إنا نحن ننزل الذكر وإننا له لحافظون.

وقالوا: يأيوب بن مزلف الذي نزل عليه الذكر إن ذلك لمجنون لا مما تأتيتنا بالملكيَّة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملوكية إلا بالحق وما كنا إذا منظرين وإنما خُنِّن نزلنا الذكر وإننا له خُفَّفُونَ [الحجر].

سبب نزول هذه الآيات:

قال قطادة: القائلون هذه المقالة هم: عبد الله بن أبي أمية، والضر بن الحارث ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة من صناديد قريش...

والناسية: بعد أن بَلَغ الله تعالى في تهديد الكفار، ذكر شهبتهم في إنكار نبوة محمد ﷺ، وإساءتهم الأدب بوصفه بالسفاحة والجنون، ثم ذكر أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء على هذا النحو. فلك يا محمد أسوة بالأنبياء في الصبر على سفاهتهم وجهالتهم.

يخبر الله تعالى في هذه الآيات عن بعض مقالات المشركين وشبهاتهم الصادرة عن كفرهم وعنادهم، فقالوا استهزا وتهكما: يا أيها الذي تدعى نزول القرآن عليك إنك متصف بالجنون، حينما تدعونا إلى اتباعك، وترك ما وجدنا عليه آباءنا فلا تقبل دعوتي...

لَوْ مَا تَأتيَنا بِالملْكِيَّةِ لَوَكَنت مَا تَدعَىَ حَقًا وَصَدِقًا، قَهْلَا تَأتيَنا بِالملائِكَةِ يَسْهُدْونَ لَكَ بَصِدَاقٌ وَصَحَةٌ ما جَنِتَ بَهْ، يَوْدُونَكُمْ فِي إِنذَارٍ كَثِيرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

لاَ أَنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فِيْكُورٌ مَعَهُ، ثُمَّ ذُبِّرْتُ [القرآن: 7] وقال: وَقَالُ الْأَنْبِئِينَ
لا يرجوع إلى أهلنا في بني إسرائيل أو أنزل عليهم المللية، أو نزى زملاً، لقد استفبروا في أنفسهم وتغفل عن كانوا كبيرين (4) [القرآن].

فأجابهم الله تعالى عن المقالة الثانية بقوله: "ما ننزل المللية إلا بالغ، أي لا ننزل الملائكة إلا بحق وحكمة ومصلحة نعلمها، ولا حكمة في أن تأتيكم عيانا تشاهدونهم ويهدرون لكم بصدق النبي، لأنكم حيتن مصدرون عن اضطراب وهم من غير جنسكم ولا على صوركم فيتبس الأمر عليكم إذ لكل جنس هاد من جنسه، كما قال تعالى: "لا تباهوا كم أهلينا من قبلهم من قرنى مكنهم في الأرض ما لم نتمكن لكم أشرسنا السماوات عليهم مكنارا وجعلنا الأنهر نجري من تحتهم فأهللكنهم بدنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين" (الأنعام: 19).

وما كانا إلا منتظرين أي: ولو نزلنا الملائكة لكان ذلك إنزالا لله ما والملائكة وما أخر عنهم الذنب ساعة لأن سنتنا إذا أنزلنا آية كما يتخرج الناس ولم يؤمنوا بها، اتبعنا ذلك بعداء الاستحصال، فكان في إنزال الملائكة ضرر حقق لهم، لا نفع (1).

ثم أجابهم الله تعالى بقوله: "إنا خن زنالا الله، وإننا له خفظون" في هذه الآية الكريمة عنوان التحدي الكبير لبني البشر، ولكن يؤدمنو من الجن على مر الأزمان مختلف الأماكن، وإن الله تعالى أنزل الكتاب وأنزل الصحف وأرسل الأنياء، وأوكل للأخلاق حفظ هذه الأمانة، فأضاها أولئك، أضاعها أحبار اليهود، أضاعوا التوراة وغيروا وبدموا تقصيهم ورغباتهم، وأضاها رهبان النصارى وقساوستهم، ولم تبق منهم إلا الذين وصفهم الله تعالى. لكن أصول الكتب المقدسة ضاعت، وتداول الناس والأئمة ما تغير وتبديل. ولهذا فلم يبق فيها إلا أقوال واضيعها من الذين اتنتموا على ذكرها فضيعوها، ولكن الله تعالى في هذه الآية الكريمة "إنا خن زنالا الله، وإننا له خفظون" أكد الحقيقة الكبرى الخالدة بأن هذا القرآن الكريم تنزل من الله جل وعلا. لم يفره محمد، ولم ينه عنه قوم آخرون. كما ورد في كثير من الآيات التي بطل دعوهم تنزل (1) التفسير المنير 14/15 16/16 | 14}
من الله عزوجل، فلا مراء ولا كذب، ولا تصور يذهب بنى الإنسان شرقاً أو غرباً. الحقيقة الكبرى الخالدة أنه منزل من الله تعالى، وكان يكفي هذا ليصدق الناس، ولكن الله جل وعلا قد وضع التحدي المطلق في الجزء الثاني من الآية 

وَإِنَّكَ لَخَيْطٌ ۗ

التحدي الذي تثبت وثبت إلى يوم الدين. لقد مر على هذا التحدي زهاء وخمسة عشر قرناً. تقلبته الدنيا، وسادات أمم وضاعت شعوب، وغاب الإمام وساد الكفر، وعلا الإمام وحق الكفر في صراع مستمر دائم لم ينته حتى هذا اليوم، ولن ينتهى إلى يوم الدين، فالجهاد ماض إلى يوم القيامة، في هذه الأيام ساد الكفر والضلالة والشك والعلمانية، والإخاد، وسادات الهجمة الشرسة ليس على الإسلام فحسب بل على الأديان الأخرى. علت اليهودية التي سخرت النصرانية خدمتها. وعلت النصرانية أيضاً، وسخرت فيالق ودولاً من المسلمين لسماحتها، وانهزم المسلمون، وتشتتوا وتفريقوا، وتبادوا وتتاروا، وتركوا قرائتهم.

ومع هذا فإن التحدي قائم وفاز القرآن، ولم يجرؤ أحد على تشهيه، أو على تحرشه، أو على تغييره، مع العدد الهائل من المسلمين (غناه كناء النبل، والذين يتلقون جميع رسائل الاختراق والإبداع من أعدائهم الذين أذهب الله من نفوسهم خوف المسلمين، وألقى في قلوب المسلمين الوهن - (وهو حب الدنيا وكرامته الموت) إلا أن القرآن شيء آخر، حاول الأعداء منذ بداية الصراط في مكة وحتى اليوم، كل الجهودهم وكل أفكارهم، وكل مكائدهم. لكن القرآن أمر آخر...
نعم حاولوا. ففشلاً.

فهذا القرآن الذي بين أيدينا هو ما تداوله المسلمون على مدار تاریخهم وتدارسه وتفننوا في علومه وتفاسيره، وما تلاته محمد صلى الله عليه وسلم. حافظ عليه الصحابة جميع وسائلهم المتاحة الذهنية والقلبية، وما أنزله جبريل على محمد منجماً متفاوتاً في ثلاث وعشرين سنة. وهو القرآن الذي مامسه إلا المظهرون - الملائكة الأبرار، الذين حلوهم من السماء السابعة إلى السماء الدنيا في
ليلة هي خير من ألف شهر .. هو نفسه برتيبه وألفاظه، مقاطعه، وأجزائه،
ومن ثم فهو المعبد به برسمه العربي، مع أن معانيه قد ترجت إلى لغات الدنيا
كلها، ويختلف مشارب المترجين لكنهم جميعا لم يتجاوزوا الحدود الشرعية
المربطة به.

فهو محفوظ من الله تعالى .. والمدين .. واليوم .. وقبل اليوم .. وبعد اليوم .. خفور بصدور
الملايين من المسلمين من أطفال لا تتجاوز أعمارهم الخامسة أو الرابعة من العمر.
إلى الذين يفوقون الحياة في كل حزوة .. نعم في قلب الملايين من المسلمين وجيعا
يرتلونه ترتيل .. لا خلاف في لفظ، أو حركة، أو معنى .. إنه هو القرآن صاحب
التحدي القائم الذي لا يقف عند حق، ولا سؤال عن نوع المحددين من الإنسان أو
الجنة كانوا.

ثم إن التعبد بلفظة العربي محفوظ في صدور أكثر من مليار ونصف يتفاوت
حفظهم بين القرآن كله، أو الجزء المطلوب منهم، أو الذي تمكنوا من حفظه،
ومن ثم فما من مسلم في الدنيا إلا يحفظ فائحة الكتاب، وبذلك فقد حفظه الله
 تعالى في صدور جميع المسلمين كاملا أو مجزوءا. عدا من يحفظه من غير المسلمين
والدارسين في العالم.

القرآن الكريم: أصدق كتاب وأصوب كتاب، والكتاب الوحيد في الدنيا
الصحيح في جميع الأخلاص من الناس الذين يتداولونه.

القرآن الكريم: أكثر كتاب مطبع في الدنيا على الإطلاق على الرغم من أن
النصارى أكثر عددًا من المسلمين، والصينيون يعادلونهم، والهندوس والوثنيون .. كل
ليس لكتبهم المقدسة إلا مكانة محدودة جدا تجاه كتبهم التي يقدسونها.

القرآن الكريم: أكثر كتاب يقرأ في الدنيا على مدار الساعة ودورة الأرض
ودورة المجموعة الشمسية .. ولا يدانيه أو يناعيه كتاب أو كتب أخرى مهما
كثر.

القرآن الكريم: أكثر الكتب المكتوبة في المساجد والزوايا والمناصب والآثار
القرآن الكريم: الذي لم تشبه شائبة.. وإن وجدت الشوائب تتلف وتحرق إن وجد بها شبة أو محاولة من عدو، فلله حفظه والله أنزله، والله على كل شيء قادر.
القرآن الكريم: في مليارات المسجلات الصوتية في العالم كله ما غلب المسلمون على بلادنا، وحتى في البلاد الذي يستعطف فيها المسلمون، أو في أي مكان وجد المسلمون فيه بعلهم.
القرآن الكريم: أكثر كتاب يحمل الناس في هذه الساعة وفي أي ساعة من نهار أو ليل على مدار العالم.
هذا هو القرآن الكريم.. قدر الله - تعالى - لى على مر العصور دارسين، علماء ومفسرين، كتاب، وخطاطين، وباحثين، وحافظين، وحافظات، وما لا يخطر على بال الناس حتى إن المسلم تراه مرتاحا بعيدا لهذه الصلاة العظيمة القوية بهذا الكتاب العظيم: إن هذَا القرآن يهدى أي الأقوم... واشترروا به آخريهم، ولم يشر أحد به دنياهم، في عالم اليوم في ديار المسلمين أو دور غيرهم وما هذه الدراسة المتناطرة إلا مساهمة صغيرة جدا في عالم الدارسين والمساهمين ونعوذ بالله أن نتمكن من الوصول إلى أي مجال إحصائي لهذا الكتاب.
2 - أسألوا أهل الذكر

هلِّ بنَظُورْنَ إِلاَّ أن تَبْتِهِمُ اللَّهُمَّةُ أو يَقْبَلَ أُمَّةً رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ اللَّهُ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَّمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسُهُمْ يُظْلِمُونَ فَاشْتَهَى نُورَهُمْ مَا عَمِلُوا وَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانَوا يَشْتَهُونَ أَتَاهُمْ "*(الحل)*.

في خضم الصراع المحتم بين المشركين والمسلمين، كانت أساليب وقضايا طويلة ومعقدة، يأتي بها الكفار برسالة الإسلام ليصدوا الناس عن ذكر الله، فإن كان الأمر يتعلق بالسادة وآلة القوم، فإنهم ينكرون الرسالة على محمد، ويذرون أنهم هم الأحق بها، وإن كانت القضايا تتعلق بالعقيدة والتوحيد فإنهم يعجبون أن يجعل محمد الله إلها واحدا، وإن كانت تتعلق بالمستضعفين من المؤمنين الذين آمنوا بالله تعالى وصدقوا رسوله آذواهم وأهانوهما. وله عزوجل لهم بالمرصاد، يجزيهم على أفعالهم.

والأمر الأخطر في هذا هي قضية النبوة، إذ إن القوم أنكروا ذلك، واعتقدوا أن النبوة مرتبطة بالملائكة، على الرغم أنهم يقررون ويعملون نبوات سبقت وجاوروا اليهود في شمال مكة في يثرب، وجاوروا النصارى في نجران، واطلعوا بتراحم التواصل إلى نصارى الشام أيضا وتعاملوا معهم، وعرفوا ربهانهم وتقبيسيهم، وبعضهم سواء في مكة أو المدينة قرأ كتب أهل الكتب وبعضهم تنصر مثل سفقة بن نواف، مع التحفظ على نصارته - لكن أبا عامر الرهاب من الأوس من يثرب تنصر وتابع ملة الغساسنة في الشام، كما أن قبائل كثيرة تنصرت أمثال تغلب وطيف والغساسنة وغيرهم ينكرون ذلك على أن محمد يكون نبيا، وليس نبيا أو رسولا كما سيحكم من الأنبياء والمرسلين الذين أرسلوا إلى أقوامهم، فإن محمد رسول للناس كافة بنذيرا وشيرا، وبذلك فإن الله تعالى يجيبهم بآيات بينات واضحة على ادعاءاتهم المختلفة وأراهم التنافسة المختلفة.

يقول الزحلبي: وأخرج عبد بن عبد ربان جرير وابن المنذر عن قتادة، قال: في هذه الآية: هؤلاء أصحاب محمد أهل مكة، فأخرجهم من ديارهم حتى
لمجاورتهم من أمور الحياة، ثم دعاهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها هم دار هجرة، وهما أنصارًا للمؤمنين، وفي هذه الآيات ذكر الله تعالى الشهبة المتعلقة بمنكرى النبوءة الذين قالوا: الله أعلم وأجل من أن يكون رسوله واحدًا من البشر بل لو أراد بعثه رسولًا إلينا لكان يبعث ملكا - وهذه حجة قيامة واهية - استخدمها قوم نوح بقوله تعالى: «وَلَقَدْ أُرْسِلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ»، فقال «يُقِيمُونَ أَعْبُدُونَ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرَهُ مُبِرَّةً»: فأما الذين كفرugaً من قومه، فقد قال: «فَقَالُ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّ هَكُمْ أَسْيَرُونَ»: فقد قال: «إِنَّ هُوَ الَّذِي نُزِّلَ مِنْهُ وَلَا غَافِرَ لِمُؤَذِّنِهِ فَتَحَبَّسُوا بِجِنِّيهِ»: (المؤمنون [1]) -

ثم أجاب عن هذه الشهبة بأن سنة الله تعالى - تعالى - وعادته أن يبعث رسولًا من البشر، وما أرسل الله من رسولٍ للناس من أهل السماء (الملاكية) وإلا أرسل رجالًا من أهل الأرض يروحي إليه أوامره ونواهيه، ثم توجه الخطاب إلى محمد ﷺ فيلم نرسل إلى قومه يا محمد إلا كما أرسلنا إلى من قبلهم من الأمم، أي رسولًا من جنسهم وطبيعتهم: «أَوْ يُقِيمُونَ لَكَ بِنَتٌ مِّنْ زَرْفِهَا أَوْ تَرَقَّيْتُ فِي الْكَمَا»، ولن يؤمنوا [الإسراء]: «فَلَوْ اِنَّمَا آتَيْنَاهُ مِنْ بَعْضِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَبْنِىَ مِنْ بَعْضِ الْإِنْسَانِ أَيْنَ أَنْفُضُّ الْقَبْلَ»: (الكهف).

قال ابن عباس: لما بعث الله محمد ﷺ رسولًا، انكرت العرب ذلك. وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله رسولًا بشراً فأنزل الله تعالى: «أَكَانَ الْكَلَامُ عَجَبًا أَنْ أَوْحِيَ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرَ الْكَلَامَ آلِهَةٍ»، «فَسُلُوْنَا أَهْلَ الْذِّكْرِ» أي فاسلوا أهل العلم وأهل الكتب الماضية أبشارًا كانوا الرسل إليهم أم ملاكية؟ فإن كانوا ملاكية انكرتم، وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد رسولًا: «بَيْنَتْنَا وَالْبَيْرُ» أي أرسلناهم بالحجج والدلائل التي تشهد لهم بصدق بيوتهم، وبالكتب المشتملة على التشريع الرباني.

(1) ما بين معترشين زيادة عن المرجو.
والزبر: جمع زبور أي كتاب. تقول العرب: زبرت الكتاب: إذا كتبته. قال تعالى: "وَلْقَدْ كَسَبَّبَنَا فِي الْزِّبْرَةِ مِنْ بَعْضِ الْذِّكْرِ الَّذِي أَرْضَ أَرْضَكُمْ عَبَادًا")(النبط 36). وقال تعالى: "وَكَلِمَتْ شَيْءًا فَقَعُوْهُ فِي الْزِّبْرَةِ (النمل 65). وفي الآية "بِالْبَيْنَتِ وَالْزِّبْرِ" تقديم وتأخير، أي ما أرسلنا من قبلك باليمنيات والزبر إلا رجلاً: أي: غير رجال. فكلمه "إلا" يعني غير، كقوله: لا إله إلا الله.\\n\\n«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِّكْرْ» أي: وكما أنزلنا الكتاب إلى من قبلك يا محمد، أنزلنا إليك القرآن؛ لبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم من الشروائع والأحكام والحلال والحرام، وقصص الأمم الماضية التي أبدت وأهلكت لتذكيرها الأنبية لعلكم بمعنى ما أنزل الله عليك.\\n\\n«وَلْعَلَّهُمْ يَتَفَقَّرُونِ» أي: ومن أجل أن يفكروا وينظروا في حقائق الكون وأسرار الحياة وعبر التاريخ، فيهتدون ويفوزون بالنجاة في الدارين.\\n\\nوبد اسم القرآن والكتب المقدسة السابقة المنزلة على الأنباء والرسل السابقين بصفة الذكر فقال تعالى: "فَسَلُّوا أُهُلَ الْذِّكْرِ«وهم: أهل الذكر» وهم: أهل الكتاب المعروفة تسميتهم بهذا الاسم ذكرهم هنا بأنهم أهل الذكر، من التذكير والحفظ وإعادة الحفظات بالتذكر للعمل بموجهاً، كما أن الله تعالى توافقاً مع ذكر "أهل الذكر" قال: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِّكْرْ" أي القرآن الكريم المنصف بأنه خير وآكر وعظم وأنزل الله على البشر، وحفظه جل جلاله بنفسه فأبعد عنه يد التحريف والتحويل، فما زال وسيكون محفوظًا إلى يوم الدين بإذن الله وإقراره جل وعلا (1).\\n\\n---\\n\\n(1) أُلْهِفُ الْفَقرة‏‏ السَّابِقَة‏ رَمَضُ وَاحِد‏ (1) مِن هذَا الفَصْلِ.
الذكر الآتي من الله جل:

اقترح للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون  ما يأتي منهم من ذكرهم محدث إلا أسماءهم وهم يلقبون ولا هيبة قولاهم وأسرأوا النزوى الذين طمروا هم  هندا إلا أشتر ملجمهم أفتأتون البصر وانتم تبصرون قال ربي علم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم بل قالوا أضغقت أحلام بل أفترزته بل هو شاعر فليأتني بفدية حقا أرسل الأولون ما عاتيت قبلهم من قرية أهل كنها أفهم يؤمنون وما أرسلنا قبلك إلا رجالة نوى إليهم فسغلو أن أهل الذيكر إن كنت لا تعلمون وما جعلنهم حسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خليدين ثم صدقنهم الوعد فأجتيبه ومن نشاء وأهل كننا المسرين لقد أرسلنا إليكم سجينا فيه ذكركم أفتلا تغلبون (١) [الأنياب].

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، عن أبي إسحاق، سمعت عبد الرحمن بن زيد عن عبد الله، قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العقائد الأول وهن من تلادي.

هذه السورة مكية تعالج الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السور المكية موضوع العقيدة، تعالجه في ميادين الكبيرة: ميادين التوحيد والرسالة، والبعث، وسياق السورة يعالج ذلك الموضوع يعرض النوايس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها، فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون، يسير على نوايس الكورة، وهي تقوم على الحق الذي قامت عليه السموات والأرض، وعلى الجد الذي تدب به السماوات والأرض، ولست لعبا ولا باطل، كما أن هذا الكون لم يخلق لعبا، ولا يشب خلقه باطل وما خلقنا السماء والأرض وما بيئهما لعيينين (٢).

سميت سورة "الأنياب" لتضمنها الحديث عن جهاد الأنبياء والرسل من.

(١) تفسير القرآن العظيم - بداية سورة الأنياب ١٧ / ١٨١.
(٢) الظلال ١٧ / ٣٦٤.
أقوامهم الوثنين، بدءًا من قصة أيوب الأنبياء إبراهيم بإسهام وتفصيل، ثم إسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذئ النون، وبنيون، وزكريا، ويعسى إلى خاتم النبين محمد صلوات الله وسلامه عليهم، وذلك بإيحاز على ما تعرضوا له من أهوال وشدائد، فصبروا عليها، وضحوا في سبيل الله لإساع البشرية.

حديث صارخ للناس جميعاً، قبل: لكفار قريش، وقيل: للناس أجمعين.

إنذار بقرب الساعة والناس لاهون، والأهم في هذه الآيات العشر السابقة أن ذكر القرآن ورد في سياق الآيات بصفات الذكر. حيث أوردتها في هذا الفصل أفتونور للدحرة. ورب يعلم النقول. فأضفت أحلام بل أذقنه. فليأتنا بناءة. معجزة من غير القرآن الكريم. فنوح. إنهم. فشتلو أهل الدحو. وختتم ذلك بذكر القرآن ببامه: الكتاب بقوله تعالى: لقد أرسلنا إليكم كتبًا في ذكركم أصلع للعقول.

إن هذا التأكيد يوحي بأن الله تعالى قد جعل القرآن نذيراً وذكراً وفيه ذكر الأنيباء وأقوامهم وما أصابهم من عذاب لكي يفهم وصدهم عن ذكر الله، وهم يستمعون القول وهم يلعبون. وكما سلف فإن تسمية هذه السورة بأسماء الأنيباء عليهم صلوات الله وسلامه، والتذكير بما أنزل عليهم ليعين الناس أن عذاب الدنيا أهون كثيراً من عذاب الآخرة لكي كانوا يعلمون.

سبب نزول الآية (1): ما أمت قلبههم من قرية أهلكنها أقومهم قبّلهم.

أخرج ابن جرير عن قتادة قال: قال أهل مكة للنبي ﷺ: إن كان ما تقول حقًا ويسرك أن نؤمن، فحول إلينا الصفا ذهباً، فأتاه جبريل، فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان، ثم لم يؤمنوا، لم ينظروا، وإن شئت استأنت بقومك، قال: بل أستأني بقومي. فأنزل الله: ما أمت قلبههم الآية. (1) التفسير المنير 17/5
روى أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان بنى جداراً، فصر به آخر في يوم نزوله هذه السورة فقال الذي كان بنى الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخر: ﴿اقترحب للناس حسابهم وهم في غفلة مغرضون﴾ فنفض يده من البيان وقال: والله لا يثبت أبداً وقد اقترب الحساب.

وفي الآية دليل على قرب القيامة، إذا قال فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس: ﴿بعثت أنا والساعة كهاتين﴾. ثم استدل الله تعالى على غفلة الناس، فقال: ﴿ما يأتيهم من ذكرٍ من ربيهم محدثٍ إلا استمعوا وهم يلعبون﴾ لآية قلوبهم؟ أي ما يأتي أولئك الكفار من قريش وأشباحهم من قرآن جديد إنزاله. ينزل سورة سورة، وآية آية على وفق المناسبات والوقائع، إلا استمعوه، وهم لاهمون، ساخرون مستهزؤون، متشاغلون قلوبهم على التأمل وتفهم معناه.

وهذا ذم صريح للكفار، وجزر لأمثالهم عن تعطيل الانتفاع بما يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة قوله ﴿محدث﴾ لا يوهم كون القرآن خلقاً، فإن الحروف المتنوعة بها، والصوت المسمع حادث بلا شك وأما أصل القرآن الذي هو كلام الله تعالى النفسي فهو قديم بقلم الله تعالى وصفاته القدسية.

ثم وصف الله تعالى موقف الكفار عند نزول القرآن فقال:

﴿واسروا الوجه الذين ظلموا هندي إلا بشر متلهم أفتناور الصحر﴾

и

فهم يستبعدون كون رسول الله ﷺ نبياً لأنه بشر مثلهم، والرسول لا يكون إلا ملكاً وأما ما أنى به من القرآن فهو سحر، وإنما أسرؤ الحديث بينهم في ذلك للتشاور في المخلص والتوصيل إلى أفعى الطريق هدم دينه.

فأجابهم الله تعالى عما اقتفوه واختلقوه من الكذب بقوله:

﴿قال ربي بعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم﴾ أي قال لهم...
الرسول بأمر الله مفتشحا أسرارهم: لا تخافوا ما تقولون. فإن الله ربي وربكم يعلم ذلك، لا تخفى عليه خافية من أمر السماء والأرض وما يحدث فيها من أقوال وأفعال، وهو الذي أنزل القرآن المشتمل على خير الأولين والآخرين وهو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم. وفي هذا تهديد ووعيد.
ثم أخبر الله تعالى عن تقضي الكفار وتعنتهم وإلحادهم، وحيرتهم وضلالهم، وتردهم في وصف القرآن وخلافتهم في ذلك. فقال:

» نُعَلِّمُكُمْ أَضْعَفْتَ أَحْلَمْ بَلْ أَقْتُرَنْهُ بَلْ هُوَ شَاعِرُ فَلِيَتَنَا بِبَيْانِ حُكْمَهُ أَرْسِلْ. (الأولون) «

أي أنهم وصفوا رسول الله ﷺ أولا بأنه ساحر، ثم انتقلوا إلى القول بأنه تخاطبه الأحلام التي يراها في المنام، ثم إلى أنه كلام مفترى مختلف عنده.
ولا تفرغوا من تعداد هذه الاحتمالات، وترد هذه المزاعم قالوا: إن كان محمد صادقاً في أنه رسول من عند الله وأن القرآن الموحي به إلى كلام الله فليتنا بآية جليلة غير القرآن، لا ينطبق إليها شيء من هذه الاحتمالات كالأيات المقتولة عن الأنبياء السابقين، ما يدل على أن تلك الآيات مسلم بها عندهم، وتحقق المقصود.
ثم أجابهم تعالى على هذا السؤال الأخير مفتندا كذبهم، ومشيرا إلى عدم إفادة الآيات المنزلة، بسبب إمعانهم في الكفر فقال:

» مَا آتَيْتُ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفْهِمُ فِؤُمُّوْرُ (9) أَيْ مَا آتَيْنا أَهْلَ قْرَيَّةٍ من القرى الذين بعث إليهم الرسول آية على يدئ نبيهم فآمنوا بها; بل كذبوا فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالأيات لو رأوها دون أولئك، والخلاصة أن عدم تلبية اقتراحاتهم هو في صالحهم؛ إذ لو أجابهم تعالى لما طلبا ثم بقوا على كفرهم وعندهم، المنزل بهم عذاب الاستنسل، إلا أن حكمة الله اقتضت تأخير العذاب عنيهم إلى الآخرة. وأما سؤالهم فهو سؤال تعت. والله يعلم أنهم لا يؤمنون. «
وما أرسلنا قبلك إلا رجلاً نوحي إلىهم فسألوا أهل الدّير إن كنت لا تعلمون (2) يرد الله تعالى على من أنكر بعثة الرسول من البشر بقوله: ومن أرسلنا قبلك أي أن جميع الرسل السابقين كانوا من البشر فسألوا أهل الذّكر أي إن كتب من كون جميع الرسول بشراً فاستأليه أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسول الذين أنتم بشرًا أو ملائكة؟ وإذا أحاكم على أولئك؛ لأن المشركين كانوا يشارونهم في أمر النبي ويتقون بقوهم ويتلقون معهم في معاداة.

وما جعلنا الأنباء ذو جسد غير طعامين كالملائكة، بل أجساداً يأكلون الطعام وما كانوا خلدين باقيين في الدنيا.

ثم صدقناهم الوعد فأخلصناهم أي إذاً نصون حياة الرسول وكراماتهم وصدقهم في الوعد الذي نعدهم به من النصر على أعدائهم وإنالاك الظالمين، ونجيهم ومن نشاء من أتباعهم المؤمنين بهم، ونهلك المكذبين لهم، المسرين على أنفسهم بالكفر والمعاصي، المكذبين بما جاءت بهم الرسل.

وبعد إثبات بشرية الرسول عليهم السلام للرد على المشركين الذين اعتقدوا بأن الرسالة من خواص الملائكة نبأ تعال على شرف القرآن وفضله ونفعه للناس وحُرّض على معرفة قدره فقال: لقد أرسلنا إليكم صَيْحَتًا فِي ذَكْرَكُم أَفَلَا تَتَعَيَّنُونَ (3). أي لقد أعطيناكما هذا القرآن العظيم المشتمل على دستور الحياة الإنسانية الفاضلة، فيه شرفكم وصيتكم وسمعتكم كما قال تعالى: وإنك لذُكْرُ لَكَ وَلَقَوْمِكَ،ً (الزخرف: 44)، أي أوفيها عظتمكم وتذكركم بمحاسن الأخلاق ومكارم الشيم، والأخذ بأيديكم إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة.

أَفَلَا تَتَعَيَّنُونَ أي أَفَلا تنبون أمركم، وتقدرون هذه النعمة وتتقونها
بالقول، وتتفكرن بما أشتمل عليه هذا القرآن من العظات والعبر فتأخذون بما فيه وتتجنبون ما حذرنه وما نهى عنه وفي هذا حث شديد على تبادل أحكام القرآن وعقل ما جاء فيه من أمور الدنيا والدين والحياة.

و فيما يختص بكتاب الله في هذه الآيات نستخلص:

١- الإعراس: هو الإمعان في بعد عن القرآن وترك آياته وعدم الإيمان بالله، بالرغم من الانتهاء من الغفلة والجهالة.

٢- لقد عطل كفار قريش مفاتيح الهداية والانتفاع بنور القرآن، وهزروا وسخروا من آيات الله التي تأخذ بيدهم إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

٣- احتج المعتزلة على حدوث القرآن بقوله تعالى: "ما يأتهم من ذو حكمة من ذكر محدث" فقالوا: القرآن ذكر والذكر حديث، فالقرآن حديث. ورد عليهم أهل السنة: بأن المصوس بالإحداث هو ما يسمع من حروف القرآن وأصواته فهذا حادث لا شك، أما القرآن الذي هو كلام الله تعالى فهو قديم بقدم الله تعالى وصفاته الحسنى.

٤- إنما أتي به الرسول ﷺ من القرآن وغيره لا شيء فيه ولا تلبس، وليس فيه شيء من ظواهر السحر، فقد تحقق ﷺ بالقرآن، فلم يأتوا بثبه، دل ذلك على كونه معجزة في نفسه.

٥- إن القرآن الكريم سبب لرفعتة شأن العرب؛ لأنه نزل بلغتهم، وفيه أحكام الشرع، وبيان مصير الناس في الآخرة، وما يلونه من ثواب وعقاب.

وهو أيضاً عزة وعمرة، يرغب ويبشر، ويحذر وينفر، ويأمر وينهى، ويرشد إلى مكارم الأخلاق ومحلسن الأعمال، ويوضح ما في سعادة الدارين، ويرشد البشرية كافة إلى اتباع النظام الأصلي، ويبحث القرآن الكريم دائماً على تبادل ما جاء فيه من أحكام، ويفهم ما تضمنه من نظام سديد في الدين والدنيا والأخرة.

(1) التفسير المنير ١٧/٥٠٢- بتصريف وتقديم وتأخير.
5- ذكر للمتقدمين

ولقد قال أيضاً موسى وهرون القرآن وصياء وذكر ثمانيتُهم
المختلفة في غريب وهو من الشكاسة المستفقويتين. وهذا ذكر مبارك أنزلتهُ

أفيانك له مبارك لُونك (الأنبياء).

المناسبة: بعد أن أمر الله تعالى رسوله  أن يقول لقومه: "إِنَّمَا أَنْزَلْنَا
بالوحي" (الأنبياء: 44) أتبعه بيان أن هذه سنة الله تعالى في أنبيائه فقد أنزل
الوحي عليهم ليكون ما تضمنه من الشريعة والأحكام سبباً لحياة البشر.

وبد أن آبان تعالى أنه تعالى الموتى، والنهج والمعاد شرع من التذكير بخصوص الأنبياء
عليهم السلام تسلية لرسوله  فيما يناله من قومه، وتقوا لقلبه على أداء الرسالة
والصبر عليها. وهذه هي القصة الأولى - قصة موسى وهارون عليه السلام -
في سياق السورة أن المشركين كانوا يستهفوون بالرسول  لأنه بشر، وأنهم كانوا
يذلون بالوحي، ويقولون إنه سحر أو شعر أو افتراء.

فما هوذا يكشف لهم أن إرسال الرسول من البشر هي السنة المطردة؟ وهذه
غذاء للذين من قبل، وأن نزول الكتاب على الرسول ليس بذعة مستغربة لها حسب
موسي وهارون آنذاك الله كتبًا.

ويسمى هذا الكتاب "القرآن"، وهو اسم من أسماء القرآن الكريم، فهناك
وحدة حتى في الاسم ذلك أن الكتب المتعلقة كله فرقان بين الحق والباطل، وبين
الهدي والضلالة، وبين منهج في الحياة ومنهج، وإتجاه في الحياة وإتجاه، فهي في
عمومها فرقان وفي هذه الصفة تلتقي التوراة والقرآن.

وجعل التوراة كذلك "ضياء" يكشف ظلمات القلب والعقيدة، وظلمات
الضلالة والباطل، وهي ظلمات يحار فيها العقل، ويضلل فيها الضمير، وإن
القلب البشري ليظل مظلمًا حتى تشرق فيه شعلة الإيمان، فينير جوانبه، وينكشف
له منهجه ويستقيم له اتجاهه، ولا تختلف عليه القيم والمعاني والتقديرات.
وجعل التوراة كالقرآن "وَذَكَّرْنَا لِلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ نُورًا تُذَكِّرُونَ بِهِ" تذكرهم بالله، وتبقي لهم ذكرا في الناس، وماذا كان بنو إسرائيل قبل التوراة؟ كانوا أذلاء تحت سياط فرعون، يذبح أبناؤهم، ويستحي نساءهم، يستخدمون بالسخرة والإيذاء. وخص المنتقين الذين تخشون" زِبْهَمْ بِالْقُرْبَى" لأن الذين تستشعر قلوبهم خشية الله ولم يروه "وَهُمُ ٱلشَّعَآءُ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْبَيْنِ قَلْبَهُمْ ٱلْقَبْلَيْنَ" فيعملون لها، ويسعد هؤلاء الذين يتنفرون بالضياء ويسيرون على هداه، فيكون كتاب الله له ذكرا، يذكرهم بالله ويرفع لهم ذكرا في الناس.
ذلك شأن موسى وهارون، "وَهُنَا ذَخَرُ مُبَارَكٍ آنَّ لَهُمْ فَلَيْسَ بِدُعُوا وَلا عِجْبًا إِنَّمَا هُوَ أُمَرٌ مُبَارِمٌ وَسَنَةً مُعْرُوفَةً أَفَإِنْمَ أَهْلُهُ مُنْتَكِرُونَ"، فماذا تنكر من شيء وقد سبقت به الرسائل.  
واشتملت الآيات على بيان الهدف الجوهرية منها: وهي التعجب من إنكار العرب للقرآن، وهو كلام الله تعالى، بدليل أنه معجز لا يقدرون على الإتيان بمثله ولا يأتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزل من حكيم حميد.

(1) التفسير المنير 17/68، 71.
(2) في ظلال القرآن 17/2384.
من اتباع الذكر وخشى

(1) التفسير المثير 22 / 295 ـ 296.
أما نفع الإنذار فهو كما ذكر تعالى: "إِنَّما تَنْذِرُ مِنْ آتِيَّتٍ عَلَيْكَ وَحِشَاءٍ أَرْكَمْنَينَ بِغَيْبِكَ فَبِغَيْبٍ وَأَحْرَرُ سَكَرِيمٍ" أَي إِنَّما يَنْذِرُ إِنذَارُكِ الَّذينَ آمَنوا بِالإنذار العظيم، واتباعًا أحكامه وشرائعه، وخافوا عقاب الله قبل حدوثه ومعابه أهوائه، وخشيوا الله قبل رؤيته، فهؤلاء بشرهم بعفرة للموتين، ورضوان من الله وأجزم وتعيم مقيم هو الجنة، ونذير الآية: "إِنَّ اللَّهَ يَخْشَوْنَ رَبُّهُم بِغَيْبٍ لَّهُمْ مَغْفُرَةٌ وَأَحْجُرُ كَبِيرٍ" [الملك] (10) «وَسُوَّاهُ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتُهُمْ» الآية رد على القدرية وغيرهم. وعن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القدرية فقال: يا غيلان، بلغني أنك تتكلم بالقدر. فقال: يكتبون على يا أمير المؤمنين. ثم قال: يا أمير المؤمنين، أرايت قول الله تعالى: "إِنَّا خَلَقْنَا آئِنَّا إِلَّا السَّبِيلِ إِنَّا شَاكِرًا إِنَّا كُفُورًا" (6) فقال: اقرأ يا غيلان، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: «فَمَنْ شَاءَ أُعْزِزَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» (7) فقال: اقرأ. فقال: ما تشكلون إلا أن يشاء الله فقال: يا أمير المؤمنين، إن شعرت أن هذا في كتاب الله قط. فقال: يا غيلان اقرأ أول سورة يس، فقرأ حتى بلغ قوله تعالى: "وَسُوَّاهُ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتُهُمْ أَمَّا لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" (8) فقال غيلان: والله يا أمير المؤمنين كأنى لم أرأى قط قبل اليوم؛ أشهد يا أمير المؤمنين أنى تائب. فقال عمر الله إن كان صادقا فتب عليه وثبته. وإن كان كاذبا فسأله على من لا يرضيه واحجّه آية للمؤمنين. فأخذه هشام بن عبد الملك فقطع يده ورجله وصلبه. قال ابن عون: فأنا رأيته مصلوبا على باب دمشق، فسألناه؟ فقال: أصابتني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز (1).
ورأت هذه الآية الكريم في ذكر جامع المشركون من قريش في مكة، لما استباسوا من جدال الرسول ﷺ والحديث معه ليكف عن شتم آهتتهم وتسفيه أحلامهم، ولما لم يجدوا في محصلاتهم ما يمكن أن يردوا به على الرسول سواء أكان لقائهم فرادى أو جماعات، ولما لم يعد لديهم من الخيل والخيل والكذب على الرسول ما ينطلي على الساعمين أو المشاهدين، ولما وجدوا أن عدهم يقل، وجامعة المسلمين تنامى وتكرر، وبعد أن كان الأمر مقصورًا على ضعفيتهم، ومواليهم وعبيدهم، وقد أخذوا على أيديهم بشدة تطرق الأمر إلى دخول العديد من عيلة القوم في الإسلام. راجعوا أبا طالب شيخ بنى هاشم وقتها في أمر النبي ﷺ. راجعوا بأن يكف ابن أخيه الأذى عنهم وعن آبائهم (بادعائهم). ولم يقتعنوا أن يتابعوا فتخضع لهم العرب، ويدفع العجم الجزية لهم.

كما هدمهم إلى عرض مطالبهم المعروفة، والتي وردت في كتاب الحديث وفي اليسر، بأن عرضوا عليه الملك فيحكم في رقابهم، والمال ليصبح أغناهم، والنساء فيزوجوهن أجمل نسائهم مقارنة بالمرأة الخالية خديجة التي تقدم بها العمر. وربما يكون هذا العرض بعد وفاة خديجة رضي الله عنها؛ إذ إنها توفيت وأبو طالب في عام واحد (عمر الحزن). وأن يلتسموا لهم الطب إن كان هذا الأمر يأتيه من الجن - على طريق الكهانة ذكرت هذه القضايا ولكن المغريات كانت أكثر من هذا بكثير.

وكان جواب الرسول ﷺ قولاً واحداً ((والله يا عم لم وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمال على أن أدع هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه)). وكان جواب أبي طالب: أذهب يا بن أخي إلى ما أنت فيه، والله لن أدعك لسوء.
وتكررت قضية حسبهم إلا وهي أن نزل القرآن على بني هاشم، وفي مكة وغيرها من المستحقيين كثير، ولذلك قالوا: "لولا نزل هذا القرآن على رجل من آل قريظين عظيم (الزخرف) مكة أو الطائف - كما ورد في فصل القرآن.
وفي هذه الآية الكريمة "أُنزِل على آله التَّزك من بنيتَنَا" يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإيال القرآن عليه من بينهم واختيار الله تعالى من بين كبار القوم وساداتهم وقادتهم كما قال تعالى: "أَهْمُر يُقِيمُون رَحَّمْتَ رَبِّكْ عَلَى قَسَمَتَا بَيْنَهُمْ مَعِيسَتَهُمْ في النَّحْوَة الْأَدْنَى وَرَفُعَتَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرُّجَتَيْنِ" (الزخرف: 33).
ولذلك كانوا يستبعدون نزول القرآن على محمد ﷺ، ويؤكد أن يختص واحد من عظمائهم وكبرائهم بهذا الشرف الذي يقوله محمد ﷺ، قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم في استبعادهم إزالة القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: "لَبَّلَّمَا يَذْوَقُوا عَذَابًا" أي: إذا يقولون لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونعتهم سبحانه غيب ما قالوا، وما كانوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعا.
- الذين كفروا بالذكر

«إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنَّهُ لَكتب عريزٌ [فصل].

ورد تفصيلها في فصل الآيات رقم (18) تحت عنوان: الذين يجدون في آيات الله الذين كفروا بالذكر لما جاءهم. يحسن الرجوع إليها.

- قد أنزل الله إليكم

«أعد الله هم عذابا شديدا فاتقوا الله بما Îلٌ لأُلِّي الَّذين ءامنوا قد نزل الله إليكم ذكرى رسولاً يهديها عليكم إياكم الله صنعته ليسخرج الَّذين ءامنوا وعَيْلاً الصالحة من الظالمين إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنَّة فخري من حيثها آل نساء حتر الدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقًا [الطلاق].

تأثِّر هذه الآيات استكمالا وتتابعا لما سبقها من الآيات في قوله تعالى: وَكَأَنَّ مِنْ قَرْنِةٍ عَتَّبَ عَنْ أَمَّرِيْهَا وَرَسُلِهِ فَخَسَبَتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا وعَدَّتْهَا عَذَابًا نَّكَراً فَذَاقَتْ وَبَالُ أَمْرِهَا وَكَانَ عَنْيَةً أَمْرًا حَسَّا [الطلاق]. وجاء استكمالا لهذا المشهد لتتم العبرة من أخير تلك القرى التي عتبت عن أمرين: أى خرجت عن أواور الله تعالى وما أنزل إلى هذه القرى من الأذى، والكتب والصحف، وكيف أن الله قد حاسبها حسابا شديدا وعذبتها عذابا نكرا. وقد نالت هذه القرى العقاب التي استحققت فذاقت وقيل أنها أسرة وأسر وحشرا. وتيت فيها الآيات (10، 11) على نفس السياق من تصوير الأهوال وشدة العذاب، وهول العقاب، وذلك تخدير وإيذاء لذوى القلب من العباد الذين آمنوا، ومن ثم فإن الله تعالى قد أدرك الوعيد بقوله: أَعِدَّ اللَّهُ هَمًا عَذَابًا شَدِيدًا أي هيا الله لهم عذابا شديدا الوقع والألم لكفرهم وعذبهم ومردهم، وهو عذاب النار.
ثم ذكر الله تعالى العبارة من الإذار والوعيد وهي: حث المؤمنين على التقوى فقال: «فَأَتَقُوا اللَّهَ يَتَأَوَّلُ اللَّهُ لَلَّذِينَ آمَنُوا ۛ وَيَتَأَوَّلُ اللَّهُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۗ وَلَيَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ أَخْفَى ۛ أَيُّهَ الْأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا تَخَافُوا عَدَاءِكُمْ لَا يَجُفُّ عَذَابُنَا فَخَافُوا وَلَا تَفُسُّقُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُثْبِتُ عَلَى الْظَّالِمِينَ» وتقول: فاتقوا الله يا أهل الكتاب، فاتقوا الله يا أولى العقول من هذه الأمة الذين صدقوا بالله ورسوله، وأسلموا لله، واتبعوا رسولهم محمد ﷺ ﷺ، قد أنزل إليكم ذكراً دائماً وهو القرآن العظيم وأرسل إليكم رسولًا بهذا القرآن، فهو الترجان الصادق، وهو الذي يبلغكم وحي الله، وقرأ عليه كلام الله آياته في حال كونها بينة واضحة جلية بينها للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام، ليخرج الله بالآيات والرسول الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من ظلمات الضلال إلى نور الهدى، ومن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ثم أكرهم ورغبهم ببيان جزاء الإيمان والعمل الصالح، فقال: «وَمَنْ يَؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلُهُ جَنَّتَ عَرَايٍ مِّنْ خَيْبَةٍ أَنْتُهُ خَيْبَةٌ فِيهَا أَبْدُأَ ۗ أَنْقُسَآ إِلَى اللَّهِ لَهُ رُزَقًا ۗ أَيُّهَ الْكَافِرُونَۛ» ومن يصدق بالله، ويعمل العمل الصالح، فيجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه. يدخله جنت أي بساتين تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، مااكن فيها أبداً على الدوام، وقد وسع الله رزقه في الجنة... (1)

(1) التفسير المتير. 
10- حساد الكفار

١٠- حساد الكفار

"وَإِن يَكَادُ الْذِّينَ َكَفَرُواْ لِيُلْقُوُنَّ إِلَّا أَنْ يَضْرِبُوهُمْ فَلَمْ َسَيُعْرِفُواْ الْذَّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَجِنْنُونَ وَمَا هُوَ إِلَّا ذَكْرٌ لِلْعَالِمِينَ (القلم)".

حذر الله تعالى نبيه ﷺ من عداوة المشركين فقال: "وَإِن يَكَادُ الْذِّينَ َكَفَرُواْ الآية

أَيْ: إنهم - كما قال الزمخشري - من شدة تخديقهم ونظيرهم إليك شزرا بعيون العذاءة والبغضاء يكادون يلزمون قدمك، أو يهلكونك، وكان هذا لنظر شتاد منهم في حالت قراءة النبي ﷺ القرآن، لشدة كراهيتهم وحسدا على ما أوثى من النبوة، ويقولون: إنه جنون! حيرة في أمره، وتنفiri عنه، وإلا فإنهم قد علموا أنهم أعلقوه. والمعنى: أنهم جنبوه لأجل القرآن.

وقال بعضهم: المراد أنهم يكادون يصيبونك بالعين. روى أن العين كانت في بنى أسد، فكان الرجل منهم يتتجوَّع ثلاثة أيام، فلا يمر به شيء، فيقول فيه: "لم أر كاليوم مثله، إلا عانه، فأريد بعض العابتن على أن يقول في رسول الله ﷺ قبل ذلك، فقال: "لم أر كاليوم رجلا، فعضمه الله."

قال الهروي: "آرَاد لهُ اعْتَنَّونَك بعيونهم، فسُلِّمُونَك عن مقامك الذي أقامكم الله فيه، عداوة لكونك.

ورد ابن قتيبة على ذلك قائلًا: ليس يريد الله أن يصيبونك بأعيانهم، كما يصيب العائين بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم يتظرون إليك إذا قرأت القرآن، نظرًا شديدًا بالعذاءة والبغضاء، يكاد يسقطك ورأى آبًا كثر (١) المعنى: يجدونكه لبغيهم إياك، لولا وقايتك لله ذلك، وحاليته إياك منهم، وفي هذه الآية على رأى البعض - دليل على أن العين إصابتها وتاثيرها حق بأمر الله عزوجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة.

منها ما أخرجه أحمد بن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: "لا عدو ولا طيرة ولا هامة، ولا حسد، والعين حق" أي بإدارة الله.

(١) تفسير القرآن العظيم، وقد توسع في هذا الموضوع ٢٩ / ٤٣٦ - ٤٣٩.
ومنها ما أخرجه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "قد تدخل الرجل العين في العبر، وتدخل الجمل القدر«، وإسناد رجالي كلهم ثقات.

ومنها ما أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: "إن العين لتولع الرجل بإذن الله، فيتصاعد حالقا، ثم يرتدى منه"، وإسناده غريب.

وأما هو إلا ذكر للعليمين أى يقولون عن محمد ﷺ: إنه لمجنون أى مجنى عليه بالقرآن، وما القرآن إلا موعظة وتذكير للجن والإنس، فلا يتحمله إلا من كان أهلا له من العقلاء، وفيه نسبة الجهل إلى من يقول هذا القول. وكيف يجتني من جاء بمثله من الآداب والحكم وأصول كل العلوم والمعارف؟!

قال الحسن البصري: دواء الإصابة بالعين أن يقرأ هذه الآية: "وإن يكاد الذين كفروا الآية" (1) ولقد اشتدت عداوة الكفار للنبي ﷺ، فكانوا إذا سمعوه يقرأ القرآن، نظروا إليه نظرة شديدة ملؤها الحقد والعدواة والبغضاء، حتى تكاد نظراتهم تسقطه وتنزل قدمه، أو تهلكه.

وينسبونه أيضا إلى الجنون إذا رأوه يقرأ القرآن، ومع أن القرآن لا يتحمل إلا من كان أهلا له من العقلاء وهو شرف وتذكير وموعظة للعالمين، شرفوا باتباعه والإيمان به، فهل يعقل أن يكون هذا القرآن آتيبا على يد مجنون. وكيف يجتن من جاء بمثله ..؟ (2)
فصل
متفرقات
1- لسان

وما أرسلنا من رسول إلا يرسان قومه للنبيت هم فتفضل الله من يشاء ويهديك من يشاء وهو العزير الحكيم ( אלוهيم ) [ إبراهيم ].

جرى الحديث عن مقدمات هذه الآية في فصل كتاب ( 49 ) وذلك في فاتحة سورة إبراهيم ( 1، 2، 3 ) بالآية رقم ( 4 ) فقال تعالى : الر حيث أنجل الله

إليك لتخرج الناس من ظلمهم إلى النور بإذن ربه جبص من عذاب شديد الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل الكافرين من عذاب شديد الذين يشجعون الحيزة الدنيا على الأخرة ويدعون على سبيل الله ويستغفرون عوجا أولئك في صقل بعيم وما أرسلنا من رسول إلا يرسان قومه للنبيت هم فتفضل الله من يشاء ويهديك من يشاء وهو العزير الحكيم ( إبراهيم ) [ إبراهيم ].

الحق بمقدمة سورة إبراهيم في كتاب رقم ( 49 ) .

2- بلاغ

هذا بلغ للناس ويلبدروا به ولاعلموا أنما هو إلا جهد وليبدروا أولوا الالتباس ( إبراهيم ) [ إبراهيم ].

في بداية سورة إبراهيم جاء ذكر القرآن : الر حيث أنجل الله إليك لتخرج الناس من ظلمهم إلى النور بإذن ربه جبص من عذاب شديد الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل الكافرين من عذاب شديد الله [ إبراهيم ].

واختتمت السورة بذات الموضوع ، وليس فقط ذكر القرآن بأحد صفاته بلغ.
ولكن للتأكيد على نفس التوجه في بداية السورة وهو إنذار الكافرين مؤكداً على وحدانية الله تعالى، وإن كان لا شريك له ﴿هَنَّادَا بَلَغَ لِلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن بلاغ للناس أي تبليغ في الموطبة، كما قال تعالى ﴿قُلْ أُنفِقْتُمْ أَسْتَحْتَمَّ بِهِ شَهِيدًا مِّنَ اللَّهِ وَحْيًا إِلَيْهِ إِنَّكُمْ لَذُّكَرُونَ﴾ أنَّهُ ﷺ يُوحِي إِلَيْهِ أَقْرَأَهُ، فَالْبَلَاغُ ﷺ أُذِنَهُ لِتَشْهَدُونَ ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ الْيَهُودَةَ أَحْرَى﴾ ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي هُوَ إِلَيْهِ وَجْهٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشَافُرُونَ﴾ (الأئمة) ﴿أَيْ: هُوَ بَلَاغُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنْ إِنِسٍ وَجِنٍّ﴾ ﴿وَلَيْنُذِرُوا بِهِ﴾ أي ليكون منذراً لهم بالعقاب ومحذراً من العذاب، وهو معروف على عذوب، ﴿أَيْ: لَيَتَسَجَّلُوا وَلَيْنُذِرُوا بِهِ التَّبَلَاغِ﴾ ﴿وَلَيْعَلُّوْلَا أَنَّمَا هُوَ إِلَيْهِ وَحْدٌ﴾ ﴿أَيْ: لَيَسِيَّدَلُوا وَبَعْدِهِ فِي هَذِهِ الْحَجَجَةِ وَالدَّالِلَّاتِ﴾ على أنه لا يلتوه إلا هو ﴿وَلَيْنُذِرُوا أُولَٰئِكَ الْأَلَّبِينَ﴾ ﴿أَيْ: لَيَتَسَجَّلُوا وَلَيْنُذِرُوا بِهِ ذَوِّ الْعَقُولِ﴾، أي أن هذا البلاغ ثلاث فوائد وهي: التخويف من عذاب الله، والاستدلال به على وجود الخالق ووحدانيته، والانتظار به وإصلاح شؤون الإنسان. ومن هنا نستخلص:

1- القرآن وما فيه من عظتات تبليغ للناس وعظة، وإنذار وتخويف من عقاب الله عز وجل، ومصدر للمعلم بوحدة الله بما تضمنه من الحجج والبراهين، وموجهة يتعظ بها أصحاب العقول. روى ميام بن ريثان أن هذه الآية ﴿هَنَّادَا بَلَغَ لِلنَّاسِ﴾ نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ. ولكلم بعضهم، وحَلِ كُتَابِ الله ﴿عَنْوَانٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ؛ قَيْلٌ: وَأَيْنَ هُوَ؟ فَقَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى:﴾ ﴿هَنَّادَا بَلَغَ لِلنَّاسِ﴾ ﴿وَلَيْنُذِرُوا بِهِ﴾ إلى آخرها.

2- هذه الآية الأخيرة من السورة دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة إلا بسبب عقده، لأنه تعالى بين أنه إذا أنزل هذه الكتاب، وإما ببعث الرسول لتذكير أول الألباب.

3- أول هذه السورة مقرون ببعضها، ومطابق له في المعنى. فآلهما ﴿لَتَحْرِجُ آلَّاَتَٰسَ مِنْ آَلِ الْيَسِينِ إِلَى آَلِ الْبَيْنَيَّةَ﴾ يدل على أن المقصود من إنزال الكتاب إرشاد.
الحلق كلهما إلى الدين والتقوا ومنعهم عن الكفر والمعصية وآخر السورة:

وَلَيْدَلْكَ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ يُبَّعِدُ عَلَى أَنَّهُمْ تَعَالَ ذِكَرُ هَذِهِ الْمَوَاضِعُ وَالنَّصَائِحُ لِيَتَفَعَّلَ النَّاسُ بِهَا، فِي صِرُورِ مُؤَمِّنِينَ مُطِيعِينَ، وَيُرْكَبَا الْكَفْرُ وَالْمَعْصِيَةُ (١).

٣- صَدِيقٌ

فَمَنْ أَظْلَمْ مَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْبَيَانِ إِذْ جَاءَهُ أَلْبَابُهُ إِنَّ اللَّهَ يَكْبِرُ مِنْ أَلْبَابِ الْكَفَّارِينَ وَالْذِّي جَاءَ بِالْبَيَانِ وَصَدَّقَ بِهَا أَوْلَيْكُمْ هُمَّ الْمَتَّقُونَ

(الزمر).

هاتان الآيتان ضمن مقطع - في سورة الزمر - يأتي تعقيبا على ما قيله. فبعد أن عرض آية الماء النازل من السماء وآية الزرع الذي يخرج بهذل الماء وآية الكتاب النازل من عند الله، وأشار إلى ما يضر به القرآن من الأمثال ولكن أكثرهم لا يعلمن. عقب على هذا بأن أمر النبي ﷺ وأمرهم موكول إلى الله، وأنه هو الذي يحكم بينهم بعد الموت، فيجازى الكاذبين المكذبين بما يستحقون ويجازى الصادقين المصدقين جزاء إلى الإحسان.

فَمَنْ أَظْلَمْ مَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْبَيَانِ إِذْ جَاءَهُ أَلْبَابُهُ إِنَّ اللَّهَ يَكْبِرُ مِنْ أَلْبَابِ الْكَفَّارِينَ (٢).

سؤال للترقير فليس هنالك من هو أظلم من كاذب على الله، فزعم أن له بنات وأنه شريك، وكدف بالصدق الذي جاء به الرسول ﷺ وهو القرآن الذي يدعو إلى توحيد الله تعالى. إنه الكفر وفي جهم مثوى للكافرين على سبيل التقدير الذي يرد في صورة سؤال لزيادة الإيضاح والتوقيف هذا طرف من الخضوع، فأما الطرف الآخر فهو الذي جاء بالصدق من عند الله، وصدق به فبلغه عن عقيدة واقتناع، ويشترك مع رسول الله ﷺ في هذه الصفة كل الرسل قبله كما يشاركه

١ التفسير المثير ١٣ / ٢٧٨ - ٢٨١.
فيها كل من دعا إلى هذا الصدق وهو مقتنع به مؤمن بأنه الحق، يشارك قلبه لسانه فيما يدعو إليه .. "أولئك هم المتقون" .

ويتوسع بعد ذلك في عرض صفة المتقين هؤلاء وما أعد لهم من جزاء:

"هُمَّ هُمَّ مَا يَشَاءُ وَهُمْ ذَالِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ [الزمر]

وهو تعبير جامع، يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب، ويقرر أن ( هم ) عند ربهما فهو حقهم الذي لا يجيب ولا يضع ذالك جزاء المحسنين.

ذلك ليعق الله ما أراده لهم من خير ومن كرامة ومن فضل ومن يزيد على العدل يعاملهم به منفضلا، جلسنا "ليُصرِّفَ الله عِنْهُمْ أَسْوَاهُ الَّذِي عَمِلُوا وَخَرجُهُمْ أَجْرَهُمْ يَأْتِيَهُمْ رَبُّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي صَانَوْا يَعْمَلُونَ [الزمر]

فالعدل ان تحسب الحسنات وتحسب السيئات، ثم يكون الجزاء، والفضل هو هذا الذي ينجلبه الله على عباده المتقين هؤلاء. أن يكره عليهم أسوأ أعمالهم فلا يبقى لها حساب في ميزانهم، وأن يجزيهم أجرهم بحساب الأحسن فيما كانوا يعملون، فتزيد حسناتهم وتعلو وترفع في الميزان.

إنه فضل الله يؤتيه من يشاء. كتبه الله على نفسه بوعده، فهو واقع يطمئن إليه المتقن المحسنون (1).

4- الحق

"فَوَقَلَ الْحَقُّ مِنْ يَكْفِرُ فَمَنْ شَاءَ فَلِيَكْفِرُ وَمَنْ شَاءَ فَلَا يَكْفِرُ إِنَّا أَعْتَدَانَا لِلطَّلَبِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادُوقًا"، وإن يسيطرونُوا بعضاً كأنهم يشكون التوجه يشكون النصر، وسائات مرتتفعة (الكهف).

(1) في ظلال القرآن 24/3050.00/06/05.3
وقل الله ﷺ: "وَقَلِ اللَّهُ ﻣِنْ رَبِّكُمْ يَبْدِئُ الخَطَابَ لِلنَّبِيِّ ﻛَلِّهِ ﷺ، وَقَلِ اللَّهُ ﻣِنْ رَبِّكُمْ "\\(وَقَلِ اللَّهُ ﻣِنْ رَبِّكُمْ يَبْدِئُ الخَطَابَ لِلنَّبِيِّ ﻛَلِّهِ ﷺ، وَقَلِ اللَّهُ ﻣِنْ رَبِّكُمْ "\\)

الحقّ ومنه القرآن الكريم الذي لا شك فيه ولا ميرية ولا كذب - هذا القرآن هو الحقّ البارز ظاهر الذي حملته الملائكة وحفظه الإنس والجناح، وتعهد الله تعالى بحفظه ورعايته، وصدق كل الذين تعاملوا معه صدق الملائكة بنقله إلى السماء الدنيا، وصدق جبريل بنقله إلى محمد ﷺ. وحفظه محمد ﷺ الذي لم يكن في علمه شيء قبله.

ومات الله تعالى: "إِنَّ الْيَوْمَ أُكْمِلَ لَكُم مِّن نِّعْمَاتِنَا وَآتَيْنَاهُمْ عَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ مُّؤْمِنَةً فَارْجِعُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ شَامِئًا نَّهَارًا". (1)

والترجية الثالثة: إعلان جمع الحقّ واضحاً ظاهراً من الله تعالى، حيث لم يبق إلا التهديد والوعيد الشديد على كفرهم، قال الله ﷺ: "وَقَلِ اللَّهُ ﻣِنْ رَبِّكُمْ "\\(وَقَلِ اللَّهُ ﻣِنْ رَبِّكُمْ "\\)

محمد ﷺ من ربك ﷺ (القرآن الكريم) هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك. وهو النظام الأصلح للحياة، فمن شاء آمن به، ومن شاء كفر به، فانها في غنى عنه، ومن عمل صالح فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم يحاسبهم ربك ﷺ على أعمالهم. وفي هذا تهديد ووعيد شديد. ثم ذكر الله تعالى نوع الوعيد على الكفر، والوعيد على العمل الصالح، فقال: وأصفا الأول: "إِنَا أَعَلَدَنَا إِلَى ظُلْمَيْنِ ثَانِيَ أَحَاطَهُمْ سُرَادَقُهَا". أي إذا أرصدنا وهدانا وأعدنا للكافرين بالله ﷺ ورسوله ﷺ وكتابه نار جهنم، الذي أحاط من كل جانب، حتى لا يجدوا مخلصاً منها. أخرج أحمد ﷺ والترمذي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لسرادق النار أربعة جدر كثيف(2) كل جدار مساحة أربعين سنة"، والسرادق: واحد السرادقات التي تمد فوق صحن النار أو السور.

وإن استغفروا بعثاً كالمحلٍّ يشوى اللجوء، أي إن يطلب هؤلاء الكافرون الملائكة الإغاثة والمدد والماء وهم في النار، لإطفاء عطشهم. بسبب حر جهنم، يغاثوا بعسا غليظ كديرد ( عكر ) الزيت، أو كالدم والقه يشوى جلوده.

---

(1) التفسير المنير 15/ ٢٤٣، ٢٤٤.
(2) كتب جمع كيف: وهو الدخين الغليظ.
الوجه من شدة حرته، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شووا. أخرج
الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «الملح كعكر الزيت،
فإذا تربى إلى وجهه، سقطت فروة وجهه فيه». يُبشرُ النفَّارين وسَائِتُ مُرتَفِقَةٌ أي: بس
هذا الشراب شرابهم فما أقبله، فهو لا يزال عطشاً ولا يسكن حرارة، بل يزيد فيها، وساءت جههم مرتفقاً،
أي: وساءت النار منزلاً وجمعاً ووضعاً للارتفاع والانتفاق كما قال تعالى:
إِنَّهَا سَائِتُ مُسْتَفَاقَةٌ وَمُقَامَا (٣٢) [الفقران].

5- من عند الله

قل أرأيت إن سكأن من عند الله لم سمح ولم يصبر من أصلي ممن هو في شقيق
نعبيد ﷺ سريهم على انبيتى في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكفِّر
بربك أنه علِّك شهيد (٥٠) [فصلت]

قل أرأيت إن سكأن من عند الله لم سمح ولم يصبر من أصلي ممن هو، أي: قل أياها رسول
هؤلاء المشرين المكذبين بالقرآن: أخبروني عن حالكم ما أنتم فاعلون، إن كل
هذا القرآن من عند الله حقاً ثم كذبتم به ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه، أفن تكونون
أعداء للحق والصواب؟ بل لا أحد أصل منكم لما شدده عداوتنكم، وإعانكم في
الكفر والعناد ومجابهة الحق وخلافته (١).

ثم دعاهم إلى التأمل والفكر في الآيات والأنفس فقال: «سُريهم على انبيتى في
الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» أي سنجز لهم دلالات صدق القرآن،
وعلامات كونه من عند الله في أقطار السموات والأرض المشتملة على خلق
الشمس والقمر والنجم، وتعاقب الليل والنهار، وأحداث الكون الرهيبة من
الأعاصير والبراكين والصواعق، وعظمة الجبال والبحار، وإبداع صنع النباتات
والأشجار، وما يحدث في الأرض من فتوحات كبرى على أبدى المسلمين في
أرجاء الأرض المحيدة بعكة وجزيرة العربية، وهذا الإخبار عن الغيب معجزة.
صة كتاب الله في كتاب الله

ويمظهر صدق القرآن، وأنه منزل من عند الله أيضا في خلق أنفس البشر، وما فيها من إبداع الصنعة وعَظمة الترتيب، فإنَّك تتصبرون [الداريات]، وفي مصائر الناس وتبدل أحوال أهل مكة العتاة من سادة متكررين إلى أذلة صغارين كل ذلك يعرفوا من هذه الوقائع والأحداث والخلائق ويتبنوا بجملة أن القرآن ومنزله ومن منزل عليه حق وصدق لا شك فيه.

وإذا لم ينظروا ويتأملوا، فتكفى شهادة الله بأن القرآن حق، فقال تعالى: "أَوَلَمْ يَكُفْ بِرَبِّكَ أَن اسْتَجِيبَ لْهُ عِنْدَكَ شَهِيدٌ؟ أَيَ كَفَى بِاللهِ شاهداً عَلَى أَفعال عِباده وأقوامهم. من الكُفار وغيرهم، وكَفَى به شاهداً على أن القرآن منزل من عده.

أُنْشِدُ أَبي الدَّنيا في كتاب التفكير، والاعتبار عن شيخ أبي جعفر القرشي.

حيث قال وآحسن المقال:

فانظر إليك، ففيك معتبر الدنيا وكل أمره عبر، نتم استقل بشخصيك الكبير، بناه منه البشر والبشر، ينجبه من أن يسلب الخذار وأحقر منه ما له القدر.

حدثنا سعد الأنصاري قال: خطب عمر بن عبد العزيز مرة، فأثنى على الله وحمد ثم قال: أما بعد: أيها الناس، فإني لم أجعلكم لأمر أحدش فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنت إلى حائر، فعلمته أن المصدق بهذا الأمر أحق أي: لأنه لا يعمل له عمل مثله ولا يذمر منه، والذابج به هالك وهذا مفهوم المعنى (1).

6- أنباء

وَلَقَدْ جَاءُهُمُ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرُ حَسَّامَةَ بِبِلَاغَةٍ فَمَا تَغْنُّ النَّدْرُ [القرآن].

(1) تفسير القرآن العظيم 25/113، 114.
وردت الآيتان (4، 5) بعد قوله تعالى: «اقترنَتِ الساعة وانشقَّ القمر»، فإن برَّوْا أَيَّةً يُغَرَّضوا وَقُولُوا بَسْحَرُ مُسْتَمِرٌّ وَصَدَّبْوا وَأَتَبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ وَسَكَّلَ أَمْرُ مُسْتَمِرٍّ» [النور].

اقتراب الساعة وانشقاق القمر... آيتان عظيمتان... والكافرون إن يروا آية يتحوا ويعرضوا، ويخرجوا من أذهانهم تلك المعجزة بانشقاق القمر ويعولون أنه سحر مستمر، أخرج الشيخان والحاكم، واللغز له، عن ابن مسعود قال: رأيت القمر منشق شقيق بمكة، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: سحر القمر، فنزلت: «اقترنَتِ الساعة وانشقَّ القمر».

وأخرج الترمذى عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت: «اقترنَتِ الساعة وانشقَّ القمر».


وهذا رد على المشركين الذين طالبوا بآية، قال المفسرون: لما انشق القمر، قال المشركون: سحننا محمد، فقال الله تعالى: "وإِنْ يُرِوْا أَيَّةً يُعْلَمُوهُمْ وَصَلَّى أَمْرُ مُسْتَمِرٍّ" أي كذبوا بالحق لما جاءهم واتبعوا ما أمره عليه أهواءهم وآرواهم في أن محمد صلى الله عليه وسلم ساحر أو كاهن بسبب جهلهم وسخافة عقولهم.

ثم ونجهم الله على إصدارهم على الكفر وعلى ضلالهم فقال: "وَلَقَدْ جَآءُهُمْ"
7- سحر

فقال إن هندًا إلا صحر يُبزُرُّ إن هندًا إلا قولُ البشرِ ِسَأَصْلِيهٍ سَقَرَ.

المدثر.

الحديث هنا كله يدور حول مواقف للوليد بن المغيرة، الذي ورد ذكره في آيات أخرى، دون أن يذكر اسمه بل ذكرت صفاته وأخلاقه، وتكبره وتهجه، وكما ذكر فروع في مواقف الجبروت والتطاول والكفر في القرآن أكثر من مرة. وكذلك الولد بن المغيرة، الذي تكرر ذكره. وهنا يبدأ الذكر في أول سورة من سور القرآن أو ثانياً أو ثالثاً على الأقل بين بروز هذا الطاغوت مبكراً بعائد الدعوة الإسلامية ويحيرها ويفقد مجاله وولدته عائلاً في وجه تقدمها في مكة، ومن عجائب صنع الله أن يكون خالد ابنه، الذي ساق الله النصر على يديه من إسلامه حتى اختياره الله لجواره.

(1) التفسير المثير 27 / 144 فما بعدها بثصرف.
فالويلد .. والعزي سبق ذكره يأتي بمواصفات متناقضة ، لكنه لم يؤمن ، ولم يرتد عن غيٍ القصيرة من أهلها ليبن فضل الله تعالى عليه ، حيث خلق وحيدا ، واممه الله بالمال والولد ، وجعل له الريادة والقيادة - فكان لبني غزوم وهو قائدهم ("القبة والأعتبة") القبة التي تستضيف جميع السلاح عندما تنذر فريق حربا ، والأعتبة : وهي قيادة الفرسان في المعارك . وهنا نقفي على موقف واحد من موقف إعادة هذا الدين ومحمد - ففي إجماع المفسرين المتصور هنا هو الوليد بن المغيرة ، ومن هذه المواقف .. قول الله تعالى: "كَالَّذِينَ كَانَ لَا يُبِينُنَّا عِبَادَتَهُمْ وَقِيلَ تَمَّ الْقَتْلُ كَيْفَ قَدَّرْتُمْ أَنَّ فَيْضَاءَ يُسْرًى وَبَسْرًى " .

فقال إن هنداً إلا سحر يترشى . أي ثم أعاد النظر والترؤى والتأمل في الطعن بالقرآن ، ثم قطب وجهه لما لم يجد مطعنا يطعن به القرآن ، وكلح وجهه وتغير وأظهر الكراهية ، ثم أعرض عن الإمام ، وانصرف عن الحق ، وتكبر عن الانتقاد للقرآن فقال : ما هذا إلا سحر ينقل ويتعكي ، نقله محمد عن غيره من قبله وحكاف ورواих عنهم ، فلعي بكلام الله ، بل هو كلام البشر والإنس . وهذا دليل على أنه كان متناقضًا فيما اختلقه لقناعته الذاتية فقد كان يقلبه مصدقًا للنبي ، ولننهي أنكره عنادا .

روى العوفي عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر فسأله عن القرآن ، فلما أخبر وخرج على قريش فقال : يا عجبأ لم يقول ابن أبي كبشة ، فو الله ما هو سحر ولا بذل من الخنون ، وإن قوله لم كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش ، انتمروا وقالوا : لن صبابا الوليد ، لتصيب قريش . فلمما سمع ذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله كفيك شأنه ، فانطلق ، حتى دخل عليه مبته ، فقال للوليد : ألم تر إلى قومك ، قد جعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألاست أكثرهم مالا وولدا ؟ فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إذا تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طاعته ، فقال الوليد : أنت تحثه به عشيرتي !! فلا ، والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ، ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر فنزل الله تعالى رسوله : " ذَرْنَ عِنْدَكُمْ خَلْقَتْ وَجِيدًا " إلى قوله : "لا تنقي ولا تترد" ، لا الوليد برسول الله وهو يقرأ سورة السجدة : فرجع إلى قومه وقال لبني غزوم : والله لقد سمعت أنفا من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ، ولا
من كلام الجن، إنه له خلاوة، وإن عليه طلاق، وإن أعلاه ضمر، وإن أسفله
لمغد، إنه يعلم ولا يعلم عليه. فأنزل الله تعالى: «فَقُلْ كَيْفَ قَدْرُ أَنْتُ‌» (١)

8- بيئة

لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكيٴين حتى تأتيهم البيتنة
رسول مَنْ أَنْبَأَهُ بِالْحَكِيمَةِ وَأَنْبَأَهُ بِالْغَفِرَةِ وَهُمْ تَأْتِيُّهُم بِالْجَهَةِ الْأُلُّور،
إلا من بعيد ما جاءتهم البيتنة.

سميت سورة البيئة لاجتماعها بقوله تعالى: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكيٴين حتى تأتيهم البيتنة» أي مالفقين، ما هم عليه من الكفر، متهين زائرين عن الشرك، حتى تأتيهم الحجة الواضحة، وهي ذلك المنزل الذي يتباهون رسول الله. وتسمى أيضا سورة «البريه».

هذه السورة كالعالة لما قبلها، فكان ذلك ما قال سبحانه: «إِنَّا أَنْزَلْنَهُ لِيُّلَهَّبُ الْأَلْقَارِ» قيل: لم أنزل القرآن؟ فقال: لأنه لم يكن الذين كفروا منفكيٴين عن كفرهم حتى تأتيهم البيئة، فهي كالعالة لإنزل القرآن، المشار إليه في سورة القدر المقدمة. أرسل الله تعالى رسوله محمد ﷺ جمع العاملين من الإنسان والجاهل، وجمع الأمم والشعوب عن عصره والعصور التالية له، ولكل أهل الملل والأديان. حتى أهل الكتاب والمشركين الذين بعدوا عن الدين الصحيح. لذا قال تعالى: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكيٴين حتى تأتيهم البيتنة» أي لم يكن الذين جحدوا رسالة النبي ﷺ وأنكروا نبوته، من اليهود والنصارى وعبدا الأوثان والأصنام من مشركى العرب وغيرهم متهين عما هم عليه من الكفر مفارقين للكفر المؤثر، حتى تأتيهم الحجة الواضحة وهي رسول الله ﷺ والقرآن الكريم. والمراد: إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لم ينتهوا عن كفرهم وشكرهم بالله، حتى يأتيهم الرسول ﷺ وما جاء به من القرآن حتى يبين لهم ضلالاتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإيمان، ثم أوضح المراد بالبيئة فقال:

(1) راجع التفسير الميسر ٢٨/ سورة المذر كلها.
رسولٌ من الله يُتلو صحفًا مطهرةً فيهما كُتِبَ قِيَّمَةٌ (٢٨٨) أي تلك البيئة هي محمدٌ الذي أرسله رحمة للعالمين، يقرأ عليهم ما تضمنت صحف القرآن المطهرة من الخلق والذكرب، والشهبات والكفر، والتحريف واللبس، بل فيها الحق الصريح الذي يبين لأهل الكتاب والمشريدين كل ما يشتهي عليهم من أمر الدين، وفيها الآيات والأحكام المكتوبة المستقيمة المستوية المحكمة، دون زيف عن الحق، وإنما هو صلاح ورشاد، وهدى وحكمه كما قال تعالى: لا يأتيه البطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزل من حكمه جمودٌ (٥١) في صحيفة مَكْرُومَةٍ مَرْفوعةٌ مطهرةٌ (١٦١) بأَبْدَرِ سَفْرَةٍ كِرَامٍ بَرَّةٌ (١٨٦) [عبس].

ثم أبان تفرق الكتابين، فقال: وما تفرق الذين أوتو الكتب إلا من بعد ما جاءهم آليته (٢٨٩) فإن تفرقهم واختلفهم لم يكن لاشتباه الأمر عليهم بل كان بعد وضوح الحق، وظهور الصواب، وجميء الدليل المرشد إلى الدين الحق والبيئة الواضحة وهو محمدٌ الذي جاء بالقرآن موفقا لم في أيديهم من الكتاب بنعه ووصفه، فلما بعث الله محمدًا، تفرقوا في الدين، فآمن به بعضهم وكثر آخرون وكان عليهم أن يتفقوا على طريقة واحدة من أتباع دين الله، ومتابعة الرسول الذي جاءهم من عند الله مصدقًا لما معهم. ونظير الآية: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفْرَقُوا وَأَخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ آلِيَتُهُمْ (١٦٢) [آل عمران (١)].

9- الذي علم بالقلم

آقرًا بِآسر زَيْكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الأَنْسِن مِنْ عَلْقٍ آقرًا وَرَبّكَ الَّذِي أَكْرَمَ (٢٨٩)

الذي علم بالقلم علَمَ الإنسان ما لَمْ يَعْلَمُ.

ورد الحديث عن آيات بداية القرآن في الفصل الأول عن القرآن الكريم، يحسن الرجوع إليه من هذا الكتاب.

(1) التفسير المهر ٣٠ / ٣٣٩ - ٣٤٤ بتصرف.
10- تذكرة

«كَلَّا إِنَّهَا تَذَكِّرَةٌ فَأَمَنَّ شَاءَ ذَكَرَهُ مَرْفُوعَةً مَطْهَرَةً» [عبس]

بِأَيْنَى سَفَرَهُ كِرَامَ بَرَزَّةٌ [العن]

هذه الآيات من سورة عبس التي عاتب الله بها الرسول ﷺ لعبوسه في وجه ابن أم مكتوم بسبب انشغاله برؤساء قريش، سري الله عنه بقوله: «كَلَّا» أي لا تفعل مثل ذلك، وعرفه بأن الهدى لا تحتاج لجهود ومحاولات كثيرة، وأن هذا التأديب الذي أوحى إليه به كان لإجلاس الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا، وهذا القرآن مجرد تذكرة لنتبين الغافلين، فمن رغب فيها انعث بها وحفظها وعمل بموجبها، وهي مودعة في صحف شريفة القدر.

وبعد بيان حال القرآن، وأنه كتاب الذكرى والموعظة، ذم الله الإنسان ووجهه على كفران نعم ربه وتكبره وتعاظمه عن قبول هديته الله له، وأنه استحق أعظم أنواع العقاب لأجل ارتكابه أعظم أنواع القياب.

فالقرآن الكريم كتاب تذكرة وموعظة وتبصرة للناس جميعاً، فمن أراد انتظ فالقرآن وانتفع به وعمل بموجهه، وهذا دليل على حرية الاختيار.

- القرآن كتاب جليل عند الله، فهو مثبت موضع في صفح مكرمة عند الله، لما فيها من العلم والحكمة، رفيعة القدر عند الله، مطورة من كل دنس، مصانة عن أن ينالها الكفار، محمولة بأيدي ملاك الله جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، وهم كرام على ربهم، كرام عن المعاصون، يرفعون أنفسهم عنها، مطيعون الله صادقون الله في أعمالهم، كما قال الله تعالى: «إِنَّا نَزَّلْنَاهُ كِرَّمًا فِي كِتَابٍ مَّكْتُونٍ لَا يَمْسَحُهُ إِلَّا الْمُطْهِرُونَ» [المؤمنون] [الواقعة]

- للإنسان حيث كفر بالقرآن، وما أظلمه حيث أنكر البعث والنشور، فالتقى عليه إعداده كما قدر على بدء خلقه، فإنه خلقه من ماء يسر مهين، ثم جعله مبر بأطوار بعد كونه نطفة، إلى وقت إنشائه خلقا آخر.

وأخلاص من كونه ذكرى أمن أنتى، أو شقيا أو سعيدا، حسنا أو دميما، قصيرا أو طويلا. كيف يليق به التكبر والتجلب عن أوان الاله، ثم يسر له سلوك طريق الخير والشر: أي بين له ذلك كما قال: «إِنَا هُدِيْتِيْنَ أَلْسِنَيْل» [الإنسان 3] وقال:
ثم جعل له قبراً يوارى فيه إكراماً له، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض، تأكله الطير والسحاب، وهذا دليل على أن الله سبحانه أمر بدفن الأموات الإنسية تكرمة لهم، سواء أكانوا مؤمنين أم كفاراً دون أن يطرحوا على وجه الأرض طعمة للسحاب، كسائر الحيوانات. ثم إذا شاء الله أنشره أي أحياء بعد موته (1).

(1) التفسير المثير 30 / 63 - 69 بتصرف.
فصل
المصادر والمراجع
المصادر والمراجع

القرآن الكريم

التفاسير:

1- التفسير المثير: أ.د. وهبة الزحيلي، دار الفكر - دمشق.

2- تفسير الطبرى: جامع البيان في تأويل آية القرآن: محمد بن جرير الطبرى.

3- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير الدمشقي، طبعة دار طيبة، الرياض، السعودية، 1418 هـ - 1997 م.

4- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير الدمشقي، طبعة دار ابن حزم 2000 م.

5- الجامع لأحكام القرآن: محمد بن علي القرطبي.

6- تفسير الزراز: الرازي.

7- تفسير التحرير والتأويل: محمد الطاهر بن عاشور.

8- روح المعاني: محمد بن شكري الآلوسي: (تفسير الآلوسي).

9- تناسق الدور في تناسب السور: السيوطي، دار الكتاب العربي.

10- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق.

11- مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو الفضل الطبرسي.

12- غريب القرآن: ابن الحسن القمي النيسابوري.

13- البيان في أقسام القرآن: ابن قيم الجوزية، دار الفكر.

14- أحكام القرآن: أبو بكر ابن العربي.

15- مدارك التنزيل وحقائق التأويل: عبد الله بن أحمد النسفي (تفسير النسفي).

16- فتح القدر: محمد بن علي الشوكاني.

17- تونير الأذهان: الشيخ إسماعيل حقي البروسوی.
28 - مفصل آيات القرآن: عبد الصبور شاهين.

29 - إعراب القرآن الكريم: حمدي الدين درويش.

30 - تفسير الخازن.

31 - أسباب النزول: الواحد.

كتب الحديث النبوي الشريف:

1 - صحيح الإمام البخاري ماجاهة السندي.

2 - صحيح الإمام مسلم.

3 - موارد الظلمان إلى زوائد ابن حبان: علي بن أبي بكر الهيثمي.

4 - سنن الترمذي.

5 - سنن أبي داود.

6 - سنن النسائي.

7 - سنن ابن ماجه.

8 - مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل.

9 - السنن الكبرى: أحمد بن حسن البهقي.

10 - المعجم الكبير، المعجم الأوسط، المعجم الصغير: أبو القاسم الطبراني.

11 - سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني.

12 - جامع الأصول: ابن الأثير الجزري.

13 - كنز العمال: علاء الدين الهندي البرهان فورى.

المعاجم:

1 - معجم كلمات الله العظيم: محمد عدنان سالم، محمد وهبي سليمان.

2 - المعجم المفهرس للفظ القرآن: محمد فؤاد عبد الباقى.

3 - تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني.

4 - لسان العرب: ابن منظور - تصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب.
كتاب أخرى:
1- الإصابة في تميز الصحابة: ابن حجر العسقلاني.
2- سيرة ابن هشام: ابن هشام.
3- زاد المunds في هدى خير العباد: ابن قيم الجوزية.
4- الرحيق المخوم: المباركفوري.
5- الطبقات الكبرى: ابن سعد.
6- مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح.

كتاب للمؤلف:
1- نساء في حياة الأنبياء.
2- نساء في حياة نساء الأنبياء.
3- الدعوة في العشيرة الأقربين.
4- كنتم خير أمة أخرجت للناس.